الرسائل الأدبيّة
(النثرية) في القرن الرابع
العراق و المشرق الإسلامي

أطروحة تقدَّم بها

غانم جواد رضا الحسن

إلى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد وهي جزء من
متطلبات نيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية و آدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور

يونس احمد السامرائي

1425هـ 2005 م

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربَّنَا ءَاتِنا منْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

وَهَيّئ لَنَا مِن أَمرِنَا رَشَدَا)

صدق الله العلي العظيم

سورة الكهف (10)

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة ، أنّنا اطلعنا على أطروحة الطالب (غانم جواد رضا الحسن) الموسومة بـ(**الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع – العراق و المشرق الإسلامي –**) . وناقشناه في محتوياتها ، و في ما له علاقة بها، وهي جديرة بالقبول بدرجة ( ) لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية و آدابها .

التوقيع :
الاسم : أ.د.احمد مطلوب
رئيساً

التوقيع :
الاسم : أ.د.يونس أحمد السامرائي
المشرف / عضواً

التوقيع :
الاسم : أ.د.حبيب القيسي
عضواً

التوقيع :
الاسم : أ.د.فائز طه عمر
عضواً

التوقيع :
الاسم : أ.م.د. نجم مجيد علي
عضواً

التوقيع :
الاسم :أ.م.د.كاظم طلال حميد
عضواً

التاريخ : / / 2005 م

التوقيع :
الاسم :أ.د.صالح فليح حسن
عميد كلية الآداب/جامعة بغداد

إقرار المشرف

أشهد أَنَّ إعداد هذه الأطروحة جرى تحت إشرافي في كلية الآداب/ جامعة بغداد ، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية و آدابها .

التوقيع :

المشرف : الأستاذ الدكتور

يونس أحمد السامرائي

/ /2005 م

بناء على التوصيات المتوافرة ، أرشح هذه الأطروحة للمناقشة .

التوقيع :

الاسم : الأستاذ الدكتور

فائز طه عمر

رئيس قسم اللغة العربية

/ / 2005 م

- الفهرست -

الموضوع	الصفحة
• المقدمة	أ- ش
• التمهيد : الأحوال العامة و أثرها في الرسائل الأدبية	1-34
(أولاً) الحالة السياسية في القرن الرابع و أثرها في الرسائل :	2-9
- تسلّط الأتراك على مقاليد الحكم و ضعف الخلافة :	3-6
- تجزؤ الدولة الإسلامية ، و ظهور الإمارات المستقلة :	6-9
(ثانيا) الحالة الاجتماعية و الاقتصادية و أثرها في الرسائل الأدبية :	10-21
- ظاهرة التسول أو الكدية :	17-18
- ظاهرة التلصّص و السطو على أموال الناس :	18-19
- تفشي ظاهرة الخلاعة و المجون :	19-21
(ثالثا) الحالة الثقافية في القرن الرابع و أثرها في الرسائل الأدبية :	21-34
- أهم العوامل التي هيّأت لازدهار الثقافة و خصب الحياة العقلية :	24-34
• الفصل الأول : ضياع الرسائل الأدبية و انتحالها و مجاميع الرسائل وتوثيقها في القرن الرابع :	35-121
- توطئة :	35-39
• المبحث الأول : ضياع الرسائل الأدبية في القرن الربع : مظاهره و أسبابه	40-69
- مظاهر ضياع الرسائل في هذا القرن :	43-56
- أسباب ضياع الرسائل في هذا القرن :	56-69
• المبحث الثاني : الانتحال و التزوير في الرسائل الأدبية :	70-53
• المبحث الثالث : مجاميع الرسائل الأدبية و توثيقها في القرن الرابع :	86-121
- توطئة : نشاط حركة التدوين و جمع النتاج الأدبي في هذا القرن :	86-92
- مجاميع الرسائل التي وصلت إلينا و توثيقها :	92-121
- رسائل آبي إسحاق الصابي :	96-100
- رسائل الصابي و الشريف الرضي :	100-103
- مجموع رسائل الصاحب بن عباد :	103-107

- رسائل أبي بكر الخوارزمي :	107-108
- مجموع رسائل بديع الزمان الهمذاني :	108-111
- مجموع رسائل قابوس بن وشمكير :	111-116
- المستخرج من مجموع رسائل أبي الفضل الميكالي :	116-118
- مجاميع رسائل مخطوطة :	118-121
• الفصل الثاني : ازدهار الرسائل الأدبية و طبقات الكتّاب :	122-190
• المبحث الأول :شيوع الرسائل الأدبية وازدهارها واسباب ذلك :	122-151
- (أولا) : شيوع الرسائل الأدبية و ازدهارها :	122-130
- (ثانيا) أسباب ازدهار الرسائل الأدبية :	131-151
• المبحث الثاني : طبقات كتّاب الرسائل الأدبية في القرن الرابع :	152-190
- (أولا) طبقة الأمراء و الوزراء :	154-170
- (ثانيا) طبقة كتّاب الدواوين :	170-177
- (ثالثا) طبقة الكتّاب الجوالين المتكسبين :	177-190
• الفصل الثالث : مصادر ثقافة الكتاب و أصول الرسائل الأدبية :	191-277
- توطئة : أصول الرسائل الأدبية في القرن الرابع:	191-194
• المبحث الأول : الثقافة العربية الإسلامية و استلهامها في الرسائل :	195-237
- (أولا) : تضمين الشعر و حلّه في الرسائل الأدبية :	198-208
- (ثانيا) : الاقتباس من القرآن الكريم :	208-220
- (ثالثا) : تضمين الأمثال و الإشارة إلى الحكاية الشعبية :	220-229
- (رابعا) : الإشارة إلى الإحداث التاريخية :	229-237
• المبحث الثاني : الثقافة الأجنبية في الرسائل الأدبية :	238-277
- (أولا) : أصول الثقافة اليونانية :	238-261
- (ثانيا) : أصول الثقافة الفارسية و الهندية :	261-277
• الفصل الرابع : موضوعات الرسائل الأدبية في القرن الرابع :	278-385
- توطئة : مفهوم الرسائل الأدبية و أهم ألوانها :	278-284
• المبحث الأول : الرسائل الاخوانية في القرن الرابع:	285-329

- حدُّها و أهمُّ أغراضها :	289-285
- (أولا) الشكوى و الاستعطاف :	298-289
- (ثانيا) العتاب و اللوم :	302-298
- (ثالثا) التعازي و المواساة :	310-302
- (رابعا) التهاني :	315-311
- (خامسا) الاعتذار :	319-315
- (سادسا) الثناء و الشكر و الحث على المواصلة :	323-320
- (سابعا) الاستزارة و الأشواق :	326-324
- (ثامنا) التوصية و طلب الشفاعة :	329-326
المبحث الثاني : الرسائل الوصفية في القرن الرابع :	357-330
- مفهوم الرسائل الوصفية و أهمُّ موضوعاتها :	335-330
1) وصف الرسائل أو الكتب المتبادلة :	338-335
2) وصف المنظوم و المنثور :	342-338
3) وصف الشخصيات :	348-342
4) وصف مظاهر الطبيعة المختلفة :	357-348
• المبحث الثالث : الرسائل الهزْلية و المفاكهات الأدبية :	385-358
- عوامل ازدهارها و شيوعها في هذا القرن :	368-358
- رسائل المداعبة و التفكه :	372-368
- التندر ببعض الظواهر الاجتماعية :	378-372
- التهكم و السخرية اللاذعة :	385-379
• الفصل الخامس : الخصائص الفنية و الأسلوبية للرسائل الأدبية :	559-386
- توطئة : أ) المناهج العلمية المتبعة في الدراسة :	389-386
ب) ابرز الملامح العامة للنثر الفني في القرن الرابع :	392-389
• المبحث الأول : الخصائص البنائية و الشكلية للرسائل الأدبية :	470-393
- قضية الشكل و المضمون في العمل الأدبي :	396-393
- (أولا) الخصائص البنائية :	399-396

- الرسائل الأدبية القصيرة و الطويلة :	399-401
- الاستهلال في الرسائل ، أنواع الاستهلال :	402-411
- عرض الرسالة و حسن الانتقال :	412-414
- الخاتمة أو الانتهاء ، أنواع الخواتيم في الرسائل :	415-425
- (ثانيا) : الخصائص الشكلية :	425-470
- الألفاظ ولغة الرسائل الأدبية :	425-433
- التراكيب :	433-437
- الموسيقى و الإيقاع :	437-440
- أهم الأساليب لتحقيق الإيقاع :	440-441
▪ السجع :	441-449
▪ الازدواج :	449-454
▪ الموازنة :	454-458
▪ التجنيس :	458-470
• المبحث الثاني : خصائص المحتوى أو المضمون :	471
- توطئة :	471-473
- المحور الأول : المعاني و الأفكار :	473-512
- أهمية المعنى في العمل الأدبي و أهم ملامحه الفنية :	473-476
1) الإبانة و الوضوح :	476-477
• الطباق أو التضاد :	477-482
• الإيضاح بعد الإبهام :	482-484
• المبالغة و الغلو :	484-487
2) الإفاضة و الاستقصاء في المعاني :	487-488
• الترادف :	488-492
• التكرار :	492-498
• الاعتراض :	498-503
3) الابتكار و التجديد في المعاني :	503-504

– دواعي الابتكار و أسبابه :	507-504
– ضربا المعاني المبتكرة :	512-507
– المحور الثاني : الأخيلة و الصور :	543-512
– أهمية الخيال ، مصطلح الخيال و تطور مدلوله :	516-514
– الصورة الفنية و صلتها بالخيال :	520-516
– أساليب بناء الصورة في الرسائل الأدبية :	522-520
– تصوير المحسوسات و المعنويات في الرسائل الأدبية :	528-523
– الصور البلاغية (الفنية) : أنواعها و أساليبها :	543-528
• التشبيه و دلالته الفنية :	535-529
• المجاز الاستعاري و دلالته الفنية :	540-535
• الكناية أو الإرداف و دلالتها الفنية :	543-540
– المحور الثالث : العاطفة الأدبية أو الانفعال :	559-543
– أهمية العاطفة أو الانفعال في العمل الأدبي :	546-543
– الانفعالات الحسية و المعنوية :	554-546
– مقومات عنصر العاطفة و قيمتها في الرسائل الأدبية :	555-554
• صدق الانفعالات و المشاعر :	556-555
• قوة الانفعالات و ثباتها في العمل الأدبي :	557-556
• تنوع الانفعالات و سموّها في العمل الأدبي :	559-557
• خاتمة : خلاصة البحث و أهمُّ النتائج :	568-560
• فهرست المصادر والمراجع :	595-569
• الخلاصة بالانكليزية :	590-565

• الرسائل الادبية (النثرية)

في القرن الرابع

*المقدمة .... – العراق و المشرق لاسلامي –

* التمهيد : الاحوال السياسية و الاجتماعية و الثقافية و اثرها في الرسائل الادبية .

* الفصل الاول : ضياع الرسائل و انتحالها ، و مجاميع الرسائل الادبية و توثيقها .

– المبحث الاول : ضياع المصادر الادبية في هذا القرن .. مظاهره و اسبابه ..

– المبحث الثاني : الانتحال (الوضع الفني) في الرسائل الادبية في هذا القرن

– المبحث الثالث : مجاميع الرسائل الادبية و توثيقهغا في القرن الرابع .

- الفصل الثاني : ازدهار الرسائل الادبية ، و طبقات الكتاب في القرن الرابع :

– المبحث الاول : ازدهار الرسائل الادبية في القرن الرابع و سباب ذلك .

– المبحث الثاني : طبقات كتاب رسائل الادبية و اثرهم في ازدهار الكتابة ..

- الفصل الثالث : مصادر ثقافة الكتاب ، و اصول الرسائل الادبية في القرن الرابع :

– المبحث الاول : الثقافة العربية الاسلامية و استلهامها في الرسائل الادبية ..

– المبحث الثاني : الثقافة الاجنبية و اثرها في الرسائل الادبية ..

- الفصل الرابع : موضوعات الرسائل الادبية و اغراضها في القرن الرابع :

– المبحث الاول : الرسائل الاخوانية في القرن لرابع .

– المبحث الثاني : الرسائل الوصفية في هذا القرن .

– المبحث الثالث : الرسائل الهزلية و المفاكهات الادبية في القرن الرابع

- الفصل الخامس : الخصائص الفنية و الاسلوبي للرسائل الادبية في القرن الرابع :

– المبحث الاول : الخصائص البنائية و الشكلية للرسائل الادبية في هذا القرن

– المبحث الثاني : خصائص المحتوى و المضمون للرسائل الادبية في القرن الرابع .

- الخاتمة : خلاصة البحث و اهم نتائج الدراسة .
- المصادر و المراجع :
- الملخص بالانكليزية :

المقدمة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا)

الحمد لله تعالى الذي دان لعظمته كلُّ شيء ، وذلَّ لقدرته و سطوته كلُّ شيء ، و الصلاة و السلام على رسوله محمد الأمين ، خاتم النبيين ، المرسل بالنور المبين ، و الكتاب المستبين ، وعلى آله الطاهرين ، وسلّم تسليماً كثيرا ..

أمّا بعد ، فلقد تبّوأ النثر الفني في القرن الرابع مكانة رفيعة سامية ، إذْ بلغ شأواً بعيداً من الجودة و الغزارة و التنوع حتى طفق يداني فنَّ الشعر ، و يسابقه في أغراضه و خصائصه ، ووقف فنّاً شامخا يصوّر آفاق الحياة المختلفة ، و يعبّر عن نوازع الأدباء الكتّاب في شتى الأمور ، إذْ إنَّ النثر الفني – بحكم طبيعته الخاصة – أكثر من الشعر مرونة و طواعية في حمل الأفكار على تنوعها ، و التعبير عن المعاني على اختلافها ، و التي قد يعجز الشعر أحياناً في التعبير عنها.

وفي هذا القرن – الذي يُعُّد بحق أزهى عصور الإسلام حضارة و ثقافة – أيضاً ، أصبح للرسائل الأدبية بخاصة ، القدح المعلى على سائر الأجناس الأدبية الأخرى ، بما هيّأ لها جهابذة الكتّاب من لمسات فنية ساحرة ، تجلَّتْ في رقة الألفاظ وتواؤمها في الجرس ، و ائتلافها في تراكيب لغوية رصينة ، ضمّت أقداراً موسيقية متناغمة ، إلى جانب ما عرفوا به من قدرة عالية في تفتيق أكمام المعاني الجديدة ، فضلاً عن براعتهم الفائقة في الوصف و تحليل أدقّ المعاني والأفكار ، و تصوير أرقّ المشاعر الإنسانية ، و تجسيد النوازع الوجدانية بكلّ عمق ووضوح ، بما أُتيح لكثير من أولئك الكتّاب البلغاء من ثقافة واسعة متنوعة ، و بلاغة ثاقبة نادرة فضلا عن امتلاكهم ناصية اللغة و البيان ..

المقدمة:

وهكذا أصبحت صناعة الترسل في هذا القرن – كما ذكر القلقشندي – "لا تلتفت الملوك إلاّ إليها ، ولا تعّول في المهمات إلاّ عليها ، يعظّمون أصحابها ، و يقرّبون كتّابها ، فحليفها أبداً خليق بالتقديم ، جدير بالتبجيل... " [1].

وهكذا شهد هذا القرن بزوغ نجم هؤلاء الكتّاب الأفذاذ الذين قادوا حركة التطور الأدبي ، و استطاعوا بملكاتهم الفنية المتميّزة ، أن يعبّروا عن تلك النهضة الأدبية الرائدة ، و يرسموا أبعادها و يخلّدوا نتائجها .

لقد كانت شخصيات أولئك الكتّاب الأفذاذ ، كأبي حيّان ، و الصابي و الرضيّ والوزير المهلبّي و أضرابهم في بغداد ، وأبي الفضل ابن العميد ، و الصاحب والخوارزميّ ، والهمذانيّ ، و الأمير قابوس ، و الميكالي ، و أضرابهم في أقاليم المشرق الإسلامي ، اكبر الشخصيات الأدبية التي أثرت الحياة الأدبية ، وأوقدت وميض حركة تطور واضحة في النثر العربي ، ظل صداها مشّعاً في الأدب العربيّ إلى يومنا هذا .

ولعل هذه الحقيقة الناصعة تقف في مقدمة الدوافع التي حفزتنا على اقتحام هذا الموضوع المتشعب و الخوض في دراسته ، فكان هذا البحث الذي أقدّمه لقرّاء العربية ، وفضلاً عن ذلك ، فإن أغلب البحوث و الدراسات الأدبية التي انصَّبتْ على دراسة النثر الفنّي في هذا القرن – على سموّ موقعها ، وجلال قدرها – لم تعن كثيراً بنصوص الرسائل الأدبية ، و إنما أفاضت في دراسة تراجم الكتّاب ، ووقفتْ عند أشهر نتاجهم الأدبي ، و قد اكتفتْ ، غالبا ، بالإشارة إلى بعض تلك النصوص الأدبية الشهيرة ، أو أحالتْ لدراستها ، أو حثَّت على الوقوف عليها ، و الولوج إلى عوالمها الفنية الزاخرة ...

* * *

أما ميزةُ هذا البحث فتتجلّى في الطريقة التي سلكها ، وفي الغاية التي يهدف إليها ..

---

[1] صبح الأعشى في صناعة الانشا : 1 / 6 .

المقدمة:

أمّا طريقة البحث فهي ذات طابع علمّي ترتكز أساساً على الوصف و التحليل ، و تنتهج الاستقراء و المقارنة و الاستنتاج ، أي أنّها تقوم على تتبع الخصائص الفنية لفصول الرسائل الأدبية ، كما تقوم على التعليل لها ، و الحكم عليها ، حكماً لم يشبْهُ أدنى تحامل عليها ، أو تعصب لها ، نزوعاً إلى البحث العلميّ الصادق الرزين .

كما ترتكز هذه الدراسة أيضاً على الوقوف على المصادر القديمة التي عاصرت موضوع البحث ، أو القريبة منه ، فضلاً عن المراجع العلمية الرصينة التي أضاءت السبيل إلى شتات تلك الرسائل الأدبية ، مع الحرص على دقة الاستنباط ، في حيدة تامة ، بعيداً عن الأهواء الشخصية و النزعات الذاتية الضّيقة.

وطبقاً لهذا المنزع في البحث ، فإننا غالباً ما نورد الآراء المتباينة ، أو الاتجاهات المتعارضة في مكانها المناسب ، وكثيراً ما يستوقفنا بعضها ، فنبيّن قيمتها أو دقتها ، وقد نوحي أحياناً برأينا معقّبين أو محلّلين ، وقد نكتفي أحياناً أخرى بعرض تلك الآراء ، دون التعقيب عليها ، ليحيط بها القارئ ، و ليختار أيها شاء ..

و أما الغاية التي توخاها الباحث ، فهي بلوغ الحقيقة التي هي ضالة كلّ بحث علمّي قويم ، أيّا كانت تلك الحقيقة ، من غير أن نجعل من الرسائل الأدبية التي ندرسها ، أو كتّابها الذين نقف عند تحليل شخصياتهم و أساليبهم ، نماذج مثاليّة ، أو نضفي عليهم بحقّ أو من غير حقّ ، مزايا مصطنعة ، أو ثناءً متكلّفا ، يطمس معالم الحقيقة التي ننشدها .

* * *

و نظراً لخصب نصوص الرسائل الأدبية ، و حيويتها وثراء مضامينها في هذا القرن ، ولِما تميّزت به أيضاً من نضج التجربة ، وثراء الصياغة ، و الحرص الدائب على التجديد في المعاني ، و الابتكار في صور الخيال ، فقد تحتَّم على الباحث أن يفيد من أكثر من منهج نقدي ، و أن يستثمر أقرب النظريات لاستجلاء ما في تلك النصوص من قيم جمالية ، و مزايا فنية ..

المقدمة:

لقد أفاد الباحث أولاً مما طرحه المنهج التاريخي (الاسترادادي) – إلى جانب مناهج علمية أخرى – فاعتمدناه في كتابة بعض فصول هذه الدراسة ومباحثها ، إذ إنَّ جميع ملابسات الزمان و المكان (البيئة) ، و الأحوال العامة للمجتمع ، و تداعياتها المتباينة ، فضلاً عن المؤثرات الحضارية الطارئة ، كلّها وشائج عميقة انعكست على حياة الأدباء الكتّاب وغيرهم في هذا القرن ، وكان لها تأثيرها المباشر و الفاعل في نتاجهم الأدبي .

لقد أفاد البحث مما طرحه المنهج التاريخي في التوثق من صحة النصوص الأدبية ، و الحكم عليها ، ليتجنّب ما قد يقع فيه من مزالق ، وليطمئنّ على ما يصدره من أحكام نقدية عليها ، كما أفاد من أسس هذا المنهج العلميّ أيضاً في البحث عن الوثائق ، (نصوص الرسائل الأدبية) ، وعن مقدارها و مظانها ، إذْ إنَّ تلك الوثائق الأدبية هي أساس منطلق الباحث العلميّ في رصد أيّة ظاهرة أدبية ، و دراستها أو تحليلها ..

وقد حاول الباحث – وفقاً لقواعد هذا المنهج و مبادئه أيضاً – بعدَ جمع تلك الوثائق الأدبية و فرزها و ترتيبها تبعاً لأسس فنية و موضوعية ، أن يجري عليها بعض ما يستوجبه النقد الخارجي – وهو ما يعرف بنقد التحصيل – فعمد إلى الاعتماد على النصوص الموثوقة التي قد تمّ استقاؤها من المصدر الأقدم و الأوثق ، فضلاً عن التثبّت من صحة طائفةٍ من الأخبار و الروايات أو الوقائع التاريخية المتصلة بتلك النصوص ..

كما أفاد الباحث أيضاً من (المنهج الفنّي) إذْ إنَّ هذا المنهج يرتبط بالنصوص ، ويعنى بدراستها و تحليلها أكثر مما يهتم بأيّ شيء سواها ، و على هذا فإنَّ تحليل تلك الوثائق الأدبية وفق قواعد هذا المنهج ، سوف تتيح لنا أنْ نتعمّقها من الداخل و نتحسّس ما انطوت عليه من جهد فنّي ، و نستشفّ الشيات والظلال التي خالطتها ، والصور و أفانين الخيال التي مازجتها ، و الأساليب التي طغت عليها ..

على أننّا يمكن أنْ نجوز هذا المنهج الفنّي عند دراسة بعض الومضات الفنية التي تخلّلت نصوص تلك الوثائق الأدبية إلى مناهج نقدية أخرى ، كالمنهج النفسيّ

المقدمة:

مثلا ، و ما أفادهُ من حقائق أو مفاهيم تتعلق بالنفس البشرية ، و تفسير سلوك الإنسان ، أو ما يصدر عنه من أفعال أو انفعالات ، أو انعكاس ذلك كلّه على العمل الأدبي ، إذْ إنَّ كثيراً من الصيغ و خفقات الرؤى أو المعاني الدقيقة ، و غير ذلك مما تخلّل فصول تلك الرسائل ، يمكن اتخاذها مفاتيح مهمة للكشف عن خفايا نفسية أولئك الأدباء ، و يمكن عدّها رموزا نستجلي من وحيها كثيراً مما كان يرين على دخائلهم من أفرح و أتراح ، أو تفاؤل و قنوط ، وما إلى ذلك . على أننا احترزنا كثيراً من إقحام نصوص تلك الرسائل القديمة في متاهات غريبة عن طبيعتها الفنية ، إذ إنّنا لا نرمي من وراء تحليل بعض تلك النصوص في ضوء معالم هذا المنهج ، أن نوغل – كما فعل بعض الدارسين – في خفاياه ، فنجعل مثلاً ، بعض الخواطر أو الانفعالات التي وردت في ثنايا بعض فصول الرسائل تنفيساً عن رغبات مكبوتة في اللاشعور أو نفسر بعض و مضاتها الإنسانية النادرة ، على أنها خفقات جنسية مكبوتة ، كُبتتْ منذ عهد الطفولة في اللاشعور ، أو أنها خواطر قمعت قمعاً شديداً ، و أنَّ هذه الرؤى و الخواطر التي انبثّتْ في فصولها إنْ هي إلاّ تعبير عن كلّ ذلك الكبت المكظوم ..

غير أنّنا آثرنا التركيز كثيراً على جوانب مهمة من أسس المنهج الفني ، لأنه أقرب من سواه من المناهج الأخرى إلى طبيعة هذه الدراسة الفنية .

وهكذا أفردت لدراسة الخصائص الفنية للرسائل الأدبية في هذا القرن ، وفق أسس هذا المنهج النقدي ، مبحثين متصلين ، تكفّل الأول بدراسة الخصائص البنائية و الشكلية ، بينما اشتمل المبحث الثاني دراسة و تحليل المحتوى أو المضمون لنصوص تلك الرسائل ..

* * *

لقد حرصت في هذه الرسالة – ما وسعني الجهد و الوقت – على أن أجلو من خلالها كثيراً من الملامح الفنية و الموضوعية للرسائل الأدبية في هذا القرن ، معتمدا على نصوص كثيرة مما دبَّجتهُ أقلام بلغاء الكتّاب ، و كان ذلك من خلال ما تناولته في تمهيد و خمسة فصول و خاتمة ..

المقدمة:

تناولت في (التمهيد)دراسة الأحوال العامة (السياسية و الاجتماعية والثقافية) في المجتمع الإسلامي ، و أثرها البالغ في توجيه الأدب و لاسيما الرسائل الأدبية ، انطلاقاً من أنَّ تلك النصوص الإبداعية التي أنشأها الأدباء الكتّاب في هذا القرن ، لم تكن منبتة الجذور عمّا يكتنفها من مؤثرات البيئة المعروفة ، وصولا لربط النص الأدبي بجذوره الاجتماعية ، و وضعه في أجوائه التاريخية المناسبة .

وقد أكّد الباحث في التمهيد حقيقة مهمة تلك هي أنَّ النصوص الأدبية التي يبدعها الأدباء ، تتأثر بمقومات ذاتية تتصلُ بذات الأديب و بالأدب نفسه ، و مقومات خارجية (موضوعية)، تحيط بها و بالأديب المنشئ ، و في مقدمة تلك المقومات الخارجية ، البيئة التي يستلهم منها الأديب صورهُ و دعائم وجوده و أحاسيسه ، فضلاً عن الزمن ، أي الأطوار الفنية التي تتعاصر أو تتعاقب ، مكونة تاريخ الأدب ، و ما تتميز به كلّ مرحلة من خصائص فنية ، أو شائج أسلوبية متقاربة .

و من هنا ، فقد أصبحت تلك النصوص الأدبية ثمرة ذلك التفاعل بين مزاج الأديب المنشئ و أحاسيسه المرهفة ، و بين كلّ المؤثرات الخارجية (الموضوعية) ، و المكانية (البيئة) و الزمانية ، و الروحية التي يصدر عنها الأدب ، مما يؤثر في تنوع موضوعاته ، و تشكيل بنائه و تلوين أساليبه ..

أمّا الفصل الأول : فقد انصبَّ على (ضياع الرسائل الأدبية و انتحالها ، و مجاميع الرسائل الأدبية و توثيقها) .

وقد جاء هذا الفصل جديداً في طرحه و نتائجه ، إذْ قلّما تناولتْ أقلام الباحثين تحليل هذا الجانب و استقصائه .. وقد اشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث هي كما يأتي :

المبحث الأول : وقد ضمَّ دراسة ضياع الرسائل الأدبية في هذا القرن ، وأهمَّ مظاهر ذلك الضياع و أسبابه ..

المبحث الثاني : وقد شمل دراسة ظاهرة الانتحال (أو الوضع الفني) في الرسائل الأدبية في هذا القرن .

المبحث الثالث : وقد انصبّ على دراسة مجاميع الرسائل الأدبية التي سلمت من الضياع ، و سبل توثيقها ، و صحة نسبتها إلى أدباء و كتّاب هذا القرن .

و جاء الفصل الثاني بعنوان (ازدهار الرسائل الأدبية و طبقات الكتّاب في القرن الرابع) وقد ضمَّ هذا الفصل مبحثين متصلين ، اشتمل المبحث الأول منهما على محورين مهمين : ضمَّ الأول ؛ شيوع الرسائل الأدبية و ازدهارها في هذا القرن بينما ضمَّ المحور الثاني ؛ دراسة أسباب ازدهار الرسائل و دواعي ذلك في هذا القرن أيضاً ..

أمّا المبحث الثاني فقد انصبَّ على دراسة طبقات كتّاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، و أثرهم في ازدهار هذا الفن الأدبي ، وقد ضمَّ هذا المبحث ثلاثة محاور هي : (أولا) : طبقة الكتّاب من الأمراء و الوزراء . (ثانيا) طبقة المترسلين من كتّاب الدواوين . (ثالثا) طبقة الكتّاب الجوّالين المتكسبين .

وقد ضمَّ هذا الفصل بمبحثيه ، طرحاً جديداً لقضايا أدبية مهمة ، ولاسيما ما يتصل بأعلام الكتّاب من الرواد ، وما تميّزت به كلّ طبقة من مزايا فنية أثرت النثر العربي في هذا القرن ، و أثرهم جميعا في ازدهار الحياة الثقافية و الأدبية خاصةً ، و اثرائها ، و جهودهم الحثيثة في اتساع قاعدة الكتّاب البلغاء الذين تتلمذوا عليهم ، و تلقّفوا طرائقهم في الترسل و صناعة الرسائل الأدبية والديوانية ..

و انصبَّ الفصل الثالث على دراسة مصادر ثقافة الكتّاب و أصول الرسائل الأدبية و منابعها في القرن الرابع ، وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين أيضاً ، تناول المبحث الأول منهما : دراسة الثقافة العربية الإسلامية ، و مدى استلهامها من لدن كتّاب هذا القرن ، وقد كشف البحث عن أهمّ مفردات تلك الثقافة ، و أثرها في الرسائل الأدبية ، وقد توَّزعت على أربعة محاور هي :

(أولاً) :تضمين الشعر القديم و المحدث و حلّه في الرسائل الأدبية .

(ثانيا) :الاقتباس من القرآن الكريم و الحديث النبوي و توظيف القصص القرآني في الرسائل .

(ثالثا) :تضمين الأمثال القديمة ، و توظيف الحكاية الشعبية في الرسائل .

المقدمة:

(رابعا) :الإلمام بالأحداث التاريخية ، و الإشارة إلى الأعلام و الشخصيات الشهيرة المهمة ، و توظيفها في الرسائل الأدبية .

في حين رصد المبحث الثاني من هذا الفصل الثقافات الأجنبية و أثرها في رسائل هذا القرن ، وقد جاءت في محورين ، تناول الأول الثقافة اليونانية و أهمّ أصولها و آثارها الواضحة على ثقافة الكتّاب ، في حين رصد المحور الثاني منابع الثقافة الفارسية و الهندية و أصولهما ، و أثرهما على ثقافة الأدباء الكتّاب في هذا القرن .

وقد توصل البحث إلى أنَّ آثار هذه الثقافات مجتمعة كانت واضحة على نتاج الأدباء الكتّاب في هذا القرن ، مما كان لها تأثيرها الواضح على أساليب الكتّاب ، و طرائقهم في التعبير ، فضلاً عما تميّزت به مضامين رسائلهم من العمق و الثراء ، و دقة التفكير على الرغم من اتشاح الرسائل الأدبية بأفانين البديع و ألوان الزخارف اللفظية الأخرى ..

أمّا الفصل الرابع فقد انصبّ على (موضوعات الرسائل الأدبية و أغراضها في القرن الرابع) . وقد جاء كثير من مسالك هذا الفصل جديدا في العرض ، و طرح الأفكار ، فضلا عن الوقوف على طائفة كبيرة من نصوص الرسائل الأدبية التي لم تقع عليها أقلام الباحثين بالدراسة و التحليل ..

لقد اشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث مهمة هي :

(المبحث الأول) : وقد ضمَّ دراسة الرسائل الاخوانية في هذا القرن .

وقد رصد البحث تطور هذا اللون من الرسائل الأدبية على الرغم من ظهوره و شيوعه في العصور السابقة ، وقد وقف عند ثمانية أغراض من الاخوانيات ، حلَّل في كلّ منها فلسفة كلّ غرض منها ، ثم شرع يحلّل نماذج فنية نادرة لم تطل كثيراً منها أقلام الباحثين أيضا ، وهي : الشكوى ، والعتاب ، والتعازي ، والتهاني ، و الاعتذار ، و الثناء و الشكر ، و الاستزارة وأخيراً التوصية و طلب الشفاعة .

(المبحث الثاني) : وقد شمل دراسة الرسائل الوصفية في هذا القرن .

المقدمة:

وقد كشف هذا المبحث عن شغف كتاب الرسائل الأدبية في وصف المحسوسات و المعنويات ، و اندفاعهم في تصوير كلّ ما يلمّون به في ترسلهم ، و استقصاء جوانبه المختلفة ، و تحليل أطرافه و جزئياته ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالأمور المادية (المحسوسة) ام فيما يتصل بأمور الوجدان و الخواطر ، و سواهما من الأمور المعنوية المجرّدة ..

ثم استقصى البحث أهمّ موضوعات الرسائل الوصفية في هذا القرن ، فتوصل إلى أنَّ هذا اللون من الرسائل كان وثائق أدبية و تاريخية مهمة ، إذ إنّها سجلّت بدقة متناهية كلّ ما عرض لطبقة الكتّاب في مجتمعاتهم و بيئاتهم الفسيحة من أحداث و مشاهد و مفارقات .. و من جانب آخر ، فإنَّ هذا الضرب من الرسائل الأدبية جسّدت بوضوح براعة بلغاء الكتّاب في وصف ما وقعت عليه حواسهم ، و تشخيص ما تلّمسوه في خواطرهم و عقولهم ، و كشف أيضاً عن مقدرتهم في التصوير و تشخيص المعنويات و تصوير المحسوسات في إطار المعاني الذهنية المجرّدة ، لخلق صور جديدة ، و معان مبتكرة ..

(المبحث الثالث) وقد شمل دراسة الرسائل الهزْلية و المفاكهات الأدبية في هذا القرن . وقد خلص البحث إلى أنَّ نزوع الكتّاب إلى الفكاهة و المرح أو السخرية و التندر في ترسلهم ، انما كان مظهرا من مظاهر نزعتهم الفنية التي خامرت طبيعتهم المرحة ، و انبثقت عن رغبتهم في الجنوح إلى هذا اللون من النثر الفني الفكه ..

وقد عرض الباحث أخيراً إلى دواعي شيوع هذا اللون من الرسائل الفكهة الساخرة ، فأرجعها إلى ثلاثة أسباب هي : العامل الحضاري ، ثم تردّي الأوضاع الاقتصادية ، ثم ميل الكتاب إلى الهزل و الفكاهة ، ثم تناول البحث بعد ذلك أهمّ مضامين رسائل الهزل و السخرية ، فأرجعها إلى ثلاثة محاور هي :

أ- المداعبة و التفكه .

ب- التندر ببعض الظواهر الاجتماعية ونقدها .

ج- التهكم و السخرية أللاذعة .

المقدمة:

وشمل الفصل الخامس ، الدراسة الفنية وقد انصبَّ على دراسة الخصائص الفنية و الأسلوبية للرسائل الأدبية في هذا القرن .

وعلى وفق أسس المنهج الفني الذي اتبعه الباحث ، فقد اشتمل هذا الفصل على توطئة و مبحثين كبيرين متصلين ..

أما توطئة الفصل فقد انصبَّتْ على بيان أبرز الملامح العامة للنثر الفني في هذا القرن ، و كان كما يأتي :

1) الصنعة الفنية و الالتزام بالزخارف البديعية .
2) حرص الكتّاب على التناسب بين المبنى و المعنى .
3) البراعة في التصوير الفني ، و الإغراب في الخيال .
4) نزوع الكتّاب إلى الإفاضة و الإطناب .
5) مزج المنظوم و المنثور في الترسل و المراسلات الأدبية .

أما المبحث الأول من هذا الفصل فقد انصبَّ على دراسة الخصائص البنائية والشكلية للرسائل الأدبية في هذا القرن ، وقد استهلّ هذا المبحث بنبذه مركزة في قضية (الشكل و المضمون) و تواؤمهما في العمل الأدبي ، ، فبدأ أولاً ببحث قضية (الهيولي و الصورة) عند أرسطو ، ثم عرض لقضية اللفظ و المعنى في النقد القديم ، وصولاً إلى موقف النظرية النقدية المعاصرة من قضية الشكل والمضمون في العمل الأدبي ..

وقد تناول هذا المبحث محورين مهمين : (الأول) الخصائص البنائية للرسائل الأدبية . وقد تناول البحث دراسة عدّة قضايا مهمة منها :

أ- الاستهلال و قيمته الفنية ، و أنواعه في الرسائل الأدبية .
ب- عرض الرسالة و حسن الانتقال .
ج- الخاتمة أو الانتهاء ، و أنواع الخواتيم في الرسائل الأدبية ..

أما المحور الثاني من هذا المبحث فقد انصبَّ على دراسة الخصائص الشكلية ، وقد اشتمل على دراسة القضايا المهمة الآتية :

أ- الألفاظ ولغة الرسائل الأدبية .

ب- التراكيب .

ج- الموسيقى و الإيقاع ، وقد عرض البحث في هذا الجانب إلى أهمّ الطرق التي تحقق الموسيقى و الإيقاع في الرسائل الأدبية فكانت :

1) السجع . 2) الازدواج . 3) الموازنة . 4) التجنيس ..

أمّا المبحث الثاني من هذا الفصل فجاء على عنوان : (خصائص المحتوى والمضمون في الرسائل الأدبية) . وقد اشتمل هذا المبحث أيضاً على ثلاثة محاور مهمة هي :

(المحور الأول) : المعاني و الأفكار ، وقد عرض البحث إلى أهميّة المعنى في العمل الأدبي ، و أهمّ ملامحه الفنية ، فشخّص البحث ثلاثة منازع مهمة هي :

1) الإبانة و الوضوح : وقد عرض البحث إلى ما يحقّق ذلك الوضوح ، فأرجعها إلى الأساليب الفنية الآتية : الطباق أوالتضاد ، الإيضاح بعد الإبهام ، ثم المبالغة و الغلو ..

ثم عرض البحث إلى قضية : 2) الإفاضة و الاستقصاء في المعنى ، فعالج البحث عدة قضايا مهمة منها : الترادف ، ثم التكرار ، و وقف أخيراً عند الاعتراض و أنواعه ..

وعرض البحث بعد ذلك إلى : 3) الابتكار و التجديد في المعاني ، فحلّل أولاً دواعي الابتكار و التجديد في المعاني ، ثم وقف عند ضربي المعاني المبتكرة ، وقد عزز الباحث ذلك كلّه بشواهد بليغة من فصول الرسائل الأدبية ، ممّا لم يطل أكثرها الباحثون بالدرس و التحليل .

(المحور الثاني) : وقد انصبَّ على دراسة الأخيلة والصور ، فعرض البحث أولاً لمصطلح (الخيال) ، و تطور مدلوله ، و أهميته في العمل الأدبي ، ثم بحث عقب ذلك (الصورة الفنية) و صلتها بالخيال ، فتناول أساليب بناء الصورة في الرسائل الأدبية ، ثم عرض إلى دراسة تصوير المحسوسات و المعنويات في الرسائل الأدبية ، ثم وقف البحث أخيراً عند دراسة أنواع الصورة الفنية في رسائل هذا القرن ، مسلّطاً الضوء على الصورة البلاغية ، فوقف عند :

المقدمة:

أ- التشبيه : فتناول دلالته الفنية و أنواعه ..

ب- المجاز الاستعاري : فعرض البحث إلى المجاز الاستعاري ، و دلالته الفنية ، و أنواعه ..

ج- الكناية او الإرداف : وقد وقف البحث عند الكناية و دلالتها الفنية ، و تنوع أساليبها ..

وقد عزز البحث تلك الومضات النقدية بشواهد بليغة من نصوص الرسائل الأدبية لبلغاء هذا القرن ...

(المحور الثالث) : وقد اشتمل على دراسة العاطفة أو الانفعال في رسائل هذا القرن ، وقد ضمّ هذا المبحث عدة محاور مهمة ، فتناول أولاً : أهمية العاطفة أو الانفعال في العمل الأدبي ، ثم تناول المحور الثاني دراسة الانفعالات الحسية والمعنوية في فصول الرسائل ثم تناول المحور الأخير مقومات العاطفة وقيمتها في الرسائل الأدبية ، وهي : (أ) صدق الانفعالات والمشاعر (ب) قوة الانفعالات وثباتها في العمل الأدبي (ج) تنوع الانفعالات وسموها .

وأخيراً اختتمتُ هذه الدراسة بخاتمة مركزّة ضمَّتْ خلاصة بأهمّ ماجاء في فصولها ومباحثها ، ثم أوجزتُ أهمَّ النتائج التي توصل إليها البحث عبرَ تطوافه المضني في أعنةِ المصادر ، وشتات الروايات المبثوثة في ثنايا المراجع التي كانت منهلاً سائغاً للباحث في مسيرة بحثهِ المتشعب الطويل ...

****

وبعدُ ، فما خضتُ في شيء من مسارب هذا البحث إلاّ على غاية ما كان في النفس ، وما نزعتُ فيما جمعتُ عن هوى وتكلّف ، وكان وكدي أنْ يسلم هذا البحثُ من التطويل الممل ، والإيجاز المخل ، " ومن العناء رياضة الهرم " ، ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وإذ أختتمُ تقديمي المسهب لدراستي هذه ، أتوجَّهُ بكلمةِ امتنانٍ صادق ، وعرفانٍ بالجميل لأستاذي المشرف الدكتور يونس أحمد السامرائي ، هي أقلُّ ما أسديهِ ، لرعايتهِ العلمية المخلصة ، وتوجيهاته الدقيقة الصائبة ، داعياً الله لعزيز القدير أن

المقدمة:

يمُنَّ عليهِ بنعمةِ العافية ، شاكراً لهُ الشكر كلّه ، ما غمرني بهِ من رعاية وحسن توجيه ، جزاهُ الله تعالى عني وعن طلبة العلم خير الجزاء ، وجعلني ممن يديمون لهُ الوفاء .

والله تعالى المؤيّد والمسدِّد، وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

تمهيد

الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية في القرن الرابع وأثرها في المكاتبات الأدبية

ما من شك في أن النصوص الأدبية التي يبدعها الأدباء – بوصفها نماذج فنية راقية – تتأثر بعناصر أو مقومات عديدة ؛ داخلية (ذاتية) ، تتصل بالأدب نفسه ، وخارجية (موضوعية) تحيط به ، وبالأديب (الفنان المبدع) الذي أبدع تلك النصوص الأدبية .

ولعل في مقدمة تلك المقومات الخارجية المهمة التي يتأثر بها الأدب (البيئة) التي يترعرع فيها الأديب المبدع ، ويستلهم منها صوره ، ومرتكزات وجوده ، ودعائم أحاسيسه . فضلا عن (الزمن) ، وأعني به هنا ، الأطوار الفنية التي تتعاصر أو تتعاقب ، مكونة تاريخ الأدب العام ، وما تتميز به كل مرحلة من خصائص ، فنية ، أو وشائج أسلوبية متقاربة ، فضلا عن المؤثرات الخارجية الأخرى ...

ومن هنا فقد أصبحت تلك النصوص الأدبية ثمرة ذلك التفاعل بين مزاج الأديب (الفنان) وأحاسيسه ، وبين كل المؤثرات الموضوعية الأخرى ، المكانية (البيئة) ، والزمانية ، والروحية التي يصدر عنها الأدب ، مما يؤثر في تنوع موضوعاته ، وتشكيل بنائه ، وتكوين أساليبه .

ومن جانب آخر ، فأن هذا الأدب – ولاسيما الرسائل الأدبية النثرية– بوصفه تعبيرا دقيقا وصادقا عن انفعالات الأديب الفنان ، وانعكاسا عن جميع الظروف والملابسات الخارجية المحيطة به ، يؤثر بدوره تأثيرا فاعلا وكبيرا في توجيه الحياة العامة ، وتصويرها ، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم فكرية أم غيرها من مفاصل الحياة الأخرى .

ومن هنا ، كان لزاما على الباحث ، وهو يدرس هذه النصوص الفنية ويحللها ، ويكشف عن أغوارها ، أن يردها إلى عناصرها الذاتية والموضوعية تلك ، وصولا إلى إدراك جمال هذه الرسائل الفنية ، ورصد قيمتها الأدبية والتاريخية بوصفها

التمهيد :

وثائق مهمة لاستكناه ملابسات زمانها ومكانها (بيئاتها المكانية) التي عبرت عنها ، وصورتها خير تصوير .

وفضلا عن ذلك كله ، فأن الإلمام بدراسة الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية ، وغيرها ، في هذا القرن ، يمكن أن يعين الباحث على تحليل أو تفسير كثير من الظواهر الأدبية التي استجدت في بيئة العراق والمشرق الإسلامي في هذا القرن المضطرب .

أولا : الحالة السياسية في القرن الرابع وأثرها في الرسائل الأدبية :

كانت الحياة السياسية في القرن الرابع حياة قلقة مضطربة ، تموج بالدسائس والفتن ، وتمور بالنزعات والمحن ، وتسودها الاضطرابات الداخلية العنيفة التي تمثلت بالانتفاضات أو الثورات الداخلية في بقاع عديدة من أقاليم الدولة الإسلامية، فضلا عن استمرار المعارك ، وتجدد الوقائع العنيفة بين أمراء الممالك وحكام الدويلات المستقلة ، والحروب الخارجية المبيرة على الحصون والثغور الإسلامية النائية ، مما كان لكل تلك الأحداث الخطيرة ، وتداعياتها المؤثرة ، أصداؤها الواضحة على الأدب العربي شعرا ونثرا .

ولقد كان للأدباء في هذا القرن – ولاسيما كتاب الرسائل – ارتباط كبير بتلك الأحداث السياسية الخطيرة ، إذ إن أكثرهم شارك في صنع كثير من تلك الأحداث ، أو أثر فيها ، لكون أن بعض أولئك الكتاب كانوا إما رؤساء أو أمراء أو وزراء ، فأسهموا أحيانا كثيرة في قيادة تلك الحروب ، كالوزير المهلبي ، وأبي الفضل ابن العميد ، والصاحب بن عباد واضرابهم ، أو كانوا من كبار كتاب الدواوين الرسمية ، كأبي إسحاق الصابي ، وعبد العزيز بن يوسف ، وأبي القاسم الإسكافي ، وأبي الفتح البستي وغيرهم ، أو لأن كثيرا من أولئك الأدباء كانت له صلات وثيقة بأولئك الرؤساء والوزراء ؛ كأبي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، وأبي الفرج الببغاء ، وغيرهم .

التمهيد :

وقبل أن أشرع في دراسة الحالة السياسية المتردية ، ومدى تأثيرها في أدب الرسائل في هذا القرن ، لا بد لي من وقفة سريعة ومركزة عند أهم الأحداث السياسية للحقبة الزمنية التي سبقت هذا القرن ، وهي المرحلة التي أصطلح كثير من مؤرخي الأدب العربي على تسميتها بالعصر العباسي الثاني ، بوصف هذه الحقبة الزمنية المهمة مرحلة ممهدة لأحداث القرن الرابع السياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها .

تسلط الأتراك على مقاليد الحكم وضعف الخلافة العباسية :

لعل أخطر تلك الأحداث والتطورات السياسية في هذه المرحلة ؛ سيطرة القادة الأتراك على أمور الدولة الإسلامية، والتحكم بمقدرات الخلافة العباسية[1] ، فمنذ استفحال أمرهم في عهد الخليفة المعتصم (218 – 227 هـ) الذي أعتمد عليهم في بناء جيشه[2] ، ثم انتقاله معهم الى عاصمته الجديدة (سر من رأى) [3] بدأ نفوذهم يتسع ، وعندما حاول الخليفة المتوكل (232 – 247 هـ) التخلص من سيطرتهم ، تآمروا عليه[4] ، وقتلوه دون تحقيق غايته تلك .

لقد استولى القادة الأتراك ، منذ مقتل المتوكل ، على أمور الدولة ، واستضعفوا الخلفاء العباسيين ، فكان الخليفة ألعوبة في أيديهم ، يتصرفون به كيفما شاءوا ! يقول أبن الطقطقى ، مصورا الحالة السياسية المزرية ، وضعف الخلافة

---

[1] يراجع في ذلك : تاريخ اليعقوبي 493/2 ، حيث ذكر أنهم مثلا نصبوا خمسة من الخلفاء في مدة تسعة أعوام بصورة مزرية من القتل والاضطهاد ،ويراجع أيضاً : دراسات في العصور العباسية المتأخرة : 59 ومابعدها .

[2] تراجع التفاصيل في كتاب : مروج الذهب ومعادن الجوهر 465/3 ، ويراجع اصطناعه للأتراك في المصدر نفسه 53/4 .

[3] يراجع بناؤه لمدينة سامراء : مروج الذهب أيضاً 54/4 .

[4] تراجع التفاصيل في تآمر الأتراك على قتل المتوكل : مروج الذهب 115/4 – 117 .

التمهيد :

العباسية[5] : (من تلك الأيام اضطهدت الخلافة العباسية ، وخرجت الأمور منها ، واستولى الأعاجم والأمراء وأرباب السيوف على الدولة ، وجبوا الأموال ، وكفوا يد الخليفة ، وقرروا له شيئا يسيرا ، وبلغةً قاصرة ، ووهن يومئذ أمر الخلافة) .

ولم تجد نفعا محاولات بعض الخلفاء كالمهتدي مثلا – ولي عام 255هـ لاسترجاع نفوذ الخلافة ، ومحاولته القضاء على تسلط القادة الأتراك ، إلا أنه فشل في ذلك[6] .

وتزداد الأمور سوءا في عهد الخليفة المعتمد (256 – 279 هـ) ، إذ بدأت السلطة المركزية في الحاضرة بغداد تفقد سيطرتها من الداخل ؛ بسبب الضعف السياسي ، وتدهور الأوضاع الإدارية ، فضلا عن سيطرة الأتراك وعلو نفوذهم .

ونتيجة لهذا كله بدأت الفتن والاضطرابات الداخلية تعصف بالخلافة ؛ فكانت ثورة الزنج[7] التي بدأت منذ عهد المهتدي ، واستمرت أكثر من أربعة عشر عاما (255هـ – 270هـ) أقلقت الدولة العباسية ، ثم كانت غارات القرامطة في العراق (البطائح) والبحرين والشام التي عاثت فسادا في تلك الأقاليم وغيرها ، حتى تم القضاء على آخر فلولهم عام 330هـ[8] ، ومن هنا : فقد بدأت في عهد هذا الخليفة أيضاً ترجح عوامل التجزئة والتفكك على ظروف الوحدة والتماسك ، فبدأت حركات

---

[5] الفخري في الآداب السلطانية : 235 ، ويراجع أيضاً عن استيلاء الأتراك : العصر العباسي الثاني – د . شوقي ضيف : 9 – 26 .

[6] تراجع التفاصيل في : مروج الذهب 186/4 .

[7] ينظر في أحداث هذه الثورة وأسبابها ونتائجها : تاريخ الطبري 410/9 وما بعدها ، مروج الذهب (خروج صاحب الزنج وعقيدته) 194/4 ، ويراجع المرجعان : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص79 وما بعدها ، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد – أحمد علي : 78 – 83 (دار مكتبة الحياة – بيروت 1961 .

[8] تراجع التفاصيل في أحداث حركة القرامطة : تاريخ الطبري 23/10 – 27 ، تاريخ الشعوب الإسلامية (الطبعة العربية) : 229 ، كتاب القرامطة : أصلهم تاريخهم حروبهم – عارف ثامر : 63 وما بعدها .

التمهيد :

الانفصال عن جسم الدولة العباسية ، وبدأت تظهر الإمارات المستقلة ، كإمارة الصفاريين في سجستان (254 – 289) [9] وغيرها.

غير أن سلطة الخلافة استنفرت قواها في عهد المعتضد (279 – 289هـ) لهذا التحدي ، وتمكن من إعادة هيبة الخلافة وسطوتها الفعلية حتى على كثير من الثغور[10] ، ومن ثم تم في عهد المعتصد أيضاً التخلص من الصفاريين[11] ، وغيرهم ، فنتج عن ذلك كله استقرار الوضع السياسي ، وازدهار أمور الخلافة سياسيا واقتصاديا .

إلا أن هذا الاستقرار السياسي لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما تمكنت القوى المتنفذة في الدولة من تنصيب المقتدر (295 – 320هـ) ، فتلاشت في عهده أمور الخلافة ، وخضع الخليفة لنفوذ هذه القوى حتى لم يكن له حل ولا عقد[12]!.

وقد بلغت الأوضاع السياسية ذروتها سوءا حين سيطر القائد التركي (مؤنس الخادم) على أمور الخلافة ، لا سيما بعد نجاحه في استخلاف المقتدر بعد المحاولة الثانية لخلعه[13] .

وفي عهد الراضي (322 – 329هـ) ، وكذا في عهد خلفيه المتقي والمستكفي ، وصلت أمور الخلافة الى الدرك الأسفل ؛ فقد ألجأت الحاجة الخليفة الراضي الى استحداث منصب (أمير الأمراء) فقلد أمور الدولة كلها الى

---

[9] ينظر : مروج الذهب (خروج يعقوب الصفار) 194/4 ، المنتظم – ابن الجوزي 32/5 وتراجع التفاصيل عن هذه الإمارة في كتاب : تاريخ إيران : 121 – 127 .

[10] ينظر : تاريخ الطبري 32/10 ، مروج الذهب 143/4 .

[11] تراجع تفاصيل ما دار بين إسماعيل بن أحمد السامائي وعمرو بن الليث الصفاري : تاريخ إيران :126

[12] يراجع تاريخ الطبري وما ساقه عن أم المقتدر ونفوذها في عهده 140/10 وما بعدها .

[13] يراجع في ازدياد نفوذ هذا القائد التركي ، ومحاصرته بغداد ، ثم خلع المقتدر وقتله : تجارب الأمم وتعاقب الهمم 132/5 وما بعدها . وينظر أيضاً : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 34/1 .

(أبن رائق) ، بعد إفلاس خزينة الدولة ، لقاء تعهده بدفع الالتزامات المالية للخليفة وموظفي الدولة[14] .

ويستمر تسلط القادة الأتراك على مقاليد الحكم ، وشؤون الخلافة : حتى دخول البويهيين حاضرة الخلافة بغداد ، واستيلاء معز الدولة البويهي على جميع أمور الدولة عام 334هـ[15] .

تجزؤ الدولة الإسلامية وظهور الإمارات المستقلة :

طفقت المحاولات الأولى للانفصال عن سلطة الخلافة المركزية في بغداد تظهر بوضوح منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، إذ أحس الخليفة المأمون (198 – 218هـ) بميول العناصر الأعجمية ، وتطلعها الى الاستقلال أو الانفصال عن سلطة الخلافة الإسلامية.

وبدأ المأمون ، وبعض من جاء بعده من خلفاء بني العباس ، بمعالجة هذا الأمر الخطير باللامركزية الإدارية ، أو إعطاء درجة من الحكم الذاتي لبعض الأقاليم النائية ، للحد من النزاعات الانفصالية ، وما تهدف إليه من تقويض الحكم العربي الإسلامي.

ومن هنا ظهرت الإمارة الطاهرية (205 – 259هـ) في خراسان ؛ كما هيأت الخلافة العباسية للسامانيين ، منذ وقت مبكر أيضاً ، فرصة إدارة إقليم (ما وراء النهر) في حدود عام 205هـ / 820م[16] .

---

[14] يراجع : أخبار الراضي والمتقي : 69 – 70 ، تاريخ مختصر الدول : 163 ، وينظر تاريخ أبي الفداء 415/1 (أحداث سنة 324 هـ) .

[15] يراجع في غلبة معز الدولة ودخوله بغداد ، والإشارة الى غلبة أخويه على الأقاليم الأخرى : مروج الذهب 385/4 .

[16] ينظر : كتاب : تاريخ إيران : 115 – 117 ،ويراجع أيضاً : العصور العباسية المتأخرة : 107 ومابعدها .

التمهيد :

وفي منتصف القرن الثالث للهجرة أيضاً ، وتحديدا بعد مصرع المتوكل (ت 247 هـ) ، بدأت سلطة الخلافة المركزية تفقد سيطرتها من الداخل ، بسبب تدهور الأوضاع السياسية والإدارية ، وسيطرة القادة الأتراك على مقاليد الأمور ، فكان ذلك إيذانا بظهور تحديات بعض العناصر الطامعة المتمردة ، ولا سيما في الولايات النائية .

وهكذا كانت الإمارة الصفارية (254 – 289هـ) التي قامت على أنقاض الإمارة الطاهرية في سجستان ، والتي أظهرت ميولاً معادية وصريحة لسلطة الخلافة المركزية في بغداد[17] .

وفي أواخر القرن الثالث والربع الأول من القرن الرابع للهجرة[18] ، جابهت الخلافة العباسية تحديات خطيرة وجديدة ، تمثلت بتنامي قوة العناصر المتمردة المناوئة لسلطة الخلافة ، وقد تمثل ذلك جليا بتمرد بعض الولاة وأرباب الأسر[19] الطامعين في عدد من المدن والثغور والاصقاع النائية ، فضلا عن تصاعد القوى السياسية الأجنبية الطامعة ، فكان ذلك كله إيذانا بخضوع الخلافة العباسية لسيطرة تلك القوى المتصارعة ؛ مما هيأ لحركات الانفصال ، وتجزؤ أوصال الدولة الإسلاميةالمترامية ، ولتتمكن ، بعد ذلك كما أشرنا ، إحدى تلك الإمارات الأعجمية المستقلة في المشرق الإسلاميوهي الإمارة البويهية – من السيطرة والاستحواذ على حاضرة الخلافة الإسلامية عام 334هـ ، ذكر الأستاذ آدم متز ، مشيرا الى تلك

---

[17] تراجع التفاصيل عن نشاط الصفاريين ، ومحاولاتهم للانفصال عن الخلافة ، ومحاولة يعقوب الصفار وغزوه بغداد والسيطرة عليها : مروج الذهب 194/4 ، وينظر أيضاً : تاريخ الإسلام السياسي د.حسن إبراهيم حسن 142/3 –160 ، تاريخ إيران : 120 – 127 .

[18] حدد أبو الفداء في تاريخه : 415/1 – 416 ظهور تلك الدويلات ضمن أحداث سنة 324هـ ، كما تابعه في ذلك أيضاً الأستاذ متز في كتابه : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 19/1 .

[19] يراجع الفصل الثاني من المرجع المذكور أعلاه (الأمراء 45/1 وما بعدها) ، حيث أشار المؤلف الى نفوذ تلك الأسر والقادة ، كالبريديين والحمدانيين وغيرهم ، ويراجع عن أخبار البريديين ونشاطهم في البصرة وغيرها : مروج الذهب 340/4 وما بعدها .

الإمارات المستقلة ، ومحددا أقاليمها[20] : (تغلب كل رئيس على ناحيته وأنفرد بها ؛ فصارت فارس والري وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه ، وكرمان في يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر في أيدي بني حمدان ، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طغج الاخشيد ، والمغرب وأفريقية في يد الفاطميين ، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي ، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني ، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريديين ، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، ولم يبق في يد الخليفة ألا بغداد وأعمالها .) .

على أن نفوذ أمراء وحكام تلك الدويلات المستقلة ، لم يكن محصورا في إقليم معين ، أو رقعة مكانية محددة ، وإنما كان يمتد ، في أحيان كثيرة ، الى ما وراء تلك الأقاليم التي بحوزتهم ، نتيجة لكثرة الوقائع والحروب بينهم ، وتبعا لازدياد قوتهم العسكرية ، وتمكنهم من خصومهم السياسيين في الأقاليم أو الأصقاع المجاورة لهم ، أو المدن والبقاع النائية عنهم .

وهكذا كان اضطراب الأحوال السياسية في القرن الرابع ، وما نتج عنه من تجزؤ أوصال الدولة الإسلامية الواسعة ، وظهور الإمارات المستقلة في أقاليم عديدة ، وأصقاع بعيدة ، عاملا مهما في التنافس بين أولئك الأمراء والرؤساء ، لاجتذاب العلماء والأدباء الى مراكز ممالكهم الجديدة ؛ للإفادة منهم في بناء حياتهم السياسية والاجتماعية ، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار الحياة الأدبية والعلمية في هذا القرن .

لقد أتخذ هؤلاء الرؤساء وأمراء الممالك الإسلامية المستقلة – وبخاصة الأمراء البويهيون – كبار الأدباء البلغاء ومشاهير الكتاب الإجلاء ، من ذوي الكفاءة النادرة

---

[20] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع :1 / 19 ، ويراجع عن ظهور هذه الإمارات المستقلة : تاريخ الطبري 10/ في مواضع متفرقة ، تجارب الأمم : 5 / 199 ومواضع متفرقة أخرى ، المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء) 415/1 – 416 ، النجوم الزاهرة ، 3/ في مواضع متفرقة ، الكامل في التاريخ : 240/8 – 242 .

؛ للاضطلاع بالمهام الجسيمة التي كانت تنوء بها ممالكهم الفتية ، فكان من هؤلاء القادة العسكريون في سوح المعارك ، ومنهم أيضاً الساسة المحنكون في تصريف النوازل ، والوزراء والمستشارون المؤتمنون في المهام الخطيرة ، وهم أيضاً الكتاب الذين يحررون الرقع والمعاهدات السياسية الخطيرة ، ويدبجون المنشورات الرسمية المهمة ، ويوثقون الأحداث والوقائع العسكرية الطارئة ....

ولعل في طليعة مشاهير هؤلاء الأدباء الكتاب الموهوبين : أبا الفضل ابن العميد ، والوزير أبا محمد المهلبي ، والصاحب بن عباد ، وأضرابهم ممن برعوا في تحبير الرسائل البليغة النادرة ، وفتقوا أكمام المعاني الجديدة ، بأوصاف رائقة سابقة ، وجسدوا الخواطر الإنسانية بأعذب الألفاظ وأرقها ، فملكوا المشاعر وأسروا القلوب إعجابا ...

وهكذا كانت الرسائل الأدبية البليغة في لجة تلك الصراعات المحتدمة والاضطرابات السياسية المستمرة ، خير أداة يتخذها الحكام والأمراء السياسيون أو القادة العسكريون ، فضلا عن الثوار والخصوم السياسيين ، للإعلان أو للترويج لقضاياهم السياسية الخطيرة ، أو للتعبير عن أهوائهم ونوازعهم المتشعبة ووسيلة مهمة لتأييد السلطة الحاكمة ومؤازرتها ، أو لتقريع خصومها والخارجين عليها .

وانطلاقا من هذا كله ، فقد راح أولئك الأدباء الكتاب البلغاء – وبخاصة كتاب الرسائل الرسمية أو الديوانية – ينشئون رسائلهم الأنيقة التي كانت بمثابة المنشورات السياسية ، أو الصحافة الحزبية اليومية التي لاتفتأ تعلن الولاء ، والتأييد للسلطة الحاكمة ، وتندد بالخصوم السياسيين المناوئين ، فضلا عن المهام السياسية والإدارية والعسكرية الكثيرة التي كانت تنوء بحملها تلك المكاتبات في تلك المرحلة الخطيرة من حياة الأمة الإسلامية وواقعها الخطير .

ثانيا : الحالة الاجتماعية والاقتصادية وأثرها في الرسائل الأدبية :

لابد من التنويه أولا ، بأن تردي الأوضاع السياسية والإدارية في هذا القرن ، كان أحد أهم الأسباب التي أدت الى اضطراب الحياة الاجتماعية ، واختلال النظام

الاقتصادي والمالي في الدولة الإسلامية، مما تسبب في خلق فجوة سحيقة بين فئات المجتمع الإسلامي، وتأجج الصراع بينها .

ولقد تأثر المجتمع العربي الإسلامي– من جانب آخر – منذ مرحلة مبكرة من قيام الدولة العباسية ، ونتيجة لاختلاط العرب بالأجناس الأجنبية ، لاسيما الفرس ، الذين أسهموا بشكل كبير ومؤثر في إدارة شؤون الدولة ؛ نظرا لجهودهم المخلصة في دعم الخلافة العباسية ومؤازرتها – تأثر بتيارات اجتماعية خطيرة ، ومؤثرات حضارية جارفة ، إذ كان العراق والمشرق الإسلامي ملتقى أجناس وشعوب مختلفة ، وموطن حضارات قديمة متباينة[21] ، فكان لتلك الشعوب الأجنبية التي اعتنقت الإسلام ، تراثها الحضاري العريق ، وإرثها الإنساني العميق وكان لابد أن يثمر هذا التمازج بين هذه الشعوب والأقوام المختلفة عن تسرب الكثير من عاداتها وطقوسها الاجتماعية ، ونظمها الاقتصادية ، فضلا عن الأفكار والعقائد الدينية[22] التي كان لها آثارها الخطيرة في حياة المجتمع العربي الإسلامي وتوجيه مساره الجديد ، وقد كان لكل ذلك ، دون أي شك ، أثره الفاعل في الأدب العربي وتطوره ، وتنوع فنونه وموضوعاته وأساليبه .

وهكذا طفقت تظهر في آفاق المجتمع العباسي – نتيجة لأنتشار تلك العقائد والآراء القديمة ، والتقاء تلك التقاليد والأعراف المختلفة – كثير من البدع الغريبة والرسوم الاجتماعية الجديدة ، منذ العصر العباسي الأول ، والتي تعمقت جذورها في هذا القرن .

---

[21] تراجع التفاصيل في كتاب : الأدب في ظل بني بويه : 36 وما بعدها .

[22] يراجع كتاب : (في أدب الفرس وحضارتهم) للدكتور محمد عبد السلام كفافي : 175 – 213 (دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1971) ، حيث فصل المؤلف في أديان الفرس القديمة ، بدءا من الحقبة التي سبقت (زرادشت) ، ثم تعاليم زرادشت ، ثم ظهور المانوية فالمزدكية ، حتى الفتح الإسلامي ، وينظر أيضاً : الجزء الأول من كتاب : تاريخ الأدب في إيران – للأستاذ إدوارد براون ، في مواضع كثيرة متفرقة من هذا الجزء .

ولعل أبرز تلك الأمور : إضفاء مظاهر التبجيل والتقديس للخلفاء العباسيين[23] وشيوع النظم الفارسية في المأكل والملبس والمسكن ، ولاسيما بين أوساط الطبقة الخاصة كالخلفاء والوزراء وغيرهم ، مما نتج عن ذلك شيوع مظاهر البذخ والترف ، والإسراف في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية .

ومن المظاهر الاجتماعية الجديدة التي راجت في هذا القرن أيضاً : الإسراف في اتخاذ الألقاب الفخمة ، والاحتفاء بالأعياد الفارسية القديمة كالنوروز والمهرجان ، والسذق (عيد ليلة الوقود) ، واتخاذها أعيادا رسمية للدولة ، وكثير من شرائح المجتمع الإسلامي، وكثرة مجالس اللهو والشراب والغناء ، وانتشارها وما تبع ذلك من شيوع المجون والعادات البذيئة بين مختلف طبقات المجتمع وغير ذلك ...

لقد شهد هذا القرن تعمق التفاوت الاجتماعي والاقتصادي بين فئات المجتمع الإسلامي، وتعمق الفوارق الطبقية أيضاً ، ولعل مردّ ذلك إلى الاضطراب السياسي والانهيار الاقتصادي ، فضلا عن إفرازات الحياة الجديدة ، وما بثته فيها تلك التقاليد والمعتقدات الدينية القديمة التي تسربت عن طريق الأجناس الأجنبية التي تمازجت مع غيرها في هذا القرن .

فمنذ مرحلة مبكرة من هذا العصر ، راحت رموز الطبقة الخاصة تحظى في مجالسهم ومنتدياتهم الأدبية بالاحترام والتبجيل ، ومن صور ذلك ما شاع في بيئاتهم من ظاهرة تقبيل الأيدي والأرجل والانحناء ، وتقبيل الأرض في حضرتهم أو السجود في مقامهم ، وغير ذلك من المظاهر الغريبة .

---

[23] شاع عند أكثر الباحثين أن ذلك ناجم عن ترسبات عبادة الملوك الفرس في العهود القديمة ، وقد أضاف المستشرق فأن فلوتن الى ذلك أيضاً : ما خالطها أو سقط إليها من بعض العقائد (الإشراقية) التي لا يستبعد هذا الباحث أن تكون قد انتقلت إليهم عن طريق الديانة البابلية القديمة .تراجع التفاصيل في كتاب : السيادة العربية :75-106.

ذكر الأستاذ متز مؤكدا هذه الحقيقة يقول[24] : "وفي هذا العصر ، ارتفعت صور الأدب في حضرة الخلفاء . وحتى صارت على رسم بقي في جوهره مستمرا طول العصور ... " .

وقد صورت الرسائل الرسمية التي كانت تكتب على لسان الخليفة أو غيره ، جوانب واضحة من تلك المظاهر ، وجسدت أيضاً آيات التبجيل أو التعظيم التي كان يسبغها الكتاب عليهم ، ، حتى لتصل في كثير من الأحيان ، الى درجة التكلف والملق والرياء[25] ، وكذا في بعض الرسائل الأخوانية أيضاً[26] .

وقد انعكست هذه الظاهرة أيضاً في مجالس الأمراء والوزراء ، وقد روى ياقوت الحموي[27] أخبارا عديدة تؤكد مكانة الوزير الصاحب ، وعظم منزلته ، وتقبيل الأرض في حضرته ....

أما شيوع النظم والرسوم الفارسية في هذا القرن ، لاسيما في المأكل والملبس ، وبناء القصور الفارهة ، واتخاذ صنوف الزينة ، فقد كان لذلك آثاره الواضحة على الحياة الاجتماعية[28] ؛ بما شاع في أوساط الطبقة الخاصة وغيرهم من مظاهر

---

[24] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 1 / 263 .

[25] ينظر مثلا : رسائل الصاحب بن عباد الديوانية الى الأمير عضد الدولة ، وبعض كتبه في العهود والفتوح : رسائل الصاحب بن عباد (الباب الثاني (في العهود)) : 34 وما بعدها.

[26] تراجع مثلا رسالة الصاحب بن عباد أيضاً الى بعض الأمراء ، ورسالة أخرى له الى بعض الوجهاء ، يهنئه بالوزارة : ديوان المعاني : 96 – 97 .

[27] معجم الأدباء 244/6 ، ومواضع أخرى ، حيث ذكر ما عرف عن الصاحب بن عباد من مكانة عظيمة عند البويهيين ، حتى أن عضد الدولة – على تجبره وهيبته – خرج لاستقباله عندما زاره في همذان عام 370هـ ، وينظر في هذا أيضاً : الكامل في التاريخ 4/9 ، والنجوم الزاهرة 138/4 .

[28] يراجع في هذا الجانب ما ساقه المسعودي في وصف الأطعمة والأشربة وغيرها مما كان يقدم على موائد الخلفاء وغيرهم : مروج الذهب 362/4 – 374 ، ويراجع ما فصله المؤرخون ، ومنهم هلال الصابي ، في نفقات دار الخلافة ؛ ومنها نفقات المطابخ= =والمخابز وغيرها : رسوم دار الخلافة : 22 – 27 ، وينظر في ذلك أيضاً : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع

البذخ والمبالغة في الأبهة ، والإسراف الشديد في الترف . وقد كان لكل ذلك آثاره الواضحة على الأدب العربي ، ولا سيما الرسائل الأدبية ، كما سيأتي أيضاًحه وتحليله في فصول هذا البحث ..

ومما يدلل على إمعان الطبقة الخاصة ، في هذا القرن ، في الترف ، وغرقها في النعيم ؛ كثرة مجالس اللهو والغناء ، والشراب ؛ فقد شاعت في تلك البيئات والمنتديات الاجتماعية الخاصة ، تلك المجالس اللاهية التي شاع فيها الأنس والقصف والشراب والغناء ، وقد أصبح لهذه المجالس المنتشرة في قصور الخاصة وغيرهم ، طقوس وقواعد ورسوم متبعة[29] .

ومن تلك الرسوم الجديدة أيضاً : الإسراف في ميلهم الى مظاهر الأبهة ، وإحاطة أنفسهم بمظاهر التبجيل والعظمة ، ولعل هذا ما يفسر لنا إسراف أمراء بني بويه بخاصة في اتخاذ الألقاب الفخمة[30] ، وبذل الأموال والهدايا في سبيل الحصول عليها ، أو في إسباغها على أعوانهم ، حتى أن بعض تلك الألقاب كانت أحيانا لتشعر بالتجرؤ على الذات الإلهية .

ذكر الأستاذ متز في هذا الجانب يقول[31] : " ثم ظهرت ألقاب كاذبة فيها معارضة لروح الإسلام ، وتجرؤ على مقام الألوهية ، وكان البويهيون أول من سموا وزراءهم بأسماء مما ينبغي أن يطلق على الله ، مثل : الأوحد ، وكافي الكفاة وجاوز نفر هذا الحد ، فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء .....)) .

---

1 / 275 – 276 ، ويراجع ما ذكره المقدسي عن بذخ عضد الدولة وإسرافه في بناء داره بشيراز : أحسن التقاسيم 449/2 – 450.

[29] يراجع وصف الثعالبي لأحد مجالس الوزير أبي محمد المهلبي ، وما غرق فيه من اللهو والمرح وأطراح الحشمة : يتيمة الدهر 394/2 .

[30] ينظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 260/1 – 261 ، وما ذكره عن اتخاذ أمير بغداد سنة 423 هـ لقب (السلطان المعظم مالك الأمم) ، ومعارضة القاضي الماوردي له في ذلك وكذلك ما ذكره عن منع الماوردي أيضاً جواز لقب فخر الدولة لقبه الجديد (شاهنشاه الأعظم ملك الملوك) ، وينظر أيضاً : كنوز الأجداد : 243. .

[31] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 260/1 .

ولعل هذا المظهر الاجتماعي ناتج عن الميل الى إحياء الطقوس الفارسية القديمة في الحكم ، ومن أبرز تلك الطقوس أو الرسوم ؛ تقديس الملوك ، وتبجيلهم ، وتأليههم ؛ للاعتقاد السائد آنذاك بأن (الملك ملهم يستمد أحكامه من الإله ....) [32] .

ومن المظاهر الاجتماعية الجديدة التي راجت في هذا القرن أيضاً : الاحتفاء بالأعياد الفارسية القديمة ، كالنوروز والمهرجان ، وإحياء ليلة الوقود (السذق) ، واتخاذها أعياداً رسمية ، إذ كان المسلمون يحتفلون بهذه الأعياد ، ويتهادون فيها الهدايا ، ويمارسون طقوساً معروفة متبعة[33] .

ولقد كان لهذه المظاهر الاجتماعية – الاحتفاء بالأعياد الفارسية القديمة – التي شاعت في هذا القرن ، آثارها الواضحة ، وانعكاساتها في أدب هذا العصر ، ولاسيما أدب الرسائل ، إذ تضمنت كثير من رسائل هذا القرن التهاني بهذه الأعياد المذكورة ، وقد كانت تلك الرسائل – سواء أكانت الديوانية أم الأدبية – كثيرا ما تنطوي على الغلو والمبالغة في تقديم التهاني ، والمجاملات المتكلفة[34] .

لقد تأثرت المكاتبات الأدبية في هذا القرن – بوصفها لونا مهما من ألوان الأدب ، وصدى أمينا للحياة العامة بكل أصنافها – بهذه التطورات الاجتماعية الخطيرة ، فصورت مظاهرها المختلفة ، وراحت ترصد تلك الأجواء المترفة الناعمة في حياة الطبقة الخاصة ، فصورت جوانب من تأنقهم في أساليب العيش وإسرافهم

---

[32] قصة الحضارة الفارسية : 29 ، بدلالة كتاب الأدب في ظل بني بويه : 91 .

[33] كان الملوك والأمراء الأعاجم من الديلم يمارسون طقوسا خاصة في الاحتفاء بعيد السذق مثلا 0 وهو من الأعياد الفارسية القديمة – تتمثل بأيقاد النيران وتأجيجها ، وإرسال الوحوش فيها ، ثم تطيير الطيور في لهبها ، والتلهي حولها . ينظر ما قام به مرداويج في الاحتفاء بهذا العيد عام 323هـ : تاريخ أبي الفداء 413/1 0أحداث سنة 323هـ) ، والآثار الباقية – للبيروني : 226 ، تجارب الأمم : 5 / 176 – 179 (أحداث سنة 323هـ) .

[34] ينظر مثلا : رسالة الصاحب الى ابن العميد يهنئه بمقدم النيروز : ديوان المعاني 97/1 ، ورسالة أبي بكر الخوارزمي الى صاحب الديوان يهنئه بيوم المهرجان : رسائل أبي بكر الخوارزمي ص93 .

في اللهو والتسلية ، كما وثقت جوانب دقيقة من تلك المجالس اللاهية وما انطوت عليه من أنس وقصف ومتع حسية ، وجسدت أدق الميول والنزعات الخاصة ، فضلاً عن وصف تلك المظاهر الخارجية المحيطة بتلك الأجواء ، وما في أكنافها من مظاهر الترف والأبهة والنعيم ...

وكان لابد أن تتأثر هذه المكاتبات الأدبية في هذا القرن ، بتلك الظواهر الاجتماعية ، وما رصدته من صور التأنق والترف لكون أن كبار أولئك الكتاب قد نشأوا في بيئات خاصة مترفة ، أو في قصور الخلفاء والأمراء ، أو كان منهم من تسنم منصب الوزارة ، أو رئاسة الديوان الرسمي ، وفي طليعة أولئك الأدباء الكتاب ؛ أبو الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد ، وأبو إسحاق الصابي وغيرهم .

كما رصدت مكاتبات هذا القرن أيضاً ، جوانب أخرى ، عكست الجانب الآخر لهذه الحياة الاجتماعية المتطورة ، وتداعياتها الخطيرة ، وأعني بذلك ؛ جوانب البؤس والشقاء والحرمان لفئات المجتمع الكثيرة ، كما وثقت ، من جانب آخر طرفا من حياة الخلاعة أو المجون الذي ساد في بعض تلك الأوساط الخاصة كما سيأتي أيضاًحه وتحليله في فصول هذه الدراسة .

ولقد نتج عن سوء الحالة السياسية ، واضطراب أمور الإدارة في الدولة الإسلاميةأيضاً : اختلال النظام الاقتصادي ، وما ترتب عليه من خلل واضح في توزيع الثروات ، وانهيار النظام المالي في هذا القرن[35] .

ونتيجة لهذا كله ، فقد شهد المجتمع الإسلامي عمق التفاوت الاجتماعي ، والتمايز الطبقي بين فئات المجتمع ، وقد كان من نتائج هذا الانهيار الاقتصادي إبان هذا القرن ؛ انتشار الفوضى ، وكثرة الفتن ، وقيام الثورات ، وكان لهذا آثاره السيئة والخطيرة على الحياة الاجتماعية ، وانهيار الكثير من القيم والأعراف القويمة

---

[35] ذهب الأستاذ أحمد أمين الى أن الثروة لم تكن موزعة توزيعا عادلا ، ولا متقاربا ، وهذا أدى الى فساد النظام المالي في كثير من أقاليم الدول الإسلامية . تراجع التفاصيل في ظهر الإسلام 97/1 وما بعدها .

، وشيوع العادات البذيئة والأمراض الاجتماعية الخطيرة التي سنجد أصداءها الواضحة في أدب هذا القرن شعرا ونثرا ، وبخاصة في الرسائل الأدبية .

ونظرا لاضطراب الأوضاع الاقتصادية في هذا القرن ، وكثرة الأعباء المالية للدولة ؛ فقد كان جل اعتماد الخزينة على أموال الخراج وما تفرضه الدولة على رعاياها من ضرائب ، ولم يكن نظام الضرائب منظما ؛ بسبب سوء الأوضاع الإدارية ، ولذلك شهد نظام الضرائب خللا كبيرا انعكس صداه على الحياة العامة والطبقات الدنيا والفقيرة من رعايا المجتمع ؛ إذ كانوا عرضة للظلم والمصادرة وتعسف عمال الخراج وجباة الضرائب[36] ...

وبسبب حاجة الدولة لاستحصال الأموال ، فقد لجأت الى تضمين جباية الخراج وغيرها من الضرائب أيضاً ، فكانت تباع لأشخاص معينين ، وُتضمّن لهم على سبيل الالتزام لقاء دفع مبالغ محددة للدولة[37] ! وقد ترتب على ذلك قيام هؤلاء العمال أو المضمنين بابتزاز الأموال من الرعية ، بفرض الرسوم والضرائب الفادحة أضعاف ما دفعوه للدولة ، وقد كان لهذا كله أثر السيئ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، إذ نتج عنه عدم نماء الأموال أو استثمارها ، وانحسار العمران وفساده في هذا القرن ، فضلا عن ظهور بعض الأمراض الاجتماعية وانتشار البدع والمظاهر الرديئة لاسيما في بعض الأقاليم النائية في المشرق الإسلامي ويمكن تسليط الضوء في أخطر هذه المظاهر والأمراض الاجتماعية بما يأتي :

1. ظاهرة التسول أو الكدية :

---

[36] يراجع : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 192/2 وما بعدها ، حيث ذكر المؤلف صنوف التعذيب التي كان يتبعها هؤلاء العمال وغيرهم مع الرعية لاستحصال الضرائب وإخراج الأموال منهم .

[37] ينظر كتاب : تجارب الأمم 332/5 ، وإشارة المؤلف مسكويه الى تضمين قضاء بغداد عام 350هـ لأبي العباس بن أبي الشوارب ، ويراجع أيضاً في تضمين عضد الدولة وفرضه للضرائب على الراقصات في فارس لبعض تجار المال ، لقاء مبالغ مالية تسدد سنويا للدولة : أحسن التقاسيم 441/2 .

التمهيد :

لقد كان من تلك الأمراض الاجتماعية ، والمظاهر السيئة التي انتشرت في بغداد ، وبعض أقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن ، ظاهرة التسول أو الكدية [38]، وانتشار المكدين وانتظامهم في شريحة اجتماعية كبيرة ، اتخذت التسول وحرفة الأدب وسيلة للعيش ، والتحايل من اجل كسب قوتها اليومي .

ومما يلفت الانتباه ، ان كبار من احترف هذه المهنة (الكدية) في هذا القرن ، كالاحنف العكبري ، وأبي دلف الخزرجي [39]وغيرهما ، كانوا يلقون تشجيعا كبيرا ، ويحظون برعاية غامرة من لدن الأدباء ، وكبار رجال الطبقة الخاصة ، وينعمون بعطفهم وتقريبهم [40].

ومما يثير العجب أيضاً : ان بعض كبار الأدباء في هذا القرن ، كان لا يأنف من ان ينتسب الى هذه الطائفة (اهل الكدية) : فبديع الزمان الهمذاني مثلا في اكثر من موضع من رسائله القيمة ، كان يشير الى انضوائة لهذه الشريحة ، ويصرح باحترافه لهذه المهنة [41].

---

[38] من الشائع ان ظاهرة الكدية ظهرت قبل هذا القرن ، وان الجاحظ (ت 255هـ) من السباقين الى الكشف عن ظاهرة الكدية والمكدين واسمائهم وطبقاتهم ، وما سلكوا من حيل عجيبة لاستدرار عطف الناس وابتزاز اموالهم . (يراجع في طبقات المكدين واصنافهم : كتاب البخلاء (تحقيق الحاجري) في مواضع عدة .
وممن تأثر بالجاحظ في هذا الباب البيهقي في كتابه الشهير (المحاسن والمساوئي) في مطلع هذا القرن حيث توسع في الحديث عن هذه الطبقة . وطرف نوادرهم : كتاب المحاسن والمساوئي : 622 وما بعدها .

[39] تراجع ترجمة الاحنف العكبري (ابو الحسن عقيل بن محمد) شاعر المكدين وظريفهم في يتيمه الدهر 3/137-139 ، وتراجع ترجمة ابي دلف الخزرجي (مسعر بن مهلهل) وقصيدته الساسانية المشهورة في : اليتيمة أيضاً 3/412-416 وما بعدها .

[40] تراجع اخبار المكدين ، وبخاصة الاحنف العكبري وابي دلف الخزرجي مع الوزير الصاحب وتقريبه لهم ، وحفظه العجيب لمناكاة آل ساسان في : يتيمة الدهر 3/414 .

[41] ينظر : رسائل بديع الزمان الهمذاني (رسالة رقم 40) ص161-162.

ومما تجدر الإشارة إليه ، ان هذه الحرفة (الكدية) : وتعلق هذا الأديب الكبير بها ، واختلاطه بأربابها ، هي التي الهمت الهمذاني ان يبتدع في النثر الفني العربي لونا جديدا لم يسبق إليه ، ذلك هو (فن المقامات) الذي يقوم في جوهره على حكاية نوادر هذه الطائفة من المكدين في هذا العصر ، وقص مُلحهم الطريفة النادرة بأسلوب قصصي فني ساخر .

2ـ ظاهرة التلصص والسطو على أموال الناس :

والى جانب ظاهرة التسول أو الكدية ، انتشرت في أقاليم العراق والمشرق الإسلامي في هذا القرن أيضاً : ظاهرة التلصص ، واستشراء السرقة ، وقطع الطرق ، والسطو على أموال الناس ، فانتشر قطاع الطرق الذين اتخذوا السلب والسرقة مهنة لهم ، يرتزقون منها ، لكسب قوتهم ، وسد رمقهم [42].

وقد أشار الرحالة المقدسي [43] الى ما كانت تعانيه العامة في اقليم العراق وبعض أقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن ، من طبقة العيارين واللصوص والشطار وقطاع الطرق ، وقد كان لهذه الظاهرة الخطيرة آثارها الفادحة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في هذا القرن ، اذ إنها أدت الى شيوع الفوضى وعدم الاستقرار ، وانتشار البطالة ، وركود الحياة الاقتصادية ، وما تبع ذلك من انخفاض مستوى المعيشة [44].

لقد انعكست آثار هذه الظاهرة الخطيرة وتداعياتها في نتاج بعض أدباء هذا القرن ، كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وغيرهما ، اذ اظهر هؤلاء الأدباء تبرمهم مما تعرضوا له من سلب أموالهم ، وما عانوه من قطاع الطرق ومغيرة الإعراب [45].

---

[42] ينظر كتاب : حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي – د.محمد رجب النجار : 85-86 (ط الكويت 1981) .

[43] أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم 133/1 ، 448/2 ، 451 .

[44] تراجع التفاصيل في كتاب : ظهر الإسلام 107/1 وما بعدها .

[45] ينظر مجموع رسائل بديع الزمان الهمذاني (رسالة رقم 189) ص463 .

ومما تجدر الإشارة اليه ، ان هذه الظاهرة قد شاعت في هذا القرن حتى في حاضرة الخلافة الإسلامية ببغداد ، فكثيرا ما كانت تتعرض دار الخلافة للسرقة والسلب والنهب عقب عزل أي خليفة او وزير ، او قتله او سمله [46]!!

3ـ تفشي ظاهرة الخلاعة أو المجون :

وهي من الظواهر الاجتماعية الخطيرة التي استشرت في المجتمعات الإسلامية قبل هذا القرن ، الا ان هذه الظاهرة شاعت شيوعا ظاهرا في القرن الرابع ، نتيجة لتردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، وشيوع الفقر والحرمان بين فئات الطبقة العامة ، ولاسيما في الأقاليم النائية من المشرق الإسلامي.

ولم يقتصر تفشي هذه الظاهرة بين الطبقة العامة ، وانما تعداه الى وجوه الطبقة الخاصة ورموزها ، فاستشرى في مجالسهم العامرة ، وقصورهم الفارهة ومنتدياتهم الساحرة التي بالغوا في إعدادها للشراب والغناء ، وتهيئتها للهو والقصف واجترار اللذات الفانية .

وقد صورت بعض مصادر الأدب القديمة [47]، التي واكبت تلك الاحداث او عاصرتها في هذا القرن ، تلك المظاهر الاجتماعية الخطيرة ، والحياة الماجنة التي

---

[46] تراجع التفاصيل في : الكامل في التاريخ 254/7 وما بعدها .

[47] في طليعة تلك المظان المهمة ، كتب الثعالبي ، واهمها : يتيمة الدهر ، والفصول الكثيرة التي دونها في هذا السفر النفيس ، والنصوص الأدبية التي انفرد أحياناً كثيرة ، بتسجيلها وايرادها ، والتي صورت تلك الجوانب الاجتماعية المهمة . فضلا عن كتابي المحسن التنوخي الشهيرين : (نشوار المحاضرة) ، (الفرج بعد الشدة) ، اللذين جسد فيهما ما= =يدل على اخلاق اهل تلك الأزمنة ، وسننهم وطرائقهم وعاداتهم ، ليحث القارئ على ان يقايس – كما قال في مقدمة كتابه – بين ما نحن فيه ، وما مضى ، ليعلم كيف ماتت الدنيا ، وانقلبت الاهواء ، وانعكست الآراء ، وفقدت المكارم . ومن تلك المظان المهمة أيضاً : كتب التوحيدي ، وأهمها : الإمتاع والمؤانسة ، ينظر على سبيل المثال ما صوره واحصاه عن المغنين والمغنيات في بغداد ابان هذا القرن 183/1 ، فضلا عن كتبه الأخرى . وهذه

أمست سافرة دون حجاب أو مواربة ، فصورتها بشكل واضح ، ورسمت لها صورة حية ودقيقة.

لقد سلكت بعض فئات الطبقة العامة من رعايا الدولة الإسلامية، نتيجة للفقر المدقع ، وعدم قدرتهم في الحصول على المال بالطرق المشروعة ، سلكت طرقا شائنة ، ومارست أفعالاً بذيئة ، تتنافى مع القيم الرفيعة والخلق القويم [48].

وقد رصد أدب المكاتبات في هذا القرن ، هذه الجوانب الاجتماعية الخطيرة وصورها خير تصوير ، ولعل ادق ما وصل الينا من ذلك ، ما نقله ابو منصور الثعالبي في بعض تصانيفه القيمة ، من غرر ألفاظ اهل هذا العصر في أوصاف (المرد من الغلمان) ، وما يشاكه ذلك من جوانب أخرى [49].

ومن صور المجون الأخرى التي استشرت في هذا القرن أيضاً :

المجاهرة بشرب الخمرة ، ومعاقرة كؤوسها ، ووصف سقاتها وندمانها [50].

وهكذا يتضح بجلاء ، ان الأدب العربي ، وبخاصة الرسائل الأدبية في هذا القرن المضطرب ، قد تأثر بهذه المظاهر الاجتماعية ، وانعكاساتها المؤثرة ، فصورها بدقة متناهية ، وجسدها بأمانة ووضوح ، ومن هنا فقد اصبحت نصوص

المصادر وغيرها تعد وثائق مهمة جسدت أحداث هذا القرن في أقاليم المشرق الإسلامي وما سواها .

[48] يراجع ما وثقه المقدسي في كتابه : احسن التقاسيم عن انتشار الفسق في مدينة (السوس) 407/2 ، وما ساقه عن مدينة (سيراف) وكيف كان يضرب المثل بفسقهم 436/2 ، ويراجع ما ذكره عن (شيراز وأهلها) 429/2 . وينظر أيضاً : الحضارة الإسلامية – متز 168/2 .

[49] من غاب عنه المطرب : 145–146 .

[50] يراجع الفصل الذي عقده الثعالبي في ذكر " وصف الخمر من كلام البلغاء " في هذا القرن : من غاب عنه المطرب :161 وما بعدها ، وينظر أيضاً : الفصل الآخر الذي عقده الثعالبي أيضاً في الكتاب المذكور (في اوصاف الندماء) ص165–166 ، ويراجع أيضاً ما ذكره في يتيمة الدهر 393/2 ، عن صفة الندماء في هذا القرن .

هذه الرسائل الأدبية وثائق تاريخية وادبية مهمة ، كشفت عن ادق احداث المجتمع الإسلامي في هذا القرن ، والصراع الدائب بين طبقاته المختلفة ....

ثالثا : الحالة الثقافية في القرن الرابع وآثرها في الرسائل الأدبية :

لقد شهد هذا القرن ازدهار الثقافة ، والحياة العلمية والأدبية ازدهارا كبيرا في سائر الامارات والممالك الإسلامية المستقلة [51].كما شهد تطور الحياة العقلية ونضجها على الرغم مما مني به هذا العصر من تدهور الامور السياسية واضطرابها ، وما تبع ذلك من تجزؤ اوصال الدولة الإسلامية، وسوء الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، وتداعياتها الخطيرة ، كما سبقت الإشارة اليه آنفا ، وفضلا عما كان عليه كثير من العلماء والأدباء ، في هذا القرن ، من بؤس وحرمان واضطهاد ...

وهكذا ، فقد تزدهر العلوم والآداب ، وتتطور الحياة الفكرية ، في عصور الضعف السياسي ، والانهيار الاجتماعي والاقتصادي – كما حدث في هذا القرن – وعلى النقيض من ذلك ، فقد يخبو الفكر ، ويذوي عطاء العلم ، وتذبل دوحة الأدب ، وتنكمش معالم الثقافة ، وتنحسر ملامح الإبداع والتجديد في عهود الاستقرار السياسي والاجتماعي .

وقد اكد هذه الحقيقة العلمية بعض مؤرخي الأدب والثقافة حين ذهب الى ان الحركة الثقافية ، والحياة العلمية والأدبية لا تتبع الحالة السياسية ، قوة وضعفا ، فقد تسوء الحالة السياسية ، وتزدهر الى جانبها الحياة العلمية والأدبية [52].

---

[51] على الرغم من ازدهار الثقافة وخصب الحياة العلمية والادبية في هذا القرن ، الا ان بعض العلماء والمؤرخين شكا تقهقر زمانه ، وكساد العلم فيه ، وقد تجلى هذا واضحا فيما نفث به المؤرخ الشهير= =المسعودي (ت 345هـ) اذ قال : " ان العلم قد بادت آثاره ، وطمس مناره ، وكثر فيه الغباء ، وقل الفهماء فلا تعاين الا مموها جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا " . ينظر : كنوز الاجداد : 112 .

[52] تراجع التفاصيل في : ظهر الإسلام 96/1 .

التمهيد :

وانطلاقا من رحب هذه الحقيقة ، فاننا يمكن ان نقرر باطمئنان تام ، مع بعض الباحثين ومؤرخي الأدب الذين سبقونا الى ذلك [53]،بان القرن الرابع الهجري ، يعد من الناحية العلمية ، ونشاط الحركة الثقافية ، عصر النضج الفكري وازدهار الحضارة الإسلامية، وهو بحق ازهى العصور الإسلامية. على الرغم مما انتشر فيه من مظاهر الفساد الاجتماعي ، وما ران عليه من حالات الضعف السياسي ، والانهيار الاقتصادي ، ففي هذا القرن قد تأصلت العديد من العلوم والمعارف المتنوعة ، وأرسيت دعائمها ، بعد ان اجتازت عبر القرون الثلاثة السابقة مرحلة الاقتباس والتأثر والنشوء ، فأتت في هذا القرن قطوفها اليانعة ، وجناها الناضج الرغيد .

ولقد شهد هذا القرن أيضاً : بروز اعلام متميزين في حقول المعرفة المختلفة كالفلسفة والطب والرياضيات والفلك وغيرها ، فكانوا بمثابة مدارس علمية جامعة وإضافة نوعية الى حقول المعرفة الإنسانية الخالدة .

فضلا عما شهده هذا القرن أيضاً من نشاط حركة التأليف والتصنيف وهضم ما تم ترجمته او نقله عن الامم الأجنبية الأخرى في القرنين السابقين فكان بعض ثمار ذلك ما ظهر في هذا العصر من تصانيف نادرة ، وموسوعات علمية مستفيضة في العديد من فروع العلوم والمعرفة الإنسانية المختلفة [54]،او ما تجلى في اعادة

---

[53] يراجع ما ذهب اليه في هذا الجانب : الاستاذ متز : الحضارة الإسلامية في مواضع كثيرة متفرقة من فصول الكتاب التاسعة والعشرين ، وينظر أيضاً : ظهر الإسلام 92/1 ، الادب في ظل بني بويه : 39.

[54] تراجع مثلا : جهود الكندي في الفلسفة والمنطق والعلوم الاخرى . (ينظر : تاريخ الادب العربي – بروكلمان 127/1) ، وقد احصى ابن النديم في الفهرست ، وابن ابي اصيبعة =في طبقات الاطباء ، رسائله في حدود (280–240) رسالة ومصنف ، وينظر أيضاً : رسائل الكندي الفلسفية ، نشر ابو ريدة (طبع مطبعة الاعتماد – القاهرة) ، وكتاب : الكندي فيلسوف العرب – للاهواني (ط المؤسسة المصرية للتأليف) .

وتراجع أيضاً جهود ابي بكر الرازي (ت 320 هـ) في الطب والكيمياء والإلهيات وغيرها ، تراجع قائمة مصنفاته ورسائله في : اخبار العلماء للقفطي : 178–182 الفهرست : 518 ،

ترجمة او شرح وتحليل كثير من مؤلفات علماء الاغريق وفلاسفتهم في علوم الطب والرياضيات والفلسفة والمنطق ، وسواها من العلوم والمعارف الاخرى [55].

وفضلا عن هذا كله : اتساع نطاق الدراسات المستفيضة عن القرآن والحديث وعلوم الفقه والقراءات والتفسير ، وسواها من المؤلفات النادرة في حقول التاريخ والجغرافية ، وعلوم اللغة والنحو ، ولم تتخلف الدراسات الأدبية والنقدية في هذا القرن أيضاً عن ركب هذه الظاهرة الحضارية المتميزة ، فقد شهد هذا القرن ظهور اجل الدراسات الأدبية والنقدية التي اضحت فيما بعد ، منهلا ثرا لادباء ونقاد العرب والغرب وغيرهم في العصور اللاحقة ...

وهكذا كان نشاط حركة التأليف في مختلف آفاق المعرفة في هذا القرن ، ادق شاهد على خصب الحياة العقلية ، وازدهار الحركة الثقافية ، ونضج سبل المعرفة بجميع فروعها ، ومن هنا فقد كانت تلك المصنفات الغزيرة وثائق تاريخية مهمة ، تكفلت بالكشف عن ادق مجريات هذا العصر ، وآفاق المعارف المختلفة ، والوان الثقافات فيه .

وينظر أيضاً رسائل فلسفية – د.ناجي التكريتي ود.صالح الشماع : 12 وما بعدها ، وقد نشر في باريس عام 1933م فهرس كتبه الذي احتوى على جميع مصنفاته ورسائله ، وقد ذكر له في الطب اكثر من 56 مصنفا اشهرها : المنصوري في الطب (عشر مجلدات) وقد أهداه للأمير الساماني المنصور بن إسحاق في خراسان والحاوي في الطب ، وهو دائرة معارف طبية يقع في اثني عشر قسما ، وقد ترجم الكتابان الى لغات عديدة .

[55] تراجع مثلا جهود الفارابي (ت339هـ) وتلاميذه في الرياضيات والإلهيات والطبيعيات فضلا عن الفلسفة والمنطق ، وعنايته بشرح كتب ارسطو . ينظر : القفطي :182 تاريخ بروكمان 138/4 ، وينظر أيضاً جهود تلاميذه (يحيى بن عدي وتلميذه ابي سليمان السجستاني وجهودهما في نفوذ الافلاطونية الجديدة – القفطي : 126 ، تاريخ يردكمان 138/4 وما بعدها . وينظر أيضاً : جهود اخوان الصفاء ورسائلهم في هذا المجال : تاريخ بروكمان 154/4 ، رسائل فلسفية :61 وما بعدها . ويراجع تحليل لآرائهم وفلسفتهم في الامتاع والمؤانسة 4/2 وما بعدها (الليلة السابعة عشرة) .

التمهيد :

دواعي ازدهار الحركة الثقافية وخصب الحياة العقلية :

لقد تهيأت عوامل عديدة في هذا القرن ، أسهمت مجتمعة في خلق هذه النهضة العلمية الرائدة ، وايقاد جذوتها ، كما هيأت لخصب الحياة العقلية ، وانطلاق الفكر في آفاق رحبة من الحرية والتسامح ، بعيدا عن التزمت المقيت ، فكان ذلك كله حافزا قويا لفتح باب النقاش والجدل ، وعقد المناظرات والمساجلات في المحافل والمنتديات في مختلف العلوم التي كان يشتد فيها الجدل والخلاف ، لاحتواء هذا الفيض العلمي المتنامي ، والتعبير عما آل اليه الفكر الإسلامي من نضج واستيعاب لادق القضايا العلمية والمسائل الدينية او الفلسفية العميقة ، .

اما اهم العوامل التي هيأت لازدهار الثقافة وخصب الحياة العقلية فهي :

1-اهتمام امراء الممالك الإسلامية بالعلم ورعاية العلماء ، والاغداق عليهم [56]، فكانت تلك الأمارات المستقلة تتنافس فيما بينها لجذبهم ، وشد الرحال الى ممالكهم لتحوز قصب السبق في هذا الميدان ، لبناء حياتها المادية والعلمية بشكل تتميز به عن غيرها من الممالك او الامارات المستقلة الاخرى. فالسامانيون مثلا ، حرصوا منذ قيام ملكهم على بعث نهضة علمية عظيمة ، وذلك بتشجيعهم للعلماء والأدباء ، والاكثار من صلاتهم [57].وقد اكد الرحالة المقدسي – وهو احد من عاصر ملكهم – مشيرا الى سيرة ملوكهم وعدلهم فقال [58]: ".... وهم من أحسن الملوك سيرة ونظرا ، وإجلالاً للعلم وأهله ..... ومن رسومهم انهم لا يكلفون اهل العلم تقبيل الأرض .".

---

[56] يراجع ما ذكره السبكي في طبقات الشافعية 115/2 عن اغداق الصفاريين في سجستان على ابي عبد الله البوشنجي – احد علماء الحديث بنيسابور – وتحوله بعد ذلك عنهم الى السامانيين ببخارى ، وفرضهم له راتبا شهريا مجزيا .

[57] يراجع ما ذكره السبكي أيضاً عن الامير اسماعيل بن احمد الساماني من انه كان يصل محمد بن نصر المروزي ، امام المحدثين ، باربعة الاف درهم كل سنة . (طبقات الشافعية 192/2) .

[58] احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم 338/2-339 .

التمهيد :

واما الأمراء العرب الحمدانيون في حلب ، فقد بلغوا الغاية في احياء العلم والأدب ، وإكرامهم للعلماء والأدباء والفلاسفة في أمارتهم ، وكان واسطة عقدهم في ذلك الأمير سيف الدولة ، الذي نجح في تحقيق نهضة علمية كادت تعيد عهد الرشيد والمأمون ، اذ جمع بلاطه اعاظم الأدباء والعلماء والفلاسفة ، ولعل اشهر فلاسفة الإسلام الذين استقروا في كنفه ، ابو نصر الفارابي [59](ت339هـ) .

ويشيد الثعالبي كثيرا بسيف الدولة ، ويصف حضرته بانها :"مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرجال ... ويقال : انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك – بعد الخلفاء – ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر " [60]".

ولعل عهد الامراء البويهيين في هذا القرن يمثل ازهى مراحل الثقافة ، وخصب الحياة العقلية ، اذ تعددت في عهدهم مراكزهم الأدبية والعلمية ، تبعا لاتساع نفوذهم ، وتعدد حواضرهم ، فكانت الري واصبهان وشيراز ثم بغداد ، مقصد الأدباء والعلماء والفلاسفة ، حيث الامراء ووزراؤهم الذين عظمت هيبتهم وبلغوا الغاية في العلم والأدب ، وبرعوا في تدبير امور الدولة والادارة وشؤون الحرب ...

ولقد كان عهد الامير عضد الدولة (372–367هـ) – على قصره – ازهى عصر الامارة البويهية من الناحية العلمية في هذا القرن ، وقد اشاد المقدسي بعناية عضد الدولة البويهي بالعلوم والكتب ، ونوه بتبحره بالعلوم ، ولا سيما علم النجوم [61].

ولم تكن الأمارة الغزنوية اقل اهتماما من لداتها الأمارات المستقلة الأخرى او لتند عنها في الاهتمام بالعلوم والآداب ، ورعاية الحركة الثقافية والعلمية في هذا القرن ، لاسيما بعد اتساع أطراف هذه الأمارة الإسلامية في عهد السلطان محمود

---

[59] تراجع التفاصيل في ملازمة الفارابي لسيف الدولة واقامته في حضرته : اخبار العلماء : 183 .

[60] يتيمة الدهر 1/37–38 .

[61] احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم 2/449–450 ، وينظر أيضاً اشارة ابي الفداء في تاريخه الى هذا الجانب : المختصر في اخبار البشر 1/465–466.

الغزنوي (421–388هـ) ، وكذا في عهد ابنه السلطان مسعود الذي لم يختلف عن ابيه في تشجيع العلم والأدب ، يقول ابو الفداء في تأريخه [62]:

"وكان – أي السلطان مسعود الغزنوي – كثير الاحسان الى العلماء ، فقصدوه ، وصنفوا له التصانيف الكثيرة ، وكان يكتب خطا حسنا ، وكان ملكه عظيما فسيحا ...".

وهنالك ممالك ودويلات اعجمية اخرى لم تكن اقل اهتماما بالعلوم والاداب وتشجيع العلماء والأدباء ، والاغداق عليهم من الامارات المارة الذكر ، ومن تلك الامارات المستقلة الامارة الزيارية في طبرستان وجرجان ، وامارة خوارزم وغيرها .

2ـ كثرة المجالس والمنتديات العلمية والأدبية :

تعد المجالس والمنتديات العلمية والأدبية التي كانت تعقد باستمرار في بغداد وكثير من حواضر الامارات المستقلة في هذا القرن ، من البواعث المهمة التي ادت الى ازدهار الحركة الثقافية ، وخصب الحياة العقلية ، اذ كانت تلك المجالس العلمية مجالا رحبا للمناقشة والبحث ، او المناظرة والمساجلة في كثير من فروع العلم والأدب ، وأفانين المعرفة ، وكانت تلك المجالس كثيرا ما تحفل باساطين الفكر والثقافة ، وجهابذة الأدب والعلم والفلسفة ، او اعلام السياسة والكلام وغيرهم .

وكانت تلك المجالس كثيرا ما تعقد في المساجد او الأسواق المخصصة للوراقة ، ونسخ الكتب [63]، وهذه هي المجالس العامة . وهناك مجالس او منتديات علمية او ادبية خاصة ، كانت تعقد في حضرة الخلفاء والرؤساء والوزراء ، او في

---

[62] تاريخ ابي الفداء (المختصر في اخبار البشر) 518/1.

[63] لقد كانت بعض محال نسخ الكتب والوراقة في هذا القرن كثيرا ما تتحول في مواسم معينة الى مجالس علمية او ادبية تشع بالمعرفة واريج الثقافة ، يراجع مثلا ما اشار اليه صاحب طبقات الشافعية 168/3 ، عن محل وراقة ابي بكر الصبغي الفقيه ، ويراجع ما ذكره ياقوت : معجم الادباء 213/18 ، عن ابي عبد الله الكرماني النحوي الوراق.

قصورهم او في منتجعاتهم الخاصة ، ومنها ما كان يعقد أيضاً في منازل العلماء مع تلاميذهم ، او من يقصدهم من طالبي العلم والمعرفة ، او غيرهم .

لقد كانت مجالس الخلفاء والأمراء التي حفلت بالأمور العلمية والمسائل الفلسفية او قضايا اللغة والأدب والفقه وغيرها ، مشهورة وشائعة منذ القرنين الثاني والثالث للهجرة ، وتطفح كتب الأدب واللغة والامالي والفقه وغيرها ، بسرد ما كان يقع في تلك المجالس او المحافل الخاصة من مناظرات ومحاورات بين العلماء والأدباء وغيرهم [64].

وفي القرن الرابع كثرت تلك المجالس والمنتديات العلمية والأدبية ، وبخاصة في حاضرة الخلافة بغداد [65]، فضلا عن حواضر الامارات والممالك الإسلامية المستقلة .

وممن اشتهر بكثرة مجالسه في بغداد من وزراء هذا القرن : ابو الفتح الفضل ابن جعفر بن الفرات . ولعل المناظرة [66]المسهبة التي جرت في مجلسه بين ابي

---

[64] يراجع مثلا ما اورده الزجاجي (ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ت 337هـ) في اماليه من مناظرات ومساجلات مما دار في مجالس اولئك الخلفاء كالمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم : امالي الزجاجي :58–59 ، 59–62 وغيرها . ويراجع أيضاً : ما اورده في (مجالس العلماء) من مناظرات نحوية ولغوية بين علماء النحو واللغة . ويراجع ما اورده المسعودي من مناظرات عديدة في مجلس المأمون : مروج الذهب= 19/4 ، 20 ، 24–25 ، 25–26 ، ويراجع ما ساقه المسعودي عن مجلس الخليفة الواثق : مروج الذهب 77/4–81 ، وما اورده عن مجلس المنتصر 139/4 وغيرها .

[65] لعل اشهر من عرف من خلفاء بني العباس في هذا القرن ، بعقد تلك المجالس ، الخليفة الراضي (329–322هـ) ، ينظر : اخبار الراضي والمتقي : 9 وما بعدها ، وتراجع اخبار اخرى عن مجالس الراضي والمستكفي في كتاب : مروج الذهب ومعادن الجوهر 328/4 ، 362 ، 358 .

[66] تراجع هذه المناظرة في : الامتاع والمؤانسة (الليلة الثانية) 128/1–109 ، وقد رواها التوحيدي نقلا عما دونه استاذه علي بن عيسى الرماني باملائه ، وتراجع هذه المناظرة أيضاً في : معجم الادباء 190/8 وما بعدها .

سعيد السيرافي ، وابي بشر متى بن يونس ، عام 326 هـ ، في المفاضلة بين النحو والمنطق ، خير دليل على ما بلغته تلك المناظرات والمساجلات التي كانت تنتظم تلك المجالس العلمية من نضج عقلي ، واوضح شاهد على ازدهار الحركة الثقافية والعلمية في هذا القرن .

اما مجالس العلم والأدب والمناظرة في حواضر الامارات والممالك الإسلامية المستقلة في هذا القرن ، فهي كثيرة ومتنوعة ، ولعل اشهرها ما كان يعقد في حواضر ومدن الامارة البويهية ، كالري وشيراز واصبهان وغيرها .

ولعل الامير البويهي عضد الدولة اشهر امراء بني بويه الذين وسعوا باب الحوار والجدل والمناظرة في مجالسه [67].

اما اشهر وزراء البويهيين الذين عرفوا بكثرة مجالسهم العلمية ومنتذياتهم الأدبية ، وما كان يجري فيها من مساجلات ومناظرات متنوعة ، فلعل في طليعتهم : ابا الفضل ابن العميد [68]، وابا القاسم الصاحب بن عباد ، وابا عبد الله العارض ابن سعدان[69] ، وغيرهم .

---

[67] ينظر ما كان يعقده الامير عضد الدولة من مناظرات ومساجلات في مجالسه بشيراز ، وسماحه للناس جميعا بالجدل والمناقشات ، ويراجع أيضاً خبر استدعائه لابي بكر الباقلاني ، لمناظرة المعتزلة في مجلسه : مروج الذهب 86/4 ، كنوز الاجداد 207–208 .

[68] يراجع عن قيمه مجالس ابن العميد : معجم الادباء 191/14 ، وينظر عن اثر مجلس ابن العميد واشعاعه في ثقافة العصر ، ما حكاه الصاحب بن عباد في كتابه : (الابانة عن سرقات المتنبي : 222 ، ط دار المعارف – القاهرة) ، وما سجله عن ابي الفضل وسمو ذوقه في مجالسه ، ومما ذكره الصاحب قوله : " وعن مجلسه – اعلاه الله – اخذت ما اتعاطى من هذا الفن . " ، وتراجع تفاصيل مهمة اخرى عن مجلس ابن العميد في : النثر الفني في القرن الرابع 238/2 وما بعدها .

[69] يراجع في ذكر مجالس الوزير ابن سعدان ، وندمائه ، والطارئين على حضرته : رسالة الصداقة والصديق للتوحيدي : 30 ، وتراجع تفاصيل مهمة اخرى عن مجلسه في : الادب في ظل بني بويه : 134 وما بعدها .

ولعل ما اشتهر من صلة ابي حيان التوحيدي بهذا الوزير ، ومنادمته له ، وما كان يحدثه به في لياليه من الوان الاحاديث العلمية والفلسفية والأدبية ، وهي التي ضمها كتابه النفيس (الامتاع والمؤانسة) ، خير ما يوضح طبيعة مثل هذه المجالس العلمية ، التي كانت منارا للعلم والأدب ، وينبوعا ثرا للفكر والثقافة ، اسهمت بعمق في رفد الحياة الثقافية والعقلية في هذا القرن .

ولم يتخلف الامراء السامانيون ووزراؤهم في خراسان ابان هذا القرن عن امراء بني بويه ووزرائهم في تشجيع العلوم والاداب ، او في عقد المجالس العلمية ومنتديات الأدب في هذا القرن .

فالرحالة المقدسي – وهو من اهل هذا القرن ومعاصريهم – يشير الى امراء آل سامان ، وما كانوا يعقدونه من مناظرات علمية في مجالسهم العامرة فيقول [70]:

" ولهم – أي امراء بني سامان – مجالس عشيات جمع شهر رمضان للمناظرة ، بين يدي السلطان ، فيبدأ هو فيسأل (مسئلة) ثم يتكلمون عليها " .

ومما يؤكد أيضاً ، عناية امراء السامانيين ، في هذا القرن ، بمجالس المناظرة ، ما اشار اليه التوحيدي من ان الملك السعيد – يعني الامير نصر بن احمد الساماني الذي خلف اباه بعد مقتله – هم بالجمع بين ابي سعيد السيرافي وابي علي الفارسي للمناظرة في مجلسه ، الا ان ذلك لم يتحقق له بسبب موت ابي سعيد السيرافي في رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة [71].

ولم يقف الامراء السامانيون ووزراؤهم في هذا القرن عند عقد هذه المجالس والمنتديات العلمية والأدبية ، او الجمع بين العلماء والأدباء والفلاسفة للمناظرة في حضرتهم فحسب ، وانما دأبوا أيضاً على الاتصال باولئك العلماء عن طريق

---

[70] احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم 339/1 .

[71] تراجع التفاصيل في : الامتاع والمؤانسة 131/1 .

مراسلتهم ، وتوجيه الاسئلة اليهم ، طلبا للعلم ، او دفعاً لما يواجههم من معضلات ، او مشاكل دينية او لغوية او غير ذلك [72].

ومن المجالس او المنتديات العلمية الخاصة في هذا القرن أيضاً ، ما كان يعقد في بيوت العلماء . او في منتجعاتهم الخاصة مع تلاميذهم ، او مع من يقصدهم من طالبي المعرفة ، او غيرهم .

وقد كانت هذه المجالس الخاصة تحفل غالبا بالمناقشات والمحاروات ، او المناظرات والمساجلات في مختلف العلوم والموضوعات ، وكانت غالبا تمثل خلاصة تجارب العلماء ، وذوب عقولهم التي تفصح عن خبء عطائها الثر ...

وممن اشتهر من اولئك العلماء الذين كانوا مقصد طلبة العلم ، بمنتجعاتهم الخاصة في هذا القرن : ابو محمد عبد الرحمن بن محمد بن ادريس الرازي (ت 327 هـ [73]) ، وابو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي ، وغيرهما [74].

3ـ كثرة المكتبات ودور العلم وانتشارها :

كان من البواعث المهمة التي عملت على نشاط الحركة العلمية والأدبية ، ونشر الثقافة ، ونضج الحياة العقلية في القرن الرابع أيضاً : كثرة المكتبات الخاصة والعامة ، وانتشارها ، وإنشاء خزائن الكتب الضخمة [75] في اقاليم عديدة من بلاد

---

[72] يراجع ما اشار اليه التوحيدي في الامتاع والمؤانسة 129/1–130 ، من ان الامير نوح بن نصر الساماني كاتب ابا سعيد السيرافي ، وسأله عن مسائل تزيد على اربعمائة مسألة الغالب عليها الحروف وباقي ذلك امثال مصنوعة على العرب ، شك فيها ، فسأل عنها واشار التوحيدي أيضاً ، الى ان هذا الكتاب كان مقرونا بكتاب الوزير الساماني (البلعمي) وقد ضمنه مسائل في القرآن وامثالا للعرب مشكلة ، فسأله عنها أيضاً .

[73] ينظر : النجوم الزاهرة 265/7 .

[74] ينظر : اخبار العلماء باخبار الحكماء : 186 .

[75] انشأ الخليفة الرشيد (ت193هـ) خزانة الحكمة في بغداد ، ثم تطورت في عهد الخليفة المأمون (ت 218هـ) الى ما يشبه معهدا علميا كبيرا ، اذ الحق بها مرصدا ضخما ،

الإسلام ، فضلا عن إنشاء دور العلم وانتشارها في هذا القرن أيضاً ، فكانت تلك المكتبات الضخمة ، ودور العلم المنظمة ، بمثابة جامعات او مؤسسات علمية عامة ينهل من فيضها الدافق طلبة العلم كل اصناف العلوم والوان المعرفة ...

وقد اسهم بعض الخلفاء – منذ عصر الرشيد والمأمون [76]وامراء الممالك الإسلامية الذين عنوا بالثقافة ، وعملوا على نشر العلوم والآداب ، أسهموا في انشاء المكتبات ونموها ، ورفد خزائنها الضخمة بالكتب النادرة ، وعملوا على جمع المخطوطات النفيسة النادرة ، واقتنائها ، او جلبها من البلدان النائية ، فكان لذلك كله أثره الكبير في اتساع دور الكتب وخزائنها ، وانتشارها في هذا القرن .

ولم تقتصر العناية بالمكتبات وخزائن الكتب في هذا القرن على الخلفاء وحدهم ، وإنما شمل ذلك أيضاً كثيرا من الرؤساء وأمراء الممالك المستقلة ، وشمل أيضاً كثيرا ممن تسنم منصب الوزارة او رئاسة الديوان الرسمي .

ولعل ولع الامراء البويهيين ، ومن تسنم لهم منصب الوزارة من أتباعهم في هذا القرن ، بالكتب والمخطوطات النادرة ، وجمعها ، وتنظيم خزائنها ، فضلا عن

ووظف فيها كثيرين للترجمة . (ينظر التفاصيل في : بيت الحكمة – سعيد الديوه جي : 32 وما بعدها) . وقد عد نواة بيت الحكمة قد انشئ منذ عهد المنصور ، وقد تأسست منذ ذلك العصر مكتبات كثيرة ، عامة وخاصة . (تراجع التفاصيل في : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 325/1 وما بعدها) . وذكر ياقوت في معجم الادباء 191/7 ، ان جعفر بن محمد الموصلي الشافعي ، احد ادباء العصر ، اسس مكتبة حوت جميع العلوم والفنون ، وقد وقفها على كل طالب علم . اما المكتبات الخاصة فكانت كثيرة ، اذ كان كثير من العلماء والسراة يمتلكون مكتبات خاصة تموج بالكتب النادرة (ينظر : العصر العباسي الثاني : 125) .

[76] ذكر القلقشندي (صبيح الاعشى 466/1) ان اعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن : احدها ، خزانة الخلفاء العباسيين في بغداد ، والثانية : خزانة الخلفاء الفاطميين في مصر ، والثالثة : خزانة خلفاء بني امية بالاندلس . وينظر أيضاً : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 322/1 وما بعدها .

حبهم للعلوم والآداب ، يفوق اهتمام غيرهم من حكام الممالك المستقلة الأخرى في هذا القرن .

فالأستاذ متز [77] يذكر – نقلا عن بعض المظان القديمة – " انه في سنة 357هـ/967م صودر (حبشي بن معز الدولة) ، لانه اراد عصيان اخيه . امير بغداد ، فكان من جملة ما اخذ منه خمسة عشر الف مجلد ، سوى الأجزاء ، وما ليس بمجلد " .

وهذا دليل واضح على اهتمام أمراء بني بويه – وحتى المغمورين منهم – بالثقافة والعلوم ، وما يتعلق بها من الكتب والمخطوطات النادرة وخزائنها .

ولعل الأمير عضد الدولة البويهي (ت 372هـ) اشهر من عني من آل بويه بالكتب وجمعها ، وجلبها من الآفاق المختلفة ، وتنتظم خزائنها الكثيرة [78].

وربما فاق اهتمام بعض وزراء بني بويه ، عناية أسيادهم من الأمراء ، بالعلوم والآداب ، وجمع مصادرها ، واجتلاب الكتب ونفائس المخطوطات من الأنحاء النائية المختلفة ، وتنظيم خزائنها ، وتنصيب اجل العلماء الأكفاء للأشراف عليها .

فقد طبقت الأفاق شهرة الوزير الأديب ابي الفضل ابن العميد ، وعنايته الفائقة بالكتب والمخطوطات النادرة ، وحرصه عليها ، وجمعها ، وتنظيم خزائنها وما كانت تحويه من نفائس الكتب المتنوعة ، اذ كانت تقدر أعدادها بما يحمل على مائة وقر ، حتى ان خازنها المؤرخ الأديب ابن مسكويه – الذي يعد واحدا من كبار المفكرين والأدباء في هذا القرن – قد افاد منها كثيرا ، وعدت منبعا ثرا من مصادر ثقافته الغزيرة ، لما حوته تلك المظان من كل جليل من متون المعرفة [79].

---

[77] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 325/1 .

[78] يراجع وصف الرحالة المقدسي دار عضد الدولة التي ابتناها بشيراز ، ووصفه لخزانة كتبه العجيبة التي تدلل على عنايته واهتمامه بخزائن الكتب ونفائس المخطوطات ، احسن التقاسيم 449/2 .

[79] تراجع التفاصيل في : معالم الحضارة الإسلامية : 201 وما بعدها .

التمهيد :

وربما لا تقل شهرة ابي القاسم الصاحب بن عباد عن شهرة أستاذه ابن العميد في هذا الجانب ، بل ربما تزيد عليها ! فقد اشتهر الصاحب بولعه بالعلوم والآداب ، وكثرة جمع الكتب ، وتنوع فنونها ومعارفها [80]، والعناية بتجليدها ، والمبالغة بزخرفتها ، وتنظيم خزائنها ، حتى ان فهرس كتبه كان يقع في عشرة مجلدات [81].

ومن طرف ما يروى عن هذا الوزير الأديب في هذا الجانب ، ان السلطان نوح ابن منصور الساماني استدعاه ، ليوليه الوزارة في امارته بخراسان ، فكان مما اعتذر به الصاحب انه لا يستطيع حمل أمواله ، وان عنده من كتب العلم خاصة ، ما يحمل على أربعمائة جمل او أكثر [82].

اما ابو نصر سابور بن اردشير ، وزير بهاء الدولة البويهي ، فلعل اجل مأثرة اسداها في هذا الجانب هي أنشاؤه مكتبة في الكرخ ببغداد عام 383هـ ، وقد كانت تحتوي على أكثر من عشرة الآف مجلد ، وقد ظلت قائمة الى ان احترقت حين دخل السلاجقة بغداد عام 450هـ [83].

وهكذا نخلص الى حقيقة مهمة تلك هي ان الأمراء البويهيين ، وكثيرا من وزرائهم ، وكبار كتابهم ، كانوا يرعون العلم ، ويعنون بالأدب ، ويشجعون التأليف والتصنيف في بلادهم ، على نحو لم يكن له نظير في الأمارات والممالك الإسلامية الاخرى .

وكان ما عمل على ازدهار الحركة الثقافية ، فضلا عن انشاء المكتبات ، ودور الكتب في العراق والممالك الإسلامية المستقلة في هذا القرن ، انشاء دور العلم وانتشار المؤسسات العلمية العامرة أيضاً [84].

---

[80] يراجع ما ذكره ياقوت (معجم الادباء 315/2) ، عن خبر دخول محمود الغزنوي الري واستخراج ما كان في بيت كتب الصاحب بن عباد في علم الكلام واحراقه .

[81] ينظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 326/1 .

[82] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 326/1 .

[83] ينظر : الكامل في التاريخ 246/9-247.

[84] تراجع التفاصيل في كتاب : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 329/1 وما بعدها حيث افاض المؤلف في ذكر تلك المؤسسات العلمية ، ومن قام بأنشائها في العراق واقاليم المشرق الاسلامي ، واشار المؤلف أيضاً ، الى دور الخلفاء الفاطميين في مصر بهذا الجانب .

التمهيد :

لقد قامت هذه المؤسسات العلمية الجديدة – الى جانب ما تحويه من خزائن الكتب النفيسة القيمة – بنشر العلم ، وتقديمه لمن يريده من طالبيه في تلك المراكز وكانت هذه المؤسسات العلمية تتولى إجراء الارزاق ، والصلات المالية اليهم أيضاً ، فكان ذلك كله حافزا مهما لنشر الثقافة ، وطلب العلم ، ونضج الحياة العقلية في العراق ومختلف الأقاليم الإسلامية في القرن الرابع .

الفصل الاول

الفصل الأول

ضياع الرسائل وانتحالها ، مجاميع الرسائل الأدبية وتوثيقها في القرن الرابع للهجرة

توطـــئة :

ان ضياع أكثر مجاميع الرسائل لأدباء وكتاب هذا القرن ، وعدم وصولها إلينا لسقوطها من يد الزمن ، واضطراب أكثر ما بأيدينا من (دواوين الرسائل) التي وصلت إلينا ، لما يعوزها من دقة في الضبط ، فضلا عما تفتقر اليه من التنظيم في العرض والشرح والتبويب ، وتفرق ما وصل إلينا من شتات بعضها الآخر في بطون كتب التاريخ والتراجم ، ومظان الادب ، فضلا عما يكتنف بعض الأخبار والروايات التاريخية والأدبية التي تتصل بنصوص تلك الرسائل ، او اعلام المترسلين في هذا القرن ، من اضطراب وتناقض – كل هذه الامور وغيرها ، تقتضي من الباحث : بل تلزمه – قبل اعتماد تلك الوثائق الأدبية ، وما يتصل بها من أخبار* او روايات تاريخية مادة للدراسة – ان يتوثق من صحتها . والحكم عليها ، ليتجنب ما قد يقع فيه من مزالق ، وليطمئن على ما يصدره من احكام نقدية على تلك النصوص الأدبية ، وما يحيط بها من روايات متباينة ، ولتكون تلك الاحكام دقيقة وسليمة ، وغير مبنية على أساس واه او هش وضعيف .

ان الباحث العلمي او مؤرخ الأدب مثله مثل المؤرخ او مدون التاريخ ، فمثلما تبدأ مهمة المؤرخ اولا بالحصول على (الوثائق) التي هي الوسيلة الأولى للكشف عن الأحداث والوقائع التاريخية ، فكذلك مهمة مؤرخ الادب في اعتماده على (النصوص الإنشائية) ، شعرا كانت او نثرا .

وكما ان فقدان (الوثائق التاريخية) بالنسبة لعمل المؤرخ او مدون التاريخ تجعل عصورا متطاولة من ماضي الإنسانية مجهولا ، وكأنها لم تكن البتة [1]،فكذلك مؤرخ الأدب ،

---

[1] يراجع ما ذكره البيروني في مقدمة كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة – ص1) عن اهمية الخبر وقيمته بالنسبة للعيان ، وفيها يقول في فضيلته : "ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على =العيان

اذ ان ضياع (النصوص الإنشائية) يعني انقطاع الصلة عن تراث الانسانية لتلك الحقب الزمنية التي رصدتها تلك النصوص ، او (الوثائق الأدبية) الضائعة .

وكما يبدأ مدون التاريخ –وصولا للكشف عن الحادثة التاريخية ، او استكناه الوقائع والأحداث المهمة – بالبحث عن (الوثائق) ، وعن مقدارها ، ومظانها ،فكذلك الباحث او مؤرخ الادب ، فانه – اذا ما أراد ان يحلل آية ظاهرة ادبية ، او يعالج نوعا من الأنواع الأدبية – يجدر به اولا ان يبحث عن (النصوص الإنشائية) لتلك الظاهرة الأدبية ، والمظان التي توجد فيها تلك (النصوص) او (الوثائق) الضرورية لبحث او تحليل تلك الظاهرة الأدبية .

وكما يحط من قيمة اعظم (الأعمال التاريخية) التي كتبت وفقا لقواعد منهجية منظمة ، الا ان كاتبها لم يقف على (وثائق) كافية ، كان من شأنها ان توضح ما يريد المؤرخ تناوله في تاريخه ، فكذلك مؤرخ الأدب ، اذ ان حاجته الى(النصوص الإنشائية) الموثقة هي أساس منطلقه العلمي الرصين في رصد آية ظاهرة أدبية ، ودراستها وتحليلها.

وانطلاقا من تلك الحقائق الانفة الذكر ، فسيحاول الباحث في هذه الدراسة العلمية ان يفيد مما طرحه المنهج التاريخي (الاسترادادي [2]) – الى جانب مناهج اخرى – في البحث عن (الوثائق) – الهورسطيقا – أي البحث عن النصوص الإنشائية (الرسائل) ، وفي توثيق تلك النصوص النثرية ، ومدى الاطمئنان الى صحتها ، بوصفها (الوثائق) الحقيقية

" . تراجع التفاصيل في : المدخل الى الدراسات التاريخية – لانجلوا وسنيوبوس ، ترجمة د.عبد الرحمن بدوي ، ص5 وما بعدها .

[2] لقد افاد الباحث الفرنسي الاستاذ (لانسون) كثيرا من (المنهج التاريخي) ، وحاول تطبيقه في ابحاثه ودراساته الادبية ، انطلاقا من حقيقة مهمة تلك هي ان التاريخ الادبي يحاول ان يصل الى الوقائع العامة ، وان يميز الوقائع الدالة ، ثم يوضح العلاقة بين الوقائع العامة والوقائع الدالة .

يقول الاستاذ لانسون : (منهج البحث في تاريخ الآداب : ص397) .

"واذن فمنهجنا هو في صميمه المنهج التاريخي ، وخير اعداد لطالب الآداب هو ان يطيل التفكير في الـ (مقدمة للدراسات التاريخية) التي وضعها (لانجلوا) و (سينيوبوس) ...ومع هذا فثمة فروق هامة بين المادة العادية للتاريخ بمعناه الدقيق ومادتنا ، وعن تلك الفروق تنشأ فروق في المنهج ..." .

التي تكشف لنا عن مسار هذا (النوع الادبي) ، وتكشف عن عمقه وتطوره ، او ازدهاره في هذا القرن .

وسيحاول الباحث – وفقا لقواعد هذا المنهج ومبادئه – بعد جمع تلك الوثائق (النصوص الأدبية) وفرزها وترتيبها ، تبعا لاسس فنية وموضوعية ، ان يجري عليها بعض ما يستوجبه (النقد الخارجي) او الظاهري ، وهو ما يعرف بنقد التحصيل [3]لتلك النصوص ، وسيعمد الباحث أيضاً الى الاعتماد على النصوص الأدبية الموثقة التي يتم استقاؤها من (المصدر) الأقدم والأوثق ، بعد الاطمئنان الى ذلك المصدر ، ومعرفة تاريخ تأليفه ، ويمكن الاستعانة على التحقق لدراسة المصدر الذي ورد فيه النص بدراسة الوقائع الواردة في مصادر اخرى لمؤلفين اخرين ، وسيلتزم الباحث أيضاً – تبعا لذلك – بمحاولة تصحيح بعض تلك (النصوص) النثرية – التي سيعتمدها البحث – بمقارنتها مع ما ورد منها في المظان القديمة ، او المصادر الأخرى المحققه تحقيقا علميا ، والتي يقترب زمن تأليفها من عصر تلك الوثائق الأدبية ، او بعيد رحيل منشئيها بأمد غير طويل فضلا عن التثبت من صحة بعض الأخبار والوقائع التاريخية المتصلة بتلك النصوص الأدبية ، ومنشئيها ، او امتحانها بالرجوع الى أكثر من مصدر ، وصولا الى الكشف عما في تلك (الوقائع التاريخية) من تناقض او اضطراب ، او أخطاء علمية سافرة [4].

وهكذا ينبغي على الباحث او مؤرخ الادب – وهذا ما سنعتمده في دراسة الرسائل الأدبية في هذا القرن – أن يستبعد الروايات او الأخبار الضعيفة او المتضاربة ، ويستبعد أيضاً نصوص الرسائل الأدبية غير الصحيحة ، بعد ان نخضع تلك النصوص او الروايات للفحص والتدقيق ، لنصل الى حقيقة مهمة تلك هي : هل ان نصوص هذه الرسائل وصلت إلينا كما أنشأها كاتبها دون زيادة او نقصان ، او تحريف او اختلاف ؟ اذ ان كثيرا من تلك

---

[3] ينظر التفاصيل في : المدخل الى الدراسات التاريخية ص51 ، وما بعدها ، 65 وما بعدها ، منهج البحث الأدبي : 110 وما بعدها ، (الطبعة السابعة 1986 بغداد) .

[4] من ذلك مثلا ما أورده صاحب كتاب (جهار مقالة – المقالة الأولى) عن صلة الاسكافي بالأمير الساماني نوح بن منصور ، الذي تسنم امارة السامانيين بعد وفاة الاسكافي بثلاثة عقود ونيف ، وما اورده ايضا عن صلة ابن سينا بالامير الزياري قابوس ، وغير ذلك ...

المكاتبات – وهذا ما كان شائعا في هذا القرن – كان يتم تبادلها بين الأدباء والتلاميذ ، اعجابا بأسلوب تلك الرسائل ، او حفظا لها من الضياع ، او اعتزازا بمنشئيها[5] ، او لغير ذلك من أسباب .

وقد نستعين على التحقق من صحة كثير من نصوص تلك الرسائل اعتمادا على معرفتنا الدقيقة لأسلوب الكاتب ومعجمه اللغوي ، وهذا الأمر بطبيعة الحال يتطلب من الباحث خبرة ومراسا ودقة ملاحظة ناجمة عن كثرة صلة الباحث بأساليب أولئك الأدباء الكتاب ، وهناك وسيلة اخرى سنلجأ اليها في التوثق من صحة تلك النصوص الإنشائية والروايات ، تلك هي (المقارنة) او (الموازنة) بين النصوص الأدبية كما وردت في المظان القديمة الاخرى ، مستضيئا بهدي ما ذهب اليه كبار منظري المنهج التاريخي (الاسترادادي) [6].

وبعد ، فاننا سنلم في هذا الفصل ، بدراسة ثلاث قضايا مهمة وخطيرة في ثلاثة مباحث وهي كما يأتي :

-**المبحث الأول** : ضياع الرسائل في هذا القرن ، وسوف اعرض أولاً الى دراسة أهم مظاهر ضياع تلك الرسائل ، ثم احلل بعد ذلك اهم الأسباب او العوامل التي أدت الى ضياعها ...

-**المبحث الثاني** : ظاهرة الانتحال (او الوضع الفني) في مكاتبات هذا القرن .

-**المبحث الثالث** : ظاهرة تدوين الرسائل وجمعها ، وسوف اعرض في هذا الجانب الى دراسة اهم مجاميع او دواوين الرسائل التي وصلت الينا ، وساقف عند توثيقها وتصويرها لاحداث العصر ...

---

[5] تراجع رسالة ابي بكر الخوارزمي الجوابية الى ابي محمد العلوي ، اذ افصح الكاتب فيها عما نحن بصدده ، قال ".....وها انا بعد اليوم ، اقرع باب الكتابة ، واتسلق على حيطان البلاغة ، واجمع ما اقدر عليه من رسائل السيد ، فاحفظها صدرا صدرا ، بل سطراً سطراً ، واردد كل واحدة منها خمس مرات ، بل عشرا ..... " رسائل الخوارزمي :81.

[6] يراجع ما ذهب اليه لانكلوا وسينوبوس 53 .

المبحث الاول

ضياع الرسائل في هذا القرن ... مظاهره وأسبابه :

لقد عني كثير من ادباء هذا القرن ، سواء أكانوا من الشعراء ام من الكتاب بنتاجهم الأدبي ، فحرص كثير منهم على جمعه وتبويبه ، كما سنوضحه في الصفحات التالية ، وانصرفت طائفة أخرى الى تدوينه ونسخه [7]، للاحتفاظ به ، او لتداوله وإهدائه للامراء او التلاميذ وغيرهم ، وعكفت طائفة من أولئك الأدباء على تنقيح لباب نتاجها الادبي ، وتشذيبه مما علق به من الشوائب واوضار الخاطر [8].

وممن اشتهر بالجمع بن التنقيح والنخل ، وبين سرعة البديهة واتقاد الخاطر من ادباء هذا القرن ، ابو بكر الخوارزمي ، يقول في احدى رسائله التي حملها الى حاجب الوزير الصاحب بن عباد [9]:

"وقد حملت إليك نسخة كاملة قلتها ، فرضيت بها عن شيطاني ... ولعمري لقد اكلتها من جراب الدق ، وورثتها من كيس اللب ... وقلبت لها جريدة التصفح والتخير ، ونشرت فيها صحيفة التدبر ... وصقلتها بمدوس النظر ، وجلوتها بكف الفكر ، ووكلت بها من التمييز جفنا ساهرا ، ولمحا باصرا ..." .

وممن عرف بكثرة التنقيح ، والتسويد والاجالة من ادباء وكتاب هذا القرن أيضاً ، ابو اسحاق الصابي ، ذكر ابو حيان التوحيدي يقول [10]:

---

[7] يراجع الخبر الذي ساقه ياقوت (معجم الادباء 396/5) نقلا عن التوحيدي في (مثالب الوزيرين) ، من طلب(نجاح بن سلمة) ناظر خزانة كتب الوزير الصاحب ، انه قدم للتوحيدي (ثلاثين مجلدة) من رسائل الصاحب ، وطلب إليه نسخها ، ورفض التوحيدي ذلك وخوفه على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، وينظر أيضاً : النثر الفني في القرن الرابع 162/2 .

[8] لعل اوضح ما يدلل على اهتمام ادباء هذا القرن بجمع نتاجهم الأدبي وتنقيحه ونخله ، ما ساقه المحسن التنوخي في (النشوار 225/1) من ان ابا الفرج الببغاء قد شارك ابا فراس الحمداني في نخل ديوانه الكبير قبل موته ، ونقل عن الببغاء قوله : " واقفني على نفيه ، لانه عرضه علي ، فكل ما استضعفناه نفاه ، وما اجتمعنا على استجادته أقرّهُ ، وحرره في نسخة تداولها الناس ...".

[9] رسائل ابي بكر الخوارزمي 52 .

[10] ثلاث رسائل للتوحيدي (رسالة في علم الكتابة) – تحقيق د.ابراهيم الكيلاني : 35 .

"وسمعت ابا إسحاق الصابي يقول : ما حررت كتابا قط عقيب التسويد ، الا ورأيت التنافر في خطي ، والتطاير من قلمي ، والتثاقل في يدي ، فأما اذا جممت بعده جمة ، او نمت بعده نومة فأنا على صواب ما اريد منه جريء ، ومن الخطأ فيه برئ " .

وفضلا عما تقدم ، فقد دفع التنافس الحاد بين الأمراء وحكام الممالك الإسلامية المستقلة في هذا القرن – وهذا ما سنعرض لتحليله في الفصل الثاني من هذه الدراسة – ولا سيما أولئك الأمراء والوزراء والأدباء الذين اشتهروا بشغفهم بالأدب ، وتمكنهم من قرض الشعر ، وتدبيج الرسائل ، دفعهم ذلك الى جمع كثير من نتاج الأدباء وتدوينه وبخاصة ، ما مدحوا به منه ، او ما تعلق بالإشادة بملكهم ، وعلو شأنهم ، وبناء أمجادهم.

يقول احد الباحثين مشيرا الى هذا التنافس بين أولئك الرؤساء على اجتذاب الأدباء واصطناعهم في خدمتهم [11]:

"واذن فقد كان يقوم هؤلاء الكتاب والشعراء للدول التي ترعاهم ، بخدمات خطيرة تتصل بحياتها ، وحياة القائمين عليها ، فهي من النوع الذي تقدمه مؤسسات الدعاية لحكوماتها في العصر الحاضر ، فاذا عرفنا هذا استطعنا ان نفهم الدافع الذي كان يحرك الملوك ووزراءهم ، ويدعوهم الى ان يملأوا قصورهم بالكتاب والشعراء ويغمروهم بالعطايا والهبات " .

وقد ذكر ابو منصور الثعالبي ، وهو يؤكد ما كان يقوم به أولئك الرؤساء من جمع وتدوين ذلك التراث الأدبي الذي يشيد بأمجادهم ، قال [12]:

"وكان كل من ابي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب ، وابي الحسن علي بن محمد الشمشاطي ، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت ...".

فضلا عما قام به بعض الأمراء السامانيين ، كالأمير نوح بن نصر ، والأمير نوح ابن منصور ، وبعض مشاهير وزرائهم كأبي علي البلعمي وغيره ، من تدوين وجمع كثير

---

(11) الادب في ظل بني بويه : 122–123.

(12) يتيمة الدهر 38/1 .

من تراث الادب العربي والفارسي الذي يشيد بأمجادهم القومية ، وجهودهم في بعث تراثهم القديم [13]،مما سوف نعرض لتفصيله في الفصلين الثاني والثالث من هذه الدراسة.

والى جانب ما ذكرنا ، فقد كان الباعث لصنيع بعض أولئك الحكام او وزرائهم في العناية بالتراث الأدبي ، ونتاج الشعراء والكتاب ، وجمعه وتدوينه في هذا القرن ، هو الجانب الفني ، والإعجاب بتلك الشذرات الفنية التي صدرت عن قرائح الأدباء المبدعين ، ولعل ما اشار أليه الثعالبي من إعجاب الوزير الصاحب بن عباد بشعر الشعراء الشاميين وكلفه الواضح بنتاجهم ، وما قام به من جمعه ، وكسر دفتر ضم ما صدر عنهم من شوارد فنهم ، لخير شاهد على ذلك .

يقول الثعالبي مشيرا الى طريقة شعراء الشام ، وما يقاربها ، وإعجاب الوزير الصاحب بن عباد بطرائقهم [14]:

"واخبرني جماعة من أصحاب الصاحب ابي القاسم إسماعيل بن عباد انه كان يعجب بطريقتهم المثلى ، التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة ، والفصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من اشعارهم ، ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف ، حتى كسر دفترا ضخم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ، ولا يملأ احد منه عينه غيره ، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي سن قلمه ، فطورا يحاضر به في مخاطباته ، ومحاوراته ، وتارة يحله او يورده كما هو ، في رسائله " .

ان هذه الشواهد الانفة الذكر ، وغيرها ، معلم واضح يقودنا الى حقيقة مهمة ، تلك هي غزارة ما دون او جمع ونسخ من التراث الأدبي – شعرا ونثرا – لشوامخ الأدباء والمفكرين في هذا القرن ، وان كثيرا من هذا التراث الأدبي قد ضاع ، وسقط من يد الزمن ، ولم يسلم من الضياع منه الا ما وصل الينا من شتاته المبثوث في ثنايا مظان التاريخ

---

[13] تراجع التفاصيل في : احسن التقاسيم للمقدسي : 338/1–339 ، تاريخ الادب في ايران – ادوارد براون : 107/2 .

[14] يتيمة الدهر : 34/1 .

ومصنفات الأدب والتراجم ، فضلا عن بعض المجاميع النثرية غير المنشورة ، المركونة في أدراج الخزائن ودور الكتب العامة في ارجاء متفرقة من العالم [15].

ومن هذا المنطلق ، فسوف اعرض اولا الى الإلمام السريع بأهم مظاهر ضياع هذا النتاج الأدبي – وبخاصة المكاتبات والرسائل الأدبية – بعد امعان الأدباء ، وتنافس الأمراء والرؤساء وعكوف الوراقين والنساخ وغيرهم على تدوين هذا التراث الأدبي وجمعه ابان هذا القرن .

مظاهر ضياع الرسائل الأدبية في القرن الرابع :

ولعل في مقدمة تلك المظاهر التي تومئ بوضوح الى ضياع فصول تلك المكاتبات والرسائل الأدبية ما يأتي :

1–ضياع (دواوين) او مجاميع الرسائل لكتاب مبرزين في هذا القرن :

لعل ابرز مظهر يدلل بجلاء على ضياع الكثير من المكاتبات الأدبية في هذا القرن ضياع كثير من (دواوين) او مجاميع الرسائل لمشاهير الكتاب المبرزين ، وعدم وصولها ألينا ، وعلى الرغم من شهرة أكثرهم ، ورفعة منزلتهم – ولا سيما جهابذة الكتاب من الطبقة الخاصة ، الأمراء والوزراء وغيرهم – وأثرهم الكبير في الحياة الأدبية والثقافية ، اذ يبدو جليا ان ما بقي بأيدينا من نتاجهم الأدبي ، او ما نشر منه وحقق لا يتناسب مع ما بلغه أكثرهم من شهرة عريضة ، ومكانة ادبية مرموقة ...

وحتى ما وصل ألينا من تلك (الدواوين) ، او المجاميع النثرية – وهو ما سنلم بدراسته وتحليله في المبحث الثالث من هذا الفصل – فان أكثرها يشوبها الاضطراب او النقص ، وسوء العرض او التبويب والشرح ، او التعليق ، وما الى ذلك ، فضلا عن ان القسم الأعظم من تلك المجاميع النثرية لما يزل مخطوطا لم ير النور بعد ، وموزعا بين مجامع المخطوطات والوثائق العالمية ، ودور الكتب في ارجاء متفرقة من العالم ...

ان أديباً كبيراً ، وكاتبا بارعا ، كأبي الفضل ابن العميد ، على ما بلغه من شهرة واسعة ، ومكانة سامية بين ادباء عصره – حتى عد امام مدرسة في صناعة الترسل في هذا

---

[15] ينظر : تاريخ الادب العربي – كارل بروكمان – ج2 ، في مواضع متفرقة من تراجم الادباء الكتاب الذين وقف عند دراستهم .

القرن – لم يصل ألينا (ديوان رسائله) ! وما أبقت عليه الأيام من نتاجه الأدبي لا يتناسب مع شهرته وسمو منزلته [16].

وكذا يقال أيضاً عن أبي محمد الحسن بن محمد المهلبي ، وزير معز الدولة البويهي ، الذي قال فيه ابو منصور الثعالبي [17]:" وكان يترسل ترسلا مليحا ، ويقول الشعر قولا لطيفا ..." حتى غدا مضرب المثل برقته وحسنه ، فقال بعض اهل عصره : [من الخفيف]

ولـه خلق كنيل الأماني او كشعر المهلبي الوزير !

وعلى الرغم من سمو مكانته بين أدباء عصره ، واثره الكبير في الحياة الثقافية وازدهارها ، فان صروف الدهر قطفت جنى ترسله ، ولم يصل إلينا (ديوانه) او (مجموع رسائله) .

ونظير الوزير المهلبي من وزراء آل بويه ، وكبار كتابهم الذين عدا الزمن على (مجموع رسائله) ، واخترم لباب ترسله ، أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الشيرازي ، الذي وصفه الثعالبي بأنه " احد صدور المشرق ، وفرسان المنطق ... والمقدمين في الأداب والكتابة ، والبراعة والكفاية " [18].

ونقل ياقوت عن صاحب اليتيمة ، باسناد عن بعض ثقات عصره ، ان الوزير الصاحب كان يعده احد اربعة من كتاب الدنيا وبلغاء العصر [19].

---

[16] يراجع ما ذكره المستشرق (كارل بركمان) عن فصول رسائله المخطوطة في (بوهار /412) و (امبروز يانا /125) ، واشار الى وجود بعض رسائله في مكتبة سيلان ، فضلا عن وجود طائفة من توقيعاته في مكتبة(عليجره /134 رقم 1) . (تاريخ الادب العربي 119/2) .

[17] يتيمة الدهر 265/2 . وقال ابو الفرج الاصبهاني يصف رقة نظمه ونثره ، وايجازه – وكان من خواصه ومنقطعا اليه (اليتيمة 128/3) [من الطويل]:

رأيت نظام الدر من نظم قوله ومنثوره الرقراق في ذلك النثر

ويقتضب المعنى الكثير بلفظه ويأتي بما تحوي الطوامير في سطر

[18] يتيمة الدهر 369/2 .

[19] ينظر معجم الادباء 338/1 ، ويراجع النص أيضاً في اليتيمة 292/2 .

واشار المستشرق كارل بركلمان [20]الى قطعة من رسائله في برلين (8825) ، وذكر ان رسائله تتضمن أخبارا طريفة – ولعل هذا احد اسباب ضياع مجموعة رسائله ، كما سنعرض لذلك في الصفحات التالية – عن دولة البويهيين في السنوات 335 هـ – 380هـ / 946م –990م .

ولم يكن مشاهير الأدباء الكتاب في خراسان على عهد الأمارة السامانية أفضل حالا من اقرانهم وزراء وكتاب بني بويه في العراق وشيراز والري وفارس ، فأبو عبد الله الحسين بن محمد العميد ، المعروف بـ(كلّه) [21]–وهو والد أبي الفضل ابن العميد المشهور – وهو احد من استقر في الذروة العليا من الوزارة ورئاسة ديوان الرسائل على عهد الأمير الحميد (نوح بن نصر الساماني) ، وعلى الرغم من انه كان " في الرتبة الكبرى من الكتابة ، ورسائله مدونة بخراسان " كما قرر ذلك الثعالبي [22]الا ان الايام عصفت أيضاً بمجموع رسائله ، ولم يقع في أيدينا من تلك الرسائل – التي وصفها أبو اسحاق الصابي في كتابه الشهير " التاجي " بانها لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل [23]– ما يطفئ أوار ظمأ الباحث .

ويشاكه ابا عبد الله العميد في ضياع نتاجه الأدبي ، وانخرام " مجموع رسائله " غريمه وخليفته الذي تولى ديوان الرسائل ، في خراسان على عهد الأمير الحميد ، فسبق من قبله ، واتعب من بعده [24]، أبو القاسم الاسكافي الذي وصفه أبو منصور الثعالبي بانه : " لسان خراسان وغرتها ، وعينها وواحدها ، واوحدها في الكتابة والبلاغة ، ومن لم يخرج مثله في البراعة والصناعة [25]" .

---

[20] تاريخ الادب العربي 118/2 .

[21] كله : لقب ابي عبد الله العميد وهو يدل على الشهرة ، والكلة ، الصوفة الحمراء في رأس الهودج

[22] يتيمة الدهر 184/3 .

[23] المصدر نفسه ، 184/3.

[24] المصدر نفسه ، 3/ 185.

[25] المصدر نفسه ، 4/ 108.

وعلى الرغم مما اكده الثعالبي من علو امره ، وبعد صيته في خراسان ، وما جمعته رسائله من اقسام الحسن والجودة ، حتى ازداد على الانام تبحرا في الصناعة ، وقدرة على الانشاءات التي يؤنس مسمعها ، ويؤيس مصنعها [26]" ،فقد حكم الدهر على (مجموعة رسائله) ، التي وصفها الثعالبي أيضاً بأنها : "كثيرة مدونة سائرة في الآفاق [27]..." ، بالفناء والعفاء .

وممن اسدل الزمن أستاره على (مجموع رسائله) أيضاً ، الأمير أبو الفضل عبيد الله بن احمد الميكالي الذي اختار بنفسه من مجموع رسائله ما وسمه بـ"المخزون" وهو نماذج اسلوبية " مستخرجة من مجموع ترسله " [28]، وقد احتفظ الثعالبي بنصوص نادرة من فصوله أفصحت عن طبيعة ترسله ، ومكانته بين ادباء وكتاب عصره [29].

2. ضآلة ما وصل ألينا من الرسائل لمشاهير الكتاب في هذا القرن :

وهذا مظهر مهم اخر من مظاهر ضياع المكاتبات الأدبية والديوانية في القرن الرابع ، اذ ان كثيرا من كتاب هذا القرن ، وعلى الرغم من إسهامهم الفاعل في ازدهار الحركة الثقافية ، وتفاعلهم الواسع في الحياة الأدبية ، وما حظي به بعضهم من قصب السبق والريادة في صناعة الترسل في عصره ، كأبي الفضل ابن العميد مثلا . لم يصل إلينا من سواد رسائلهم إلا قدر محدود وضئيل ، لا يوازي الحقبة الزمنية التي امضاها بعضهم في الدواوين الرسمية ، ولا يتناسب أيضاً مع ما حظي به أكثرهم من منزلة سامية وشهرة واسعة .

فأسرة (آل العميد) مثلا ، وعلى الرغم من امتداد صلتهم في اقاليم المشرق الإسلامي بالأمراء السامانيين فالبويهيين ، بدءا من صلة أبي عبد الله العميد بالأمير الساماني الحميد (نوح بن نصر) في خراسان ، حتى وفاته ، ثم تواصل صلة ابنه أبي

---

[26] يتيمة الدهر ، 4/ 110 ، وتراجع اخباره في المقالة الأولى /الحكاية الأولى والثانية من كتاب (جهار مقالة) للنظامي السمرقندي .

[27] يتيمة الدهر 110/4 .

[28] ينظر : تاريخ الادب العربي – بروكلمان 198/5 .

[29] يتيمة الدهر : 410/4 وما بعدها .

الفضل ابن العميد ، ثم ابنه أبي الفتح ذي الكفايتين بالأمارة البويهية لأكثر من ثلاثين عاما متصلة ، فضلا عن علو منزلتهم ، وندرة كفاءتهم ، وحدة مواهبهم ، وامتلاكهم لأزمَّة البلاغة ، وناصية البيان ، وسعة الثقافة ، على الرغم من كل هذا ، لم يحفظ لنا الزمن في وعائه من ثمرات عقولهم ، وأزاهير بيانهم ، ما يوازي أدنى حدود الكفاية من رسائلهم الرسمية والاخوانية !

وعلى الرغم مما مر بنا انفا من وصف الثعالبي [30] لأبي عبد الله العميد بعلو الرتبة في الكتابة ، وما ذكره من ان رسائله كانت مدونة بخراسان ، الا اننا لم نحظ لابي عبد الله العميد بنص واحد يطفئ ظمأ شوقنا الى معرفة مزايا اسلوبه وفنه في صناعة الترسل.

وهكذا يقال عن حفيده أبي الفتح ذي الكفايتين ، فان ما تناقلته المظان القديمة [31]، وكتب التراجم والأدب من فصول رسائله ، لم تتعد شذرات قليلة مكررة ، لا توازي مكانته الأدبية ، ولا تكافئ ما وصفه الثعالبي لمنزلته اذ قال [32]:

"حتى تخرج وخرج حسن الترسل ، متقدم القدم في النظم ، آخذا من محاسن الآداب بأوفر الحظ ..."

ويمكن ان يستشف الباحث أيضاً من سياق ما ذكره الثعالبي في ترجمته لابي الفتح ابن العميد ، ما يدلل على غزارة ترسله ، وكثرة مكاتباته ، لنصل الى ما نريد تأكيده من ضياع نتاجه الأدبي ، لما احاط بحياة هذا الأديب من ظروف قاسية ، ونهاية محزنة كانت سببا فيما اصاب نتاجه الأدبي من طمس وضياع ...

أ- في خبر أورده الثعالبي ، روى فيه حكاية طويلة لأبي الحسين ابن فارس مع أبي الفضل ابن العميد ، يقول ابن فارس في خاتمتها : "...ثم أخذت اتحفه بنكت نثره ، ... يعني ابا الفتح ابن العميد -وملح نظمه [33]" .

---

[30] يتيمة الدهر: 184/3 .

[31] المصدر نفسه : 184/3 .

[32] المصدر نفسه : 215/3 .

[33] المصدر نفسه : 216/3.

وهذا الخبر يشير بوضوح الى كثرة ما كان يحفظه (ابن فارس) من جواهر نثر أبي الفتح ، وما يستطرفه منه ، وما يناسب المقام لروايته في مجلس أبي الفضل .

ب- ذكر الثعالبي أيضاً ان من أسباب موجدة الأمير عضد الدولة البويهي عليه ، وما حل به من نكبة فظيعة ، أدت الى تلك النهاية المحزنة ، قال [34]:

"...ومنها ترفعه – يعني ابا الفتح – عن التواضع له في مكاتباته ..."

وهذا الخبر فيه دلالة ضمنية مهمة ، وإشارة واضحة أيضاً الى امتداد صلة أبي الفتح ذي الكفايتين بالأمير عضد الدولة – فضلا عن صلته بالأمير ركن الدولة ، بعد وفاة ابيه أبي الفضل ، واستيزاره له ، ثم صلته عقب ذلك بالأمير مؤيد الدولة – وكثرة مكاتباته له قبل ان تقع الجفوة بينهما .

****

اما ما وصل إلينا من رسائل أبي الفضل ابن العميد ، فهو اوفر حظا من سابقيه ، الا انها ، مع ذلك ، ضئيلة العدد قياسا على مكانته الأدبية ، وشهرته الواسعة التي طبقت الخافقين .

ولعل ما أورده الثعالبي في بعض مصنفاته ، ولا سيما في يتيمة الدهر [35]،فضلا عما ذكره الحُصْريّ في كتابه " زهر الآداب وثمر الألباب [36]"، من فصول رسائل أبي

---

[34] يتيمة الدهر 222/3.

[35] ينظر يتيمة الدهر 183/3 وما بعدها ، حيث اورد الثعالبي له فصولا مقتضبة من ثلاث رسائل : الاولى فصل من رسالة الى أبي العلاء السروي ، في شهر رمضان ، وهو مما لم يسبق إليه 190/3-192 ، والثانية : وتضم ثلاثة فصول قصيرة من رسالته الديوانية الشهيرة الى (ابن بلكا) 193/3-195 ، وقد اشار الثعالبي الى ان هذه الرسالة هي غرة كلامه ، وواسطة عقده والثالثة : فصل قصير من رسالة له الى الأمير عضد الدولة 195/3-196 (وسنلم بدراسة هذه الرسائل بإيجاز في المبحث الثاني من الفصل الثالث) ، واخرج له الثعالبي ايضا تسعة فصول قصيرة مما يجري مجرى الأمثال : اليتيمة 196/3-197 .

[36] يراجع زهر الآداب حيث اورد له الحصري عشر رسائل هي : رسالة له لمن تزوجت امه 402/2 ، رسالة له اجتلب منها بديع الزمان وعدل عليها 580/2 ، رسالة له الى بعض اخوانه 601/2-602 ، فصل من رسالة له في فتح 602/2 ، من رسالة له الى أبي عبد الله الطبري= =875/3-876 ،

الفضل ابن العميد – وهما اوعب المظان القديمة التي اشتملت على رسائله – ما يؤكد بجلاء ضياع رسائل هذا الأديب الكاتب ، وضآلة ما احتفظت به الأيام من ثمار أدبه وازاهير رسائله .

ويستشف الباحث مما ساقه الثعالبي من أخبار عن صلات أبي الفضل ابن العميد الخاصة ، وما كان يتكاتب به مع بعض خلطائه ولداته المقربين ، وبعض ندمائه ، وما كانوا يكاتبونه ويجاوبونه ، وما كان يهاديه أبو العلاء السروي بخاصة ، نثرا ونظماً نستدل من كل هذا على كثرة ترسل أبي الفضل ابن العميد ، وكثرة تحبيره للرسائل الاخوانية ، الى جانب رسائله السلطانية التي اشتهر ببراعته الكبيرة في تدبيجها في هذا القرن .

****

اما الأديب الوزير أبو محمد المهلبي فقد سبقت الإشارة الى ضياع (مجموع رسائله) على الرغم مما ذكره الثعالبي [37]من انه كان يترسل ترسلا مليحا ، وما اشار اليه الباخرزي [38]من ان الغالب على المهلبي الوزير الكتابة والترسل ، فان ما بقي بأيدينا من ازاهير ترسله غيض لا يبل غلة الدارس لنثره الفني [39].

ومن الأدباء الكتاب الذين مني أكثر نتاجهم الأدبي – على تنوعه وتعدد اتجاهاته – بالضياع والإهمال في هذا القرن : الأديب الكاتب أبو الفرج الببغاء ، لقد كان الببغاء متعدد

ثلاثة فصول من رسالة له الى أبي عبد الله الطبري ايضا 3/877–880 ، من رسالة له الى أبي عبد الله الطبري ايضا 4/1062–1063 ، من رسالة له الى أبي عبد الله الطبري ايضا 4/1063–1064 ، من رسالة له الى أبي عبد الله الطبري ايضا 4/1119–1120 من رسالة له الى الامير عضد الدولة البويهي 4/1120–1121 .

[37] ينظر : يتيمة الدهر 2/265 .

[38] دمية القصر وعصره أهل العصر 1/223.

[39]عقد الثعالبي في اليتيمة 2/275–277 فصلا لما اخرج من فصول ترسله المردفة بأبيات الشعر ، وعقد له فصلا اخر اشتمل على ما اخرج من فصول رسائله المجردة من ابيات الشعر : اليتيمة 2/278–279 . واورد له الباخرزي في الدمية 1/223 فصلا قصيرا من رسالة للمهلبي الى الصاحب بن عباد في العتاب ، وهذه الفصول القصيرة لا تتناسب وشهرة الوزير المهلبي ، وعلو كعبه في صناعة الترسل .

المواهب الأدبية ، فالى جانب كونه شاعرا مجيدا ، وقاصا بارعا ، الف مصنفا في القصص ، فانه كان كاتبا بليغا مترسلا .

وعلى الرغم من ان بعض الباحثين [40] عده من أركان الحياة الأدبية في زمانه ، الا ان هذا الأديب الكاتب لم يحظ باهتمام المصنفين ومؤرخي الأدب القدامى ، وقد كان ذلك سببا في ضياع أكثر نتاجه الأدبي [41].

لقد ضاعت أكثر رسائل الببغاء [42]، ولم يصل الينا من رسائله الاخوانية التي اشتهر بكثرة تبادلها مع بعض الوزراء والأمراء ، وادباء عصره ، الا نزر يسير ، فقد كانت له – اثناء إقامته في كنف الأمير سيف الدولة – مراسلات مع الوزير المهلبي (ت 352هـ) ، والأمير جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني (ت 352هـ) ، ومما يؤسف له ان جميع تلك الرسائل قد ضاعت ، ولم يصل الينا منها سوى رسالتين اوردهما صاحب اليتيمة [43].

وكان للببغاء أيضاً مكاتبات ورسائل اخوانية – شعرا ونثرا – مع بعض أدباء عصره ، لعل اشهرهم : أبو إسحاق الصابي ، والمحسن التنوخي ، والأديب يحيى بن محمد بن سليمان الازدي ، وقد وصلت إلينا بعضها ، وضاع القسم الاعظم منها [44].

اما رسائله السلطانية التي دبجها على لسان الأمير سيف الدولة الحمداني ، اثناء صحبته له ، وأقامته في بلاطة بحلب ، او ما حرره على لسان الأمير أبي تغلب الحمداني

---

(40) ينظر : النثر الفني في القرن الرابع 275/2 .

(41) لقد ضاع ديوان شعر الببغاء ، على الرغم من اشارة ابن النديم (الفهرست ص195) الى ان شعره ثلثمائة ورقة ، كما ضاع ايضا مصنفه الذي الفه في القصص ، على الرغم من اشارة بعض معاصريه اليه ، واقتباسهم بعض القصص منه (ينظر كتاب الفرج بعد الشدة في مواضع متفرقة) .

(42) اشار ابن النديم في الفهرست ص195 الى (مجموع رسائل الببغاء) ، الا انه لم يحدد عدد اوراق رسائله .

(43) تنظر رسالة أبي الفرج الببغاء الى الوزير المهلبي : (يتيمة الدهر 305/1) ، ورسالته الى أبي محمد جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني (اليتيمة 306/1) .

(44) تراجع تلك المراسلات في (يتيمة الدهر 309/1 وما بعدها) ، نشوار المحاضرة 52/2 ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ج9/ في مواضع كثيرة متفرقة .

اثناء اقامته في كنفه في الموصل ، بعد رحيل سيف الدولة ، منذ عام 358هـ ، فقد ضاعت هي الاخرى ، ولم يبق منها سوى عدد يسير ، اورد أبو منصور الثعالبي بعضها[45] ، وساق القلقشندي فصولا قصيرة من بعضها [46].

ولم يكن حظ كثير من الأدباء الكتاب الذين عملوا في بعض الدواوين الرسمية في أقاليم المشرق الإسلامي النائية ، كإقليم خوارزم وغزنة وطبرستان وغيرها ، ولم يكن نصيبهم من الشهرة أيضاً ، بأوفر من اقرانهم الأدباء الكتاب في الأقاليم الأخرى ، ممن اتى الزمان على صفوة نتاجهم الأدبي ، ولباب ترسلهم ...

فالأديب الكاتب علي بن محمد المشهور بأبي الفتح البستي ، الذي يصفه معاصره وخليطه الثعالبي – وقد التقاه في نيسابور – ويصف أسلوبه فيقول :

" ورأيته يغرف في الأدب من البحر ، وكأنما يوحى اليه في النظم والنثر ، مع ضربه في سائر العلوم بالسهم الفائز ، وأخذه منها بالحظ الأوفر ..."[47] .

هذا الأديب الذي يغرف في ترسله من البحر ، والذي كان أيضاً – كما وصفه الثعالبي في الموضع نفسه [48]– " صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ..." ، هذا الأديب الموهوب ، لم يفقد مجموع رسائله فحسب ، وإنما لم نحظ بجرعة

---

[45] تراجع بعض هذه الرسائل في يتيمة الدهر 302/1–304 (رسالته الى الأمير سيف الدولة الحمداني يذكر منصرفه من بعض الغزوات ؛ ورجوعه الى حلب ، وينظر فصل من رسالة اخرى 304/1 ، ورسالة ثالثة في الشكر والثناء 304/1–305 ، وله رسالة اخرى اليه يلتمس رسمه من الكسوة 305/1 ، وينظر رسالته على لسان أبي تغلب ناصر الدولة جوابا عن رسالة الصابي اليتيمة 314/1–315 .

[46] تراجع الفصول القصيرة التي اجتزأها القلقشندي من رسائله الاخوانية والسلطانية – بعد ان حذف ما فيها من تذييل بالشعر ، صبح الاعشى 9/في مواضع كثيرة متفرقة من ص22–184 ، وتجدر الاشارة هنا ، الى ان كتاب صبح الاعشى هو اثرى المصادر التي احتفظت بالكثير من رسائل أبي الفرج الببغاء – ولاسيما رسائله الاخوانية. .

[47] يتيمة الدهر 345/4 .

[48] المصدر نفسه 345/4 .

سائغة من ثمالة ترسله [49] ، على الرغم من خطورة موقعه في بلاط الأمير الغزنوي ناصر الدولة سبكتكين ، وابنه الأمير محمود الغزنوي ، وغيرهما ممن سبقهما من حكام تلك الاقاليم النائية . يقول الثعالبي مشيرا الى انخراطه في ديوان رسائل سبكتكين وابنه[50]:

"وصار من بعد ينظم باقلامه ، منثور الآثار عن حسامه ، وينسج بعباراته ، وشي فتوحه ومقاماته ، وهلم جرا الى زمان السلطان المعظم يمين الدولة وأمين الملة ...".

فضلا عن غزارة مراسلاته الاخوانية مع بعض من لم تغب نسائم مراسلاته وافاويح كتبه عنهم ، فهذا أبو منصور الثعالبي – وهو واحد من لداته وخلانه – يقول[51] : "ولم يكن تغبني كتبه في غيبته ، ولا اكاد أخلو من آثار وده ، وكرم عهده ".

3–ورود إشارات مهمة تدلل على وجود (رسائل مفردة) ، او (مجاميع رسائل) مفقودة او مراسلات متبادلة بين الأمراء والعلماء ، او بين العلماء ، والمفكرين مع بعضهم :

وهذا مظهر واضح ، ودليل مهم اخر على ضياع قسم كبير وخطير من رسائل هذا القرن لقد وردت في بعض مظان التاريخ والأدب القديمة ، إشارات دقيقة ، وأخبار مهمة يمكن ان يستشف الباحث من خلالها على وجود مجاميع رسائل مفقودة ، لكتاب مغمورين او غيرهم ، ودللت بعضها أيضاً على وجود مكاتبات ورسائل متبادلة بين بعض أمراء وحكام الممالك الإسلامية ووزرائهم ، مع بعض الفلاسفة والعلماء وغيرهم ، او بين العلماء والمفكرين مع بعضهم ، في مسائل وأمور علمية ودينية دقيقة ومتنوعة ، الا ان معظم هذه المكاتبات او الرسائل المتبادلة قد ضاعت ، ولم تحوها ذاكرة الأيام ، ولم يصل إلينا منها الا تلك الإشارات والجذور الراسخة في بطون تلك المصادر النفيسة النادرة ...

من بين تلك الإشارات الثرة النادرة مثلا ، ما أورده الثعالبي في ترجمته للأديب الكاتب أبي محمد الحسن بن احمد اليروجرديّ ، قال مشيرا الى فضله ومنزلته :

---

[49] لم يحتفظ الثعالبي في اليتمية ، ولم يرو له الا نصا واحدا في فتح السلطان الغزنوي ينظر اليتمية 347/4 .

[50] يتيمة الدهر : 347/4 .

[51] المصدر نفسه 345/4 ، وينظر ايضا : تتمة صوان الحكمة :34–38 .

" كاتب بحقه وصدقه ، متبحر في ترسله ، منقطع القرين في كتاب عصره ، اخذ بأزمة الكلام البارع ، يقودها كيف أراد ،ويجذبها كيف شاء ...[52]".

ثم اردف الثعالبي يقول ، مشيرا الى رسائله[53] :

"ولعل ما قد ارتفع من سواد رسائله الى هذه الغاية يقع في اربعة الاف ورقة ، وتزيد ابوابها على خمسة وعشرين ...".

وهذا النص الذي ساقه الثعالبي يشير الى كثرة ما دبجه هذا الكاتب البليغ من رسائل ، الا ان الثعالبي لم يثبت في ترجمته له ، فصلا واحدا من نصوص تلك الرسائل ؟

ومن تلك الإشارات الدقيقة التي يستشف منها الباحث على ضخامة حجم الرسائل المدونة في هذا القرن ، ما ذكره ياقوت نقلا عن أبي حيان ، ملمحا الى ضخامة ديوان رسائل ابن عباد ، اذ قال [54]:

" وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين) انه لما قدم على الصاحب ، قدم اليه نجاح بن سلمة ، ناظر خزانه كتبه ، ثلاثين مجلدة من رسائله ، وقال : يقول لك مولانا : انسخ هذا ، فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدي ، وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال " .

وهذا الخبر ربما يحمل بصمات من المبالغة ، وان العدد (ثلاثين مجلدة) أيضاً ربما لا يكون دقيقا في دلالته على مجموع رسائل الصاحب ، الا ان الخبر يحمل في تضاعيفه ما يوميء الى ان (ديوان رسائل) الصاحب كان من ضخامة الحجم ، بحيث يصعب نسخه على وراق محترف النسخ والوراقة كأبي حيان ...

ومن هنا نصل الى قناعة تامة بان (ديوان رسائل الصاحب بن عباد) الذي بأيدينا الان ، هو لا يمثل الا جزءاً ضئيلا من طيف تلك الرسائل البليغة ، وان الجزء الأعظم منها قد ضاع وفقد ، ولم يصل الينا .

---

[52] يتيمة الدهر 455/4 .

[53] يتيمة الدهر : 455/4 .

[54] معجم الادباء 396/5 ، وينظر ايضا : النثر الفني في القرن الرابع 162/2 .

وقد دللت بعض تلك الإشارات المهمة التي أوردها مصنفو كتب التراجم والأدب والعلوم على وجود مكاتبات ورسائل مهمة ، تم تبادلها بين بعض الأمراء او رؤساء الممالك الإسلامية المستقلة ، ممن عني بالعلوم والآداب وتشجيع روادها ، وبين بعض العلماء والمفكرين ، من ذلك مثلا ، ما أورده القفطي في ترجمته للفيلسوف محمد بن طاهر بن بهرام) المعروف بأبي سليمان السجستاني المنطقي ، وما كان بينه وبين الأمير عضد الدولة البويهي (367هـ-372هـ) من رسائل ومجاوبات ، اذ قال [55]:

"وكان منزله مقيلا لاهل العلوم القديمة ، وله أخبار وحكايات وسؤالات واجوبة في هذا الشأن . وكان عضد الدولة ، فناخسرو شاهنشاه ، يكرمه ويفخمه ، وله كتب صنفها منها : رسالة في مراتب قوى الإنسان ، ورسائل الى عضد الدولة عدة في فنون مختلفة من الحكمة ..." .

ومن تلك المكاتبات التي دارت بين بعض امراء الممالك الإسلامية وبعض علماء المسلمين أيضاً ، ما أورده أبو حيان [56]، من مكاتبات بين (الأمير الحميد) ، نوح بن نصر الساماني – وكان من ادباء ملوك آل سامان – ووزيره البلعمي ، وبين أبي سعيد السيرافي ، سنة أربعين وثلاثمائة للهجرة ، اذ كتب اليه كتابا سأله فيه عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة ، الغالب عليها الحروف ، وباقي ذلك امثال مصنوعة على العرب شك فيها ، فسأل عنها ، وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب الوزير البلعمي ، ضمنه أيضاً مسائل في القرآن ، وامثالا للعرب مشكلة .

ونظير هذا أيضاً ، ما كتب به اليه (أبو جعفر) – ملك سجستان – على يد أبي سليمان المنطقي ، سأله فيه عن سبعين مسألة في القرآن ، ومائة كلمة في العربية ، وثلاثمائة بيت من الشعر ، وأربعين مسألة في الأحكام ، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين [57].

---

[55] اخبار العلماء باخباء الحكماء :185-186 .

[56] الامتاع والمؤانسة 129/1-130 .

[57] المصدر نفسه 130/1 . وقد اشار أبو حيان عقب ايراد تلك النصوص : الى ان الوزير – يعني ابن العارض – سأله عن تلك الرسائل ، "قال لي الوزير : وهذه المسائل والجواب عنها ، عندك ؟ قلت :

ويقرب من هذا الضرب من المكاتبات أيضاً ، ما كتبه أبو بكر الباقلاني الى ملك الروم – وقد ندبه الأمير عضد الدولة البويهي عنه في جواب رسالة اليه [58].

وقد أشارت بعض تلك الأخبار التي نستشف منها على ضياع مكاتبات مهمة في هذا القرن ، الى وجود مراسلات او انشاء رسائل مهمة بين العلماء والمفكرين والأدباء مع بعضهم ، في موضوعات كثيرة متنوعة مختلفة ، من ذلك مثلا ، ما اشار اليه القفطي من تدبيج أبي اسحاق الصابي لرسائل عديدة الى بعض اهل العلم ، اذ قال [59]:

"وله مصنف رأيته بخطه في المثلثات ، وله عدة رسائل في اجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا النوع ".

ونظير ذلك أيضاً ما دار من مراسلات بين أبي الريحان البيروني والحكيم أبي علي ابن سينا ، وقد كانت حصيلة هذه المكاتبات ان الف البيروني كتابه الشهير " الآثار الباقية عن القرون الخالية [60]" ،الذي اهداه فيما بعد للامير الزياري شمس المعالي قابوس بن وشمكير .

ولعل اشهر هذا الضرب من الرسائل التي انطوت على تلك الاسئلة العلمية والأدبية والرسائل الجوابية عنها في هذا القرن ، ما دار بين الأديبين المفكرين أبي حيان التوحيدي ، وأبي علي ابن مسكويه من أسئلة متنوعة وجهها أبو حيان ، واجوبة موجزة شافية ، أجاب عنها ابن مسكويه ، وقد جمعت في كتاب " الهوامل والشوامل [61]" .

نعم ، قال : في كم تقع ؟ قلت : لعلها تقع في الف وخمسمائة ورقة ...قال : ما احوجنا الى النظر فيها ، والاستمتاع بها ، والاستفادة منها ".

[58] ينظر : كنوز الاجداد 208 .

[59] اخبار العلماء باخبار الحكماء : 54.

[60] ينظر : كنوز الاجداد 239–240 ، ويراجع ايضا : تتمة صوان الحكمة : 62–65 .

[61] كتاب " الهوامل والشوامل " كتاب يتضمن مسائلات ومجاوبات بين الاديبين المفكرين أبي حيان التوحيدي ، وأبي علي ابن مسكويه ، وهي اسئلة (مبعثرة) صاغها أبو حيان – وهي الهوامل – وبعثها الى ابن مسكويه يطلب إجابات عنها ، والإجابات هي – الشوامل – وقد بلغ عدد هذه المسائل (175) مسالة ، وموضوعات هذه الأسئلة وأجوبتها تتناول القضايا العقلية التي كانت شائعة في هذا القرن ، وأهمها : العدالة الاجتماعية ، والعادات ،=

الفصل الأول :

أسباب ضياع الرسائل في القرن الرابع :

لقد تضافرت عوامل عديدة ادت الى ضياع كثير من المكاتبات والرسائل الأدبية والديوانية في هذا القرن . ولعل ابرز تلك العوامل والأسباب ما ياتي :

1-الصراع السياسي والفكري بين حكام الامارات والممالك المستقلة :

لقد اشتد التنافس بين رؤساء الأمارات والممالك المستقلة ابان هذا القرن ، نتيجة لاتساع هوة الخلافات السياسية والفكرية بينهم ، على اجتذاب العلماء والأدباء ، وبخاصة جهابذة الكتاب وبلغائهم ، الى حواضرهم ، لازدياد الحاجة إليهم ، ولبناء قاعدة ممالكهم الجديدة .

ذكر الثعالبي ، مؤكدا حاجة هؤلاء الحكام المتنافسين على اصطناع الكتاب بخاصة ، واجتذابهم ، ووجوه ذلك وأسبابه ، قال [62]:

" ان الكتاب ، وهم السنة الملوك ، انما يتراسلون في جباية خراج ، او سد ثغر او عمارة بلاد ، او إصلاح فساد ، او تحريض على جهاد او احتجاج على فئة ، او دعاء الى الفة ، او نهي عن فرقة ، او تهنية بعطيّة ، او تعزية برزية ، او ما شاكلها من جلائل الخطوب ،ومعاظم الشؤون ... وقد وسمتهم خدمة الملوك بشرفها ، وبوأتهم منازل رياستها...."

ولعل هذا ما يفسر لنا سمو مكانة الكتاب البلغاء ، وتعاظم منزلتهم لدى الأمراء ورؤساء الممالك المستقلة وغيرهم في هذا القرن .

ولقد ادى هذا التنافس بين أولئك الحكام على اجتذابهم وإكرامهم والاغداق عليهم – فضلا عن إدراك الكتاب النابهين لخطورة موقعهم – الى حرص كثير من الكتاب البلغاء وتزاحمهم في هذا العصر ، على خدمتهم ، وانتجاع حواضرهم ، لنيل الحظوة لديهم ، وفجر بينهم التنافس او الصراع أيضاً ، لبلوغ اعلى المراتب ، وتبوؤ اسنى المناصب ، وقد تجلى تأثير هذا الصراع – الذي هو نبض الإبداع ، ومنطلق الإلهام والتجديد – واضحا في تلك

= والفلسفة ، والفقه وقضايا لغوية وجغرافية وغيرها . وقد نشر هذا الكتاب وطبع في القاهرة بتحقيق الأستاذين احمد امين ، واحمد صقر وطبع بأشراف لجنة التأليف والترجمة والنشر .

[62] نثر النظم وحل العقد : 6 .

الخصومات التي استعر لظاها بين كثير من أولئك الأدباء والكتاب في هذا القرن [63]، وهو ما سنقف عند تحليل بعض جوانبه في الصفحات الاتية ...

ونتيجة لهذا الدور الخطير الذي بدأ كثير من أولئك الأدباء الكتاب يتبوأه في تنظيم امور الملك ، وتدبير شؤون الإدارة ، وما اضطلع به بعضهم أيضاً – كالوزير أبي محمد المهلبي ، وأبي الفضل ابن العميد ، وأبي القاسم الصاحب بن عباد ، وأبي القاسم الاسكافي وغيرهم – في قيادة الجيوش ، وخوض المعارك ، فضلا عما كانوا يحبرونه من تلك الرسائل البليغة ، والعهود السياسية الخطيرة التي كانت تغني كثيرا عن الكتائب المجحفلة في عرك اديم الجموح فيثني ، او ترده عن شق عصا الطاعة فيعنق [64]،نتيجة لكل هذا ، فقد كان أولئك الأدباء الكتاب – وبسبب تقلب ظروف السياسة ، او تبدل الأهواء السياسية – عرضة للمحن والخطوب ، او الحبس والأسر والقتل [65]، وكان نتاجهم الأدبي تبعا لذلك – ولا سيما ما صدر عنهم من تلك الرسائل البليغة ، والوثائق الخطيرة – هذفا للحرق والطمس والضياع .

ولعل هذا التنافس او الصراع السياسي العنيف الذي احتدم بين الامارات والممالك المستقلة في هذا القرن : هو احد اهم الأسباب التي تفسر لنا ضياع كثير من الرسائل

---

(63) ينظر : مقدمة زهر الاداب وثمر الالباب – د.زكي مبارك 1/30–31 .

(64) لعل ادل شاهد على هذا الجانب : رسالة أبي الفضل ابن العميد التي كتبها الى ابن بلكا ، عند استعصائه على ركن الدولة البويهي ، فقد ذكر الثعالبي عن ابن بلكا نفسه انه كان يقول – بعد ان بلغته تلك الرسالة – " والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل الا كما اشار الاستاذ الرئيس ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك اديمي واستصلاحي ، وردي الى طاعة صاحبه " (يتيمة الدهر 3/195) .

(65) يراجع تراجم الكتاب وتفاصيل ما حصل لهم : (الوزير المهلبي وما حصل له بعد وفاته من مصادرة معز الدولة لأمواله وضياعه ! وكذا ما حدث للصاحب بعد وفاته ! وتراجع نهاية أبي الفتح ابن العميد ونكبته ، وما وقع للاسكافي وحكاية اسره ، وكذا خبر الصابي مع عضد الدولة ومحنته وحبسه ومصادرة اموالة ، وكذا ما تعرض له الخوارزمي من حبس ومطاردة ، ومصادرة امواله وضياعه ، وغيرهم كثير ...

الأدبية والديوانية ، وضياع العديد من المصنفات المشهورة التي ضمت في ثناياها كثيرا من المكاتبات المختلفة ، والأخبار المهمة التي تتصل بسير اعلام الكتاب في هذا القرن :

أ-**ضياع كثير من رسائل أبي بكر الخوارزمي** ، فضلا عن ضياع ديوان شعره ، وكثير من قصائد عديدة قالها في الحقبة التي اتصل فيها بالامارة الحمدانية والأمير سيف الدولة ، وقد اشار الثعالبي الى عدم وصول رسائله التي كتبها في تلك الحقبة ، وربما ضاعت [66]، وربما كان انقطاع الخوارزمي – فيما بعد – الى البويهيين ، قد اسهم أيضاً في طمس معالم نتاجه الادبي الذي صدر عنه في مديح آل حمدان ، والثناء عليهم.

ب-**وصول اجزاء من رسائل اخوانية لابي إسحاق الصابي** فقدت اصولها . وقد اشار احد الباحثين [67]، الى وجود قطع نثرية قليلة من نثر الصابي مبثوثة في المصادر ، وهي تتناول في الأكثر غرضي الحكمة والوصف ، وهي اجزاء منفصمة عن رسائل اخوانية فقدت أصولها ، وارى ان هذه الأصول المفقودة ربما كانت مما لا تتفق مع اهواء السياسة ولاسيما ان الصابي كان من المقربين الى الأمير(عز الدولة بختيار) الذي قتل على يدي ابن عمه(عضد الدولة) بعد الحرب الطاحنة بينهما عام 367 هـ.

جـ-**ضياع عدد كبير من المصنفات المهمة لكتاب ومفكرين في هذا القرن** : كانوا على صلة وثيقة بأمراء وحكام تلك الامارات والممالك المستقلة ، وربما كان ضياع تلك المصنفات مرتبطا بالصراع السياسي والفكري بين تلك الممالك الإسلامية المتنازعة ، اذ كان بعضها تسجيلا لمآثر بعض الحكام ، وتمجيدا لأسرهم وتأريخهم ...

ومن تلك المصنفات المهمة المفقودة :

---

[66] ينظر كتاب : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : 82 ، تاريخ بروكلمان 111/2 ، حيث اكد ايضا ضياع شعر الخوارزمي فقال : " ولم يبق لنا من شعر الخوارزمي الا نماذج رواها صاحب اليتيمة " .

[67] أبو اسحاق الصابي حياته وادبه – مهدي صالح البدري ص 131 ، وقد اشار التوحيدي في (المقابسات) ص261 الى واحدة من تلك الرسائل للصابي ، وذكر انها رسالة كتبها أبو اسحاق في تفضيل النثر والنظم .

-**كتاب (التاجي) في أخبار الدولة الديلمية** : لابي اسحاق الصابي ، وقد الفه استجابة لطلب الأمير عضد الدولة ، يقول الثعالبي [68]:

"فاشتغل في منزله به ، واخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه ، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه ..."

وقد نقل الثعالبي في كتابه اليتمية فصولا عديدة منه في مواضع متفرقة .

-**كتاب (الروزنامجة) : للصاحب بن عباد** ، وهو اقرب الى ادب المذكرات ، وقد كتبه الى أستاذه أبي الفضل ابن العميد يصف له فيه حاضرة الخلافة بغداد ، عند زيارته لها ووصف ما يتعلق بملح الوزير المهلبي ومجالسه ، وقد نقل الثعالبي في اليتمية أيضاً نقولاً طريفة من هذا الكتاب [69].

-**ضياع كثير من المصنفات والآثار الأدبية وغيرها** ، لعدد من الأدباء والمفكرين في هذا القرن ، ضمت آثارهم كثيرا من المكاتبات والرسائل الأدبية ، وأخباراً منوعة تتصل باعلام الكتاب ، وكان ضياع تلك المصنفات يعود لأسباب عديدة [70]، الى جانب العامل السياسي الذي اسهم كثيرا في ضياع تلك المصنفات والآثار النفيسة ...

ولعل ابرز هؤلاء الأدباء والمفكرين الذين فقدت مصنفاتهم :

1- احمد بن يوسف (ابن الداية) الذي اشتهر بكتابه (المكافأة) [71].
2- أبو علي ابن مسكويه ، وقد فقد كثير من مصنفاته ، وما زال بعضها مخطوطا لم ينشر بعد [72].

---

[68] يتيمة الدهر : 291/2 .

[69] ينظر : يتيمة الدهر 269/2-273 .

[70] ينظر : تاريخ الادب في ايران - ادوارد براون 132/2-133 ، حيث أشار الى طائفة من المصنفات لكتاب فرس الفوا بالفارسية ، فضلا عن ضياع جملة من كتب في التواريخ المحلية التي القت بالفارسية ، وبقيت ترجماتها العربية فقط .

[71] ينظر : كنوز الاجداد ص134 ، وقد اشار محمد كرد علي الى عدم شهرة ابن الداية ، وضياع أكثر نتاجه الأدبي قال : " وكيف تتأتى الشهرة لاحمد بن يوسف في دولة ضعيفة لم تعترف بها دولة الخلافة ، وتعدها خارجة عليها ؟".

3- أبو الريحان البيروني [73].

4- أبو علي ابن سينا [74].

5- أبو الفرج ابن هندو [75]، وغيرهم .

وهكذا كان لهذا الصراع السياسي والفكري بين امراء وحكام الممالك المستقلة ، والتنافس بينهم على اجتذاب العلماء والأدباء آثاره الايجابية في ازدهار الحركة الأدبية والثقافية ، وكان أيضاً مصدر الهام وابداع للادباء في هذا القرن – وهذا امر لا شك فيه – الا انه كان له ، من جانب اخر ، آثاره السلبية ، واضراره الواضحة على الأدب أيضاً ! وهذا ما تجلى في ضياع كثير من نتاج أولئك الأدباء – وبخاصة جهابذة الكتاب – وطمس معالم الكثير من شذرات رسائلهم ، ولا سيما تلك التي لا تتفق منها مع الأهواء الخاصة ، والمطامح الذاتية .

ومن جانب اخر ، فقد كان هذا الصراع السياسي دافعا قويا للتزييف ، ونحل الأدب – كما سنفصل هذا الامر في المبحث الثاني من هذا الفصل – ومجانبة الحقيقة ، فلقد انطق ذلك الصراع السياسي والفكري بعض الأدباء الكتاب بغير الحقيقة ، حين راح يكتب على لسان خصمه السياسي ، او ينطقه بما لم يصدر عن سن قلمه ...

ولعل ما شهر عن أبي حيان التوحيدي في هذا الجانب ، وما سجّله في بعض كتبه كمثالب الوزيرين ، والامتاع والمؤانسة وغيرهما عن أبي الفضل ابن العميد والصاحب ابن عباد ، شائع ومعروف ، ولا يحتاج الى تفصيل او إثبات ...

---

[72] ينظر : معالم الحضارة الإسلامية : ص 206–207 ، حيث أشار الأستاذ مصطفى الشكعة الى ان لمسكويه عددا من المصنفات المخطوطة تقدر بخمس عشرة مخطوطة ، فضلا عن تسعة عشر كتابا مفقودا .

[73] ينظر : براون 121/2 ، حيث اشار الى انه الف مصنفات كثيرة زادت على حمل بعير ، وهي في النجوم والرياضيات والمنطق والحكمة والتاريخ وغيرها .

[74] يراجع عن ضياع مصنفاته ما ذكره ابن الاثير / الكانل في التاريخ (احداث سنة 428هـ) ، تاريخ الادب في ايران 121/2–122، وتتمة صوان الحكمة 62–64 .

[75] ينظر : تتمة صوان الحكمة 85–88 ، حيث اشار الى طائفة من مصنفاته المفقودة .

وهكذا كان هذا الصراع ، والتنافس بين الأمراء والوزراء من جانب ، وبين الكتاب والأدباء والعلماء من جانب اخر ، سببا مهما فيما اصاب الأدب – ولا سيما الرسائل الأدبية – من ضياع وتشويه وتزييف ، على الرغم مما حققه من نهضة الأدب ، وازدهار الكتابة ، وظهور أعظم أعلامها ، وابلغ روادها في هذا القرن ...

2-كثرة الوقائع العسكرية والحروب الطاحنة :

من الاسباب المهمة التي عملت على ضياع كثير من تراث الحضارة الإسلامية وبخاصة الوثائق والمكاتبات السلطانية ، والرسائل الأدبية ، فضلا عن المخطوطات النادرة والمصادر المهمة وغيرها ، لادباء هذا القرن ، كثرة الوقائع العسكرية المبيرة ، والحروب الطاحنة التي شهدها هذا القرن المضطرب .

وقد كان طبيعيا ان يرافق ذلك الصراع السياسي والفكري العنيف الذي استعر لهيبة بين امراء وحكام الممالك الإسلامية المستقلة ، او يتمخض عنه ، الكثير من الوقائع والحروب التي كان لها آثارها السيئة على جميع مفاصل الحياة العامة ، وشرائح المجتمعات الاسلامية المختلفة ...

لقد بدأت صفحات تلك الحروب منذ ظهور بعض الامارات التي اخذت تستقل عن سلطة الخلافة المركزية في مطلع القرن الثالث للهجرة ، ثم طفقت تلك الحروب تتسع جنباتها في نهاية هذا القرن بين السامانيين وخصومهم من الزياريين وغيرهم [76].

ولقد اتسع نطاق تلك الوقائع والحروب العنيفة ، في هذا القرن ، ولا سيما بعد سيطرة الأمراء البويهيين على حاضرة الخلافة بغداد ، فبدأ الصراع بينهم وبين خصومهم من السامانيين والزياريين والحمدانيين وغيرهم [77]،وقد بلغ ذلك الصراع العسكري اوجه على عهد

---

[76] ينظر : الكامل في التاريخ لابن الاثير (مواضع متفرقة لاحداث السنوات المذكورة ، تاريخ ايران :54.

[77] ينظر : تجار الامم ج5 ،(مواضع متفرقة) ، تاريخ أبي الفداء ج1/مواضع متفرقة (احداث السنوات المذكورة)

الأمير البويهي عضد الدولة (ت 372 هـ) ، اذ امتد ليشمل الالتحام مع جميع خصومه السياسيين ، والقضاء عليهم ، بما في ذلك صراعه مع ابناء البيت البويهي نفسه[78].

وتتعمق تلك الحروب في اواخر هذا القرن ، باتساع نفوذ الغزنويين ، وصراعهم المتواصل مع خصومهم السياسيين ، ومد نفوذهم وسيطرتهم على ارجاء واسعة من اقاليم الشرق ، حتى شملت اقاليم الهند وافغانستان وتركستان [79].

وكانت غزوات السلطان محمود بن سيكتكين – ولا سيما لبلاد الهند – مستمرة ومتواصلة ، فضلا عن مد سيطرته على أكثر اقاليم خصومه من السامانيين والبويهيين ، وامارة خوارزم ، وغيرها من الامارات الاسلامية الصغيرة المجاورة لحاضرته غزنة [80].

وقد امتدت هذه الوقائع والحروب الطاحنة الى ما بعد القرن الرابع الذي شهد ظهور السلاجقة ، وتصاعد حروبهم العنيفة مع الغزنويين والبويهيين ، ومن تبقى من فلول خصومهم السياسيين [81].

ونتيجة لامتداد هذا الصراع السياسي والعسكري ، وتواصل تلك الحروب العنيفة طيلة هذا القرن ، فقد كان أكثر أولئك الأدباء الكتاب عرضة للمحن ، وويلات الحروب ، لا سيما اذا ما تعرضت امارتهم لصروف الدهر ومحنه ، او تمكن منهم اعداؤهم ، او تعرض سيدهم وولي نعمتهم للهزيمة او العزل ، او وقع تحت انياب الردى في سوح الوغى ...

---

[78] تراجع حروب عضد الدولة مع الامير عز الدولة بختيار (احداث سنة 367هـ) في :الكامل في التاريخ ، تجارب الامم ، تاريخ أبي الفداء ، وتراجع حروبه ايضا مع اخيه فخر الدولة الذي تحالف مع الامير الزياري قابوس : (تجارب الامم ، تاريخ أبي الفداء) ، وينظر ايضا : ما دار من حروب وصراع عسكري بين (قوام الدولة أبو الفوارس بن بهاء الدولة) ، وبين ابن اخيه (أبو كاليجار) بن سلطان الدولة ، وتغلب الاخير على عمه بعد حروب مريرة ، واستيلائه على شيراز ، واستقراره بها . (ينظر بايجاز : تاريخ أبي الفداء 506/1) .

[79] يراجع : التاريخ اليميني – العتبي ج2 (مواضع متفرقة) ، تاريخ أبي الفداء ج1 /احداث السنوات المذكورة ، الكامل في التاريخ ج9/مواضع متفرقة لاحداث السنوات .

[80] ينظر بايجاز : تاريخ أبي الفداء ج1 /حوادث السنوات المذكورة .

[81] تراجع التفاصيل في : التاريخ اليميني ج2 ، تاريخ أبي الفداء ج1،تاريخ ايران :76.

وكثيرا ما كان يتعرض نتاجهم الادبي أيضاً ، وبخاصة طوامير الكتب الرسمية ، ورسائلهم وعهودهم السياسية التي كانت بمثابة الوثائق او الصحائف النفيسة التي تحوي أخبار أولئك الأمراء والحكام ، وتسجل محاسنهم وانتصاراتهم ، وتوثق أخبارهم ، كثيرا ما كان يتعرض للضياع او الطمس والتلف او الحرق ، فويل للمغلوب من الغالب ! فكم من رسائل فنية محبرة خطتها انامل مبدعة قد طويت وطمست ، وكم من وثائق ادبية اتلفت واحرقت ، ذلك لانه يشق على الخصوم السياسيين – وقد حققوا الظفر على خصومهم – نشر تلك الصحائف او الرسائل التي تؤرخ الانتصارات ، وتسجل الامجاد ،وتخلد ذكر القادة والأمراء الذين كانوا امس – قبل ان تحل بهم المحن ، ونكبات الدهر – رموزا شامخة ، وشموسا ساطعة ، ومن هنا ، فقد عمد الغالب المنتصر على طمس كل معالم خصمه السياسي المغلوب ، كي لا يكون بثها دعاية له ، وبقاؤها سجلا لمآثره ، اذ ان " ابغض ما يكون الى المنافس الاشادة بفضائل منافسه " [82].

وهكذا كانت تلك الحروب الداخلية الطاحنة ، والوقائع العسكرية الخارجية على الثغور الإسلامية النائية ، وغيرها ، والغزو الأجنبي وغيره الذي تعرضت له اقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن – لاسيما تلك الغارات المبيرة التي شنها على بلاد ايران المغول والغز وغيرهم – كان كل ذلك سببا مهما في ضياع كثير من الرسائل الأدبية والديوانية ، فضلا عن ضياع كثير من المصنفات والآثار الأدبية [83] التي كتبت باللغتين العربية والفارسية، وربما كان ما سلم من الضياع من تلك المصنفات والآثار الأدبية ، هو اقل بكثير مما ضاع ، او طمس واحرق من ذلك التراث الإسلامي النفيس .

---

[82] كنوز الاجداد ص133 .

[83] اشار الاستاذ (ادوارد براون) في كتابه : (تاريخ الادب في ايران 131/2 وما بعدها ، الى ضياع كثير من المصنفات والآثار الادبية وغيرها ، ولا سيما ما الف منها على عهد الامارة السامانية والزيارية والطاهرية باللغتين الفارسية والعربية ، ومن ضمنها مجموعة من كتب التاريخ المحلية التي كتبت بالفارسية ، ومن المصادر المهمة التي سلمت من الضياع : كتاب (جهار مقالة) للنظامي السمرقندي العروضي ، ويراجع مقدمة مترجم هذا الكتاب – العلامة القزويني – وما اشار به الى هذا الجانب التوثيقي الخطير .

ويمكن ان نستدل من بعض الأخبار التي اوردتها بعض مصنفات التراجم ومظان الادب والتاريخ على ضياع الكثير من المكاتبات والرسائل الأدبية ، ومصادر التراث العربي والفارسي النادرة :

أ- ذكر ياقوت الحموي [84]: ان السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي ، لما ورد الري ، استخرج من بيت كتب الصاحب بن عباد كل ما كان في علم الكلام ، وامر بحرقه ، وقد اكد (أبو الفداء [85]) في احداث عام 420هـ ان يمين الدولة محمود الغزنوي استولى على الري ، وقبض على مجد الدولة بن فخر الدولة لاشتغاله عن تدبير المملكة بامور اخرى ، وشغب الجيش عليه في ذلك .

ويمكن ان يستشف الباحث مما حول هذا النص ، ضياع الكثير من تراث الوزير الصاحب بن عباد الادبي والفكري ، ولا سيما رسائله وعهوده السياسية ، فضلا عن الكثير من الكتب النفيسة التي تتعلق بالفلسفة وعلم الكلام ، وما الى ذلك .

ب- ذكر المستشرق (ادوارد براون [86]) –في معرض تأكيده على ضياع الكثير من تراث أبي علي ابن سينا (ت 429هـ) – ان كتب ابن سينا كانت من بين الأسلاب التي حملها الجيش الغزنوي الى مدينة غزنة ، حين اصابت الهزيمة علاء الدين بن كاكوية البويهي ، وقد حفظوها في مكتباتها ، حتى احرقت المدينة – غزنة– جيوش الملك (حسين الغوري) الذي لقب بـ(جهان سور) ، أي محرق الدنيا .

وقد اكذ ابن الاثير [87] في نهاية حوادث عام (428هـ) ان (علاء الدولة) كان متهما في دينه . ومن اجل ذلك فقد التحق (ابن سينا) بخدمته حتى يستطيع ان يكمل مؤلفاته المليئة بالالحاد ، دون ان يصيبه شيء من الاذى .

ويمكن ان نستدل من فحوى الخبر الذي اورده ابن الاثير – على الرغم من عدم قناعتنا بصحة ما زعمه عن الحاد أبي علي ابن سينا – على غزارة تآليف ابن سينا في

---

[84] معجم الادباء 315/2 ، وينظر ايضا : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع 326/1 .

[85] تاريخ أبي الفداء (المختصر في اخبار البشر) احداث عام 420هـ ، 508/1 .

[86] تاريخ الادب في ايران 123/2 وما بعدها ، وينظر : تتمة صوان الحكمة : 38 وما بعدها .

[87] الكامل في التاريخ . (احداث عام 428هـ) .

الحقبة التي سبقت وفاته عام 429هـ، اثناء اقامته في كنف الوالي علاء الدولة البويهي ، وتسنمه اسنى المناصب لديه .

3-ضياع نتاج بعض الأدباء ومصنفاتهم لخمول ذكرهم وعدم تدوين ثمار افكارهم :

ومن الاسباب المهمة التي عملت على ضياع الكثير من النتاج الادبي والفكري او المصنفات التي تحوي في ثناياها فصوصا نادرة من المكاتبات ، وفصول الرسائل ، لعدد غير قليل من الأدباء والمفكرين في هذا القرن ، خمول ذكرهم ، لانصراف المدونين ومصنفي كتب التراجم ، ومؤرخي الادب عن تدوين مصنفاتهم ونتاجهم الادبي او الفكري على الرغم مما عرف به بعضهم من كثرة التاليف وغزارة الإنتاج ، اذ ان عددا من هؤلاء الأدباء الكتاب والمفكرين ، قضوا الشطر الأكبر من حياتهم يجوبون الافاق ، ويضربون في آفاق الأرض ، وينتقلون بين الحواضر الإسلامية النائية ، بينما اطال بعضهم المكوث والاستقرار في ممالك نائية أو في إمارات ضعيفة لم تستطيع البقاء طويلاً إزاء الممالك القوية المجاورة ، ولم تستطع أيضاً صد الأطماع الخارجية ، وغزو الأمراء او الحكام الاقوياء الذين كانوا يطمحون دوما لتوسيع دائرة ملكهم على حساب الأمارات الضعيفة المجاورة ، والتي لم تكتسب شرعية البقاء ، كالأمارة الطولونية مثلا ...

أ-اتصال الأدباء الكتاب بامارات وممالك نائية او ضعيفة :

وهكذا كان عكوف بعض العلماء او الأدباء الكتاب في أقاليم نائية ، بعيدا عن متناول المدونين ونقاد الأدب ومؤرخيه ، عاملا مهما لعدم شهرة بعض أولئك الأدباء ، وقلة ما وصل الينا من نتاجهم ، او ضياع جل آثارهم احيانا .

فصلة أبي الريحان البيروني (ت 440هـ) مثلا ، بامراء خوارزم ، وانقطاعه اليهم في ريعان عمره ، وهي امارة نائية وضعيفة ، ثم انتقاله الى (طبرستان) ومكوثة في كنف الأمير قابوس بن وشمكير الزياري ، وهي أيضاً امارة نائية ووعرة ، فضلا عن انها لم تستطع الصمود بوجه الخصوم السياسيين في هذا القرن ، كل ذلك أسهم في ضياع الكثير

من نتاج هذا الأديب المفكر ، وفضلا عن ذلك ، فان مكوث البيروني في بلاد الهند[88] ، بعد فتحها على يدي السلطان محمود الغزنوي الذي تحول الى خدمته – وانقطاعه هناك للعلم والتاليف ، ردحا طويلا من الزمن ، بلغ عدة عقود من السنين ، قد ابعده عن اهتمام المصنفين ، ومؤرخي الأدب المسلمين ، مما ادى الى خمول ذكره وضياع أكثر مصنفاته ، على الرغم من شهرته وما عرف عنه من كثرة التاليف ، وميله الكبير الى تصنيف الكتب .

يقول الباحث محمد كرد علي [89]:

"... وكان مكبا على تحصيل العلوم ، منصبا الى تصنيف الكتب ... ومن تصفح كتاب الهند والآثار الباقية ، يدرك مكانة هذا العالم الذي لم يترجم له مترجموه بما يستحقه من التوسع " .

والاديب الكاتب احمد بن يوسف المعروف (بابن الداية) هو الاخر ، وعلى كثرة فضائله ، واتساعه في ادبه [90]، ونضجه في علمه ، لم يشتهر الشهرة التي هو قمينٌ بها ، وقد عزا الاستاذ محمد كرد علي خمول ذكره ، وضياع آثاره الى صلته الوثيقة بالأمراء الطولونيين . يقول [91]:

" وكيف تتأتى الشهرة لاحمد بن يوسف في دولة ضعيفة لم تعترف بها دولة الخلافة ، وتعدها خارجة عليها ؟ "

---

[88] اشار الباحث محمد كرد علي الى ان البيروني سافر الى بلاد الهند اربعين سنة ، وزادت تصانيفه على حمل بعير وهي في النجوم والرياضيات والمنطق والحكمة وغيرها ، وقد طبع العلماء الالمان ثلاثة منها . تراجع التفاصيل في : كنوز الاجداد : 238–240 .

[89] كنوز الاجداد ص139–140 .

[90] كتب ابن الداية سيرة احمد بن طولون ، وسيرة ابنه (خمارويه) ، وسيرة هارون بن خمارويه وغيرها ، ومن تصانيفه ايضا : اخبار الاطباء ، واخبار المنجمين ، ومختصر المنطق – وقد الفه للوزير علي بن عيسى – وله شرح كتاب (الثمرة) لبطليموس وقد فقدت جميع هذه المصنفات والسير ،ولم يصلنا من نتاجه الا كتاب(المكافأة) وهو متداول .

[91] كنوز الاجداد ص 134 .

وهكذا كان لنكبة الطولونيين[92] ، وزوال ملكهم عام 292هـ ، على يدي العباسيين ، صلة كبيرة ووثيقة بضياع نتاج هذا الأديب الكاتب ، وما من شك في ان العامل السياسي – كما المحنا الى ذلك آنفا – يقف في المصاف الأول بين أسباب خمول هذا الأديب ، وضياع أكثر آثارة ، ونتاجه الأدبي .

وهكذا يقال أيضاً عن الأديب الكاتب الشاعر أبي الفتح البستي [93]، وخمول ذكره ، وضياع أكثر رسائله وعهوده السلطانية وغيرها ، بسبب اقامته الدائمة في اقاليم نائية (تركستان) ، وانقطاعه لخدمة (الباتيور) ، ثم انقطاعه لخدمة الغزنويين ، وما انتهى إليه مصيره البائس من نبذه في بلاد الترك ، وموته منفيا هناك .

ب–كثرة ترحال الأدباء الكتاب بين الممالك الإسلامية وعدم استقرارهم :

سبقت الإشارة إلى ان كثيرا من أولئك الأدباء الكتاب وغيرهم ، امضوا حياتهم منذ ريعان عمرهم ، يجوبون الآفاق ، وما ان يحطوا عصا ترحالهم في حاضرة إسلامية حتى يغذوا السير إلى ربوع حاضرة أخرى ، دفعا للأذى ، وتجنبا لحسد الحساد [94]،ونكالهم ، او لجفوة تقع لبعضهم مع هذا الأمير او ذاك ، أو لغير ذلك من اسباب ...

وقد كان هذا الأمر – على الرغم من آثاره الايجابية على الأدب والثقافة – سببا في خمول ذكر بعض الأدباء ، وضياع كثير من رسائلهم او نتاجهم الأدبي ، فضلا عن تعرض بعضهم للمحن ، ونكبات الزمن وصروفه .

ولعل ما يمكن ان نتمثل به على ذلك ، ضياع أكثر نتاج الحكيم الفيلسوف ابن سينا وأبي الفرج ابن هندو وغيرهما ...

فالحكيم ابن سينا مثلا ، قد تشتت أكثر نتاجه الفكري والأدبي ، وسقط من يد الزمن ولم يصل إلينا من ركام تصانيفه ، التي أوصلها بروكلمان الى أكثر من مائة مصنف

---

[92] يراجع مروج الذهب (أحداث عام 292هـ ، تاريخ أبي الفداء أحداث عام 292هـ) .

[93] تراجع ترجمته واخباره في يتيمة الدهر 345/4 وما بعدها .

[94] يراجع ما ذكره الثعالبي في ترجمته لابي الفتح البستي (اليتيمة 346/4–347) ، واستئذانه للامير سبكتكين للاعتزال الى بعض اطراف مملكته – ناحية الرخج – اتقاء من التهمة ، ومن كيد الحساد .

ورسالة ، الا نزر يسير ، وذلك لانتجاعه كثيرا من حواضر الأمراء في اواخر هذا القرن والربع الأول من القرن الذي تلاه ، وتطوافه في كثير من أقاليم المشرق الإسلامي [95].

وهكذا يمكن ان يقال عن خمول ذكر الأديب أبي الفرج ابن هندو ، وضياع آثاره الأدبية ومصنفاته الغزيرة التي شملت علوما عديدة [96]، فقد اشتهر ابن هندو بكثرة تطوافه بين حواضر الممالك الاسلامية ، وعمله في خدمة أكثر من امير او حاكم في هذا القرن [97].

وفضلا عما تقدم ، فان ضياع بعض مكاتبات الأدباء الكتاب في هذا القرن ، كان بسبب خمول ذكرهم ، لانهم في ريعان عمرهم ، ولم تطبق شهرتهم الآفاق بعد ، ولعل هذا ما يفسر لنا ضياع كثير من رسائل أبي الفرج الببغاء ، فضلا عن ضياع شعره الرقيق ، لاسيما في لا مستهل حياته الأدبية أثناء إقامته في بلاط الأمير سيف الدولة [98].

وقد تقدمت الإشارة إلى ما ذكره الثعالبي عن ضياع رسائل الخوارزمي [99]، أثناء اتصاله بالحمدانيين أيضاً ، وما ذكره عن ضياع شعره في مديحه ، وضياع رسائله التي كتبها في تلك الحقبة ، وقد يكون خمول ذكره لانه في ريعان عمره ، فضلا عن العامل السياسي الذي ربما كان سببا مهما في ضياع آثاره الأدبية آنذاك .

---

[95] تراجع التفاصيل في : تاريخ الادب في ايران – ادوارد براون 112/2–113 .

[96] تراجع التفاصيل في : كنوز الأجداد، ص213 .

[97] تراجع ترجمته في يتيمة الدهر 459/3 وما بعدها .

[98] يراجع ما فصله د.زكي مبارك في خمول ذكر الببغاء ، وضياع نتاجه الأدبي ، النثر الفني 294/2–295 .

[99] ينظر : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص82 .

المبحث الثاني

الانتحال (الوضع الفني) والتزوير في المكاتبات والرسائل الأدبية :

شيوع ظاهرة الانتحال في الرسائل وتزوير الخطوط وأسباب ذلك :

سبق لنا آنفا الوقوف عند ظاهرة (ضياع الرسائل الأدبية والسلطانية) في هذا القرن ، وقد أوجزنا القول في تحليل مظاهر هذه الظاهرة ، وحللنا اهم أسبابها او دواعيها ووقفنا على تداعيات هذه الظاهرة الخطيرة ، وما لها من نتائج سيئة على الأدب ، لعل أخطرها طمس الكثير من تلك النصوص الفنية والوثائق الأدبية المهمة ، وعدم وصولها الينا . ونتيجة لذلك فإننا فقدنا ثروة أدبية قيمة ، يمكن ان تفيد الباحث ومؤرخ الأدب في الكشف عن مسار هذا الفن الأدبي ، وتحليل الكثير من الجوانب المادية والفنية لاعلام الأدباء والكتاب ، واماطة اللثام عن كثير من الحقائق التي لم تفصل فيها مظان الأدب والتاريخ ، او أسدلت الستار عليها .

وظاهرة الانتحال او الوضع الفني ، وتزوير المكاتبات او الرقع والتوقيعات ظاهرة خطيرة أخرى ، يتلمس الباحث ومؤرخ الأدب ظلالها وأوضارها في هذا القرن من خلال ما تناقلته مظان الأدب والتاريخ وكتب السير والتراجم من بعض النصوص الأدبية المضطربة ، وما اوردته بعض تلك المصادر أيضاً من نصوص او رسائل أدبية او أخبار وروايات ، يطغى عليها طابع الاختلاق او النحل والتزييف او التحوير ، فضلا عما ورد في بعض تلك المظان القديمة [1]من إشارات او أخبار وحكايات تنبئ بوضوح عن شيوع هذه الظاهرة ، وقيام بعض الكتاب والوراقين ، او بعض الناس من أوساط العامة وغيرهم ، بتزوير على الخطوط ، او تحوير في المكاتبات ، او العهود ، والرقع السلطانية ، وغيرها ، لأسباب ودواع عديدة متباينة ، سنلم بدراسة اهمها في الصفحات التالية .

---

[1] يراجع ما أورده المحسن التنوخي من حكايات ونوادر طريفة ، تتصل بتزوير الكتب ، والخطوط على بعض الوزراء والقضاة وغيرهم ...(نشوار المحاضرة وأخبارالمذاكرة 1/57-59 ، 64 ، وغيرها ، وينظر أيضاً : تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر 1/464 (احداث عام 370 هـ) وغيرها من المظان التي سنلم بها .

وما من شك في ان ظاهرة نحل الرسائل او اختلاقها وادعائها على لسان الغير او ما يعرف عند النقاد بـ(الوضع الفني) ، سواء اكان ذلك على لسان امم أم اجناس قديمة ام على لسان كتاب قدامى مشهورين ، لاسباب عديدة ، قد تكون سياسية او دينية او فنية ، او لغير ذلك ، لم يقتصر شيوعها على هذا القرن فحسب ، وانما عرفت قبل هذا العصر أيضاً .

فأبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) نراه مثلا قد شكك في الرسائل القديمة المنسوبة للفرس ، والتي حظيت برواج واسع ، وشهرة عريضة بين الناس شكك في صحتها على الرغم مما كسبته من ذيوع في الآفاق ، كما شكك أيضاً في قدمها . يقول[2]:

" ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التي بأيدي الناس للفرس ، إنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، اذ كان مثل ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وأبي عبد الله ، وعبد الحميد ، وغيلان ، يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير . ".

على ان الجاحظ نفسه لم يسلم من تهمة الانتحال او الوضع الفني ، فقد اشار المسعودي [3]قديما الى ان الجاحظ كان في أول أمره اذا كتب كتابا ، واراد ان يذيعه في الناس نسبه لسهل او لزميله ابن المقفع ، فيشيع الكتاب ، ويحمله الناس مع الحمد والثناء .

وقد شكك بعض الباحثين المعاصرين أيضاً في بعض القصص او الروايات التي اوردها الجاحظ في بعض كتبه ورسائله – ولا سيما كتاب البخلاء – والتي نسبها الى شخوص ابطاله ، فضلا عن بعض الرسائل التي نسبها الى كتاب مشهورين [4].

ولعل اشهر تلك الرسائل التي شكك فيها بعض الباحثين المعاصرين ، ما ساقه الجاحظ في صدر كتاب البخلاء [5]، وهي رسالة سهل بن هارون في الدفاع عن مذهبه في ذم الإسراف ومدح التقيتر .

---

[2] البيان والتبيين 29/3 .

[3] التنبيه والأشراف : 76 .

[4] تراجع التفاصيل في كتاب (سهل بن هارون حياته واثاره) – كتاب مخطوط للباحث ص67–75

وعلى الرغم من عدم تشكيك النقاد ومؤرخي الأدب القدامى بصحة نسبة هذه الرسالة لسهل بن هارون الكاتب ، وعلى الرغم من تأكيد بعض[6] مصنفي كتب الأدب والتراجم المتأخرين أيضاً على أثبات هذه الرسالة لسهل بن هارون ، فان بعض الباحثين المعاصرين [7] قد اثار ظلالا من الشك في صحة نسبتها لهذا الأديب الكاتب ، بينما ذهب محقق كتاب البخلاء – الدكتور طه الحاجري [8]– الى نفي صحة نسبه هذه الرسالة لسهل وراح يسوق ادلة علمية خارجية وداخلية ، تدلل كلها على ان هذه الرسالة هي من آثار الجاحظ ، وانه نحلها سهلا لأسباب فنية وغيرها ...

لقد شاعت ظاهرة الانتحال في المكاتبات والرسائل [*]الأدبية والسلطانية شيوعا ظاهرا في هذا القرن ، وربما يستشف الباحث من سياق ما رواه بعض المؤرخين ومصنفي كتب التراجم والأدب ، ان طائفة واسعة من الكتاب ، وممن امتهن صناعة الوراقة ونسخ الكتب وغيرهم في هذا القرن ، كانوا يفتنون بحذق ومهارة عالية في تزوير الخطوط ، ونحل الرسائل والعهود او الرقع وبعض التوقيعات المهمة لمشاهير الوزراء او الولاة والقضاة والعمال وغيرهم ...

ذكر أبو الفداء في تاريخه [9]–في معرض إشارته الى وفاة الاحدب المزور في احداث عم 370هـ– ذكر انه : " كان يكتب على خط كل احد ، فلا يشك المكتوب اليه انه خطه ..." .

---

[5] ينظر : كتاب البخلاء تحقيق الدكتور طه الحاجري : ص9 وما بعدها ، واورد الرسالة أيضاً صاحب العقد الفريد 156/6 وما بعدها ، ووردت أيضاً في : نهاية الارب للنويري : 317/3 وما بعدها .

[6] يراجع ما ذكره ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : 266/11 .

[7] يراجع ما ذهب اليه الدكتور شوقي ضيف في كتابه : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص54 .

[8] تراجع التفاصيل في : البخلاء – تحقيق الحاجري ص268 وما بعدها .

[*] يراجع ما ذكره جامع ديوان رسائل الهمذاني ، من ان بديع الزمان كان يكتب عن لسان ابيه كتبا ورقعا ليقرأها الافاضل من الكتاب فيستدلوا بها على فضل والده ! واثبت جامع الرسائل بعض تلك الرسائل المنسوبة الى والد الهمذاني ، ينظر رسالة الهمذاني ص445–446 ، ورسالة اخرى ص 447 ، ورسالة ثالثة ص449 .

[9] تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر) – احداث عام 370 هـ – 464/1 .

ومن الشواهد الطريفة التي تؤكد براعة بعض الكتاب او غيرهم في تزوير الخطوط ، وحذقهم او فطنتهم في ذلك ، ما رواه المحسن التنوخي ، عن أبي الحسين ابن عياش القاضي ، عن محاولة صديق له تزوير كتاب على رجل مرتعش اليد . يقول [10]:

"... رأيت صديقا لي على بعض زواريق الجسر ببغداد ، جالسا في يوم ريح شديد وهو يكتب ، فقلت : ويحك ! في مثل هذا الموضع ، ومثل هذا الوقت ؟! فقال : اريد ان ازور على رجل مرتعش ، ويدي لا تساعدني ، فتعمدت الجلوس ها هنا ، لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح ، فيجئ خطي مرتعشا ، فيشبه خطه " .

ولعل ما يبعث على الغرابة والطرافة أيضاً ، ان يبرع الأمير البويهي عضد الدولة فناخسرو (ت 372هـ) في تزوير الكتب ، والتوقيع بخطه للإيقاع بين أعدائه وخصومه السياسيين ! ذكر أبو الفداء يقول [11]:

" وكان عضد الدولة يوقع بخطه بين الملوك الذين يريد الإيقاع بهم ، بما يقتضيه الحال ، والإفساد بينهم !".

وقد استشرت ظاهرة (الانتحال) في هذا القرن كثيرا ، حتى ان بعض الكتاب[*] او متعاطي الأدب كان لا يتورع عن الاغارة على كلام مشاهير الأدباء واعلام الكتاب ولعل ما يؤكد ذلك ما ذكره أبو منصور الثعالبي ، اذ قال [12]: " : كتب إنسان الى الصاحب رقعة ، وقد اغار فيها على رسائله ، وسرق جملة من ألفاظه ، فوقع فيها : (هذه بضاعتنا ردت الينا) " .

ولعل ما يؤكد شيوع هذه الظاهرة في هذا القرن أيضاً ، خشية بعض الأدباء والكتاب على نتاجهم ورسائلهم من الادعاء والسرقة او الانتحال ، ولعل خير ما يوضح هذا الامر ،

---

[10] نشوار المحاضرة وأخبارالمذاكرة 63/1 .

[11] تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر) 464/1 .

[*] يراجع ، مثلا ، ما ورد في رسالة الخوارزمي الى تلميذ له طلب نسخة شعره ، حيث يصرح الخوارزمي بشكه بالرسالة التي كتبها اليه تلميذه ، ويتهمه بسرقتها من كلام الغير !

[*] ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي : 95-96 .

[12] يتيمة الدهر 234/3 .

ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي الاعتذارية الى (أبي الحسين علي بن دايه) ، اذ اشار فيها الى خشية أبي الحسين على كتابه من الادعاء او الانتحال ، يقول الخوارزمي [13]:

" لم ينقطع عن كتاب سيدي ، مع ضني به ، وعشقي له ، الا انه يبخل علي بان احفظه وارويه ، ويخشى علي ان انتحله او ادعيه ..." .

وربما استشرت عدوى هذه الظاهرة ، ظاهرة نحل الرسائل في هذا القرن ، لتشمل فن الشعر أيضاً ، فقد وردت أخبار وإشارات عديدة في ثنايا كتب الأدب تدلل بوضوح على امعان بعض الشعراء غير المغمورين ابان هذا القرن على الاغارة على شعر الغير ونحله ، فقد اشار الثعالبي مثلا ، في ترجمته لابي طاهر بن الخبزارزي الى كثرة انتحاله من شعراء عصره ! اذ قال [14]:

" قد تقدم ذكره ، عند ذكر أبيه وعمه ، وكان – على انتحاله كثيرا من أشعار اهل عصره – شاعرا لا باس بكلامه ..."

ولعل اطرف ما وصل إلينا من روايات في هذا الجانب ، ما ذكره الثعالبي أيضاً عن أبي الحسن الدلفي المصيصي من انتحال احد المتشاعرين شعرا للوزير الصاحب بن عباد . ذكر يقول [15]:

"انتحل فلان (يعني احد المتشاعرين بحضرة الصاحب شعرا له ، وبلغه ذلك ، فقال : ابلغوه عني : [من المجتث]

سرقت شعري ، وغيري يضام فيه ويخدع
فسوف اجزيك صفعا يكد رأسا واخدع
فسارق المال يقطع وسارق الشعر يصفع

قال : فاتخذ الليل جملا ، وهرب من الري .".

---

[13] رسائل أبي بكر الخوارزمي ص36 .

[14] يتيمة الدهر : 442/4 .

[15] المصدر نفسه : 233/3-234 .

وبسبب ما شاع في أروقة الأمراء ، ومجالس الوزراء ، ابان هذا القرن ، من دسائس وتحاسد بين رجال الحاشية والمقربين من الأدباء او من قد تطأ قدماه تلك المنتديات من اهل الأدب الطارئين ، فقد دأب بعض الأدباء وغيرهم على نحل الشعر لاسباب شخصية ، بغية اتخاذه اداة للايقاع بالخصوم والنيل منهم .

ولعل خير ما يجلي هذا الجانب ، ما ذكره أبو منصور الثعالبي من كثرة ما وضع من شعر على (أبي طالب عبد السلام بن الحسين المأموني) ، للايقاع به ، بعد ان ارتفعت مكانته عند الوزير الصاحب ، قال الثعالبي [16]:

" ... وتارة ينحلونه هجاء في الصاحب يعرب عن فحش القدح ، ويحلفون على انتحاله ما اصدر من شعره في المدح ، حتى تكامل لهم اسقاط منزلته لديه – أي الصاحب – وتكدر ماؤه عنده وعليه ..."

****

اما اسباب هذا النحل والتزييف ودوافعه في هذا القرن فقد كانت عديدة لعل في مقدمتها ما يأتي :

اولا : تصاعد حدة الصراع السياسي والمذهبي :

لقد كان هذا الصراع السياسي والمذهبي – الذي الممنا بالوقوف عنده انفا – حافزا قويا دفع كثيرا من الأمراء والحكام المتنافسين وخصومهم السياسيين على النحل والتزييف ومجانبة الحقيقة أحياناً كثيرة ، لتحقيق مآربهم او مطامحهم السياسية وغير ذلك ، وكثيرا ما انطق ذلك الصراع السياسي والفكري بعض الأدباء والكتاب بغير الحقيقة ، حين طفق يكتب على لسان خصمه بما يتلاءم مع أهوائه وأهواء ورغبات أسياده من الأمراء والسياسيين المتنافسين ، وهكذا راح ينطقهم او يكتب على لسانهم بما ليس لهم ، أو لم يصدر عنهم ،ويلفق عليهم ما ليس من ثمرات نثرهم وأدبهم !

وقد مر بنا انفا ، ان الأمير عضد الدولة البويهي " كان يوقع بخطه بين الملوك الذين يريد الايقاع بينهم ، بما يقتضيه الحال في الإفساد بينهم "[17] .

---

[16] يتيمة الدهر : 184/4 .

[17] تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر) : 464/1 .

وقد اشتهر أبو حيان التوحيدي بمنابذته وعداوته للوزيرين الأديبين أبي الفضل ابن العميد ، وأبي القاسم الصاحب بن عباد ، وربما كان ما عرفا به من تشيعهما ما اذكى جذوة العداوة والخلاف الشخصي بينهم .

ذكر الاستاذ زكي مبارك يقول [18]:

" ... لقد انطق التوحيدي الصاحب بن عباد بعبارات مخجلة يندى لها وجه القارئ وينفر منها الطبع والذوق ، وان كانت وضعت باسلوب شائق خلاب ".

وربما كانت رسالة (السقيفة) [19]،لأبي حيان التوحيدي ، أدق شاهد على علاقة هذا الصراع السياسي والمذهبي بإيقاظ جذوة الحسد والعداوة والحقد ، وما يتمخض عن كل ذلك من دوافع تاخذ بيد بعض الأدباء وغيرهم الى التزييف والانتحال او (الوضع الفني) .

لقد شكك بعض الأدباء والنقاد القدامى بصحة هذه الرسالة – رسالة السقيفة – وذهب الى انها (موضوعة) لأسباب سياسية ومذهبية ، فابن أبي الحديد (ت 655هـ) مثلا ، عقب على هذه الرسالة – بعد ان أوردها في النهج – بما يؤكد انها منحولة ، وانها من وضع أبي حيان التوحيدي ، وانها بأسلوبه اشبه ، ذكر في خاتمة تعليقه على هذه الرسالة يقول [20]:

" والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده ادنى معرفة بعلم السير واقل انس بالتواريخ ".

وقد شكك بصحة نسبة هذه الرسالة أيضاً عدد من الباحثين المعاصرين[21] فالأستاذ الباحث (إبراهيم الكيلاني)[22] –الذي حقق هذه الرسالة ونشرها – عد رسالة " السقيفة "

---

[18] زهر الاداب وثمر الالباب – مقدمة الناشر (د.مبارك) 31/1 .

[19] تراجع هذه الرسالة في (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد 597/2 ، كما أوردها النويري في كتابه (نهاية الارب 223/7–224 ، واثبتها القلقشندي في صبح الاعشى 237/1 .

[20] شرح نهج البلاغة 597/2 ويراجع أيضاً : ميزان الاعتدال للذهبي ج3 ترجمة التوحيدي رقم (10137) .

[21] ممن شكك بصحتها : د. زكي مبارك (النثر الفني 69/1 (ط . مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة 1352 هـ / 1943 م) ، وينظر كتاب : ابو حيان التوحيدي د. إحسان عباس : 14) ، فقد

نموذجا للأدب الذي يصور الصراع المذهبي بين السنة والشيعة في عصر بني بويه أبان هذا القرن الذي اشتدت فيه الصراعات السياسية والمنازعات المذهبية والفكرية ، وشارك فيها أكثر شرائح المجتمع الإسلامي على اختلاف عقائدهم ، وتفاوت حظوظهم من الثقافة والمعرفة ...

ورأى الباحث أيضاً ان احد اهم الأسباب التي دفعت ابا حيان لتأليف هذه الرسالة ، فضلا عما تقدم ، هي العداوة الشخصية التي تأججت نارها بين أبي حيان من جهة ، وبين ابن العميد والصاحب بن عباد من جهة أخرى ، ولذلك قصد التوحيدي في تأليف رسالته هذه الى اغاظتهما – لكونهما كانا من أكابر الشيعة في زمانهما – فعمد الى الانتقام منهما لأنهما اساءا اليه ، وحرماه رفدهما [23].

ثم أشار الباحث المحقق الى ما طرأ على هذه الرسالة ، على مر العصور ، من نحل وتحريفات كثيرة ، فذكر يقول [24]:

" وقد كانت الرسالة عرضة ، على مر العصور ، لزيادات وتحريفات كثيرة ، حتى ليشعر القارئ عند مقابلة نصوصها المطبوعة بثقل الإضافات التي كادت تضيع معالمها الأصلية . ولعل الناس فتنوا بروعتها الإنشائية وأسلوبها البلاغي اكثر من الأفكار التي تضمنتها ، والغاية التي قصد اليها مؤلفها ، فكان ذلك حافزا لهم على التصرف في شكلها

ذهب إلى القول : " وكان أبو حيان ساذجاً من الناحية التاريخية ، لأنه لم يفطن أن اسلوبه دال عليه " بينما شكك الحوفي أيضاً في صحة نسبتها ،وفرض فرضين مهمين ، (يراجع كتابه : أبو حيان التوحيدي ط2 القاهرة 1964) وذهب باحثون أخرون إلى صحة الرسالة وأن التوحيدي رواها ولم يضعها ، ينظر : امراء البيان – محمد كرد علي 2/ 536 ؛ أبو حيان التوحيدي سيرته وآثاره – د. عبد الرزاق محيي الدين : 109 ، وينظر أيضاً كتاب : أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيان : 60–71 ، حيث فصل في صحة هذه الرسالة وساق عدة أدلة على ذلك ..

[22] نشر هذه الرسالة الاستاذ ابراهيم الكيلاني في كتاب (ثلاث رسائل لابي حيان التوحيدي) :26–5 . (نشر المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية – دمشق 1951) ونشرت رسالة السقيفة بمعية رسالتي(في علم الكتابة) و (رسالة الحياة) .

[23] ثلاث رسائل لابي حيان التوحيدي (رسالة السقيفة) – المقدمة :8.

[24] المرجع السابق – المقدمة :8 .

الخارجي زيادة ونقصا ، دون مساس الفكرة الأساسية وهي الدفاع عن خصوم علي وهدم احقيته بالخلافة " .

وعلل باحثون آخرون بروز ظاهرة (الوضع الفني) في نثر أبي حيان ، وولعه بوضع الأحاديث والاسمار ، ووقائع التاريخ ، الى تأثره الشديد بأسلوب الجاحظ ، وانه قد اتخذ ابا عثمان الجاحظ قدوته وامامه ، وتأثر به وسلك مسلكه [25].

والى هذا أيضاً ذهب الأستاذ (حسن السندوبي) ، اذ رأى ان من خصائص أبي حيان البارزة احتذاء الجاحظ في التفنن في كل شيء ، مع تفرده بخصوصية فنية ميزت ترسله بطابعه الخاص . يقول السندوبي مشيرا الى ظاهرة (الوضع الفني) في نثره [26]:

" ... غير انه اولع بوضع الأحاديث والاسمار ووقائع التاريخ في الصورة الروائية فلا يكتفي بايراد الحادث على ما عرف ، وتناقله الرواة ، بل يعرض له ، ويرسل صيَّباً مدراراً من فائض بلاغته ، وزاخر بيانه ، فاذا هو قصة ذات وقائع وأشخاص وابطال تروع اذا مثلت ، وتروق اذا قرئت ، وتملك المشاعر والقلوب اذا استمعت ، ومع ما يدخله عليها من إصباغ ، وما يطليها به من ألوان ، فهو لا يعدو في النتيجة ان يمثل الحقيقة في اصدق مظاهرها ..."

وهكذا يبدو جليا ان ابا حيان التوحيدي كان متأثرا بالجاحظ في وضع الأحاديث والقصص ، وكان كالجاحظ أيضاً وضاعا ، ومولدا ، وكان كأستاذه يصدر في هذا كله عن طبيعته الفنية ، ونزعته الأدبية .

وهكذا أيضاً كان هذا الصراع السياسي والمذهبي ، الذي شهده هذا القرن ، وعلى الرغم من انه كان احد اهم أسباب النهضة العلمية والأدبية في هذا القرن ، الا انه كان من جهة اخرى سببا مهما فيما أصاب الأدب – ولاسيما المكاتبات والرسائل الأدبية والسلطانية – من ضياع وتزييف وانتحال .

---

[25] تراجع التفاصيل في : النثر الفني واثر الجاحظ فيه – د.عبد الحكيم بلبع :281 .

[26] المقابسات – تحقيق السندوبي :17 .

ثانيا : الخصومات الشخصية بين الأدباء الكتاب :

ولعل من البواعث المهمة التي كانت وراء شيوع ظاهرة الانتحال أو (الوضع الفني) ، وتوليد الأخبار والروايات والقصص ، واختلاقها في هذا القرن – فضلا عن ضياع كثير من النصوص الأدبية – ما شاع بين كثير من أدباء هذا العصر من خصومات شخصية ، وما وقع بينهم ، تبعا لذلك ، من تباغض وتحاسد .

ولعل من شواهد هذا التباغض والتحاسد المبكرة التي كانت لها آثارها الواضحة في نحل المكاتبات والرسائل الأدبية وضياعها في هذا القرن ، ما وقع لابي عبد الله العميد لما تقلد ديوان الرسائل للأمير الساماني نوح بن نصر [27]،من حسد الوزير أبي جعفر محمد بن العباس له ، فضلا عن حسد كاتبه أبي القاسم الاسكافي ، وتواصل هذا التباغض بينهم حتى وفاة أبي عبد الله !!

وما من شك في ان حسد هذا الوزير وأعوانه – على ما كان لهم من نفوذ واسع في امارة السامانيين انذاك – لابي عبد الله العميد او لغيره أيضاً ، لم يكن ليسهم في الوضع والتزييف على مكاتبات هذا الأديب الكاتب وغيره ، فحسب ، وإنما كان كفيلا أيضاً بضياع جميع شذرات ترسله وادبه !

وهكذا يقال عن عزلة (أبي الفتح البستي) بناحية (الرخج) – كما مر بنا انفا – اتقاء من حسد الحساد في بلاط الأمير سبكتكين ، وايقاعهم به ، لما تقلد ديوان الرسائل ، واحله هذا الأمير محل الثقة في أمارته [28].

وتجدر الإشارة أيضاً الى ما مني به كثير من نتاج الأديب المفكر أبي علي بن مسكويه من تشويه ونحل واضطراب وضياع ، بسبب الحسد والحقد على نبوغه ، فقد اتهمه بعض خصومه وبعض من ارخ له [29]، انه كان مجوسيا واسلم ! وما من شك في ان ما تعرض له ابن مسكويه من تجريح ، وما وقع له ، حتى في حلقة دروسه ، من تطاول

---

[27] ينظر : يتيمة الدهر 3/184–185 .

[28] ينظر : يتيمة الدهر 4/346 ، تتمة صوان الحكمة : 34 وما بعدها .

[29] يراجع : معالم الحضارة الإسلامية ص202 ، النثر الفني في القرن الرابع 2/177 وما بعدها .

وهجوم [30]من ابن سينا وغيره – طمعا في نيل الشهرة – قد اسهم أيضاً في طمس وضياع كثير من نتاج هذا الأديب المفكر ، وتشويه بعضه الاخر . بما اختلقوه عليه من تهم ، او ما وضعوا عليه من آراء مضللة ، ونحلوه من روايات وأخبار للحط من شأنه ، والغض من منزلته .

ويتضح اثر تلك الخصومات ،والتباغض والتحاسد بين الأدباء في نحل تراثهم ، او الاختلاق والتزييف عليهم ، يتضح في اجلى صوره ابان هذا القرن ، بما وقع بين أبي حيان وخصميه اللدودين أبي الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد .

ولعل ما سجله أبو حيان عنهما – كما اشرت انفا – في كتابيه الشهيرين ، مثالب الوزيرين ، والإمتاع والمؤانسة ، يكشف بوضوح خطورة ما تعرض له الأدب في هذا القرن ، من نحل واختلاق وتزييف ، فقد كان أبو حيان كثيرا ما يختلق الحوادث والإشارات ، وينطق خصميه الوزيرين ابن العميد وابن عباد برسائل ومقطوعات ورقع موضوعة تهوي بهما الى الحضيض [31].

وقد تنبه بعض مؤرخي الأدب ، منذ القدم ، الى تحامل أبي حيان التوحيدي ، واسرافه في التعصب والتحامل على ابن العميد والصاحب [32].

ولعل ما تقدم ذكره ، يجعلنا نشكك في بعض ما روي عن هذين الاديبين من أخبارو روايات تتصل بسوء تصرفهما ، او بذاءة ما صدر عنهما في مجالسهما ، او ما تفوها به من عبارات مخجلة يندى لها جبين المتلقي ، ومن جانب اخر فاننا نشكك أيضاً في بعض

---

[30] ينظر : تتمة صوان الحكمة : 38 وما بعدها .

[31] زهر الاداب وثمر الالباب – المقدمة (الناشر : د.زكي مبارك 31/1) .

[32] ذكر ياقوت الحموي يقول : " ان ابا حيان كان قد قصد ابن عباد في الري ، فلم يرزق منه ، فرجع عنه ذاما له ، وكان أبو حيان مجبولا على الغرام بثلب الكرام ، فاجتهد في الغض من ابن عباد . " معجم الأدباء : 186/6 ومواضع اخر .

ما نسب للصاحب بن عباد بخاصة ، من رسائل او رقع تتصل بمهاداة الخمرة او الاعتذار لبعض خلطائه عن هفوة الكأس وغير ذلك [33].

ولعل ما يدفعنا الى دحض مثل تلك الروايات ، والنصوص الأدبية التي نسبت للصاحب بخاصة ، والتشكيك بصحتها ، ان بعض مصنفي الأدب القدامى – كالنظامي السمرقندي مثلا – قد اكد فضل الصاحب وكماله ، وانه كان معتزليا من أصحاب العدل والتوحيد ، وانه عرف عنهم تشددهم في التقوى . يقول النظامي السمرقندي [34]:

" ... وكان فاضلا كاملا ، وترسله وشعره ، على هذه الدعوى ، شاهدا عدل ، وقاضيا صدق ، وكان الصاحب عدلي المذهب ، وأصحاب العدل يتشددون في التقوى والتنسك ، ويجيزون ان يخلد المؤمن في جهنم في شعيرة ، وكان أكثر عماله وخدمه وحشمه على مذهبه " .

وفضلا عما تقدم ، فقد ذكر ياقوت اخبارا وروايات تشير الى حسن سيرة الصاحب، ورفعة خلقه [35]، وذكر أيضاً ان الصاحب كان محدثا ، واشار الى انه خرج يوما – وهو وزير – متطلسا متحنكا ، بزي اهل العلم ، لرواية الحديث ، واملائه على الناس [36].

على ان رواة اخرين ، رووا انه كان في الصاحب رقة ودماثة ، ونقل عنه صاحب اليتيمة انه كان يقول " نحن بالنهار سلطان ، وبالليل اخوان " [37].

---

[33] ينظر : يتيمة الدهر: 288/3 ، وينظر أيضاً : فصول له ورقاع في الملاطفة والمداعبة 284/3 وما بعدها .

[34] كتاب جهار مقالة : 27 .

[35] يراجع ما رواه ياقوت (معجم الأدباء 185/6) عن حكاية كأس السكر المسموم ، وتأثم الصاحب من اعطائه الى من جلبه اليه ، وقوله : " لا استجيز ذلك ولا استحله " . ورفضه أيضاً ان يجرب كأس السم على دجاجة ! وقوله " فالتمثيل بالحيوان لا يجوز " . وأخباراخرى تدلل على شدة تقواه ، وحسن سيرته .

[36] ينظر : معجم الأدباء 251/6 ، وذكر ياقوت في موضع اخر انه اخذ الحديث عن ابيه – الذي كان من الراسخين في العلوم الدينية – ينظر معجم الأدباء 72/6 ، 172 .

[37] يتيمة الدهر 233/3 . (وكان يقول ذلك لجلسائه اذا اراد ان يبسطهم ويؤنسهم) .

ويستشف الباحث مما رواه ياقوت من اخباره ، انه كانت في الصاحب – ولا سيما في ايام ريعان عمره – فكاهة [38].

وهكذا يمكن ان يصل الباحث – بعد تمحيص تلك الأخبار والروايات – وهي كثيرة – الى ان تحامل أبي حيان التوحيدي ، وغيره أيضاً ، ممن قصد مجلس الصاحب في الري واصفهان ، ولم يجد عنده بغيته ، كان مرده الى عداء شخصي ، فضلا عن تحامله عليه ، لاعتناقه التشيع ، اذ ان التوحيدي روى عن الصاحب انه كان يقول بمقالة الزيدية[39].

ولعل ذلك كله كان دافعا قويا للتوحيدي – الذي عرف عنه بالميل الى الوضع الفني، واختلاق الروايات والقصص – لينتقص من الصاحب وغيره من خصومه ، وينحلهم ما لم يصدر عنهم من ادب ماجن وخليع ...

ثالثا: أسباب أخرى أدت الى تزوير المكاتبات واضطراب الرسائل :

وهناك أسباب أخرى دفعت بعض الكتاب او الوراقين وغيرهم الى نحل الكتب او الرسائل ، او تزوير الخطوط ، ولعل في مقدمة هذه الأسباب ،(العامل الاقتصادي) فقد لجأ بعض الكتاب او غيرهم الى نحل الرسائل ، او تزوير الخطوط ، للارتفاق عليها أي اخذ الرشوة ، وتحقيق المنفعة المادية – او طلب التصرف – أي الانتفاع بجاه من يزور عليه – او لغير ذلك ، وغالبا ما يكون الدافع الى هذا النحل او التزوير هو الفقر والحاجة او طلب المال والسعي للحصول عليه ...

ومن نماذج تزوير الخطوط في الرقع والرسائل ، للارتفاق عليها ، ما ذكره المحسن التنوخي عن أبي عبد الله اخ الوزير (ابن مقلة) ، اذ قال[40] : نقلا عن أبي الحسن بن عياش القاضي :

"حضرت ابا علي بن مقلة ، وقد عرضت عليه – وهو وزير – عدة تسبيبات وتوقيعات ، قد زورها عليه اخوه أبو عبد الله ، وارتفق عليها ، وكان أبو عبد الله حاضرا

---

[38] معجم الأدباء 268/6 . (تراجع حكايته في شبابه ببغداد مع ابن شمعون) .

[39] ينظر : معجم الأدباء 175/6 .

[40] نشوار المحاضرة وأخبارالمذاكرة 64/1 .

فاستقبح ان يفضحه ، فلما كثرت عليه ، التفت اليه ، فقال : يا ابا عبد الله ، قد خففت عنا حتى ثقلت ، وخشينا ان نثقل عليك ، فاحب ان تخفف عن نفسك هذا التعب .

قال : فضحك أبو عبد الله ، وقال : السمع والطاعة للوزير " .

ومن نماذج التزوير ونحل الكتب ، طلبا للتصرف ، ما ذكره المحسن التنوخي أيضاً عن شخص متعطل زور كتبا على لسان الوزير علي بن محمد بن الفرات الى عامل مصر أبي زنبور [41]،وما ذكره أيضاً عن رجل اخر زور على لسان أبي عمر القاضي الى أبي القاسم ابن الحواري ، يسأله تصريفه واعانته [42].

وهذه الأخبار والنوادر تدلل بوضوح على موجة النحل والتدليس ، وتزوير الكتب والرسائل التي راجت في هذا القرن ، وهي ظاهرة خطيرة لها آثارها السيئة وانعكاساتها الخطيرة على الأدب ، ولا سيما في الأقاليم النائية في المشرق الإسلامي .

وقد يكون مبعث النحل في نصوص المكاتبات ، او الاضطراب فيها ، يعود الى التضارب في بعض الأخباراو الروايات التاريخية التي تتصل بنص الرسالة ، او اعلام الكتاب .

أ- ومن النماذج المشهورة على ذلك : رسالة أبي اسحاق الصابي[43] الى الأمير عضد الدولة البويهي ، يهنئه بانتصاره وفتحه (ميافارقين) عام 368هـ [44].

وهذه الرسالة هي واحدة من رسائل التهاني التي وصلت الينا ضمن مجموعة (المحتار من رسائل الصابي) ، وقد حررها أبو إسحاق الصابي على لسان بعض الرؤساء الى الأمير عضد الدولة البويهي بعد فتحه لهذه المدينة .

وعند دراسة الظروف المحيطة بانشاء هذه الرسالة ، نرى ان شكا قويا يحوم حول صحة نسبتها الى أبي اسحاق ، اذ ان الرجل كان قد اودع السجن في أواخر

---

(41) المصدر نفسه 57/1 وما بعدها .

(42) المصدر نفسه 60/1-61 .

(43) تراجع الرسالة في : المختار من رسائل الصابي : 116 (طبعة بيروت) .

(44) ينظر : تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر) أحداث سنة 368 هـ ، اذ ذكر يقول : " وفيها فتح أبو الوفا مقدم عسكر عضد الدولة (ميافارقين) بالأمان . (تاريخ أبي الفداء 462/1)

عام 367 هـ ، عقب انتصار عضد الدولة على ابن عمه عز الدولة بختيار ، وظل الصابي قيد الحبس حتى افرج عنه عام 371هـ.

وعلى هذا تسقط دعوى كتابة أبي إسحاق الصابي لهذه الرسالة ، وتهنئته للأمير عضد الدولة بفتح هذه المدينة .

ب- ويتصل بظاهرة اضطراب بعض الروايات ، وتداعيات تلك الظاهرة على صحة الرسائل ، ودقة نسبتها الى منشئيها في هذا القرن ، نحل بعض الرسائل واختلاف نسبتها لأكثر من كاتب ... من ذلك مثلا ما ذكره الحصري في زهر الآداب [45]من نسبة رسالة هزلية طريفة في صفة حمل الى الكاتب أبي الخطاب الصابي ، بينما نسبها المحسن التنوخي في النشوار[46] الى أبي إسحاق الصابي ، ولعله اقرب الى الدقة والصواب ، لقرب عهده بابي إسحاق الصابي اذ انه معاصر له .

ت- وهناك شاهد اخر على اضطراب الروايات التاريخية التي تتصل باعلام الكتاب في هذا العصر ، وهو ما تناقلته بعض مصادر التاريخ والأدب عن صلة الأديب الكاتب أبي القاسم الاسكافي بالسامانيين ، واطلاقه من الاسر ، ثم اعتلائه ديوان الرسائل في امارتهم .

لقد اختلفت المصادر القديمة في هذا الامر ، فالنظامي السمرقندي [47]، جعل صلته اولا (بالبتكين) ، ثم انتقل بعد اسره الى خدمة الأمير (نوح بن منصور) الساماني ، بينما جعل العلامة القزويني [48]، في حواشيه على كتاب السمرقندي ، بداية عمل الاسكافي في

---

[45] تراجع هذه الرسالة ونسبتها لابي الخطاب الصابي في زهر الآداب 2/588-589 .

[46] نشوار المحاضرة وأخبارالمذاكرة 3/211 ، حيث نسبها المحسن التنوخي (ت 384هـ) لابي اسحاق الصابي ، وما يعزز صحة هذه النسبة أيضاً ، ما ذكره صلاح الدين الصفدي في الغيث المسجم في شرح لامية العجم 2/60 اذ نسبها الى أبي اسحاق أيضاً . وممن نسبها إلى أبي إسحاق الصابي أيضاً : ابن حجة الحموي ، ينظر : ثمرات الأوراق : 340 ، (تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، مصر ، القاهرة ، 1971) .

[47] جهار مقاله ص23-24 .

[48] حواشي القزويني على كتاب السمرقندي ص103-104 .

الدواوين ، مع الأمير أبي علي بن محتاج الجفاني ، ثم اختص عقب ذلك بالأمير الحميد نوح بن نصر الساماني .

اما الثعالبي فقد ذهب الى ان بداية الاسكافي في الدواوين كانت مع أبي علي الصاغاني ، وبعد هزيمته في واقعة (جرجيل) واسر الاسكافي ، اختص بخدمة الأمير نوح بن نصر [49].

والصواب عندي هو ما ذهب اليه الثعالبي ، لان الاسكافي توفي – كما تشير الروايات الموثوقة – في أول عهد الامير الساماني عبد الملك بن نوح بن نصر ، في حدود عام 343 هـ ، وانه لم يدرك عهد الأمير نوح بن منصور الذي تسنم الامارة بعد وفاة الاسكافي باكثر من ثلاثين عاما .

وهكذا يتضح ان هذا الاضطراب والخلط في الروايات التاريخية ، وما يتمخض عن ذلك من تداعيات خطيرة في نسبة النص الأدبي الى غير منشئه ، او اضطراب الخبر ونسبته – بشكل غير موثق او دقيق – الى اعلام الكتاب بشكل مشوه ، او غير سليم يعودٌ الى وهم بعض الرواة ، او المؤرخين ، او سهوهم في نسخ بعض اسماء الاعلام المتشابهة او المتقاربة ، كالخلط مثلا بين اسمي الأمير نوح بن نصر والأمير نوح بن منصور ، او الخلط الذي وقع فيه بعض الرواة أيضاً بين شخصيتي (أبي الفضل البلعمي) وزير السامانيين على عهد الامير إسماعيل بن احمد الساماني وبين ابنه (ابي علي البلعمي) الذي وزر للسامانيين على عهد الأمير نوح بن منصور والذي ينسب اليه ترجمة كتاب الطبري الى اللغة الفارسية .

---

[49] تراجع التفاصيل في : يتيمة الدهر 108/4 .

المبحث الثالث

مجاميع الرسائل الأدبية وتوثيقها في القرن الرابع :

توطـــئة :

نشاط حركة التدوين وجمع النتاج الأدبي في هذا القرن :

لقد دفع التنافس الحاد بين الأمراء وحكام الممالك الإسلامية المستقلة في هذا القرن– ولا سيما اولئك الأمراء والوزراء من الأدباء الذين شهروا بتذوقهم للأدب ، وشغفهم به، وقدرتهم على قرض الشعر ، وتدبيج الرسائل البليغة ، دفعهم ذلك على جمع نتاجهم ، ونتاج كثير من الأدباء – من المنظوم والمنثور – وتدوينه ، وبخاصة ، ما مدحوا به من ذلك التراث الأدبي ، او ما تعلق بالاشادة بملكهم ، وعلو شأنهم ، وبناء امجادهم .

ولا يخفى ما كان يقوم به اولئك الأدباء الكتاب من دور خطير في تلك الممالك الجديدة في هذا القرن ، ولعل هذا ما اوقد جذوة التنافس بين اولئك الرؤساء على اجتذابهم الى حواضرهم ، واصطناعهم في خدمتهم .

يقول احد الباحثين مشيرا الى ذلك :[1]

"واذن فقد كان يقوم هؤلاء الكتاب والشعراء للدول التي ترعاهم ، بخدمات خطيرة تتصل بحياتها ، وحياة القائمين عليها ، فهي من النوع الذي تقدمه مؤسسات الدعاية لحكوماتها في العصر الحاضر ، فاذا عرفنا هذا ، استطعنا ان نفهم الدافع الذي كان يحرك الملوك ووزراءهم ، ويدعوهم الى ان يملأوا قصورهم بالكتاب والشعراء ، ويغمروهم بالعطايا والهبات ..."

ولعل هذا ما حفز اولئك الحكام او الرؤساء على تدوين نتاج الأدباء والكتاب ، وجمعه وتبويبه ، والعناية بنسخه واخراجه ، لانه وثائق مهمة تؤرخ امجادهم ، وتعلي شأنهم بين منافسيهم .

ذكر أبو منصور الثعالبي – وهو يؤكد ما كان يقوم به اولئك الرؤساء وبعض ووزرائهم ، من تدوين او نسخ وجمع ذلك التراث الأدبي – يقول [2]:

---

[1] الأدب في ظل بني بويه : 122–123.

" وكان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب ، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي ، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة الاف بيت ..." .

ونظير هذا ما كان يقوم به بعض الأمراء السامانيين في هذا القرن ، كالأمير الحميد نوح بن نصر ، والأمير نوح بن منصور ، وبعض مشاهير وزرائهم كأبي علي البلعمي وغيره ، من تدوين ونسخ او جمع الكثير من تراث الأدب العربي والفارسي ، فضلا عن العناية بمفردات ورموز الحضارة الفارسية التي تشيد بامجادهم القومية ، وتعضد جهودهم في بعث تراثهم القومي القديم [3]، وهذا ما سنعرض لتفصيله في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

والى جانب ما ذكرنا ، فقد كان الباعث لصنيع كثير من اولئك الحكام ووزرائهم في العناية بالتراث الأدبي ، ونتاج الشعراء والكتاب ، وتدوينه ونسخه وجمعه ، في هذا القرن هو الجانب الفني ، او الاعجاب بتلك الشذرات الفنية التي صدرت عن قرائح الأدباء المبدعين الذين جاد بهم هذا القرن ، ولعل ما اشار اليه أبو منصور الثعالبي عن اعجاب الوزير الصاحب بن عباد بشعر الشعراء الشاميين ، وكلفه بنتاجهم ، وما قام به من جمعه وكسر دفتر ضم فيه ما صدر عنهم من شوارد فنهم ، لخير شاهد على ذلك .

يقول الثعالبي مشيرا الى طريقة شعراء الشام ، وما يقاربها ، واعجاب الوزير الصاحب بن عباد بطريقتهم المثلى [4]:

" واخبرني جماعة من أصحاب الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد ، انه كان يعجب بطريقتهم المثلى ، التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة ، والفصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف ، حتى كسر دفترا ضخم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ، ولا يملأ احد منه عينه غيره ، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه ،

---

[2] يتيمة الدهر : 38/1 .

[3] تراجع التفاصيل في : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم 338/1-339 ، تاريخ الأدب في ايران ادوارد براون 107/2 وما بعدها ، وقد اشار بروكلمان (تاريخ الأدب العربي 270/2) الى ان للصاحب بن عباد كتابا يسمى "السفينة " جمع فيه ما اعجبه من الشعر .

[4] يتيمة الدهر 34/1 .

وفي سن قلمه ، فطورا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحله او يورده كما هو في رسائله " .

ويشاكه هذا أيضاً ما كان من اعجاب الوزير الصاحب بمناكاة بني ساسان ، وحفظه العجيب لاشعارهم ، ولاسيما شاعرهم ابا دلف ، يقول الثعالبي [5]:

" وكان الصاحب يحفظ مناكاة [6] بني ساسان حفظا عجيبا ، ويعجبه من أبي دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان اهدابها ، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما ولما اتحفه أبو دلف بقصيدته التي عارض بها دالية الاحنف العكبري في المناكاة ، وذكر المكدين ، والتنبيه على فنون حرفهم وانواع رسومهم ...اهتز ونشط لها – يعني الصاحب – وتبجح بها ، وتحفظ كلها ، واجزل صلته عليها ..." .

ونظير الوزير الصاحب بن عباد في العناية بالعلق من شذرات المنظوم والمنثور والحرص على حفظه وتدوينه وجمعه ، كثير من اعلام الطبقة الخاصة من الأمراء وكبار الأدباء في هذا القرن .

فالأمير أبو الفضل عبيد الله بن احمد الميكالي مثلا – كما اشار الثعالبي في اليتيمة[7] – كانت في خزانته مجلدة ضخمة الحجم من شعر أبي الحسين الغويري بخطه وذكر الثعالبي انه استعارها واستعان بأبي نصر سهل بن المرزبان على اخراج ما هو شرط كتابه – اليتيمة – من شعر الغويري منها .

وذكر الثعالبي أيضاً في موضع اخر من اليتيمة [8]، وقد ساق فصولا قصارا لابي الفضل ابن العميد تجري مجرى الأمثال ، انه أخرجها مما جمعه واخرجه الأمير أبو الفضل الميكالي .

---

[5] يتيمة الدهر 414/3 وما بعدها .

[6] مناكاة بني ساسان : أي الاشعار التي تجمع حيل المكدين والاعيبهم .

[7] يتيمة الدهر 395/3 .

[8] المصدر السابق 196/3 .

لقد عني كثير من ادباء هذا القرن – فضلا عن ادباء الطبقة الخاصة من الأمراء والوزراء كما ذكرنا انفا – سواء أكانوا من الشعراء ام من الكتاب ، بنتاجهم الأدبي ، كما عنوا أيضاً بنتاج اقرانهم من الأدباء [9].

فحرص كثير منهم على جمعه وتدوينه بخطه ، او نسخه [10] بوساطة النساخ والوراقين ، حفاظا عليه من الضياع ، او لتداوله او اهدائه للامراء او للتلاميذ او غيرهم من المقربين ...

فأبو بكر الخوارزمي مثلا – وقد وردت اشارات عديدة في ديوان رسائله ، تؤكد جمع ديوان رسائله وتدوينه في حياته [11]– من الأدباء الكتاب الذين عنوا كثيرا بنتاجهم الأدبي في هذا القرن ، ولا سيما ديوان رسائله ، ومما يدلل على ذلك ، رسالته التي كتبها الى احد تلاميذه ، وقد استعار نسخة الرسائل لينسخها : فحبسها عنده ، فكتب اليه برد ديوان رسائله ، ليتسنى لغيره نسخها وتدوينها ، يقول [12]:

---

[9] اشار الثعالبي في ترجمته (لابي احمد بن أبي بكر الكاتب) – احد ادباء خراسان – (اليتيمة 4/74–75) الى انه : " كان مولعا بشعر العطوي ، حافظا لديوانه ، مقدما على نظرائه ، كثير المحاضرة بامثاله وغرره في مخاطبته ومكاتباته ، فلقب بالعطواني " . واشار الثعالبي أيضاً الى قيامه بجمع ديوان اللحام ، فقال : " قال مؤلف الكتاب : لم ار للحام ديوان شعر مجموعا ، فعنيت بجمع تفاريقه ، وضم منتشره ، ثم اخذت منه ما يصلح لكتابي هذا " . /يتيمة الدهر ، 4/116 . واشار الثعالبي أيضاً في موضع اخر (اليتيمة ، 4/147) ، الى أبي النصر الهزيمي ، المعافى بن هزيم، فقال : " وله كتاب محاسن الشعر ، واحاسن المحاسن ...وقد دون شعره ببخارى وابيورد " .

[10] يراجع الخبر الذي ساقه ياقوت (معجم الأدباء ، 5/396) نقلا عن التوحيدي في (مثالب الوزيرين) من طلب ناظر خزانة مكتبة الصاحب الى أبي حيان نسخ رسائل الصاحب ، وينظر أيضاً : النثر الفني في القرن الرابع 2/162 .

[11] تراجع رسالة الخوارزمي الجوابية الى أبي العباس كاتب محمد بن ابراهيم ، وقد طلب منه نسخة رسائله (ص 131–132) ، ورسالة الخوارزمي أيضاً الى أبي بكر بن شيمرد (رسائل الخوارزمي ، ص188–189) ، ومواضع غيرها .

[12] رسائل أبي بكر الخوارزمي (رقم 138) ص221 .

" انت مشغول بنسخ ما استعرته من الرسائل ، ولا يسع القلب الواحد لكل هذه الشواغل ، وغيرك من أصحابنا حريص على نسخها ولو كان القلم يمينه : والقرطاس جبينه ، والثمن دنياه ودينه ، فاعرهم – اعزك الله تعالى – فألى ان تتفرغ لها ، قد فرغ غيرك منها ... واجعل تعجيل ردها الينا ، كفارة لما جنيته من حبسها علينا " .

ولقد عكفت طائفة من أولئك الأدباء في هذا القرن – فضلا عن جمع نتاجها وتدوينه – على تنقيح لباب نتاجها الأدبي ، وتشذيبه مما علق به من الشوائب ، وادران الخاطر .

ولعل أوضح ما يدلل على اهتمام الأدباء في هذا القرن بجمع نتاجهم وتنقيحه ونخله، ما ساقه المحسن التنوخي من ان ابا الفرح الببغاء قد شارك ابا فراس الحمداني في نخل ديوانه الكبير قبل موته ، ونقل عن أبي الفرج الببغاء قوله [13]:

" واقفني على نفيه ، لانه عرضه علي ، فكل ما استضعفناه نفاه ، وما اجتمعنا على استحسانه اقره ، وحرره في نسخة تداولها الناس " .

وممن اشتهر بالجمع بين التنقيح والنخل ، وبين سرعة البديهة واتقاد الخاطر من الأدباء الكتاب في هذا القرن : أبو بكر الخوارزمي ، وأبو إسحاق الصابي .

اما الخوارزمي فيقول في احدى رسائله التي حملها الى حاجب الوزير ابن عباد ، مفصحا عن هذا الجانب [14]:

" وقد حملت اليك نسخة كاملة قلتها ، فرضيت بها عن شيطاني ... ولعمري لقد اكلتها من جراب الدق ، وورثتها من كيس اللب ... وقلبت لها جريدة التصفح والتخير ، ونشرت فيها صحيفة التدبر ... وصقلتها بمدوس النظر ، وجلوتها بكف الفكر ، ووكلت بها من التمييز جفنا ساهرا ، ولمحا باصرا " .

وممن عرف بكثرة التنقيح والتسويد والاجالة من ادباء هذا القرن أيضاً : أبو إسحاق الصابي ، فقد ذكر أبو حيان التوحيدي يقول [15]:

---

[13] نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة : 225/1 .

[14] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 52.

[15] ثلاث رسائل للتوحيدي (رسالة في علم الكتابة : ص35) تحقيق ونشر : الدكتور إبراهيم الكيلاني .

" وسمعت ابا إسحاق الصابي يقول : ما حررت كتابا قط عقب التسويد ، الا ورأيت التنافر في خطي ، والتطاير من قلمي ، والتثاقل في يدي ، فأما اذا جممت بعده جمة ، او نمت بعده نومة ، فانا على صواب ما اريد منه جرئ ، ومن الخطأ فيه بريء".

وهناك جانب اخر – فضلا عن تدوين الرسائل وجمعها وتنقيحها– اسهم كثيرا في توثيق صحة نسبة بعض النصوص الأدبية الى منشئيها ، فقد كان بعض الأدباء الكتاب في هذا القرن يحفظون عن ظهر قلب ، رسائل بعض أقرانهم من الكتاب ، او الأمراء والوزراء الذين عرفوا ببراعتهم الأدبية ، وبلاغتهم النادرة ، إعجابا بصياغتها وديباجتها وفنها ، او تعظيما لمنشئيها ، وما من شك في ان هذا الامر هو وجه اخر سهل حفظ جانب مهم من تراث الرسائل الأدبية في هذا القرن .

ولعل ابرز اعلام الأدباء الكتاب الذين اشتهروا بكثرة الرواية ، وسعة الحفظ ، في هذا القرن ، أبو بكر الخوارزمي ، فقد ذكر تلميذه – الثعالبي – عند إيراده فصلا من كتاب الوزير الصاحب بن عباد الى أبي الفضل ابن العميد ، صدر جوابا عن كتابه اليه في وصف البحر ، ذكر يقول [16]:

"وكان أبو بكر الخوارزمي يحفظه ، وكثيرا ما كان يقرؤه ، ويعجب السامعون من فصاحته ، ولم اره يحفظ من الرسائل غيره ...".

على ان ما ذهب اليه الثعالبي في قوله : " ولم اره يحفظ من الرسائل غيره " لا يتعارض مع ما قررناه انفا من كثرة رواية الخوارزمي ، وسعة حفظه فطالما وقف الثعالبي ، في مواضع عديدة من كتاب اليتيمة يشير الى قلة ما في جعبته من نصوص ادبية لبعض تراجم الأدباء ، ويعتذر للقارئ او يعده برأب صدع هذا الجانب حين يفرغ من شواغل الزمان ، فضلا عن ان ابا بكر الخوارزمي نفسه ، اشار في احدى رسائله الى أبي محمد العلوي ، جوابا عن رسالته اليه يقول [17]:

---

[16] يتيمة الدهر : 3/295–296 .

[17] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 81 .

" ... وها انا بعد اليوم – اقرع باب الكتابه ، واتسلق على حيطان البلاغة ، واجمع ما اقدر عليه من رسائل السيد ، فاحفظها صدرا صدرا ، بل سطرا سطرا ، وأردد كل واحدة منها خمس مرات بل عشرا ...".

وهذا شاهد صدق يؤكد سعة باع أبي بكر الخوارزمي في حفظ التراث الأدبي ، وروايته ، فضلا عن ادباء عصره الاخرين الذين عرفوا بكثرة الحفظ للتراث ، واجتلاب بعض معانيه الرائعة في رسائلهم ، وحل بعض المنظوم – لنفاسة معانيه وسمو صوره – في ترسلهم .

ولعل من مشاهير الأمراء الأدباء الذين عرفوا بغزارة الرواية ، وحفظ الرسائل في هذا القرن : ابا الفضل الميكالي ، فقد ذكر الثعالبي عند ادراجه رسالة الوزير الصاحب ابن عباد التي كتبها الى أبي علي الحسن بن احمد في شأن أبي عبد الله محمد بن حامد ، يقول [18]:

" وسمعت الأمير ابا الفضل عبيد الله بن احمد يسردها ، فزادني جريها على لسانه وصدورها عن فمه إعجاباً بها ..."

وهكذا تجلى لنا من خلال هذا العرض السريع ، نشاط حركة تدوين النتاج الأدبي من المنظوم والمنثور ، وجمعه وتنقيحه في هذا القرن ، وعناية كثير من الأدباء والكتاب بحفظه وروايته ، وقد كان لهذا الامر اثره الخطير والمهم في حفظ قدر غير قليل من تراثنا الأدبي ، ووصوله الينا ، على الرغم من ضياع قسم كبير منه – كما مر بنا انفا – وانتحال او تزوير قسم اخر منه .

مجاميع الرسائل التي وصلت الينا وتوثيقها :

لقد كان أكثر أعلام الكتاب في هذا القرن – ولا سيما كتاب الرسائل الاخوانية والسلطانية – يحرصون كثيرا على جمع دواوين رسائلهم في حياتهم ، ويعنون عناية بالغة

---

[18] يتيمة الدهر 3/292-293.

بتشذيب فصوص فصولها ، ويدققون في تبويبها وترتيبها وأخرجها . فيحذفون [19] أحياناً من متونها ما لا يتلاءم ورفعة مكانتهم الاجتماعية ، او سمو منزلتهم السياسية .

يقول الثعالبي مثلا – وهو يشير الى إحدى رسائل الوزير الصاحب بن عباد المشهورة في الطب – مؤكدا جمعها وحسن تأليفها وتبويبها [20]:

" وسمعت ابا جعفر الطبري ، الطبيب المعروف بالبلاذري ، يقول : ان للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكرياء لما زادا عليها ، فسأله ان يعيرنيها ان كانت عنده ، فذكر انها في جملة ما غاب عنه من كتبه ...الى ان ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ، ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه وتدل على التبحر في علمه ، وقوة المعرفة بدقائقه " .

ولعل هذا الخبر المستفيض الذي أورده الثعالبي – وهو معاصر للصاحب – ادق شاهد على عناية جهابذة الكتاب في هذا العصر يجمع فصول رسائلهم ، وتدوينها في حياتهم ، من جانب ، وحرص الأدباء ومؤرخي الأدب أيضاً على تداول تلك الرسائل وتبادلها ، واجالة النظر فيها من جانب اخر .

وفي موضع اخر أشار الثعالبي أيضاً الى عناية الأمير أبي الفضل الميكالي بجمع رسائله ، وحرصه على حسن إخراجها وتبويبها . قال [21]:

" وقد أوردت في هذا الباب من فصوص فصوله التي أخرجها من رسائله ، وبوبها في كتاب له وسمه بالمخزون ، ما يؤرخ به محاسن الكلام ، ويزيد في مفاخر الأقلام ، ويستحق ان يدعى لفظ الدر ، وخدع الدهر ، وعقد السحر " .

---

[19] اشار الباحث (محمود الضمور) مثلا الى خلو ديوان رسائل الخوارزمي من رسائله الخاصة التي بعثها الى اسرته واقاربه ، وعلل ذلك بحرجه – أي الخوارزمي – من اخراجها مع فصول رسائله الاخرى التي حرص على اظهارها ، والتي كانت تبرز مكانته الاجتماعية . (ينظر : أبو بكر الخوارزمي حياته وادبه : 262–263).

[20] يتيمة الدهر 3/237–238 .

[21] يتيمة الدهر 4/410 وما بعدها .

ولعل ما يفسر عناية أولئك الكتاب الأفذاذ بجمع شذرات رسائلهم في حياتهم ،وحرصهم الواضح على تدوينها وجمعها ، وحسن إخراجها وتبويبها ، وتواصلهم على إهدائها انها كانت سجل أدبهم وفخرهم وإبداعهم ، وشاهد صدق على بلاغتهم وسمو مكانتهم الأدبية والاجتماعية ، فضلا عن انها – أي تلك المجاميع المدونة – كانت واجهة سياسية واعلامية مهمة لتلك الامارات والممالك المستقلة المتنازعة التي عمل في ظلها ، ولبناء أركانها أولئك الاعلام النابهون من صدور الكتاب في هذا القرن ، فهي اذن معلم صريح تدلل على عمق انتمائهم السياسي والفكري ، وإخلاصهم الموثق لرؤسائهم الذين بالغوا في اكرامهم ، والاحتفاء بهم ، ورفع منزلتهم .

ومن هنا فقد كانت رسائل أبي إسحاق الصابي في حاضرة بغداد ، ورسائل أبي الفضل ابن العميد في الري وكور الجبل وسواها من بلاد المشرق الإسلامي مثلا ، سجلا حافلا بامجاد الأمراء البويهيين ، وبخاصة في صدر مرحلة تسلطهم على حاضرة الخلافة الإسلامية ، واتساع نفوذهم في اقاليم المشرق الإسلامي .

ذكر الثعالبي يقول ، منوهاً بالصابي ورسائله [22]:

" ... وسار ذكره في الآفاق ، ودون له من الكلام البهي النقي ما تتناثر درره ، وتتكاثر غرره " .

وقد اكد ابن النديم[23] أيضاً وجود تلك الرسائل في عصره ، وحددها بانها تضم نحو الف ورقة .

بينما كانت رائل عبد العزيز بن يوسف في شيراز ، ورسائل الصاحب وعهوده في اصفهان والري ، وثائق غراء ، وصحائف منارٍ لانتصارات الأمير البويهي عضد الدولة

---

[22] يتيمة الدهر : 287/2 .

[23] الفهرست ص134 ، وقد اكد ذلك ياقوت (معجم الأدباء 94/2) ، وينظر أيضاً القفطي ص 54 ، حيث ذكر يقول : "وديوان رسائله مجموع " .

وامجاده السياسية والعسكرية الحافلة ، فضلا عن عهد اخويه من بعده (مؤيد الدولة) و(فخر الدولة) [24].

وهكذا يقال أيضاً عن رسائل جهابذة الكتاب في الامارات والممالك الأخرى كالامارة السامانية في خراسان ، والامارة الغزنوية في غزنة ، وغيرهما ، اذ لم يكن مصادفة ان يحظى (أبو عبد الله العميد) ، كاتب الأمير نوح بن نصر الساماني ، بالرتبة الكبرى من الكتابة ، وان تغدو رسائله مدونة بخراسان ، كما اشار أبو منصور الثعالبي [25]، لولا الدور الخطير الذي خطته صحائف رسائله في سجل الزمان لأسياده الأمراء السامانيين ، وتوثيق سيرهم ، وتدوين امجادهم ...

وهكذا يقال أيضاً عن رسائل خصمه وخليفته أبي القاسم الاسكافي ، ذكر الثعالبي يقول [26]: " ورسائله كثيرة مدونة سائرة في الآفاق ، لا يسع هذا الكتاب الا الأنموذج مما يجري مجرى الامثال منها ..."

وما سجلناه عن صدور كتاب الامارة البويهية ، والامارة السامانية ، في هذا القرن، يقال عن غيرهم أيضاً في حواضر الممالك الإسلامية الأخرى .

****

وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين نصوص هذه المكاتبات والرسائل المدونة من جهة ، وبين تواصل نفوذ امراء تلك الممالك المتصارعة من جهة اخرى ، وعلى الرغم مما تعرضت له تلك الرسائل – تبعا لذلك – من عوامل الضياع والانتحال والطمس والتزييف – كما مر بنا في المبحثين المتقدمين – بسبب استمرار تلك الحروب الطاحنة والصراع السياسي والفكري والمذهبي بين حكام تلك الممالك المتخاصمة ، فضلا عن العوامل الأخرى التي تقدم ذكرها ، فقد حفظ لنا الزمن من قناع النسيان غيضا نفيسا عذبا من تلك المجاميع

---

[24] يراجع في هذا الجانب الباب الاول (باب الفتوح) ، رسائل الصاحب بن عباد : 3–33 ، وتراجع رسائل عبد العزيز بن يوسف (يتيمة الدهر 2–369 – وما بعدها) .

[25] يتيمة الدهر 184/3 .

[26] يتيمة الدهر : 110/4 .

النثرية المدونة ، نشر وحقق بعضا منها لفيف من الأساتذة والباحثين بينما بقي البعض الاخر منها رهين الأركان العالية من دور المخطوطات والمجامع العامة في بقاع العالم .

ولعل اهم تلك المجاميع النثرية ودواوين الرسائل التي وصلت الينا هي :

1-رسائل أبي إسحاق الصابي :

سبق ان اشرت الى ان رسائل الصابي تعد جزءاً مهما من ارث الإمارة البويهية وتاريخها السياسي والفكري والعسكري الحافل إبان هذا القرن ، ومما زاد في أهميتها أيضاً ان أكثرها قد صدر عن ديوان الرسائل في حاضرة الخلافة الإسلامية ، الذي تسنم الصابي رئاسته منذ عام 349هـ وحتى وفاته عام 384هـ .

ومن هذا المنطلق فقد حرر الصابي رسائل كثيرة جدا وصفها الثعالبي وعبر عنها بقوله [27]:

" ودون له من الكلام البهي النقي ما تتناثر درره ، وتتكاثر غرره " .

وقد سبقت الاشارة الى ما حدده (ابن النديم[28]) من سواد رسائله التي كانت تضم نحو الف ورقة ، وايد ذلك ياقوت الحموي [29].

وعلى الرغم مما تعرض له تراثنا الأدبي النفيس ، في هذا القرن ، من ضياع وطمس وانتحال – كما مر بنا انفا – فربما وصل إلينا لابي إسحاق الصابي من مجموعات المخطوطات النادرة التي حوت فصول رسائله الانيقة ، ما لم يصل إلينا مثله لغيره من كتاب وبلغاء عصره ! إلاّ أنَّ ما يؤسف له ان معظم هذا الفيض من نسخ المخطوطات لم تر النور ، ولم يحقق او ينشر منها الا غيض يسير .

لقد وصلت الينا من رسائل أبي إسحاق الصابي ثلاث مجموعات [30]، بنسخ متعددة لكل مجموعة منها وهي كما يأتي :

---

[27] المصدر نفسه : 287/2 .

[28] الفهرست : ص134 .

[29] معجم الأدباء : 94/2 .

[30] لقد استقصى الباحث (مهدي البدري) تلك المجاميع وفصل في ذكر اماكنها وارقام مخطوطاتها في رسالته :(أبو إسحاق الصابي حياته وادبه / الباب الثاني ، الفصل الاول ص132-136 وينظر

-المجموعة الاولى : وتحمل عنوان : " المختار من رسائل الصابي "

ونسخ المخطوطات من هذه المجموعة كثيرة جدا [31]، وهي موزعة بين (استنبول)، و(القاهرة) ، دار الكتب المصرية ، حيث تضم منها اربع نسخ من هذه المجموعة ، ومعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

ومن ضمن نسخ (دار الكتب المصرية) الاربع ، مخطوط " منشآت الصابي " التي اشار اليها المستشرق كارل بروكلمان [32]، ولعل هذه المجموعة اهم من سواها – مما سيرد ذكره – بسبب نشر او تحقيق جزء كبير منها ، وتداولها بين الباحثين والدارسين .

نشر الأمير شكيب ارسلان [33]الجزء الأول من هذه المجموعة القيمة التي تضم (خمسا وثلاثين ومائة) رسالة ، نشر منها وحقق (اثنتين وأربعين) رسالة طويلة ، تشكل نحو نصف هذه المجموعة ، وبقيت منها نحو (ثلاث وتسعون) رسالة لم تنشر ، ولم تر النور بعد ، على انها تؤلف النصف الأصغر من هذه المجموعة . وقد ضمت هذه النشرة في حواشيها شروحا قيمة للحوادث التاريخية التي ورد ذكرها في الرسائل ، كما حوت شروحا مستفيضة لمفردات الرسائل.

ولعل ما يؤخذ على المحقق انه قد اعتمد في نشر هذه المجموعة على نسخة واحدة، ولم يقابلها على نسخ اخرى غيرها ، وقد اعتمدت في دراستي لرسائل الصابي على هذه النشرة لأهميتها ، وقدم نشرها .

-المجموعة الثانية : وتحمل عنوان (رسائل أبي إسحاق الصابي)

أيضاً ما ذكره المستشرق بروكلمان من مخطوطات ضمت رسائل الصابي في بلاد الغرب . (تاريخ الأدب العربي 120/2) .

[31] تراجع رسالة الباحث مهدي البدري ص 133-134 .

[32] تاريخ الأدب العربي 120/2 .

[33] تم طبع ونشر هذا الجزء من هذه المجموعة في باعبده – لبنان عام 1898 م .

وقد وصل الينا من هذه المجموعة أيضاً نسخ عديدة [34]، لعل أهمها نسختا دار الكتب المصرية بالقاهرة [35]، ونسخة مكتبة الأزهر [36]بالقاهرة أيضاً .

اما ما تضمُّهُ هذه المجموعة النفيسة في ثناياها من رسائل للصابي ، فيقدر بثماني عشرة ومائة رسالة ، وقد تضمنت أربعين رسالة منها موضوع التعزية ، والتأبين ، وهي مما تفردت به عن سواها من مجاميع ورسائل الصابي الأخرى ، بينما شملت الرسائل المتبقية من هذه المجموعة ، وقدرها (78) رسالة : موضوعات اخوانية وديوانية متنوعة أخرى .

المجموعة الثالثة : وتحمل عنوان " رسائل إبراهيم بن هلال "

ويطلق عليها في بعض نسخ هذه المجموعة أيضاً : رسائل أبي إسحاق الصابي وتضم هذه المجموعة تسعا وستين ومائة رسالة ، وقد أشار الباحث مهدي البدري الى وجود اربع نسخ من هذه المجموعة محفوظ أكثرها من خزائن متفرقة في إيران [37].

ويمكن تقدير عدد الرسائل التي حوتها هذه المجموعات الثلاثة بأكثر من مائتي رسالة ، وقد تكرر بعضها في نسخ هذه المجاميع ، وربما تكون هذه الرسائل قد نسخت عن (ديوان رسائل الصابي) الذي جمعه في حياته ، كما أشار الى ذلك ابن النديم ، وأكده القفطي وياقوت الحموي كما ذكرنا .

****

ان رسائل هذه المجموعات الثلاث تمثِّلُ جانبا مهما من سيرة هذا الأديب الكاتب وصلته بالامارة البويهية وتاريخها ، وأحداثها المهمة ، وهي فضلا عن ذلك تؤرخ لكثير من

---

[34] تراجع المعلومات عن نسخ هذه المخطوطات وارقامها واماكنها في رسالة : أبي إسحاق الصابي حياته وادبه : ص 135 .

[35] تحمل هذه النسخة رقم 1527/ادب ، وتضم 204 ورقة من القطع المتوسط ، وقد كتبتْ بخط جيد وواضح .

[36] وهذه المخطوطة تحت رقم (خصوصي) 561 اباضة ، و (عمومي) 7156 ، وتضم 188 ورقة من القطع المتوسط أيضاً ، وكتبت بخط جيد ، واسم ناسخها احمد العجماوي عام 1291 هـ .

[37] أبو إسحاق الصابي حياته وادبه : 136 .

أمـراء البيـت البـويهي واعلامهـم المشـهورين وترصـد نزعـاتهم وأهـواءهم ، وتوثـق حـروبهم وانتصـاراتهم او إخفاقـاتهم ، ومـن هنـا ، عـدت هـذه الرسـائل وثـائق مهمـة للكشـف عـن تـاريخ هذه الامارة الإسلامية ، اذ انها وثقت وسجلت كثيرا من الأحداث والوقائع المهمة ، ورصدت أموراً دقيقة ربما ندتْ عن تفاصيلها ، او أغفلت جوانب كثيرة منها مصادر التاريخ المعاصرة لها آنذاك .

ولما كان الأدب – ولا سيما النثر الفني – ضربا مهما من ضروب الفنون الراقية، فانه لابد ان يتأثر بالظروف السياسية والاجتماعية المتقلبة ، ويستجيب لتداعياتها ، ويتلون بالوانها .

ومن هنا فقد كانت رسائل (الصابي) بخاصة في هذه الامارة ، ابان هذا القرن ، مرآة واضحة رصدت الأحداث المهمة ، وصوّرت تداعياتها ، وكان لها أيضاً دورها الخطير في حسم كثير من المواقف الحرجة [38].

وهكذا فقد رصدت اكثر رسائل الصابي جوانب مهمة من الحياة السياسية القلقة ، وصورت كثيرا من النزاعات الداخلية في حاضرة الخلافة على عهد البويهين (334–447 هـ) .

كما وثقت رسائله الديوانية أيضاً كثيرا من الحروب العنيفة التي نشبتْ بين الأمراء البويهيين وخصومهم في الامارات المجاورة وبخاصة مع الحمدانيين والسامانيين وغيرهم[39].

---

[38] تنظر مثلا الرسائل التي كتبها الصابي عقب ثورة الاتراك ببغداد ، وما اعقبها من خلع المطيع ، وتنصيب الطائع سنة 363 هـ ، فقد كتب الصابي على لسان (عز الدولة) رسائل عديدة لعبت دورا مهما في تلك الاحداث ، منها رسالته على لسان بختيار الى القاضي ابن معروف ، المختار من رسائل الصابي ص348–354 ، ورسالة اخرى كتبها على لسان بختيار الى القرامطة (المختار من رسائل الصابي ص 365–366) .

[39] ينظر رسالة الصابي عن الخليفة المطيع الى ركن الدولة يصور فيها انتصار الجيوش البويهية على الحمدانيين وجيوش الروم (المختار من رسائل الصابي ص 80 وما بعدها) ، وتراجع أيضاً رسالته في احداث الفتنة عام 364 هـ ، اذ كتب منها نسخا كثيرة وجهها الى الأمراء البويهيين لنصرة عز الدولة .

2-رسائل الصابي والشريف الرضي [*]:- لقد ضمت هذه المجموعة ما دار بين الأديبين الكبيرين أبي إسحاق الصابي ، والشريف الرضي من مكاتبات شعرية ونثرية بين سنتي 376هـ-384هـ ، وهي السنة التي توفي فيها الصابي .

ويمكن تقسيم رسائل هذه المجموعة على قسمين :

القسم الاول : المكاتبات بالشعر : وقد ضمت هذه المجموعة ما دار بين الأديبين من مكاتبات شعرية ، وقد اشتملت على اربع مكاتبات شعرية للصابي ، واربع مكاتبات شعرية للرضي جوابا عنها .

وقد الحق بهذه المجموعة الشعرية القيمة ثلاث قصائد للرضي هي من عيون مراثيهِ الشعرية للصابي .

القسم الثاني : المكاتبات بالنثر : وقد أشتمل هذا القسم على ما دار بينهما من مكاتبات نثرية وهي كما ياتي :

1- نسخة رسالة للشريف الرضي الى الصابي يعزيه فيها عن ابنه أبي سعيد سنان ، وقد انفذها إليه في شهر ربيع الثاني سنة ثمانين وثلاثمائة للهجرة ، والرسالة نموذج عال للانشاء الفني ، وهي رسالة طويلة تقع في سبع صفحات من القطع المتوسط [40].

2- نسخة جواب الصابي ، وهي رسالة جوابية قصيرة تقع في اقل من صفحتين من القطع المتوسط [41].

3- رقعة للشريف الرضي ، وهي نسخة (تذكرة) أنفذها الى الصابي في سنة 380هـ وقد رسم له من حضرة الخليفة الطائع لله ، ان يكتب له عهدا بافراده بتقليد نقابة نقباء الطالبيين ، والنظر في امور المساجد بمدينة السلام ، واستخلافه لوالده على النظر في

---

[*] صدرت هذه المجموعة عن : منشورات التراث العربي (وهي سلسلة تصدرها دائرة المطبوعات والنشر في الكويت) بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم . الكويت 1961 ، وقد حوت هذه النسخة مجموعة رسائل الكاتبين الشريف الرضي وأبي إسحاق الصابي ، جرى تبادلها بالشعر والنثر بين سنتي 376هـ -384هـ ، وقد زيد عليها ما قاله الرضي شعرا في رثاء صديقه الصابي .

[40] تراجع الرسالة في : رسائل الصابي والشريف الرضي ص 63-70 .

[41] رسائل الصابي والشريف الرضي ص71-72 .

امور المساجد بمدينة السلام ، واستخلافه لوالده على النظر في المظالم ، والحج في الناس [42]، ومعها نسخة جواب الصابي على رقعة الشريف الرضي [43].

4- نسخة من رقعة أخرى كتبها الرضي الى الصابي ، يسأله فيها إنشاء عهد ثان اليه عن الخليفة الطائع لله ، بتقليد عمل آخر ، وكان شرع له في تقلده في سنة 381هـ[44]، وبعدها نسخة الجواب من أبي إسحاق عن رقعة الرضي [45].

5- نسخة رسالة للصابي تضمنت أبياتاً أنفذها الى الرضي – وهي في حفظ السر – يسأله فيها ان يحكم ويختار الأفضل منها موازنة مع مقطوعات أخرى لشعراء آخرين ونسخة الجواب عنها ، وذلك من سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة للهجرة [46].

ورسالة الشريف الرضي (الجوابية) هي من الرسائل الأدبية النادرة ، وتتضمن تعليقات وتحليلات نقدية ثاقبة ، تدور حول الموازنة بين مقطعات شعرية عديدة لشعراء مختلفين ، تنصب حول معنى واحد هو (كتمان السر) ، والرسالة أيضاً وقفة مهمة في الترجيح بين المعاني الشعرية ، وصورة واضحة للبديهة النقدية بعيدا عن الصنعة واعمال الخاطر . يقول الرضي :

" ...وقد اجبت – ايد الله مولاي ورئيسي الشيخ ... بما سمح به خاطر البديهة ولم انتظر به خواطر الروية ..."[47].

6- نسخة جواب الصابي على رسالة الرضي الأدبية [48]، كتبها اليه وهو عليل والرسالة موجزة جدا ، وفيها يتضح رأي ثابت للصابي ، وحكم واضح على أدب الرضي – شعره ونثره – فضلا عن نقده وصواب أحكامه .

---

[42] رسائل الصابي والشريف الرضي : ص73–75 .

[43] المصدر نفسه : ص75–76 .

[44] رسائل الصابي والشريف الرضي : ص 77–79.

[45] المصدر نفسه : ص80–81 .

[46] المصدر نفسه : ص82–93 .

[47] رسائل الصابي والشريف الرضي : ص93 .

[48] المصدر نفسه : ص94 .

7- نسخة (رقعة) كتبها الصابي [49] ، الى الرضي ، يهنئه فيها بعيد الفطر من سنة أربع وثمانين وثلاثمائة للهجرة ، ويعتذر من تأخره عنه بالعلة التي به ، ويشكو حاله .

8- نسخة الرسالة الجوابية على رسالة الصابي الأنفة الذكر ، وهي رسالة بليغة تقع في اكثر من اربع صفحات من القطع المتوسط [50].

9- نسخة كتاب للشريف الرضي [51] الى بعض أصدقائه من الرؤساء عقب وفاة الصابي يعاتبه فيها على تأخير مكاتبته ، ويصف له ما لحقه على أبي إسحاق من القلق والارتماض ، لما كان بينهما من وكيد المودة ، ولطيف الالفة ، ويذكر محاسنه، ويندب فضائله .

والرسالة طويلة تقع في حدود عشر صفحات من القطع المتوسط ، هي بمثابة (مرثاة نثرية) لصديقه الصابي ، كما رثاه شعرا .

****

وهكذا يمكن ان تعد رسائل هذه المجموعة – على قلتها وصغر حجمها –وثائق أدبية وتاريخية مهمة ، كشفت لنا عن كثير من الأمور السياسية والاجتماعية في هذا القرن وأماطت اللثام عن صلات الخلفاء العباسيين ، فضلا عن الأمراء البويهيين الحميمة بالعلويين ابان هذا القرن : وما أسبغوه عليهم من هالة التقدير والاحترام ، فضلا عما جلته بعض رسائل هذه المجموعة أيضاً عن بعض آيات التسامح الديني بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى في ظل الحكم البويهي ابان هذا القرن ...

3-مجموع رسائل الصاحب بن عباد [*]:

سبقت الإشارة الى ان ديوان رسائل أبي القاسم الصاحب بن عباد قد تم جمعه وتدوينه في حياته ، وقد استدللنا على ذلك بخبرين مهمين اوردهما علمان مبرزان من ادباء ومصنفي هذا القرن ، وهما :

---

[49] المصدر نفسه : ص95-97 .

[50] المصدر نفسه : ص98-102 .

[51] المصدر نفسه : ص103-112 .

أ- ما ذكره (ياقوت) نقلا عن أبي حيان في (مثالب الوزيرين) من ان (نجاح بن سلمة) ناظر خزانة كتب الصاحب ، قدم للتوحيدي – عند وفادته على الصاحب – ثلاثين مجلدة من رسائل الصاحب ، وطلب اليه نسخها ، فاعتذر التوحيدي عن ذلك خوفا على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال [52].

ب- الخبر الذي ساقه الثعالبي بخصوص احدى رسائل الصاحب المشهورة في (الطب) اذ يمكن ان يستشف الباحث من قول الثعالبي :

" الى ان ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ..."[53].

ان مجموع رسائل الصاحب بن عباد ، او (ديوان رسائله) ، قد جمع ودون في حياته ، وانه كان – على ضخامة حجمه – متداولا بين الأمراء والطبقة الخاصة من الأدباء وغيرهم انذاك .

ويبدو بوضوح ان ما مني به تراث الرسائل في هذا القرن من طمس وضياع ، او حرق واتلاف وانتحال – لأسباب عديدة سبق ان عرضنا لتحليلها – قد شمل في جملته ديوان رسائل الصاحب بن عباد أيضاً ، فهو احد ابرز الوزراء البويهيين في حقبة زمنية امتدت لأكثر من عقدين ، فضلا عن انه كان احد دعاة الاعتزال في عصره ، وكان أيضاً ممن عرف باعتناقه وتحمسه لمذهب التشيع ، ولعل كل هذه الأمور وغيرها كانت أسباباً كفيلة لطمس كثير من نتاج هذا الوزير الأديب ، وضياع معالم ادبه وتشويهه ، او نحله وتزييفه !

(*) هذه النشرة هي مختارات من مجموع ديوان رسائل الصاحب بن عباد ، وقد قام بتحقيقها الاستاذان الباحثان : عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف ، عن نسخة مصورة بدار الكتب الملكية المصرية رقم (4880 / ادب) ، وهي مصورة عن مخطوطة في المكتبة الاهلية بباريس ، كتبت في القرن السادس للهجرة ، ونشرت عن دار الفكر العربي ، (الطبعة الاولى) في القاهرة عام 1366 للهجرة .

[52] معجم الأدباء 396/5 ، وينظر أيضاً : النثر الفني في القرن الرابع 162/2.

[53] يتيمة الدهر 237/3–238 .

وهكذا لم يصل إلينا ما نعتمد عليه في الكشف عن بلاغة هذا الأديب الكبير – على الرغم من رفعة منزلته السياسية ، وسمو مكانته بين أدباء عصره – الا نزر يسير من شذرات ترسله ، تمثل فيما ذكر جانبا منه المستشرق كارل بروكلمان [54]، فضلا عما تناثر للصاحب من نصوص أدبية بليغة ، مبثوثة في العديد من مظان الأدب والتاريخ والتراجم[55] ونبذ قصيرة من آراء متناثرة عن طريقته في الكتابة ، او أسلوبه في صناعة الانشاء او الترسل ...

اما النشرة المتداولة بعنوان (رسائل الصاحب بن عباد) فهي جزء من ديوان رسائله ، ومختارات من مجموع ذلك الديوان ، وقد قام بنشرها وتحقيقها الاستاذان عبد الوهاب عزام ، وشوقي ضيف ، وقد اشار المحققان في المقدمة الى ان هذه النسخة المنشورة من رسائل الصاحب هي " مختارات منها ، مرتبة على ابواب ديوان الرسائل ".

وقد اثبت المحققان في بداية هذه الرسائل المنشورة اشارة موجزة ومهمة لجامع هذه (المختارات) ، ذكر فيها صنيعه ومنهجه في هذه المجموعة ، اذ قال [56]:

"ذكرت – اطال الله بقاءك – شديد حرصك على تحفظ بعض رسائل الصاحب كافي الكفاة (رضي الله عنه) ، واحتياجك الى من تستعين به على جمع ذلك مبوبا ، مختارا الاشف فالاشف منه ، فوعدتك القيام لك به ، وجردت له عنايتي ، وخرجت من كل باب من ابواب ديوان رسائله العشرين [57]عشر رسالات ، ليخف حجم هذا المجموع ، ولا يعتاص تحفظه ...".

---

[54] ينظر : تاريخ الأدب العربي 270/2 ، اذ اشار بروكلمان الى مخطوط يشتمل على مختار من رسائل الوزير الصاحب : القاهرة / ثاني 338/3 ، كما اشار الى وجود منتخب من رسائله في باريس / اول 3314 رقم (2) وغيرها.

[55] تراجع فصول الرسائل التي اوردها الثعالبي في اليتيمة 3/(ترجمة الصاحب) ، فضلا عما اورده له في كتبه الاخرى ولا سيما (خاص الخاص) ، و (من غاب عنه المطرب) .

[56] مقدمة مجموع رسائل الصاحب بن عباد ص1 .

[57] تضم هذه (المختارات) عشرين بابا ، ينظر فهرس هذا المجموع ص254–260 .

غير ان جامع هذه (المختارات) لم يف بما وعد به في تخريج هذه الرسائل اذ اننا نجد في الباب التاسع والباب العاشر والباب الخامس عشر احدى عشرة رسالة لا كما الزم نفسه في المقدمة بعشر رسائل لكل باب من ابواب المجموعة .

****

لقد وثقت رسائل الصاحب بن عباد – الى جانب رسائل الصابي – ازهى عصور الامارة البويهية – بوصفه احد مشاهير وزرائهم – وقد تمثل ذلك بعهد الأمير ركن الدولة البويهي ، وعهود اولاده الثلاثة من بعده ، عضد الدولة ، ومؤيد الدولة ، وفخر الدولة .

وقد جاءت رسائل الوزير الصاحب التي ضمتها هذه (المختارات) موافقة او متطابقة مع كثير من الأحوال والأحداث التي وقعت ابان هذا القرن على عهد هذه الامارة الاسلامية ، وجاء بعض تلك الرسائل أيضاً – ولا سيما الباب الأول ، وهو باب " في البشائر والفتوح " – موافقا لرواية الثقات من المؤرخين القدماء عن حروب البويهيين ووقائعهم العسكرية التي استعرت مع خصومهم السياسيين في هذا القرن ، كما المت بعض رسائل الصاحب أيضاً بأحداث وأمور خطيرة جرت في اصقاع نائية من بلاد المشرق الإسلامي ، لم توثقها ، او تقف عند جزئياتها ادق كتب التاريخ المعاصرة لتلك الاحداث او القريبة منها ، ولا سيما حروب الأمير عضد الدولة مع خصومه من السامانيين ومن تحالف معهم من الزياريين ، فضلا عن حروبه مع الحمدانيين في الموصل ، وحروبه مع بعض اقاربه من البويهيين وحروبه الخارجية الاخرى ، وبخاصة مع الروم [58].

---

[58] تراجع فصول رسائل الصاحب في الباب الاول (في البشائر والفتوح) ص3–33 ، فقد تضمنت الرسالة الاولى – على سبيل المثال – وصفا تحليليا دقيقا لانتصار جيوش عضد الدولة وهزيمة اعدائه على باب (استرباذ) (ص3–8) ، وينظر أيضاً : الرسالة الثامنة من هذا الباب في الفتح الاكبر ،ص22–30 . وينظر أيضاً : الرسالة السابعة من هذا الباب ص18–22 التي انصبت على وصف الحرب مع عز الدولة بختيار . وتراجع أيضاً الرسالة الرابعة في هذا الباب ص11–13 التي انصبت على تصوير حرب عضد الدولة مع أبي تغلب الحمداني ، فضلا عن الالمام باحداث اخرى مهمة ، وتراجع الرسالة الجوابية الثالثة من هذا الباب ص10–11 ، التي تضمنت الجواب على البشارة بتذلل الروم وطلبها الهدنة . وغيرها من الرسائل الاخرى .

ولعل خير ما نختتم به هذه الالمامة السريعة ، عن هذه المجموعة من مختارات رسائل كافي الكفاة الصاحب بن عباد ، ما نوه به (محققا) هذه المجموعة عن توثيق صحة هذه الرسائل المنشورة ، وصحة نسبتها للوزير الصاحب . اذ ذكرا [59]:

" ... بل عرضناها – أي الرسائل المنشورة – على التاريخ . فوافق ما تضمنته من الأحداث والأحوال ، ما رواه الثقات من المؤرخين عن دولة بني بويه ، ففيها من أحوال دولتهم وأخبارها ، وذكر رجالها ، ما لا يدع شكا في انها لوزير من وزرائهم وفيها من الأمور الأخرى التي تخص الصاحب ، كاستقبال عضد الدولة اياه ، واهتمامه بالمعتزلة ومذهبهم ، ما لا يترك ريبة في ان كاتبها هو الصاحب إسماعيل بن عباد الوزير البويهي ، الذي عرف بدعوته الى الاعتزال ، ولو لم تنسب هذه الرسائل اليه ، ما صعب على القارئ ان يثبت انها له ...".

وهكذا يمكن ان نطمئن أيضاً ، مع محققي هذه المجموعة من رسائل الوزير الصاحب بن عباد ، بان جل رسائل هذه المجموعة – على الرغم من انها لا تمثل جميع ترسل كافي الكفاة الصاحب ، ولا تصور الا جوانب من مكاتباته الرسمية وعهوده الخاصة ، فضلا عن بعض رسائله الاخوانية والأدبية – تسجل احداثا ووقائع مهمة في هذا القرن ، ومن هنا فقد غدت هذه الرسائل بمثابة وثائق ادبية وتاريخية مهمة تجلي الكثير من الأحداث التي ربما أغفلت بعضها مظان التاريخ المتخصصة ، كما كشفت هذه الرسائل أيضاً عن جوانب اخرى مهمة لشخصية الصاحب بن عباد ، تمثلت بورعه وتقواه من خلال ما صدر عنه من رسائل وعهود مثلت جانبا مهما من التزامه بالعدل في الأحكام والميل عن الجور ، وأنصاف الرعية ، وما الى ذلك من أمور مهمة أخرى لم تكشف عنها رسائله الاخوانية الخاصة ...

4- رسائل أبي بكر الخوارزمي :

لقد مر بنا في غير هذا الموضع ، عناية أبي بكر الخوارزمي بنتاجه الأدبي – ولا سيما ديوان رسائله – وحرصه الكبير على جمعه وتدوينه في حياته ، واشرنا أيضاً الى انه كان يتهاداه مع تلاميذه وغيرهم ، او مع بعض أمراء الممالك في عصره .

---

[59] رسائل الصاحب بن عباد – مقدمة المحققين (ب) .

وقد اكد أبو منصور الثعالبي – وهو من معاصريه واحد تلاميذه – ذلك اذ قال [60]:

" وديوان رسائله مخلد سائر ..."

الا ان قناع النسيان قد أسدل على هذا السفر النفيس استاره ، كنظائره النادرة من مجاميع او دواوين الرسائل التي عفا عليها الزمن ، فلم يصل الينا منه الا أشتات متناثرة من مخطوطاته [61]التي دونها النساخ والوراقون عبر عصور متلاحقة .

وعلى هدي هذه (الاشتات) المتناثرة التي سلمت من الضياع ، ومن نسغها الثر تم طبع ديوان رسائل أبي بكر الخوارزمي طبعات عديدة في بقاع مختلفة ، منها :

- طبعة (كوبريلي) في سنة 1274 هـ ، وهي اقدم نشرة لهذا الديوان .
- ثم طبعت بعدها بخمس سنوات في بولاق عام 1279 هـ ، وقد عرفت هذه النشرة بالطبعة العثمانية [62].
- ثم طبعت في (استانبول) ، بمطبعة الجوائب عام 1297 هـ .
- ثم طبعت في (بومباي) بالهند عام 1301هـ / 1891م [63].
- ثم نشرت اخيرا (دار مكتبة الحياة) ببيروت عام 1970 م باشراف المحقق الاستاذ نسيب وهيبة الخازن عن نشرة (استانبول) بمطبعة الجوائب ، مجموع (رسائل أبي بكر الخوارزمي) .

ومما يؤسف له ، ان هذه النشرة الأخيرة لديوان رسائل الخوارزمي لم تختلف كثيرا عن مثيلاتها من الطبعات او النشرات السابقة ، اذ انها لم تحقق تحقيقا علميا شافيا ، وظلت تماثل قريناتها السابقة في ترتيب الرسائل ، وافتقرت الى التبويب والتنظيم ، وافتقرت أيضاً الى التدرج الزمني في أدراجها او إخراجها ، كما إنها لم ترتب وفق الموضوعات الكثيرة التي عالجتها ...

---

[60] يتيمة الدهر 223/4 ، وينظر أيضاً : وفيات الاعيان 401/4 .

[61] اشار المستشرق الالماني (كارل بروكلمان) الى بعض مخطوطات ديوان رسائل الخوارزمي واماكنها وارقامها . ينظر : تاريخ الأدب العربي 111/2 .

[62] تراجع رسالة الباحث محمود صالح الضمور : أبو بكر الخوارزمي حياته وادبه ص144 .

[63] ينظر : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان 111/2 .

وقد ضمت هذه النشرة من مجموع رسائل أبي بكر الخوارزمي زهاء ست وخمسين ومائة رسالة ، افتقرت في عرضها الى الضبط والشرح او التعليق ، وهذه النشرة بحاجة ملحة الى تحقيق علمي جديد تقابل فيه على ما يتيسر من نسخ المخطوطات الموزعة في خزائن دور المخطوطات العالمية المعروفة ...

5-مجموع رسائل بديع الزمان الهمذاني :-

لقد حظيت رسائل بديع الزمان الهمذاني ، منذ القدم ،بعناية كثير من النساخ وأهل الأدب ، فعكف كثير منهم على جمعها وتدوينها وتداولها ، نظرا لما تمتعت به تلك الرسائل من جمال الأسلوب ، وحسن المعاني ، وتشعب الفنون .

وعلى الرغم من ان اكثر رسائل بديع الزمان قد انصبت على علاقاته الخاصة ، او على مسائل أدبية محضة – باستثناء رسائل معدودة ، وصلت الينا ، تصور جانبا من صلاته او علاقاته السياسية ، وصلاته مع بعض امراء الممالك المستقلة أو وزرائهم آنذاك – الا ان بعض الرؤساء ووزرائهم قد عنوا بجمعها وتدوينها ، لا لغايات سياسية او مذهبية ، وانما للافادة من طرزها ، وبزها ، وحسن معانيها .

ولعل ما يؤكد ما ذهبنا اليه ، ان جامع رسائل بديع الزمان – وهو الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست – قد جمعها بتكليف او بايعاز من بعض الرؤساء او الوزراء في عصره .

يقول الحاكم أبو سعيد في ديباجة مجموع رسائل بديع الزمان ، مشيرا الى سبب جمعها ، واذعانه لتلبية امر من كلفه بجمع هذا الديوان [64].

" ... سألت – ادام الله توفيقك ، وسهل الى نفائس الخيرات طريقك – ان اجمع لك آثار أبي الفضل احمد بن الحسين البديع نظمها ونثرها ، واؤلف شواردها قلها وكثرها ، ليكون متفكها لخاطرك ، اوان فراغك من دواعي اشغالك ،ومتنزها لناظرك وقت انتفاضك من عوارض احوالك ... وقد اجبت الى مسؤولك ، وجعلت بعض اوقاتي مصروفة لتحصيل مأمولك ، وجمعت لك ما وجدته من الرسائل والرقاع لتنظر فيها وتستفيد ، ويقرب اليك منها ما تريد ، والله الموفق للصواب " .

---

[64] كشف المعاني والبيان من رسائل بديع الزمان –المقدمة ص6 .

وهكذا يتضح جليا ان الحاكم ابا سعيد إنما قام بجمع رسائل الهمذاني بتكليف من بعض الرؤساء او الحكام في عصره ، وان الغاية الأساسية من هذا الصنيع ، هو السبب الفني ، او الإعجاب بهذه النصوص الأدبية النفيسة ، وما تحويه من حلل فنية نادرة ، وما تحققه لمتلقيها من متعة جمالية ، وغايات تهذيبية وغيرها .

ولعل هذا ما حفز بعض النساخ [65]، والأدباء وغيرهم على تدوينها وجمعها ، وتداولها ، ودفع الناشرين على اعادة نشرها وطبعها مرارا [66].

لقد نشرت رسائل الهمذاني وطبعت طبعات عديدة لهل اهمها :

- طبعت طبعة قديمة على هامش (بديعية ابن حجة الحموي) في بولاق عام 1291 هـ ، ولعلها اقدم نشرة حديثة لهذا المجموع من رسائل بديع الزمان .
- اعيد نشر الطبعة الانفة الذكر ، بصورة مستقلة ، عقب النشرة الأولى بسبع سنوات في (استانبول) عام 1298 هـ .
- ثم طبعت في بيروت ، اعتمادا على النسخة التي جمعها الحاكم أبو سعيد – بشرح الشيخ إبراهيم الاحدب الطرابلسي عام 1890م ، وقد نشرت بعنوان (كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان) وقد ضمت هذه النشرة نحو ثلاثاً وثلاثين ومائتي رسالة ، وهي نشرة جيدة ذات شروح وتعليقات مفيدة جدا .

---

[65] اشار المستشرق كارل بروكلمان : (تاريخ الأدب العربي 115/2) الى بعض رسائل بديع الزمان الهمذاني المخطوطة ، والموجودة في بعض خزائن المخطوطات في بقاع متفرقة من العالم ، وهي :

- (اسكوريال) : ثاني 536 .
- (القاهرة) : ثاني 159:3 .
- وتوجد أيضاً بعنوان : (منشآت المعاني ومفردات المباني) في : (ليبزج) بالمانيا ، اول 592 .
- ويوجد شرح منشآت رسائل البديع في (آياصوفيا) 3996 ، 4194 .

وقد جمع بعض النساخ رسائل الهمذاني الموجهة الى أبي بكر الخوارزمي ودونها وحدها مجموعة في نسخة مستقلة ، وهي مخطوطة موجودة في المتحف البريطاني .6285 or رقم 3 (المتحف البريطاني ثالث 59) . ينظر : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان 115/2 .

[66] ينظر طبعات مجموع (رسائل الهمذاني) المرجع السابق 115/2 .

- ثم أعاد نشرها في بيروت الأستاذ حنا الفاخوري بعد نحو أكثر من ثلاثين عاما على نشرة (الشيخ الاحدب) . وكان ذلك عام 1921م . وقد اعتمد الناشر على شروح الشيخ إبراهيم الاحدب في نشرته هذه .

****

ومما يجدر ذكره هنا ، ان رسائل هذه المجموعة – على الرغم من عدم تسلسلها تاريخيا وفق صدورها ، او وفق إنشائها وصدورها عن كاتبها بصورة متدرجة مع مراحل حياته ، وتنقله عبر أسفاره الكثيرة المعروفة في اقاليم المشرق الإسلامي – عند مقابلتها على أحداث التاريخ المعروفة ، وما مر بمنشئها من احوال واطوار ، نجدها تمثل خطا واضحا لسيرة هذا الأديب الكاتب ، وما صادفه في حياته المتقلبة من بؤس ونعيم ، وظعن واستقرار وانتصار واخفاق ، وما الى ذلك من امور متباينة ، وفضلا عن ذلك فان رسائله الأدبية والاخوانية تجسد نموذجا آخر – الى جانب مقاماته المشهورة – لأسلوب الصنعة الفنية التي بدأت تطغى على الإنشاء العربي ،وصناعة الترسل في القرن الرابع للهجرة .

6-مجموع رسائل الأمير قابوس بن وشمكير (كمال البلاغة) :

من الأمراء الكتاب ، واعيان الطبقة الخاصة ، الذين حظوا بعناية عدد من المؤرخين ، ومصنفي كتب التراجم والأدب في هذا القرن : الأمير شمس المعالي قابوس ابن وشمكير الزياري ، الذي " جمع الله له الى عزة الملك بسطة العلم ، والى فصل الحكمة نفاذ الحكم "[67].

ولعل ما حفز هؤلاء الأدباء والمصنفين على الاهتمام بترسل الأمير قابوس ، وعكوفهم على تدوين ادبه وترسله بخاصة ، وجمع ما تناثر منه في الآفاق ، ما تلمسوه في نثره من انه كان رقيق حواشي الكلام ، عذب ينابيع اللسان ، وما شهر به أيضاً من انه كان اذا حاور سدد سهم الصواب الى غرض المعنى [68].

وربما كان هذا أيضاً هو الذي جعل بعض مؤرخي الأدب القدامى يقرنون ترسل الأمير قابوس في البلاغة ، وعلو الرتبة ، بترسل الوزير الصاحب ، وأبي إسحاق والصابي .

---

[67] يتيمة الدهر 67/4 .

[68] ينظر : زهر الاداب 159/1 ، وما نظره الجاحظ في وصف الكاتب ، وما ينبغي ان يكون عليه .

فالنظامي السمرقندي مثلا ، جعل الأمير قابوس بن وشمكير مع قرينيه مضرب المثل في البلاغة ، وجعل اطلاع الكتاب على صحفهم وترسلهم من شأنه ان يبلغ الكاتب الى مصاف الأدباء المبدعين ، يقول [69]:

"ولا يبلغ كلام الكاتب هذه الدرجة حتى ينال من كل علم نصيبا ... والاضطلاع من صحف الخلف ، مثل : ترسل الصاحب والصابي وقابوس ... فكل واحد ممن عددت نسيج وحده في صناعته ، ورصد وقته " .

ويصرح الثعالبي بانه سيتوج كتابه " اليتيمة " بلمع من ثمار بلاغة الأمير قابوس التي هي اقل محاسنه ومآثره ، ويعد بانه سيصنف كتابا خاصا في ترسله وخصائصه ومآثره التي تفرد بها عن ملوك عصره [70].

وهكذا كان دأب المؤرخ العتبي الذي قال – مشيرا الى رسائله ، مشيدا ببلاغة ترسله [71]:

" ان رسائله موجودة في البلاد ، عند الأفراد ، لكني اكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه ...".

وممن تجرد للعناية بتدوين غرر مكاتبات الأمير قابوس ، وجمع ترسلاته ، وتحليل ما انطوت عليه من لمع البلاغة ، وافانين الصنعة ، والابتكار في ألوان البديع ، أبو الحسن عبد الرحمن بن علي اليزدادي [72]،وقد سمى ما جمعه من مكاتباته ، ومتون ترسله " كمال البلاغة " .ذكر اليزدادي معللا هذه التسمية لمجموع رسائل الأمير قابوس [73]: " ولهذا

---

[69] جهار مقالة ص23 .

[70] ينظر : يتيمة الدهر 67/4 .

[71] التاريخ اليميني 17/2 .

[72] اشار العلامة القزويني في حواشيه على كتاب (جهار مقالة) ص99 ، أشار الى ان الذي جمع ترسلات الأمير قابوس : هو الامام أبو الحسن علي بن محمد اليزدادي ، وما ذهبنا اليه في متن البحث – نقلا عن صدر مقدمة كتاب كمال البلاغة ص16 – هو الأشهر ، والأقرب الى الصواب

[73] كتاب كمال البلاغة ص18 .

سميت الكتاب (كمال البلاغة) لان هذا الكلام قد بلغ النهاية في الكمال ، فمن انكر قولي فليبرز الى ميدان الامتحان ، وليأت على دعواه بالبرهان " .

ويمكن تقسيم كتاب (كمال البلاغة) الى أربعة اقسام متميزة وهي :

القسم الاول : مقدمة الكتاب وصدره : وقد انطوت المقدمة على بيان هدف المؤلف اليزدادي من تأليف الكتاب ، وصنيعه في ترتيبه وتبويبه [74]، وبيان بدائع ترسل الأمير قابوس ، وتفسير هذه البدائع ، وقد اشاد اليزدادي في هذه المقدمة كثيرا ببلاغة الأمير قابوس ، واشار الى دقة صنعته ، وحلل افانين ابتكاره [75].

- **القسم الثاني** : ويضم منتقيات من مكاتيات الأمير قابوس وترسله مع بعض صدور معاصريه من الأمراء والوزراء والأعيان في عصره ، باستثناء الوزير الصاحب بن عباد . وتشمل هذه المنتقيات من ترسل الأمير قابوس ما يأتي [76]:

أ- ثماني رسائل للامير قابوس الى ابن العتبي – وزير والي خراسان في عصره – وقد وردت هذه الرسائل في هذا القسم من الكتاب في ثلاثة مواضع متفرقة منه [77].

---

[74] لعل اهم ما يجدر ان نشير اليه في هذا الجانب هو إشارته الدقيقة الى عدد القرائن لكل رسالة يوردها ، حرصا على الدقة العلمية ، واحترازا من حذف بعض اجزائها ، يقول اليزدادي (ص19) : "وذكرت عند مفتتح كل رسالة عدد قرائن الاسجاع الواقعة فيها ، لئلا يزاد في الرسالة ، ولا ينقص منها " .

[75] تراجع التفاصيل فيما ابتكره الأمير قابوس من الوان البديع – بدائع انشائه – وبخاصة حلي الجناس واصنافه ، التي عجز عن الوصول اليها من تقدمه من بلغاء العربية – كما رأى اليزدادي (ينظر المقدمةص19–32 من كمال البلاغة) .

ومما يجدر ذكره هنا ، ان اليزدادي كان مغاليا كثيرا في وصف بلاغة الأمير قابوس ، وربما كان ذلك صورة واضحة لتحمس بعض الكتاب وتعصبهم لابناء جنسهم ، وتقديمه على بلغاء العربية ، واستنباطه ما عجزوا عنه (ص17–18) ، وربما جاوز الحد في غلوه أيضاً حين وصف كلامه = بالاعجاز ، وانه ليس من كلام البشر ! قال اليزدادي (ص32) : " وانا ان رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عييت به ، لاعجازها ... فأقول بلسان طويل : ليس ذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والإدراك الطباعي ، بل هو افاضة القوة العلوية ...".

[76] ينظر : كمال البلاغة ص34–ص62 .

ب- اربع رسائل لقابوس الى أبي الفضل ابن العميد ص38-ص44 ، وقد انصبت ثلاث رسائل منها على موضوعات اخوانية ، هي التعزية والاستشفاع بينما كانت الرسالة الرابعة رسالة ادبية رائعة في وصف نثر ابن العميد ونظمه .

ت- رسالة قابوس الى أبي محمد عبد الله بن إسماعيل بن ميكال ص49-50 ، وهي رسالة اخوانية موضوعها التعزية والتأبين .

ث- رسالة الأمير قابوس الى الشيخ الامين علي بن الفضل ص51-52 ، وهي أيضاً رسالة اخوانية موضوعها التعزية والاعتبار .

ج- رسالة الأمير قابوس الى خاله الاصبهبذ ص53-57 ، وهي رسالة طويلة تقع في اربع وخمسين قرينة ، وموضوع الرسالة العتاب والفخر والاستمالة ، وقد ذكرها أيضاً أبو هلال العسكري في كتابه الشهير (ديوان المعاني) [78].

ح- رسالة الأمير شمس المعالي قابوس الى أبي الفتح ذي الكفايتين ابن العميد ص62 . وهي رسالة اخوانية موضوعها التعزية .

- **القسم الثالث** : ويشتمل على منتقيات من رسائل الأمير قابوس مع الوزير الصاحب ابن عباد ، وقد اوردها اليزدادي مع اجوبة الصاحب عنها ، ومجموع الرسائل التي أوردها المؤلف للأمير قابوس ، أحدى عشرة رسالة مع تسع رسائل جوابية لكافي الكفاة الصاحب بن عباد [79].قال اليزدادي يشرح منهجه في الاختيار في هذا القسم من الكتاب [80].

"وتركت كتب الاجوبة العائدة من أبي الفضل ابن العميد وابنه وغيرهما ، الا اجوبة الصاحب بن عباد ، فانني كتبتها اخر هذه الرسائل لخليتين : (إحداهما) : لدعواه العريضة

---

[77] وردت الرسالتان الأولى والثانية الى ابن العتبي ص34-36 ، بينما وردت الرسالة الثالثة ، والرابعة ، والخامسة والرسالتان السادسة والسابعة اليه أيضاً ص44-49 ، بينما وردت الرسالة الثامنة والأخيرة الى الوزير ابن العتبي ص61-62 ، وقد تناولت موضوعات اخوانية عديدة .

[78] تراجع رسالة قابوس الى خاله الاصبهبذ في ديوان المعاني 1/86-88 .

[79] اشار الاستاذ محب الدين الخطيب في مقدمة نشرته للكتاب (ص10) الى ان تلك المكاتبات بين الأمير قابوس والوزير الصاحب ، ربما كانت في المدة التي خرج فيها الملك من يدي الأمير قابوس ، واستيلاء الأمير فخر الدولة البويهي عليه ، وكان الصاحب وزيرا له آنذاك .

[80] كمال البلاغة ص18 .

كانت في هذه الصناعة ، وكونه عند نفسه ان درجته في البلاغة والبراعة فوق درجة كل من تقدمه من بلغاء الكتاب ، (والثانية) : لان محاسن الكلام ، وغرائب الصنعة لا تظهر الا اذا قوبل كلام بكلام ، وعرض معنى على معنى مثله " .

- **القسم الرابع** : ويشتمل هذا القسم على مختارات اليزدادي من رسائل الأمير قابوس وهي رسائل ادبية (فلسفية) خاصة ، تعكس علمه وفضله ، وبلاغة اسلوبه في شرح قضايا الفلسفة والعلم .

ذكر اليزدادي في مقدمة كتابه يشير الى هذه الرسائل [81]: " وله أربع رسائل اخرى منها ثلاث في علم الاوائل ، وواحدة في ذكر النبي – عليه السلام – وصحابته ، وقد ختمت الكتاب بها ليتعجب الناس منها ، فانها موضع التعجب لمن انصف واعترف بالحق ، فمن اصعب الأمور استعمال الكلام الرسائلي في شرح المعاني الفلسفية ، بتلك الفصاحة والعذوبة التي يعجز عنها الخلق قاطبة ".

وهذه الرسائل التي انتقاها المؤلف اليزدادي لشمس المعالي الأمير قابوس هي كما يأتي :

أ- رسالة الأمير قابوس في وصف العالم ، وذكر تكونه ، وهي رسالة فلسفية طويلة ، تقع في اثنتي عشرة صفحة ، وقد صدرها قابوس بمقدمة قصيرة تقع في اثنتي عشرة قرينة [82].

ب- رسالة الأمير قابوس في الانسان والحيوان ، وهي رسالة فلسفية في ذكر النفس الناطقة ، وانها موجودة في سائر الحيوان ، لا في الانسان وحده ، وهي رسالة قصيرة تقع في ثلاث صفحات من القطع الصغير [83].

ت- رسالة الأمير قابوس في بطلان التنجيم : وهي رسالة علمية فلسفية في بطلان احكام النجوم ، وذكر السبب الذي دعا الأوائل الى وضع هذه الوساوس والترهات البسابس.

---

[81] كمال ابلاغة – المقدمة ص32–33 ، وينظر أيضاً : اشارة المؤلف الى هذه الرسائل (الخاصة) الاربع في متن الكتاب أيضاً ص84 .

[82] ينظر كتاب كمال البلاغة ص84–95 .

[83] ينظر كتاب كمال البلاغة ص84–95 .

وهي رسالة طويلة تقع في سبع صفحات من القطع الصغير [84].

ث- رسالة الأمير قابوس في ذكر النبي – عليه السلام – وصحابته (ر) ، وهي رسالة ادبية تاريخية قصيرة ، تقع في ثلاث صفحات من القطع الصغير ، وتضم هذه الرسالة احدى وأربعين قرينة [85].

ج- وادرج اليزدادي أيضاً ، رسالة ادبية قصيرة خامسة ، لم يشر اليها في مقدمة كتاب (كمال البلاغة) ، وهي في ذكر التكنية ، وما فيها من النقص والزرية . وهي رسالة قصيرة تقع في خمس عشرة قرينة ، تعالج موضوعا طريفا ، يخالف ما تجري عليه الطبائع في تزيين الكنية ، وما ألفه العرب ، بخاصة في استخدام الكنية للتعظيم[86].

7-المستخرج من مجموع رسائل أبي الفضل الميكالي :

لقد مر بنا آنفا ان اكثر اعلام الأدباء والكتاب في هذا القرن ، كانوا يحرصون على جمع شذرات تراثهم الأدبي – ولا سيما دواوين رسائلهم – في حياتهم ، كما عنوا أيضاً بجمع تراث معاصريهم من مشاهير الاعلام ، وصدور الكتاب ، لأسباب عديدة الممنا بذكرها وتحليلها .

وكان الأمير الأديب أبو الفضل الميكالي احد اشهر من عنوا بجمع التراث الأدبي وتدوينه واخراجه ، فضلا عن حفظ فصول الرسائل البليغة لجهابذة الكتاب وصدورهم في هذا القرن ، وروايتها او سردها في محاضراته ، او معارضتها في ترسله وادبه ، كما سبق ان اشرت آنفا .

لقد حرص الأمير أبو الفضل الميكالي كثيرا على جمع ديوان رسائله في حياته – الى جانب عنايته بجمع تراث معاصريه من صدور الأدباء وروايته وحفظه – وعمل على حسن إخراجه وتبويبه ، ومن هنا فقد عمد الى انتقاء نماذج اسلوبية استخرجها من فيض رسائله الكثيرة الزاخرة بالموضوعات المتنوعة ، وأخرجها إخراجا انيقا ، وبوبها تبويبا شيقا ، يتلاءم

---

[84] كمال البلاغة ص99-105 .

[85] المصدر نفسه ص106-109 .

[86] المصدر نفسه ص109-110 .

وطبيعة الموضوعات التي عالجتها رسائله . وقد سمى هذا المنتقى من فيض رسائله بـ(المخزون) .

وعلى الرغم من ضياع هذا السفر النفيس من ذخائر هذا القرن ، فان ما نقله أبو منصور الثعالبي من نصوص فصوله ، وغرر بلاغته ، ما جلى لنا الكثير من قسمات هذا الكنز النفيس المفقود ، وابان لنا عن ملحه وأسلوبه وطريقة تبويبه . ذكر الثعالبي ، مشيرا الى جهود الأمير الميكالي في تأليفه لكتاب المخزون ،والثناء عليه [87]:

"وقد أوردت في هذا الباب من فصوص فصوله التي اخرجها من رسائله ، وبوبها في كتاب له وسمه بالمخزون ما يؤرخ به محاسن الكلام ، ويزيد في مفاخر الأقلام ويستحق ان يدعى لفظ الدر ، وخدع الدهر ، وعقد السحر ...".

ويبدو من خلال فصول الرسائل التي ساقها أبو منصور الثعالبي [88] لابي الفضل الميكالي من كتاب " المخزون" ان هذا الكتاب – كما بوبه أبو الفضل الميكالي نفسه – كان مقسما على موضوعات عديدة ، تقع تحديدا في ثمانية أبواب هي :

1- باب وصف الكتب بالحسن والبلاغة ولطف الموقع .
2- باب الاخوانيات .
3- باب الشكر والثناء .
4- باب العتاب والذم وشكوى الحال .
5- باب التهاني .
6- باب العيادة .
7- باب التعازي .
8- باب السلطانيات .

وهكذا حظي هذا السفر النفيس بإعجاب الأدباء ومصنفي كتب التراجم منذ تاليفه واخراجه ، وطبقت شهرته الآفاق ، وشاع تداوله بين ادباء هذا القرن ، ومن أعقبهم في العصور اللاحقة .

---

[87] يتيمة الدهر 410/4 .

[88] ينظر : يتيمة الدهر 410/4–425 .

يقول صاحب كتاب " الدمية " وهو يثني على هذا الكتاب ، وسحر اسلوبه ، وقوة تأثيرة في الباب متلقيه [89]:

" ... ومن تأمل منثوره في (المخزون) علم انه فرحة المحزون ، وشفاء القلب السقيم ، وعقلة المستوفز ، وانس المقيم " .

***

مجاميع رسائل مخطوطة :

وهناك دواوين او مجاميع رسائل – او اجزاء واقسام من مجاميع رسائل – وصلت الينا ، الا انها لما تزل مخطوطة لم تر النور بعد ، ومتناثرة في خزائن المكتبات ، ودور المخطوطات العالمية .

ولعل من هذه المجاميع المخطوطة المهمة ما يأتي :

أ-غرر البلاغة :

وهو كتاب نفيس مخطوط في الرسائل ، وهو لابي الحسين هلال[90] بن المحسن ابن أبي إسحاق ابراهيم بن هلال الصابي (359هـ -448هـ) .

يقع هذا الكتاب المخطوط في واحد وعشرين بابا ، يتضمن فصولا في الكتابة وأساليبها ، مع جملة رسائل من كلامه [91].

وقد نجا هذا السفر النفيس من قوارع الدهر ، ومنه نسخة مخطوطة في خزانة كتب (Chester Beatty -Dub.) ، وتقع في (153 ورقة) ، كتبت في المئة الخامسة للهجرة [92].

---

[89] دمية القصر وعصره اهل العصر 89/2 .

[90] كان هلال بن المحسن كاتب اسرار فخر الملك – وهو أبو غالب محمد بن علي بن خلف – وزير بهاء الدولة البويهي ، ثم وزر بعد وفاة بهاء الدولة لابنه سلطان الدولة ، فحبسه وقتله سنة 407هـ . وقد اشتهر هلال الصابي بتاريخه كما اشتهر جده برسائله . ولهلال الصابي أيضاً : (كتاب الرسائل) / وهو مجموع رسائله الديوانية التي انشأها عن الملوك والوزراء :و هي على غرار رسائل جده أبي إسحاق الصابي .

[91] نقل عنه القلقشندي عدة نسخ في المبايعات والأيمان والامان ، ينظر : صبح الاعشى في صناعة الانشا 280/9-282 ، 285-286 . 211/13-213 ، 339 .

وينظر أيضاً : رسوم دار الخلافة – لهلال الصابي – تحقيق الاستاذ ميخائيل عواد ص32-33 .

وتوجد نسخة اخرى منه في دار الكتب المصرية [93]، وقد ذكر الاب لويس شيخو اليسوعي ان من هذا الكتاب نسخة في لنينغراد [94].

ب–منية الراضي برسائل القاضي :

من الأدباء الكتاب الذين عني مؤرخو الأدب ومصنفو كتب التراجم القدامى بلباب ادبه ، وعكفوا على جمع رسائله ، ودرر نظمه ، أبو احمد منصور بن محمد الازدي الهروي [95].

جمع الثعالبي طرفا من ملح ادبه ، وغرر ترسله ، قال [96]:

" وجمعت يدي من غرر كلامه ، ودرر نظامه على ما يميز له الليل المظلم ، ويتصف به الدهر الظالم ، وقد اودعت الان كتابي هذا لمعا من نثره ونظمه تتلافى الغائب وتجبر الكسر ..."

وقد اشاد الباخرزي كثيرا بفضله ، ورفعة منزلته في الترسل ، حتى قرنه في رقة ادبه وعذوبه كلامه ، برقة كلام الصادين : الصاحب والصابي ! ذكر يقول [97]:

" ورسائله الذ في الاسماع من عهود التصابي ، واصيد للقلوب من كلام الصادين : الصاحب والصابي " .

---

[92] Arberry (Arthur J) , A and list of the Arabic Manuscripts in the chester Beatty Library . (Vol.II , Dublin 1956 ; No.3333 , P.38) .

[93] ينظر فهرست المخطوطات التي اقتنتها دار الكتب المصرية من سنة 1936–1955 ، فؤاد سيد – القاهرة 1962 ص151 .

[94] مجلة المشرق 6 (بيروت 1903) ص469 . (بدلالة كتاب رسوم دار الخلافة – تحقيق الباحث ميخائيل عواد ص33 .

[95] ينظر في ترجمته واخباره : طبقات الشافعية 26/4 ، معجم الأدباء 191/19 ، الاعلام 303/7 ، وكان اديبا شاعرا مغرى بالشراب والغزل الرقيق وله فيه شعر كثير . ذكر الباخرزي في الدمية (93/2) ان ديوانه يبلغ اربعين الف بيت ، وكانت وفاته عام 440هـ/1048م (ينظر : تاريخ بروكلمان 122/2) .

[96] تتمة اليتيمة : 233/5 .

[97] دمية القصر وعصرة اهل العصر: 93/2 .

ويبدو ان هذه المكانة السامية ، والشهرة الواسعة التي حظي بها الهروي بين ادباء عصره ، ولداته من اهل الظرف والأدب ، هي التي حفزت ابا الفضل احمد بن محمد الميداني على العكوف على جمع رسائله وتدوينها ، والعناية بإخراجها .

جمع أبو الفضل الميداني رسائل القاضي الهروي ووسمها بعنوان : (منية الراضي برسائل القاضي) ، وقد رتبها حسب الموضوعات التي عالجتها ، وأخرجها وبوبها في تسعة ابواب هي :

1-الشكر ، 2-المدح ، 3-الشوق ، 4-اللوم ، 5-الشكوى والاعتذار ، 6-الزيارة والعزاء ، 7-الفكاهة ، 8-الوصف والتشبيب ، 9-الدعوات [98].

ومما يؤسف له ان ديوان رسائل الهروي ، على الرغم من سمو مكانته بين مجاميع النثر الفني فضلا عن شهرة جامعه ، لم يحظ بعناية المحققين او أصحاب دور النشر والباحثين ، وظل رهين أدراج مجامع المخطوطات ورفوفها المنزوية [99].

ج-وتحتفظ خزائن المخطوطات في العديد من أقطار العالم بذخائر نفيسة من مجاميع الرسائل لكتاب مشاهير من اعلام هذا القرن ، وهي لما تزل ترزح تحت قناع النسيان والإهمال ، بعيدا عن اكف العلماء والمحققين لتنفض ما تراكم عليها من غبار الزمن .

ومن هذه المجاميع والوثائق غير المنشورة :

- كتاب الغرر والدرر : للاديب الكاتب أبي الحسين محمد بن الحسين الاهوازي[100] (ت330هـ) ، والكتاب يضم مجموع رسائله الى طائفة من امراء وعظماء عصره .

لقد ضم هذا الاثر النفيس - الذي تحتفظ به خزائن المخطوطات في ليدن 246-247 - مجموعة كبيرة من الرسائل رتبها المصنف حسب الموضوعات والأغراض التي تناولتها [101].

---

[98] ينظر : تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان : 122/2 .

[99] توجد نسخة مخطوطة من مجموع رسائل القاضي الهروي في : برلين رقم (8647) ، القاهرة ثاني 397/3 . يراجع : تاريخ الأدب العربي - بروكلمان : 122/2 .

[100] يراجع كتاب : الكامل في التاريخ : 103/9 .

[101] تاريخ الأدب العربي - بروكلمان : 118/2 .

- مجموع رسائل أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الشيرازي :

وهي رسائله الديوانية والاخوانية التي كتبها الى امراء وعظماء عصره ، وتؤرخ حقبة مهمة من امارة البويهيين تمتد من حدود عام 338هـ -380هـ . ومن هنا فقد تضمنت هذه المكاتبات المهمة أخباراً طريفة وخطيرة عن هذه الامارة الإسلامية .

وقد اشار المستشرق كارل بروكلمان [102]، الى وجود هذه المجموعة من رسائل أبي القاسم الشيرازي في خزائن المخطوطات ببرلين تحت رقم (8825).

[102] ينظر المرجع السابق : 118/2 .

الفصل الثاني

المبحث الأول

شيوع الرسائل الأدبية وازدهارها، وأسباب ذلك:

أولاً : شيوع الرسائل الأدبية وازدهارها :

لقد تبوأ النثر الفني - منذ القرن الثالث الهجري - وفي القرن الرابع أيضاً مكانة سامية ، ربما طغت على مكانة الشعر[1] ودوره في تصوير الحياة العامة فضلا عن التعبير عن نوازع الأديب في مختلف الأغراض إذ إنَّ النثر الفني بحكم طبيعته الخاصة أكثر من الشعر مرونة وطواعية ، لحمل الأفكار على اختلافها وتنوعها ، والتعبير عن كثير من المعاني التي يعجز الشعر في التعبير عنها . ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة بوضوح أن الشعراء[2] أنفسهم ، في كثير من الأحيان ،كانوا يتخذون النثر الفني وسيلة لتصوير خواطرهم ، وتجسيد مشاعرهم وأفكارهم[3] .

ذكر أبو بكر الخوارزمي في احدى رسائله الأدبية يصف الكتابة ، ويشير إلى الجمع بينها وبين صناعة الشعر فقال [4] :

" والكتابة آلة عجيبة ، وهي من الشاعر أعجب ، كما أن الشعر صناعة غريبة ، وهو من الكاتب أغرب ... ".

---

[1] تراجع في مراتب النظم والنثر : (الليلة الخامسة والعشرون) من كتاب : الامتاع والمؤانسة للتوحيدي 2/130-147 : فقد جمع المؤلف اراء طريفة في الموازنة بين المنظوم والمنثور والمفاضلة بينهما .

[2] ممن اشتهر بالترسل من هؤلاء الشعراء – منذ القرن الثالث – مثلا : أبو علي البصير ، فقد كان – كما ذكر ابن المعتز في كتابه (طبقات الشعراء ، ص398) – كاتباً رساليا (صاحب رسائل) ليس له في زمانهِ ثانٍ . (تراجع نماذج من رسائله الفنية في : زهر الاداب وثمر الالباب 1/241 ومواضع اخرى) وأشار ابن المعتز في الموضع نفسه الى العتابي ، وذكر انه كان شاعرا كاتبا ، وذكر : " ان هذا قلما يتفق للرجل الواحد : لأن الشعر الذي للكتاب ضعيف جدا ، فاذا اجتمعا في الواحد فهذا المنقطع القرين).

[3] ينظر : العصر العباسي الثاني ، د. شوقي ضيف : 563.

[4] رسائل ابي بكر الخوارزمي : 54 .

وقد أشار القلقشندي أيضا إلى فضل الكتابة فقال [5] : " ... والكتابة قطب الأدب ، وملاك الحكمة : ولسان ناطق بالفضل ، وميزان يدل على رجاحة العقل ، والكتابة نور العلم ، وفدامة العقول[6] ، وميدان الفضل والعدل ، والكتابة حلية وزينة ولبوس وجمال وهيبة ، وروح جارية في أقسام متفرقة ... وبالكتابة والكتّاب قامت السياسة والرياسة " .

وفي هذا القرن أيضاً ، أصبح للنثر الفني – ولاسيما الرسائل الأدبية والديوانية – القدح المعلى على الشعر وسواه من ألوان الأدب الأخرى ؛ بما هيّأ له جهابذة الكتاب البلغاء من لمسات فنية ساحرة ، تمثلت في رقة الألفاظ مع جزالتها ورصانتها ، فضلا عن تواؤمها في الجرس وجمال النغم ، وائتلافها في تراكيب لغوية ضمت أقداراً موسيقية متناسبة . إلى جانب ما عرفوا به من قدرة عالية في تفتيق المعاني الجديدة ، وبراعتهم في التصوير ، فضلا عن قدرتهم على الخوض في ادق الأمور العقلية والفلسفية ، بما اتيح لكثير من أولئك الكتاب من ثقافة واسعة وبلاغة نادرة ، مما سنأتي إلى تفصيله في المبحث الثاني من هذا الفصل .

ونظرا لما تضطلع به صناعة الكتابة [*] ، وما يقوم به الكتّاب من دور مهم في تسيير أمور الملك والسياسة ، واستجابة للتطورات السياسية الخطيرة التي بدأت تظهر في آفاق الدولة الإسلامية – منذ القرن الثالث – ولاسيما بعد تجزؤ الدولة الإسلامية ، وظهور الإمارات والممالك المستقلة ، وما رافق ذلك كله من كثرة

---

[5] صبح الأعشى في صناعة الانشا :37/1 .

[6] فدامة العقول : أي مصفاة لها .

[*] يراجع ما ذكره السمرقندي في الحكاية الأولى والثانية من المقالة الأولى عن أهمية الكتابة ، وما تضطلع به من أهمية في تحقيق المكاسب السياسية وتحقيق النصر على الخصوم ، والدور الذي اضطلع به (الاسكافي) في تحقيق ذلك ، كتاب جهار مقالة ص23–24 ، ص25–26 ، وينظر أيضا ما ذكره (ادوارد براون) عن مراسلات الأمير قابوس بن وشمكير ، وتكليفه لكاتبه (عبد السلام) بمراسلة الصاحب بن عباد ووزيره ابي العباس الغانمي ، وقيام قابوس أيضا بمراسلة العتبي مؤرخ الغزنويين واضطلاع الكتابة بتلك المهام الخطيرة . ينظر : تاريخ الأدب في إيران : 119/2 .

الدواوين الرسمية ، وتنوعها وانتشارها [7] في هذا القرن ، فقد ازدادت الحاجة إلى الكتابة ، واتخاذ الكتاب النابهين ؛ للقيام بأعباء الدولة الكثيرة ، وضبط أمور الإدارة المتشعبة .

وهكذا أصبحت الكتابة – ولاسيما كتابة الإنشاء – كما يقول القلقشندي[8] :

" ... لا تلتفت الملوك الا إليها ، ولا تعول في المهمات الا عليها يعظمون أصحابها ، ويقربون كنابها ، فحليفها ابدا خليق بالتقديم ، جدير بالتبجيل والتكريم "

وتأسيسا على هذا الأمر ، فقد اخذ التنافس الحاد يدب بين الكتاب الناشئين – منذ منتصف القرن الثالث للهجرة – للوصول إلى أعتاب تلك الدواوين [9] وليتبوّأوا ، بعد ذلك ، موقعا سامقا بين كتاب الدواوين ، وصولاً لتسنم منصب رفيع في الدولة ، كرئاسة الديوان الرسمي أو الولاية أو الوزارة ، أو غير ذلك .

وهكذا كان لهذا التنافس بين أولئك الكتاب الناشئين أثره الفاعل في تطوير الكتابة ، وازدهارها ، وشيوعها في العراق ومختلف الأقاليم والممالك الإسلامية في المشرق ، اذ طفق أولئك الكتاب يعنون بألوان الثقافات المختلفة ، ويتزودون بضروب المعارف ؛ لبلوغ أعلى المراتب في تلك الدواوين الرسمية .

---

[7] تراجع أشارة أبي حيان التوحيدي المهمة في الامتاع والمؤانسة (الليلة السابعة) 1 / 96-104 ، حيث أشار الى أهمية كتاب الحساب ، وما ذكره أيضا عن انواع الدواوين التي راجت في ذلك القرن ، وينظر أيضا : العصر العباسي الثاني – ضيف : 550 .

[8] صبح الأعشى في صناعة الانشا: 6/1 .

[9] ممن اشتهر من هؤلاء الكتاب مثلا (ابن مقلة) ؛ فقد كان في أول أمره يكتب في ديوان وزير المقتدر ابي الحسن ابن الفرات ، ثم علا نجمه حتى تسنم الوزارة ، وأصبح يضرب به المثل في جودة الخط (يراجع ما قاله الصولي عن ابن مقلة في النجوم الزاهرة 268/3) ، ومنهم أيضا : (محمد بن جعفر بن ثوابة) ، وكان في أول أمره يكتب في ديوان عبيد الله بن سليمان بن وهب (ت 278 هـ) ، ثم ترأس ديوان الرسائل على عهد الخليفة المقتدر ، وظل حتى وفاته عام (312 هـ) ، ومنهم أيضا : (ابراهيم بن المدبر) صاحب الرسالة العذراء المشهورة ، الذي ترقت حاله حتى ولي مدينة البصرة . وغيرهم كثير (ينظر : العصر العباسي الثاني – د. ضيف : 550) .

ومن هذا المنطلق فقد انصرف لفيف من علماء العربية ، وكبار الأدباء – منذ القرن الثالث للهجرة – يصنفون الكتب [10] ، ويؤلفون الرسائل الخاصة التي عنيت بثقافة الكتاب ، وتوجيههم ، وإسداء ألوان المعارف المتنوعة إليهم وبخاصة ما يتصل بصناعة الكتابة وأدواتها ، والخط وصوره وأنواعه ، وما إلى ذلك مما يقود إلى تقويم ثقافة الكتاب ، والأخذ بأيديهم إلى أعلى المراتب في صنعة الكتابة .

---

[10] لقد استهدفت هذه المصنفات – الاتي ذكرها – جميع معارف العصر ، ولاسيما اللغة والشعر والاخبار وغيرها ، وجعلها في متناول طبقة الكتاب الذين بدأ شأنهم يعلو ، بما كان لهم من مكانة مهمة في تصريف امور الدولة ، بدءاً من القرن الثالث فالقرن الرابع من الهجرة . واهم هذه المصنفات : (1) أدب الكاتب – لابن قتيبة (ت 276 هـ) ، وكان غرض الكاتب ان يقدم الى طبقة الكتاب في عصره ، وأصحاب الدواوين ، ما يسد حاجتهم من عدد الثقافة اللغوية والأدبية ، (2) الرسالة العذراء – لإبراهيم بن المدبر الكاتب (ت 278 هـ) ، وهي في موازين البلاغة وأدوات الكتابة . (تراجع هذه الرسالة في كتاب جمهرة رسائل العرب – احمد زكي صفوت 199/3 وما بعدها ، (3) كتاب الألفاظ الكتابية – لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت 320 هـ) وكان هدف المؤلف خدمة الكتاب الناشئين وتزويدهم بما يحتاجون اليه في صناعتهم من مختارات جيدة (عبارات وتراكيب) بأغراض الكلام . طبع الكتاب عدة طبعات أفضلها طبعة بيروت 1885 بتحقيق لويس شيخو . (تراجع دراسة تحليلية لهذا الكتاب في : نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب للدكتور امجد الطرابلسي ص59) ، (4) كتاب أدب الكتاب : لأبي بكر الصولي (ت 335 هـ) أشار الصولي الى غايته من الكتاب فقال (ص21) : " وقد اختصرت كتابي هذا جهدي ، غير تارك ما يحتاج إليه فيه ، ولكن أخرجت المعاني في أقواتها من الألفاظ ... ليقرب على طالبيه ... " ، وقد طبع الكتاب في القاهرة عام 1341 هـ بتحقيق محمد بهجة الأثري ، (5) كتاب الكتاب لابن درستويه (ت 347 هـ) وهذا الكتاب مخصص لتوجيه الكتاب وتثقيفهم أيضا ، وقد اختتم المؤلف كتابه بعبارة توضح الغاية من تصنيف الكتاب ، وهي قوله : " وما يكثر استعمال الأدباء والكتاب له في ألفاظهم وكتبهم أوسع من ان يؤتى عليه في مثل هذا الكتاب ، وسنفرد لذلك كتأبا نستقصيه فيه ، ونميز فصيحه من عيبه ، ومختاره من رديئه " وقد طبع الكتاب في مؤسسة دار الكتب الثقافية بالكويت بتحقيق الأستاذين إبراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي : 1977/1397 .

وهكذا بدأت صناعة الكتابة في هذا القرن تسمو على كل صناعة ، وراح الكتاب – ولاسيما المبرزون منهم – يحظون بمنزلة رفيعة عند الخلفاء والأمراء وحكام الامارات والممالك المستقلة .

يقول القلقشندي مشيرا إلى فضل أبي إسحاق الصابي [11] :" وابلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابي ، صاحب الرسائل المشهورة ، كان على دين الصابئة ، مشددا في دينه ، وبلغت به الكتابة إلى ان تولى ديوان الرسائل عن الطائع والمطيع ومعز الدولة البويهي ، وعندما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة ، فلامه الناس لكونه شريفا يرثي صابئياً ، فقال : إنما رثيت فضله " .

وقد علل بعض الباحثين سمو منزلة الكتاب ، ورفعة منزلتهم في هذا القرن ، وتنافس أصحاب الملك في اجتذابهم فقال [12] :" على ان هؤلاء الكتاب لم يكونوا ليبلغوا هذه المنزلة الرفيعة في الدولة الا اذا كانوا أكفاء ، ذوي عقل وافر ، ورأي سديد ، وإطلاع واسع على ثقافة العصر ، ليتمكنوا من القيام بواجباتهم على الوجه الأكمل ، فيضعوا الأشياء في مكاتباتهم ومخاطباتهم في مواضعها ، ويأتوا بالكلام من وجهه ، ويخاطبوا كل واحد عن سلاطينهم بما يقتضيه الحال التي يكون عليها " .

ولقد أدرك الأدباء من كتاب الرسائل في هذا القرن سمو موقعهم ، وعلو مكانتهم عند الخلفاء والوزراء وغيرهم ، فراح بعضهم يفصح عن خطورة موقعه السياسي لدى أولئك الحكام ، ويفخر بفضله ، وسمو قدره ، فالصابي مثلا يعبر عن ذلك كله فيقول مفتخرا [13] [من الطويل]

وقد علم السلطان أني لسانه وكاتبه الكافي السديد الموفق
أوازره فيما عرى وأمده برأي يريه الشمس والليل اغسق

****

---

[11] صبح الأعشى في صناعة الانشا : 41/1 .
[12] الأدب في ظل بني بويه : 125 .
[13] يتيمة الدهر : 321/2-322 .

فيمناي يمناه ولفظي لفظـه وعيني له عين بها الدهر يرمق
ولي فقر تضحي الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينثني واجعلها سوط الحرون فيعنق

****

ومن هنا رأينا ان كبار الأدباء الكتاب كأبي عبد الله العميد ، وأبي القاسم الاسكافي ، وأبي الفضل الميكالي ، وغيره من أعيان أسرته ، يتبوّأون ارفع المناصب السياسية والإدارية عند الأمراء السامانيين في خراسان . وهذا الأمر نفسه – اعني سمو منزلة الكتاب ، وعلو كعبهم في الأدب والثقافة – هو الذي حدا بأمراء بني بويه في هذا القرن إلى ان يسندوا أرفع المناصب السياسية والإدارية إلى أبي الفضل ابن العميد وأبي محمد المهلبي ، وأبي القاسم الصاحب بن عباد وغيرهم ، وهذا الأمر نفسه هو الذي حفزهم لأسناد ارفع المناصب الإدارية وأخطرها – وهو ديوان الرسائل – إلى أبي إسحاق الصابي وعبد العزيز بن يوسف وغيرهما من الكتاب المبرزين . وما يقال عن السامانيين والبويهيين ، واهتمامهم بالكتابة وإنشاء الرسائل ، واحتفائهم باعلام الكتاب وبلغائهم ، يقال أيضا عن أمراء وحكام الولايات والممالك الإسلامية الأخرى كالزياريين والغزنويين وغيرهم .

ولعل شهرة ابي الفتح البستي [14] ، ومكانته عند السلطان محمود الغزنوي ، وتسنمه ارفع المناصب الإدارية ورئاسة ديوان الرسائل في غزنة ، لدليل واضح على سمو منزلة الكتاب ، وصناعة الكتابة في تلك الممالك الإسلامية في هذا القرن .

يقول القلقشندي مشيرا إلى فضل الأدب والكتابة بخاصة ، وأهميتها في الوصول إلى المناصب الرفيعة في الدولة ، والارتقاء بها من الضعة والخمول إلى الشرف والجاه [15] : " ولو اعتبرنا من شرف بالكتابة ، وارتفع قدره بها ، لفاتوا

---

[14] تراجع ترجمته وأخباره ونبذ من فصول رسائله وغرر شعره وتجنيساته البديعة في يتيمة الدهر للثعالبي : 4/345-382 .

[15] صبح الأعشى في صناعة الانشا: 1/37-41 .

الحصر ، وخرجوا عن الحد ، وهذا الوزير المهلبي ، كان أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة حتى قال :

الا موت يباع فاشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه

... الخ الأبيات

ثم ترقى بالكتابة حتى وزر لمعز الدولة بن بويه الديلمي في جلالة قدره " .ولم يقف الأمر في أهمية صناعة الكتابة ، وسمو منزلة أعلامها المبرزين عند مشاركتهم في أمور السياسة والحرب ، او في إدارة شؤون الدواوين الرسمية فحسب ، وإنما بدأت الكتابة الفنية – بوصفها ضربا فنيا راقيا من ضروب الأدب – تعنى بتصوير الحياة العامة لشرائح المجتمع الإسلامي(*) ، فطفقت في هذا القرن تنزل إلى مستوى الحياة العامة ، والطبقات الشعبية ، فضلا عن تصويرها لحياة الطبقة الخاصة ، وبيئاتهم المترفة الراقية .

ومن هذا المنطلق فقد راح أدب الرسائل في هذا القرن يصور بصدق أساليب العيش لشرائح الطبقة العامة ، او الدنيا في المجتمع الإسلامي ، وراح أيضا يجسّد معاناتهم وعوزهم ، وما تعرضوا له من هموم ومحن وأمراض او ما وقع لهم من نكبات وإخفاق ومصادرات ، كما سنلحظ ذلك بوضوح في كثير من رسائل الخوارزمي وبديع الزمان وغيرهما من كتاب هذا القرن .

يقول الأستاذ متز ، وهو يرصد دور الأدب – وبخاصة النثر الفني – في الكشف عن جوانب الحياة العامة ، وتشعباتها المختلفة [16] ؛ ودور الطبقة العامة في هذا الرصد : " وعاد الأدب ، مرة أخرى ، إلى كشف ما يحيط بالإنسان ، في

(*) بدأ يظهر في الأدب إبّان هذا القرن عناية واضحة بالعامة وبحياتهم ، مما جعل بعض علماء اللغة يهتمون بدراسة لغة العامة ، وما قد يعرض فيها من لحن . وقد أشار الضبي في (بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس : ص56) – ط مدريد 1884 – الى ان أبا بكر الزبيدي (ت 330 هـ) قد الف كتأبا في لحن العامة . وذكر الأستاذ متز (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 438/1) ان ابن خالويه(المتوفى عام 370 هـ) قد ألف كتأبا بعنوان (ليس في كلام العرب) .

[16] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 44/1 .

حاضره وأصبح يلذ له البحث فيما حوله من حياة متشعبة النواحي ، وان لم تكن حياة بطولة وروح سامية ، وبدأ العامة – وخصوصا عامة المدن غير المتعلمين – يدخلون في الأدب العربي ، وهم لم يقتصروا على تعلم العقائد ... بل ان الكلام المرسل أيضا أصبح عندهم يستعمل في التعبير عن كل ماجدَّ في الحياة من نواح متنوعة " .

وهكذا بدأ أدب الرسائل في هذا القرن يخوض معترك الحياة العامة ، بكل ألوانها وصنوفها ؛ في بؤسها وقنوطها والآمها ، وفي مرحها وهزلها وسرورها ومن هنا بدأ أدب الرسائل يطرق موضوعات لم يكن ليخوض في غمارها كتاب الرسائل في العصور السابقة ، وبدأ كتاب الرسائل يعالجون أغراضاً ربما كانت بمنأى عن متناول أقلام الأدباء والكتاب ، او بتعبير أدق ، لم تكن لتصلح ان تكون موضوعا سائغا للأدب الراقي ، وهذا ما سوف نلمحه ونشخصه بوضوح في رسائل الفكاهة والسخرية والتندر التي شاعت في هذا القرن .

ومن جانب آخر فقد طفقت هذه الرسائل – ولاسيما الاخوانية منها – تصور علاقات الأدباء مع بعضهم ، وعلاقة الأديب بمجتمعه ، ومن هنا فقد انصبت جل تلك الرسائل الاخوانية في هذا القرن على تصوير معاني الاعتذار والشكر والعتاب والاستعطاف والتهنئة والتعزية ، وغير ذلك من هذه المعاني التي جسدت في أكثر نماذجها الصادقة الوشائج الإنسانية بكل ألوانها ، ووثقت طبيعة العلاقات الاجتماعية بين مختلف شرائح وطبقات المجتمع الإسلامي ، كما تجلى ذلك بوضوح في رسائل مشاهير المترسلين كالصابي والخوارزمي وبديع الزمان والتوحيدي وغيرهم من قمم الكتاب في القرن الرابع .

وهكذا استطاع جهابذة كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ان يبثوا في النثر الفني طاقات جديدة ، تمثلت في طرافة التفكير ودقته ، ورقة التعبير وروعته فضلا عن براعتهم الفائقة في الوصف ، وقدرتهم العالية على تحليل أدق المعاني والأفكار ، وتصوير المشاعر الإنسانية وتجسيدها بكل رشاقة وعمق وإبداع .

ومن هنا يمكن القول : انه على الرغم مما شاع عن كتاب هذا القرن من عنايتهم الفائقة – منذ مطلع هذا القرن – بالوشي ، وزخارف الألفاظ ، وحلي البديع اللفظي والمعنوي ، وعنايتهم الواضحة بجرس الألفاظ ، حتى غدا ذلك كله يعد

نموذجا او مثالا لذوق أهل هذا العصر في الكتابة الأدبية والديوانية على حد سواء ، الا ان أولئك الكتاب البلغاء ، مع ذلك كله ، استطاعوا – لسعة ثقافتهم ، وقوة ملكتهم ، وندرة مواهبهم – ان يبثوا في النثر الفني – ولاسيما الرسائل الأدبية الخالصة والاخوانية – قيما فنية جديدة ، ويفتقوا معاني مبتكرة ، ويخلقوا صورا نادرة ، تميزت بالعمق والقوة والوضوح .

ومن رحب هذه الحقيقة ، فقد راح بعض النقاد المعاصرين يرصد الدور الرائد الذي وقفه اعلام الكتاب المتميزين في أحداث هذا القرن وملابساته المتشابكة ، ويحلل ما وثقته نصوص تلك المكاتبات من ألوان الصراع العقلي ، والتناحر الحزبي او السياسي في هذا القرن المضطرب .

يقول الأستاذ زكي مبارك مثلا [17] :"ان الكتاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الفني في القرن الرابع قد اهتموا اهتماما عظيما بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التي شملت ذلك العصر ، فمن الخطأ ان يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير ، ولم يشتركوا في ألازمات العقلية والمجادلات الحزبية والدينية في الحدود التي سمحت بها قوتهم الأدبية ... " .

وهكذا كان هذا التنافس ، وما تمخض عنه من الصراع الذي هو مصدر العبقرية والإلهام ، بين الأمراء والحكام ووزرائهم من جهة ، وبين الأدباء والكتاب من جهة أخرى ، سببا مهما ، وباعثا قويا فيما أصاب الأدب – ولاسيما الرسائل الأدبية والديوانية – من تطور ورقي وازدهار ، وظهور أعظم أعلام الإنشاء الفني وابلغ رواده في القرن الرابع .

ثانيا : أسباب ازدهار الرسائل الأدبية في القرن الرابع :

لقد تضافرت عوامل عديدة ، ومتشابكة في هذا القرن ، عملت مجتمعة على ازدهار الحياة الأدبية ، وإيقاد جذوة الثقافة ، وقد كان لهذه العوامل أثرها الكبير أيضا في ازدهار النثر الفني – ولاسيما المكاتبات الأدبية والديوانية – وخاصة بعدما اتيح لهذه الشريحة الكبيرة من الأدباء الكتاب ان ينهلوا من فيض الثقافات الغزيرة

---

[17] **النثر الفني في القرن الرابع 154/1 .**

والمتنوعة التي تهيأت لهم في هذا القرن . فضلا عن الدور الخطير الذي بدأ يضطلع به أولئك الأدباء الكتاب في تسيير أمور الدولة السياسية والإدارية وغيرها ؛ نظرا للحاجة الماسة لصناعة الكتابة ، بوصفها الأداة الأولى والوسيلة المباشرة في تنظيم أمور الملك ، وتلبية متطلبات السياسة .

ولعل في طليعة تلك العوامل المهمة التي عملت على شيوع الرسائل الأدبية وازدهارها في هذا القرن ما يأتي :

(1) التنافس الحاد بين الأمراء وحكام الممالك المستقلة في اجتذاب الكتاب :

لقد سبقت الإشارة في مدخل هذا البحث إلى ان بغداد – حاضرة الخلافة الإسلامية – لم تعد في هذا القرن وحدها ، معقد آمال العلماء والأدباء ، ومحط تطلعهم إلى بلوغ مطامحهم ، وبناء أمجادهم الأدبية فحسب ، وإنما ظهرت – بعد تجزؤ الدولة الإسلامية – امارات وممالك مستقلة ، ضمت حواضر أدبية وعلمية عديدة ، أصبحت تتنافس مع بعضها تنافسا عظيما في اجتذاب العلماء والأدباء ؛ لبناء قاعدة ملكهم ، ولتزدان بهم حواضرهم ، بعدما شعروا بحاجتهم الماسة لأولئك العلماء والكتاب وغيرهم .

وعلى هذا فقد أضحت تلك الحواضر الجديدة منتجعا خصبا لتلك المواهب العلمية والأدبية ، ومعينا عذبا ينهل من فيضه أولئك العلماء والأدباء الوافدون وفي طليعتهم الكتاب والمترسلون ، وكثيرا ما كان لذلك الترحال ، او تنقل الأدباء الكتاب بين حواضر تلك الممالك النائية آثارهُ الايجابية الواضحة في الثقافة ورقي الحياة الأدبية وازدهارها ، وصقل مواهب الأدباء ، وبناء شخصياتهم الأدبية ، ونضج تجاربهم ، وشحذ مواهبهم [18] .

---

[18] لعل أوضح دليل على ذلك ، ما صرح به أبو بكر الخوارزمي من اثر تلك الطوائف الشامية ، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظه ، وامتزجت باجزاء نفسه ، في شحذ فهمه ، وصقل ذهنه ، وإرهاف حد لسانه . ينظر : يتيمة الدهر : 1/35–36 .

ولعل من الشواهد الكثيرة والدقيقة على ذلك ، ما رواه الثعالبي عن أستاذه الخوارزمي ، في ترجمته لابي سعيد الشبيبي – احد أدباء خوارزم في هذا القرن – من انه كان " في أيام شبابه بخوارزم يقول شعرا غليظا جاسياً كأشعار المؤدبين فلما عاشر الناس ، ولقي الأفاضل لطف طبعه ، ورق شعره "[19] .

ومن جانب آخر ، فقد كان لانتجاع هؤلاء الأدباء والعلماء الطارئين تلك الحواضر الجديدة – ولاسيما الحواضر النائية في المشرق الإسلامي – وإقامتهم فيها ، وما نتج عن ذلك من اختلاطهم وتمازجهم مع أهالي تلك الحواضر ، كان له أثاره المهمة والخطيرة في ازدهار الحركة الأدبية والعلمية ، ورقيها في تلك البقاع النائية ، وصقل مواهب شعوبها ، ورقة السنتهم ، وصفاء أذهانهم ، ودقة أفكارهم.

ذكر ابو بكر الخوارزمي في رسالته إلى ابي محمد العلوي [20] ، يصف فيها اهل (اصفهان) ويعلل علوَّ كعبهم في الفضل والأدب ، وتفتق مواهبهم فقال[21] :

" ولم لا تخرج اهل تلك البلدة في قالب الكمال ، ولا يستوفون شرائط الرجال ... وهم يرون كل يوم واردا ، ويشهدون وافدا ، ويسمعون نغمه ويطالعون نعمه ؛ لان فيهم مثابة الجود ، وقرارة الوفود ، وكعبة الآمال ، ومحط رحال الرجال ، وهم يلتقون على باب الوزير مع كل كاتب وحاسب ، ويجلسون في سدته مع كل ناثر وشاعر ، ولا يعدمهم ان ينظروا إلى ذي صناعة معاشية أو معادية ، وإلى ذي آلة رياضية او عقلية ؛ فترق ألسنتهم ، وتصفو أذهانهم وتتنزه أبصارهم ، وتدق أفكارهم ؛ لاقتباسهم علم كل مكان ، واستماعهم تبيان كل لسان ، ولترددهم بين اللغات المختلفة ... " .

وهكذا طفقت هذه الحواضر الفتيّة النائية تتنافس مع بعضها في اجتذاب العلماء والأدباء [22] ، وبدأ حكام تلك الامارات والممالك المستقلة يتنافسون مع

---

[19] يتيمة الدهر 277/4 .

[20] تراجع هذه الرسالة الأدبية في : مجموع رسائل ابي بكر الخوارزمي : ص128–131

[21] رسائل ابي بكر الخوارزمي :130 .

بعضهم ، وينافسون حاضرة الخلافة وغيرها في اجتذاب أهل الفضل والعلم ولاسيما جهابذة الكتاب ، وأساطين الأدب ؛ لتزدان بهم مجالسهم العامرة ومنتدياتهم الساحرة ؛ إعلاء لمجدهم السياسي ، والتنويه بذكرهم ، فضلا عن الإفادة منهم في بناء قاعدة ملكهم [23] ، فهم – كما يقول القلقشندي : " عيونهم المبصرة ، وآذانهم الواعية ، والسنتهم الناطقة ... " [24] ، وهم الذين يصلح بهم تشييد ملكهم ، وإقامة طموحهم السياسي ، ومقارعة خصومهم ومنافسيهم في الامارات والممالك المستقلة الأخرى .

يقول الأستاذ زكي مبارك [25] : " فلم يكن بد من ان يتنافس أصحاب الملك في تقريبهم ، ولم يكن بد كذلك من ان يتنافس هؤلاء في الاستئثار بالحظوة عند الوزراء والرؤساء والملوك " .

ولعل هذا ما يفسر لنا تنازع أولئك الأمراء وحكام الممالك المستقلة – بلا استثناء – في هذا القرن ، وتهالكهم [26] ، في اجتذاب اكبر قدر من العلماء والأدباء

---

[22] يراجع ما ذكره أبو منصور الثعالبي عن (أبي سعيد الشبيبي) الذي اختص أولاً بخدمة الدولة السامانية ، ثم انتقل الى رحاب الدولة البويهية ، فلقب بصاحب الجيشين ، وشيخ الدولتين ، وكان جامعا بين أدب القلم والسيف .
(تراجع ترجمته في : يتيمة الدهر 4/277–278) .

[23] ذكر الأستاذ الزهيري سببا وجيها لتنافس أولئك الحكام في اجتذابهم لكتاب الرسائل ؛ فأرجعه الى كونهم : " أداة مهمة يستعينون بها لتهدئة الخواطر المضطربة ، والنفوس القلقة ، ويستخدمونها في إقامة الهيبة ، وبث الدعوة ، وتثبيت السلطان ... " . (الأدب في ظل بني بويه ص122) .

[24] صبح الأعشى في صناعة الانشا : 1/43 .

[25] مقدمة كتاب (زهر الآداب وثمر الألباب " تحقيق الأستاذ زكي مبارك : 1/29 .

[26] تراجع تفاصيل ما ذكره (السمرقندي) في الحكاية الأولى / المقالة الأولى ، عن جهود الأمير الساماني (نوح بن منصور) – كما ذكر المؤلف في النص الذي أورده، والصواب هو (نوح بن نصر بن احمد بن إسماعيل الساماني) – في اجتذاب الكاتب الشهير أبي القاسم الاسكافي ، وضمه الى خدمته ، وإلحاقه بديوان رسائله .. " ينظر كتاب : جهار مقالة – الحكاية الأولى ص23–24 " .

– لاسيما من المترسلين واعلام الكتاب – وضمهم إلى خدمتهم ، وتصريف شؤون دواوين ممالكهم المتنامية .

ذكر الأستاذ (ادوارد براون) مشيرا إلى كثرة رعاة العلوم والآداب من الأمراء والرؤساء في هذا القرن ، ثم ذكر بعد ذلك ، ابرز تلك الحواضر النائية في تلك الممالك الإسلامية المستقلة ، فقال [27] :

" وقد امتاز هذا الزمان بتقدير الأمراء لرجال الأدب ، والسعي إلى إرضائهم وخطب ودهم ؛ فقد كان كل أمير يريد ان يتفوق على أقرانه وخصومه في كثرة من يحوطه من رجال العلوم والفنون " .

وهكذا لم يقتصر تشجيع العلوم والآداب ، ورعاية أهلها في هذا القرن على أمير او حاكم بعينه ، او امارة دون سواها ، وإنما شمل ذلك جميع الامارات والممالك الإسلامية المستقلة .

فالسامانيون ، الذين اشتهروا بعكوفهم على أحياء آدابهم القومية ، وبعث اللغة والحضارة الفارسية القديمة [28] ، في خراسان ، قد عرفوا – كما أشار بعض المصنفين القدماء [29] ، بحسن سيرتهم ، وحبهم للعلوم والآداب ، وتشجيعهم لأهلها . وقد عد أبو منصور الثعالبي حاضرتهم (بخارى) : " مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر "[30] .

---

[27] تاريخ الأدب في إيران : 105/2 .

[28] المرجع السابق : 106/2–107 .

[29] ينظر أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : 1 / 338 . 339 ؛ ويراجع أيضاً الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 1 /48 ، حيث وصفهم بحسن السيرة في الحكم ، وأنهم أشبه بآباء لرعيتهم .

[30] يتيمة الدهر 115/4 / القسم الرابع – الباب الثاني : أدباء بخارى من المقيمين والطارئين عليها . وقد أشار الثعالبي الى طائفة كبيرة من الأدباء والكتاب ممن تولى ديوان الرسائل ، ومارس صناعة الترسل ، وهذا دليل على تشجيع الأمراء السامانيين للأدب وتكريمهم لأهله .

ولا أدل على تنافس ال سامان لأمراء الممالك المستقلة في اجتذاب أهل الفضل من العلماء والأدباء ؛ من الخبر المستفيض عن محاولة الأمير نوح بن منصور الساماني اجتذاب الوزير الصاحب ، واستدراجه إلى امارته ليوليه وزارته واعتذار الصاحب عن ذلك [31] .

وهناك أخبار وشواهد تاريخية أخرى [32] ، تؤكد حرص الأمراء السامانيين على اجتذاب كبار الأدباء والكتاب إلى حاضرتهم ، وتشجيعهم للعلوم والآداب وإكرامهم لاهلهما ، اضرب صفحا عن ذكرها ؛ توخيا للإيجاز .

* * *

اما الزياريون ، في جرجان وطبرستان – ولاسيما في عهد الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، الذي تولى الامارة عام 366 هـ بعد وفاة اخيه بهستون [33] – فقد كانت امارتهم في هذا القرن تزدهر فيها ثقافة أدبية رفيعة تدل عليها تلك النبذ الكثيرة التي وردت في اسبق تواريخها الذي ألفه (ابن اسفنديار) في حوالي منتصف القرن السابع الهجري [34] .

لقد اشتهر الأمير الأديب شمس المعالي بإكرامه للعلماء والأدباء ، وتشجيعه لهم [35] ، وقد نقل عنه المؤرخ ابو نصر العتبي – الذي كانت له مع قابوس

---

[31] يراجع : معجم الأدباء 315/2 ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 326/1 .

[32] يراجع خبر استدعاء صاحب خراسان (لأبي زيد البلخي) للكتابة في ديوانه : معالم الحضارة الإسلامية – الأستاذ مصطفى الشكعة ص160 ، ويراجع أيضا تفاصيل صلة (ابن دريد) بالأمير عبد الله بن ميكال وابنه إسماعيل ، وتقلده ديوان الرسائل في فارس : كنور الأجداد :24 وينظر مصنفاته في : تتمة صوان الحكمة : 26 .

[33] ينظر تاريخ أبي الفداء : المختصر في أخبار البشر (أحداث عام 366 هـ) 460/1 .

[34] تاريخ الأدب في إيران – ادوارد براون 108/2 .

[35] يراجع عن صلة الفيلسوف (ابن سينا " ت 429 هـ ") بالأمير قابوس ، ولجوئه الى جرجان بعد فراره من قبضة السلطان محمود الغزنوي وينظر تتمة صوان الحكمة : 45 ، وينظر أيضا إكرام قابوس للبيروني ، وإكرامه أيضا للشعراء الفرس ومديحهم له ، واشهرهم : الخسروي ، وقمري الجرجاني ، براون : 112/2–113 .

مراسلات ومكاتبات خاصة – في مصنفه الشهير [36] ما يدلل على فضله وسمو علمه .

ولعل أدق شاهد يفصح بجلاء عن إكرامه للأدباء ، وتنافسه مع أمراء الممالك المستقلة الأخرى في اجتذابهم إلى حاضرته ؛ ما ذكره الثعالبي في ترجمته لأبي عبد الله محمد بن حامد – احد أدباء خوارزم ، وكان من خواص ابن عباد – وكان قد ورد رسولا على قابوس بن وشمكير . يقول الثعالبي – رواية عن أبي سعيد محمد بن منصور [37] :

" أعجب به شمس المعالي أعجاباً شديداً ، وأفضل عليه إفضالاً كثيرا ورغب في جذبه إلى حضرته واستخلاصه لنفسه ، فامرني بمجاراته في ذلك ورسم لي ان ابلغ كل مبلغ في حسن الضمان له ، واركب الصعب والذلول في تحريصه وتحريضه على الانتقال إلى جنبته ، فامتثلت الأمر ، وجهدت جهدي وأظهرت جدي في إرادته عليه ، وإدارته بكل حيلة ، وتمنية جميلة ، فلم يجب ولم يوجب ، وقال : معاذ الله من لبس ثوب الغدر ، والانحراف عن طريق حسن العهد ، وانصرف راشدا إلى أوطانه ، وحضرة سلطانه . " .

والامارة البويهية هي الأخرى كانت من المراكز العلمية والأدبية المهمة في هذا القرن ، اذ شهدت حواضرها العديدة ، كشيراز والري وأصفهان وغيرها على مدى أكثر من قرن من الزمان ، ازدهار الثقافة ، ورقي الحركة العلمية والأدبية .

---

[36] ينظر : تاريخ العتبي : 17/2 وما بعدها (ط القاهرة 1286 هـ) ، حيث اثبت رسالة قابوس الأدبية المهمة ، وهي تتعلق فيما امتاز به كل واحد من الصحابة الكرام .

[37] يتيمة الدهر 286/4 . وقد ذكر الثعالبي ان أبا عبد الله كان في عنفوان شبابه يكتب لأبي سعيد الشبيبي ، ثم انتقل الى خدمة الصاحب واختص به ، وقد وصفه الثعالبي بأنه =كان يجمع بين قول فصل وأدب جزل ، وذكر ان له خطا يستوفي أقسام الحسن ، ونثرا كنثر الورد ، ونظما كنظم الدر . (تراجع ترجمته في اليتيمة 284/4 وما بعدها) .

وقد عد المستشرق الإنكليزي (ادوارد براون) المدن المختلفة في جنوب وجنوب غرب إيران التي كانت تحت أيدي الويهيين ، عدها من مراكز العلم المهمة أبان هذا القرن [38] .

لقد عمل أكثر الأمراء البويهيين – وفي مقدمتهم عضد الدولة البويهي (367–372 هـ)على تشجيع العلوم والآداب [39] ، وكانوا يتنافسون بشدة مع الأمراء وحكام الممالك المستقلة المجاورة في جذب العلماء والأدباء ، وقد بالغوا في إكرامهم والإغداق عليهم حتى غدت حواضرهم العديدة منتجعا لأهل الفضل من العلماء والأدباء في هذا القرن [40] .

ولقد سرى هذا التنافس في تشجيع العلوم والفنون ، إلى أكثر وزرائهم ، اذ عملوا بدأب متواصل على استقطاب مشاهير الأدباء والعلماء ، وجذبهم إلى قصورهم ، فأصبحوا معالم مهمة ، ووسائل دعاية سياسية لأمرائهم بعد ان غمروهم بالوفر الجزيل .

لقد كانت مجالس ابي الفضل ابن العميد ، وأبي محمد المهلبي ، وابن عباد وابن سعدان ، وغيرهم من مشاهير وزراء ال بويه ، منتديات أدبية رائعة أسهمت كثيرا في رفد الحركة الثقافية ، والحياة العلمية والأدبية في هذا القرن .

وهكذا غدت شيراز والري وأصفهان ، فضلا عن بغداد ، حاضرة الخلافة التي أصبحت في قبضتهم منذ عام 334 هـ ، غدت مراكز إشعاع علمي وأدبي وملتقى لكثير من العلماء والأدباء ، وأهل الفضل من قادة الفكر والثقافة في القرن الرابع .

وهكذا شهد العهد البويهي في العراق والمشرق الإسلامي ، ازدهار النثر الفني ، ولاسيما الرسائل الأدبية ، ونمو الشعر الفارسي – إلى جانب الشعر العربي – وظهور شعراء فرس متميزين ، مدحوا الأمراء والوزراء بالشعر الفارسي ، ولعل

---

[38] ينظر : تاريخ الأدب في إيران 115/2 .

[39] يراجع كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم 449/2–450 ، حيث أشار المقدسي الى عناية الأمير عضد الدولة البويهي (ت 372 هـ) بالكتب وجمعها ، وتبحره بالعلوم .

[40] تراجع التفاصيل في كتاب : الأدب في ظل بني بويه :132 وما بعدها .

اشهرهم المنطقي والخسروي ، وقمري الجرجاني وغيرهم من أدباء الفرس المشهورين [41] .

ومن موائل العلوم والآداب في المشرق الإسلامي أبان هذا القرن ؛ قصور ملوك خوارزم في مدينة (خيوة) ، وهم المعرفون باسم (مأمون) [42] .

وقد اشتهر أبو العباس مأمون بن مأمون ، أمير خوارزم ، بحفاوته الغامرة للعلماء والأدباء ، وإكرامهم ، وكانت حاضرته ملتقى لكثير من أولئك الأدباء والمفكرين الأفذاذ ، أمثال ابن سينا (ت 429 هـ) ، والبيروني (ت 440 هـ) والثعالبي (ت 429 هـ) ، وغيرهم من أساطين العلم والأدب والفلسفة .

ولعل ادق ما يدلل على انتجاع أولئك الأدباء والعلماء في حاضرة خوارزم رسالة السلطان محمود الغزنوي إلى الأمير مأمون بن مأمون – قبل استيلائه على املاك امارة خوارزم عام 408 هـ / 1017 م – يطالبه فيها بإرسال العلماء المقيمين في بلاطه إلى غزنة [43] . فضلا عن قيام بعض أولئك الأدباء والمفكرين بإهداء بعض مصنفاتهم إلى أمراء خوارزم المشهورين [44] .

ومما يؤكد قيام الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون ، وغيره من أمراء خوارزم ، باستدعاء الأدباء والعلماء ، إلى امارته ، ومنافسته لأمراء الممالك المستقلة في ذلك ، ما أشار إليه الثعالبي من استدعاء الأمير أبي العباس مأمون له من جرجان إلى حضرته [45] .

---

[41] تاريخ الأدب في إيران : 109/2 .

[42] ينظر : تتمة صوان الحكمة : 45 ، براون 115/2 .

[43] تراجع هذه الرسالة في المرجع السابق 112/2–113 .

[44] يراجع : تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان 185/4 وما بعدها ، وقد أشار المؤلف الى ان الثعالبي قام بإهداء مجموعة من مصنفاته الى الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون ومنها : كتاب الكناية والتعريض ، ويسمى الكفاية في الكناية ، وكتاب نثر النظم وحل العقد ، ألفه بأمر خوارزم شاه ، وكتاب اللطائف والظرائف ، وغيرها .

[45] تتمة يتيمة الدهر 166/5 .

ولم تكن الامارة الغزنوية في أواخر هذا القرن – ولاسيما في عهد السلطان محمود الغزنوي (388 هـ – 421 م) بأقل من سواها من الامارات المستقلة الأخرى في رعاية الآداب والعلوم ، وتشجيعها ، والتنافس مع خصومها من البويهيين والسامانيين والزياريين وغيرهم ، في جذب العلماء والأدباء إلى غزنة وغيرها .

يقول المستشرق براون مؤكدا هذه الحقيقة [46] : " وبعد فترة وجيزة من الزمن ضم السلطان محمود الغزنوي إلى بلاطه أكثر رجال الأدب والعلم الذين كانوا يحوطون خصومه من الأمراء السابقين " .

ولعل رسالة السلطان محمود الغزنوي إلى أمير خوارزم التي طلب فيها إرسال من بحضرته من رجال العلم ، خير شاهد على ما ذهبنا إليه . ومما ورد فيها [47] :

" لقد سمعت ان جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم ، مثل فلان وفلان ، وكل واحد منهم قد أصبح نسيج وحده ، وبرز في علمه ، ومن الواجب عليك ان ترسلهم جميعا إلى قصري حتى يتشرفوا بلقائي ، فنحن نرجو ان ننتفع بعلمهم وفنهم ، ونرجو ان يحقق لنا أمير خوارزم هذه الرغبة التي أبديناها "

ومما يدلل على خصب الحياة الثقافية والأدبية في الامارة الغزنوية في أواخر هذا القرن ؛ كثرة الأدباء والشعراء – ولاسيما الفرس – الذين ازدحمت بهم غزنة .

ولعل في طليعة أولئك الشعراء الأعاجم الذين ازدهرت على أيديهم الآداب الفارسية ؛ (الفردوسي) ، صاحب ملحمة " الشاهنامة " الخالدة التي ضمنها مجمل الأساطير المتعلقة بوطنه [48] . وإلى جانب هذا الرعيل الكبير من الشعراء الأعاجم

---

[46] تاريخ الأدب في إيران 2/117–118 ، وقد تحفظ الأستاذ ادوارد براون في موضع آخر من كتابه (2/111) ، إذ أشار إلى ان السلطان محمودا لم يكن نصيرا للآداب والفنون ، ولكنه " اقرب إلى ان يوصف بأنه من كبار (الخاطفين) لرجال الآداب والفنون ، وكثيرا ما كان يعاملهم في النهاية معاملة تنطوي على كثير من الازدراء والامتهان " .

[47] تاريخ الأدب في إيران : 2/111–112 .

[48] المرجع السابق : 2/133–134 ، ثم تابع براون ذكر الشعراء الفرس الذين ازدهت بهم حاضرة غزنة ، واشهرهم (عنصري) شاعر السلطان محمود الغزنوي ، و (اسدي) و (عسجدي) و (فرخي) ، و (منوجهري) وغيرهم كثير .

فقد ضمت دواوين الامارة الغزنوية مجموعة كبيرة من الأدباء الكتاب ، والمترسلين البلغاء [49] ، الذين عكفوا على خدمة السلطنة الغزنوية وتسيير أمورها فضلا عن الأدباء والكتاب الوافدين – وفي مقدمتهم بديع الزمان والثعالبي وغيرهما – الذين ازدهرت بأدبهم ورسائلهم آفاق الحياة الأدبية والثقافية في تلك الامارة النائية أبان هذه القرن .

وفضلا عن ذلك كله فان أكثر أولئك الأمراء وحكام الممالك الإسلامية المستقلة كانوا هم أنفسهم ، ممن برع بالأدب وقرض الشعر [50] ، وكان كثير منهم أيضا على حظ عظيم من البلاغة ، وتدبيج الكلام ، فضلا عن شغف بعضهم بعلوم الفلسفة والنجوم وغير ذلك . ومن هنا ، كان لابد ان يدفعه شغفه بالأدب والعلم إلى تشجيع اهل تلك الصناعة ، وروادها ، والمبرزين فيها .

---

[49] يراجع الفصل الذي عقده الثعالبي لأدباء الحضرة الغزنوية ، حيث ذكر مشاهير أولئك الأدباء ، ولعل أبرزهم : أبو الفتح البستي (يتيمة الدهر: 345/4 وما بعدها) ، وأبو العلاء صفي الحضرتين (تتمة اليتيمة : 126/5–127) ، وأبو القاسم إبراهيم الطائي (5/ 151) وأبو القاسم عبد الواحد بن محمد الاصفهاني: 5/ 132 .وأبو الفتح محمد ابن احمد الدباوندي (154/5–153) ، وأبو العباس محمد بن إبراهيم الباخرزي (218/5–219) ، وغيرهم .

[50] تراجع الفصول التي ذكرها الثعالبي في (يتيمة الدهر) عن بلاغة أولئك الأمراء وبراعتهم في قرض الشعر . ينظر ما ساقه مثلا عن ملح أشعار (سيف الدولة الحمداني) 37/1 وما بعدها ، وينظر أيضا الفصل الذي عقده لملوك (ال بويه) الذين قرضوا الشعر ، ورويت أشعارهم ، (اليتيمة : 257/2 وما بعدها) ، ويراجع أيضا الباب الثامن من القسم الرابع في محاسن اهل خراسان ، وما ساقه من ملح أشعار وفصول رسائل ابي الفضل الميكالي : 533/4 وما بعدها ، ويراجع أيضا ما ذكره الثعالبي في مقدمة (معجم فقه اللغة وسر العربية) عن الأمير أبي الفضل الميكالي ، وما سجله عن غزارة علمه ، ومليح أدبه ، وتشجيعه للعلم والأدب ، وإغداقه على روادهما والمبرزين منهم فيهما وغير هؤلاء من الأمراء والحكام كثير في هذا القرن ، فضلا عن وزرائهم وولاتهم المشهورين الذين سنعرض لدراسة بعضهم في المبحث الثاني من هذا الفصل .

ذكر الأستاذ براون ، نقلا عن (ابن اسفنديار) في تاريخ طبرستان يقول[51] :

" ان قابوساً كان مبرزا في علوم البلاغة العربية ... متفوقا بالفلسفة والنجوم ، وقد كتب بالعربية رسالة عن (الاسطرلاب) أعجب بها كثيرا ابو إسحاق الصابي " .

كما اثبت أبو نصر العتبي ، بإعجاب شديد ، للأمير قابوس – وكانت له معه مراسلات متبادلة – رسالة عربية قصيرة ، من تاليفه ، في بيان ما امتاز به كل واحد من الصحابة [52] .

وأشار الأستاذ براون [53] إلى ان السلطان محموداً الغزنوي كان شاعرا وذكر ان (عوفي) في كتابه (لباب الألباب) قد ذكره تاليا للأمير (إسماعيل بن نوح) آخر السامانيين ، وجعله ثاني من وردت أسماؤهم بين الملوك والأمراء الذين اثر عنهم قول الشعر أحياناً .

وهكذا أصبحت حواضر الري وشيراز وأصفهان وبخارى ونيسابور وجرجان ، وسواها من حواضر أقاليم المشرق الإسلامي ، فضلا عن بغداد حاضرة الخلافة الإسلامية ، وحلب والموصل حاضرتي الحمدانيين ، وحاضرة الأمويين في الأندلس ، وغيرها ، أصبحت كل تلك الحواضر الإسلامية الكثيرة قبلة آمال أولئك الأدباء والعلماء والفلاسفة وغيرهم في القرن الرابع للهجرة .

وانطلاقا من هذا كله ، فقد تهيأت امام الأدباء – ولاسيما كتاب الرسائل – في هذا القرن ، كل السبل التي تحفزهم للارتقاء بقدراتهم الفنية ، وصقل ملكتهم الأدبية ، وشحذ طاقاتهم الإبداعية في صناعتهم التي أصبحت مطلب جميع الأمراء ، وحكام الممالك المستقلة ، وغيرهم ؛ بلوغا لأسمى المراتب في الدولة ، فضلا عن نيل وسام الشهرة والخلود .

---

[51] تاريخ الأدب في إيران : 119/2 .

[52] ينظر تاريخ العتبي : 17/2 وما بعدها .

[53] تاريخ الأدب في إيران :135/2-136 .

وهكذا كانت منتديات أولئك الأمراء والحكام ، ومجالسهم العلمية والأدبية في هذا القرن ، من جانب آخر ، موردا سائغا للأدباء والكتاب الناشئين ، او الذين هم في ريعان العمر والحداثة ، فكان تمازجهم واختلاطهم في تلك المجالس بتلك القمم الشامخة من الأدباء والعلماء ، باعثا مهما لرقي ملكتهم الأدبية ، ورفدهم بنسغ الثقافة الوارف العميم .

وفضلا عما تقدم ، فكثيرا ما كان أولئك الأمراء او الوزراء الأدباء – ممن كان يعرف للأدب (منظومهُ ومنثوره) قدره وقيمته – مصدر الهام وإبداع وتألق لأولئك الأدباء الذين يحلون في كنفهم ، ويقيمون في حماهم ، وكثيرا ما كان يتراجع طبع بعضهم ، او تخف مؤونة عطائه الإبداعي حين ينأى عن حضرة ذلك الأمير الذي اختص به ، او كان محط إعجابه ، ومصدر رفده ، ومبعث رغده ، وهناء عيشه ، كالذي ذكره الثعالبي [54] ، مثلا ، عن تراجع طبع الشاعر أبي الطيب المتنبي بعد رحيله عن بلاط سيف الدولة في حلب ، ورقة حال أبي الحسن السلامي ، وتراجع طبعه بعد وفاة الأمير عضد الدولة البويهي الذي كان يلازمه في حله وترحاله ، ويؤثره على سواه [55] .

وهكذا كانت حاجة أولئك الأمراء وحكام الممالك الإسلامية لمشاهير العلماء والأدباء ، واعلام الكتاب ، هي التي حدت بهم إلى اجتذابهم للإقامة في كنفهم وإسناد المناصب الرفيعة إليهم ؛ لأنهم أدركوا ما (لبضاعتهم) من قيمة عالية وما تحققه رسائلهم الأدبية المحبرة من رد رأس الجموح فيثني ، او جعلها سوط الحرون فتعنق ، وان تلك الرسائل الأنيقة ، كثيرا ما تغني عن الكتائب المجحفلة في عرك أديم العصاة ، والمنابذين الجفاة ، وهكذا فإنها تنوب عن الحسام المهند في استصلاحهم ، وردهم إلى سبيل الطاعة ، وألفة الجماعة .

(2) امتداد حركة الترجمة ونشاطها:-

---

[54] يتيمة الدهر : 115/1 .

[55] تراجع التفاصيل في يتيمة الدهر : 473/2-474 .

لقد تأثر النثر الفني منذ العصر العباسي الأول بألوان المعارف والثقافات الأجنبية – ولاسيما الثقافة والتراث الفارسي – بفعل الاختلاط والتمازج مع تلك الشعوب والأجناس الأعجمية ، والإطلاع على ما تم نقله او تعريبه من شذرات تراثهم الأدبي ، اذ بدأت تلك الثقافات وألوان المعارف الأجنبية تصب فيه ، وتعمل على تشكيله وتطوره .

ولعل ابن المقفع [56] يقف في طليعة أولئك الأدباء الأعاجم الذين قاموا بنقل او ترجمة كثير من شذرات التراث والأدب الفارسي إلى العربية ، فأضافوا إلى الأدب العربي – ولاسيما النثر الفني – مضامين جديدة ، نهل المصنفون والأدباء العرب من فيضها الزاخر كثيرا من المعاني الغزيرة ، والأفكار الجديدة ، والموضوعات الطريفة .

ويتفق جل الباحثين المعاصرين [57] على اثر المترجمين في ازدهار الحركة الثقافية في العصر العباسي ، وما قدموه من كتب أساسية في علوم الفلسفة والمنطق والطب وغيرها ، واثر ذلك الكبير في إثراء الحياة الثقافية والنهضة العلمية التي شهدها هذا العصر .

ولقد كان لامتداد حركة الترجمة ، واستمرار نشاطها في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، اثر كبير في رقي الحياة العقلية ، والنهضة العلمية والأدبية ، واتساع حركة

---

[56] لقد ترجم ابن المقفع عن الفهلوية القديمة – فضلا عن تصانيفه المشهورة – كثيرا من أصول التراث الفارسي لعل اشهرها : (كليلة ودمنة) ، و (خدا يناميه) ، و (ابين نامة) ، و (مزدك) ، و (التاج) ، وكتاب الكيكيين في سير ملوك الفرس وغيرها ، وقد ضاعت أكثر تلك المصنفات المترجمة ، عدا (كليلة ودمنة) ، وبعض النقول من كتاب (خدا يناميه) التي وردت في تضاعيف كتاب (رسل الملوك) لابن الفراء الذي حققه الأستاذ صلاح الدين المنجد . (ينظر كتاب كنوز الأجداد :ص58) ، وكانت هذه الأصول المترجمة مما اعتمد عليها الشاعر الدقيقي ثم الفردوسي في وضع ملحمة الفرس الشهيرة (الشاهنامة) في أواخر القرن الرابع للهجرة .

[57] ينظر تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 4/126–127 ، العصر العباسي الثاني 514 وما بعدها .

التأليف التي راجت في القرن الرابع بصورة خاصة ، اذ عمل كثير من مشاهير التراجمة السريان [58] ، منذ القرن الثالث ، وبدعم وتشجيع كبيرين من بعض الخلفاء ووزرائهم ، على شرح وترجمة كثير من أصول المعارف والثقافة والعلوم الأجنبية – ولاسيما أصول الفلسفة وكتب الحكمة والمعارف اليونانية – وإعادة ترجمة كثير من تلك الأصول الأجنبية التي سبق ترجمتها وتعريبها منذ العصر العباسي الأول .

لقد عكف كبار أعلام التراجمة السريان بخاصة ، منذ القرن الثالث للهجرة على ترجمة الكثير من أصول المعارف والعلوم اليونانية ، وإعادة ترجمة كثير من تلك المظان التي سبق نقلها إلى العربية أيضا . ولعل في طليعة أولئك المترجمين السريان : (حنين بن إسحاق) المتوفى عام 264 ومدرسته ، اذ قام هؤلاء التراجمة مثلا بنقل عشرات الكتب في الطب لجالينوس وغيره إلى العربية ، فضلا عما قاموا بترجمته من كتب الفلسفة والحكمة لارسطو واقليدس وبطليموس وغيرهم [60] .

---

[58] لقد صرح التوحيدي – على لسان أبي سعيد السيرافي في مناظرته المشهورة مع متى ابن يونس – بان أهل عصره كانوا ينقلون فلسفة اليونان ومعارفهم الأخرى عن اللغة السريانية ، وان أكثر المترجمين السريان – ومنهم متى بن يونس – كانوا يجهلون لغة =اليونان القديمة . ينظر : الإمتاع والمؤانسة : 1 /111 وينظر : تتمة صوان الحكمة : 14–15 ، النثر الفني في القرن الرابع: 1/346–347 .

[59] وقف الى جانب (حنين بن إسحاق) مجموعة من المترجمين السريان لعل اشهرهم : (ثابت بن قرة ت 288 هـ) ، يراجع ثبت مصنفاته وترجماته في كتاب ؛ إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي : 80–84 ، و (قسطابن لوقا البعلبكي (ت 300 هـ) و (متى بن يونس ت 330 هـ) الذي عني بترجمة جميع أثار ارسطو المشهورة في الفلسفة والمنطق وعلم الطبيعة وغيرها . (ينظر : الفهرست :294 ، تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 4/126 وما بعدها ، العصر العباسي الثاني – د. ضيف :130 وما بعدها) . وينظر : تتمة صوان الحكمة (اعلام المترجمين) .

[60] ينظر : تتمة صوان الحكمة : 3–7 وما بعدها (اعلام المترجمين) ، وتراجع التفاصيل في : العصر العباسي الثاني : 514 وما بعدها .

وكان مما ساعد على ازدهار حركة الترجمة في هذا القرن أيضا : تطور الفكر الفلسفي عند المسلمين ، وبروز قمم المفكرين والفلاسفة إبّان هذا القرن وفي طليعتهم (أبو بكر الرازي (ت 320 هـ) ، و (ابو نصر الفارابي (ت 339 هـ) ، وغيرهما ممن تتلمذ عليهما ، أو اطلع على نتاجهما العلمي والفلسفي مما قاما بتصنيفه او ترجمته .

أما أبو بكر الرازي ، الذي وصفه ابن النديم [61] بأنه أوحد دهره ، وفريد عصره ، فقد كان لجهوده الكبيرة في التصنيف والترجمة أعظم الأثر في النهضة العلمية والثقافية التي شهدها هذا القرن . فقد اشتهر الرازي بعلوم الطب والفلسفة والمنطق ، وقد صنف وترجم كثيرا من الكتب المهمة في تلك العلوم ، فضلا عن المعارف الطبيعية والإلهية ، وغيرها [62] .

وقد كان لجهود الفارابي أيضا أعظم الأثر في النهضة العلمية وازدهار حركة التأليف والترجمة في هذا القرن ، اذ عكف الفارابي على شرح الكتب المنطقية ، وإظهار غامضها ، وبيان ما أغفله الفلاسفة المسلمون الذين سبقوه فبدأ بدراسة فلسفة افلاطون وتحليلها ، ثم اتبع ذلك بدراسة فلسفة أرسطو ، فشرع يدرس متونها ، ويشرح تفاصيلها ، ويبسط جزئياتها . وقد عده القفطي ، مثلا من الفلاسفة الذين برزوا على أقرانهم ، وأشار أيضا إلى انه أربى عليهم " في التحقيق وشرح الكتب المنطقية ، واظهر غامضها ، وكشف سرها ، وقرّب متناولها ، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة " [63] .

وتتبلور جهود الفارابي في ترسيخ أسس ترجمة التراث الفلسفي اليوناني بما أسداه بعض تلاميذه الذين تخرجوا عليه ، وفي طليعتهم يحيى بن عدي ومن شايعه من تلاميذه ، ومنهم (ابن الخمار) و (ابو سليمان المنطقي) وغيرهما ، اذ كان

---

[61] الفهرست : ص518 .

[62] تراجع تصانيف الرازي في : أخبار العلماء بإخبار الحكماء : 119-182 ؛وينظر أيضاً تتمه صوان الحكمة : 5-6 .

[63] المصدر نفسه : 182 ، وينظر : تتمة صوان الحكمة : 16-20 .

لهم دور كبير في نقل مصنفات فلسفية كثيرة من السريانية إلى العربية ، فضلا عما قاموا بترجمته من العلوم اليونانية فيما يتصل بالفلسفة والمنطق وعلوم الحكمة الأخرى [64] .

لقد كان كثير من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، ينهلون في ترسلهم أقباساً مضيئة من تراث الأمم الأجنبية ، ومعارفها التي اطلعوا عليها بعد تعريبها او ترجمتها إلى العربية ، فضلا عما تلقفوه عن الأجناس الأعجمية او السريان وغيرهم ، ممن اختلطوا بهم ، او تمازجوا معهم ، وكان في طليعة تلك المعارف التي قبسوها ، وتجلت ملامحها في مكاتباتهم الأدبية ؛ علوم الفلسفة والمنطق وعلم الأخلاق والطب والرياضيات وغيرها من المعارف الأخرى .

لقد بدأ كثير من الأدباء الكتاب الذين كانوا ينحدرون من أصول أعجمية في أقاليم المشرق الإسلامي ، وبسبب نزوع أكثر أولئك الأمراء الأعاجم ، او حكام الممالك المستقلة إلى إحياء تراثهم الحضاري ، وآدابهم القومية ، وبعث اللغة الفارسية ، بدأوا يضعون تصانيفهم ، ويصوغون أشعارهم باللغة الفارسية إلى جانب العربية ، وطفقوا أيضا يترجمون من الفارسية واليها بالعربية [65] .

وهكذا أصبحت بخارى – حاضرة السامانيين – والري وشيراز وأصفهان – حواضر البويهيين – وجرجان وطبرستان – منتجع الزياريين وغيرهم – فضلا عن غزنة – حاضرة الغزنويين – واقليم خوارزم وغيرها من الأقاليم الشرقية الاخرى ، أصبحت مستقرا لكثير من الأدباء والكتاب الذين كانوا يصنفون كتبهم ، ويصوغون أشعارهم ، ويدبجون رسائلهم وأدبهم باللغة الفارسية إلى جانب حذقهم التأليف والإبداع باللغة العربية .

---

[64] تراجع التفاصيل في تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 152/4 وما بعدها .

[65] تراجع التفاصيل في كتاب تاريخ الأدب في إيران : 107/2 وما بعدها .

فأبو علي البلعمي – وزير السامانيين المشهور – مثلا ، قام بترجمة تاريخ الطبري إلى الفارسية حوالي 353 هـ / 964 م ، كما قام أيضا بترجمة تفسير الطبري إلى الفارسية حوالي سنة 371 هـ / 981 م [66] .

ويرى الأستاذ براون ان إقليم فارس – الذي كان تحت سيطرة الأمراء البويهيين – هو مهد العظمة الفارسية الحقيقية ، وان هذا الإقليم شهد نشاط وشيوع الأدب الفارسي ، وظهور أدباء وشعراء فرس مدحوا الأمراء والوزراء بالشعر الفارسي ، ولعل اشهر أولئك الشعراء هم المنطقي ، والخسروي ، وقمري الجرجاني وغيرهم [67] .

وقد كان بعض العلماء المسلمين الفرس يصنفون بعض كتبهم بالفارسية ويهدونها إلى الأمراء البويهيين او أتباعهم ، فابن سينا مثلا ، الف كتاب (دانش نامه علائي) ، وأهداه للأمير عضد الدولة البويهي [68] .

وأشار الأستاذ براون إلى بعض التواريخ المحلية التي كتبت بالفارسية والعربية ، ومن بينها ؛ (تاريخ قم) الذي تم تأليفه للوزير الصاحب بن عباد حوالي سنة 379 هـ / 989 م [69] .

وعلى الرغم مما شهر عن أبي الريحان البيروني من حبه للعربية [70] وانقطاعه إلى التأليف بها ، الا انه ألف كتابه المشهور (التفهيم في صناعة التنجيم) بالفارسية [71] . ولأبي علي بن مسكويه أيضا ، أكثر من كتاب ألفه بالفارسية ، منها : كتابه (جا ويذان خرد) ، الذي جمع فيه حكم الأمم الأربعة الكبيرة وهم الفرس

---

[66] تاريخ الأدب في إيران : 132/2 .

[67] تاريخ الأدب في إيران : 107/2–108 .

[68] المرجع نفسه :132/2–133 .

[69] المرجع نفسه 131/2 .

[70] شهر عن البيروني قوله : " ان الهجو بالعربية أحب إليه من المدح بالفارسية " ينظر كنوز الأجداد : 239 .

[71] تاريخ الأدب في إيران : 120/2–121 .

والهند والعرب والروم ، والكتاب يبحث في الأخلاق العملية [72] . ومنها أيضا كتابه : (نزهت نامه علائي) بالفارسية ، وقد أهداه إلى الأمير علاء الدولة البويهي [73] .

وأشار الثعالبي ، في معرض حديثه عن بديع الزمان الهمذاني ، وما عرف عنه من حضور البديهة والارتجال ، فقال [74] : " ... وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة ، بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع الإسراع " .

وقد أشار (محمد عوفي) إلى ما مُدح به الوزير الصاحب بن عباد من الشعر الفارسي ، وذكر انه طلب من الهمذاني ترجمة بعض الأبيات التي مدح بها بالفارسية إلى الشعر العربي على البديهة [75] .

وهكذا شأن أكثر أقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن ، فإقليم طبرستان مثلا ، كانت تزدهر فيه ثقافة أدبية رفيعة ، تدل عليها هذه النبذ الكثيرة التي وردت في اسبق تواريخها الذي الفه (ابن اسفنديار) في النصف الأول من القرن السابع للهجرة ، وقد أشار الأستاذ ادوارد براون ، نقلا عن ابن اسفنديار إلى كثرة التآليف العربية ، والأشعار التي نظمت بالعربية ، فضلا عن تأليف طائفة من الكتب الفارسية ، ومن بينها الكتب التي الفت باللهجة الطبرية الخاصة [76] .

اما الأدباء الفرس [77] الذين ازدحمت بهم القصور الغزنوية في أواخر هذا القرن وحتى الربع الأول من القرن الخامس للهجرة ، فلعل ذلك ابلغ شاهد على خصب الحياة الثقافية في الامارة الغزنوية ، وازدهار النقل والترجمة بين اللغتين العربية والفارسية .

---

[72] ينظر : معالم الحضارة الإسلامية : 204 .

[73] المرجع نفسه: 207 .

[74] يتيمة الدهر: 293/4-294 .

[75] كتاب لباب الالباب : 16/2-19 (بدلالة كتاب ادوارد براون : 109/2) .

[76] ينظر تاريخ الأدب في إيران : 108/2 .

[77] تراجع التفاصيل وذكر اسماء أولئك الأدباء والشعراء وصلتهم بالسلطان محمود الغزنوي في : تاريخ الأدب في إيران : 133/2 وما بعدها .

وهكذا نصل إلى حقيقة مهمة ، تلك هي ان اللغة الفارسية – بعد ان عادت إلى الظهور منذ منتصف القرن الرابع ، بفعل نزوع حكام الممالك الأعجمية المستقلة إلى أحياء تلك اللغة ، وبعث الآداب القومية ، والثقافة الفهلوية القديمة – أصبحت شريكة للعربية في التعبير عن الحضارة الإسلامية ، وواجهة مهمة للثقافة الإسلامية في هذا القرن ، فضلا عن ذلك ، فقد أضحت هذه اللغة وسيلة مهمة للتعبير عن نوازع إنسانية ؛ ذلك إنها تمكنت بعد مدة وجيزة من بعثها ، من إبداع أنواع أدبية مهمة ، تمثلت بالملاحم والمنظومات القصصية المطولة ، ويكفي شاهدا على ذلك ، ابداع (الفردوسي) للشاهنامة ، التي جسدت أساطير الفرس وسير ملوكهم ، فضلا عن تبلور ألوان جديدة من الأدب ، كالغزل الفارسي ، وفن الرباعيات ، وغيرها من الألوان التقليدية .

وهكذا أصبحت هذه اللغة في تلك الأقاليم النائية ، شريكة للعربية في تجسيد معالم النهضة الحضارية التي شهدها القرن الرابع ، الذي يعد بحق من أزهى عصور الإسلام في الحضارة ، وإزدهار الثقافة ، وحركة التأليف .

(3) ظهور طبقات من الأدباء الكتاب الموهوبين :

لقد ظهر في القرن الرابع للهجرة طبقات من كبار الأدباء والكتاب ، كانوا نموذجاً نادراً في البلاغة وصناعة الترسل ، كما كانوا بمثابة قمماً شامخةً ، ومدارس أدبية رائدة في فن الإنشاء ، وصناعة الترسل ، خرجت أجيالا متعاقبة من الأدباء والكتاب [78] .

---

[78] يراجع في مجالس ابن العميد مثلاً ، ومكانته الأدبية ، وأثرهُ في أدباء عصره ، ومن تتلمذ عليه : يتيمة الدهر: 3/184–185 ، ومواضع أخر ، ويراجع أيضا النثر الفني في القرن الرابع – مبارك :2/235 وما بعدها ، الأدب في ظل بني بويه : ص128 وما بعدها . ويراجع في منتديات الصاحب بن عباد ومدرسته وأثره في أدباء وكتاب عصره الذين تخرجوا عليه : يتيمة الدهر: 3/225 وما بعدها ، والنثر الفني في القرن الرابع: 2/296 وما بعدها . وينظر في أبي بكر الخوارزمي وصلته الحميمة بتلاميذه ، وتخرجهم عليه ، واقتفائهم طريقته في الترسل : (مجموع رسائل الخوارزمي مع تلاميذه (في مواضع=

ولعل في طليعة أولئك الأدباء الاعلام : أبا الفضل ابن العميد ، والصاحب ابن عباد ، وأبا إسحاق الصابي ، وأبا بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان ، وأبا القاسم الاسكافي ، وأبا حيان التوحيدي ، وأبا الفضل الميكالي وغيرهم كثير من الأدباء الشوامخ ممن سنقف عند دراسة مبرزيهم في المبحث الثاني من هذا الفصل

وهكذا كان ظهور هؤلاء الكتاب الرواد ، في هذا القرن ، عاملا مهما في ازدهار الحياة الثقافية والأدبية ، وإثرائها ، واتساع قاعدة الأدباء الكتاب الذين تتلمذوا عليهم ، وتلقفوا طرائقهم في صناعة الإنشاء والرسائل الأدبية والديوانية .

=متفرقة) ، وينظر : يتيمة الدهر: 223/4 وما بعدها ، وتراجع رسالة محمود الضمور . (أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه) في مواضع متفرقة . وكذا التوحيدي الذي عده كثير من الباحثين ومنهم الأستاذ ادم متز := =استاذ طريقة خاصة في الكتابة ، وانه كان على ذروة من ذراها . ينظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 465/1 . أما أبو إسحاق الصابي : فقد كان – كما وصفه الثعالبي – " أوحد العراق في البلاغة ، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة " . يتيمة الدهر 287/2 وما بعدها ، وكان أثره كبيرا في كتاب الديوان الرسمي الذي تبوأ رئاسته منذ عام (349 هـ وحتى وفاته عام 384 هـ) . ينظر : إخبار العلماء للقفطي :ص54-55 ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 448/1 حيث عده اكبر المنشئين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري . وتراجع مجالس أبي الفضل الميكالي ، واشهر كتاب مدرسته الذين تخرجوا عليه ؛ ومنهم المطوعي ، وأبو منصور يحيى بن يحيى الكاتب ، وأبو سلمة ابنه وغيرهم ، تراجع : تتمة اليتيمة : 194،197/5 ، ومواضع أخر .

المبحث الثاني

طبقات كتاب الرسائل الأدبية وأثرهم في ازدهار الرسائل

لقد كان من البواعث المهمة التي عملت على ازدهار النثر العربي ، وارتقاء صناعة الكتابة – وبخاصة الرسائل الأدبية والديوانية – في هذا القرن : ظهور طبقات متميزة من الأدباء الكتاب الذين جمعوا بين سعة الثقافة ، واتقاد الموهبة ، وصفاء القريحة – التي أورثتهم الفاف البلاغة والفصاحة– وبين سمو المنزلة السياسية والإدارية والاجتماعية ، ورفعة الشأن والنبل والفضل

ومنذ قبيل منتصف القرن الثالث للهجرة ، بدأت طبقة الأدباء الكتاب تشغل مكانة مهمة وخطيرة في افاق الحياة السياسية والثقافية والأدبية ، وطفقت شرائح متميزة من هذه الطبقة تتبوأ مكانة سامية في الدولة العباسية [1] .

وقد اشاد أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) [2] ، وهو من كبار منظري الأدب والبلاغة في القرن الثالث – كثيرا بطرائق هذه الفئة من الأدباء ، وامتدح بلاغتهم ونهجهم في التعبير والترسل وصناعة الكلام .

وهكذا راحت طبقات متميزة من كبار الأدباء الكتاب ، منذ أواخر القرن الثالث ، ومطلع القرن الرابع ، تتسنم مناصب رفيعة في الدولة ، كمنصب الوزارة او الولاية ، او يتبوأ بعضهم أيضاً رئاسة ديوان الرسائل أو ديوان الخراج ، أو يرتقي لإدارة مجموعة الدواوين الرسمية الأخرى .

وقد رصد بعض الباحثين من المستشرقين ، وغيرهم أيضاً ، هذه الظاهرة المهمة فذهب إلى القول : " ليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الوزراء ، في ذلك

---

[1] تراجع مقدمة كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ) ، إذ إنها سلطت الضوء بدقة متناهية في تنامي نفوذ هذه الطبقة ، وبدء صعود نجمها – لاسيما في دواوين الدولة الرسمية – وتسنم بعضهم للمناصب الرفيعة ، على الرغم من عدم اكتمال آلة بعضهم – كما أشار ابن قتيبة بمرارة – من أسس هذه الصناعة .

[2] يراجع : البيان والتبيين 137/1 ، اذ قال الجاحظ في معرض تعليقه على صحيفة بشر بن المعتمر : " ... أما أنا فلم أر قط امثل طريقة في البلاغة ، من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا " .

العهد ، كانوا من أساتذة البيان وأعلامه ، ولذلك استطاعت رسائلهم ان تنال من التقدير ما جعلها خليقة ان تنشر كتبا للناس ... " [3] .

وكان من طليعة أولئك الأدباء الكتاب البلغاء في هذه الحقبة : إبراهيم بن المدبر [4] (ت 278 هـ) – وقد تقدمت الإشارة إلى رسالته المشهورة (العذراء) وقيمتها الأدبية – ومحمد بن جعفر بن ثوابة (ت 312 هـ) – وقد أشرنا إلى مكانته في ديوان الرسائل الرسمي ، وأبو علي ابن مقلة [5] ، وكان كاتبا بليغا ، وفيه قال الصولي [6] : " ما رأيت وزيرا منذ توفي القاسم بن عبد الله ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفي) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا املح خطاً ، ولا أكثر حفظا ، ولا أسلط قلما ، ولا اقصد بلاغة ، ولا اخذ بقلوب الخلفاء من ابن مقلة " .

****

لقد ظهر في القرن الرابع للهجرة طبقات من كبار الأدباء الكتاب البلغاء ، لم يكونوا امتدادا لتلك العبقريات الفنية – التي أشرت إليها آنفا – النادرة في البلاغة ،

---

[3] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع – ادم متز : 447/1 .

[4] هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن المدبر ، كان واليا على خراج فلسطين للخليفة المهتدي بالله (256–255 هـ) ، وولي الوزارة سنة(263 هـ) . ينظر : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 117/2 . عالج ابن المدبر صناعة الترسل في رسالته المشهورة (العذراء) ، وقد نشرها الأستاذ محمد كرد علي في (رسائل البلغاء ص176–193) .

[5] أبو علي ابن مقلة ، ولد في بغداد عام 272 هـ ، وكان ممن اشتغل بين يدي ابن الفرات وارتفع بسببه ، وزر لثلاثة خلفاء في أوائل القرن الرابع ، وكان صاحب مؤامرات ودسائس ، ويقال انه أوقع بين الخليفة القاهر وجنده ، وانه سعى عند بجكم وعند الراضي على ابن رائق الذي عاقبه بقطع يده اليمنى ، ثم قطع لسانه وسجن ومات في السجن ، وذكر الثعالبي : ان خطه كان من أحسن خطوط الدنيا ، وهو اكبر مؤسس للكتابة العربية الجديدة التي ظلت طول القرن الرابع ، ينظر : الحضارة الإسلامية – متز : 191/1–193 ، العصر العباسي الثاني : ص560–561 .

[6] النجوم الزاهرة – ابن تغري بردي : 268/3 .

وصناعة الترسل فحسب ، وإنما كانوا بمثابة مدارس أدبية رائدة وقمم شامخة في فن الإنشاء ، وصناعة الترسل ، خرّجت أجيالاً من الأدباء والكتاب .

ويمكن تصنيف اشهر الأدباء الكتاب ، ممن برعوا وأجادوا في صناعة الكتابة – وبخاصة في الرسائل الأدبية والاخوانية ، فضلا عن إجادة أكثرهم للمكاتبات السلطانية أو الديوانية أيضاً – في القرن الرابع – لاسيما من الوجهة الفنية أو الأدبية ، فضلا عن المؤثرات والأبعاد الخارجية الأخرى التي أحاطت بهؤلاء الأدباء المترسلين ، ووجهت حياتهم ، فكان لها ابعد الأثر في نتاجهم الأدبي والفني – ويمكن توزيعهم على طبقات أو فئات ، وعلى النحو الأتي :

أولاً : طبقة الكتاب الإجلاّء من الأمراء والوزراء :

وهذه الطبقة من الأدباء المترسلين هم الذين ازدان نتاجهم الأدبي بالتأنق ، واتشح بالبراعة ، وكان كثير منهم قد جمع إلى جانب سمو منزلته السياسية ، ورفعة مكانته الاجتماعية ، قصب السبق في الريادة الفنية ، فكانوا – كما ذكر عمر بن علي المطوعي ، وقد ذكر شعر أبي الفضل الميكالي ومنثوره [7] " ... من اخذ بحبل الجودة من طرفيه ، وجمع رداء الحسن من حاشيتيه . " .

ولعل اشهر هذه الطبقة من الكتّاب المترسلين :

(1) أبو الفضل ابن العميد:

هو أبو الفضل محمد بن العميد الحسين بن محمد ، فارسي الاصل [8] كان وزيرا لركن الدولة البويهي [9] ، اذ لم يزل أبو الفضل بالري ، وكور الجبل وفارس

---

[7] زهر الآداب وثمر الألباب : 175/1 .

[8] ذكر الثعالبي – وهو من كبار مؤرخي الأدب في هذا القرن – في يتيمة الدهر 184/3 : ان اباه ابا عبد الله الحسين بن محمد العميد المعروف بـ (كلة) – وهي كنية لشهرته – كان اصله من قم ، وكان " في الرتبة الكبرى من الكتابة ، ورسائله مدونة بخراسان "." =وكان يكتب لـ (ما كان بن كاكي الديلمي) ، ثم تقلد ديوان الرسائل للأمير السامانيّ (نوح بن نصر) الذي لقبه بالشيخ العميد ، وبقي في رتبته حتى توفي بالنقرس .

[9] ينظر : تحفة الوزراء المنسوب للثعالبي ، 125 .

منذ سنة(328 هـ / 939 م)[10] ، يتدرج إلى المعالي حتى استقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ، لأكثر من ثلاثين عاما [11] .

وقد ذكر المستشرق كارل بروكلمان ؛ انه كان يتشيع على مذهب الأمامية [12] ، وقد اتفق أكثر من ترجم له من القدماء [13] والمعاصرين [14] على انه صاحب طريقة جديدة ومتميزة في الترسل قرنت باسمه [15] ، وعدَّهُ بعضهم سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع [16] ، وانه قد تفرد بأسلوب في الكتابة عن سائر معاصريه .

لقد كان ابن العميد واسع الإطلاع ، غزير الثقافة ، وكان ذلك سببا في نمو فكره ، وصقل ذوقه في صناعة الترسل ، وإلمامه بفنون الكلام ، والجنوح إلى تهذيب العبارات ، والعناية الواضحة بالصناعة اللفظية التي كلف بها أهل عصره ومن هنا

---

[10] ينظر : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 119/2 .

[11] يتيمة الدهر : 184/3 .

[12] تاريخ الأدب العربي : 119/2 .

[13] لعل أدق وأمتع من ترجم له من معاصريه : ابن مسكويه : تجارب الأمم 374/5–378 يتمية الدهر 183/3–233 ، وينظر أيضاً: وفيات الأعيان (رقم الترجمة 661) معجم الأدباء ج5 (في مواضع متفرقة) .

[14] ينظر : أئمة الأدب : ابن العميد (رقم 3) للأستاذ خليل مردم . (حلب 1350هـ/1931م) ، ويراجع ما أشار إليه الأستاذ طه حسين من تفرد ابن العميد في الجمع بين التفكير والعناية بالمعاني والترتيب المنطقي لنثره مع العناية بالسجع وألوان البديع (من حديث الشعر والنثر ص79) ، وينظر أيضاً: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع – متز 203/1–206 .

[15] ينظر : الأدب في ظل بني بويه : ص292 ، إذ أشار الأستاذ الزهيري إلى بداية ظهور الأسلوب المحلى بالسجع والبديع في النثر العربي ، ثم قال : " ... فقد كان هذا الكاتب أول من نحا هذا النحو في كتاباته ، ولهذا يعد أستاذاً لهذه الطريقة الجديدة في الكتابة ، ثم تابعه على ذلك بقية الكتاب ممن تتلمذ عليه كالصاحب ، او قلدوه كالبديع والخوارزمي والصابي والثعالبي وغيرهم . " .

[16] ينظر النثر الفني في القرن الرابع : 235/2 .

، فقد أعجبوا بطريقته في الترسل حتى انتشرت انتشارا واسعا في العراق وخراسان وما جاورها .

لقد كانت طريقته التي سنها في الكتابة تقوم على قصر الفقرات ، مع الالتزام بالسجع والمحسنات البديعية ، إلى جانب تنميق العبارة ، وانتقاء الألفاظ والجمل ، فضلا عن تضمين الشعر الرصين والأمثال السديدة ، واقتباس آي القران الكريم .

ولقد أعجب أدباء هذا القرن بطريقته هذه ، فاقتفى أثره اشهر كتاب عصره حتى صار أسلوبه ، الذي يمزج بين السهولة وصفاء الطبع وبين الصنعة والحذق الفني نموذجا يحتذى ، ومثالاً يقتدى به في الكتابة الفنية .

وقد جمع ابن العميد – بشهادة المفكر الشهير ابن مسكويه [17] – وهو اقرب من لازمه في صحبة دامت سنوات عديدة – إلى ذلك كله : سعة العلم ، وأدب النفس وكمال الخلق ، فضلا عما عرف عنه من الجرأة والشجاعة في الحروب ، وقدرته العالية على ضبط الأعمال ، وحسن تدبيره لشؤون الدولة ، وقد كان بحق اعرف وزراء آل بويه في زمانه بأمور الملك ، وخفايا السياسة .. كل ذلك ، مع ما عرف عنه من حبه للعلم والأدب ، وتواضعه الجم مع أهلهما [18] ، قد هيّأ لأبي الفضل ابن العميد ان يكون احد القمم الأدبية الشامخة التي أسهمت في رفد النهضة العلمية والأدبية في هذا القرن ، وان يصبح رأس مدرسة مهمة في النثر العربي ، اقتفى خطاها رعيل كبير من أدباء وكتاب العربية في عصره ، والعصور اللاحقة .

(2) الصاحب بن عباد:

---

[17] يراجع ما فصله في هذا الجانب ابن مسكويه في تجارب الأمم : 5/374–378 .

[18] يراجع ما ذكره ياقوت عن تواضع ابن العميد مع أبي بكر الخياط عندما كان يقرأ عليه كتاب " الطبائع " للجاحظ ؛ معجم الأدباء : 5/9–10 .

هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد [19] بن العباس ، لقب بكافي الكفاة وعرف بالصاحب [20] وهو فارسي الأصل من ولاية الطالقان [21] من ناحية (جي) إحدى نواحي مدينة (أصفهان) القديمة [22] .

---

[19] كان أبوه (عباد) كاتبا ووزيرا لركن الدولة البويهي ، وذكر ياقوت : انه كان من الراسخين في علوم الدين ، وانه الف في أحكام القران كتابا نصر فيه الاعتزال ، وجود فيه . (ينظر معجم الأدباء 175/6) ، وذكر الثعالبي نقلا عما سمعه عن الخوارزمي قوله : " ان مولانا الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ، ودب ودرج في وكرها ورضع افاويق درها ، وورثها من أبيه كما قال أبو سعيد الرستمي : [من الكامل]

ورث الوزارة كابرا عن كابر موصولة الإسناد بالإسناد

يروي عن العباس عباد وزا رته ، وإسماعيل عن عباد

ينظر : يتيمة الدهر 226/3-227 ، وذكر (ابن تغري بردي) : ان أباه توفي عام 385 هـ وهو العام الذي توفي فيه الصاحب . النجوم الزاهرة 172/4 .

[20] كان ابن عباد اول من لقب بالصاحب من الوزراء ، ثم سمي بهذا الاسم بعد ذلك (عميد الجيوش) حوالي عام 400 هـ ، ينظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 197/1. ومن ثم سمي بهذا الاسم بعد ذلك الوزراء في العهود اللاحقة .

[21] المشهور ان الصاحب من الطالقان ، اما (السمرقندي العروضي) فقد ذكر في كتاب (جهار مقاله – الحكاية الرابعة من المقالة الأولى : ص27) ذكر : ان الصاحب رازي ! وفي تحديد الطالقان خلاف أيضاً: فصاحب معجم البلدان جعلها بلدة وكورة بين قزوين وابهر (مادة الطالقان) ، اما الثعالبي فذكر ان الطالقان من قرى أصفهان ، وينظر : المسالك والممالك – ابن خرداذبة :150،40 ،معجم البلدان(مادة الطلقان).

[22] ذكر القزويني في حاشيته على المقالة الأولى (الحكاية الأولى) من كتاب (جهار مقالة – للسمرقندي ص98-99) ذكر نقلا عن كتاب (محاسن أصفهان) للمفضل بن سعد المافروخي – الف بين سنتي (485-465 هـ) ان الصاحب من مشاهير رجال اصفهان من (جي) ، وذكر المافروخي أبياتاً للصاحب ، حين فتحت جرجان ، يتشوق فيها الى بلدهِ ، ويظهر من شعره انه من اصفهان من (جي) ، يقول : [من البسيط]

يا اصفهان سقيت الغيث من كثب فانت مجمع اوطاري واوطاني

وقال أيضاً: [من البسيط] =

= يا أيها الراكب المصغي إلى الحادي حُيِّيتَ من رائح منا ومن غاد

وقد اتفق أكثر من ترجم للصاحب على انه ولد عام 326 هـ / 938م[23]، وكان في بدء أمره معلما في قريته [24] ، ثم ترقت به الحال في دواوين أستاذه أبي الفضل ابن العميد الذي اختاره وزيرا لمؤيد الدولة البويهي أثناء امارته على اصبهان في عهد ركن الدولة [25] ، ثم وزر الصاحب بعد وفاة مؤيد الدولة لأخيه فخر الدولة البويهي ، وظل في الوزارة حتى وفاته عام (385 هـ / 995م).

ولقد طبقت شهرة الصاحب باعتناقه لمذهب الاعتزال ، فكان إلى جانب تشيعه [26] يتعصب للمعتزلة ، ويبعث الدعاة إلى الأقاليم لنشر هذا المذهب [27] . وقد أكد

ان جئت (جي) بلادي او مررت بها فنادها قبل حط الرحل والزاد

وقل لها جئت من جرجان مبتدراً أوحى إليك بما قال ابن عباد

[23] ينظر : النجوم الزاهرة 172/4 ، حاشية كتاب جهار مقالة : 98–99 ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 197/1 .

[24] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 197/1 .

[25] أشار السمرقندي في كتابه (جهار مقالة :ص27) الى ان الصاحب كان وزير شاهنشاه – يعني عضد الدولة البويهي – وذكر ياقوت (معجم الأدباء : 250/6) ان ذا الكفايتين ابا الفتح حاول إنزاله من الوزارة بعد وفاة ركن الدولة عام 365 هـ ، الا انه انتصر عليه وعاد الى الوزارة بعد ان نكب أبو الفتح ابن أستاذه ابن العميد .

[26] أشار ياقوت (معجم الأدباء : 260/6) الى ان الصاحب كان على شاكلة سادته من أمراء بني بويه متشيعا ، وانه الف في إمامه (علي بن أبي طالب) كتابا ، ونقل ياقوت أيضاً عن التوحيدي – خصم الصاحب – انه كان يقول بمقالة الزيدية : 175/6 ، وقد ظهرت نزعة الصاحب الى التشيع في عدد من رسائله وعهوده الى بعض الأشراف والنقباء من الشيعة في هذا القرن : ينظر مثلا : الرسالة التاسعة من الباب التاسع عشر ، وهي موجهة الى بعض الأشراف ، والرسالة الحادية عشرة من من الباب العاشر ، وهي خاصة بالتعزية لنقيب توفاه الله وقد اظهر فيها حرقة شديدة ، والرسالة العاشرة من الباب التاسع عشر ، وهي عهد إلى احد النقباء ، وغيرها .

[27] تراجع إشارة المقدسي إلى متابعة العوام في إقليم الري للفقهاء في خلق القران ، وإشارته إلى بعض دعاة الصاحب ، أحسن التقاسيم : 395/2 ، وينظر أيضاً :2 / 399 =حيث أشار الى بله أهل أصفهان وغلوهم في معاوية ، وكرههم للصاحب لأنه أتاهم بمذهب لا

السمرقندي في الحكاية الرابعة من المقالة الأولى في كتابه الشهير ، هذا الأمر ، فذهب إلى القول : " وكان الصاحب عدلي المذهب ... " [28] ، وقد أكد السمرقندي أيضاً على تشدده ، على شاكلة أقرانه من أصحاب العدل والتوحيد ، في التقوى والتنسك .

ولعل استدعاء الصاحب للقاضي عبد الجبار – شيخ المعتزلة في بغداد – وصلته الحميمة به ، وتوليته في إمارته ، وكتابته عهده له بيديه [29] ، ادق شاهد على ما ذهبنا إليه .

****

اما منزلته لدى أمراء عصره ، ومكانته بين أدباء دهره ، فقد كانتا عظيمتين ؛ فالصاحب لم يكن في دولة آل بويه وزيرا فحسب ، وإنما كان مُدبِّراً لشؤون دولتهم في ادق مراحل هذه الأمارة ، وأزهى عصورها ، ولعل هذا ما يفسر لنا عظم مكانته لدى الأمراء البويهيين وغيرهم ، فقد ذكر ابن الأثير [30] ان عضد الدولة البويهي – على هيبته وتجبره – خرج بنفسه لاستقباله حين زاره عام 370 هـ في همذان ، وذكر ياقوت : ان الصاحب كان اذا قال في مسألة قولا وقال فخر الدولة قولاً آخر ،

يعرفونه . وينظر أيضاً معجم الأدباء : 284/6 حيث أشار ياقوت إلى ان الصاحب كان مثل أبيه يذهب مذهب الاعتزال . ويراجع أيضاً رسالة الصاحب في الباب السابع عشر وهما نصان يصرح فيهما بأنه كان يبعث الدعاة له إلى البلدان المختلفة يدعون الناس الى الدخول في الاعتزال (رسائل الصاحب : 218–219 ، 219–220) وفي الرسالتين أيضاً إشارات واضحة الى بعض عقائد المعتزلة .

[28] كتاب (جهار مقالة) : 27 .

[29] يراجع : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 328/1 ، وينظر كتاب المنية والأمل :66 (طبعة حيدر اباد) ، ويراجع العهد الذي كتبه الصاحب للقاضي عبد الجبار : رسائل الصاحب / الباب الثاني (العهد رقم 1) :39–34 .

[30] ينظر : الكامل في التاريخ : 4/9 ، النجوم الزاهرة : 138/4 ، حيث أشار ابن تغري بردي إلى انه قد استقبله في بغداد لا في همذان .

امتثل قول الصاحب [31] ، وقد روى ياقوت في معجم الأدباء [32] أخباراً كثيرة تشير إلى مكانة الصاحب ، وعظم منزلته ، وجلالة وهيبته بين قواد بني بويه ، ومن يوالونهم من الأمراء والولاة وغيرهم .

أما مكانة الصاحب الأدبية ، ومنزلته بين أدباء عصره ؛ فلعل خير ما يوضحها قول أبي منصور الثعالبي فيه : " ... ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ... وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام وبدائع الإفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر ، ويكاد يدخل في حد الأعجاز وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب ، واحتفتْ به من نجوم الأرض ، وافراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رق المعاني ... " [33] .

***

لقد كان للصاحب بن عباد اثر كبير في أيقاد جذوة الحياة الأدبية ، وإثرائها وازدهار الحركة الثقافية في هذا القرن ، وقد كان – كأستاذه أبي الفضل ابن العميد – يقترح الموضوعات على الأدباء والشعراء المحيطين به في مجلسه ، ويطلب إليهم ان يقرضوا الشعر في أمور محببة محددة ، وكان من نتائج تلك المفاكهات في مجالسه العامرة ؛ تلك المجاميع الرائعة التي عرفت (بالديارات ، والفيليات والبرذونيات وسواها) [34] . وقد بلغ من حب الصاحب للعلم والأدب ، وتشجيعه

---

[31] معجم الأدباء : 172/6 .

[32] تراجع تلك الأخبار في معجم الأدباء : 238/6–244 .

[33] يتيمة الدهر : 225/3–226 .

[34] تراجع تلك المجاميع الشعرية في : يتيمة الدهر 240/3–253 ، وهي : (الديارات) ويراجع ذكر (البرذونيات) 269/3–253 ، وتراجع القصائد الفيليات: 269/3–277

لأهلهما ، انه كان – كما ذكر القدماء – يرسل إلى بغداد خمسة آلاف دينار كل عام تفرق بين الفقهاء وأهل الأدب [35] ، وذكر ياقوت : انه كان – وهو في منصب الوزارة – يخرج مُتطلَّساً متحنكا ، على زي أهل العلم ؛ لإملاء الحديث وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستة كل يبلغ صاحبه [36] .

وكانت حضرة الصاحب – إلى ذلك كله – مقصدا للأدباء ، وملاذا لمن يريد ان يسمو في آفاق الأدب ، وكانوا يقصدون حضرته كي يتزودوا بأوفر حظ من محاسن آثارها ، ولعل هذا ما يفسر لنا حرص الأديب الذي كان يغادر حضرته على التزود بكتاب منه إلى الجهة التي يريد ان يقصدها ؛ لتكون له شهادة على علو كعبه في الأدب والبلاغة وقرض الشعر [37] .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى ان الصاحب كان نسيج وحده في صناعة الترسل وانه كان مدرسة أدبية رائدة ، تخرج من دوحتها الوارفة لفيف من الأدباء والكتاب الذين أصبحوا في عصره ، وبعدَ رحيله ، قمما شامخة في الأدب والترسل وسمو البلاغة .. ولعل في طليعة أولئك الأدباء الكتاب الذين نهلوا من فيض أدب الصاحب ، ورتعوا من معين بلاغته ، وسحر أدبه ، وكمال خلقه : أبو العباس احمد بن إبراهيم الضبي [38] ، وأبو محمد عبد الله بن احمد الخازن [39] ، وأبو سعيد

---

[35] المنتظم – ابن الجوزي : 180/7 .

[36] معجم الأدباء : 252/6 ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 335/1 .

[37] ينظر : يتيمة الدهر : 449/4–451 ومواضع أُخر غيرها .

[38] تراجع ترجمته وفصول رسائله في يتيمة الدهر : 339/3 وما بعدها ، وقد وصفه الثعالبي فقال : " هو جذوة من نار الصاحب ، ونهر من بحره ، وخليفته النائب منابهِ في حياته ، القائم مقامه بعد وفاته " .

[39] تراجع ترجمته وأخباره ونماذج من ترسله في : اليتيمة : 379/3 وما بعدها ، وقد أشار الثعالبي : " انه من خواص الصاحب ، ومشاهير صنائعهِ ، وذوي السابقة في مداخلته وخدمته ... ويقتبس من نور آدابه ".

الرستمي [40] ، وأبو العلاء الاسدي [41] ، وأبو الحسين الغويري [42]، وأبو القاسم الزعفراني [43] ، وأبو الحسن علي بن محمد البديهي [44] ، وأبو محمد الحسن بن احمد اليروجردي [45] ، وأبو الفرج بن هندو [46] ، وغيرهم كثير من مشاهير الأدباء والمترسلين في القرن الرابع .

****

(3) الأمير قابوس بن وشمكير:

هو شمس المعالي قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زيار الجيلي [47] احد أمراء الأسرة الزيارية [48] التي بسطت نفوذها وحكمت طبرستان وجرجان وقد ذكر أبو الفداء انه استولى على طبرستان وجرجان بعد وفاة اخيه (بهستون) عام 366 هـ [49] ، فلقبه الخليفة (الطائع لله) بلقب " شمس المعالي " [50] .

---

[40] ينظر : يتيمة الدهر : 3/355-356 ، وذكر الثعالبي " ان الصاحب كان يقدمه على اكثر ندمائه وصنائعهِ ، وينظمه في عقد المختصين به . " .

[41] ينظر يتيمة الدهر : 3/394 ، وذكر الثعالبي انه كان : " نديم الصحبة للصاحب ، شديد الاختصاص به ، وكان يحبه ، ويأنس به ، ويكاتبه نثرا وشعرا . " .

[42] تراجع يتيمة الدهر: 3/395 وما بعدها .

[43] ينظر كتاب اليتيمة : 3/402-413 .

[44] تراجع يتيمة الدهر 3/399-402 .

[45] تراجع اليتيمة :4/455 ، وفيه يقول الثعالبي : " قد خدم الصاحب في عنفوان شبابه ، وتأدب بآدابه ، واختص به ، وراض طبعَهُ على اخذ نمطه ".

[46] تراجع يتيمة الدهر 3/459 وما بعدها .

[47] تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 2/121 .

[48] أشار الأستاذ ادوارد بروان الى ان الزياريين ينحدرون من بيت عظيم من بيوتات الفرس ، ويقال انهم ينتسبون الى احد الملوك الساسانيين وهو (قباذ) . ينظر : تاريخ الأدب في إيران : : : : 2/103 .

[49] يراجع : تاريخ أبي الفداء(المختصر في أخبار البشر: 1/460 (أحداث عام 366 هـ) اما ياقوت الحموي (معجم الأدباء : 16/220) فقد جعلها سنة (367 هـ).

[50] ينظر : معجم الأدباء : 16/220 ، النثر الفني في القرن الرابع : 2/338 .

ومنذ بداية حكمه ، نشبت وقائع وحروب بينه وبين جيوش بني بويه انتهت بهزيمته ، ولجوئه إلى السامانيين في خراسان عام 371 هـ [51] ، وقد ظل لاجئا ، بمنأى عن امارته حتى عام(388 هـ)، اذ تمكن بعد وفاة الأمير فخر الدولة البويهي من استرداد ملكه ، الا ان جنده وقادة جيشه تمردوا عليه – لقسوته وشدة بطشه [52] – وحاصروه ، وانتهى الأمر بخلعه ، وتولية ابنه (منوجهر) ، بعد فرارهِ إلى (بسطام) حيث قضى نحبه هناك [53] .

وقابوس احد الأمراء الأدباء الذين كانت لهم مكانة رفيعة بين كتاب عصره[54] ، حتى سرى ذكره في المغرب الإسلامي، فعدَّهُ (ابن شهيد الأندلسي) ضريعا لبديع الزمان الهمذاني [55] ، وقد قرنه السمرقندي العروضي بالصاحب أبن عباد ، وأبي إسحاق الصابي ، وجعلهم مضرب المثل في البلاغة ، وجعل اطلاع الأدباء والكتاب على ترسلهم من شانه ان يبلغ الكاتب إلى مصاف الأدباء المبدعين . يقول السمرقندي [56] :

" ولا يبلغ كلام الكاتب هذه الدرجة حتى ينال من كل علم نصيبا ... والاضطلاع من صحف الخلف ، مثل : ترسل الصاحب والصابي وقابوس ... فكل واحد ممن عددت ، نسيج وحده في صناعته ، ورصد وقته ، وكل كاتب يحصل هذه

---

[51] معجم الأدباء : 220/16 .

[52] ينظر التاريخ اليميني للعتبي : 172/2 .

[53] ينظر النثر الفني في القرن الرابع : 338/2 ، اما في حواشي كتاب (جهار مقالة) للسمرقندي : ص99 ، ومعجم الأدباء : 221/16 ، فقد ورد انه قتل في إحدى القلاع بجرجان سنة(403 هـ)، وذكر هذا أيضاً بروكلمان : (121/2) وأضاف أيضاً انه مُنِعَ من الدثار وهو في الحبس – وكان البرد شديدا فمات من ذلك .

[54] قرنه الأستاذ مبارك – النثر الفني : (2 / 339) بالأمير الشاعر المعتمد بن عباد لما جلل ادبه من الطابع المحزن ، فكلا الأميرين بكى ملكه ومجده وحظه .

[55] النثر الفني في القرن الرابع : 338/2 .

[56] كتاب جهار مقالة : ص23 .

الكتب ، ويديم مطالعتها ، يشحذ خاطره ، ويصقل ذهنه ، وينير طبعه ، ويسمو كلامه ، ويستحق اسم الكاتب ".

وهذه شهادة قديمة قيمة بحق هذا الأمير الأديب، وشهادة أخرى حدثية ترفع من مقام هذا الأمير الأديب إلى الذروة العليا في صناعة الترسل بين أدباء هذا القرن . يقول الاستاذ مبارك [57] :

" وأما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الإنشاء ، هو نثر مصنوع صنعة دقيقة جدا ، لا يدرك كنهها الا الفحول ... " .

ولا جرم ان قابوساً كان أديباً متميزا ، وكان إلى جانب سعة ثقافته وإلمامه ببعض علوم عصره كالفلسفة وعلم الفلك والنجوم [58] ، قد اشتهر بالفصاحة والبلاغة وعلو البيان . ذكر الثعالبي ، في ترجمته ، منوها ببلاغة منثوره ومنظومه [59] :

" فأني اتوج هذا الكتاب بلمع من ثمار بلاغته ، التي هي اقل محاسنه ومآثره ، واكتب فصولا من عالي نثره ، مختومة ببعض ما ينسب إليه من شريف نظمه ... " .

وقال العتبي أيضاً – مشيرا إلى رسائله مشيدا ببوارق بيانه وبلاغة ترسله[60] : " ان رسائله موجودة في البلاد ، عند الأفراد ، لكني اكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه ... " .

وممن عني بجمع غرر مكاتباته ، وتحليل ما انطوت عليه من لمع البلاغة وافانين الصنعة ، من القدماء : عبد الرحمن اليزدادي ، إذ اختار شذرات من ترسله ، سماها " كمال البلاغة " وقد وشحها بمقدمة نفيسة ، أشاد فيها ببلاغته وأشار إلى

---

[57] النثر الفني في القرن الرابع : 339/2 .

[58] ينظر : تاريخ الأدب في إيران : : : : 103/2 ، وقديما أشار الثعالبي أيضاً الى سعة علمه فقال : " ... ومن جمع الله له الى عزة الملك بسطة العلم ، والى فصل الحكمة نفاذ الحكم . " (اليتيمة : 67/4) .

[59] يتيمة الدهر: 67/4 .

[60] التاريخ اليميني : 17/2 .

دقة ابتكاره ، فذهب اليزدادي إلى ان قابوساً قد ابتدع أربعة عشر نوعا من البديع ، وأنها غير موجودة في كلام غيره ، وقرر انها مكملة لأنواع البديع التي استخرجها قدامة بن جعفر في " نقد الشعر) من كلام الفصحاء [61] .

على ان (اليزدادي) كان مبالغا إلى حد الإفراط في تقريظ بلاغة قابوس مفتونا بفصاحة كلمه إلى حد الغلو حين وصف أسلوبه (بالإعجاز) ، وانه مباين في الفصاحة والعذوبة والبراعة والإيجاز للكلام المعهود الجاري على السنة ، وانه ليس من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والإدراك الطباعي ، بل هو إفاضة القوة العلوية [62] .

وما من شك في ان أكثر ما بأيدينا من رسائل هذا الأديب يعد ذخيرة أدبية وفنية نادرة ، وإنها تمثل مرحلة جديدة من مراحل الصنعة الفنية في هذا القرن وقد أطلق بعض النقاد والباحثين المعاصرين عليها مرحلة " التصنع " [63] ، بينما راى باحث اخر ان رسائل قابوس تمتاز " بشدة الأسر واطراد الفن في جميع أجزائها ، بحيث يمكن أن يقال : إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل . "[64] .

---

[61] تولى اليزدادي تسمية هذه الأنواع البديعية في رسائل قابوس بما شاكلها من النعوت ، كالمجنح ، والممثل ، والمجانس ، ومشابهة الصورة الى اخر هذه الأنواع الأربعة عشر. وقد أنكر الأستاذ مبارك ان تكون هذه الأنواع البديعية التي ذكرها اليزدادي من ابتكار قابوس ، ورأى أنها في جملتها ان هي الا ترديد لضروب الصنعة التي عرف بها المتقدمون . (ينظر : النثر الفني في القرن الرابع 339/2) ، وقديما أنكر ابن المعتز في مقدمة كتابه " البديع " على الشعراء المحدثين في عصره ، ان يكونوا قد ابتكروا هذه الألوان والحلي البديعية التي راجت في أشعارهم ، ورأى أنها كانت موجودة في أشعار القدماء ، الا انها مبثوثة منثورة في ازاهير كلامهم .. (ينظر مقدمة كتاب البديع).

[62] يراجع : كمال البلاغة : ص32 .

[63] تراجع التفاصيل في كتاب (الفن ومذاهبه في النثر العربي – للدكتور ضيف ص256 وما بعدها .

[64] النثر الفني في القرن الرابع : 342/2 .

* * * *

اما اثر هذا الأمير الأديب في الحياة الأدبية ، وإسهامه الفاعل في ازدهار صنعة الترسل في هذا القرن ، فيتجلى واضحا في حدبه على الأدباء والشعراء والمفكرين ، واحتضانه لهم [65] ، وإغداقه عليهم ، فقد ذكر ياقوت [66] ، ان قابوساً كان واسع المروءة ، عالي النفس ، لا يحب الملق ولا المداهنة ، ولذا كان يأبى ان يستمع إلى مدائح الشعراء له ، الا انه مع ذلك كان يعطف عليهم ، ويبذل لهم الجوائز السنية والمكافآت .

وعلى الرغم مما أورده ياقوت عن عزوف قابوس عن مدائح الشعراء ، الا أنَّ حضرته كانت ملتقى كثير من الأدباء والشعراء والمفكرين ، وكانت حاضرته تزدهي بألوان الثقافات الأدبية الرفيعة التي راجت في هذا القرن ، ولعل أدق شاهد على ذلك ؛ تلك الفصول البليغة والقصائد والمقطعات الكثيرة التي وردت في ثنايا اسبق تواريخ حاضرته (طبرستان) ، وبخاصة ما ألفه (ابن اسفنديار) في منتصف القرن السابع للهجرة [67] ، اذ أشار إلى مجموعة من الأشعار العربية والفارسية التي انشدها الشعراء في مجالسه الأدبية ، فضلا عن الكتب والمصنفات العربية والفارسية التي الفت وأهديت إليه [68] .

---

[65] لعل ما جرى للحكيم (ابن سينا) في فراره من قبضة السلطان محمود الغزنوي ، ولجوئه الى جرجان ، في كنف الأمير قابوس ، ورعايته له وإكرامه وإغداقه عليه ، خير شاهد لذلك . تراجع التفاصيل في تاريخ الأدب في إيران : : : : 2/112-113. وكذا يقال عن احتفائه بالمفكر العالم البيروني ، ينظر : كنوز الأجداد : 239 ، وتراجع حواشي كتاب (جهار مقالة – للسمرقندي) : 146 .

[66] معجم الأدباء : 16/229 .

[67] تراجع التفاصيل في تاريخ الأدب في إيران : : : : 2/108 وما بعدها .

[68] من تلك المصنفات الشهيرة مثلا : كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ، وهو في التاريخ والنجوم ، وقد أهداه للأمير قابوس لاهتمامه بعلم الفلك والنجوم ، ومن تلك المصنفات أيضاً: (كتاب المبهج) ، و (التمثيل والمحاضرة) للثعالبي وغيرها .

ولعل اشهر الشعراء الفرس المسلمين الذين حفل هذا المصنف بالفاف مدائحهم للأمير قابوس ؛ الشاعر أبو بكر محمد بن علي السرخسي الملقب بالخسروي والشاعر قمري الجرجاني وسواهما من الشعراء [69] .

وربما كان اجمل ما نختتم به تقييمنا لشخصية هذا الأمير الأدبية ، ما ذهب اليه المؤرخ الشهير العتبي اذ قال [70] : " لم يسمع في شيوخ الملوك بابرع منه في الآداب والحكم " .

****

(4) أبو الفضل الميكالي:

هو الأمير أبو الفضل عبيد الله [71] بن احمد بن علي الميكالي ، احد أمراء الأدب والبيان في خراسان ، من أسرة فارسية عريقة (هي أسرة آل ميكال) تنتسب إلى بهرام جور [72] . وقد أشار الثعالبي في اليتيمة [73] إلى قدم بيتهم وشرف

---

[69] تراجع التفاصيل في : تاريخ الأدب في إيران : : : : 108/2 وما بعدها ، وتراجع مدائح الشعراء للأمير قابوس في : يتيمة الدهر (الباب التاسع / شعراء وكتاب جرجان وطبرستان) ج4 (أبيات أبي الحسن الجرجاني البائية : 17/4 ، وأبيات أخرى له فيه (لامية 17/4 ، وتنظر أيضاً أبيات للقاضي أبي بشر الفضل بن محمد الجرجاني 53/4 (قصيدة لامية) ، وقصيدة لأبي نصر عبد الله بن محمد البجلي الاستراباذي ، رواها الثعالبي عن العتبي: 55/4 وما بعدها) ويراجع أيضاً: التاريخ اليميني – للعتبي= =:115/1 وما بعدها ، فضلا عما أورده (ابن اسفنديار) في تاريخه كما أشار براون 108/2 وما بعدها .

[70] التاريخ اليميني – للعتبي : 17/2 .

[71] ذكر بروكلمان ، في تاريخ الأدب العربي : 198/5–199 ، ان اسمه (عبد الرحيم) وذكر أيضاً(عبيد الله) ، وينظر أيضاً في ترجمته : فوات الوفيات 25/2 .

[72] هو احد اشهر الملوك الفرس الساسانيين (438–421م) وهو ابن يزدجرد وقد شهر ببراعته في الصيد والشعر والموسيقى ، وتذكر بعض الأساطير الفارسية انه أول من نظم الشعر الفارسي . يراجع كتاب (في ادب الفرس وحضارتهم – د. محمد عبد السلام كفافي ص177) ، وينظر : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 198/5 .

[73] يتيمة الدهر: 407/4–408 .

اصلهم ، وكرم أسلافهم وأطرافهم ، وجمعهم بين تليد الأدب وطريفه وأشار إلى من انخرط في سلكهم من أدباء العصر ، واعيان الفضل ، وأفراد الدهر .

وكان أبو الفضل الميكالي أديباً شاعراً ، محبا للشعراء والأدباء ، وقد لعب في ذلك دورا خطيرا في خراسان [74] ، فكان – كالصاحب بن عباد – زعيم مدرسة في خراسان ، له أثره الكبير في الحياة الثقافية والأدبية ، وقد تأثر به وتخرج عليه لفيف من الأدباء وكتاب الديوان الذين لازموه ، وعكفوا على خدمته[75] .

لقد أفاض مصنفو التراجم والأدباء كثيرا في تقريظ أبي الفضل الميكالي ، والثناء على منثوره ومنظومه ، والإشادة بطريقته وبلاغته ، فالثعالبي وصفه بانه واسطة العقد في ال ميكال ، وانه يتفرد عنهم بمزية الأدب الذي هو ابن بجدته ، وأبو عذرته ، واخو جملته . ثم يقول :

" وما على ظهرها اليوم احسن منه كتابة ، وأتم بلاغة ، وكأنما أوحي بالتوفيق والتسديد إلى قلبه ، وحبست الفقر والغرر بين طبعه وفكره ، فهو من ابن العميد عوض ، ومن الصاحب خلف ، ومن الصابي بدل ... " [76] .

أما الباخرزي ، فيصف أدبه – منثوره ومنظومه – فيقول[77] : "وأما أدبه فقد كان – على ذبول عوده – غضا ، يكاد يغض من أزهار الربيع غضا ، وأما شعره فقد أعلن أهل الصناعة شعار الانتماء إليه ، ورفرفت الشعراء بأجنحة الاستفادة عليه ، واما رسائله ، فرسل يدر ، وسلك لا يخونه الدر..." .

---

[74] تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 198/5 .

[75] لعل اشهر من تخرج عليه : عمر بن علي المطوعي الذي اتصل بخدمته " فتخرج بالاقتباس من نوره ، والاغتراف من بحره ". اليتيمة : 500/4 ، وممن اختص بالميكالي وتأثر به أيضاً: أبو منصور يحيى ابن يحيى الكاتب (ينظر تتمة اليتيمة 194/5) ، ومن كتابه المتخلقين بخلقه ، والجاري في طرقه ، والمستملي صحف فضله : (أبو سلمة وهو ابن أبي منصور الكاتب) ينظر تتمة اليتيمة 197/5 ، وغيرهم .

[76] يتيمة الدهر: 408/4 .

[77] دمية القصر وعصرة أهل العصر: 89/2 .

ويصف عمر بن علي المطوعي بلاغة أبي الفضل الميكالي وبيانه في فصل له فيقول [78] : " ... ان أردت البلاغة فهو مالك عنانها ، وفارس ميدانها ، وناظم درها ومرجانها ، وصائغ لجينها وعقيانها ... " .

ولعل اجل وأجمل ما نختتم به وقوفنا عند منثور هذا الأمير الأديب، وسحر بلاغته ؛ ما قاله فيه أبو منصور الثعالبي [79] : [من المنسرح]

سبحان ربي تبارك الله ما أشبه بعض الكلام بالعسل

والمسك والسحر والرقى وابنة الكرم وحلي الحسان والحلل

مثل كلام الأمير سيدنا نظما ونثـرا ، يسير كالمثل

ويصف المطوعي في فصل له من رسالة أدبية حضرة أبي الفضل الميكالي وتشجيعه للأدباء ، وإغداقه عليهم ، فيقول [80] :

" قد أصبحت حضرته – لازالت أرجة الأرجاء بطيب شمائله ، راضية الرضا عن صوب أنامله – موسم الآمال ، ومحط الرحال ، وعبده أحرار الكلام كما خدمته أحرار الأيام ، وأطاعته المعاني والمعالي ، كما أطاعه صرف الأيام والليالي ، فهو – ادام الله تمكينه – شهاب المجد الذي لا يخبو واقده ، وروض الكرم الذي لا يجدب رائده ... " .

****

وهناك طبقة من كتاب المشرق الإسلامي، كانوا من الولاة والرؤساء التابعين لأمراء وحكام الممالك المستقلة ، وقد بلغوا الغاية في علو الشأن ، ورفعة الفضل . وقد مارس هؤلاء الولاة الأدباء صناعة الترسل ، وبرعوا فيها ، وأجادوا كل الإجادة ، وقد كان لذلك أثره الكبير في ازدهار الأدب والمكاتبات الأدبية ؛ لما عرفوا به من كمال الأدب والبلاغة ، ورفعة الشأن والعفة والزهد .

---

[78] زهر الآداب وثمر الألباب : 749/3 .

[79] من غاب عنه المطرب :15 .

[80] زهر الآداب وثمر الألباب: 749/3–750 .

وقد عقد أبو منصور الثعالبي فصولا مطولة لكتاب المشرق الإسلامي، وقف عند أحدها لدراسة غرر هؤلاء الأدباء من الولاة ، وبيان ما انطوت عليه فصول رسائلهم ، ودرر منظومهم من آيات البلاغة ، وفنون القول [81] .

ثانيا : طبقة كتاب دواوين الرسائل:

لقد كان مشاهير الكتاب الذين تسنموا منصب رئاسة ديوان الإنشاء الرسمي في حاضرة الخلافة ، أو في حواضر الممالك المستقلة في المشرق الإسلامي إبّانَ هذا القرن ، كانوا غالبا ما يتعاطون الرسائل الأدبية ، فضلا عن ان كلا هذين الضربين من الرسائل – الديوانية والأدبية – يشتركان في الصياغة الأسلوبية وغلبة طابع السجع والبديع ، ويختلفان من حيث الأغراض أو الموضوعات .

---

[81] من هؤلاء الولاة الرؤساء الأدباء : الشيخ العميد أبو سهل محمد بن الحسن الحمدوني. وقد وصفه الثعالبي بأنه : " بحر الأدب ، وطود الكرم ... " (تتمة اليتيمة: 5/249–250) ومنهم : الشيخ العميد أبو منصور ابن مشكان ، وقد وصفه الثعالبي بأنه كان آية في البلاغة العالية ، وأنها كانت عفو خطراته ، وأشار أيضاً إلى انه كان= =مضرب المثل في سلاسة كلامه ، وعذوبة ألفاظه ، من ذلك قول بعض أهل العصر يصف ماء : [من السريع]

يا حسن ماء قد كسته الصبا تشنيج ذيل القرطق الأزرق

كأنه لفظ ابن مشكان في توقيعه عند ملك المشرق

وقال بعضهم في وصف اثار الربيع : [من البسيط]

وقد **حسبت نسيم الروض يقرئني**

كتب ابن مشكان عن صدر السلاطين

(ينظر : تتمة اليتيمة : 5/250) .

ومنهم : الشيخ العميد أبو بكر علي بن الحسن القهستاني ، وقد بالغ الثعالبي في نعت نثره فقال : " وكانما يوحى اليه في النثر والنظم ، ويغرف آدابه من البحر ... " تتمة اليتيمة 5/264.

ومنهم : الشيخ أبو المحاسن سعد بن محمد بن منصور (رئيس جرجان) ، وقد وصفه الثعالبي بانه اجمع أهل العصر بين العلوم والآداب ، وانه اجمع الرؤساء للمحاسن ، وانه عالم في ثوب عالم ، وبحر في شخص حبر " . تتمة اليتيمة : 5/165=

وانطلاقا من هذه الحقيقة ، فان بروز طبقة من جهابذة الكتاب الذين تبوأوا مكانة سامية في ديوان الإنشاء ، قد أسهم إسهاماً كبيرا وفاعلا في نضج الحركة الأدبية والثقافية ، وازدهار صناعة الكتابة في هذا القرن .

ولعل ابرز أعلام هذه الطبقة من كتاب ديوان الرسائل في بغداد ، حاضرة الخلافة الإسلامية ، او حواضر الممالك الإسلامية في المشرق أبان هذا القرن هم:

(1) أبو إسحاق الصابي(*):

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابي [82] . اتفق جل من ترجم له من مصنفي كتب التراجم ، ومؤرخي الأدب ، على انه كان على دين الصابئة ، وكان متشددا في ذلك [83] ، وان اصل سلفه من حران [84] .

وكان بليغا في صناعتي النظم والنثر [85] ، وقد وصفه الثعالبي [86] ، بأنه أوحد العراق في البلاغة ، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة .

وعده الأستاذ متز [87] اكبر المنشئين في النصف الثاني من القرن الرابع ، وذكر جميع مصنفي كتب التراجم انه تقلد جلائل الأعمال وفي مقدمتها تسنمه رئاسة ديوان الرسائل عام 349 هـ / 960م ، وقد حلب الدهر اشطره ، وذاق حلوه ومره

(*) تراجع دراسة الباحث (مهدي صالح محمد البدري) : " أبو إسحاق الصابي .. حياته وأدبه " وهي رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الآداب / جامعة بغداد كانون الثاني 1976م .

[82] أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص54 ، اما صاحب اليتيمة فقد ذكر ان اسم جده (هرون الصابي الحراني) يتيمة الدهر : 287/2 .

[83] تراجع تفاصيل خبره مع (عز الدولة بختيار) الذي دعاه إلى الإسلام ؛ ليجعله وزيرا له فابى (معجم الأدباء 324/1 ، تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 119/2 ، ويراجع ما ساقه الثعالبي في اليتيمة 288/2–289 من انه كان من نساك أهل دينه ، ويراجع ما ذكره عن حضوره مائدة الوزير المهلبي .

[84] ينظر : يتيمة الدهر: 287/2 ، معجم الأدباء : 324/1 ، أخبار العلماء للقفطي: ص54 .

[85] إخبار العلماء للقفطي :54 .

[86] يتيمة الدهر:287/2 .

[87] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 448/1 .

[88] ، وظل يتقلد رئاسة الديوان في بغداد ، عاكفا على خدمة أمراء بني بويه حتى وفاته بالشونيزية في الثاني عشر من شوال عام 384 هـ / 994م [89] .

****

ولعل اجل ما يمكن ان نسجله للصأبي في رسائله الديوانية والأدبية – بخاصة – أمران مهمان هما : (الأول) : إن أبا إسحاق الصابي في مكاتباته وعهوده الرسمية – وقد شاع ذلك أيضاً في جل رسائله الأدبية – وعلى الرغم من أنها تناولت أموراً عملية ورسمية ، بعيدة عن متناول الأدب والعاطفة ، الا انه كان يوشحها بافانين البلاغة ، ويوشيها بعبارات مرصوفة متوازنة او مسجوعة وموشاة بضروب المجازات وألوان البديع ، مع وضوح المعاني ، وصفاء التعبير.

(الثاني) : ان ابا إسحاق الصابي عمَّق الطريقة التي بدأها أبو الفضل ابن العميد في استخدام العبارة القصيرة المسجوعة في المكاتبات الرسمية ، وبدأ على عهده ، وبعد رحيله ، يشيع استعمال الأساليب المحلاة بالسجع وألوان البديع الأخرى ، في المكاتبات الأدبية والاخوانية ، بعد شيوعها في الرسائل السلطانية الرسمية .

وكان الصابي كثيرا ما يقرن ، في بلاغته وعلو كعبه في الترسل ، بالوزير الصاحب ، وقد أشار الثعالبي في اليتيمة [90] إلى انه كثيرا ما خاض الخائضون ، واخب المخبون في الترجيح بين هذين الصدرين في الكتابة . ثم يقول الثعالبي[91]: " ومن اشفى ما سمعته في ذلك ؛ ان الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو إسحاق كان

---

[88] يتيمة الدهر : 287/2 ، وتراجع تفاصيل سجنه عقب وفاة الوزير المهلبي عام (352هـ) ، وتفاصيل خبر اعتقاله عقب دخول عضد الدولة بغداد ، وقتله لبختيار البويهي عام (367 هـ) (يتيمة الدهر: 290/2–291) ، ويراجع : زهر الآداب وثمر الألباب : 444/2 وأخبار العلماء للقفطي :54–55 .

[89] ينظر : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 119/2 ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 448/1 .

[90] ينظر : يتيمة الدهر: 292/2 .

[91] يتيمة الدهر : 292/2–293 .

يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد ، وكيف جرى الأمر فهماهما ، وقد وقف فلك البلاغة بعدها ".

وهكذا كان أبو إسحاق الصابي أحد أعمدة الأدب والترسل الذين أسهموا في رفد الحياة الأدبية والثقافية ، وازدهار الرسائل الديوانية والأدبية في القرن الرابع .

(2) عبد العزيز بن يوسف الشيرازي:

ومن الكتاب الذين تسنموا رئاسة ديوان الرسائل ، وكانوا يجرون مجرى الوزراء ، وأسهموا في رفد الحياة الأدبية ، وازدهار صناعة الترسل ، وبخاصة المكاتبات الأدبية : أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الشيرازي [92] .

وهو احد المقدمين في تسيير شؤون الأمارة البويهية في شيراز ، يقول الثعالبي : " وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه ، معدودا في وزرائه ، وخواص ندمائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده [93] .

وكان أبو القاسم ، كما وصفه صاحب اليتيمة : " احد صدور المشرق ، وفرسان المنطق ، ومن الأعيان الممدحين المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة " [94] .

وقد أشار الأستاذ مبارك [95] إلى انه كان من أعلام الكتاب في زمانه ، وقد نقل ياقوت الحموي عن صاحب اليتيمة ، بإسناد عن بعض ثقات عصره ، ومن المقربين للوزير الصاحب بن عباد ، انه كان يقول [96] : " كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعني نفسه".

---

[92] تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 118/2 ، وينظر : معجم الأدباء: 338/1 .

[93] يتيمة الدهر: 369/2 .

[94] المصدر نفسه : 369/2 .

[95] النثر الفني في القرن الرابع : 435/2 .

[96] معجم الأدباء : 338/1 ، ويراجع النص في اليتيمة : 292/2 .

لقد جمع هذا الكاتب – كنظيره أبي إسحاق الصابي – الإحسان والإبداع في رسائله السلطانية ، ومكاتباته الأدبية والاخوانية ، وتتجلى أهمية رسائله في إنها كانت موجهة إلى مختلف العظماء والوجهاء في هذا القرن ، ومن هنا فقد حظيت رسائله بقيمة كبيرة – ولاسيما رسائله الديوانية – اذ إنها كانت بمثابة وثائق تاريخية مهمة وطريفة ، لإحدى إمارات المشرق الإسلامي النائية في السنوات 335 هـ وحتى عام 380 هـ ، فضلا عما كان يعرب عنه ترسله من أدب فضفاض ، وخاطر بالإجادة والإحسان فياض [97] .

وعلى الرغم من ضياع الكثير من أخبار هذا الأديب الكاتب ، وضياع كثير من نتاجه الأدبي ، فقد احتفظ أبو منصور الثعالبي في كتابه اليتيمة ، بقدر مهم من رسائله السلطانية والأدبية [98] ، يمكن ان يستشف الباحث منها اقباساً مهمة من سيرة هذا الأديب الكاتب ، ويتتبع علاقاته الشخصية ويجسد كثيرا من صفاته وكرم أخلاقه .

ولعل صلات الود والوئام التي كانت تربطه مع كثير من أقرانه ولداته وفي مقدمتهم الوزير الصاحب بن عباد ، وأبو إسحاق الصابي ، وسواهما من الأدباء ، هي التي أوقدت فيه جذوة الإبداع في رسائله الأدبية والاخوانية ، على الرغم مما سجله و رصده بعض الباحثين فيها من سمات الملق والتصنع[99] .

ومهما يكن من امر ، فان رسائل أبي القاسم الشيرازي قد جمعت كثيرا من السمات الفنية التي تميزت بها المكاتبات الأدبية الرائعة في القرن الرابع الهجري .

---

[97] يتيمة الدهر : 369/2 .

[98] تراجع رسائل أبي القاسم الشيرازي في : يتيمة الدهر ، حيث اورد الثعالبي مجموعة من رسائله وعهوده السياسية افردها عن سواها (اليتيمة : 365/2–373 . ثم أورد الثعالبي طائفة من رسائله الاخوانية ، ص374–379 .

[99] تراجع التفاصيل في : النثر الفني في القرن الرابع: 437/2 .

ومن هنا ، يمكن ان نعد تلك الرسائل نماذج أدبية وفنية مهمة ، أسهمت كثيرا في إجلاء الصورة الحقيقية لطبيعة النثر الفني في هذا القرن ، فضلا عن قيمتها التاريخية والوثائقية الخطيرة التي المحنا إليها .

(3) أبو القاسم الاسكافي:-

هو أبو القاسم علي بن محمد الاسكافي النيسابوري [100] ، احد اشهر كتاب الإنشاء على عهد الأمارة السامانية في خراسان . ذكر الثعالبي : انه تأدب في ريعان عمره بنيسابور ، ثم حرر في بعض دواوينها [101] ، " فخرج منقطع القرين ، وواسطة عقد الفضل ، ونادرة الزمان وبكر الفلك ... " [102] .

وعده الثعالبي أيضاً – على عادته في إطراء تراجمه " لسان خراسان وغرتها ... وأوحدها في الكتابة والبلاغة ، ومن لم يخرج مثله في البراعة والصناعة " [103] .

وقد كانت رسائله محط الإعجاب ، وموضع المنافسة فيه بين الأمراء السامانيين حتى صار الإسكافي مضرب المثل في البلاغة ، والقدرة على موازنة

---

[100] ينظر خلاصة حواشي العلامة القزويني على كتاب (جهار مقالة) للسمرقندي :ص103-104 .

[101] اختلف بعض من ترجم للشيرازي من مؤرخي الأدب ومصنفي التراجم في بدء عمله بالدواوين : فالنظامي السمرقندي جعل صلته أولاً (بالبتكين) ، ثم انتقل بعد أسره الى خدمة الأمير نوح بن منصور الساماني (جهار مقالة : ص23-24) ، بينما جعل القزويني في خلاصة حواشيه على كتاب جهار مقالة :ص102-103 ، بداية عمله في الدواوين مع الأمير (أبي علي بن محتاج الجفاني) ، ثم اختص بالأمير الحميد نوح بن نصر الساماني . اما الثعالبي فذهب إلى ان بداية الإسكافي كانت مع أبي علي الصاغاني وبعد هزيمته في واقعة (جرجيل) واسر الإسكافي – في خبر طويل – اختص بخدمة الأمير الحميد نوح بن نصر (يتيمة الدهر : 109/4) ، والراجح عندي من هذه الأقوال هو ما ذهب إليه الثعالبي .

[102] يتيمة الدهر : 108/4 .

[103] المصدر نفسه : 108/4 .

الكلام وإيجازه ، ولمّ أطرافه [104] ، وقد ذكره أبو حيان التوحيدي في كتابه الشهير (مثالب الوزيرين) في معرض تهكمه على الوزير الصاحب وهجائه فقال: "وقد استدرك مولانا على الخليل في العروض ، وعلى أبي عمرو بن العلاء في اللغة وعلى أبي يوسف في القضاء ، وعلى الإسكافي في الموازنة..."[105] .

لقد توثقت صلة الإسكافي بالأمير نوح بن نصر الساماني [106] ، فأقعده في ديوان الإنشاء – بعد ان أطلقه من أسره وخلع عليه – مع أبي عبد الله (كلة) والد أبي الفضل ابن العميد – ثم تولى الإسكافي ، بعد وفاة أبي عبد الله ، رئاسة الديوان ، فعلا أمره ، وذاع صيته ، وظل الإسكافي حتى بعد وفاة الأمير نوح بن نصر ، وتولي ابنه الأمير (الرشيد) عبد الملك بن نوح ، ظل يتدرج إلى اسنى المراتب ، وارتفع مقامه عنده ، ولكنه لم يلبث طويلا حتى مرض ومات في مستهل إمارة الأمير الرشيد عبد الملك بن نوح الساماني الذي ولي في حدود عام 343 هـ / 952 م [107] .

---

[104] يراجع كتاب (جهار مقالة) ، المقالة الأولى – الحكاية الأولى والحكاية الثانية ، ومقدرة الإسكافي الفائقة على الايجاز ، وبراعته في التوقيعات : 23–26 .

[105] ينظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 200/1 .

[106] لقد وهم السمرقندي اذ جعل الإسكافي يكتب في ديوان السامانيين على عهد الأمير نوح أبن منصور ، والصواب هو الأمير نوح بن نصر بن احمد بن إسماعيل الساماني – الأمير الرابع – اذ ان الإسكافي لم يدرك عهد الأمير نوح بن منصور الملقَّب (بالسديد) تراجع التفاصيل في جهار مقالة :ص23–24 وتراجع أيضاً خلاصة حواشي العلامة القزويني : 103–104 .

[107] تراجع خلاصة حواشي القزويني على كتاب جهار مقالة : ص104 ، وينظر اليتيمة 112/4–113 ويراجع في اصل السامانيين وذكر أسماء أمرائهم ووزرائهم : أحسن التقاسيم 337/1–338 .

لقد بلغ الإسكافي أعلى مراتب الشهرة في صناعة الترسل – ولاسيما في المكاتبات السلطانية – حتى قيل عنه : " إذا استعمل أبو القاسم نون الكبرياء تكلم من في السماء " [108] .

ولاضطلاع أبي القاسم الإسكافي بالسلطانيات ، وسبقه لأقرانه في هذا الضرب من المكاتبات ، فقد أثار عجب الثعالبي اذ قال : " ومن عجيب أمره انه كان اكتب الناس في السلطانيات ، فإذا تعاطى الاخوانيات كان قاصر السعي ، قصير الباع... " [109] .

وهكذا كان أبو القاسم الإسكافي واحدا من جهابذة الكتاب العظام الذين أسهموا في رفد الحركة الثقافية ، وازدهار صناعة الترسل في المشرق الإسلامي إبان هذا القرن ، وكان جديرا بما أثبته الثعالبي بحقه اذ قال : " انه ازداد على الأنام تبحرا في الصناعة ، وقدرة على الإنشاء التي يؤنس مسمعها ، ويؤيس مصنعها. " [110] .

وهكذا أيضاً جمعت رسائل الإسكافي – التي كانت منذ منتصف هذا القرن كثيرة مدونة ، سائرة في الأفاق – أقسام الحسن والجودة ، وضمّت مزية الموازنة والإيجاز .

ثالثا : طبقة الأدباء الكتاب الجوالين المتكسبين:

شهدت حاضرة الخلافة الإسلامية ، فضلا عن حواضر الممالك المستقلة في المشرق الإسلامي إبّانَ هذا القرن ؛ كثرة الأدباء والعلماء الظاعنين او الوافدين على تلك الحواضر الإسلامية النائية وغيرها .

وقد سبقت الإشارة إلى ان الذي شجع أولئك الأدباء وغيرهم على هذا الترحال تنافس الأمراء والحكام في اجتذابهم إلى حواضرهم ؛ ليزدان بهم بلاطهم ولاتخاذهم وسيلة إعلامية لنشر أمجادهم ، وبناء قواعد ممالكهم الفتية الناشئة .

---

[108] يتيمة الدهر: 110/4 .

[109] المصدر نفسه : 110/4 .

[110] المصدر نفسه : 110 .

لقد كانت حاضرة كل إمارة مستقلة في هذا القرن ، تطفح بالعشرات من الأدباء والعلماء الوافدين الذين ضربوا في آفاق الأرض ؛ طلبا للشهرة او لنيل الحظوة عند أولئك الأمراء ، حتى صار تطواف الأدباء وترحالهم سمة هذا العصر ، ولعل هذا ما يفسر لنا إدراج الثعالبي لملح المقلين من الأدباء والكتاب الطارئين او الوافدين من الآفاق النائية على كل حاضرة إسلامية ، أو امارة نائية ترجم لأدبائها وكتابها .

وينضوي تحت هذه الطبقة أكثر الأدباء المترسلين في هذا القرن ، وهؤلاء المترسلون الجوالون كالمتكسبين بشعرهم من الشعراء ؛ طمعا في نيل الجوائز أو نيل الحظوة لدى الأمراء ورؤساء الممالك المستقلة ، ووزرائهم الذين توزعوا في بقاع كثيرة من أرجاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف .

يقول المطوعي مشيرا إلى هذه الطبقة من الأدباء الكتاب المتكسبين [111] : " فمنهم من اكتسى كلامه شرف الاكتساب ، دون شرف الانتساب ، كالمتكسبين من الشعراء بالمدائح ، المترشحين بها لاخذ الجوائز والمنائح ، وهم الاكثرون من اهل هذه الصناعة . " .

وسوف نقف عند دراسة نماذج من مشاهير هذه الطبقة من الأدباء الكتاب الذين برعوا في مكاتباتهم الأدبية والاخوانية في هذا القرن ، وسوف نشير إلى ما غلب على الفاف رسائلهم ، ونتاجهم الفني من كدر المبالغة ، والإسراف في الصنعة ، والغلو في التزلف بمعاني المديح التي الصقوها بممدوحيهم ,وأسبغوها عليهم .

ولعل اهم من يجدر ان نقف عند دراسته من مترسلي هذه الطبقة ثلاثة هم كما يأتي :

(1) أبو بكر الخوارزمي[*]:

---

[111] زهر الآداب وثمر الألباب : 175/1 .

[*] تراجع دراسة الباحث محمود صالح الضمود " أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه " وهي رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الآداب / جامعة بغداد (كانون الاول 1976م) .

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ، يعدُّ واحدا من جهابذة الكتاب ومشاهير الأدباء والمترسلين الذين برعوا في تدبيج الرسائل الأدبية والاخوانية وتخصصوا في تحبيرها ابان هذا القرن . وقد عده الأستاذ متز [112] اشهر كتاب هذا اللون من الرسائل ، وانه ظل زمانا طويلا اكبر كتاب العرب .

وهو فارسي النسب والمحتد ، أصله من طبرستان ، ومولده ومنشؤه خوارزم [113] ، ولذا كان يلقب (بالطبرخزي) [114] ، وقد اتفقت أكثر المصادر على ان ولادته كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة [115] . اما وفاته فكانت موضع خلاف ، الا ان أكثر مصنفي كتب التراجم ومظان الأدب يذهبون إلى انه في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة للهجرة [116] .

****

وقد اجمع مؤرخو الأدب القدامى والمحدثون على بلاغته ، وعلو كعبه في الفصاحة ، ونبوغه الأدبي ، فأبو منصور الثعالبي – وهو احد من تتلمذ عليه – يرى انه : " كان يجمع بين الفصاحة العجيبة ، والبلاغة المفيدة ... " [117] .

---

[112] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع 450/1 .

[113] يتيمة الدهر 234/4 .

[114] الطبرخزي : لفظ نحت من (طبرستان وخوارزم) ، كما ذكر القدماء ، ولقب بذلك لان اباه من خوارزم ، وامه – وهي اخت المؤرخ المفسر الطبري – من طبرستان . ينظر : الأنساب للسمعاني ص366 ، شذرات الذهب – لابن العماد 105/3 .

[115] ينظر : يتيمة الدهر 239/4 ، تاريخ الأدب العربي – بروكلمان 110/2 .

[116] ينظر : يتيمة الدهر 239/4 ، معجم الأدباء 104/1 ، ويراجع ما رجحه الباحث محمود الضمور في رسالته عن وفاة الخوارزمي ص82 ، اما ما ذهب اليه (ابن الأثير) في كتاب اللباب 273/2 ، وما نقله عنه (ابن خلكان) في ترجمته للخوارزمي (رقم 636) 356/2 ، من ان وفاته كانت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة للهجرة ، فربما كان ذلك سهوا ، او هو من تصحيف النساخ ، وتجدر الإشارة هنا الى ان بروكلمان في تاريخه (111/2) ذكر ان سنة وفاة الخوارزمي كانت سنة 382 هـ .

[117] يتيمة الدهر : 223/4 .

اما الأستاذ مبارك فقد ذهب إلى انه : " شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي ، وشغلت الناس عدة أجيال " [118] ، ورأى أيضاً أَنَّ إسلوبه وتفكيره يمتاز بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه ، وذهب أيضاً إلى: " ان له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال والنبوغ الأدبي " [119] .

وسجل الباحث الأستاذ محمد كرد علي – على الرغم من تحفظه على منازع الخوارزمي الخاصة التي انبثت في كثير من رسائله – للخوارزمي أيضاً هذا الدور الريادي المتميز في النثر الفني ، اذ قال [120] : " ... ومع انه جرى طلقا مع عاطفته ، فقد كانت رسائله مما يتعلم منه ، وقليل في حملة الاقلام من جودوا تجويده. " .

اما رحلاته وتكسبه ؛ فلعل الخوارزمي اشهر من عرف من بين أدباء هذا القرن بكثرة تطوافه في أرجاء الأقاليم والممالك الإسلامية ، ولعل تلميذه الثعالبي اقدم من فصل في هذا الجانب من مصنفي كتب التراجم القدماء [121] .

وربما يكون ما وقف عنده الأستاذ متز في هذا الجانب ادق ما يستوقفنا من دراسات الباحثين من المستشرقين وغيرهم ، فقد اشار أولاً إلى تكسب (الكتاب) في هذا القرن بهذه الصناعة ، ومنهم الخوارزمي ، اذ قال [122] : " وقد عظم شأن هذا الفن ، فن كتابة الرسائل الجيدة ، في أواخر القرن الرابع ، حتى كان الناس

---

[118] النثر الفني في القرن الرابع : 316/2 .

[119] المرجع نفسه : 316/2 .

[120] كنوز الأجداد : :193–194 .

[121] تراجع التفاصيل الدقيقة في يتيمة الدهر 234/4–238 ، وينظر أيضاً: 35/1–36 ، حيث أشار الثعالبي في القسم الأول من اليتيمة يقول : " وكان أبو بكر الخوارزمي في ريعان عمره ، وعنفوان أمره ، قد دوخ بلاد الشام ... " ثم قال : " وانقلب عنها وهو احد أفراد الدهر ... " اليتيمة 35/1 ، وذكر في موضع اخر يقول : " فارق وطنه في ريعان عمره وحداثة سنه ... ولم يزل يتقلب في البلاد " ثم طفق الثعالبي يفصل الأقاليم التي طوف فيها . ينظر : اليتيمة : 234/4 وما بعدها .

[122] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 450/1–451 .

يستطيعون ان يعيشوا من هذه الصناعة ، كما عاش الشعراء قديما من التكسب بالشعر " .

ثم أشار الأستاذ متز ، بإيجاز دقيق ، إلى تقلبه في البلاد الإسلامية ، وأتصاله بالأمراء والوزراء ، فقال [123] : " وقد تقلب في البلاد ، وشرق وغرب ، واتصل بجميع الأمراء تقريبا في شرق المملكة الإسلامية ، فورد بخارى ونيسابور ، وهراة ، واصفهان ، وشيراز ، وغيرها ".

ومما لاشك فيه ان كثرة اسفار الخوارزمي ، وتقلبه في مجالس الأمراء الوزراء – على الرغم من إراقة ماء الوجه في أحيان كثيرة ، فضلا عن معاناته المريرة من تطوافه – قد أفاده كثيرا في بناء شخصيته العلمية ، وصقل مواهبه الأدبية ، فكان – كما ذكر تلميذه الثعالبي –" يأخذ من العلماء ، ويقتبس من الشعراء ، ويستفيد من الفضلاء ، حتى تخرج وخرج فرد الدهر في الأدب والشعر. " [124] .

ويعترف أبو بكر الخوارزمي نفسه – كما نقل على لسانه الثعالبي – بأثر البيئة الشامية ، وصحبته للأدباء والفضلاء فيها ، اذ يقول [125] : " ما فتق قلبي وشحذ فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حد لساني ، وبلغ هذا المبلغ بي ، إلا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي ، وامتزجت بأجزاء نفسي ... " .

وهكذا طبقت شهرته الآفاق ، فراح يجذب إليه صيته كثيرا من التلاميذ ، وبخاصة من الفقهاء وغيرهم [126] ، ولعل صلته الحميمة بتلاميذه ، وتخرجهم عليه ، وتأثرهم بطريقته ، واقتفاءهم أسلوبه في الترسل [127] ، خير شاهد على اثره الكبير

---

[123] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 451/1 ، وينظر أيضاً: تاريخ الأدب العربي 110/2-111 .

[124] يتيمة الدهر: 234/4 .

[125] المصدر نفسه : 35/1-36 .

[126] ينظر في ذلك : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 451/1 .

[127] تراجع رسائل أبي بكر الخوارزمي مع تلاميذه في مجموع رسائله وفي مواضع كثيرة منها .

في ازدهار الثقافة ، والحياة الأدبية وإثرائها ، واتساع قاعدة الأدباء الكتاب في صناعة الإنشاء ، ولاسيما الرسائل الأدبية والاخوانية أبان القرن الرابع الهجري .

****

(2) بديع الزمان الهمذاني:

هو أبو الفضل احمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني [128] ، وقد شهر ببديع الزمان [129] ، ولد في حدود عام 358 هـ [130] بمدينة همذان الجبلية وقد تتلمذ في حداثته على أبي الحسين احمد بن فارس المتوفى عام 395 هـ .

وقد أشار أكثر من ترجم له إلى انه اغترب عن وطنه عام (380 هـ / 990 م) ، وهو مقتبل الشبيبة ، غض الحداثة [131] ، فتوجه إلى الري ، حيث منتجع الصاحب بن عباد ، فحظي عنده ، وتزود من ثمار مجالسه الوارفة ، غير انه لم يطل المكوث في حضرته ، فيمم جرجان ، وأقام فيها مدة ، وأصبح مقربا من محمد بن منصور ، الذي عرف بإكرام أهل الأدب والافضال عليهم ، ثم فارق جرجان [132]

---

[128] تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 112/2 .

[129] لعل أول وأقدم من لقبه بذلك أبو منصور الثعالبي ، ثم شاع بعد ذلك حتى شهر به .

[130] حدد المستشرق بروكلمان ولادته في يوم 12 من جمادي الآخرة سنة 358 هـ / 5 يونية عام (969م)، وينظر أيضاً ما المح أليه الأستاذ متز : 455/1 ؛ اذ أشار الى انه كان يناهز الثانية والعشرين حين فارق همذان عام 380هـ ، اما الأستاذ مبارك فقد ذهب الى ان ولادته كانت عام(357 هـ) (النثر الفني في القرن الرابع: 395/2) .

[131] يتيمة الدهر: 294/4 .

[132] تراجع رسالة بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان (رسائل بديع الزمان ص150–157) وقد أشار فيها إلى سبب مغادرته لحضرة أبي سعيد الإسماعيلي .

إلى نيسابور – حيث آلُ ميكال – فوافاها عام 382 هـ [133] ، بعد ان تعرض لقطاع الطرق من الأعراب [134] .

وفي نيسابور أملى مقاماته المشهورة التي أثنى عليها الثعالبي فقال :" ... وضمنها ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين ، من لفظ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام ، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجد يروق فيملك القلوب ، وهزل يشوق فيسحر العقول ... " [135] .

ثم شجر الخلاف بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لشهرته ، وعلو أمره [136] ، وما لبث ان فارق نيسابور ، يجوب الآفاق ، " ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها وجنى وجبى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرها ، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا استمطر منه بنوء ، وسرى معه في ضوء . " [137] . ثم ألقى عصا ترحاله في هراة ، اذ اتخذها مستقرا ومقاما ، وفيها صاهر أبا علي الخشنامي ، واقتنى في هراة بمعونته ومشورته ، ضياعا فاخرة ، وعاش عيشة راضية .

---

[133] ينظر : يتيمة الدهر: 294/4 ، وذهب الأستاذ متز – مستندا الى ما ذكره بعض مصنفي كتب التراجم المتأخرون ؛ الى انه وافى نيسابور عام (392 هـ) ، أي بعد ان فارق وطنه باثني عشر عاما . (وينظر : معجم الأدباء: 96/1) ، ويراجع أيضاً ما أفاض به في ذلك الباحث (فيكتور الكك) في : بديعات الزمان : 32–33 (المطبعة الكاثوليكية – بيروت 1961) .

[134] تراجع رسالة بديع الزمان التي كتبها ببيشكند إلى أبي سعيد الإسماعيلي وهو يشرح بمرارة ما وقع له من مغيرة الأعراب . (رسائل البديع : ص104–105) .

[135] يتيمة الدهر: 294/4 .

[136] تراجع رسالة الهمذاني (رقم 10) التي فصل فيها ما جرى بينه وبين الخوارزمي من المناظرة يوم اجتماعيهما في دار الشيخ أبي القاسم المستوفي(رسائل الهمذاني ص28–84).

[137] يتيمة الدهر: 295/4 .

اما وفاته فقد أجمعت جل المصنفات التي ترجمت له ، على انه توفي عام 398 هـ ، بعد ان أربى على الأربعين سنة [138] .

مكانته الأدبية واثره في النثر الفني:

ان المتتبع لسيرة الهمذاني ، وما تناقلته مظان الأدب وكتب التراجم عن نبوغه وتفوقه ، يتضح له جليا انه أديب موهوب ، وشخصية فذة نادرة ، وربما ليس من باب الإطراء والمبالغة – على ما عُرف عن الثعالبي من المبالغة في اطراء تراجمه – ما وصفه الثعالبي – وهو اقرب معاصريه – اذ قال [139] :" ... فرد الدنيا ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ... ولم ير ولم يرو ان أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء بمثل اعجازه وسحره ... " .

ثم شرع الثعالبي يسوق شواهد على غرائب حافظته ، وملكة الارتجال لديه ، فضلا عن تمكنه من اللغة واضطلاعه بها ، وتحكمه بمفرداتها ، وانه كان يقوم بأمور تفوق التصور ، وتصل إلى حد الإعجاب والأعجاز [140] .

وكان للباحثين من المستشرقين رأي خاص ومتميز بالهمذاني ، فالأستاذ متز مثلا عده زعيم الطريقة الجديدة والمحامي لها [141] ، وجعله متميزا بظهور نزعة

---

[138] ينظر : يتيمة الدهر : 295/4 ، وفيات الأعيان : 275/1 فقد ذكر ان الهمذاني مات بهراة مسموما ، ثم نقل عن الحاكم أبي سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست الذي جمع رسائل بديع الزمن : انه سمع الثقات يحكون انه مات من السكتة ، وعجل دفنه فأفاق في قبره ، وسمع صوته بالليل ، وانه نبش عنه فوجدوه وقد قبض على لحيته ومات من هول القبر ، وذكر بروكلمان : 112/2 : وقيل : انه دفن قبل وفاته ، اذ أصابه الفالج ، فظنه اهله ميتا ، وينظر : الحضارة الإسلامية – متز : 455/1 وهامشه ، وينظر أيضاً: النثر الفني في القرن الرابع: 395/2 .

[139] يتيمة الدهر : 293/4 .

[140] تراجع التفاصيل في : يتيمة الدهر: 293/4–294 . وقد عد الأستاذ متز ما ذكره الثعالبي من تلك الشواهد على براعة الهمذاني ، عدها أعلى درجات القدرة على الإنشاء إبان القرن الرابع . (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 456/1) .

خاصة إلى الحكايات القصصية التمثيلية القصيرة التي تغلب عليها الصبغة البلاغية ، ورأى ان من ثمرة ذلك في نتاجه الأدبي مجموعة المقامات [142] . وقد عد الأستاذ متز في موضع آخر من كتابه ؛ ان بناء المقامات كلها ودورانها على رجل واحد هو أبو الفتح الاسكندري تمهيد للكتابة الروائية على صورة اكبر [143].

اما المستشرق بروكلمان ، فقد عد الهمذاني مبتكر فن المقامات في الأدب العربي [144] ، والمح بروكلمان ضمنا ، إلى تميز بديع الزمان في هذا الفن الأدبي ، اذ أشار إلى ان منافسه وخصمه الخوارزمي لم يكن هو الذي سبق إلى ذلك ، ودحض بروكلمان دعوى الحصري في معارضة الهمذاني بمقاماته كتاب الأربعين حدثيا لابن دريد ، مستندا في ذلك على ضياع تلك الأحاديث ، وعدم وصولها إلينا حتى يمكن الحكم بصحة ذلك [145] .

اما الأستاذ محمد كرد علي فقد عد نثر الهمذاني ذا طابع خاص ، وقل في الكتاب من أحدث له طريقة كطريقته ، وأملى بها صورته ، وجسم صوته ونعرته[146] .

والذي أميل إليه ان نثر بديع الزمان – ولاسيما رسائله الاخوانية والأدبية – قد غلب عليه طابع التكلف ، والجنوح المفرط إلى الصنعة ، وكان بديع الزمان في كثير من رسائله يعنى بالزخرفة ، وتصنيع القوالب الأدبية ، وكان يرمي إلى إثبات قدرته على أساليب العربية ومنافسة أدباء العربية في ذلك ، مما أضفى على كثير من رسائله طابع الالتواء أحياناً ، وبخاصة عندما كان يلهث ، في مواضع كثيرة من رسائله ، وراء أنواع البديع ، والتشبيهات البعيدة المطلب ، فضلا عما تميزت به كثير

---

[141] ينظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 1/455-456 .

[142] المرجع نفسه : 1/463-464 .

[143] المرجع نفسه : 1/460-461 .

[144] تاريخ الأدب العربي : 2/112 .

[145] المرجع نفسه : 2/112 .

[146] كنوز الأجداد : : 178-179 .

من تلك الرسائل من مسحة الغلو في التضرع ، وإظهار الحاجة والاستجداء ، والإغراق في معاني الملق والإسفاف في التزلف والتضرع [147] .

وعلى الرغم مما سجلناه على نثر أبي الفضل الهمذاني من ملاحظات ، الا إنها لا تقدح به ، او تحط من منزلته ، واثر دوره الكبير في صناعة الترسل ، ويبقى بديع الزمان واحدا من القمم الشامخة المبدعة في النثر الفني ، والذي كان له تأثيره الكبير والواضح في نضج الحركة الأدبية والثقافة في هذا القرن .

****

(3) أبو الفرج الببغاء :

ومن أدباء هذا القرن الذين شهروا بكثرة ترحالهم وتكسبهم بأدبهم ، ومدائحهم للأمراء والوزراء : الأديب الكاتب أبو الفرج عبد الواحد [148] بن نصر ابن محمد الحنطبي المخزومي [149] . ويبدو من نسبه انه عربي ، وقد لقب بالببغاء للثغة مستملحة كانت فيه [150] ، وقيل : بل لقب بذلك لفصاحته وعذوبة منطقه [151] .

---

[147] تراجع على سبيل المثال نصوص الرسائل الأدبية : رسالة الهمذاني الى أبي نصر بن المرزبان ، وقد سأله عارية ، أي بعض ما يتجمل به فامسك عن إجابته ، فأعاد الهمذاني الكتاب إليه، تراجع نسخته في : (زهر الآداب وثمر الألباب: 989/4-990) وتراجع رسالته الى ابن العميد ، وهو يستنجزه : (زهر الآداب 731/3-732) ، وتراجع رسالته الى إبراهيم بن حمزة ، وهي مشحونة بالتضرع بطلب الحاجة والتكسب الى الرؤساء :(زهر الآداب: 1153/4) ،ورسالته الى الشيخ العميد يشكوه حاله وفيها= =التصريح بالكدية : (زهر الآداب: 1043/4) ، وغيرها كثير مما ضمته رسائله المنشورة .

[148] ذكر بروكلمان : ان اسمه عبد الواحد (وقيل عبد الملك) ، ينظر : تاريخ الأدب العربي: 98/2 .

[149] يراجع في نسبه وترجمته : الأنساب للسمعاني : ص65 ، تاريخ بغداد: 11/11 ، وفيات الأعيان : 202/3 .

[150] ينظر : يتيمة الدهر: 293/1 .

[151] يراجع اللباب في تهذيب الأنساب : 117/1 .

اما ولادته فكانت في نصيبين [152] في حدود العقد الثاني من القرن الرابع[153] ، وقد أجمعت المظان التي ترجمت له على انه اتصل ببلاط سيف الدولة الحمداني (356–333 هـ) . الا اننا نستشف من أخباره انه كان أثناء إقامته في حاضرة سيف الدولة على توادد ومراسلة مع بعض الأمراء والوزراء في عصره ، ولعل أشهرهم : الوزير أبو محمد المهلبي [154] ، والأمير جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني [155] (ت 352 هـ) ، وأبو إسحاق الصابي وغيرهم .

وبعد رحيل سيف الدولة (ت 356 هـ) ، شدَّ رحاله إلى الموصل ، حيث الأمير الحمداني أبو تغلب بن ناصر الدولة (عام 358 هـ) ، ثم سار عنها إلى بغداد عام 359 هـ ، وظل يتردد بين هاتين الحاضرتين [156] حتى انهيار الإمارة الحمدانية ، اذ استقر في بغداد ، بعد ان توطدت صلاته مع كبار الأدباء وبعض الأمراء والوزراء وغيرهم .

أما وفاته ، فتلتقي أكثر مظان الأدب وكتب التراجم على انَّ وفاته كانت في شهر شعبان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة من الهجرة [157] .

---

[152] نصيبين : من أعمال ديار ربيعة ، وتقع على اعلى نهر الهرماس : معجم البلدان 787/4

[153] ينظر : مجلة المجمع العلمي العراقي – الجزء الثاني : المجلد 34 ص280 / شعر الببغاء .

[154] المهلبي : هو أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي الذي استوزره معز الدولة منذ عام 339 هـ وحتى وفاته عام 352 هـ . وكان أديباً مشهورا . تراجع رسالته الى المهلبي في اليتيمة :306–305/1 .

[155] تراجع ترجمته في اليتيمة 122/1–126 ، وتنظر رسالة الببغاء اليه 306/1–307 .

[156] يتيمة الدهر: 293/1 ، ولعل أدق ما يؤكد استمرار صلته بالحمدانيين في الموصل رسالته الجوأبية عن أبي تغلب الى الأمير البويهي (بختيار) ، ينظر : يتيمة الدهر 315/1 .

[157] ينظر : الأنساب للسمعاني : 65 ، تاريخ بغداد: 12/11 ، وفيات الأعيان :202/3 .

مكانته الأدبية واثره في النثر الفني:

لعل اول ما تجدر الإشارة إليه ، ان أبا الفرج الببغاء كان متعدد المواهب الأدبية ، فقد جمع الببغاء – باتفاق جل من ترجم له – إلى جودة الشعر ، البراعة في الترسل ، فضلاً عن إبداعه في القصص ، والافتنان في تأليفها [158] .

وربما كان لتنوع ضروب الأدب التي أبدع فيها الببغاء ، فضلا عما عرف عنه من دماثة الخلق وسجاحته ، هو الذي وثق أواصر المحبة والألفة بينه وبين معاصريه ، وحفزهم إلى الإشادة بمكانته الأدبية [159] . فأبو منصور الثعالبي – على الرغم مما عرف عنه من إسراف في إطراء من ترجم لهم من الأدباء – ربما كان محقا حين وصفه بانه :" ظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، واحد أفراد الدهر في النظم والنثر ... فنثره مستوف أقسام العذوبة ، وشروط الحلاوة ، والسهولة ونظمه كأنه روضة منورة تجمع طيبا ، ومنظرا حسنا ... "[160] .

---

[158] اشتهر أبو الفرج الببغاء بين معاصريه بتأليف القصص ، وقد الف كتابا في ذلك ، ويبدو انه ضاع في جملة ما ضاع من نتاجه الأدبي ، وقد أورد الثعالبي في مستهل ترجمته في يتيمة الدهر نموذجا من قصصه الغرامي (ينظر اليتيمة : 294/1–302) ، وقد وصف الأستاذ مبارك قصصه فقال : " انه يعز عن من رامه من أندى الكتاب قلما ، واسماهم بيانا " النثر الفني : 295/2 ، كما ساق المحسن التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة) مجموعة من تلك القصص في مواضع متفرقة من كتابه دون ذكر= =عنوان كتابه ، مكتفيا بالإشارة اليه ، ولشهرة الببغاء بين أدباء عصره في تعاطي هذا اللون من الأدب صار= =مضرب المثل فيه ، ولعل أوضح ما يؤكد ذلك ما خاطبه به أبو إسحاق الصابي في قصيدة له فيه : [ينظر ، يتيمة الدهر: 310/1] .

فحوشيت ياقس الطيور فصاحة اذا انشد المنظوم او درس القصص

[159] ذهب الأستاذ مبارك – على الرغم مما قرره من انه من أركان الحياة الأدبية في زمانه إلى خموله ، وانصراف المؤلفين عنه ، وعدم اهتمامهم باتجاهاته الأدبية ، وعزا ذلك غلى هدوء نفسه ، وقلة مطامعه ، وحدود آماله . ينظر : النثر الفني: 275/2 ، ونحن لا نتفق مع الباحث الكريم فيما ذهب إليه .

[160] يتيمة الدهر: 293/1 .

وكان القاضي المحسن التنوخي (ت 384 هـ) كثير الإعجاب بشاعرية الببغاء ، ذكر في معرض تعليقه على قصيدة له في الأمير سيف الدولة ، يذكر وقعة كانت له مع بني كلاب ، وعفوه عنهم ، يقول : " ... وهي حقيقة بان تورد كلها ، ولكني اخترت من شعره ، ما يصلح للمكاتبة في الحوادث ، أو الأمثال ، أو معنى لم يسبق إليه ، فتركت أكثر محاسن شعره ، وحسن نظمه وبلاغته ، وعذوبة كلامه ، وأكثر إحسانه ، موكولا إلى من ينظر في ديوانه "[161]

وأثنى عليه الخطيب البغدادي ، فقال يصف أدبه : " كان شاعرا مجودا ، وكاتبا مترسلاً ، مليح الالفاظ ، جيد المعاني ، حسن القول في المديح والغزل والتشبيه والأوصاف ، وغير ذلك " [162] .

وقد أثنى كثير من مصنفي كتب التراجم [163] على أدبه ، وسمو مكانته الأدبية ، وتجويده في الشعر ، ولاسيما في المديح والغزل والتشبيهات ، فضلا عن براعته في صناعة الترسل ، وجودة المعاني ، وتحليل مسارب النفس والوجدان.

****

وهكذا كان لهذه الطبقة من الأدباء (الكتاب) الجوالين في هذا القرن اثر كبير في ازدهار الحركة الثقافية والأدبية ، وشيوع المكاتبات الرسمية والأدبية ونضجها .

وقد تنبه المستشرق الالماني الأستاذ (يوهان فك) إلى خطورة هذه الطبقة من الأدباء (الكتاب) الجوالين في هذا القرن ، وإلى ما لعبته من دور فاعل في نشر العلوم والثقافة ، وتعميق جذورهما ، فضلا عن تأصيل جذور العربية في تلك الاصقاع النائية ، ورأى ان هذه الطبقة من الأدباء الجوالين قد كفلت بتجوالها في تلك الحواضر والمدن المختلفة في الإمارات والممالك المستقلة النائية :

---

[161] نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : 103/1 .

[162] تاريخ بغداد : 11/11 .

[163] يراجع : النجوم الزاهرة لابن تغري بردي : 219/4 ، المنتظم لابن الجوزي : 241/7 وفيات الأعيان لابن خلكان : 202/3 .

" نشاطا دائبا في تبادل الأفكار والمذاهب ، وحفظ هذا للغة الأدب طابعها الفصيح ، كما جعلها أيضاً لغة العلم والثقافة في الإسلام التي كانت تفهم أيضاً خارج المحيط العربي ... " [164] .

وعزز الأستاذ (يوهان فك) ما ذهب اليه بذكر دعوى المقدسي في ان أسمى درجات العربية كانت في فارس ، أي في ارض غير عربية اللغة ؛ لان الناس هنا كانوا يبذلون اجتهادا عظيما في دراستها [165] .

وهكذا كان ظهور هؤلاء الأدباء الكتاب الرواد في القرن الرابع الهجري عاملا مهماً في ازدهار الحركة الثقافية ، ونضج الحياة الأدبية ورقيها وإثرائها واتساع قاعدة الأدباء الكتاب الذين تتلمذوا عليهم ، وتلقفوا طرائقهم ، واقتفوا خطاهم في صناعة الإنشاء ، وتدبيج الرسائل الأدبية والاخوانية .

---

[164] كتاب العربية – يوهان : ص168 .

[165] المرجع نفسه :168–169 .

الفصل الثالث

تـوطئة

أصول الرسائل الأدبيـة في القرن الرابـع

لقد تأثر النثر الفني العربي منذ القرنين الثاني والثالث للهجرة –ونتيجة لاتساع حركة الترجمة ، واختمار ثقافات الأدباء ، بعد اختلاط العرب بمختلف الأجناس الأجنبية ، وتمازجهم في المجتمع الإسلامي ، والتلاقح الفكري بينهم– بألوان الثقافات الأجنبية التي بدأت تصب فيه ، وتعمل على تشكيله وتطوره وبخاصة الثقافة اليونانية والفارسية وغيرها من ألوان الثقافات الأخرى .

ومنذ القرن الثالث [1] للهجرة تحديداً ، طفق اتجاه ثقافي وفكري جارف يظهر – إلى جانب اتجاهات ثقافية أخرى مختلفة [2] – ينادي باعتداد واضح بالرجوع إلى معايير الثقافة الأجنبية ، وأسسها المتينة ، ولاسيما الثقافة اليونانية ، وقد حمل لواء هذا الاتجاه بوضوح مجاميع المترجمين السريان – الذين عظم نفوذهم في هذا القرن – ومن سار في ركابهم ، أو شايعهم من الأدباء والكتاب [3] الذين انصب اهتمامهم على علوم الفلسفة والمنطق وغيرهما مما عكفوا على الاطلاع عليه من علوم الحكمة في المظان العلمية ، أو الصحف التي بدأوا بإعادة ترجمتها، أو تصحيح ما فاتهم

---

[1] أشار الأستاذ الدكتور طه حسين إلى ظهور هذا الاتجاه في النثر الفني بوضوح في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، والذي يتمثل بأصحاب الفلسفة اليونانية والمتصلين بهذه الثقافة الغريبة ، وأشار إلى أن طريقتهم كانت تقوم على الاهتمام بالفكر ، والعناية بالمعاني ، وترتيب الكلام ترتيبا منطقيا .
(ينظر : من حديث الشعر والنثر : 79–80).

[2] تراجع التفاصيل عن تلك الاتجاهات الفكرية وانعكاساتها في دراسة البيان العربي والنثر الفني ، في مقالة الدكتور طه حسين (في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) الذي ترجمه عن الفرنسية الدكتور عبد الحميد العبادي ، والمنشور في مقدمة كتاب (نقد النثر) المنسوب إلى قدامة بن جعفر : (ص1–31) ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1982م.

[3] تراجع مقدمة كتاب (أدب الكاتب) ابن قتيبة الدنيوري (ت 276 هـ) ، حيث أورد (بتهكم) مواقف هذه الطبقة من الكتاب الذين كانوا ينادون بتطبيق قواعد المنطق والفلسفة ، والاحتكام إليهما في وضع أسس النقد ، وقواعد البلاغة ،فضلا عن معايير الثقافة الإسلامية الأخرى .

منها في الترجمات السابقة ، وبخاصة كتب افلاطون وأرسطو في الفلسفة والمنطق ، وغيرها من كتب الحكمة اليونانية الأخرى .

وفي القرن الرابع للهجرة – الذي شهد خصب الحياة العقلية وازدهار المناظرات والمحاورات في مختلف العلوم والآداب وشؤون العقيدة وغيرها – بدأت تظهر طبقات من الأدباء الكتاب الذين اشتهروا بعمق ثقافاتهم واتساعها وتنوعها ، إذ إنهم ثقفوا علوما ومعارف عديدة ومتنوعة ، فضلا عما عرف به كثير منهم بقوة شخصيتهم ، وحنكتهم في السياسة والإدارة ، والأمور العسكرية .

ولعل ما اشتهر به أبو الفضل ابن العميد من حنكة سياسية ، وكفاءة عالية في تدبير شؤون الملك والإدارة ، فضلا عما استنه من أسس جديدة في صناعة الترسل وفن الإنشاء ، وما عرف به تلميذه الصاحب بن عبادّ من تنوع في أصول المعارف والآداب ، فضلا عن كفاءته الإدارية والحربية ، وما اختص به بديع الزمان من ألمعية وذكاء وقوة حافظة وسرعة بديهة ، وما ظفر به الخوارزمي من عمق الثقافة ، والإحاطة برواية التراث العربي القديم ، فضلا عن سعة باعه في الترسل ولاسيما الرسائل الاخوانية ، وما تفرد به أبو حيان التوحيدي في عصره من شمول الثقافة واتساعها ونضجها ... لعل كل تلك القمم الشامخة في النثر العربي لدليل واضح على ما بلغته صناعة الترسل – وبخاصة المكاتبات الأدبية في هذا القرن من سعة الأفق ، ونضج المحتوى ، ودقة المسلك ، وثراء المعاني .

وربما كان لإتقان أكثر هؤلاء الأدباء الكتاب – ولاسيما الأمراء الأعاجم ووزرائهم ، وكبار كتاب دواوينهم ، لكونهم ذوي أصول أعجمية – لأكثر من لغة ، وتحديدا ، اللغة الفارسية – لا سيما بعد قيام أمراء الدويلات المستقلة بدءا من الصفاريين فالسامانيين وغيرهم[4] ، بإحياء معالم الحضارة والآداب القومية وبعث

---

[4] تراجع التفاصيل في هذا الجانب في تاريخ بروكلمان : 185/5 حيث يقول : (بينما كانت الفارسية الحديثة تغالب العربية في الشعر أكثر فأكثر منذ عصر السامانيين ، نجد العربية تتزعم الموقف في لغة العلم ، ولكن اخترعت للإيرانيين وسائل كثيرة في لغتهم الوطنية=

أمجادها ولغتها القديمة في هذا القرن – ربما كان لهذا الأمر أيضا أثره الكبير في عمق ثقافة أولئك الكتاب العظام ، ونضج معارفهم ، فضلا عن إفرازاته الإيجابية الأخرى على الثقافة آنذاك .

إن هذه الطبقات الرائدة من جهابذة الكتاب الأعلام – ونتيجة لتنوع معارفها، وتلون ثقافتها ، وبسبب حذقها أو جمعها بين صناعتي الشعر والنثر ، وما ثقفه كثير منهم من الإلمام بأكثر من لغة ، فضلا عن سعة اطلاعه على المعارف والعلوم الأجنبية – كانوا يزاوجون بين المعايير العربية ، ولا سيما أصول التراث القديم ، وبين المعايير الأجنبية التي تجلت بوضوح في أصول المعارف اليونانية في الفلسفة والمنطق وغيرها من علوم الحكمة [5] ..

ومن هنا فقد أخذ كثيرٌ من أدباء وكتاب هذا القرن يعتدّون بأسس الثقافة العربية ومقوماتها ، محاولين استلهام تلك المقاييس في رسائلهم الأدبية ، ومن هنا فقد أكثروا من تضمين الشعر القديم والمحدث ، وإدراج الأمثال وبعض الحكايات الشعبية التي تمثل ثروة فكرية قيمة ، فضلا عن الاقتباس من القرآن الكريم والحديث ، والإشارة إلى قصص الأنبياء ، وإيراد الحوادث وذكر أعلام التاريخ المشهورة ، والتلميح إلى ذكر سيرهم ، وأخبارهم ، كما سنلحظ ذلك في رسائل الخوارزمي وبديع الزمان والصاحب بن عباد وأبي الفضل الميكالي وغيرهم ، مما سنلم به في المبحث الأول من هذا الفصل .

=لكي يتعلموا اللغة العربية) وينظر كتاب تاريخ إيران : 194 ؛ تاريخ الأدب في إيران 109/2 ؛ الأدب في ظل بني بويه : 126–127 .

[5] يراجع ما أشار إليه الأستاذ طه حسين من محاولة كبار كتاب هذا القرن الجمع بين أصول الثقافة اليونانية ، والثقافات الأخرى ، والإفادة من تلك الاتجاهات الثقافية التي ظهرت قبل هذا القرن (من حديث الشعر والنثر ص79–80) حيث يقول مثلا : " ... بينما ابن العميد والصاحب بن عباد ومن إليهما كانوا يلمون بالثقافة اليونانية ، وكانوا حراصا على الثقافة الفارسية ، فكانوا أصحاب بديع وسجع " .

وفضلا عما تقدم ، فإن كثيرا من كتاب هذا القرن كانوا يستلهمون أيضا أقباساً مهمة من شذرات الثقافة اليونانية ومعارفهم ، ولاسيما ما يتصل بالفلسفة والمنطق وعلوم الحكمة الأخرى ، فضلا عن معارف وعلوم الأجناس الأخرى كالفرس والهنود [6] في الحساب وعلم الفلك والتنجيم وسواهما من المعارف الأخرى ، كما تجلى ذلك واضحا في رسائل ابن العميد والصاحب وقابوس بن وشمكير والتوحيدي وابن مسكويه وغيرهم من أعلام المترسلين في هذا القرن ، وهذا ما سنقف عند تحليله في المبحث الثاني من هذا الفصل .

****

[6] يراجع ما أشار إليه بروكلمان عن بداية تأثير الثقافة الهندية (تاريخ الأدب : 126/4 ويراجع ما ذكره الأستاذ محمد كرد علي عن البيروني وتعلمه لغة الهند وانعكاس آثار الثقافة الهندية في مصنفاته ورسائله مع بعض علماء عصره ،(كنوز الأجداد :239) ، ويراجع ما ذكره الدكتور شوقي ضيف عن الفضل بن حاتم النيرتزي وجهوده في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وتأثره بمذهب الهند وكتابها (السند هند) ، وكتاب سمت القبلة والزيج الذي عمله في ذلك (العصر العباسي الثاني ص135 وما بعدها) .

الفصل الثالث :

المبحث الأول

الثقافة العربية الإسلامية واستلهامها في الرسائل الأدبية :

على الرغم من قيام أكثر أمراء الممالك الأعجمية التي استقلت عن سلطة الخلافة المركزية في هذا القرن بأحياء معالم آدابها القومية ، وبعث أصول الحضارة واللغة الفارسية القديمة[7] ، إلا أن العربية ظلت في حواضر المشرق الإسلامي هي السائدة ، وكانت لغة العلم والمكاتبات[8] .

وقد رصد بعض الباحثين المعاصرين[9] انتشار معالم الثقافة العربية الإسلامية في أقاليم المشرق الإسلامي ، ولاسيما التي خضعت لنفوذ البويهيين مثلا ، فأرجعه إلى عاملين أساسيين هما : (الأول) التأثير الكبير الذي كانت قد تركته اللغة العربية وآدابها في أقاليم إيران ، بوصفها وسيلة من وسائل المراسلات والعبادة . (الثاني) هيمنة وزراء بويهيين متأثرين بالثقافة العربية ، ومتمكنين من آدابها على رأس الإدارة البويهية ، كأبي الفضل ابن العميد ، وزير ركن الدولة البويهي ، وابنه أبي الفتح ذي الكفايتين ، والصاحب بن عباد الذي وزر لمؤيد الدولة ثم لفخر الدولة البويهي[10] .

ومما لا شك فيه أن أكثر حكام الإمارات والممالك الأعجمية المستقلة ، ووزرائهم وولاتهم في هذا القرن – على الرغم من نزوعهم إلى إحياء معالم الثقافة

---

[7] تاريخ الأدب في إيران – إدوارد براون : 2/108–109 .

[8] ينظر : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 5/185 ؛ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع متز : 1/439.

[9] تراجع التفاصيل في كتاب : تاريخ إيران : 149 وما بعدها .

[10] علل الأستاذ الزهيري شيوع العربية في حواضر الإمارة البويهية فذكر أن (هذه البلاد قد ابتعدت عن لغتها الأصلية وتراثها القومي حقبة طويلة من الزمن ،الأمر الذي جعل بني بويه يخضعون للأمر الواقع ، فيشجعون الثقافة القائمة ولغتها ، ويرعون أهلها مجاراة للرأي العام ، وحبا بمصالحهم الخاصة) ، الأدب في ظل بني بويه : 126–127.

الفارسية ، وبخاصة على عهد السامانيين في خراسان وغيرهم – كانوا يهتمون كثيرا باللغة العربية وآدابها ، ولاسيما تراث العرب الشعري القديم .

ولعل ما يؤكد ذلك ، ما ذكره أبو حيان[11] من أن الأمير نوح بن نصر الساماني – وكان من أدباء أمراء آل سامان – كتب سنة أربعين وثلاثمائة كتابا إلى أبي سعيد السيرافي النحوي سأله فيه عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة الغالب عليها الحروف ، وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شك فيها فسأل عنها ، وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب آخر للوزير أبي عليّ البلعمي ، ضمنه مسائل في القرآن وأمثالا للعرب مشكلة .

وما من شك في أن مضمون هذا الخبر يدلل بوضوح على اهتمام أمراء آل سامان بعلوم العربية وتراثها .

كما ساق أبو حيان خبرا آخر[12] ذكر فيه أن أبا جعفر – أمير سجستان– كتب إلى السيرافي أيضا كتابا سأله فيه عن سبعين مسألة في القرآن ، ومائة كلمة في العربية ، وثلاثمائة بيت من الشعر ، وأربعين مسألة في الأحكام ، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين .

وفي هذا الخبر أيضا ما يدلل بوضوح على اهتمام أمراء الولايات النائية في المشرق الإسلامي ، إبان هذا القرن ، بعلوم العربية ، وتراثها الأدبي .

ذكر أبو منصور الثعالبي في اليتيمة[13] ، أن أبا الفضل البلعمي – وزير السامانيين – اقترح على أبي نصر الظريفي الأبيوردي – وكان من ندمائه وممن يحسن قرض الشعر العربي – قصيدة يسلك فيها طريق المتقدمين فخامة وجزالة فأنشده من الغد قصيدة في مدحه كأنها صدرت عن أحد فحول الشعراء الجاهليين فارتضاها ، وخيره في أعمال البريد ببلاد خراسان فاختار بلده أبيورد ، وتنجز المنشور والصلة وشخص .

---

[11] ينظر كتاب الإمتاع والمؤانسة: 1/129–130.

[12] المصدر نفسه : 1/130.

[13] يتمية الدهر: 4/153 وما بعدها .

وقد اشتهر الوزير أبو علي البلعمي بعنايته الفائقة بأصول المظان العربية النفيسة ، وقد شاع عنه أنه قام بترجمة تاريخ الطبري إلى الفارسية[14] .

وكان كثير من أمراء وحكام الممالك وولاة المدن أو الأقاليم الأعاجم في المشرق الإسلامي إبان هذا القرن ، على حظ عظيم من البلاغة ، وحفظ التراث الشعري العربي القديم ، فالثعالبي يذكر مثلا ، عن أبي محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي – رئيس نيسابور – أنه : ((كان من الكتابة والبلاغة بالمحل الأعلى ، وله من سائر المحاسن القدح المعلى ، فكان يحفظ مائة الف بيت للمتقدمين والمحدثين ، يهذها في محاضراته ، ويحلها في مكاتباته ..) [15] .

وقد كان كثيرٌ من الأدباء والمفكرين الأعاجم الذين وفدوا على أمراء الممالك الإسلامية واتصلوا بهم – كالإمارة الزيارية [16] في جرجان وطبرستان والإمارة الغزنوية في غزنة ، وإمارة خوارزم ، وسواها من الممالك الأخرى – ملمين بالعربية وعلومها ، متبحرين بها ، معجبين بأسرارها وجواهرها ، وكانوا يصنفون كتبهم بالعربية[17] ، ويهدونها إلى أولئك الأمراء والرؤساء الأعاجم .

فأبو الريحان البيروني مثلا – وكان على صلة وثيقة بالزياربيين والغزنويين– كان ، على عجمته ، معجبا بالعربية ، ولم يؤلف في غيرها إلا نادرا ، وكان يقول : " إن الهجو بالعربية أحب إليه من المدح بالفارسية" [18] .

أما كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن فكان أكثرهم – على الرغم من انحدار أكثرهم من أصول أعجمية – على حظّ عظيم من البلاغة ، والفصاحة وإتقان

---

[14] ينظر : تاريخ الأدب في إيران ، براون :110/2.

[15] يتيمة الدهر : 481/4 ، ويراجع ما ساقه الثعالبي أيضا عن بعض ولاة المشرق ، وتبحرهم بعلوم العربية ، وحفظهم لتراثها الأدبي . (تتمته اليتيمة : 165/5 ، 549 550).

[16] ينظر : تاريخ الأدب في إيران ، إدوارد بروان : 107/2–109 .

[17] ألف البيروني كتابه الشهير (الآثار الباقية عن القرون الخالية) للأمير قابوس ، وكذا يقال عن كثير من مصنفات الثعالبي ، وابن سينا ، وابن مسكويه ، وغيرهم . ينظر تاريخ بروكلمان : 182/5 .

[18] كنوز الأجداد : 239 .

العربية ، وقد اشتهر أبو القاسم الصاحب بن عباد بإتقانه الواسع للعربية وعلومها [19] ، وكذا يقال عن غيره من الأمراء والوزراء الأعاجم ..

وقد اشتهر أبو بكر الخوارزمي بالجمع بين القديم والجديد ، وقد وصف بأنه كان أدهم في آدابه[20] ، وهكذا يقال عن بديع الزمان وأبي الفضل الميكالي وغيرهم من الأدباء الكتاب .

أما مظاهر استلهام التراث الأدبي ، والثقافة العربية الإسلامية في المكاتبات الأدبية في القرن الرابع فيمكن إيجاز أهمها بما يأتي :

(أولا) : تضمين الشعر القديم والمحدث ، وحله في الرسائل:

لقد شغف أكثر المترسلين ، وأعلام الرسائل الأدبية في هذا القرن ، بتضمين رسائلهم بالشعر القديم أو المحدث ، أو الاستشهاد بشعر الشعراء المشهورين مع النص عليه ، كما عمدوا في أحيان كثيرة إلى حل معانيه في ترسلهم ومكاتباتهم ، لقوة أو عمق دلالته ، ورصانة أو متانة تراكيبه ، وحلاوة موسيقاه ونغمه ، فضلا عن أن أكثر أولئك الكتاب كانوا ممن جمع بين صناعتي الشعر والنثر ، ومن هنا فقد أكثروا من توشيح رسائلهم بتلك الشذرات الشعرية وبالغوا في ترصيع مكاتباتهم بتلك الأشعار ، وكأنها حلية أضفوها على منثورهم لتزدان بها فصول رسائلهم ، كسائر الحلي البديعية ، والأصباغ البلاغية التي دأبوا على تجميل مكاتباتهم الأدبية و الديوانية بها .

يقول أبو بكر الخوارزمي في الجمع بين صناعتي الشعر والكتابة[21]: "...والكتابة آلة عجيبة ، وهي من الشاعر أعجب ، كما أن الشعر صناعة غريبة ، وهو من الكاتب أغرب ....".

لقد استشرت ظاهرة (التضمين) كثيرا في رسائل أعلام الكتاب في هذا القرن ، ولعل في طليعة أولئك الكتاب : أبا إسحاق الصابي ، وأبا بكر الخوارزمي ،

---

[19] يراجع يتيمة الدهر : 3/225-226 .

[20] المصدر نفسه : 4/234-239.

[21] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 54 .

والصاحب بن عباد ، وبديع الزمان الهمذاني ، وسواهم من جهابذة الكتاب المشهورين .

لقد اشتهر هؤلاء الكتاب بسخاء حافظتهم للشعر القديم وغيره ، ومن هنا كانت هذه الظاهرة معلماً واضحاً يؤكد سعة ثقافة أولئك الكتاب ، وحذقهم لمفردات التراث العربي والإسلامي[22] ، فضلا عن قوة حافظتهم ، وغزارة ثروتهم اللغوية ، ولعل هذا ما رسخ هذه الظاهرة في صلب ترسلهم ومكاتباتهم ،حتى غدت دعامة أساسية ومهمة في البناء الفني للرسائل الأدبية في هذا القرن .

فأبو بكر الخورازمي مثلا – الذي عرف بكثرة تضمينه للشعر في رسائله – كان راوية للشعر ، وكان – كما وصفه بعض معاصريه – أمير المنطق الحر ، وأنه كان أدهم في أدبه ، أي أنه يجمع بين القديم والجديد .

وقد أشار أبو منصور الثعالبي إلى لمع من تضمينات الخوارزمي ووصفها بأنها : "كانت رشيقة ، وطريفة أنيقة ، يضعها في مواضعها ، ويوقعها أحسن مواقعها ، ويفصح بها عن اتساع روايته ، وكثرة محفوظاته...)[23] .

وهكذا يقال عن غيره من جهابذة الكتاب في هذا القرن ، كبديع الزمان ، وأبي إسحاق الصابي ، وأضرابهم ممن شهروا بغزارة حفظهم لتراث العرب الشعري ، واستيعابهم لمفردات الثقافة العربية الإسلامية ..

لقد تعددت أساليب الكتاب إبان هذا القرن في تضمين الشعر في ترسلهم ومكاتباتهم ، ويمكن رصد أهم تلك الأساليب بما يأتي :

(1) تضمين المنظوم في مطالع رسائلهم أو في خواتمها ، او في ثنايا تلك الرسائل ، دون التنويه بذلك ، أو دون النص عليه أو ذكر اسم الشاعر . ولا شك في أن لهذا اللون من التضمين من قوة الدلالة ما لا يحققه سواه من ألوان التضمين

---

[22] ينظر : أبو بكر الخوارزمي ، حياته وأدبه ، محمود الضمور : 315 ؛ أبو إسحاق الصابي ، حياته وأدبه ، مهدي البدري : 217–218 .

[23] يتيمة الدهر : 243/4 .

الأخرى ، فضلا عما يحققه في النص من ميزة المثل ، أو سوق العبرة والعظة أو الحكمة ...

وقد اشتهر أبو بكر الخوارزمي – كما ذكرت – بكثرة تضمينه أو استخدامه لهذا اللون من التضمين ، لثراء حافظته ، وغزارة موروثه الثقافي من التراث العربي .

من ذلك مثلا ، ما ورد في رسالة له إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وابنته ومما ورد فيها[24] : " ... وفقد الشباب الطري أكثر جزعا وكسر العود الرطب أشد وجعا ،

إن الفجيعة بالرياض نواضراً لأشد منها بالرياض ذوابلا"

ونظير ذلك أيضا ما كتبه إلى نائب الوزير ابن عباد بأصفهان[25] :

"...وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني ، وعن تواضع لا يضعه ويرفعني :

ولربما بخل الجواد ومابه بخل ، ولكن سوء حظ الطالب "

وهذا كثير جدا في رسائل أبي بكر الخوارزمي[26] .

وتطرد هذه الظاهرة أيضا في رسائل بديع الزمان الهمذاني[27] وربما جاء بعض المنظوم في ثنايا رسائله أشطار أبيات متحدة المعنى ، ومكملة له بل هي جزء منه ، وهذا اللون من أظرف ألوان التضمين في المكاتبات .

---

[24] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 29 .

[25] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 33 .

[26] تراجع رسائله : 34 ، 35 ، 42 ، 48 ، 54 ، 68 ، 86 ، 92 ، 96 ، ومواضع غيرها كثيرة .

[27] تراجع رسائل بديع الزمان : 11 ، 28 ، 30 ، 32 ، 34 ، 39 ، 40 ، 86 ، 99 ، 100 ، 114 ومواضع كثيرة غيرها (رسائل بديع الزمان ، تحقيق إبراهيم الأحدب الطرابلسي ، بيروت) .

ومما اشتهر لبديع الزمان من هذا اللون من التضمين ، ما ورد في رسالته إلى الخوارزمي[28] :

" أنا بقرب الأستاذ – أدام الله بقاءه –(**كما طرب النشوان مالت به الخمر**) ، ومن الارتياح للقائه : **(كما انتفض العصفور بلله القطر**) ، ومن الامتزاج بولائه : **(كما التقت الصهباء والبارد العذب)** ، ومن الابتهاج لمزاره : **(كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب)** ، فكيف نشاط الأستاذ سيدي لصديق طرأ إليه ما بين قصبتَي العراق وخراسان ، بل عتبتي نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف : رث الشمائل ، مخلق الأثواب ، بكرت عليه مغيرة الأعراب..."

ونظير هذه الرسالة ، وما اشتملت عليه من هذا اللون من التضمين الطريف ، ما ورد في فصل من رسالة لأبي الفضل الميكالي (من باب الأخوانيات) ، إذ يقول [29] :

" أنا في مقاساة حر الشوق إليك : **(كما اعتاد محمودا بخيبر صالب)** ، وفي تذكر الاجتماع معك : **(كما اهتز من صرف المدامة شارب)** ، وفي تكلف الصبر عنك : **(كطالب جدوى خله لا تواصل)** ، وفي القلق لفراقك : **(كطائر جو أعلقته الحبائل)** . ".

****

(2) تضمين الشعر القديم أو المحدث في فصول الرسائل ، مع النص على ذكر الشاعر أو التصريح بهذا التضمين قبل إيراده في الرسالة .

وقد كثر هذا اللون من التضمين في رسائل الخوارزمي[30] ، من ذلك مثلا ما ورد في رسالة له إلى الحاجب ، وقد نكبه الوزير ابن عباد[31] :

---

[28] زهر الآداب وثمر الألباب : 511/2 ، وتراجع الرسالة أيضا في مجموع رسائل الهمذاني : 128–129 .

[29] يتيمة الدهر : 412/4–413.

[30] تراجع رسائل الخوارزمي : 14 ، 30 ، 31 ، 40 ، 41 ، 45 ، 46 ، 57 ، 58 ، 65 ، 70 ، 76 ، 84 ، وغيرها .

"... وكم تقبحون في النعم ، أو تحسنون في النقم ، وكم تجهلون ما عرفه الحطيئة مع خبث مذهبه ، ولؤم مركبه ، حيث يقول :

مـــن يفعـــل الخيـــرَ لايعـــدم جوازيـــه لايذهب العرف بين الله والناس " [32]

وفي رسائل الهمذاني أيضاً يكثر هذا اللون من التضمين [33] ، ولاسيما من شعر الشعراء القدامى – الجاهليين والمخضرمين – فضلا عن الشعراء المحدثين ، وبخاصة شعر أبي الطيب المتنبي ، ومن نماذج هذا اللون من التضمين ، ما ورد في فصل من رسالة له إذ يقول [34]: "... إني لأرحم عقل طرفة إذ قال :

وليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تدور." [35] .

وفي ترسل الشريف الرضي وردت بدائع بليغة من هذا اللون من التضمين من ذلك ما جاء له في تذكرة إلى أبي إسحاق الصابي ، وقد نوه الرضي لهذا التضمين بذكر اسم الشاعر إذ قال[36] .

" ... فكيف ببحر مدافع الكلام تدفع غررها إليه ، وشعاب الأفكار تتقابل مسائلها عليه ، فأقول كما قال أبو الطيب المتنبي[37]:

فلا غيضت بحارك يا جموما على علل الغرائب والدخال " .

---

[31] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 13 .

[32] البيت للحطيئة ، وهو من قصيدة مشهورة في هجاء الزبرقان بن بدر ، ديوان الحطيئة : 109 (المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت . د.ت) .

[33] تراجع رسائل الهمذاني : 37 ، 38 ، 45 ، 47 ، 52 ، 55 ، وغيرها من المواضع .

[34] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 365 ، وينظر أيضا : يتيمة الدهر : 4/316-317.

[35] الرغوث : الناقة أو الشاة المرضع ، وعمرو : هو عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة المشهورين . و معنى البيت : انه ليت لنا ناقة مرضعا مكان الملك عمرو بن هند تدور حول خبائنا. (ينظر أيضا : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة : 27 ، ط عالم الكتب ، بيروت.

[36] رسائل الصابي والشريف الرضي: 74-75 .

[37] البيت من لاميته المشهورة في رثاء والدة الأمير الحمداني سيف الدولة ، ينظر : ديوان أبي الطيب المتنبي : 3/20 (شرح العكبري) .

(3) وقد يكتفي بعض كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، بذكر اسم الأديب أو الشاعر في فصول رسائلهم ، دون تضمين شعره ، من ذلك مثلا ، ما ورد في رقعة طريفة لبديع الزمان الهمذاني إلى مستميح عاوده مرارا ، إذ قال[38] : "عافاك الله ، مثل الإنسان ، في الإحسان ، مثل الأشجار ، في الأثمار ،... ولي مع الأدب نادرة جهدت في هذه الأيام بالطباخ ، أن يطبخ من جيمية الشماخ ، لونا فلم يفعل ، وبالقصاب ، أن يسمع أدب الكتاب فلم يقبل ، واحتيج في البيت ، إلى شئ من الزيت ، فأنشدت شيئاً من شعر الكميت ، الفا ومائتي بيت ، فلم يغن ، ولو وقعت أرجوزة العجاج ، في توابل السكباج ، ما عدمتها عندي ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ فإن كنت تحسب اختلافك إلي ، إفضالا علي فراحتي ، أن لا تطرق ساحتي وفرجي أن لا تجي ، والسلام" [39] .

ولأبي الفضل الميكالي من فصل له من باب الاخوانيات ، يقول ، منوها بذكر بعض الشعراء المخضرمين[40] : " بي إليك شوق لم يكابده قلب متيم ،

---

[38] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 221–223 (رسالة رقم 61) ، وتراجع الرسالة نفسها في : يتيمة الدهر 300/4 ، مع اختلاف طفيف بين رواية النصين .

[39] الشماخ : لقبه واسمه معقل (وقيل الهيثم) بن ضرار ، وهو شاعر مجيد ، برع في وصف القوس والحمر الوحشية ، ومن جيميته التي أشار اليها الهمذاني قوله : [من الطويل]

وأشعث قد قدّ السفار قميصه يجر شواء بالعصا غير منضج .... الخ

تراجع ترجمته في : الشعر والشعراء : 63–64 (ط عالم الكتب – بيروت) .

الكميت : هو الكميت بن زيد الأسدي ، وهو شاعر مشهور ، وهو صاحب الهاشميات المشهورة ، نشر شرح هاشميات الكميت بتحقيق الدكتور داود سلوم ، د. نوري القيسي (مكتبة النهضة العربية ، ط1 ، 1404هـ1984م .

العجاج : هو الراجز المشهور عبد الله بن رؤية ، والعجاج لقبه ، ينظر للباحث كتاب : العجاج ودوره في تطوير الأرجوزة في العصر الأموي (الناشر : مركز دراسات الخليج العربي ، 1986) .

[40] يتيمة الدهر : 414/4 .

ووجد لم يدعه مالك لمتمم" [41] وواضح أن أبا الفضل الميكالي ينوه بالشاعرين (مالك ومتمم) ابني نويرة اليربوعي ، وملمحاً إلى وجد متمم ، وحزنه الدائم على أخيه مالك الذي قتله خالد بن الوليد في أحداث حروب الردة المعروفة .

والشواهد النثرية في هذا الجانب كثيرة لكتاب هذا القرن ، أضرب صفحا عن ذكرها في هذا الموضع ، توخيا للإيجاز ، وهي معلم واضح تؤكد سعة ثقافة الكتاب ، وعمق اطلاعهم على مفردات التراث العربي الإسلامي النفيس ..

(4) **حل المنظوم وتضمينهِ في الرسائل الأدبية :**

ومن ألوان التضمين الأخرى التي المَّ بها المترسلون ، وكتاب الرسائل الأدبية كثيرا في هذا القرن أيضا : نثر النظم ، أو حل العقد ، كما أطلق عليه بعض النقاد ومؤرخو الأدب القدماء[42] ، وإيراده كما هو ، أو حله في الرسالة مع تغيير طفيف في ثنايا ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية .

ولقد شغف جهابذة الكتاب[43] ، ومبرّزوهم في هذا القرن بما أبدعه بعض معاصريهم من الشعراء المحدثين المشهورين – كأبي الطيب المتنبي وأبي فراس الحمداني وأضرابهم – فضلا عمن تقدمهم من الشعراء القدامى (من الجاهليين والمخضرمين) فأكثروا من تضمين شذراتهم والاغتراف من فيض إبداعهم ،

---

[41] تراجع أخبار مالك ومتمم اليربوعيين في : الشعر والشعراء : 70–72 ، وقد جمعت أشعارهما الدكتورة ابتسام مرهون الصفار .

[42] ينظر كتاب الثعالبي المشهور (نثر النظم وحل العقد) ، وهو أحد مصنفاته التي وقف فيها عند دراسة هذا اللون من تضمين المترسلين في عصره لشعر الشعراء المبرزين وحله في رسائلهم (ط. دار الرائد العربي –بيروت 1403 هـ / 1983م).

[43] عقد الثعالبي فصلا قصيرا من حل الصاحب بن عباد وغيره من صدور الكتاب في هذا القرن نظم أبي الطيب المتنبي بخاصة ، واستعانتهم بالفاظه ومعانيه في ترسلهم . ينظر:يتيمة الدهر 1/153–159 ، فضلا عما وقف عنده الثعالبي أيضا في كتابيه المشهورين : (خاص الخاص) ، و (من غاب عنه المطرب) من حل الكتاب في عصره لمعاني الشعراء وألفاظهم ، وإدراجها في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية .

والارتشاف من لجج قرائحهم ، لتزدان به فصول رسائلهم ، ولم يجانب بعض الشعراء – فيما نقله الثعالبي– [44] ، الحقيقة إذ قال : (من الطويل) .

ألا إن حل الشعر زينة كاتب

ولكن منهم من يحل فيعقد

ويشير الثعالبي في موضع آخر إلى إعجاب الصاحب بن عباد أيضا بطريقة شعراء الشام المثلى التي تقوم على الجزالة والعذوبة ، والفصاحة والسلاسة ، وكسره دفترا جمع فيه غرر أشعارهم ، ثم يقول : " ... وصار ما جمعه – أي الصاحب – فيه على طرف لسانه ، وفي سن قلمه ، فطورا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحله أو يورده كما هو في رسائله" [45] .

ولعل ما يؤكد شيوع هذا اللون من التضمين (حل الشعر) ، بين كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، ما طرحه الثعالبي – بعد أن أورد طائفة من حل الصاحب بن عباد ، وأبي إسحاق الصابي ، وغيرهما نظم أبي الطيب المتنبي في رسائلهما – إذ قال [46] :" وإذا كان هذان الصدران المقدمان على بلغاء الزمان يقتبسان من أبي الطيب في رسائلهما ، فما الظن بغيرهما ؟ " .

ومن نماذج ما ألم به الصاحب بن عباد ، وحله في رسائله من غرر نظم أبي الطيب المتنبي ، ما ورد له في فصل من رسالة في وصف قلعة افتتحها الأمير عضد الدولة البويهي ، إذ قال[47] :

---

[44] يتيمة الدهر : 158/1 .

[45] المصدر نفسه : 34/1 .

[46] المصدر نفسه : 158/1 .

[47] المصدر نفسه : 153/1 . والعوالي : الرماح . والسوابق : الخيل السريعة . وتنظر الفصول الأُخر التي أوردها الثعالبي للصاحب بن عباد مما حل فيها نظم المتنبي 153/1–156 . وينظر أيضاً ما أورده الثعالبي من حل الصابي ، وأبي العباس الضبي والخوارزمي شعر المتنبي : 157/1–159.

" ... فلما أتاح الله للدنيا ابن بجدتها ، وأبا بأسها ونجدتها ، جهلوا بون ما بين البحور والأنهار ، وظنوا الأقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا أن رأوا معقلهم الحصين ، ومثواهم القديم ، نهزة الحوادث ، وفرصة البوائق ، ومجر العوالي ، ومجرى السوابق".

وإنما ألم – الصاحب – بألفاظ بيتين لأبي الطيب أحدهما : (من الكامل)

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها

فشكا إليه السهل والجبل

والآخر : (من الطويل)

تذكرت ما بين العذيب وبارق

مجر عوالينا ومجرى السوابق

وفي مكاتبات أبي إسحاق الصابي ، تطالعنا كثير من الفصول التي ألم فيها بشعر الشعراء القدامى والمحدثين ، وحلها في منثور كلامه[48] ، من ذلك ، مثلا ، ما ورد في فصل من رسالة له في وصف الصيد[49] :

"... ثم عدلنا عن مطارح الخيام إلى مسارح الآرام ، نستقري ملاعبها ونؤم مجامعها ، حتى أفضينا إلى أسراب لاهية بأطلائها ، راتعة في أكلائها...".

فقد حل أبو إسحاق الصابي قول الشاعر زهير في معلقته المشهورة[50]:

به العين والآرام يمشين خلفة

وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

---

[48] تراجع التفاصيل في (أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه : 216–220 ، حيث ألمَّ الباحث بكثير من فصول الرسائل التي اقتبسها الصابي من الشعراء القدامى والمحدثين .

[49] يتيمة الدهر : 301/2 .

[50] ينظر : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ابن الانباري : 239 .

ويشيع في رسائل بديع الزمان هذا اللون من التضمين أيضا[51] ومن نماذج ذلك ما ورد في رسالة له إلى أبي نصر بن المرزبان ، في تغير حال الصديق مع علو رتبته ، وكثرة ماله ، إذ يقول[52] : "... وقصاراي الآن أن أرغب إلى الله تعالى آلا ينيلهم فوق الكفاية ، فشدما يطغون عند النعمة ينالونها ، والدرجة يعلونها وسرع ما ينظرون من عال ، ويجمعون من مال وينسون في ساعة اللدونة أوقات الخشونة ، وفي أزمان العذوبة أيام الصعوبة ..." .

وقد ألمَّ بديع الزمان فيما كتبه بقول أبي العتاهية في عمرو بن مسعدة – وقد تغير عليه بعد علو رتبته مع الخليفة المأمون – فقال[53] : (من الطويل) .

غنيت عن العهد القديم غنيتا وضيعت عهدا كان لي ونسيتا

وقد كنت لي أيام ضعف من القوى أبرّ وأوفى منك حين قويتا

تجاهلت عما كنت تحسن وصفه ومت عن الإحسان حين حييتا

وقد آلمَّ كثير من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، بهذا اللون من التضمين – حل المنظوم – وأكثروا من حل شعر الشعراء القدامى والمحدثين في مكاتباتهم ، والشواهد غزيرة أيضا ، إلا أنني أكتفي بما عرضته من هذه النماذج ، مقتفيا أبا منصور الثعالبي عند تتبعه ودراسته لهذا الموضوع إذ قال في خاتمة عرضه له : " وهذا ميدان عريض ، وشوط بطين ، وفيما ذكرته كفاية ". [54]

****

(ثانياً) : الاقتباس من القرآن والحديث ، وتوظيف القصص القرآني في الرسائل:

---

[51] تراجع بعض رسائل بديع الزمان التي حل فيها شعر غيره من الشعراء في زهر الآداب وثمر الألباب للحصري :865/3 ، 960/4-961 .

[52] رسائل الهمذاني (رقم 37) : 145 وما بعدها .

[53] زهر الآداب وثمر الألباب : 885/3-886.

[54] يتيمة الدهر : 159/1.

ومن مظاهر استلهام التراث العربي الإسلامي في رسائل هذا القرن أيضا : كثرة الاقتباس من أي القرآن المجيد ، والحديث النبوي ، والإشارة إلى قصص الأنبياء ، والأمم القديمة التي أوجز ذكرها القرآن للعبرة والاتعاظ ..

لقد برع أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن في توظيف النص القرآني في رسائلهم ، إذ كانوا – نتيجة لسعة ثقافتهم – على صلة وثيقة بالنص القرآني ، ولذلك فقد أكثروا في مكاتباتهم من الاقتباس من فيضه العذب وحرصوا كثيرا على استمداد أفكارهم وصورهم من وحيه .

ولقد أدرك جهابذة الكتاب في هذا القرن ما يحمله النص القرآني من طاقات إبداعية معجزة ، وخصائص فنية عديدة ، ترقى إلى أعلى مصاف الإبداع والإعجاز ، فضلا عما يحويه من معان سامية ، وقيم نبيلة ، ومفاهيم عظيمة تتصل بالإنسان والحياة والوجود والكون ، وما إلى ذلك .

ولعل هذا ما يفسر لنا تزاحم الكتاب على الاغتراف من معينه الثرّ ، ومحاكاة أسلوبه البليغ المعجز ، فضلا عن أنهم كانوا يتوخون من توظيف تلك النصوص البليغة التقاط ما تحمله من عظة سديدة ، وتوجيه قويم ، يناسب المقام الذي يحبّر فيه الكاتب رسالته ، أو العهد الذي يبرمه ..

أما أساليب الكتاب أو طرقهم في توظيف النص القرآني في رسائلهم إبان هذا القرن ، فقد اتخذت ألوانا متعددة ، وعلى النحو الآتي :

(1) كان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن يقتبسون الآية من النص القرآني دون إضفاء أي تحوير أو حذف ، وكان الكاتب في الغالب لا ينص على الآية التي يوردها في رسالته ، وإنما يحلها في تضاعيف كلامه .

من ذلك مثلا ما ورد في فصل من رسالة لبديع الزمان الهمذاني ، إذ يقول[55] . " ... فلهم حولها تخبيط ، والله من ورائهم محيط " .

فقد أقتبس الكاتب الآية (30) من سورة (البروج) دون أن ينص على هذا الاقتباس .

---

[55] يتيمة الدهر : 319/4 .

ونظير ذلك أيضا ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي إلى الصاحب أبي إسحاق ، لما نكبه الوزير الصاحب[56] :" ... فلما جازيت النعمة بالكفران ونسيت هل جزاء الإحسان إلا الإحسان نظرت الأيام إليك شزراً ، وأبدلتك باليسر عسرا ... " .

فقد اقتبس الخوارزمي الآية (60) من سورة (الرحمن) وضمها صلب رسالته دون ان ينصَّ عليها . و مثل هذا اللون من الاقتباس ما ورد في رسالة الفتح الأكبر للصاحب بن عباد – وقد ختم به رسالته – إذ قال [57] : [الآية 128/النحل] .

"... إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون" .

وقد تكون الآية المقتبسة طويلة ، ومع ذلك فإن الكاتب يحلها في كلامه دون أن ينص عليها [58] ، وفي أحيان أخرى كان الكاتب يقتبس الآية دون تحوير أو تغيير ، مع النص عليها ، كأن يقول (قال تعالى) أو غير ذلك مما سترد الإشارة إليه ، من ذلك مثلا ما ورد في رسالة لبديع الزمان الهمذاني ، إذ يقول[59] [الآية 108/الأنعام] .

"... إنه ليس في أبواب الذبّ ، أضعف من باب السبّ ، وإذا تلوت قول الله عز وجل : (ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا) علمت أن سلاح خصمك أقوى ".

ونظيره أيضا ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي إلى فقيه في تعهد مسجد[60] :" ... وإنما يوفى المحسن أجره بغير حساب ، وتذكر قول الله تعالى : إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ". فضمن الآية (18)/التوبة .

---

[56] رسائل أبي بكر الخوازرمي : 12 ، وينظر أيضا رسالة الخوارزمي : 80.

[57] رسائل الصاحب بن عباد : 23 ، وينظر أيضا رسالته : 22 .

[58] ينظر ما ورد في رسالة الصاحب بن عباد : 37–38 .

[59] يتيمة الدهر : 308/4 .

[60] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 201 .

وقد كثر هذا اللون من الاقتباس في رسائل الصاحب بن عباد[61] ، من ذلك ما ورد في أحد عهوده [62] إذ قال: "وأمره بتزويج الأيامي اللاتي ولايتهن أليه ... وقد قال الحكيم الرحيم في القرآن المبين : (وأنكحوا ألأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يُغِنهم اللهُ مِنْ فَضلهِ ، والله واسع عليم)." فاقتبس الآية (32) من سورة النور .

***

(2) كان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن يقتبسون النص القرآني مع إجراء بعض التحوير فيه أو الحذف منه ، وقد يقتبس الكاتب بعض الآية دون تحوير ، وهذا التغيير قد يكون كثيرا أو قليلا .

من ذلك مثلا ما ورد في فصل من رسالة للهمذاني إذ قال [63] : "يا هؤلاء تكابروا الله في بلاده ، ولا ترادوه في مراده ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده..." فاقتبس الآية (128) من سورة الأعراف ، وكقوله أيضا في فصل من رسالة أخرى : "معاذ الله لا أشفع لضارب القلب ، ولا أرضى له غير الصلب ، وأعتقد في دار الضرب ، إنها دار الحرب ، ولكن (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا). " [64] الآية (6- الحجرات).

ونظير ذلك أيضا ما ورد في رسالة لأبي الفضل الميكالي في باب السلطانيات[65] : "أصبحوا كغثاء احتمله ظهر سيل جارف ، أو كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف" . فقد اقتبس الكاتب الآية (18) من سورة (إبراهيم) وقد حذف

---

[61] ينظر رسائل الصاحب بن عباد : 39 ، 40 ، حيث نص على اقتباس الآية الأولى من سورة (المطففين) ، ومواضع أخر في رسائله .

[62] رسائل الصاحب بن عباد : 38 .

[63] يتيمة الدهر : 318/4 ، وواضح أنه حذف الكاتب بقية الآية الكريمة مراعاة للفاصلة المسجوعة .

[64] يتيمة الدهر : 309/4 ، وواضح أنه حذف بقية الآية الكريمة وهي قوله تعالى : (أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين).

[65] يتيمة الدهر: 425/4 .

جزءاً من صدر الآية الكريمة ، وهو قوله تعالى : "مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ... الآية" .

ومن ذلك أيضا ، ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي[66]:

"... وما ظنك بموضع هو بيت من بيوت الله ... وهو من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وهو مسكن من مساكن الأبرار" . [الآية (36) من سورة النور] .

وهذا اللون من الاقتباس القرآني كثير في رسائل الصاحب بن عباد[67] ، ومن ذلك قوله في أحد فصول رسائله[68]:"... كل ذلك للطمع أن يشفوا من البغي علينا غليلا ، ويشتروا بعهد الله ثمنا قليلا " . [فاقتبس الآية (174)/ البقرة].

****

(3) وقد يكتفي منشئ الرسالة باقتباس لمحة أو إشارة أو كلمة بارزة في النص توحي للقارئ ، أو المتلقي اللبيب الفطن بمضمون الآية القرآنية المقتبسة .

وهذا اللون من الاقتباس نادر ، ولم يرد كثيرا في رسائل الكتاب في هذا القرن . من ذلك مثلا ما ورد في رسالة للصاحب بن عباد إذ يقول [69] :"... ورفده بصائب الخواطر ، وهيأ له أجلى الأشباه والنظائر ، ولم يبهم سبيل الرشاد دونه ، وجعله بلطفه من الذين (يستنبطونه). ".

فقد أشار هنا إلى الآية الكريمة (83) من سورة النساء وهي قوله تعالى : "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ".

---

[66] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 201 .

[67] تراجع رسائل الصاحب بن عباد : 37 ، 40 ، 41 ، ومواضع أُخر .

[68] رسائل الصاحب بن عباد : 26 .

[69] رسائل الصاحب بن عباد : 36 ، ونظيره أيضا ما ورد في رسالة للصاحب : 41 (رسائل الصاحب بن عباد) ، إذ اقتبس فيها قوله تعالى ((ولو كره المشركون)) .

ونظير ذلك أيضا ما ورد في رسالة بديع الزمان الهمذاني في ذم السذق (ليلة الوقود) – وهو أحد الأعياد الفارسية المشهورة – إذ قال [70] :"وسخط من نيرانها ، وأورثكم أرضهم ..." إذ أشار الكاتب إلى الآية (27) من سورة (الأحزاب) وهي قوله تعالى : "وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها "..

(4) اقتباس القصص القرآني (قصص الأنبياء والإشارة إلى الرسل والملائكة):

ومن مظاهر استلهام التراث العربي الإسلامي في رسائل هذا القرن أيضا : اقتباس الأدباء الكتاب لقصص الأنبياء ، وذكر الرسل والأنبياء (عليهم السلام) والإشارة إلى الملائكة ، وبعض الطقوس الدينية المهمة ..

وقد استشرت هذه الظاهرة كثيرا في رسائل أعلام الكتاب المشهورين في هذا القرن ، وفي مقدمتهم الخوارزمي ، والهمذاني ، والصاحب بن عباد وابو الفضل الميكالي ، وغيرهم ، وهذا مظهر واضح لسعة ثقافة أولئك الكتاب وتأثرهم بالتراث الأدبي الإسلامي .

لقد توخى كتاب الرسائل في هذا القرن من إيراد تلك القصص ، تأكيد الفكرة التي يسوقها في الرسالة ، أو دعم الحجة التي يعرضها ، أو لاثبات مقدرته في استيعاب مفردات النص القرآني والذخيرة الأدبية التي يحويها ، أو لغير ذلك من الأسباب ..

وقد كان كتاب الرسائل الأدبية يسلكون أحيانا أسلوب التلميح أو التلويح إلى القصة القرآنية ، متوخين التكثيف والتركيز .

---

[70] يتيمة الدهر " 304/4 ، ونظيره أيضا ينظر للبديع الهمذاني ما ورد في فصل له : " ولكن صبرا جميلا ، والله المستعان " ، اليتيمة : 304/4 ، وقد ورد هذا اللون من الاقتباس في شعر بعض الأدباء الكتاب في هذا القرن أيضا ، من ذلك ما ورد في ملحة للكاتب أبي الفتح البستي ، ينظر : يتيمة الدهر: 355/4-366.

يقول بديع الزمان الهمذاني في فصل له من رسالة[71] ، مشيرا ، ومستوحيا جانبا من قصة النبيّ (يونس عليه السلام) ، وما عرض للنبي (آدم عليه السلام) مع إبليس : " أبق – أطال الله بقاء الشيخ – عبدان : أحدهما الذي أنبت عليه شجرة من يقطين ، والآخر الذي قال : خلقتني من نار وخلقته من طين ، وأنجى هذا من الظلمات ومد لذلك في الحياة ، فعرف لكل على مقدار حرمته حق خدمته" [72].

ولبديع الزمان أيضا – رسالة أخرى يشير فيها إلى قصة النبي (إسماعيل عليه السلام) ، ويكني عن ذكره (بالذبيح) ، ويكني عن ذكر النبي (إبراهيم–ع–) بالخليل ، إذ يقول [73]: " وأجدني إذا قرأت قصة الخليل ، والذبيح إسماعيل ، أحس من نفسي لسيدنا بتلك الطاعة ، لو وقع البلاء ، والعافية أوسع ، وأظنه لو تلني للجبين ، وأخذ مني باليمين ، لقطع الوتين[74] ، لصنته عن الأنين ، علي بذلك ميثاق من الله غليظ ، والله على ما نقوله حفيظ ".

ويصرح بديع الزمان في رسالة أخرى بذكر النبي إبراهيم (عليه السلام) ويذكر جانبا من قصته في رؤيته للكواكب ، فيقول[75] :"ما أبعد غلطك عن غلط إبراهيم (عليه السلام) إنه رأى كوكبا ، ورأيت تولبا ، وأبصر القمر ، وأبصرت القدر ، وغلط في الشمس ، وغلطت في الأمس أظاهره غرك أم باطنهُ سرك ؟ ".

---

[71] يتيمة الدهر : 313/4 . أبق يأبق أي هرب (مختار الصحاح مادة أبق) .

[72] أشار الكاتب أولا إلى الآية (146) / من سورة الصافات ، وهي قوله تعالى : " فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين " ، ثم أشار في الثانية إلى قوله تعالى : " انا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين " وهي الآية :12 من سورة الأعراف والآية (76) من سورة ص .

[73] المصدر نفسه : 4 /320–321 ، تله للجبين : أي قلبه على قفاه وألقاه على خده و عنقه ليشرع بذبحه .

[74] اقتبس الآية :46 من سورة الحاقة ، وهي قوله تعالى : " لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين " .

[75] يتيمة الدهر : 330/4 .

وينص بديع الزمان أيضا في رسالة أخرى على ذكر النبي إبراهيم (عليه السلام) وذكر والده (آزر) ، فيقول[76] : [اقتبس الآية (74)/ من سورة الأنعام "وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة "].

"... ويا عجبا أيلد الأغر البهيم ، وولد آزر إبراهيم..." .

وفي فصل من رسالة طريفة لبديع الزمان إلى أبيه يطلب إليه زيارته ، ويقيم عليه الحجة في ذلك ، موظفا قصة النبي يوسف (عليه السلام) وزيارة أبيه النبي يعقوب (عليه السلام) وذهابه إلى مصر ، إذ يقول[77] [اقتبس مضمون الآية (99) من سورة يوسف] .

" ولسيدنا – يعني أباه – أسوة بيعقوب في ولده، إذ ظعن إليه من بلده ..."

ويوظف كاتب آخر في هذا القرن – وهو أبو القاسم عبد الصمد بن علي الطبري – قصة النبي يوسف (عليه السلام) ، وما ورد فيها عن (صاع العزيز) في رسالة له أرسلها إلى صديقه الأديب أبي علي الحسين المروروزي ، فيقول[78] :"خرج الأستاذ –أدام الله عزه– والقلب بجناح الشوق نحوه طائر ، ألا وهو معه سائر ، مثل صاع العزيز في أرحل القوم ولا يعلمون ما في الرحال ..." [أشار الى الآية (76) من سورة يوسف] .

ويوظف أبو بكر الخوارزمي في فصل من رسالة رائعة له إلى أبي سعيد أحمد بن شبيب ، لما شارف نيسابور ، بتكثيف وإيجاز بليغ أحداثا مهمة وردت في القصص القرآني ، من ذلك مثلا ، ما ورد في قصة (الإسراء والمعراج) وسرعة البراق، ومرافقة العبد الصالح الخضر (عليه السلام) لموسى (عليه السلام) – كما وردت في سورة الكهف – كما أشار إلى النبي سليمان بن داود (عليه السلام) ، فقال [79] : "... وددت أن صاحب الجيش يركب النجم السيار ويمتطي لذلك الفلك

---

[76] يتيمة الدهر : 306/4 .

[77] المصدر نفسه : 318/4 .

[78] تتمة اليتمية : 189/5 .

[79] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 231 .

الـدوار ، ويطـوي المنـازل طـي الرداء ، ويصـل الغداة بالعشـاء ، بـل وددت أن الريح تحملـه ، أو أن البـراق ينقلـه ، وأن الخضـر يصـحبه خليـلا ، وسـليمان بـن داود (عليهما السلام) يرافقه زميلا ، ليصغر حجم الانتظار ، وتقل مدة بعد الدار ...".

وقد اقتفى أبو الفضل الميكالي خطى الخوارزمي ، في فصل له من رسالة في باب الاخوانيات ، فقال متتبعا ما ورد في رسالة الخوارزمي[80] مشيرا أيضا إلى (البراق) ، والنبي الخضر (عليه السلام) : "... وددت لو أنه ركب الفلك الدائر، وامتطى النجم السائر ، وكان البرق زاملته ، والبراق راحلته ، والسماك هاديه ، والخضر حاديه ، والصبا إحدى مراكبه ، والجنوب بعض جنائبه ، لينقضي عمر الانتظار ، ونسعد بالقرب والجوار".

ويوظف الأمير أبو الفضل الميكالي بعض جوانب القصة القرآنية ، بأسلوب الرمز أو الإيماء أحيانا ، ليضفي على مضمون رسالته ظلالا من المتعة والتشويق ، ودعم الفكرة التي يسوقها ، وتأكيدها .

يقول مثلا في فصل له من رسالة (من باب الاخوانيات) ملوحا إلى النبي موسى (عليه السلام) وما جرى له في وادي (طوى) [81] : أشار إلى الآية (10)[*]/طه] .

"... وكنت كمن خرج ببغي قبسا ، فرجع نبيا مقدسا " .

ويقول أيضا في فصل آخر ملوحا إلى قصة النبي إبراهيم (عليه السلام) وابنه إسماعيل (عليه السلام) [82] :"سررت بكتابك سرور من فدي بذبح عظيم ، وبشر بغلام عليم".

---

[80] يتيمة الدهر : 413/4 .

[81] المصدر نفسه : 413/4 .

[*] الآية (10) من سورة طه (لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى).

[82] المصدر نفسه 412/4 [أشار إلى الآية (107) / الصافات (وفديناه بذبح عظيم)] .

وقد يصرح أبو الفضل الميكالي أحيانا بذكر الأنبياء (عليهم السلام) ، يقول في فصل له من رسالة[83] : [مشيرا إلى الآية (96)/يوسف "فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا..."]

"... وصل كتابه فأدركت به بغية الحريص ، وخلتني يعقوب وقد بشر بالقميص..." .

ويتضح بجلاء أن أبا الفضل الميكالي يصرح بحادثة إلقاء قميص يوسف (عليه السلام) على أبيه يعقوب (عليه السلام) ليرتد بصيرا ..

وقد يوظف بعض كتاب هذا القرن في فصول رسائلهم أحيانا الإشارة إلى (الكتب السماوية المقدسة) أو أسماء الملائكة ، لتأكيد المعنى ، والغلو في إثبات تحقق وقوعه !!

يقول بديع الزمان الهمذاني في فصل له من رسالة يشير فيها إلى الملائكة والكتب السماوية المقدسة[84]: " ... حرس الله هذه الدنانير ، ورزقنا منها الكثير ، إنها لتفعل ما لا تفعل التوراة والإنجيل ، وتغني ما لا يغني التنزيل والتأويل ، وتصلح ما لا يصلح جبرئيل وميكائيل " .

ويتصل باستلهام الأدباء الكتاب في هذا القرن للتراث العربي الإسلامي أيضا : الاقتباس من فيض السنة النبوية الطاهرة ، وأقوال أو أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والإشارة إلى بعض الطقوس الدينية أو الفرائض وتوظفيها في رسائلهم الأدبية ، لقيمتها الدينية والتراثية ، ولاستحواذها على مشاعر الناس ، أو لشغفهم بأسلوبها الممتع ، ومحتواها الفكري والموضوعي الرصين .

من ذلك ، ما ورد في فصل من رسالة لأبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي في الإنكار على من يذم الدهر ، إذ يقول [85] : " ... عتبك على الدهر داع إلى العتب عليك ، واستبطاؤك إياه صارف عنان اللوم إليك ... فاعف الزمان عن

---

[83] يتيمة الدهر : 410/4 .

[84] المصدر نفسه : 417/4 .

[85] يتيمة الدهر : 462/4 .

قوارض لسانك ، واضرب عليها حجاب الحرص بأسنانك ، واذكر قول النبي – صلى الله عليه وآله – : (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر[*]) ... " .

وفي فصل للصاحب بن عباد من أحد عهوده البليغة ، يقتبس من لآلئ السنة النبوية الطاهرة ، وفيضها الثر المغدق ، ما أثر عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) قوله : " ادرأوا الحدود بالشبهات" ، إذ يقول[86] : " ... وأمره إذا رفع إليه ما يوجب حدا أو قطعا ، أو قتلا أو جلدا ، أن يأخذ بأبعد المذاهب من إباحة ظهر المسلم ، فإنه الحمى ، وإراقة دمه فإنه الحرمة العظمى ... وأن يجرد عند ذلك المسألة عن البينات ، ويأخذ بالسنة في درء الحدود بالشبهات ، فإن وضح له ما يوجب إقامة الحد ، أنهاه ونفذه بحكم الله ، ولم تأخذه رأفة في دين الله ".

وتزخر رسائل بديع الزمان الهمذاني في هذا القرن بكثرة الاقتباس من أقوال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، لاستحواذها على مشاعر الأدباء ولتوظيف ما تضمنته من دلالات إنسانية وأخلاقية ، وإيحاءات فنية قيمة في تضاعيف الرسائل والاحتجاج بها لدعم ما يسوقه الكاتب من أفكار أو حجج في ثنايا فصول رسائله.

من ذلك ما ورد في نسخة وصية له ، إذ قال [87] :"... ثم لحق بالرفيق الأعلى ، وقد خرج عن عهدة ما حمل وصدع بما أمر فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما ، فأوصى وهو يقول : (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)."

وكان بديع الزمان يقتبس بعض أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأقواله للاحتجاج بها في دعم ما يطرحه من أفكار تشكل جوهر الرسالة الأدبية التي يكتبها ..

---

[*] يراجع صحيح البخاري 111/4 (كتاب الادب) ، الحديث (6181) : "قال الله : يسب بنو ادم الدهر ، وانا الدهر بيدي الليل والنهار " ، وينظر الحديث 6182 : " لاتسموا العنب الكرم ، ولاتقولوا : خيبة الدهر ،فان الله هو الدهر ."

[86] رسائل الصاحب بن عباد : 39 .

[87] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 534–535 .

من ذلك ما ورد في رسالة له إلى المعدل بن أحمد ، وقد ذكر فيها بعض أعلام الفقهاء المشهورين ، وبعض أحكامهم ، إذ قال وقد استهلها بالشعر[88]:

" تصبحنا الأيام كل صبيحة ببادرة تربو على أخواتها

وكانت تطير الطير عن وكناتها فصارت تزيل الهام عن سكناتها"

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (الراجع في هبته كالراجع في قيئه) [*]، ثم اختلف العلماء فيمن وهب من ماله ، وأعطى من حلاله ، ثم رجع في نواله ، فقال أبو حنيفة : مكروه قبيح ، وقال الشافعي : حرام صريح ، وقلتم : إنه حسن مليح ، ولكل أصل وترجيح ..." .

ومما استلهمه كتاب الرسائل من التراث العربي الإسلامي في هذا القرن أيضا الإشارة إلى بعض مفردات الفرائض الدينية[89] ، والطقوس المقدسة وتوظيفها في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية ، من ذلك ما ساقه بديع الزمان الهمذاني في رسالة له ، وقد وظف فيها اسلوب الحوار والحكاية الساخر ، للحديث عن بعض مناسك الحج وطقوسه المعروفة ، ومما جاء في تلك الرسالة على لسان محنث ، حيث قال [90] :" حج البيت محنث ، فسئل عما رأى ، فقال : رأيت الصفا والحجون وقوما يموجون ، وكعبة تزف عليها الستور ، وترفرف حولها الطيور ، وبيتا كبيتي ، ولكن سل عن البخت ، لاعن البيت " .

ولعل أطرف وأظرف ما وصل إلينا من مكاتبات هذا القرن في الافتنان والجمع بين الجد والهزل ، في ذكر بعض طقوس مناسك الحج وتوظيفها في الاستزارة يوم النحر ،

---

[88] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 511-512 .

[*] في صحيح البخاري : " العائد في هبته كالعائد في قيئه "، الحديث رقم (2621) صحيح البخاري 146/2.

[89] تراجع رسالة أبي الفضل ابن العميد في فريضة الصيام ، وقدوم شهر رمضان ، يتيمة الدهر : 190/3-191 .

[90] المصدر نفسه : 321/4-322 .

رسالة أبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي[91] ، إذ كتب إلى بعض لداته ، ومما ورد فيها[92] :

" أمتع الله مولاي بهذا العيد واليوم الجديد ، وأطال بقاءه في الجد السعيد والعيش الرغيد ، هذا يوم كما عرفه التاريخ العام ، وغرة الأيام ، قد قضيت فيه المناسك ، وأقيمت المشاعر ، وأديت الفرائض والنوافل ، وحطت عن الظهور بها الآصار والمثاقل ...وإذ قد فاتنا ذاك ، فما أحوجنا إلى أن نحرم من متعات الطرب ونغتسل من دنس الكرب ، ونلبس إزار المجون ، ونلبي على تلبية الأوتار ونطوف بكعبة المزاح ، ونستلم ركن النشاط ، ونسعى بين صفاء القصف ومروة العزف ، ونقف بعرفة الخلاعة ، ونرمي جمرات الهموم ، ونقضي نفث الوساوس ، ونضحي ببدن الأفكار في العواقب ، فإن رأى أن يتفضل بالحضور ، لتتميم حجة السرور ، فعل ، إن شاء الله ". [93] .

وهكذا نرى كيف استلهم الكاتب تلك الشعائر والمناسك المقدسة ، وهي من طقوس فريضة الحج ، ووظفها في رسالته بأسلوب جديد لم يسبق إليه .

وهكذا استطاع الأدباء الكتاب في هذا القرن أن ينتفعوا من تلك الذخيرة القصصية الرائعة التي أنبثتْ في القرآن المجيد ، وتمكنوا من توظيفها في مكاتباتهم ، والتقاط ما فيها من إيحاءات موضوعية وفنية ممتعة ، وهم يعرضون لمعالجة قضايا مجتمعهم الجديدة ، وأمورهم الخاصة ..

****

---

[91] هو من مشاهير كتاب خراسان (وأصله من الري) ، وكان من كتاب الأمير أبي منصور سبكتكين ، ثم ناب بخراسان لشمس المعالي قابوس ، ثم استقر في نيسابور ، وتفرغ لخدمة العلوم والآداب ، أشار الثعالبي إلى أن من مؤلفاته (لطائف الكتاب) ، ينظر : يتيمة الدهر : 458/4-468 .

[92] يتيمة الدهر : 459/4 .

[93] نحرم : من الاحرام . نلبي : من التلبية على عرفة . نستلم ركن : لمس ركن الحطيم والحجر الأسود . نسعى : السعي بين الصفا والمروة وهو من مناسك الحج . ونضحي ببدن : الضحية في مكة كالشاة والبقرة والناقة . نفث الوساوس : ما ينفثه الشيطان في قلب الإنسان .

(ثالثا) تضمين الأمثال القديمة وتوظيف الحكاية الشعبية :

ومن مظاهر استلهام التراث العربي القديم في رسائل هذا القرن : كثرة تضمين الأمثال العربية البليغة ، والأقوال والحكم السديدة ، وإدراجها في الرسائل الأدبية ، وهذا شاهد آخر على سعة ثقافة الأدباء الكتاب في القرن الرابع ، وعمق تجاربهم ، وثبات قدمهم في استيعاب تراث العرب وحفظه وهضمه واستحضاره أو الاستشهاد به في الموضع المناسب الذي يقتضيه المقام .

لقد أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن من تضمين الأمثال العربية القديمة والحكم البليغة ، وإدراجها في رسائلهم ، لما لها من قيمة فنية في تزيين النص ، وما تضفيه عليه من قوة وجمال ، إذ إن تلك الأمثال البليغة الموجزة والأقوال السديدة ، كانت تتسم دائما بقوة السبك وجماله ، ودقة الصنعة وإحكامها ومتانة التراكيب ورصانتها ، وتكثيف المعنى وتركيزه ، وقد أدرك كتاب هذا القرن ، وفي مقدمتهم أبو بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، والصاحب ابن عباد وغيرهم من الكتاب البلغاء ، أدركوا ما تحققه هذه الأمثال والحكم من جمال وقوة أسر ، وشدة تأثير ، فأكثروا من إيرادها في مكاتباتهم ، بوصفها حليا فنية سائغة ، تتناغم مع ألوان البديع الأخرى التي بالغوا في استخدامها في رسائلهم الأدبية والديوانية إبان هذا القرن .. لقد كان كتاب الرسائل في هذا القرن ، أحياناً، يوردون الأمثال القديمة كما رويت عن العرب بصيغها وتراكيبها ، دون تغيير او تحوير في تلك الصيغ..

من ذلك ما ورد في فصل من رسالة لبديع الزمان إذ يقول [94]: " يعجبني أن يكون الشيخ عريض اللسان طويله ، حسن البيان جميله ، ولا يعجبني أن يطول

---

[94] يتيمة الدهر : 313/4 ، وينظر : مجمع الأمثال : 243/1 ، والبيان والتبيين : 254/3 وأصل المثل (خير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة) ، وذكر الميداني أنه يضرب في التمسك بالاقتصاد . وذكر في موضع آخر (359/1) : (قال مطرف بن عبد الله بن الشخير لابنه لما اجتهد في العبادة : خير الأمور أوساطها وشر السير الحقحقة والحقحقة هي ارفع السير وأتعبه للظهر ..

لسانه حتى يمس به جبينه ، ويضرب به صدره ، ويحك به قفاه ، فخير الأمور أوساطها ...".

ونظير ذلك أيضا ما أورده الثعالبي لأبي الفضل الميكالي من رسالة له في باب العيادة ، إذ يقول [95] : " وكان من العلة بين أنياب وأظفار ، ومن الردى على شفا جرف هار".

وقد كان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، أحيانا أخرى ، يوردون تلك الأمثال ، مع تغيير طفيف يجرونه على ما يسوقونه منها ، من ذلك ما ورد في فصل من رسالة لأبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي إلى صديق له قامر على كتب فقمر ، وقد ضمن المثل العربي القديم (يداك اوكتا وفوك نفخ) ، فأضفى بعض التغيير على صيغة المثل ، إذ كتب في رسالته إليه[96] :

" المحن – أيدك الله – معلقة بين جناحي تقدير ، وسوء تدبير ، فأما التي تطلع من جانب المقدار ، فالمرء فيه معفى عن كلفة الاعتذار ، وأما التي اوكتها يده ، ونفخها فوه ، فليس لخرقها أحد يرفوه ..." .

ومن ذلك أيضا ، ما ساقه بديع الزمان من أمثال سائرة من مأثور كلام العرب ، في فصل له من رسالة[97] : "... الموت والله ولا هذا الصوت ، والمنية ولا هذه الدنية ". ، وكقوله أيضا من رسالة له ، وقد ضمن المثل العربي القديم (انج سعد فقد هلك سعيد) [98]، " فتن تشظى ، ونار تلظى ، وناس يأكل بعضهم بعضا ، فالنهار مصادرة ، والليل مكابرة ، وقتل عمرو ، وسلب زيد ، وانج سعد وهلك سعيد... " .

---

[95] يتيمة الدهر : 422/4 . وفي مجمع الأمثال : اجرف منهال وسحاب منجال ، أي لا حزم عنده ولا عقل : 177/1 .

[96] يتيمة الدهر : 463/4 ، ويراجع هذا المثل في (مجمع الأمثال) للميداني : 414/2 وذكر أنه يضرب لمن يجني على نفسه الحين ، ويراجع ما ذكره المفضل في مناسبة المثل .

[97] المصدر نفسه : 305/4–306 ، ويراجع المثل في مجمع الأمثال : 203/2 ، ومعنى المثل : أختار المنية على العار ، وقيل : المثل لأوس بن حارثة .

[98] يتيمة الدهر : 321/4 ، ويراجع المثل في مجمع الأمثال للميداني (رقم المثل 4227) [تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، لبنان ، ط2 ، 1987] : ج383/3 =

ونظير ذلك أيضا ، ما ورد في رسالة للشيخ أبي الحسن علي بن محمد الأرباعي التي كتبها إلى الشيخ الأجل أكفى الكفاة يُهنيه بالوزارة ، وقد ضمن المثل العربي القديم (وافق شن طبقة) ، فحور المثل دون الإخلال بمضمونه فقال[99] : "شن وافق طبقا ، وفضل عانق عبقا ... وما شئت وما شاء ، فالق الدلو وأرسل الرشاء " .

وقد يحور بعض الكتاب صيغة المثل ، أو يضمن معنى المثل الشائع دون أن يسوق المثل القديم بالصيغة أو البناء الذي استعمله العرب ، من ذلك ، تضمين بديع الزمان الهمذاني للمثل العربي (جوع كلبك يتبعك) ، إذ أورده الهمذاني في رقعة له إلى الأمير خلف فقال[100] :

"وظهر الشقي يحتمل عدلين من الفحم ، ولا يحمل رطلين من الشحم ، ولولا الشعير ، ما نهقت الحمير ، ولو لم يتسع حاله ، لم يتسع مجاله ، وكذا الكلب يزمن ، حين يسمن ، ولا يتبع حين يشبع ، وعند الجوع ، يهم بالرجوع " .

وقد يورد الكاتب أحيانا – وقد كثر هذا اللون من التضمين في رسائل الخوارزمي – كلاما بليغا ، أو قولا سديدا للعرب ، يجري مجرى المثل ، أو يسوق ألفاظا متجاورة متسقة في الوزن ، تحمل ظلالا من العبرة والحكمة لتزدان بهذا كله فصول الرسالة ، فتضوع بأريج النغم ، وإيقاع الألفاظ ، فضلا عن عمق المعنى ودقة الفكرة .

من ذلك ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي كتبها إلى أبي القسم وقد انهدمت داره عليه وسلم ، فختم رسالته اليه بهذه الحكم السديدة ، والكلم المفيدة ، إذ

=وسعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أد ، وتراجع تفاصيل قصة المثل ومناسبته في مجمع الأمثال : 1 / 351 ، في المثل رقم 1044 (الحديث ذو شجون) .

[99] تتمة يتيمة الدهر : 271/5–272 ، وينظر : مجمع الأمثال :359/2 . وقد ذكر الميداني أن هذا المثل يضرب للمتوافقين .

[100] يتيمة الدهر : 299/4 ، وينظر مجمع الأمثال : 165/1 ، حيث ذكر الميداني أنه يضرب في معاشرة اللئام وما ينبغي أن يعاملوا به .

قال [101] : "... وقد كانت العرب تزاوج بين كلمات تتماثل مبانيها ، وتتكافأ مقاطعها ومباديها ، فتقول : العلة ذلة ، والوحدة وحشة ، والغلب سلب ، واللحظة لفظة ، والهوى هوان ، والأقارب عقارب ، وأنا أقول : المرض حرض ، والرمد كمد ، والعلة قلة ، والقاعد مقعد ".

ونظيره أيضا ما ورد في رسالة لبديع الزمان إذ قال[102] :

" الأمير الفاضل الرئيس ، رفيع مناط الهمة ، بعيد منال الخدمة ... ولكني أقول : البناء منجح أنى سلك ، والسخي جوده بما ملك ، وإن لم تكن غرة لائحة فلمحة دالة ، وإن لم يكن صداء فماء ، أو لم يكن خمر فخل ، وإن لم يصب وابل فطل ، وبذل الموجود غاية الجود ... " .

وقد وظف بديع الزمان في رسائله بعض الصيغ والتراكيب أو التعابير العربية القديمة التي كانت تستعملها العرب بدلالات رمزية خاصة تعارفوا عليها كالدلالة على دوام الأشياء وثباتها ، أو تأكيد ثبات الأمر على وجه البديهة كقولهم مثلا : (ما كان أحد مكانه) ، أو (ما بل بحر صوفه) ، أو (ما هبت ريح وسرى برق ، ولمع نجم) ، وما إلى ذلك من تعابير قديمة معروفة[103] :

من ذلك ، مثلا ، ما أورده بديع الزمان في فصل من رسالة له ، إذ يقول[104]: " أراني أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس ، أو هبت الريح ، أو نجم النجم ، أو لمع البرق ..." .

ولعل أبا بكر الخوارزمي أكثر كتاب الرسائل الأدبية والاخوانية في هذا القرن تضمينا للأمثال العربية ، والحكم السديدة التي تجري مجرى الأمثال في مكاتباته[105]

---

[101] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 91 .

[102] يتيمة الدهر : 332/4 .

[103] يراجع كتاب : البيان والتبيين : 7/3 (باب العصا) .

[104] يتيمة الدهر : 314/4 .

[105] يراجع ما فصله الباحث محمود الضمور في رسالته أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه : 310 وما بعدها ، حيث أفاض الباحث كثيرا في الوقوف عند هذا الجانب ، وبرز بدقة توظيف

، إذ إنه أفاد كثيرا من محفوظه من تلك الأمثال البليغة ، فعمد إلى حلها في رسائله ليضفي على أسلوبه ما تحمله تلك الأمثال ، او ما تمتاز به من جودة السبك ، ومتانة التركيب ، و إحكام الصنعة ، و تكثيف المعنى ، و غير ذلك ..

لقد كان الخوارزمي يحشد طائفة كبيرة من الأمثال البليغة ، والحكم السائرة التي تجري مجرى الأمثال ، فيحلها في رسالته ، ودرج كلامه ، وكأنه أراد في ذلك أن يدلل على غزارة حفظه من تلك الأمثال السائرة ، ومن هنا فقد كانت كثير من فقر رسائله حكما بليغة ، تجرى في سياق الأمثال السائرة[106] :

من ذلك مثلا ، ما ورد في رسالته إلى حاجب الوزير ابن عباد ، إذ يقول[107]: "... ولذلك قالوا ، ما أملح الظبي لولا خنس أنفه ، وما أحسن البدر لولا كلف لونه وما أطيب الخمر لولا الخمار ، وما أشرف الجود لولا الاقتار ، وما أحمد مغبة الصبر لولا فناء العمر ، وما أطيب الدنيا لو دامت واستقامت ".

ونظير ذلك أيضا ، ما ورد في رسالته إلى صاحب الديوان بالحضرة ، إذ يقول[108]: "... ولا يقول كيف يكون الرسول أجل ممن أرسله ، وكيف يكون السفير أعظم ممن سفر له، فإن الكريم يعز من حيث يهون ، ويشتد بأس الرمح حين يلين... ".

ومن ذلك أيضا رسالته إلى صاحب البريد بالري ، إذ يقول[109] : "... وعد واضرب عما أظهرت وأبديت ، فإذا بسيدي أبي بكر أخجل من بخراء تكلمت ومن فوهاء ، تبسمت ...".

الخوارزمي للأمثال والحكم التي تجري مجراها وحلها في رسائله ، والإفادة من مضامينها في الموضوعات التي طرقها في رسائله الأدبية والاخوانية .

[106] تراجع مثلا رسالة الخوارزمي إلى أبي الحسن البديهي ، إذ أورد الكاتب عشرات الأمثال التي حلها في رسالته ، وقد ساقها الكاتب للنيل من مهجوه الذي مرغ أنفه بالتراب رسائل الخوارزمي :235-250.

[107] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 54.

[108] المصدر نفسه : 85 .

[109] رسائل أبي بكر الخوارزمي: 71 .

ولـه أيضـا مـن رسـالة إلـى أبـي المعـالي وزيـر صـاحب الجبـل ، إذ يقول[110]:"... لا زال البكاء بعد هذا متصورا على عيون أعدائه ، فإن أعداء الفاضل أعداء فضله ، وأضدادهُ أضداد فعله ، وكل امرئ صديق أمثاله وشكله ".

ومـن مظـاهر اسـتلهام التـراث العربـي القـديم فـي رسـائل هـذا القـرن أيضـا : توظيف الحكاية الشعبية (الفولكلورية) ، وبعض صور أو رموز (الميثولوجيا) العربية القديمـة التـي انتشرت فـي المجتمـع العربـي منذ القدم ، وبقيـت بعض طقوسـها رمـوزا فنية ترددت أصداؤها في تراث الشعراء الجاهليين وغيرهم من الأفراد والجماعات التي تعاقبـت علـى أديـم الصـحراء العربيـة ، ومـن ثـم أضـحى هـذا الإرث الإنسـاني معلمـا يستضـيء بطقوسه وثرائه أجيال الأدباء ، على الرغم من تباين أجناسهم أو لغاتهم ، أو اتساع البيئة أو قسوة الطبيعة ...

وربمـا كـان بـديع الزمـان الهمـذاني واحـدا مـن أكثـر أدبـاء هـذا القـرن شـغفا باستثمار هذا الإرث الحضاري الإنساني ، وتوظيفه في أدبه ورسائله ...

ومن تلك الحكايات الشعبية التي تكتنز برموز فولكلورية قديمة ، ما ورد في رقعة لبديع الزمان إذ يقول[111] : " مثلك في السفارة ، الفأرة ، طفقت تقرض الحديد ، فقيل لـها ، ويحك ! ما تصنعين ؟ الناب ودقة رأسه ، والحديد وشدة بأسه ، فقالت : أشـهد ، ولكنـي أجـهد وإن تنـج مـن تلـك الأسـباب ، فهـي الـذباب ، مقـاديرك ، لا معاذيرك ".

وهكذا نرى بديع الزمان كان يسلك أسلوب الحكاية ، ويحرص على تهيئة بعض عناصرها الأساسية كالسرد والحوار وغير ذلك ، فيضربها مثلا ، وصولا إلى ما يريد إنجازه في رسالته ..

وقد عرض بعض الكتاب في هذا القرن أيضا – شأن بديع الزمان – إلى ذكر بعض العادات أو الطقوس القديمة التي كانت ترمز إلى معتقدات شعبية شائعة في

---

[110] المصدر نفسه : 146.

[111] يتيمة الدهر : 298/4 .

المجتمع القديم ، من ذلك مثلا : التطير من الغراب ، والنفث في العقد ، والتفاؤل بالقدح المعلى – وهو من سهام الميسر عندهم آنذاك – وما إلى ذلك ...

ومما ورد من الإشارة إلى (النفث في العقد) – وهو مما ذكره القرآن الكريم – ما ذكره أبو الفضل الميكالي في أحد فصول رسائله من باب العيادة ، إذ يقول[112]: " كنت رهين علل لا أرجو من صرعتها استقلالا ، ولا أؤمل من أسر وثاقها انحلالا ، فلم يزل لطف الله ينفث فيها في العقد ، ويمسح جانب الداء والألم ، حتى أنشطني من عقال ، وأنهضني من كبوة وعثار".

ولبديع الزمان في التطير من الغراب وذمه ، في رسالة له في السخرية والتهكم[113]: " ما أعرف لعمار مثلا إلا الغراب الأبقع ، مذموما على أي جنب وقع ، إن طار فيقسم الضمير ، وإن وقع فروعة النذير وإن خجل فمشية الأمير ، وإن شحج فصوت الحمير ، وإن أكل فدبر البعير ، وإن سرق فبلغه الفقير ، كذلك أبن عمار إن حذفت عينه فالحين ، وإن حذفت ميمه فالشين ، وإن حذفت راؤه فالرين ، وإن صحف خطه فالمين ، وإن زرته فالحجاب الثقيل ، وإن لم تزره فالعتاب الطويل "

ويقول أبو الفضل الميكالي في فصل من رسالة له ، وهو يشير إلى (المعلى) ، أحد قداح الميسر ، وهي سبعة قداح[114]:

"برز من علته بروز السيف المحلى ، وفاز بالعافية فوز القدح المعلى". وقد سبق أبا الفضل الميكالي في ذلك ، أبو بكر الخوارزمي ، إذ يقول في فصل من رسالة له[115]: "... ولا يرضى من القداح إلا ما يخرج من كف المجيل معلى لا منيحا ".

---

[112] يتيمة الدهر : 422/4 .

[113] المصدر نفسه : 317/4.

[114] يتيمة الدهر : 422/4 .

[115] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 253 .

وهكذا يبدو واضحا أن هذه الحكايات أو رموزها التي وظفها بعض أعلام الكتاب البلغاء في هذا القرن في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية والأخوانية ، تكتنز بظلال ندية من الايماء أو الرمز اللذين يحققان في الرسالة عنصر التشويق ، التي تقود إلى متابعة الحدث أو القراءة لدى المتلقي ..

وقد عرض بديع الزمان الهمذاني بخاصة ، في بعض حكاياته الشعبية التي كان يسوقها في بعض رسائله الأدبية ، جانبا من الظواهر الاجتماعية التي كانت تسود بين طوائف واسعة في مجتمع عصره ، وقد حاول عرضها بأسلوب ساخر .

من ذلك مثلا ، حكاية أبي الهول الذي كان يعبد الله على حرف ، فكان جيرانه يسمونه (إسطوانة المسجد) لكثرة الصلاة فيه ، أملا في أن يرزقه الله تعالى مال عمه الموسر الذي لا عقب له ، وعندما يرزق عمه ولدا – على كبر السن – يترك أبو الهول الصلاة ، وأصبح "لايؤدي فرضا ولا نفلا ، ولا يرد سلاما ، ولا يعمل في الخير عملا... " [116] .

ونظير ذلك أيضا ما كان يرويه الهمذاني عما يقوله أو يحكيه الناس في عصره من حكاياتهم ، أو قصصهم في أسمارهم ، ومن نماذج ذلك حكاية الأعرابي الذي نام ليلا عن جمله ففقده ، فلما طلع القمر وجده ، فرفع إلى الله تعالى يده بالدعاء والرجاء[117] ، والحكاية هذه ، وما سبقها أيضا ، تعالج مظهرا اجتماعيا ساد في عصره ، وهو الدعاء والتوجه إلى العبادة عند الحاجة أو حلول البلوى ..

ومن الحكايات الشعبية التي عكست بعض الظواهر الاجتماعية آنذاك ، ما ساقه بديع الزمان في إحدى رسائله إلى الشيخ الرئيس أبي الفضل عن حكاية التاجر[118] مع ولده الذي جهزه بمال للاتجار به ، غير أن ولده يترك جميع وصايا أبيه ، ويتجه إلى طلب العلم ، ثم يعود إلى أبيه محملا بألوان العلوم ، خاسرا جميع أمواله ، فما كان من الأب التاجر إلا أن يعرض ابنه في السوق على أصناف الباعة

---

[116] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 13 .

[117] يتيمة الدهر : 4/328–329.

[118] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 393 – وما بعدها .

، للحصول على أي شيء مقابل ما يحمله من علوم أبنه ! غير أنه يخفق في الحصول على أي بلغة مما أراد .

وهكذا وظف كتاب هذا القرن في رسائلهم الأدبية ، ما ألموا به من معارف تتصل بالمجتمعات العربية والإسلامية القديمة ، وطباعها وتقاليدها ، وصولا إلى درء ما استشرى في مجتمعاتهم الجديدة من مظاهر اجتماعية كان يبعث الكثير منها على السخرية والاستهجان والتهكم ..

(رابعاً) : الإشارة إلى الأحداث التاريخية والأعلام المشهورة .

ومن مظاهر استلهام التراث العربي الإسلامي في مكاتبات هذا القرن أيضا: الإلمام بأحداث التاريخ العربي الإسلامي ، والوقوف عند وقائع التاريخ لاستلهام العظة والعبرة ، والتصبر على مواجهة ما يحدق بالمجتمعات الإسلامية من أخطار وكوارث ومحن ، كما ألم كتاب الرسائل في هذا القرن أيضا بذكر الأعلام التاريخية والشخصيات المهمة ، فضلا عن ذكر الأقوام والأمم القديمة ، وحرص الأدباء الكتاب على المواءمة بين ذكر تلك الرموز التاريخية في الرسائل وصلب الفكرة التي يتناولها الكتاب ، أو قرب الوشيجة الموضوعية بينهما

ولعل هذا المظهر شاهد دقيق آخر على سعة ثقافة الأدباء الكتاب في هذا القرن ، ونضج تجاربهم في صناعة الترسل ، وعمق موروثهم الثقافي .

وقد شهر عدد من كتاب هذا القرن بقدرتهم العالية على استيحاء أحداث التاريخ المهمة والمناسبة ، وتوظيف تلك الذخيرة القيمة في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية والاخوانية ، ولعل في طليعة أولئك الأدباء الكتاب أبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان والصاحب بن عباد وغيرهم[119].

وربما كانت رسالة أبي بكر الخوارزمي الشهيرة التي أرسلها إلى جماعة الشيعة في نيسابور ، لما قصدهم محمد بن إبراهيم واليا عليها ، أوضح نموذج

---

[119] تراجع هذه الرسالة المهمة ، وما فصَّله الكاتب فيها من وقائع تاريخية وما ألم فيها من ذكر أعلام التاريخ المشهورين ، وما ساقه من شواهد تتصل بنضال فرقة الشيعة عبر تلك الأحداث ، (رسائل أبي بكر الخوارزمي : 160-172).

لاستلهام أحداث التاريخ ، وذكر أعلامه المشهورين ، وتوظيف ذلك كله موضوعا ومحتوى أساسيا في صلب هذا العمل الأدبي الخالد .

لقد كانت هذه الرسالة الأدبية ، بما تضمنته من الإشارة إلى أحداث التاريخ وثيقة تاريخية مهمة وثقت كثيرا من الأحداث الخطيرة ، والوقائع التاريخية بأسلوب أدبي رائع ، وهي تدل ، من جانب آخر ، على غزارة ثقافة الأديب الكاتب وتبحره بأحداث التاريخ وجزئياته المتشعبة ، فضلا عما تخلل هذا النص الأدبي من شواهد شعرية وأمثال قديمة وأقوال وحكم سائرة ، وآيات قرآنية أضفت على النص ظلالا كثيفة من القوة والجمال ، وطوعت تلك المادة التاريخية لتلك اللمسات الأدبية ، والخطرات الإنسانية المؤثرة ..

وهذه الرسالة أيضا وثيقة سياسية وفكرية مهمة لتاريخ فرقة الشيعة بوصفها واحدة من الفرق الإسلامية المبكرة ، وهي توثق بدقة سجلها ونضالها وما وقع لأئمة آل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم من أذى وظلم وقتل وتشريد ...

لقد صور الكاتب في هذه (الوثيقة الطويلة) لجماعة الشيعة في نيسابور ألوان البطش والجور والتنكيل الذي مارسه الحكام بأئمة آل البيت وأتباعهم عبر العصور ليوجب عليهم الإيمان و الثبات على عقيدتهم وتَحمُّل ما قد يتعرضون إليه في الأيام المقبلة على يدي الوالي الجديد !

بدأ الكاتب رسالته بمقدمة موجزة اتصلت اتصالا وثيقا بصلب الموضوع الرئيس ، وقد انصبت هذه المقدمة على محورين مهمين ، وصولا لترسيخ ما يرمي اليه الكاتب في صلب رسالته : (المحور الأول) : جور السلطان ، وعدم خشيته لله (تعالى) فيما يصدر عنه من أعمال ، لأن همه الدنيا ونعيمها الزائل . (المحور الثاني) عزوف أئمة آل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم إلى الزهد بالدنيا ، والركون عنها ، طلبا لثواب الآخرة ونعيمها الدائم ..

ومن هنا يرسخ الكاتب – تمهيدا للدخول إلى صلب الموضوع – فكرة تعرض (جماعة الشيعة) للمحن على مر تاريخهم ، ممهدا لذلك بقول الأمام علي (عليه السلام) : "المحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور" .

ثم يبدأ الكاتب لباب رسالته وفحواها بعرض تلك المحن والمآسي الممضة التي آدت بكواهل تلك الفئة الصابرة الطاهرة ، فيسردها سردا موسعا ومؤثرا ، عبر التدرج التاريخي الذي سار عليه الكاتب في عرض رسالته – يقول[120]:

"سمعت أرشد الله سعيكم ، وجمع على التقوى أمركم ، ما تكلم به السلطان الذي لا يتحامل إلا على العدل ، ولا يميل إلا على جانب الفضل ، ولا يبالي بأن يمزق دينه إذا رفا دنياه ، ولا يفكر في أن لا يقدم رضا الله إذا وجد رضاه ... فإذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائض والسنن ، ومتبعي آثارهم في كل قبيح وحسن ، فينبغي أن نتبع آثارهم في المحن ... ".

ثم يبدأ يسرد أحداثا تاريخية وقعت لآل البيت (عليهم السلام) سردا موجزا فيقول[121]:" غصبت سيدتنا فاطمة (صلوات الله عليها وعلى آلها) ميراث أبيها (صلوات الله عليه وعلى آله) يوم السقيفة ، وآخر أمير المؤمنين عن الخلافة وسُمّ الحسن (رضي الله عنه) سرا ، وقتل أخوه (كرم الله وجهه) جهرا وصلب زيد بن علي بالكناسة ، وقطع رأس زيد بن علي في المعركة ، وقتل ابناه محمد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العباسي ، ومات موسى بن جعفر في حبسه ، وسُمّ علي بن موسى بيد المأمون ، وهزم إدريس بفخ ، حتى وقع إلى الأندلس فريدا ، ومات عيسى بن زيد طريدا شريدا ، وقتل يحيى بن عبد الله بعد الأمان والأيمان ، وبعد تأكيد العهود والضمان ، هذا غير ما فعل يعقوب بن الليث بعلوية طبرستان ، وغير قتل محمد بن زيد والحسن بن القاسم الداعي على أيدي آل ساسان ... وبحسبكم أنه ليست في بيضة الإسلام بلدة إلا وفيها لقتيل طالبي ترة تشارك في قتلهم الأموي والعباسي ، وأطبق عليهم العدناني والقحطاني .

فليس حي من الأحياء نعرفه من ذي يمان ولا بكر ولا مضر

إلا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أيسار على جزر ..".

---

[120] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 160-161 .

[121] المصدر نفسه : 161-162 .

وهكذا ألم أبو بكر الخوارزمي في هذه الرسالة الشهيرة ، من خلال هذا العرض المفصل الشامل لكثير من أحداث التاريخ الإسلامي ، التي اتصلت اتصالا وثيقا بأخبار هذه الفرقة الإسلامية ، وما لقيت من محن وكوارث عبر نضالها السياسي ، طيلة عهود التاريخ الإسلامي التي ألم بجزئياتها وتفاصيلها ..

أما بديع الزمان الهمذاني فقد برع أيضا في الإلمام بكثير من أحداث التاريخ[122] ، وذكر شخصياته ورموزه المشهورين ، وتكثيف تلك الأحداث التي تنبض بالحياة ، وتزخر بالصراع ، فأحسن توظيفها واستثمارها في أدبه ، ولاسيما في رسائله الأدبية والاخوانية ، ملوحا بأسلوب الرمز والإيماء حيناً ، أو التصريح المكثف حينا آخر ، وصولا إلى تحليل كثير من القضايا الجديدة ، والخطيرة التي ألمت بمجتمعه في هذا القرن الذي شهد كثيرا من المحن والمآسي والحروب وألوانا من النزاع والصراع ..

ولعل أجل رسالة لبديع الزمان ، أفصحت عن إلمامه بأحداث التاريخ وتعاقب الأزمان والدول ، ووثقت أفدح أحداث العصر الخطيرة ، وصورت أعنف وقائع تلك الحروب المبيرة ، رسالته إلى أبي العباس الفضل بن احمد الاسفراييني ، وزير السلطان محمود الغزنوي ، وهو يسرد له فتوح السلطان ذي اليمينين بلاد الهند

---

[122] تراجع رسالة البديع الثانية : 11 إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الاسفراييني وزير محمود الغزنوي ، وهي – على إيجازها – وثيقة تاريخية تكشف عن التحام الوزير بالحرب مع خصومه ، وتراجع رسالة البديع الخامسة ، ص 16–19 وهي وثيقة سياسية وعسكرية مهمة تؤرخ لسير المعارك بين الغزنويين والسامانيين . وانتصار جيوش السلطان محمود الغزنوي عليهم بباب (سرخس) ، وتراجع الرسالة السادسة : ص19–21 إلى الوزير الاسفراييني أيضا وهي تصور هزائم السامانية بباب (مرو) بأسلوب ساخر بليغ ، وتراجع أيضا رسالة البديع السابعة : ص21–26 وهي تصور أيضا فتح (بهاضية) وهي رسالة مهمة تؤرخ فتوح السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند ، وفيها وصف رائع للبلاد المفتوحة ، ووصف الجيش وسلاحه وعتاده وذخيرته ... وغيرها من الرسائل الأخرى..

وفتح بها ضية ، إذ يقول [123]: "... ولم ينطق التاريخ بما كان ، ولا الوحي بما يكون بأن الله تعالى خص أحدا من عباده –ليس النبيين – بما خص به الأمير السيد يمين الدولة ، وأمين الملة ، ودون الجاحد إن جحد أخبار الدولة العباسية ، والمدة المروانية والسنين الحربية ، والبيعة الهاشمية ، والأيام الأموية ، والأمارة العدوية ، والخلافة التيمية ، وعهد الرسالة وزمان الفترة ، ولولا الإطالة لعددنا إلى عاد وثمود بطنا بطنا وإلى نوح وآدم قرنا قرنا ".

ثم انتقل الكاتب إلى توثيق ما سطره السلطان محمود الغزنوي من بطولات خلال فتوح بلاد الهند ، ولاسيما فتح بهاضية ، إذ قال[124]:" ثم لم تجد قائل مقالا أن ملكا – وإن علا أمره ، وعظم قدره ، وكبر سلطانه ، وهبت ريحه – طرق الهند ، فاسر طاغيتها بسطة ملك ثم خلاه ، وعرض الأرض قوة قلب ، وصبح سجستان ... فأخذ ملكها أخذة عز وعنف ، ثم خلاه تخلية فضل ولطف ، ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاضية ، والسيل والليل جنودها ، والشوك والشجر سلاحها ، والصح والريح طريقها ، والبر والبحر حصارها ، والجن والأنس أنصارها ، فقتل رجالها ، وغنم أموالها ، وساق أقيالها ، وكسر أصنامها ، وهدم أعلاقها ، كل ذلك في فسحة شتوة قبل أن يتطرقها الصيف ، توسطها السيف ، وهو الله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء... " .

وهكذا ألم بديع الزمان الهمذاني في هذه (الوثيقة التاريخية السياسية) الخطيرة التي اتصلت اتصالا وثيقاً بأخبار الإمارة الغزنوية في أواخر هذا القرن ، ولاسيما ما يتعلق بفتوح السلطان محمود الغزنوي ، وانتصاراته الباهرة ، التي أشاد بها كثيرا المؤرخون القدامى ، في بلاد السند والهند ، ألم الكاتب بتسجيل كثير من المشاهد والغرائب في تلك

---

[123] رسائل بديع الزمان الهمذاني (رسالة رقم 7) : 22–21 ، وبهاضية مدينة من أعمال الهند ، وراء المولتان ، حصينة ، يحيط بها خندق عميق يصعب منالها (ينظر : معجم البلدان : مادة بهاضية) .

[124] المصدر نفسه : 22–23 .

البقاع النائية ، فضلا عما انطوت عليه من تسجيل بعض طباع أهل الهند وطقوسهم الدينية ، ووصف تلك الربوع الغريبة النائية ..

أما الإشارة إلى أعلام التاريخ ورموزه وشخصياته المشهورة ، فقد شاعت كثيرا في مكاتبات هذا القرن شيوعا يبعث على الإعجاب والتأمل ، وهذا مظهر آخر يدلل على سعة ثقافة كتاب الرسائل في هذا القرن ، واتساع خزينهم العلمي والثقافي ، وبراعتهم الفائقة في توظيف ذلك وتطويعه في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية والاخوانية[125]:

فأبو الفضل الميكالي يوظف في فصل له من رسالة في الاعتذار وشكوى الحال ، توبة سحرة فرعون ، وتوبة النابغة الذبياني كوشيجة مناسبة لتكثيف الفكرة التي يعرضها ، فيقول[126]: "لست أدري سبب عتبك فأتوب إليك توبة سحرة فرعون ، وأخلص واعتذر إليك اعتذار النابغة إلى النعمان... " ..

ومن تلك الإشارات البارعة إلى بعض الرموز التاريخية في رسائلهم الأدبية ايضا ما وظفه الأمير أبو الفضل الميكالي في إحدى رسائله الطريفة في باب الشكر والثناء[127]: "ذاك سلطان فضل هو عرابة رأيته ، وميدان سباق وهو عكاشة عنايته "[128].

---

[125] تراجع مثلا رسالة الخوارزمي إلى رئيس سمرقند (وهي الرسالة رقم 98 ، ص172 من رسائله) ، حيث أفاض الكاتب في ذكر لصوص العرب وذؤبانها ، ثم أردف ذلك بنثر لباب ثقافته الإسلامية ، فضمن رسالته ذكر شخصيتين إسلاميتين هما جعفر الطيار وعثمان بن عفان (رضي) ، وتكثر هذه الإشارات في رسائل الهمذاني : ينظر اليتيمة : 315/4 ؛ إذ أشار إلى شخصية (قارون) ، وشخصية (المأمون) ، وينظر اليتيمة : 321/4 وإشارته الى شخصية (يحيى البرمكي) ، واليتيمة : 417/4 وإشارته الى كثير من أعلام الوزراء وغيرهم على عهد الدولة العباسية إبان القرنين الثاني والثالث للهجرة .

[126] يتيمة الدهر : 418/4 .

[127] يتيمة الدهر : 417/4 .

[128] أشار الميكالي إلى عرابة الأوسي الذي مدحه الشاعر المخضرم الشّماخ بن ضرار بقوله:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

ولعل أكثر وضوحا من هذه الإشارات الدقيقة ، ما وظفه الهمذاني في إحدى رسائله ، إذ أشار إلى شخصية (أبي موسى الأشعري) ، فقال [129] :" ... فأنا اليوم حتى ينتصف المظلوم ، سكن أبو موسى الأشعري المقابر فقال : أجاور قوما لا يغدرون ، فقيل له : مهلا يا أبا موسى ، إنما لا يغدرون لأنهم لا يقدرون " .

ولعل أوعب رسالة في هذا القرن تضمنت الإشارة إلى تلك الشخصيات والرموز التاريخية والأعلام المشهورة ، ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي التي كتبها إلى كاتب صاحب ديوان الجيش ، ومما ورد فيها[130]: " ... وكيف تساعدني بناني على ما يخالفني فيه جناني ، وكيف يطيعني بعضي فيما يعصيني فيه كلي ، ولو كنت أحمد بن يوسف في البلاغة ، وعبد الحميد بن يحيى في اتساع الكتابة ، وجعفر بن يحيي في الاختصار ، وأبا الربيع في التوسع والاكثار ، وأبا العيناء في العارضة ، وأبا العتاهية في البديهة ، وابن المعتز في التشبيهات ، وأبا نواس في الخمريات والطرديات ، والعتابي وصريع الغواني في الاستعارات والفرزدق في الفخريات ، وجريرا في المهاجاة وغلبت في المخاطبة صعصعة أبن صوحان ، وقمعت في الفصاحة خالد بن صفوان ، ونطقت بيتيمة ابن المقفع مرتجلا ، ... وضرب بي المثل في المقامات لا بسحبان ، وبوهي به في العِيّ عندي لا باقل ، وحفظت حفظ الشعبي وحاضرت محاضرة ابن القرية النمري ، وأبدعت أبداع أبي تمام الطائي ووعظت عظة الحسن البصري ، وجادلت جدل النظام في الكلام ، وصنفت تصنيف الجاحظ في الجد والهزل ، وأربيت على إياس بن معاوية في الذهن والعقل ، وبهرجتُ الأصمعي رواية ، وزيفت أبا عبيدة حفظا ودراية ، وعلمت أمير

ثم أشار الى الصحابي الجليل عكاشة بن محصن الذي قال فيه الرسول الأمين (صلى الله عليه وسلم) : (سبقك بها عكاشة) . ولعل ذكر هذه الأعلام والإشارة إليها مظهر واضح على عمق ثقافة الكاتب في هذا القرن وسعة إطلاعه على دقائق الأحداث في التاريخ الإسلامي وما سبقه أيضا .

[129] يتيمة الدهر : 322/4 .

[130] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 222–226 .

المؤمنين – عليه السلام – الحلال والحرام ، ولقنت شريحا القضاء والاحكام... لقصر عن ذلك عناني ، ولارتبك فيه عقلي وبياني..." [131] .

---

[131] **أحمد بن يوسف** : كان كاتب ديوان الرسائل في عهد المأمون ، ويكنى أبو جعفر ويلقب بالكاتب ، وكان فصيح اللسان بليغا ، يقول الشعر في الغزل والمديح والهجاء ، وله أخبار مع أبي العتاهية وإبراهيم بن المهدي ، وغيرهما ، توفي عام 213هـ ، تراجع ترجمته في : تاريخ بغداد (2692) ، الاغاني : 56/20–58 .

عبد الحميد بن يحيى : كاتب مروان بن محمد ، يضرب المثل ببلاغته ، فارسي الأصل قتل عام 132هـ ، ينظر : تاريخ بروكلمان : 261/1–0262 ، مقدمة نقد النثر ، د.طه حسين ، النثر الفني : 60/1 وغيرها كثير ، رسالة ماجستير (عبد الحميد الكاتب حياته وأدبه ، مريم التميمي ، جامعة الكوفة 1998م) .

جعفر بن يحيى : بن خالد البرمكي ، من كبار البرامكة الذين قتلهم الرشيد ، وصفه الجاحظ بالبلاغة ، وذكر أنه أنطق الناس ، وشهر ببلاغة توقيعاته وإيجازها ، وينظر البيان والتبيين : 105/1 .

صعصعة بن صوحان : من خطباء عبد القيس ، شهد صفين مع الأمام علي (عليه السلام) وكان فصيحا ، توفي في الكوفة في خلافة معاوية . ينظر : الإصابة (رقم 4125) ، الاشتقاق ، لأبن دريد : 199 ، فهرس البيان والتبيين .

خالد بن صفوان : بن عبد الله بن الاهتم ، من أعلام الخطابة في العصر الأموي ، وسامر أبا العباس ، وكان مطلاقا ، ينظر : البيان والتبيين ، ج1 في مواضع متفرقة ، المعارف ، ابن قتيبة ، 177 .

الشعبي : هو عامر بن عبد الله بن شراحيل الشعبي الحميري ، نسب الى (شعب) بطن من همدان كان واسع الحفظ ، استقضاه عمر بن عبد العزيز ، ولد بالكوفة عام 19هـ وتوفي عام 103هـ . ينظر : تذكرة الحفاظ 74/1–82 ، تهذيب التهذيب : 65/5 فهرس البيان والتبيين ، ج4 .

ابن القرية : هو أبو سليمان أيوب بن زيد ، كان أعرابيا أميا ، معدوداً في الخطباء المشهورين قتله الحجاج في فتنة ابن الأشعث عام 84هـ ، والقرية اسم لإحدى جداته ، وفيات الاعيان ، المعارف ، ص258 ، الاغاني : 163/1 .

وهكذا يلاحظ في هذه الرسالة الطريفة طول الفصل بين جملة الشرط بعد الأداة (لو) ، وبين جملة الجواب (لقصر عن ذلك عناني) ، وهذا شاهد بليغ على قدرة أبي بكر الخوارزمي في صناعة الترسل ، وبلاغته ، وطول نفسه ، وتدفق موارده ، وسعة أفقه ، ونضج ثقافته ، وعمق تجربته في صناعة الترسل..

النظام : هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام البصري ، استاذ الجاحظ ، واحد شيوخ المعتزلة ، واليه تنسب الفرقة النظامية ، توفي في عهد المعتصم عام 220هـ . ينظر : الملل والنحل للشهرستاني : 17/1 ، الفرق بين الفرق للبغدادي : 113 .

إياس بن معاوية : هو من مزينة مضر ، تولى قضاء البصرة في عهد عمر بن عبد العزيز توفي عام 122هـ . ينظر : المعارف : 205 ، تهذيب التهذيب : 39/1 ، الأنساب للسمعاني .

أبو عبيدة : هو معمر بن المثنى ، ولد عام 110هـ/728م في البصرة لأبوين رقيقين من يهود فارس ، وكان مولى لتيم قريش ، أخذ عن ابن العلاء وابن حبيب ، لحق بالصفرية من الخوارج ، والف قي مثالب العرب على مذهب الشعوبية ، توفي عام 207 وقد ناهز التسعين . ينظر : المعارف : 268 ، نزهة الألباء لابن الأنباري : 137–150 ، تاريخ بروكلمان : 142/2 .

شريح القاضي :هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندي الكوفي القاضي ، استقضاه عمر على الكوفة وكذا الأمام علي (عليه السلام) ، وولاه زياد قضاء البصرة ، توفي عام 72هـ . ينظر : الإصابة (رقم 3875) ، المعارف : 191 ، صفة الصفوة : 20/3 .

المبحث الثاني

مصادر الثقافة الأجنبية وأثرها في الرسائل الأدبية في القرن الرابع الهجري

سبقت الإشارة إلى أن كثيراً من الأدباء وكتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، كانوا ينهلون في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية أُقباساً مضيئة من معارف وثقافات الأجناس والشعوب الأجنبية التي اطلعوا عليها ، بعد تعريبها أو ترجمتها إلى العربية ، وفي مقدمتهم اليونان والفرس والهنود ، فضلا عما تلقفوه عن بعض الأجناس الأعجمية أو السريان وغيرهم ممن اختلطوا بهم ، أو تمازجوا معهم وقد كان في طليعة تلك المعارف والعلوم التي قبسوها الفلسفة والمنطق ، وغيرهما من علوم الحكمة كالطب والفلك والأخلاق والرياضيات وغيرها كقواعد النقد وأصول البلاغة والخطابة وما إليها ..

لقد كانت هذه المعارف والعلوم المتنوعة التي قبسها الأدباء الكتاب وغيرهم عن تلك الشعوب والأجناس الأعجمية ، والتي انبثت في ترسلهم وفي مكاتباتهم الأدبية ، تشكل رافدا ثرا ومهما للثقافة الإسلامية في هذا القرن ، إذ إنها عملت على نضج النتاج الأدبي والعلمي وعمقه وإثرائه ، وهذا ما تجلى واضحا في رسائل أعلام الكتاب ، وفي مقدمتهم أبو الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبو حيان التوحيدي ، وابن مسكويه والأمير قابوس وسواهم من المترسلين المشهورين ...

أولا : منابع الثقافة اليونانية وأصولها .

مر بنا في مدخل هذا البحث ، أن أبرز ما ميز الحياة العقلية إبان هذا القرن هو الإطلال الواسع والاستشراف العميق على معارف وثقافات الأمم والأجناس الأجنبية من خلال الاختلاط والتمازج بين تلك الأمم والشعوب المختلفة مع غيرهم من فئات المجتمع الإسلامي في هذا العصر .

ومرَّ بنا أيضا ، أنه كان لازدهار حركة الترجمة وتواصلها في هذا القرن ، وعكوف بعض العلماء والفلاسفة ، إلى جانب التراجمة السريان ، على تعريب كثير من العلوم والمعارف الأجنبية ، فضلا عن إعادة ترجمة كثير مما سبق ترجمته في العصر العباسي الأول ، كان لذلك كله أثره الفاعل في ازدهار الحياة الثقافية والأدبية في هذا القرن .

وقد كان لتطور الفكر الفلسفي الإسلامي ، وظهور فلاسفة متميزين كأبي بكر الرازي (ت320هـ) ، وأبي نصر الفارابي (ت339هـ) ، وصولا إلى أبي علي بن سينا (ت429هـ) ، وما عُرفوا به من نشاط دائب في وضع أسس الفكر الفلسفي الإسلامي ، وما اعتمدوا عليه من الاغتراف من ثقافات ومعارف الأمم والشعوب الأجنبية – ولاسيما الثقافة والمعارف اليونانية – كان لذلك أيضا تأثيره الكبير في نضج الحياة العقلية ، واتساع دائرة الثقافة ، وما تبع ذلك من ازدهار الحياة الأدبية ، ولاسيما صناعة الترسل والمكاتبات الأدبية .

لقد أصبحت تلك العلوم والمعارف الأجنبية المترجمة – والتي تمثلت بالفلسفة والمنطق وعلوم الحكمة الأخرى – ذخيرة مهمة ، إلى جانب الثقافة العربية الإسلامية ، بين أيدي الأدباء والكتاب وغيرهم في هذا القرن ، فراحوا يستقون من فيضها الزاخر في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية ، وكان لابد أن ينعكس تأثير ذلك كله على نمط تفكيرهم ، ومحتوى أدبهم ، وألوان أساليبهم .

وقد رصد الأستاذ الدكتور طه حسين طريقة أولئك الأدباء الكتاب – الذين تأثروا بالثقافة اليونانية – في النثر الفني في هذا العصر فقال [1]: " فأما أصحاب الفلسفة اليونانية ، والمتصلون بهذه الثقافة الغريبة ، فهم أصحاب تفكير وعناية بالمعاني ، وبترتيب الكلام ترتيبا منطقيا ، أما المتصلون بالثقافة الفارسية فهم أصحاب سجع وأصحاب بديع ، ولذلك نلاحظ أن رجلا كأبي حيان التوحيدي ، كان من تلاميذ الجاحظ ، وأشد الناس تأثرا باليونان ، لا يلتفت إلى البديع ، ولا يعنى

[1] من حديث الشعر والنثر : 79.

بالسجع ... بينما ابن العميد والصاحب بن عباد ، ومن إليهما ، كانوا يلمون بالثقافة اليونانية ، وكانوا حراصاً على الثقافة الفارسية فكانوا أصحاب بديع وسجع " .

وهكذا تميزت أساليب الأدباء الكتاب الذين عرفوا بسعة الثقافة ، والإلمام بتلك المعارف والثقافة اليونانية الجديدة ، تميزت أساليبهم : بعمق المعاني ، ودقة الأفكار ، وتنظيمها تنظيما يقوم على المنطق ، فضلا عن تناولهم موضوعات علمية وفلسفية عميقة ، وإخضاعها لمعايير الأسلوب الأدبي ، وهذا ما تمثل بوضوح في ترسل ومكاتبات عدد من الأدباء الكتاب في هذا القرن ، لعل في طليعتهم أبا الفضل ابن العميد ، وأبا حيان التوحيدي ، والصاحب بن عباد ، وأبا علي بن مسكويه ، والأمير قابوس بن وشمكير ، وأبا الفرج بن هندو ، وإضرابهم من الكتاب في هذا القرن .

لقد عالج بعض هؤلاء الأدباء الكتاب في هذا القرن مسائل أخلاقية ونفسية دقيقة[2] ، ونزعات مثالية ، كانت تمثل في حقيقتها جزءا من التفكير الفلسفي المثالي عند الإغريق ، وبخاصة فلسفة أفلاطون ومدرسته ، وهذا ما انعكس فيما تناوله بعض المفكرين والأدباء في فلسفة (النفس) ، وتحليل جوانبها المختلفة ، وما بحثوه في تحليل (العقل) ، وما يتعلق بقيمته بالنسبة للحواس ، فضلا عما قاموا به من

---

[2] لعل أهم وأشهر من مثل هذا الجانب من المفكرين ، والأدباء الكتاب في هذا القرن ، أبو علي ابن مسكويه ، وأبحاثه العميقة في فلسفة الأخلاق ، وتحليل النفس ، ونظراته الفلسفية في العقل وقيمته ، وقد تجلى كثير من آرائه الدقيقة في هذه الأمور الفلسفية وغيرها في أجوبته المركزة عن أسئلة أبي حيان التوحيدي في (الهوامل والشوامل) وفي بعض مصنفاته الأخرى التي نشرت ، وأشهرها كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – ويقع في ست مقالات طوال ، ويعالج علم الأخلاق – وكتاب (الفوز الأصغر) – ويتناول الإلهيات وطبيعة النفس وتحليلها – وكتاب (السعادة) أو ترتيب السعادة ، وتراجع أيضا : (وصية مسكويه) ، وقد رواها ياقوت في معجم الأدباء 5/17–19 ، وهي بمثابة دستور ومَعْلم لمن يريد الولوج إلى الفلسفة . وينظر في تحليل فلسفة ابن مسكويه وآرائه : النثر الفني في القرن الرابع 2/184–191 ، معالم الحضارة الإسلامية – الدكتور مصطفى الشكعة ، ص204 وما بعدها .

بحث وتحليل أو (موازنة) بين عنصرين مختلفين ، كالموازنة ، مثلا ، بين (المادة والروح) ، أو (البدن والنفس) . وما إلى ذلك[3] .

أما ما تركته آثار الثقافة اليونانية من بصمات واضحة على أسلوب الترسل والمكاتبات الأدبية في هذا القرن ، لاسيما من حيث البناء ، والشكل ، والصياغة فقد تجلت في مظاهر عديدة منها :

1. كثرة استخدام الألفاظ والتراكيب ، والاصطلاحات الفلسفية والمنطقية ، التي بدأت تشيع كثيرا في مصنفات ورسائل مشاهير المفكرين والأدباء الكتاب في هذا القرن ..

وما من شك في أن اللغة إن هي إلا وعاء الفكر ، ورجع النفس ، وصدى الوجدان ، ومن هنا كان لابد لهؤلاء المفكرين والأدباء الكتاب من أن تزدحم في مصنفاتهم ورسائلهم مثل تلك الصيغ والمصطلحات العلمية أو الفلسفية والمنطقية وغيرها ، كألفاظ : العرض والجوهر ، والسنن والبدع والهيولي ، والصورة والمادة ، والكون ، وغيرها .. وكمصطلحات : (الجزء الذي لا يتجزأ) و (النفس الشهويّة) ، و (النفس البهيميّة) ، و(النفس السبعية) ، او ما يعرف أحيانا (بالنفس الحيوانية) ، وما إلى ذلك من مصطلحات ..

وقد شاع كثير من هذه الصيغ والتراكيب الفلسفية والاصطلاحات العلمية والمنطقية وغيرها في العديد من المصنفات المشهورة ككتاب (المقابسات) و (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي ، وفي مصنفات ، وترسل أبي علي ابن مسكويه ، وابي بكر الخوارزمي [4] ، والصاحب بن عباد[5] ، وغيرهم من أعلام وجهابذة المترسلين في القرن الرابع .

---

[3] تراجع التفاصيل في كتاب : ملامح النثر العباسي – الدكتور عمر الدقاق ، ص271 وما بعدها.

[4] وردت في رسائل أبي بكر الخوارزمي كثير من تلك الاصطلاحات والصيغ الفلسفية والمنطقية ، منها ما ورد في رسالته إلى أبي الحسن الطرحودي بدار طوس ، إذ يقول (.. وكيف يسمح (بالجوهر) الحاصل من يخل (بالعرض) الحائل، و كيف يتوسع في= =(النافلة)

2. ذكر كثير من أسماء (الأعلام) من الفلاسفة والحكماء الإغريق ، وإيراد بعض آرائهم الفلسفية ، وأقوالهم المشهورة ، وحكمهم البليغة السائرة :

ومن مظاهر اضطلاع الأدباء الكتاب في هذا القرن برموز الثقافة اليونانية كثرة ورود أسماء الأعلام من مشاهير الفلاسفة والحكماء الإغريق وغيرهم وإدراج بعض آرائهم أو أقوالهم المشهورة ، وحكمهم المأثورة ، في مصنفات أعلام الكتاب الذين شهروا بكثرة اطلاعهم على مفردات الثقافة اليونانية – كأبي حيان التوحيدي ، وابن مسكويه وعيرهما – أو في رسائل ومكاتبات مشاهير الأدباء في هذا القرن أيضا ، وفي مقدمتهم ، أبو بكر الخوارزمي ، والصاحب بن عباد ، والأمير قابوس بن وشمكير ، وبديع الزمان الهمذاني وأضرابهم من الكتاب.

ولعل أدق شاهد يوضح هذا الجانب ، ما ساقه أبو حيان التوحيدي في الليلة (السابعة عشرة) من كتاب (الامتاع والمؤانسة) ، إذ أورد أسماء عشرات الأعلام الإغريق من الفلاسفة والحكماء ، والعلماء ، مع عرض بعض آرائهم وأقوالهم وحكمهم .

ومما ورد في تضاعيف هذه الليلة المذكورة قوله [6] :

"... قيل (لديوجانس) : أيهما أولى : طلب الغنى ، أم طلب الحكمة ؟ فقال : للدنيا الغنى ، وللآخرة الحكمة ، وقيل له : متى تطيب الدنيا ؟ قال: إذا تفلسف ملوكها ، وملك فلاسفتها ... وولي (أريوس) ولاية فقال له أصدقاؤه : الآن يظهر فضلك . فقال : ليست الولاية تظهر الرجل ، بل الرجل يظهر الولاية ، وقال

من تضايق (بالفريضة) ... " رسائل الخوارزمي ، ص27 . ويقول الخوارزمي أيضا في فصل من رسالة له إلى أحد تلاميذه فوض إليه أشغاله : ".. ولا يعلمون ، أني انما اذكر بقيعة طولها باع ، وعرضها ذراع ، أعني باع البقة ، وذراع الذرة ، وأقل من لا ،وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ .." رسائل أبي بكر الخوارزمي ، ص20.

[5] وردت كثير من تلك الألفاظ والمصطلحات الفقهية والدينية والفلسفية في فصول عديدة من (الباب الثاني) الموسوم:(في العهود) ينظر مجموع رسائل الصاحب بن عباد،ص34–58.

[6] الإمتاع والمؤانسة 31/2 وما بعدها .

(ديوجانس) : الدنيا سوق المسافر ، فليس ينبغي للعاقل أن يشتري منها شيئا فوق الكفاف ، وقيل (لأرسطفانس) : من صديقك ؟ قال : الذي إذا صرت إليه في حاجة وجدته أشد مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها ، وقال (إفلاطون) : " إن للنفس لذتين : لذة لها مجردة من الجسد ، ولذة مشاركة للجسد ، فأما التي تنفرد بها النفس ، فهي العلم والحكمة ، وأما التي تشارك فيها البدن فالطعام والشراب وغير ذلك . وقيل (لسقراط) : كيف ينبغي أن تكون الدنيا عندنا ؟ قال : لا تستقبلوها بتمن لها ، ولا تتبعوها بتأسف عليها ، فلا ذلك مجد عليكم ، ولا هذا راجع إليكم..." .

وهكذا يستمر أبو حيان التوحيدي ينقل عن فلاسفة اليونان وحكمائهم ...

وقد صنف بعض المفكرين أو الأدباء الكتاب في هذا القرن كتابا قصرهُ على هذا الجانب ، فراح يسوق في مصنفه ما لفلاسفة اليونان وحكمائهم من أقوال سديدة مأثورة أو حكم بليغة مشهورة[7] .

الثقافة اليونانية وأصداؤها على الفكر والنثر الفني .

---

[7] من تلك الكتب المصنفة : كتاب (الكلم الروحانية من الحكم اليونانية) للأديب الكاتب أبي الفرج ابن هندو ، وقد التقط فيه حكم اليونان ، وكلمات الفلاسفة ما يجري مع الأمثال السوائر ، ويدخل في النوادر ، وقد اشتمل الكتاب ، أولا على حكم (إفلاطون) – وقد استغرقت نحو نصف الكتاب – ثم أتبعها بأرسطا طاليس ثم سقراط ، ثم بمحاورات جرت بين (اريجانس) وسقراط ، ثم حكم لأميروس فالأسكندر فباسيليوس ، ففيثاغورس فبقراط فجالينوس ، إلى غيرهم من الفلاسفة ..

ولأبي علي بن مسكويه كتاب (جاويذان خرد) جمع فيه أيضا حكم الأمم الأربعة الكبيرة وهم الفرس والهند والعرب والروم ، وهذا الكتاب يبحث في الأخلاق العملية ، ويدل على اطلاع واسع على تراث الأمم القديمة ، ينظر : معالم الحضارة الإسلامية ، ص205 ، كنوز الأجداد ، ص217 .

لقد كان لجهود أبي نصر الفارابي (339هـ) – الذي مزج في أبحاثه الفلسفية ، فلسفة أرسطو بآراء الإفلاطونية الجديدة ، على الرغم من اختلاط آرائه بأفكار صوفية عميقة – أعظم الأثر في النهضة العلمية ، وازدهار حركة التأليف والترجمة في هذا القرن .

وقد تبلورت جهود الفارابي في تطوير الفكر الفلسفي الإسلامي ، بما أسداه بعض تلاميذه ، الذين تخرجوا عليه ، وفي طليعتهم أبو زكريا يحيى بن عدي ومن شايعه من تلاميذه ، ومنهم ابن الخمار ، وأبو سليمان المنطقي وغيرهم بما قاموا بترجمته من العلوم والمعارف اليونانية ، ولاسيما فيما يتصل بالفلسفة والمنطق ، وعلوم الحكمة الأخرى ...

ولم تقتصر جهودهم على ذلك فحسب ، وإنما طفقت بوادر جديدة تلوح في مجالس أبي سليمان المنطقي وأتباعه تعلي شأن الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، ومن جانب آخر ، فقد كان نصرة هذا الاتجاه الفكري الجديد هدف طائفة من المفكرين المسلمين ، وهي التي عرفت بجماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وقد ظهرت في حاضرة البصرة في حدود منتصف القرن الرابع ، وقد كان لرسائل هذه الجماعة تأثير كبير وخطير في أوساط المجتمع الإسلامي[8] .

لقد كشف التوحيدي جانبا مهما من آراء هذه الجماعة ، وغايتها ، ويتضح مما ساقه من آرائهم انهم كانوا متأثرين بالفلسفة اليونانية ، و كانوا مندفعين في الاعلان لها ،وقد أشار إلى أن هذه الجماعة ترى أنّ (الشريعة قد دنّست بالجهالات

---

[8] تراجع التفاصيل عن رسائل إخوان الصفا في : أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي : 58–62 . وقد ذكر القفطي أن عددها إحدى وخمسون مقالة ، ووصفها بأنها (مقالات مشوقات غير مستقاة ، ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج ، وكأنها للتنبيه والإيماء إلى المقصود الذي يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة) ويراجع رأي التوحيدي بهذه الطائفة ، وما نقله من رأي استاذه أبي سليمان المنطقي فيهم : (الإمتاع والمؤانسة 4/2 وما بعدها) ، ويراجع أيضا : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان 152/4 وما بعدها ، وينظر أيضا تحليل بعض رسائلهم في كتاب (رسائل فلسفية) ، ص61–123 .

واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الإعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وقد زعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال...)[9] .

وما من شك في أن هذه الجماعة قد غلبت أفكاراً غريبة طارئة (أفكارا وافدة) ، جعلتها أصلا من أصول تفكيرها ، ومن هنا فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن " نزعتهم الفلسفية نزعة قدماء مترجمي الحكمة اليونانية والفارسية والهندية... "[10] ، في حين وصم باحث آخر[11] أفكارهم ، وما حوته رسائلهم بأنها خليط غير متجانس لنزعات متناقضة ، فذهب إلى القول : " إن بوسعه القول إنهم كانوا علويين إسماعيليين ومعتزلة وفيثاغوريين وأفلوطينيين ومجوسا ، لأن لكل هذه النزعات أثرا بارزا في رسائلهم ... " [12] .

وقديما وصف التوحيدي أفكارهم ورسائلهم بأنها : (مبثوثة من كل فن نتفا بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها[13] .

ولعل هذا القول يدفع عن أبي حيان تهمة تحمسه لهذه الجماعة ، وتأييده لأفكارها ، أو احتمال انتمائه – دون أن ينوه أو يصرح بذلك – إليها[14] .

وهكذا بدأت تسري في الأوساط الأدبية والعلمية ، وفي المجالس والمنتديات كثير من تلك المعارف والآراء ، وبدأ كثير من الأدباء والكتاب يتلقفون ما يتلاءم

---

[9] الإمتاع والمؤانسة (الليلة السابعة عشرة) 4/2 وما بعدها .

[10] تراجع التفاصيل في : دائرة المعارف الإسلامية : (مادة : إخوان الصفا) .

[11] كتاب : إخوان الصفا – د. جبور عبد النور :240 .

[12] المرجع نفسه : 240.

[13] الإمتاع والمؤانسة : 5/2 .

[14] ينظر ما ذهب إليه الدكتور مبارك – النثر الفني في القرن الرابع 174/2–175 مصطفى الشكعة ، معالم الحضارة الإسلامية : 174 .

منها مع آرائهم وأذواقهم ومعتقداتهم ، وقد كان كتاب الرسائل في هذا القرن من بين أبرز شرائح المجتمع الإسلامي الذين تأثروا بتلك الأفكار والآراء لما اضطلعوا به من ثقافات كثيرة ومتنوعة ..

لقد كان كثير من كتاب هذا القرن واسع الثقافة ، غزير المعارف ، يجمع إلى إحاطته بالعربية وعلومها وآدابها ، الإطلاع على منابع الثقافات الأجنبية .

فأبو الفضل ابن العميد ، مثلا ، كان – كما أشار الدكتور مبارك[15] وباتفاق من ترجموا له كان أحفظهم للغة والغريب ، وأكثرهم توسعا في النحو والعروض وغير ذلك من علوم العربية ، وكان إلى ذلك كله أنفذهم سهما في الهندسة والمنطق وعلوم النفس والإلهيات .

ولعل أبا الطيب المتنبي كان على حق حين شبهه (بارسطاطاليس) في علمه وحكمته ، (والاسكندر) في شجاعته وجلده ، (وبطليموس) في طبه ودرايته ، اذ قال في مدحه من قصيدة مشهورة[16] :(من الكامل)

من مبلغ الأعراب أني بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وملت نحو عشارها فأضافني من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى ، فذلك إذ أتيت مؤخرا

وانطلاقا من هذا ، فقد انتشرت في رسائل أبي الفضل ومحاوراته كثير من تلك الشذرات النفيسة التي تفصح عن إحاطة الكاتب بالكثير من تلك المعارف وألوان

---

[15] النثر الفني في القرن الرابع : 235/2 .

[16] ديوان أبي الطيب المتنبي : 152/2–153 ومطلع القصيدة :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك او جرى

وينظر ايضا بعض أبيات القصيدة في زهر الآداب وثمر الألباب 188/1 مع اختلاف طفيف في بعض مفردات النص .

العلوم والثقافات التي راجت بين أوساط الكتاب الذين كانوا بحاجة إلى الإلمام بمنابع هذه المعارف والعلوم ..

ففي رسالة لأبي الفضل ابن العميد إلى أبي العلاء السروي ، يشير فيها إلى شهر رمضان ، وفريضة الصيام ، وما يعانيه من وطأة هذا الشهر ! وردت إشارات تدلل على اضطلاع الكاتب بعلم الفلك والتنجيم ، ومعرفة حركة الكواكب ، فقد أشار في هذه الرسالة إلى الأفلاك والبروج ، والقمر ودورته ، وسيره وحركته ، ومسافة فلكه ودائرته ، ومنازله ، وأقسامه[17] .

وفي رسالة أخرى إلى الأمير عضد الدولة البويهي يضمن ابن العميد ويحل بعض حكم فلاسفة اليونان والهنود ، ويوظفها في رسالته ، ويحلها في ثنايا معانيه ، ثم أشار إلى فكرة تسلط الملك (الجاهل) ، الذي تطول مدته ، وتتسع قدرته وأوضار ذلك على العلوم واجتثاثها ، ليبلغ ما يريد إثباته للأمير عضد الدولة ، من وجوب الثناء عليه ، لما يسديه للعلم والعلماء من تشجيع ورعاية.

يقول في ثنايا هذه الرسالة ، التي جمعت إلى نفاسة المعنى براعة اللفظ بعد أن أشار إلى ما يسبب اختزام العلوم[18] :

" وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته ، فإن البلاء به لا يعدله بلاء ، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل ، كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها... ".

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى ما تأثر به أبو الفضل ابن العميد ، عند موازنته بين الملك الجاهل المتسلط ، والملك العالم العادل ، بما تلقّفهُ عن فلاسفة اليونان في عقد (الموازنة) بين عنصرين مختلفين أو شيئين متباينين كموازنتهم مثلا بين (الهيولي) – المادة – والروح ، أو العرض والجوهر ، كما سبق أن أشرنا في مستهل هذا المبحث .

---

[17] تراجع الرسالة في يتيمة الدهر : 3/190-192.

[18] المصدر نفسه : 3/195-196.

وفي رسالة أبي الفضل ابن العميد المشهورة التي كتبها إلى (ابن بلكا) [19] عند استعصائه على الأمير ركن الدولة البويهي ، استلهام واضح مما طرحه الفيلسوف (أفلاطون) من خلال فلسفته المثالية ، وهو ما بثه في كتابه (الجمهورية) [20] وفي كتابه الآخر(القوانين) أيضا ، من وجوب الطاعة المطلقة (لحماة القانون) ورفضه لأي شيء – بما في ذلك الفن الأصيل الذي يدعو إلى التجديد أو الخروج على القيم الموروثة – يعمل على تغيير الواقع ، وفق منظور يتطلع إلى المستقبل .

لقد أراد أبو الفضل ابن العميد لهذا القائد الذي خرج على القانون ، وعلى أمر أسياده ، الرضوخ إلى طاعتهم ، كما أراد (أفلاطون) للأدب والفن أن يكونا مستعدين ليضعا نفسيهما في خدمة (أقوياء هذا العالم) ، ذلك أن (افلاطون) قبل فنا (تكريسيا) يدير ظهره للمستقبل ، ويصر على التمسك بالقيم الموروثة ...

وهكذا يتضح من خلال بعض فصول رسائل أبي الفضل ابن العميد ، أنه كان يلم بالثقافة اليونانية إلماما واضحا ، وقد أكد ذلك الأستاذ طه حسين ، إذ أشار كذلك إلى حرصه على الثقافة الفارسية ، ثم وضح أثر هاتين الثقافتين على أسلوبه أو طريقته الخاصة في الترسل ، إذ قال[21] : " ... ومن هنا فقد جمع في ترسله بين التفكير والعناية بالمعاني وبترتيب الكلام ترتيبا منطقيا ، مع العناية بالسجع وألوان البديع ".

أما كافي الكفاة الصاحب ابن عباد ، فقد أتقن العربية إتقانا كبيرا ، وفقه أسرارها وخصائصها فقها جيدا ، وكان إلى ذلك يجمع – بشهادة أبي بكر الخوارزمي[22] ، إتقان الفارسية وآدابها ، وقد انعكس آثار ذلك كله في أدبه وترسله ،

---

[19] تراجع فصول هذه الرسالة المشهورة في يتيمة الدهر : 3/193–194.

[20] يراجع كتاب جمهورية أفلاطون – ترجمة : حنا خباز (طبعة دار القلم بيروت 1980 الطبعة الثانية).

[21] من حديث الشعر والنثر : 79 .

[22] ورد في رسالة الخوارزمي إلى الوزير الصاحب ، لما ورد باب جرجان ، لقتال الأمير قابوس يقول فيها : " وإذا كان الوزير وهو أستاذ فارس الميدانين وسابق الرهانين وكانت يده تجيل

كما ألم أيضا بشذرات أو جوانب مهمة من الثقافة اليونانية – لكونه كان معتزليا – ولاسيما ما يتعلق بالفلسفة والمنطق والطب وما إليها ...

ويستوقفنا في أدب الصاحب – رسالة أدبية طريفة وقيمة في صناعة الطب تنبئ عن عمق معرفته بلطائف هذه الصناعة ، ومدى تبحره بدقائقها وشواردها حتى أن أبا منصور الثعالبي ذكر أنه سمع أبا جعفر الطبري ، الطبيب المعروف بالبلاذري يقول : " إن للصاحب رسالة في الطب ، لو علمها ابن قره ، وابن زكرياء لما زادا عليها! " [23].

إن أهمية هذه الرسالة الأدبية (الطبية) تكمن في أمرين :

(الأول) : إن هذه الرسالة تكشف عن مدى إفادة كبار الأدباء في هذا القرن ومنهم الصاحب ، من هذا الموروث العلمي الذي بدأ ينتشر ويشيع في هذا العصر نتيجة لاستمرار نقل العلوم والمعارف المختلفة ، وتواصل ترجمتها إلى العربية وممارستها في الحياة العملية ، ولعل صناعة الطب أكثر خطرا وأهمية من العلوم والصناعات الأخرى في هذا الجانب .

(الثاني) : إطلاع أدباء هذا القرن – ومنهم الصاحب – على أصول هذه الصناعة ورجوعهم إلى حكماء اليونان الرواد ، والاستشهاد بآرائهم الطبية ، والاقتداء بنصائحهم المعرفية .

وهذا أدق شاهد على استلهام أصول تلك الثقافات الأجنبية وتوظيفها في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية ، والاهتداء بمعالمها في حياتهم اليومية .

لقد جمعت هذه الرسالة الأدبية ، إلى قيمتها العملية والعلمية في أصول هذه الصناعة ، جمعت أيضا البراعة في الإنشاء ، والفن في التعبير الأدبي ، فهي كما أشار الثعالبي [24] :

قد حي الشجاعة والكرم ، وتجمع بين السيف والقلم ، وتحذق آداب العرب والعجم... " رسائل الخوارزمي : 77 .

[23] يتيمة الدهر : 237/3 .

[24] يتيمة الدهر : 238/3.

" تجمع إلى ملاحة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر في علمه ، وقوة المعرفة بدقائقه... " .

يقول الصاحب بن عباد في تضاعيف هذه الرسالة القيمة ، وقد كتبها إلى (الأستاذ الرئيس) أبي العباس الضبي ، مشيرا إلى مشاهير حكماء الطب عند اليونان [25] :

" ... ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المدة بما يقوى منها ويزيل العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل جالينوس : قدم علاج الأهم ثم عُدْ وأصلح ما أفسدت ... فأما هذه التي تعتاد عقيب الحمى [يعني الرعشة التي تلازم المريض] فهي على ما قال جالينوس من أن حدوثها يكون إذا شاركت العروق التي تحدث فيها علة العصب ، وتزول عنه بزوال الفضل..." .

ثم يقول في ختام هذه الرسالة مشيرا إلى آراء الحكيم جالينوس وبقراط[26]:

"... وجالينوس يشرط في العلاجات أجمع استحفاظ القوى ، لأن الذي يفعله الضعف لا يتداركه أمر ، إلا أن ذلك بإزاء ما قال الحكيم الأول بقراط في البدن السقيم : إنك متى ما زدته غذاء زدته شرا ، وهو في نفسه يقول : إن الحمية التي في غاية الدقة ليست بمحمودة ، فالطرفان من الإسراف والإجحاف مذمومان ، والواسطة أسلم ، أغنى الله مولاي عن الطب والأطباء ، بالسلامة والشفاء.)).

وهكذا يتضح بجلاء إلمام الوزير الصاحب ، وأضرابه من كبار الأدباء الكتاب في هذا القرن ، بألوان المعارف والثقافات التي راجت في هذا العصر ، وانه كان إلى جانب تفوقه وإلمامه بالعربية وآدابها ، وتبحره بالفارسية وجواهرها ، على دراية واطلاع بمعارف اليونان ، وبعض علوم الحكمة التي شاعت في عصره...

---

[25] تراجع الرسالة كاملة في مجموع رسائل الصاحب بن عباد (الباب التاسع عشر – في النوادر النادرة في فنها) وهي الكتب الغريبة المعاني في جنسها) : 228–230 ، وقد أوردها الثعالبي أيضا في اليتيمة ، دون ذكر مقدمة الرسالة التي تقع في تسعة أسطر :238/3–239.

[26] يتيمة الدهر : 239/3.

ومن قمم الأدب الشامخة في الترسل والمكاتبات الأدبية والإخوانية الذين نهلوا من معين المعارف والثقافات الأجنبية – ولاسيما الثقافة اليونانية – في هذا القرن : أبو بكر الخوارزمي .

لقد اشتهر الخوارزمي بأنه كان يجمع في أدبه – شعرا ونثرا – بين القديم والجديد ، وقد وصفه بعض أدباء عصره – كما نقل ذلك الثعالبي –[27] بأنه كان ((أدهم في آدابه)) ، وأنه كان ((أمير المنطق الحر)) ! قال ابو الحسن عمر بن ابي عمر الرقاني في تأبينه [من السريع]

مات أبو بكر وكان امرأ أدهم في آدابه الغرّ

ولم يكن حرّاً ، ولكنه كان أمير المنطق الحر

وفي مجموع رسائل الخوارزمي ترد إشارات مهمة ، تومئ بوضوح إلى اضطلاعه ببعض ثقافات عصره المتنوعة ، ولاسيما الثقافة اليونانية ، فضلا عن اضطلاعه بالفارسية وآدابها ، لكونه من الكتاب الفرس ، وكان في رسائله الإخوانية دائب الإشارة إلى أعلام الفكر اليوناني المشهورين ، فضلا عن علوم الأمم المشهورة آنذاك كالهنود مثلا .

من ذلك ما ورد في رسالته إلى كاتب صاحب الجيش جوابا عن رسالة مدحه وعاتبه فيها ، إذ يقول[28] :

" ... وصرت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم ، ووفقت توفيق سليمان الحكيم ، وأخذ عني بطليموس علم الهيئة ، وارسطاطاليس علم الفلسفة وبلنياس باب الطلسم والحيلة ... واختلفت إلى الهند تعليم الحساب ، ... وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر ... ثم حملت بعد هذا كله على أن يمضي بي في عتاب الإخوان لساني ، أو يجري فيه بناني، لقصر عن ذلك عناني ...".

وتضم رسائل أبي بكر الخوارزمي الاخوانية رسالتين أدبيتين في صناعة الطب ، (الأولى) : أرسلها إلى كاتب بعض الأمراء ، وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه

---

[27] يتيمة الدهر : 239/4 .

[28] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 226 .

الجرب[29] . (والثانية) : كتبها الخوارزمي إلى تلميذ له ، وقد ظهر عليه الجدري[30] .

وهاتان الرسالتان وثيقتان طبيتان مهمتان تؤكدان سعة أفقه في هذه الصناعة ، وتنوع ثقافته ، وارتشافه من فيض معارف عصره الذي عرف بالخصب والتنوع ...

****

ومن جهابذة الأدباء الكتاب الذين نهلوا من معين الثقافات الأجنبية – ولاسيما المعارف والثقافات اليونانية – الأديب الكاتب أبو إسحاق الصابي ، – وكان من المقدمين في صناعة الترسل والبلاغة – في هذا القرن ، وهو من الصابئة الحرانيين ، وممن برع بالرصد ، وعلم الفلك والتنجيم ، واضطلع بعلم الرياضة – ولاسيما الهندسة وعلم الهيئة – وله مصنف حرره بخطه في علم المثلثات .

وقد وضعه القفطي في مصنفه المشهور ضمن العلماء والحكماء ، إذ قال[31]: " ... وله يد طولى في علم الرياضة ، وخصوصا الهندسة والهيئة ، ولما عزم شرف الدولة ابن عضد الدولة على رصد الكواكب ببغداد ... كان في جملة من يحضروه من العلماء بهذا الشأن ، إبراهيم بن هلال ، وكتب بخطه في المحضر الذي كتب بصورة الرصد ، وأدرك موضع الشمس من نزولها في الأبراج ، وله مصنف رأيته بخطه في المثلثات " .

لقد أكب كثير من كتاب الإنشاء ، في حاضرة الخلافة ، أو في الممالك الإسلامية المستقلة إبان هذا القرن ، على الارتشاف من أصول الثقافات الأجنبية وغيرها ، وبخاصة المنطق والفلسفة اليونانية ، للارتقاء بملكتهم الأدبية ، بلوغا لنيل الشهرة الأدبية ، والوصول إلى أعلى المراتب الأدبية في الدواوين الرسمية .

---

[29] تراجع الرسالة في مجموع رسائل أبي بكر الخوارزمي : 142–145 .

[30] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 196–197 .

[31] إخبار العلماء بأخبار الحكماء : 54 .

ومن رعيل هؤلاء الأدباء الكتاب الذين اضطلعوا بالثقافات الأجنبية– ولاسيما المنطق والفلسفة اليونانية – في هذا القرن ، أديبان كبيران هما : أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي (ت337هـ) ، وأبو الفرج الحسين بن محمد بن هندو (430هـ) .

أما أبو الفرج قدامة بن جعفر ، فقد برع – كما ذكر ياقوت الحموي[32]– في صناعتي البلاغة والحساب ، وقرأ صدرا صالحا من المنطق ، وهو لائح على ديباجة تصانيفه .

وقد عد الأستاذ طه حسين كتابه المشهور (نقد الشعر) [33] ، أول ما ظهر من تشريع الفلسفة للأدب[34] ، ورأى أن قدامة قد استغل نظرية (أرسطو) المتعلقة بـ (المنافرات) ، وأن قدامة قد أنفق جهدا طريفا في رد سائر الفنون الشعرية إلى المديح والهجاء[35] ، كما أشار الأستاذ طه حسين ، أيضا إلى أن ، قدامة قد استغل نظرية أخرى (لأرسطو) في كثير من الاقتناع بصحتها ، تلك هي نظرية (الغلو)[36] ، الذي يجيزه (أرسطو) – على ما هو معروف – للشعراء في جميع الأحوال ، وللخطباء في أحوال خاصة ..

لقد كانت محاولة الأديب الكاتب قدامة بن جعفر قاصرة على الشعر دون النثر ، ولكني استطردت هنا ، لأوضح أثر المنطق والفلسفة اليونانية في توجيه الدراسات الأدبية والنقدية إبان هذا القرن .

---

[32] معجم الأدباء .

[33] طبع هذا الكتاب طبعات عديدة ، لعل أفضلها ما حققه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي.

[34] تراجع التفاصيل في مقالة الأستاذ طه حسين : (البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) في مقدمة كتاب (نقد النثر) / المنسوب خطأ لقدامة بن جعفر ، ص16 (ترجمة عبد الحميد العبادي) .

[35] المرجع نفسه : 18 .

[36] المرجع نفسه : 18 .

وأما أبو الفرج ابن هندو[37] ، فقد كان من الأدباء الكتاب الذين اضطلعوا بالثقافات الجديدة – ولاسيما علوم المنطق والحكمة والفلسفة اليونانية – وقد ذكر مصنفو كتب التراجم من تآليفه : (أنموذج الحكمة) ، و(المفتاح) في فوائد الطب ، و(الرسالة المشرقية) ، و (كتاب النفس) وغيرها[38] .

وقد التقط ابن هندو حكم اليونان وجمعها في مصنف سماه (الكلم الروحانية من الحكم اليونانية) ، وكان كثيرا ما يودعها في أدبه ، لقد استقصى ابن هندو من حكم فلاسفة اليونان القدماء ما يجري مع الأمثال السوائر ، ويدخل في النوادر ، ودوّن ما يعد من غامض الفلسفة ، ويحصل معناه بعد الكلفة ، قبس من حكم أفلاطون ، ثم ثناها بارسطاطاليس ، فسقراط ، فمحاورات جرت بين أريجانس وسقراط ، فكلمات لأميروس ، فالاسكندر ، فباسيليوس ، ففيثاغورس ، فبقراط فجالينوس ، فديمستانس ، فزينون ، فديقوميس ، ففيلمون ، فنوموس فأكابوقراطس ، فغورس ، فديمسطس ، إلى غيرهم من الفلاسفة والحكماء غير المشهورين في أدبنا المتعارف[39] .

****

ويستوقفنا في هذا القرن ايضا ، أديبان مفكران كبيران متعاصران ، التقيا معا في سعة ثقافتهما وعمقها ، واحتراف أحدهما لمهنة الوراقة ونسخ الكتب[40] ،

---

[37] تراجع ترجمته في (يتيمة الدهر : 3/459-462) ، حيث عده الثعالبي من كتاب الإنشاء ممن تخرجوا بخدمة الوزير الصاحب ، فظهر عليهم حسن أثر الدخول في صحبته ، وقد برع في صناعتي النظم والنثر .

[38] تراجع التفاصيل في : كنوز الأجداد : 213 وما بعدها .

[39] المصدر نفسه : 217 .

[40] يراجع ما ورد عن أبي حيان في : معجم الأدباء : 13/15 ، 26 .

واحتراف الآخر مهنة الإشراف على خزانة الكتب[41] ، وافترقا في أن الأول كان محروما بائسا ، والآخر كان مجدوداً منعما.

وقد أكبّ هذان المفكران ينهلان من ألوان الثقافات الأجنبية وغيرها – ولاسيما علوم الحكمة والفلسفة اليونانية – وقد انعكست آثار تلك الثقافات في نتاجهما الأدبي والفكري ، وعدا بحق ، علمين شامخين من أعلام الثقافة والفكر والأدب إبان هذا القرن ، إنهما المفكران الكبيران : أبو حيان التوحيدي ، وابن مسكويه .

أما ابو علي ابن مسكويه : فقد كان " من كبار فضلاء العجم ، وأجلاء الفرس " [42] ، ولسعة ثقافته وتنوعها فانه كان شغوفا بالاطلاع على تراث الأمم القديمة ، ولعل هذا ما يفسر لنا عكوفه على تأليف كتاب (جاويذان خرد) [43] بالفارسية ، والذي جمع فيه حكم أربع أمم كبيرة هي :الفرس ، والهند ، والعرب والروم ، وهو من كتبه المهمة التي تبحث في الأخلاق ، وتدل على وقوفه الدقيق على التراث الإنساني القديم ..

ولقد شغف ابن مسكويه بتراث اليونان أيضا ، ولعله اطلع – كنظيره ابي حيان التوحيدي[44] – على أكثر ما ترجم إلى العربية من مصادر المعرفة والتراث الفلسفي اليوناني وغيره والتي كانت متداولة في هذا القرن ، ويبدو أن شغفه بالمنطق والفلسفة اليونانية كان يفوق سواهما من ألوان المعارف وعلوم الحكمة الأخرى ، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع بعض الباحثين إلى القول :

---

[41] عمل ابن مسكويه في مقتبل عمره خازنا لمكتبة أبي الفضل ابن العميد ، ثم عمل أمينا وخازنا لمكتبة الأمير عضد الدولة البويهي بشيراز ، وقد عرف ابن مسكويه بلقب (الخازن) . ينظر : تاريخ العلماء القفطي : 217 ، النثر الفني في القرن الرابع 176/2.

[42] إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي : 217 .

[43] ينظر كتاب : معالم الحضارة الإسلامية : 202.

[44] ينظر ما أورده الأستاذ الدكتور فائز طه عمر في كتابه (النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي) ، مبحث مصادر النثر الفلسفي عند التوحيدي : 122 .

" وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدمات حقت النتائج..." [45] .

ويشير الأستاذ مبارك في موضع آخر ، إلى شغف ابن مسكويه البالغ بالفلسفة اليونانية ، حتى أنها " وصلت إلى أعماق نفسه في وضوح وجلاء فاقتفى مناهج اليونان في عرض الآراء ، ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية ..." [46] .

ولعل هذا ما يفسر لنا وقوف المتتبع لأثار ابن مسكويه – ولاسيما نتاجه الفكري والفلسفي ، في علم الأخلاق وتحليل النفس[47]– على ظلال وارفة وكثيرة لآراء فلاسفة الإغريق القدماء ، وفي مقدمتهم سقراط ، وجالينوس وارسطاطاليس ، وغيرهم .

ولعل ما أجاب به ابن مسكويه من إجابات عميقة شافية عمّا طرحه أبو حيان من تساؤلات دقيقة معضلة ، في (الهوامل والشوامل) قد عكست بوضوح شموخ ابن مسكويه ، وأنه بحق قمة سامقة من قمم الفكر والثقافة في هذا القرن وأظهرت بجلاء عمق اطلاعه على مسارب الفكر ، وعلوم الحكمة الإغريقية القديمة ، وبخاصة ما تعلّق باحتفائه بالنفس الإنسانية ، وتحليلها ، وتشخيص أمراضها وآفاتها[48] ، أو ما تعلق بالأخلاق وفضائلها ، وفروعها ومظاهرها التي تهدف إلى خلق مجتمع فاضل ومتكامل ...

---

[45] النثر الفني في القرن الرابع : 187/2 .

[46] المرجع نفسه : 181/2–182 .

[47] ذكر القفطي : 217 ، والدكتور مصطفى الشكعة ، معالم الحضارة الإسلامية :204 أهم آثاره المنشورة وغيرها ..

[48] تراجع المسائل الخاصة بتحليل النفس وأمراضها ، وتهذيب الملكات في كتاب (الهوامل والشوامل) ، تحقيق الأستاذين أحمد أمين ، وأحمد صقر (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، القاهرة ، و ينظر ايضا كتاب : تهذيب الأخلاق : ص4–5 ، ويراجع أيضا تحليل ابن مسكويه لظاهرة (الخوف من الموت) ، وتحليله لظاهرة (الحزن) ، حيث يتضح عمق تحليله وكأنه طبيب نفسي ، وتراجع تحليلاته للأخلاق وعرضه لآراء جالينوس وارسطو ،

****

وأما أبو حيان التوحيدي ، فإنه على الرغم من كونه لم يكن فيلسوفا محضاً ولم يكن صاحب نظرية في الفلسفة[49] ، إلا أنه جسد في نثره الفلسفي الذي انتشر بغزارة في كتبه التي وصلت إلينا – ولاسيما كتاب المقابسات ، والامتاع والمؤانسة وغيرهما ، والذي صبه في قالب أدبي شيق تفرد به[50] – جسد أهم الاتجاهات الفلسفية التي راجت في هذا القرن ، وبخاصة مدرسة أستاذه أبي سليمان المنطقي الفلسفية ، وجذورها المتمثلة بآراء أبي نصر الفارابي أستاذ يحيى ابن عدي ، وصولا إلى من تتلمذ عليه وفي طليعتهم أستاذه أبو سليمان المنطقي وابن الخمار والعامري وغيرهم ، فضلا عن آراء خصومهم من الفلاسفة كأخوان الصفاء وغيرهم ، ومن هنا ، كانت كتب أبي حيان خير وثيقة لتصوير الحياة العقلية ، والتفكير الفلسفي عند العرب المسلمين في القرن الرابع .

ونزوعه إلى العقل ، واستئناسه به ، واتخاذه أساسا للأخلاق ، وتراجع أيضا وصيته في نظام السلوك : معجم الأدباء : 2/95–96 ، النثر الفني في القرن الرابع 2/182–183.

[49] ينظر ما ذهب إليه الدكتور فائز طه عمر ، حيث أشار إلى أن التوحيدي لم يكن فيلسوفاً ولم يعرف بنظرية فلسفية تنسب إليه ، وأن جميع الآراء الفلسفية التي وردت في كتبه إنما تمثل الاتجاهات التي شغلت الفلاسفة في عصره ، ومن جانب آخر ، فأن دارسين آخرين أرجعوا نسبة أكثر الأفكار الفلسفية التي وردت في كتبه إلى مدرسة أبي سليمان المنطقي وغيره كيحيى بن عدي وتلميذه ابن الخمار والعامري : (النثر الفني عند أبي حيان : 117) .

[50] ألمح قديما ياقوت إلى نزعته الأدبية ، وقدرته على التعبير عن الأفكار الفلسفية بقالب أدبي جيد ، إذ وصفه بأنه (فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة) / معجم الأدباء : 15/15 وأشار بعض الباحثين المعاصرين إلى أن أبا حيان التوحيدي : " أضفى على قضايا الفلسفة أثرا من نزعته الأدبية الوجدانية ، فقرب ألفاظها وتعبيراتها من إفهام الناس..." ، كتاب أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان : 97 ، وقد أفاض في هذا الجانب الدكتور فائز = طه عمر في كتابه (النثر الفني عند أبي حيان : 130 وما بعدها) حيث أشار إلى أسباب هذه الظاهرة في نثره ، وأبرز مظاهرها ، بينما انتقد (دي بور) التوحيدي ووصفه بأنه لم يكن مؤلفا منظما في الفلسفة ، ومن سهام نقده لفلسفته ، أنها موضوعة في قالب أدبي ، إلى جانب تلاعبه بالألفاظ . ينظر (تاريخ الفلسفة في الإسلام : 454)

وهكذا كان التوحيدي موسوعي الثقافة ، متنوع المعرفة ، وكان – شأن كثير من مفكري عصره – يجمع إلى ثقافته التراثية (العربية الإسلامية) ، الإحاطة بالثقافات الأجنبية ، وألوان العلوم والمعارف التي شاعت في عصره ، ولاسيما ما يتصل منها بعلوم المنطق والفلسفة اليونانية ، إذ إنها كانت النسغ الأصيل فيما تلقفه من مجالس أساتيذه ، أو ما درسه عليهم من نتاجهم الفلسفي وبخاصة أستاذه ابو سليمان المنطقي وأضرابه من أعلام هذه المدرسة الفلسفية .

ولعل أصدق صورة تكشف لنا عن شغف أبي حيان بعلوم الحكمة والمنطق وألوان المعرفة الفلسفية اليونانية ، ودفاعه عنها ، ما ورد في رسالته المشهورة (ثمرات العلوم) ، وهو يرد فيها على قوم لم يفهموا مقصده من العلم ، وتأولوا كلامه ، فرد عليهم التوحيدي بقوله[51] :" ... والذي هاجني لهذه الشكوى وأحوجني إلى هذه الدعوى ، قول من قال منكم : ليس للمنطق مدخل في الفقه ولا للفلسفة اتصال بالدين[52] ، ولا للحكمة تأثير في الأحكام ، وهذا كلام من لو أنعم النظر ، واستقصى الحال لوقف على ما عليه فيه ، وعرف ما له منه ، فكان يستبدل بالخلاف وفاقا ، وبالمنازعة خلافا ، عاب هذا الرجل المنطق ، وهجن طريقة الأوائل ، وزرى على الحكمة وفيل رأي الناظر فيها ، وقبح اختيار الباحث عنها ، وهذا كله

---

[51] رسالة ثمرات العلوم للتوحيدي ، (نشرها أحمد فارس الشدياق ملحقة برسالة الصداقة والصديق في كتاب: (رسالتان للعلامة الشهير أبي حيان التوحيدي) ط . مطبعة الجوائب – القاهرة 1301 هـ –1884م .

[52] **المشهور أن أبا سليمان المنطقي ومدرسته ، كانت تذهب إلى فصل الدين عن الفلسفة ونقل التوحيدي نفسه قول أبي سليمان المشهور الذي رد فيه على إخوان الصفاء الذين ذهبوا إلى ربط الدين بالفلسفة : " إن الفلسفة حق ، ولكنها ليست من الشريعة في شيء وان الشريعة حق ، ولكنها ليست من الفلسفة في شيء" . الإمتاع والمؤانسة : 18/2 .**

=وقد علق الأستاذ أحمد أمين (ظهر الإسلام : 164/2–165) على ما ذهبت إليه مدرسة أبي سليمان المنطقي ، بأنهم بذلك مثلوا موقفا متميزا في هذه المسألة المهمة في الفكر العربي الإسلامي ، إزاء المواقف الأخرى .

إن لم يكن قلة سوء تحصيل ، فإنه يوشك أن يكون ضيق عطن ، وجرح صدر ، ومجازفة في القول وانحرافا عن الصواب ".

على أن هذا لا يعني بالضرورة أن أبا حيان قد اضطلع بمعرفة لغات أجنبية ، أو أنه كان يعرف اللغة اليونانية[53] ، وإنما كان أيضا – شأن كثير من معاصريه في هذا القرن – قد اطلع على ما ترجم إلى العربية من ركام الكتب والرسائل لمفكري اليونان القدماء وفلاسفتهم وغيرهم ، ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة ، إشاراته المتكررة إلى العديد من مصادر الفلسفة اليونانية ، وذكره لأسماء فلاسفة اليونان ومفكريهم في كتبه المتداولة ، ومنها مثلا ، كتاب النفس لأرسطو ، وكتاب الثمرة لبطليموس ، وصفو الشرح لأيساغوجي وغيرها[54] ، فضلا عن مظان المنطق والفلسفة الإسلامية التي درسها أو اطلع عليها ، وأشار إليها أيضا في كتبه المشهورة ، ولعل أبرزها : كتاب (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) لأبي الحسن العامري – وهو أحد أتباع مدرسة أبي سليمان المنطقي ، وممن تتلمذ على أبي زكرياء يحيى بن عدي – وكتاب (أقسام العلوم) لأبي زيد البلخي [55] ورسائل إخوان الصفاء ، وغيرها .

---

[53] لقد سلط الضوء في هذا الجانب الأستاذ فائز طه عمر في كتابه (النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي / مصادر الفكر الفلسفي عند التوحيدي : 122 وما بعدها ، وينظر أيضا في هذا الجانب : النثر الفني في القرن الرابع : 346/1–347 ، وما أشار إليه أيضا التوحيدي من أن معاصريه كانوا ينقلون فلسفة اليونان عن اللغة السريانية . (يراجع ما نقله في مناظرة السيرا في لمتّى بن يونس) .

[54] ينظر أسماء تلك المصادر واسم مؤلفيها في : الإمتاع والمؤانسة 5/2 وما بعدها ، ص87 ومواضع أخرى وينظر أيضا كتاب (المقابسات) للتوحيدي في مواضع متفرقة ، ويراجع في هذا أيضا الفصل الذي كتبه الدكتور فائز طه عمر في كتابه (النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي / مصادر الفكر الفلسفي عند التوحيدي : ص122 وما بعدها).

[55] أبو زيد البلخي (ت322هـ) كان من تلاميذ الفيلسوف الكندي ببغداد ، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم ، والطب ، وعلوم الطبيعة ، من مؤلفاته المشهورة : نظم القرآن ، وقد نهج فيه الابتعاد عن التأويلات البعيدة ، والتأويل الظاهر المستفيض ، وصنف كتابا في البحث عن التأويلات ، أغضب فيه رجلا قرمطيا ، فقطع عنه صلات كان يجريها عليه . ينظر :

وهكذا نرى أن أبا حيان التوحيدي كان – كغيره من مفكري وكتاب هذا القرن – يزاوج في ثقافته ، وفيما تلقفه من ألوان المعارف والعلوم بين ألوان الثقافة التراثية (العربية الإسلامية) وبين أنماط الثقافات الأجنبية الوافدة آنذاك ، والتي استشرت بفعل نشاط حركة الترجمة وامتدادها في هذا العصر ، فضلا عن نشاط الحركة الثقافية ، وتطور الحياة العقلية التي كان لأبي حيان إسهام واضح في تصوير جوانبها في كتبه ورسائله القيمة التي صور فيها خواطر معاصريه وآراءهم " في فهم الحياة تصويرا عجيبا ، يفصح عن قدرته أتم إفصاح ، وهو يظهر في ثنايا كلامه غني اللغة ، قوي الخيال ، يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منها شيء "[56].

ولعل بعض الباحثين الأجلاء[57] الذين عنوا بنشر بعض تراث أبي حيان أو تحقيقه ، لم يجانبوا الصواب حين ذهبوا إلى القول : " ومهما يكن من أمر فإن ما تبقى من آثاره – يعني أبا حيان – وما اكتشف منها أخيرا ، يدل على حياة فكرية خصبة ، وفعالية ، وخبرة في التأليف" .

(ثانيا) : منابع الثقافة الفارسية والهندية وأصولها .

لقد تأثر الأدباء والكتاب في القرن الرابع بألوان الثقافات ، والتراث الحضاري القديم للأمم الأجنبية الأخرى التي اختلطوا بها ، وتمازجوا معها ، ولاسيما الفرس والهنود ، إذ طفقت تلك المعارف والرسوم والتقاليد الاجتماعية تصب في أدبهم وترسلهم ، وراحت تعمل على إحداث ملامح جديدة من التطور والتجديد في أساليبهم وموضوعاتهم .

وقد بدأت ملامح تلك الثقافات الأجنبية – ولاسيما الفارسية – تلوح في الأدب العربي ، ولاسيما في النثر الفني ، منذ القرن الثاني للهجرة ، إذ أشار أبو عثمان

(معجم الأدباء 141/1 وما بعدها ، الفهرست : ص138 ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 366/1-367).

[56] النثر الفني في القرن الرابع : 170/2.

[57] ثلاث رسائل للتوحيدي ، د.إبراهيم الكيلاني ، المقدمة .

الجاحظ[58] ، وغيره[59] ، إلى ما استَّنه عبد الحميد الكاتب في النثر العربي من رسوم جديدة استخرجها من رسوم الكتابة الفارسية .

ويتفق كثير من الباحثين والمستشرقين على ما أحدثه ذلك التمازج بين العرب والأعاجم ، منذ العصر العباسي الأول ، من تطور واضح في الأدب العربي ، فقد رصد المستشرق الالماني كارل بروكلمان مثلا ، أبرز تلك الظواهر الجديدة في الأدب العربي فقال[60] : "... ولئن لم يستطع العجم في هذا العصر أن يقدموا نماذج خاصة بهم في شعر الغناء ، لقد تغلغلت أناقة التعبير ، ودقة الذوق التي اختصوا بها ، في اساليب الشعر البدوي باطراد ، حتى أمكن أن تتلاشى طبيعة ذلك الشعر البدوي بعد ثلاثة أجيال ".

وقد أكد هذه الحقيقة أيضا المستشرق آدم متز ، ملمحا أيضا إلى بروز الشعوب الشرقيه في القرن الرابع ، إذ قال[61]: " إن اختلاط دم الأمة العربية .... وبروز الشعوب الشرقية القديمة التي كانت تتألف من أجناس مختلطة ، كل هذه تتجلى أوضح ما تكون في الأدب".

لقد بلغ تأثير الثقافة واللغة والأدب الفارسي ذروته في الأدب العربي – ولاسيما في النثر الفني – وبخاصة في أقاليم المشرق الإسلامي ، إبان هذا القرن ، وذلك لأسباب عديدة يمكن ذكر أهمها بما يأتي :

(1) إن جل المترسلين ، وبخاصة جهابذة كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، لاسيما في أقاليم المشرق الإسلامي ، كانوا من أصول أعجمية ، فارسية أو تركية ، وقد كان لإتقان أكثر هؤلاء الأدباء والكتاب لأكثر من لغة – وتحديدا اللغة الفارسية – أكبر الأثر في سعة ثقافتهم ، ونضج أدبهم ، وكان لذلك كله

---

[58] تراجع إشارة الجاحظ إلى ما كان يولده عبد الحميد وأضرابه في الرسائل : البيان والتبيين : 29/3.

[59] ينظر : ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري : 89/2 .

[60] تاريخ الأدب العربي : 7/2-8 .

[61] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 439/1.

أثر كبير في النثر الفني بخاصة ، وكان له إفرازاته الإيجابية على الحركة الثقافية والحياة العلمية في هذا القرن .

فالصاحب بن عباد مثلا ، على إتقانه للغة العربية ، وفقه أسرارها ، كان يجمع أيضا ، بشهادة أبي بكر الخورازمي [62] ، إتقان الفارسية وآدابها وكان كثيرا ما يستمع إلى مدائح الشعراء الفرس ، وكان يثيبهم على ذلك ، ويشجعهم ويرعاهم

ذكر الأستاذ إدوارد براون[63] ، نقلا عن (محمد عوفي) ، صاحب كتاب لباب الألباب ، وهو أقدم من سجل تراجم الشعراء الفرس ، ذكر أسمي شاعرين من الشعراء الذين أنشدوا الشعر بالفارسية ، وكانا موضع رعاية الصاحب ، وهما : منصور بن علي الرازي الملقب بالمنطقي ، وابو بكر محمد بن علي السرخسي الملقب بالخسروي .

وكان بديع الزمان ، على ما عرف عنه من سرعة البديهة ، واتقاد الخاطر[64] كان ملما بالفارسية ، وكان شغوفا بالترجمة ارتجالا عنها إلى العربية ، ذكر الثعالبي[65] : " وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة ، والأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع ".

وكان على شاكلة الصاحب وبديع الزمان في حذق الفارسية والإلمام بآدابها ، والقدرة على الترجمة عنها ، كثير من الأدباء والمترسلين في أقاليم

---

[62] ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي : 77 ، وفيها يقول : " ... وتجمع بين السيف والقلم وتحذق آداب العرب والعجم " .

[63] تاريخ الأدب في إيران : 109/2 .

[64] ذكر صاحب اليتيمة في سرعة بديهته يقول : و " يقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ، ونفس لا يقطعه". تراجع التفاصيل في : يتيمة الدهر : 293/4-294.

[65] يتيمة الدهر : 257/4 ، ويراجع ما ذكره في هذا الجانب أيضا صاحب كتاب (لباب الألباب : 16/2-19) بدلالة كتاب تاريخ الأدب في إيران ، إدوارد براون : 109/2.

المشرق الإسلامي في هذا القرن ، كما مر بنا في المبحث الأول من الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(2) إن كثيرا من الأمراء الأعاجم ، ورؤساء الممالك الإسلامية المستقلة ، وأكثر وزرائهم وولاتهم ، الذين كانوا من أصول أعجمية ، كانوا على درجة عالية من الثقافة ، والإلمام بكثير من المعارف التي تتصل بالتراث العربي الإسلامي ، فضلا عن ألوان الثقافة الأجنبية كإلمامهم بالفلسفة والمنطق وعلوم الحكمة الأخرى التي راجت كثيرا في هذا القرن . ولعل ما قام به بعضهم ، كأبي علي البلعمي – وزير آل سامان مثلا – من ترجمته لكتابي الطبري – تاريخ الطبري وتفسيره – إلى الفارسية خير شاهد على ذلك ، فضلا عما وصل إلينا من رسائل بعض أولئك الرؤساء والأمراء الأعاجم ، كالأمير قابوس بن وشمكير[66] ، وأبي الفضل الميكالي وغيرهما من أساطين البيان والبلاغة .

وقد أكد هذه الحقيقة المهمة ،قديما ، أبو هلال العسكري (ت395هـ) – وهو من علماء البلاغة وصنعة الكلام المشهورين – حين جاء في قوله[67]:

" ... العجم والعرب في البلاغة سواء ، فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ، ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى ، وكان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي ، فحولها إلى اللسان العربي ..." .

وهكذا نصل – مع ما قرره أبو هلال العسكري وغيره[68] أيضا من المعاصرين – إلى ان ما كان عليه أولئك الأمراء والرؤساء الأعاجم ،

---

[66] تنظر الرسالة القيمة التي ساقها أبو هلال العسكري للأمير قابوس إلى (الأصبهبذ) . وهي في الفخر والعتاب ، إذ تجللت هذه الرسالة بنظرات فلسفية ثاقبة ، وخطرات إيمانية رائعة وإلمام واسع بعلم الفلك والنجوم والفلسفة (ديوان المعاني : 1/86–88) . وتراجع رسائل قابوس أيضا في (كمال البلاغة) : 57–52 .

[67] ديوان المعاني : 2/89 .

ووزراؤهم وبعض ولاتهم ، من ثقافة واسعة ، وإلمام عريض بمسالك البلاغة بلغتهم ، ومقدرة بيانية عالية في الإنشاء وصناعة الترسل ، هو الذي دفعهم أيضا إلى رعاية الأدب والأدباء ، وتقدير ما للكلام البليغ ، و الرسالة المحبرة من سحر وتأثير في الألباب والنفوس .

(3) نزوع الأمراء ورؤساء الممالك الأعجمية إلى إحياء التراث القومي الفارسي

وكان ما عمل على تنامي تأثير الثقافة الفارسية في الأدب العربي ، وبخاصة في النثر الفني ، في أقاليم المشرق الإسلامي ، نزوع كثير من الأمراء ورؤساء الممالك الأعجمية في هذا القرن ، إلى أحياء التراث القومي الفارسي ، وبعث الثقافة واللغة الفارسية ، وجعلها لغة العلم والأدب والتأليف .

وهكذا بدأت اكثر حواضر تلك الممالك المستقلة في المشرق الإسلامي ، مثل بخارى ، وشيراز ، والري ، فضلا عن الإمارات الأخرى تعمل على إحياء تراثها القومي القديم وتتنافس أولا لاجتذاب العلماء والأدباء ليزدان بهم ملكهم ، وليساعدوا في بناء النهضة العلمية والأدبية الجديدة في تلك الحواضر الفتّية ..

ومن جانب آخر ، وجد العلماء والأدباء في تلك الممالك النائية مرتعا خصبا ، وملاذا آمنا لأظهار نبوغهم الفكري[69] والأدبي ، ومتنفسا فسيحا لإشباع نزعاتهم القومية ، وبعث أمجادهم الحضارية القديمة ..

---

[68] تراجع مقالة الأستاذ طه حسين (البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) ترجمة د. عبد الحميد العبادي ، والمنشورة في مقدمة كتاب (نقد النثر) المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر وقد سخر المؤلف من دعوى الجاحظ في نفي البيان ، والبلاغة والفصاحة عن أرسطو وحكماء اليونان ، وقصر البلاغة على العرب.

[69] يراجع ما ذكره (براون) تاريخ الأدب في إيران : 2/112-113 ، نقلا عن السمرقندي في كتاب (جهار مقالة) من أن المفكر والفيلسوف ابن سينا ، تمكن بعد أن التحق بعامل البويهيين على الري (علاء الدولة) ، من أن يكتب في الساعات المبكرة من الصباح صفحتين يوميا من كتابه العظيم (الشفاء) .

وهكذا غدتْ خراسان – مركز السامانيين مثلا – مهدا للأدب الفارسي الإسلامي – كما أشار الأستاذ براون[70] ، وصارت بحق – كما وصفها أبو منصور الثعالبي [71] قديما : " مثابة المجد ، وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض ،وموسم فضلاء الدهر ".

والذي نريد أن نخلص إليه ، هو أن نزوع أمراء تلك الممالك الأعجمية إلى إحياء التراث الفارسي واللغة الفارسية ، قد أفاد العربية كثيرا ، وأثر في أدبها تأثيرا إيجابيا ، وكان لذلك كله أصداؤه على الرسائل الأدبية في هذا القرن.

فاللغة العربية – كما سبق أن قررنا ، وباتفاق كثير من الباحثين – ظلت في هذه الممالك المستقلة النائية إبان هذا القرن ، محتفظة بمركزها المتقدم وصدارتها ، وظلت هي لغة العلم والتأليف[72] ، ومن جانب آخر ، دفع اهتمام أولئك الأمراء والحكام ببعث التراث الفارسي إلى ترجمة كثير من أصول الكتب الفارسية إلى العربية ، وعملوا على شيوعها وتداولها ، كما عملوا على ترجمة عدد من أصول الكتب العربية إلى اللغة الفارسية .

وهكذا تمخض عن هذا الأمر ، نشاط حركة الترجمة من الفارسية وإليها وكان ذلك أحد أهم العوامل في تواصل النهضة العلمية والأدبية ، وازدهار الحركة الثقافية في هذا القرن ..

أما مظاهر أو آثار الثقافة الفارسية في الأدب ، ولاسيما في المكاتبات الأدبية في هذا القرن ، فيمكن رصد أهمّها على النحو الآتي :

(1) شيوع الألفاظ والتراكيب الأعجمية وأسماء الأعلام الأجنبية في الرسائل :

---

[70] تاريخ الأدب في إيران : 107/2 .

[71] يتيمة الدهر : 115/4 .

[72] تراجع آراء بعض الباحثين والمستشرقين في هذا الجانب ومنها : تاريخ الأدب في إيران بروان : 109/2 ، تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان : 185/5 ، تاريخ إيران : 149 ، الأدب في ظل بني بويه : 126–127 .

لقد بدأت ظاهرة اللحن وتفشي العجمة [*]، وانتشار الألفاظ والتراكيب الأعجمية في لغة التخاطب اليومية ، وفي شعر بعض الشعراء الموالي منذ القرن الأول للهجرة ، نتيجة للاختلاط الذي تم بين العرب والأعاجم ، وقد رصد الجاحظ هذه الظاهرة منذ مرحلة مبكرة ووقف عندها[73] ، ولقد استشرتْ هذه الظاهرة بشكل أكبر في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، وطفقت تنتشر بين طبقة العامة وغيرها كثير من تلك التعابير والألفاظ والتراكيب الأعجمية ، وبدأ اللحن يشيع في تعابيرهم ولغتهم وأساليبهم أيضا ، مما حفز العلماء واللغويين لرصد تلك الأخطاء ، لدرء الخطر الذي بدأ يحدق بالعربية ، وراحوا يصنفون كتب (لحن العامة) ، وكتب (الفصيح) [74] .

---

[*] يراجع في هذا الموضوع للباحث (الألفاظ الدخيلة والمعربة في أراجيز العجاج ، التمهيد ، ص3–7) ، وهو بحث قبل للنشر في مجلة المجمع العلمي العراقي .

[73] تراجع التفاصيل في البيان والتبيين : 19/1 وما بعدها ، وتراجع التفاصيل أيضا في : كتاب العربية ،– يوهان فك : ص20 ، وتراجع الألفاظ الأعجمية في شعر يزيد بن مفرغ في البيان والتبيين : 143/1 ، الشعر والشعراء : 78 (ط عالم الكتب ، بيروت ، ط1 قسطنطينية) ، العصر الإسلامي ، ضيف : 170.

[74] من أشهر تلك المصنفات : لحن العامة للكسائي (ت189هـ) ، وقد طبع في مصر عام 1344هـ بتحقيق الميمني ، وقد تتبع د. رمضان عبد التواب في كتابه : (لحن العامة والتطور اللغوي) ما وضعه علماء العربية في ذلك على توالي العصور ، وقد نشر د. عبد العزيز مطر بتحقيقه عدة مصنفات في هذا المجال منها : (تثقيف اللسان – لابن مكي الصقلي ، وتقويم اللسان – لابن الجوزي ، ولحن العوام – لأبي بكر الزبيدي) ، وينظر كتابه : (لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة) ، أما أشهر كتب الفصيح – وهي الكتب التي عنيت بجمعه وفرزه عن الضعيف والملحون – فأشهرها : كتاب (إصلاح المنطق – لابن السكيت ت244هـ) ، (كتاب الفصيح لثعلب ت 291هـ) ، وتراجع الشروح وما كتب على هذا الكتاب الأخير من نقد أو استدراك وتذييل ، في كتاب : المكتبة ، العاني ، العدواني : 4–41 ، وتجدر الإشارة هنا إلى كتاب (ادب الكاتب) لابن قتيبة فقد عقد بابا طريفا لما تتكلم به العامة من الكلام الأعجمي سواء أكان أصله روميا أم نبطيا أم فارسيا أم سريانيا ، (ينظر أدب الكاتب ، ص526 وما بعدها) .

وفي القرن الرابع أخذت هذه الظاهرة تشيع بين أوساط المجتمع الإسلامي ، ولاسيما في أقاليم المشرق النائية ، لكون أن الأغلبية الساحقة من رعايا الدولة هناك كانوا من أصول أعجمية ، ومن هنا رأينا شيوع كثير من الألفاظ والتراكيب أو التعابير الأعجمية – ولاسيما الفارسية – في أدب ومكاتبات الأدباء الذين انحدروا من أصول أعجمية ، أو من كانوا يتقنون اللغة الفارسية ، ولعل في طليعة أولئك الأدباء الكتاب أبا بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، والصاحب بن عباد وغيرهم .

ففي أدب بديع الزمان الهمذاني – ولاسيما في رسائله الأدبية والاخوانية – تطالعنا كثير من تلك المفردات والتراكيب الأعجمية[75] ، وهي معلم واضح يؤكد سعة ثقافة هذا الأديب الكاتب ، وتلون معارفه ، واطلاعه على طرائق التعبير وأنماط الصور الفنية والأساليب التي شاعت في الآداب الإنسانية الأخرى .

من ذلك مثلا ما ورد في رسالة له إلى بعض إخوانه في شأن ابي الحسن المحتسبي ، وقد وشح رسالته بألفاظ أعجمية كأسماء الأعلام والمدن وما يشير إلى مساحتها ، إذ يقول : "... انتدب لملاقاتي ، وبيني وبينه مهامه فيح ، وما شككت أنا إذا وردنا نيسابور استقبلنا مراحل بفضائله ، وتلقانا فراسخ

---

[75] تراجع رسائل بديع الزمان : 496 ، 509 ، 525 ، 526 ومواضع اخرى غيرها ، إذ ورد العديد من الألفاظ والتراكيب الأعجمية (الفارسية) في تلك المواضع من رسائله .

بمسائله " [76]. ونظير هذا أيضا ما ورد في رسالته[77] إلى أبي الحسن البيهقي ، ورسالته أيضا إلى صديق له يستدعي بقرة منه ، إذ يقول[78]:

" الكدخدائية زرع إن لم يصادف ثرى ثريا من التدبير ، وجوا غنيا من التقدير ، لم يحصل بالغه ، ولم يجن يانعه ..." .

وهكذا كانت إحاطة بديع الزمان بالفارسية ، وشغفه الكبير بها ، وقدرته الفائقة في ترجمة الشعر الفارسي إلى شعر عربي ارتجالا ، أو على البديهة رافدا مهما في ثقافته ولاسيما في رسائله الأدبية ، إذ أمدته تلك المعارف بطاقات إبداعية جديدة في نثره الفني ، وعملت أيضا على إثراء معجمه اللغوي.

وترد في رسائل أبي بكر الخوارزمي أيضا طائفة من تلك الألفاظ والصيغ والتراكيب ، وأسماء الأعلام والمدن الأعجمية ، حتى أن بعض تلك المفردات كانت ناشزة أو غير مستساغة في ثنايا جمله وتراكيبه اللغوية .

من ذلك مثلا ما ورد في إحدى رسائله الإخوانية إلى أبي محمد العلوي فقد وشح تلك الرسالة بلفظة ثقيلة كزة ، تجانب قواعد الفصاحة ، ودماثة التعبير حيث يقول [79] : "... فكم من أناس لهم أول ، وليس لأولهم آخر ، طولت على السيد بكلام (اسفيدباجي) قليل العظم منحل النظم ..." .

---

[76] رسائل بديع الزمان : 517 ، والفراسخ : جمع فرسح ، وهو ثلاثة أميال ، والميل مقدر بنصف ساعة تقريبا ، وقيل : اثنا عشر الف ذراع ، معرب (فَرْسَنَك) ، ينظر الألفاظ الفارسية المعربة : 118.

[77] رسائل الهمذاني : 526 ، حيث ذكر (بيهق) وأصلها بالفارسية (بيهه) ، ومعناها الأجود ، وهي ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور .

[78] رسائل بديع الزمان : 531 ، والكدخدائية : بمعنى تدبير المنزل وإصلاح المعاش ، ومنه (الكتخدى) لمن يدبر الأمور مثل الوالي وغيره . وثريا : من الثروة بمعنى غنيها ، والثرى : هو التراب الندي ، والجو هو الهواء . وقوله : الكتدخدائية زرع أي كالزرع وهذا تشبيه بليغ.

[79] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 50 . واسفيدباجي : الاسفيداج والاسفيديا : طين يجلب من أصفهان ، يكتب به الصغار ، ورماد الرصاص والآنك ، تعريب اسفيداب ، واصل معناه الماء الأبيض . وسفيد : الأبيض . الألفاظ الفارسية المعربة : 10.

ومن رسائل الخوارزمي التي ضمّت طائفة من الألفاظ والتعابير الفارسية أيضا ، ما كتبه إلى صاحب ديوان الحضرة[80] .

وفي أدب الصاحب بن عباد أيضا ، تطالعنا طائفة من تلك التراكيب وأسماء الأعلام الأعجمية (التركية و الفارسية) ، من ذلك ما ورد في عهد له كتبه إلى أحد العمال لتولي بعض النواحي[81] :"... ولما ورد – أعزك الله – أمر مولانا الأمير ركن الدولة ، وخرج إذن مولانا المؤيد بارتياد من يلي (نايين) ودهاتها ، مدبرا عملها ، ..." .

وواضح أن (نايين) – وهي من قرى أصبهان – من الأعلام الأعجمية ولفظة (دهاتها) جمع (ده) ، وهي بالفارسية تعني قرية .

وكقوله أيضا من رسالة له يصف فيها (الخركاهات) [82] ، ورسالته الأخرى التي يصف فيها (الزوبينات) ، وهي الرماح أو الحربات القصيرة ، إذ يقول[83]: " ... وأخذت الرياح تطير شررها ، والنفوس تفارق قصرها ، وثلمتْ (الزوبينات) من الدماء ، فتعثرت في النحور ، وتكسرت في القلوب والصدور ... "

وهكذا كان إدراج الأدباء الكتاب في هذا القرن للتعابير وأسماء الأعلام الأعجمية في ثنايا رسائلهم الأدبية مظهرا مهما من مظاهر الثقافة العامة ، وأثرا من آثار التأثير الأجنبي ، وصداه العميق في مكاتبات هذا القرن.

(2) **تأليف الحكايات وقصص السمر وترجمتها .**

---

[80] المصدر نفسه : 138–139 .

[81] رسائل الصاحب بن عباد : 50 .

[82] رسائل الصاحب بن عباد : 224 . والخركاهات : جمع خركاه ، وكانت في أول الأمر تطلق على المحل الواسع ، وبالأخص على الخيمة الكبيرة التي يتخذها الأمراء مسكناً لهم، ثم أطلقت على سرادق الملوك والأمراء . ينظر : الألفاظ الفارسية المعربة: 153–154 .

[83] رسائل الصاحب بن عباد : 28 .

ومن الآثار أو المظاهر المهمة التي عكستها الثقافات الأجنبية في هذا القرن وبخاصة الثقافة الفارسية والهندية ، في الأدب العربي ، ولاسيما النثر الفني ، ترجمة الحكايات ، وقصص السمر الأجنبية ، وقيام بعض الأدباء والمصنفين بمحاكاتها ، وتأليف الحكايات وقصص الأسمار على غرارها .

لقد بدأت ، منذ العصر العباسي الأول – ونتيجة لازدياد نفوذ الفرس – ترجمة جوانب مهمة من تراث الحضارة الفارسية القديمة التي تعكس أقباسا من تاريخهم ، وأساطيرهم القديمة ، وتجسد بعض طقوسهم وتقاليدهم الاجتماعية ولعل عبد الله بن المقفّع أحد أشهر من قام بهذا العمل ، إذ إن له اليد الطولى في نقل العديد من مصنفات تراث الحضارة الفارسية ، والأدب الفهلوي ، وغيره مما يعنى بتراث الفرس ونظمهم .

وهكذا كان صنيع ابن المقفّع هذا إضافة نوعية جديدة إلى الأدب العربي وثروة نفيسة ازدان بها النثر الفني في القرن الثاني للهجرة ، وكان له في ذلك أيضا ، قصب السبق في هذا الجانب ، إذ طفق مصنفو الأدب من العرب والأعاجم ينهلون من فيضه الثر أقباساً جديدة أثرت النثر العربي ، وأمدته بنسغ جديد لم يألفه من قبل .

وفي القرن الثالث ، احتلت قصص السمر[84] ، والحكايات الأجنبية التي ترجمت إلى العربية مكانا بارزا في الأدب العربي ، وأصبحت تلك القصص

---

[84] لعل خير شاهد عل ذلك أيضا ، ما وضعه الأديب الكاتب سهل بن هارون الدستميساني الكاتب (ت215هـ) ، وما حاكى به أيضا ذلك القصص الأجنبي من حكايات وكتب قصصية كانت مشهورة ومتداولة في عصره وبعد عصره ، وقد وصل الينا من تراثه القصصي – الذي سقط أكثره من يد الزمن – كتابه النفيس (النمر والثعلب) الذي حاكى به قصص كليلة ودمنة ، وقد حقق هذا الكتاب ونشره الدكتور منجي الكعبي (تونس 1980) ويراجع أيضا عن هذا الكتاب وتحليله : دراسة للباحث بعنوان : سهل بن هارون بين الترجمة والتأليف منشور في مجلة (الترجمة واللسانيات ، العدد 2 ، السنة الثانية 1422هـ/2001م) ، ص35–82 .
ومن تراث هذا الكاتب القصصي أيضا : (ثعلة وعفرة) وقد حاكى به أيضا كليلة ودمنة ، وقد ضاع هذا الكتاب أيضا ، ووصل منه بعض النقول التي أثبتها الحصري في كتابه (زهر

النماذج المثلى للسمر والتسلية ، ولعل أشهر نماذج قصص السمر الفارسية التي ترجمت إلى العربية في هذا القرن ، حكايات (ألف ليلة وليلة) أو (هزار أفسان) – أي ألف حكاية – وهي حكايات سمر تقع في حدود مائتي حكاية سمر موزعة على ألف ليلة[85].

ومن قصص السمر التي ترجمت عن تراث الثقافة الهندية في هذا القرن أيضا : (قصص السندباد) ، وقد ذكر ابن النديم[86] ، أن هذه الحكايات كانت موجودة قائمة بذاتها ، وعلى تفاوت في طولها ، وقد أكد المسعودي أن هذه الحكايات كانت معروفة في هذا القرن ، غير أنها كانت مؤلفة قبل الإسلام بمدة طويلة ، وأنها من كتب الهند[87] .

وقد ذكر بعض الباحثين المعاصرين أن قصص السندباد هي من الحكايات المحبوبة التي يميل إليها الناس ميلا خاصا[88] ، ويقال : إن مؤلفها طبيب هندي اسمه (سندباد) [89].

الأداب : 202/2) ، ونقلها عنه ابن نباتة في كتاب (سرح العيون : ص169) ومن كتب سهل القصصية أيضا : كتاب (الوامق والعذراء) وربما كان سهل قد اقتبس هذه القصة من الأدب الفهلوي القديم . (ينظر ما أشار اليه دولتشاه السمرقندي في كتابه : تذكرة الشعراء : 30 . ويراجع عن هذه القصص كتاب مخطوط للباحث بعنوان (سهل بن هارون الكاتب حياته وآثاره ، مخطوط للباحث ، المبحث الثالث من الفصل الثاني : 87–97) .

[85] ينظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 467/1 .

[86] الفهرست : 305 ، وأشار إلى أن الغالب والأقرب إلى الحق أن تكون الهند صنَّفتهُ ، وأشار إلى أن نسخة بهلوية منه كانت موجودة حتى عهد السامانيين وقد نقلها إلى الفارسية بأمر الأمير نوح بن منصور ، أبو الفوارس قناوزي .

[87] مروج الذهب ومعادن الجوهر : 90/4 ، وأشار القزويني في حواشي كتاب (جهار مقالة : 137–138) إلى أن (سندباد نامة) في قصص وحكايات الفرس أو الهند .

[88] على الرغم مما احتله هذا اللون من القصص الأجنبي المترجم من موقع بارز في الأدب العربي ، إلا أن هذه الحكايات لم تكن لتروق الأدباء الذين يؤثرون النثر الفني الجميل المؤثر ، والذي يحوي إلى جانب ذلك قدرا من التزويق و حلي البديع ، ومن هنا فقد عد الأستاذ متز

****

وفي القرن الرابع تطرد هذه الظاهرة الأدبية – فضلا عن أهمية تأثير بعض مفكري الفرس وغيرهم في ترجمة ووضع أو شرح المعارف والعلوم الأجنبية التي اتسع مداها في هذا القرن – فقد قام بعض الأدباء والكتاب الأعاجم بوضع أو تأليف الحكايات وقصص السمر بأسلوب جديد يغاير كل المغايرة القصص القديمة التي تميزت بالنزعة العربية الخالصة[90] .

ولعل أدق ما يوضح لنا شيوع هذا اللون من الكتب التي عنيت بالحكايات وقصص السمر ، ما ذكره المؤرخ (حمزة الأصفهاني) [91] – في حوالي سنة 350هـ – من أنه كان في عصره من كتب الحكايات وقصص السمر التي تتداولها أيدي الناس ما يقرب من سبعين كتابا.

ومن تلك الكتب الشهيرة التي عنيت بالحكايات وقصص السمر في هذا القرن ، ما أشار إليه ابن النديم[92] ، من قيام أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري من تأليف كتاب في الحكايات ، أختار فيه من أسمار العرب وغيرهم أربعمائة وثمانين سمرا على نسق قصص ألف ليلة وليلة ، وجعل كل سمر في هذا الكتاب قائما بذاته ، ويكفي لليلة واحدة .

ومن مشاهير الكتاب والمفكرين الفرس الذين كان لهم القدح المعلى في التصنيف والترجمة ، ووضع الحكايات وقصص السمر في هذا القرن : أبو علي ابن مسكويه الخازن (ت 421هـ) الذي وصفه القفطي بأنه كان من كبار فضلاء العجم

أن ميل طبقة العامة لهذا القصص الاجنبي ، وشغفهم به دليل واضح على ضعف الذوق العربي الأصيل .

[89] ينظر هامش كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع (المترجم) : 467/1 .

[90] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 468/1 ، ويراجع ما ذكره الدكتور مبارك عن قصص أبي الفرج الببغاء (النثر الفني في القرن الرابع : 295/2) .

[91] يراجع كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء : 41–42 (طبعة جوتفالد).

[92] ينظر : الفهرست : 304 .

وأجلاء الفرس ، وأشار إلى أن له مشاركة حسنة في العلوم الأدبية[93] ، وقد ذكر القفطي من تصانيفه المشهورة في هذا المضمار كتاب (أنس الفريد) ووصفه بأنه أحسن كتاب صنف في الحكايات القصار والفوائد اللطاف[94] .

ومن التصانيف المترجمة التي جمعت بين قصص السمر والشعر والأخبار ، ما قام به (البغوي) – أبو منصور أحمد بن محمد[95] – إذ عكف على جمع كتاب مترجم يشتمل على ما تشتهي الأنفس من محاسن القصص والأشعار والأخبار ، وقد ذكر الثعالبي أنه يقع في ثلاثين مجلدة[96] .

ومن المصنفات التي وضعت بالفارسية في علوم الأدب وفنونه أيضا ، والتي كان لها قيمتها الكبيرة في الدراسات الأدبية في أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الذي أعقبه ، كتاب (خجسته نامه) للبهرامي ، وكتاب (ترجمان البلاغة) للفرخي ، وموضوع الكتابين في علم العروض والبلاغة[97].

وإلى جانب ما ذكرنا ، فقد انتشرت في هذا القرن أيضا كتب قصصية كثيرة ، ذات طابع شعبي ، لم يعرف مؤلفوها ، وقد انصبت موضوعات تلك القصص على الفروسية ، وألوان المغامرة ، ومنها ما دار في النوادر ، والحكايات الهزلية المسلية ، ومنها أيضا مجموعة من القصص الغرامية ، وبخاصة حكايات الشعراء المشهورين ، وأهل الدهاء من النساء العاشقات وغيرها[98].

---

[93] يراجع كتاب : اخبار العلماء بأخبار الحكماء : 217 .

[94] المصدر نفسه : 217 .

[95] تراجع ترجمته وأخباره في : يتيمة الدهر : 4/162–163 .

[96] المصدر نفسه : 4/162 .

[97] تاريخ الأدب في إيران ، إدوارد براون : 2/133 .

[98] تراجع التفاصيل في : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : 1/468–469.

وأخيرا تجدر الإشارة ، في هذا المقام ، إلى أن بعض كتاب الفرس قد صنفوا كتبا تاريخية (محلية) ، كتبوها باللغة العربية ، وقد أشار المستشرق إدوارد براون[99] إلى أن جل تلك المصنفات قد ضاعت ولم يصل إلينا منها سوى ترجماتها الفارسية .

لقد كان لشيوع هذه الظاهرة الأدبية أثرها الواضح في رسائل بعض كتاب هذا القرن ، وبخاصة بديع الزمان ، إذ ظهر في سياق عدد من رسائله الأدبية والاخوانية ميل واضح إلى إدراج القصص والحكايات وتوظيفها في رسائله تلك ، وقد كانت تلك الحكايات تتفاوت بين الطول والقصر ، وكان يدرجها في رسائله على سبيل التمثيل أو التشويق أو السخرية ، أو لغير ذلك ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الجانب في رسائل الهمذاني في المبحث الأول من هذا الفصل .

ففي رسالة الهمذاني إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد التي يشكو فيها أبا بكر الحيري ، أحد قضاة عصره ، يشبه الكاتب حالة الطامع الذي يقوده أمله وطمعه آفاقا بعيدة ، والخير قريب منه ، يشبهه بحال (الرجل البخاري) الذي ضاع حماره فسعى جاهدا للبحث عنه ، يقول [100]: " ... ثم لم يكن مثلي معه إلا مثل البخاري الذي ضاع حماره وخرج في طلبه ، حتى عبر جيحون بسببه ، يطلبه في كل منهلة ، وينشده في كل مرحلة وهو لا يجده ، حتى جاوز خراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق وطاف الأسواق ، فلما لم يجده ، وايس ، عاد ، وقد طالت أسفاره ، ولم يحصل حماره ، حتى إذا حصل في بلده ، بين أهله وولده ، أحب الله أن يلطف له لطفا ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى اصطبله فإذا الحمار بسرجه

---

[99] تراجع التفاصيل وأسماء تلك الكتب التاريخية المحلية في : تاريخ الأدب في إيران : 131/2 .

[100] رسائل بديع الزمان : 174-175 .

ولجامه ، وثَفَره وحزامه قائما على المعلف ينشّ ، وأنا أيضا ما زال يرددني في هذا الباغ بأمل يرخيه ويسده ، وطمع يرسله ويمده... "[101] .

وهكذا نحا بديع الزمان الهمذاني في رسائله الأدبية والاخوانية – بما أوتي من موهبة متقدة ، وبلاغة نادرة ، وحضور بديهة – منحى جديدا تمثل بتوظيف الحكاية في تضاعيف رسائله ، فكان له قصب السبق والريادة في ذلك بين أدباء عصره ....

(3) شيوع الزخارف الشكلية وألوان البديع في الرسائل :

ومن آثار الثقافات الأجنبية ومظاهرها – ولاسيما الثقافة الفارسية – التي انعكست بوضوح على الأدب العربي – ولاسيما المكاتبات الأدبية و الديوانية– شيوع ظاهرة الزخرف الشكلي الذي تمثل بحلي السجع و الجناس و سواهما من أصباغ البديع اللفظي و المعنوي أيضاً ، و انتشارها في تضاعيف الرسائل إبان هذا القرن . ولقد سبقت الإشارة إلى ما ذهب إليه بعض الباحثين من المستشرقين من ان بدء مظاهر تأثير الفرس و ثقافتهم في الأدب العربي– ولا سيما في الشعر البدوي – قد تجلت في تغلغل أناقة التعبير ، ودقة الذوق التي اختصوا بها[102].

وقد أكد هذه الحقيقة أيضا باحث آخر ، إذ ربط بين اتصال الأدباء والكتاب بالحضارة الفارسية ، وتأثرهم العميق بالأدب الفارسي ، وبين شيوع السجع وألوان البديع الأخرى ، وطغيانها على أساليبهم في الكتابة والنثر الفني[103] .

فالأستاذ الدكتور طه حسين قد فرز طريقتين مختلفتين ظهرتا في النثر العربي منذ القرن الثاني للهجرة ، هما طريقة الأدباء الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية وتأثروا

---

[101] ثفره : الثفر هو السير في مؤخر السرج ، وأثفرها شد عليها الثفر ، واستثفر بثوبه رد طرفه بين رجليه إلى حجزته (مختار الصحاح ، مادة ثفر) ، ينش : أي يسمع له صوت كالنشيش وهو صوت الماء المغلي وغيره ، والنش أيضا الأكل بعجلة وسرعة .

[102] ينظر : تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان : 2/7–8.

[103] ينظر كتاب : من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين : 79–80.

بها ، وطريقة من لم يتصلوا بالفلسفة ومؤثرات الثقافة اليونانية ولكنهم اتصلوا بالتراث العربي ، واتصلوا أيضا بالحضارة الفارسية والأدب الفارسي ، وتأثروا بهما ...

ثم أشار الباحث إلى أن الفرق بين هاتين الطريقتين بدا أكثر وضوحا في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ثم خلص إلى أن الأدباء الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية ، وهذه الثقافة الغريبة ، قد غلب عليهم التفكير ، والعناية بالمعاني ، وبترتيب الكلام ترتيبا منطقيا.

أما المتصلون بالثقافة الفارسية فهم أصحاب سجع وأصحاب بديع [104] ، ثم يستشهد الباحث : بطائفة من أولئك الكتاب في هذا القرن فيقول[105] :

" ولذلك نلاحظ أن رجلا كأبي حيان التوحيدي ، كان من تلاميذ الجاحظ وأشد الناس تأثرا باليونان ، لا يلتفت إلى البديع ولا يعنى بالسجع ... بينما ابن العميد والصاحب بن عباد ومن إليهما كانوا يلمون بالثقافة اليونانية ، وكانوا حراصا على الثقافة الفارسية فكانوا أصحاب بديع وسجع ".

والذي لاشك فيه ، أن النثر الفني – ولاسيما المكاتبات الديوانية والأدبية – قد شهد إبان هذا القرن تغلغل مذهب (التصنع) ، وجنوح الكتاب إلى الإكثار من استخدام السجع ، فضلا عن ألوان البديع الاخرى كالجناس والطباق ، وغيرها من الحلي البديعية الأخرى التي استشرت في رسائل هذا القرن ، وبخاصة في أدب الطبقة (الخاصة) من الأدباء.

ولعل ما شاع في رسائل أبي الفضل ابن العميد وتلميذه الصاحب بن عباد ، وما زخرت به مكاتبات أبي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم من أعلام المترسلين في هذا القرن خير شاهد على آثار الثقافة الأجنبية (اليونانية والفارسية) ، وانعكاسها الواضح على تراثهم الأدبي شعرا ونثرا ، وهذا ما سنقف عنده بتفصيل أكثر في الفصل الخامس من هذه الدراسة .

---

[104] المرجع نفسه : 79.

[105] المرجع نفسه : 80.

الفصل الرابع

الفصل الرابع

موضوعات الرسائل الأدبية وأغراضها في القرن الرابع

توطئة :

الرسائل الأدبية نوع مهم من أنواع النثر الفني ، وهذا النوع من الرسائل لم يصدر عن الديوان الرسمي – ديوان الرسائل – وإنما كان يتبادلها الناس كافة ، سواء أكانوا من وجوه الطبقة الخاصة – الرؤساء والوزراء وغيرهم – أم من طبقة الأدباء الكتاب – كتاب الدواوين وإضرابهم – أم من العلماء والأدباء والقضاة وغيرهم من فئات الطبقة العامة .

ويعالج هذا النوع من الرسائل غالبا أمورا شخصية محضة ومختلفة ، كما تناول بعضها قضايا أدبية أو فكرية دقيقة ، أو قضايا اجتماعية أو سياسية مختلفة، بعيدة عن الأوامر أو النواهي الرسمية التي كانت تتميز بها المكاتبات الديوانية .

ومن هذا المنطلق ، ونظرا لاختلاف هذا اللون من الرسائل عن المكاتبات الديوانية (الرسمية) [1] من حيث الموضوعات التي عالجتها ، لذا فأننا نرى أن جل هذه الرسائل الأدبية لم تكن تخضع لتلك الرسوم أو الطقوس الرسمية التي اتسمت بها المكاتبات الديوانية ، على الرغم مما كان يسود الكثير من تلك الرسائل الأدبية في هذا القرن من بعض سمات المكاتبات الديوانية ، كالالتزام بمظاهر الصناعة اللفظية ، كاستخدام السجع ، وبعض ألوان البديع الأخرى ، فضلا عن أن بعض أَعلام الرسائل الأدبية وصدورهم في هذا القرن كانوا من كتاب الدواوين المشهورين ، أو ممن تسنموا رئاسة الديوان الرسمي .

لقد كان أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن حريصين على إظهار نبوغهم الأدبي ، ومقدرتهم الفنية من خلال هذا اللون من الأدب بخاصة ، فضلا عن سواه من فنون الأدب الأخرى كالشعر والمقامات والقصص وغيرها ، ولعل مرد

---

[1] ينظر : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي :323 ، حيث رصد الأستاذ أنيس المقدسي أهم جانب تختلف فيه الرسائل الأدبية عن المكاتبات الديوانية ، وهو اختلافها في الإغراض أو الموضوعات التي عالجها كلا هذين النوعين من الرسائل .

ذلك يعود إلى أن الرسائل الأدبية في هذا القرن ، طفقت تأخذ شهرة واسعة ، حتى بدأت تزاحم الشعر ، وتلج أبوابه وبعض أغراضه ، وتنوب عنه في طرق كثير من ميادينه المختلفة .

وهكذا فقد ولج كثير من الأدباء الكتاب أبان هذا القرن ، عبر هذا اللون من الأدب ، ميدانا فسيحا يعبرون من خلاله عن أهوائهم الأدبية ، ونوازعهم الفكرية ، ويحللون أدق المشاعر الإنسانية ، ويصفون بعمق ما يعرض لهم في حياتهم الاجتماعية العامة وغيرها ، ما يبلغهم إلى أفاق الشهرة والمجد الأدبي والسياسي .

ولعل ما ساعد على خصب هذا النوع من الرسائل أبان هذا القرن ، وبلوغ كثير من إعلام الرسائل الأدبية مرتبة الحذق الفني ؛ أن طائفة من أولئك الكتاب ، لم ينضووا إلى العمل الإداري (الرسمي) ، ولم يكتبوا للحكام أو الرؤساء ، مما أهلهم ذلك لان يتمتعوا بحرية واسعة في ممارسة فن الكتابة ، والخوض في أفاق عديدة متنوعة ، كما ساعدهم ذلك على بروز شخصياتهم الأدبية بصورة اكبر من سواهم من كتاب الدواوين الرسمية ، فضلا عن أن بعض أعلام الرسائل الأدبية في هذا القرن كانوا أنفسهم من الحكام أو الوزراء ، المتنفذين الذين تمتعوا بقسط أوفر من الحرية في الكتابة ، وعدم التقيد بكثير من رسوم الكتابة الرسمية فيما انشأوا ودبجوا من هذا النوع الأدبي الذي شغفوا به ، ثم احترفوه ، وتخصصوا به.

ولعل ما يؤكد هذا الأمر الذي ذهبنا إليه ؛ ما ذكره الثعالبي في الترجيح بين الصاحب ابن عباد وأبي إسحاق الصابي في الكتابة وصناعة الترسل ، إذ قال [2] : " فقد خاض فيه – أي الترجيح بين هذين الصدرين في صناعة الترسل – الخائضون ، وأخب فيه المخبون ، ومن أشفى ما سمعته في ذلك : أن الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو إسحاق كان يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد... ".

ولعل ما ذكره الثعالبي آنفا ، يوضح بجلاء اثر الحرية الواسعة التي تمتع بها كتاب الرسائل الأدبية فيما حققوا من تفوق أدبي على سواهم من كتاب الدواوين الذين ألفوا ضربا من الكتابة الرسمية ، ذات رسوم واصول لم يحيدوا عنها ، أو يخرجوا عن

---

[2] يتيمة الدهر 292/2 .

طقوسها ، على الرغم من براعتهم في هذا الميدان ، وشهرة كثير منهم في جوانبه ، والتفوق على اندادهم فيه .

ولعل هذا ما يفسر لنا أيضا ما ذهب إليه بعض مؤرخي الأدب القدامى من إخفاق بعض مشاهير كتاب الدواوين في هذا القرن – كالإسكافي والصابي مثلا – في المكاتبات الأدبية ، وقصور سعيهم فيها ، على الرغم من براعتهم في الكتابة السلطانية (الرسمية) ، وتفوقهم على من سواهم من الأدباء الكتاب في هذا الميدان .

ذكر الثعالبي في ترجمته لأبي القاسم الإسكافي ، بعدما أشاد بنبوغه في صناعة الكتابة الديوانية التي احترفها ، وتفوقه على من سواه في ذلك ، يقول [3] : " ومن عجيب أمره انه كان اكتب الناس في السلطانيات ، فإذا تعاطى الاخوانيات كان قاصر السعي ، قصير الباع " .

وقد أشار إلى هذا الأمر أيضا الناقد ضياء الدين ابن الأثير (ت 637 هـ) حين المح إلى تقدم أبي إسحاق الصابي في السلطانيات ، وتأخره في الاخوانيات وكذلك في كتب التعازي ، إذ قال [4] : " وكيف أضع من الصابي ، وعلم الكتابة قد رفعه ، وهو إمام هذا الفن ، والواحد فيه ، وقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل الإجادة ، وأحسن كل الإحسان . ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومحاصرته إياه بالعصيان ، لاستحق به فضيلة التقدم ، وكيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة ، ولكنه في الاخوانيات مقصر ، وكذلك في كتب التعازي "

ومن جانب آخر ، فقد أتاحت تلك الحرية الواسعة التي تفيأ في ظلالها اكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، أتاحت لهم أن يتناولوا موضوعات كثيرة ومتنوعة ، شملت اكثر نواحي الحياة العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها .

---

[3] يتيمة الدهر 110/4 .

[4] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 1/ 238.

ولقد كان لجدية بعض الموضوعات التي تناولها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، وطبيعتها الخاصة ، وما تقتضيه من الالتزام ؛ للتعبير بصدق عن الآراء والمبادئ السياسية أو الفكرية ، كان لذلك كله أثره الكبير فيما تميزت به هذه المكاتبات من صدق العاطفة ، ودفق الإحساس ، فضلاً عن الأصالة وجمال الأداء[5] .

ولعل هذا التنوع في موضوعات الرسائل الأدبية بخاصة ، يعود إلى أن كثيرا من كتاب هذا النوع من الرسائل في هذا القرن ، كانوا إمّا من الطبقة الخاصة – الحكام والوزراء واتباعهم – الذين اضطلعوا بالحياة السياسية والاجتماعية ، واثروا فيها ، وإمّا من كتاب الدواوين الذين شاركوا في الحياة العامة ، ومارسوا الكتابة الأدبية في موضوعات غير رسمية ، وإمّا من طبقة الأدباء الكتاب الذين تفاعلوا مع الحياة السياسية والاجتماعية ، وتأثرت حياتهم الخاصة بتداعياتها ، كما تجلى ذلك في كثرة ترحالهم واغترابهم ، وتنقلهم بين الأقاليم الإسلامية المترامية .

ومن هنا فقد كان لهم صلات سياسية واجتماعية وطيدة بكثير من أولئك الرؤساء واتباعهم ، وغيرهم من فئات الطبقة العامة ، ولاسيما العلماء والأدباء وغيرهم ، وتبعا لذلك فقد كثرت مراسلاتهم الأدبية – ولاسيما الاخوانية – وتنوعت موضوعاتها ، وتعددت مقاصدها وأغراضها كما سيأتي تفصيله في المبحث الأول من هذا الفصل .

ولقد مرَّ بنا ، في الفصل الثاني من هذه الدراسة ، أن هذا الفن النثري بدأ بيسير موازيا لفن الشعر في هذا القرن ، وانه راح يعالج اكثر موضوعاته ويطرق اكثر أغراضه الخاصة .

---

[5] تراجع مثلا رسالة الخوارزمي إلى جماعة الشيعة في نيسابور : رسائل أبي بكر الخوارزمي :160–172 ، ورسالة الأمير قابوس بن وشمكير إلى خاله الاصبهبذ : كمال البلاغة :52–57 ، ورسالة الهمذاني إلى القاضي أبي القاسم علي بن احمد يشكو أبا بكر الحيري : رسائل بديع الزمان :162–175 ، وغيرها .

ومن جانب أخر ، فما لبث هذا الفن النثري ، منذ منتصف هذا القرن ولاسيما بعد أن تهيأت له عوامل عديدة أسهمت في تطوره ونضجه ، كما الممنا بذلك في الفصل المذكور آنفا ، ما لبث يخرج من دائرته إلى دائرة أوسع مما كان عليه في القرون الثلاثة السالفة ، إذ طفق يعالج موضوعات بعيدة عن متناول الأدب ، أو بمنأى عن دائرته الفنية الخاصة .

لقد تناولت طائفة من الرسائل الأدبية موضوعات وجوانب بعيدة عن طبيعة الأسلوب الأدبي ، فشرع بعض الكتاب يكتب مثلا في فداحة الضرائب ، ويشرح جباية الخراج ، أو يفيض في الحديث عن أمن طرق الحجيج ، أو إصلاح السدود وسقي الأراضي ، او يتناول تكوين العالم ونشأته ، أو وصف النفس الناطقة في غير الإنسان ، وما إلى ذلك من قضايا فلسفية أو علمية مختلفة تتصل بصناعة الطب أو علم الأفلاك والنجوم ، وغير ذلك من الأمور التي هي اكثر لصوقا بالحقائق ، ولا يتسع في مجالها المحدود تدفق الرؤى أو تحليق الخيال ، إذ أن أكثر تلك الأمور التي أشرت إلى بعضها تقترب إلى تصريف العقل ، ولا يتسع فيها أفق العاطفة واتقاد المشاعر .

يقول اليزدادي ، مشيرا إلى رسائل الأمير شمس المعالي قابوس الفلسفية إلى جانب رسائله الأدبية [6] : " وإنما أضفتها – أي الرسائل الفلسفية الأربع – إلى هذه الرسائل ؛ ليعلم أن كلامه وعبارته في شرح جميع العلوم ككلامه وعبارته في نمط الكتابة . فان هؤلاء الذين ترجموا كتب الفلسفة وغيرها ، لم يقدروا على العبارة عنها إلا بألفاظ عامية ركيكة ، وان كان من تعاطى ذلك مشهورا في الفصاحة والبلاغة " .

وهكذا نصل إلى حقيقة مهمة ، تلك هي أن إخضاع مثل هذه الموضوعات وتطويعها للأسلوب الأدبي أمر ليس باليسير ، ولا يستطيع أداءه إلا أديب متمرس، يستطيع سرد مثل تلك الموضوعات الجافة وما يقاربها في قالب أدبي ، أو إدراجها

---

[6] كمال البلاغة :84 .

في أسلوب أدبي شيق ، يؤثر في المتلقي ، ولا يتأتى ذلك إلا للأدباء الأفذاذ الموهوبين .

وهكذا كان كتاب الرسائل الأدبية أبان هذا القرن ، في طليعة أولئك الأدباء الذين طوعوا كثيرا من المعاني والأغراض التي كانت حكرا على الشعر وفنونه وطبيعته وبنائه ، فأخضعوها للنثر ، فانقادت طائعة في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية البليغة ، كما سيتضح ذلك في كثير من أغراض الرسائل الاخوانية ، وفي رسائل الوصف ، ورسائل الهزل والفكاهة وغير ذلك ، كما طوعوا كثيرا من الموضوعات (الجافة) التي تخضع للحقائق اكثر مما تستجيب لنوازع الوجدان والشعور ، ومسارب الخيال ، فطوعوا كثيرا من تلك المعاني والموضوعات في ترسلهم ، وتصرفوا في رسائلهم الأدبية ، ومدوا إطنابها ، وطوعوها أيضا لتستوعب التعبير عن نواحي الحياة المختلفة في هذا القرن المضطرب .

وهكذا خطت الرسائل الأدبية على أيدي جهابذة الكتاب المبرزين وصدورهم في هذا القرن ، وفي مقدمتهم أبو الفضل ابن العميد ، وأبو القاسم الصاحب بن عباد ، والأمير قابوس بن وشمكير ، وأبو بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني وإضرابهم ، خطت خطوات واسعة نحو الفن والإبداع ؛ إذ تعهدوها بالرعاية والتهذيب والإحكام ، فتطورت – تبعا لذلك – تطورا هائلا ، ولاسيما من الناحية الفنية والموضوعية .

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن تجمل أهم ألوان الرسائل الأدبية وموضوعاتها وفقا لما عالجته من أغراض ومقاصد في هذا القرن ، بما يأتي :

(أولا) الرسائل الاخوانية :

وهي ما تَّم تبادله من رسائل بين الأصدقاء ، والأقارب ، والأخوان ، في موضوعات وأمور شخصية متنوعة .

(ثانيا) الرسائل الوصفية :

وهي الرسائل الأدبية التي انطوت على وصف المشاهدات الشخصية ، وقد شملت وصف الأمور المحسوسة وغير المحسوسة من المعاني والصفات الدقيقة التي يتم إدراكها أو تحليلها عن طريق العقل أو الوجدان .

(ثالثا) الرسائل الهزلية والمفاكهات الأدبية :

وتشمل المكاتبات الهزلية ، والمباسطات الأدبية في كثير من القضايا الشخصية والاجتماعية وغيرها .

المبحث الأول

الرسائل الاخوانية في القرن الرابع

الرسائل الاخوانية : نوع مهم وشائع من أنواع الرسائل الأدبية ، ويطلق هذا المصطلح الأدبي عادة على ما تم تبادله من رسائل نثرية أو شعرية بين الأخوان والأقارب أو الأصدقاء ، في قضايا شخصية ، أو أمور اجتماعية مختلفة[7] .

وهذا اللون من الأدب قديم ، وقد عرفه الأدب العربي منذ عصر صدر الإسلام ، وما أعقبه من عصور الأدب العربي الأخرى [8] .

وقد طرأ تطور كبير وواضح على هذا اللون من الرسائل النثرية أبان هذا القرن ، وبدأ يتخلل كثيراً من إغراضها مفاهيمُ جديدة ، وأطر مبتكرة ، فضلا عما برع فيه كثير من كتاب هذا اللون من الرسائل في هذا القرن من إدخال كثير من التعابير الأنيقة ، والصور الجديدة .

يقول الأستاذ مبارك مؤكدا على تطور الاخوانيات وجدتها في هذا القرن : " وقدم هذا الفن في العربية ، لا يمنع انه صار في القرن الرابع فنا قويا ، يخيل إلى القارئ انه فن جديد ؛ لكثرة ما جدَّ فيه من الصور والتعابير ... " [9] .

إما الأستاذ شوقي ضيف فله رأي أخر في هذه المكاتبات الاخوانية (الشخصية) وتطورها في هذا القرن ، إذ ذهب إلى أن كتاب الرسائل الشخصية كانوا إيذانا لظهور مذهب جديد في الأدب والنقد هو مذهب التصنع ، حين عمدوا – نظرا

---

[7] مما ذكره القلقشندي في حدّها ورسومها ؛ أَنَّ المكاتبات الاخوانيات – وهي جمع اخوانية نسبة إلى الأخوان ، جمع أخ – والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء . ينظر : صبح الأعشى في صناعة الانشا : 126/8 وما بعدها .

[8] عدَّ الأستاذ مبارك (الاخوانيات) فنا قديما في اللغة العربية ، وانه وُجد في النثر كما وُجد في الشعر . ينظر : النثر الفني في القرن الرابع: 200/1 ، وينظر أيضا : الرسائل الفنية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي – للباحث :292–293 .

[9] النثر الفني في القرن الرابع : 200/1 .

لضيقِ معانيهم – إلى تعقيد أساليبهم الزخرفية ، أو اتخاذ فنون جديدة في نثرهم ، لأتمت إلى التجميل بصلة ، وإنما تميل إلى التحذلق والتكلف [10] .

ثم خلص الأستاذ ضيف إلى أن مفهوم الرسائل الشخصية (الاخوانيات) قد تطور إلى الدلالة على الغايات التعليمية ، بدلا من التعبير عن المعاني ، ومن ثم فقد صار لهذه المكاتبات قوالب وأساليب تُحفظ من لدن الكتّاب ، ويحفظها المتأدبون ، ويعارضونها أو يحاكونها في ترسلهم [11] .

والذي لاشك فيه أن الرسائل الاخوانية اقرب إلى الفن والتعبير الإنشائي الأدبي الصافي من سواها من المكاتبات الأخرى ، وبخاصة المكاتبات السلطانية (الديوانية) ، فهي صدى النفس ، ورجع الوجدان ، ومنبثق العواطف الإنسانية . ومن هنا فقد أطلق بعض الباحثين على كتاب هذا اللون من الرسائل ، بالكتاب الأحرار [12] .

وقد كانت الرسائل الاخوانية في هذا القرن تصدر عن طبقات مختلفة من الكتّاب ، وكان يتمّ تبادلها بين الناس كافة . ومن هنا فقد كان لهذا الضرب من الرسائل أهمية كبيرة ؛ لما اتسم به معظمها من ملامح فنية ، إذ كان منشئو هذه الرسائل غالبا ما يعنون بانتقاء الألفاظ وتنسيقها ، ويتأنقون في أداء المعاني .

وقد أكد القلقشندي ذلك فيما ساقه عن هذا اللون من الرسائل ، فذكر نقلا عن كتاب (مواد البيان) يقول [13] : " ... ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها ... والكاتب إذا كان ماهرا ، اغرب معانيها ، ولطَّف مبانيها ، وتسهل له فيها مالا يكاد أن يُتسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ولا تتجاوز " .

---

[10] تراجع التفاصيل في : الفن ومذاهبه في النثر العربي :229 وما بعدها .

[11] المرجع نفسه :229–230 .

[12] ينظر كتاب : بديع الزمان الهمذاني – مصطفى الشكعة :68 .

[13] صبح الأعشى في صناعة الانشا 5/9 .

لقد شاعت المكاتبات الاخوانية في هذا القرن شيوعا واضحا ؛ لشدة الحاجة إليها ، ولعل هذا الانتشار ، وذيوعها بين الناس ، هو الذي حفز بعض مؤرخي الأدب العربي ، والمصنفين القدامى ، وفي مقدمتهم أبو منصور الثعالبي ، على الاهتمام بهذا اللون من الرسائل ، إذ عكفوا على جمع الكثير منها وتدوينها ، وجمع ما تفرّق من نصوصها ، وشتات فقرها في فصول كتبهم وأبواب مصنفاتهم[14] .

إما أهم دواعي هذا الازدهار الذي طرأ على المكاتبات الاخوانية في هذا القرن ، فيمكن أن نعزوهُ إلى اختلاط العرب بالأجناس الأعجمية ، وامتزاج الثقافات ، فضلا عن ظهور كتاب بلغاء كثيرين من غير العرب ، وانتشارهم أو تفرقهم في أقاليم كثيرة وفسيحة في المشرق الإسلامي وغيره من الأصقاع وكثرة تنقلهم بين حواضر تلك الأقاليم واغترابهم ، إذ كان لذلك كله اثر كبير فيما طرأ على هذه الرسائل بخاصة ، وغيرها أيضا ، من تطور ونضج وازدهار .

ولبعض الباحثين المعاصرين رأي طريف في هذا الجانب ، لا بأس من التنويه به في هذا الموضع بإيجاز ؛ فقد ذهب الأستاذ غناوي الزهيري [15] إلى أنَّ ذلَّ الطبقة الخاصة في المجتمع الإسلامي (البويهي) أبان هذا القرن – وبخاصة

---

[14] عني أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ) في كتابه (يتيمة الدهر) بجمع كثير من الفقرات والفصول الخاصة بالمكاتبات الاخوانية ، وتدوين فصول كثيرة مقتضبة للأدباء الكتاب المشهورين في عصره ؛ كأبي الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد والأمير قابوس بن وشمكير وأبي الفضل الميكالي وغيرهم . تراجع تلك الفقر والفصول في تراجم الأدباء المذكورين في كتاب اليتيمة ، كما جمع الثعالبي أيضا ، ضمن فصول كتابه الشهير (سحر البلاغة) فصولا بليغة مقتضبة من المكاتبات الاخوانية ، مما تخيره لبلغاء الكتاب في عصره . ينظر كتاب سحر البلاغة للثعالبي في مواضع كثيرة متفرقة منه .

[15] ينظر كتاب الأدب في ظل بني بويه :201–202 ، حيث ذهب الباحث إلى القول : " وأما الاخوانيات فقد ازدهرت في هذا العصر أيضا كما ازدهر الأدب الرسمي ، وكان سبب ازدهارها يتصل بأخلاق الطبقة العليا ونزعاتها اتصالا وثيقا ؛ وتعليل ذلك أن هذه الطبقة – كما مر بنا – قد فقدت كثيرا من الصفات الكريمة ، واستعاضت عنها بالذل والضعة ، وفقدان الشعور بالكرامة ، والاستخفاف بكرامة الغير وبالملق والنفاق ... " .

في الإمارة البويهية – وفقدانها لصفاتها الكريمة ، كان هو السبب في ازهادر هذه الاخوانيات ، ويستدل الباحث على ذلك ، بما ظهر في هذا اللون من الرسائل أبان هذا القرن ، من تكلف الكتّاب في أساليب المكاتبات التي عظَّمت شأن المخاطب إلى حد الإسراف .

ونحن هنا لا نتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ الزهيري لأمرين :

(الأمر الأول) : هو انه ليست جميع المكاتبات الاخوانية في هذا القرن كانت مشوبة بالتكلف والمبالغة ، وزيف المشاعر والعواطف ، نتيجة للملق والرياء الذي ساد بيئات الطبقة الخاصة . ولنا شواهد كثيرة على ما ذهبنا إليه من تلك الرسائل الاخوانية التي تمَّ تبادلها بين الأصدقاء والخلان في هذا القرن ، ولعل اشهرها ما دار بين الشريف الرضي وأبي إسحاق الصابي ، وبين أبي الفرج الببغاء وبعض أترابه في بغداد وغيرها أثناء انقطاعه وإقامته في حاضرة الأمير سيف الدولة في حلب ، وغيرها من الاخوانيات الأخرى .

(الأمر الثاني) : إنَّ المكاتبات الاخوانية في هذا القرن لم يقتصر شيوعها أو انتشارها في بيئة الأمراء البويهيين وخواضرهم المتعددة وانحسار أثرها في حواضر الإمارات المستقلة الأخرى .

ذكر الأستاذ الزهيري يقول : [16] " كل ذلك قد انعكس صداه في الحياة الأدبية ، فأنتج فنا من الأدب بعينه ، هو فن (الاخوانيات) ، فقد كانت هذه الظاهرة الاجتماعية من البواعث القوية على ازدهاره في هذا العصر ، وفي هذه البلاد دون سواها ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما شاعت الاخوانيات في الأدب البويهي بينما لا نكاد نجد لها أثرا في الآداب الإقليمية الأخرى " .

وما من شك في أن (الاخوانيات) في هذا القرن لم يقتصر تبادلها أو انتشارها في بيئة واحدة ؛ ذلك لان الأدباء كانوا دائبي التنقل والرحلة من حاضرة إلى أخرى ، كما أن إقليم خراسان ، على عهد السامانيين ، مثلا ، وإمارة بني ميكال

---

[16] الأدب في ظل بني بويه : 204 .

أيضا ، فضلا عن إمارة بني حمدان في حلب والموصل ، وإمارة خوارزم شاه ، وغيرها من حواضر الإمارات المستقلة الأخرى في هذا القرن ، كانت كلها منتجعا لكثير من الأدباء والكتّاب ، وكانوا على صلة وثيقة مع بعضهم ، وكانوا دائبي المراسلة مع أقاربهم وأترابهم ، فضلا عن أمراء ورؤساء تلك الممالك الإسلامية النائية .

أغراض الرسائل الاخوانية ومقاصدها :

لقد عبرت المكاتبات الاخوانية في هذا القرن عن كثير من الأمور أو القضايا الاجتماعية التي عمت أرجاء المجتمع الإسلامي ، وصورت كثيرا من العلاقات الشخصية والاجتماعية الطارئة آنذاك . وقد كان لإسهام الأدباء والكتاب، وتقلبهم في مناحي الحياة العامة المختلفة اثر كبير في تعدد إغراضها ومقاصدها.

ويمكن الوقوف عند أهم إغراض الرسائل الاخوانية ومقاصدها في هذا القرن ، وهي كما يأتي :

(أولا) الشكوى والاستعطاف والاستمناح :

الاستعطاف وشكوى الحال من الإغراض المهمة التي تناولتها الرسائل الاخوانية في هذا القرن ، ويتسم هذا الضرب من المكاتبات غالبا ، بحرارة العاطفة ، ودفق المشاعر ؛ للتأثير في أحاسيس المكتوب إليه .

وهذه المكاتبات ترسل عادة إلى الأقارب أو الأتراب أو كبار الشخصيات من الرؤساء والوزراء وغيرهم ، ولذا فقد كانت تتسم بحسن التأتي ، والبراعة في صياغة المعاني ، ودقة الأفكار وعمقها .

وقد أكد القلقشندي ذلك فذكر يقول [17] : " المكاتبة في استعطاف الرؤساء، وملاطفة الكبراء ، تحتاج إلى حسن تأت ؛ لما تشمل عليه من إيجاب حقوق الخدمة ... " .

وقد رأى بعض الباحثين [18] أن الشكوى مظهر من مظاهر الحياة ، وهي في أحيان كثيرة لا تنفصم عنها ، ومن هنا فقد ربط هذا الباحث بين شيوعها في أي

---

[17] صبح الأعشى في صناعة الانشا : 165/9 .

مجتمع إنساني وبين تعّقد الحياة ، وتفاقم المشاكل المختلفة فيه ، فضلا عما يسود المجتمع من التطور الحضاري ، ونضج الحياة العقلية فيه ، أو اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية ، وما إلى ذلك .

لقد شاعت ظاهرة الشكوى والاستعطاف كثيرا في هذا القرن إذن نتيجة لاضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية ، وتردي الأوضاع الاقتصادية ، وما نجم عن كل ذلك من تباين كبير وواضح في المستوى المعاشي والاجتماعي بين طبقات المجتمع الإسلامي وفئاته المختلفة ، فضلا عما تعرض له الكثير من رعايا الدولة الإسلامية – ومنهم الأدباء والعلماء – من ضروب المحن والنكبات ، وما لقيه بعضهم من ألوان الفاقة والبؤس والجور والحرمان [19] .

ومن هنا ، فقد كان طبيعيا أن يكثر أدب الشكوى في هذا القرن – شعرا ونثرا – كثرة مفرطة ربما لا نجد لها مثيلا في أي عصر من عصور الأدب العربي . وهكذا اندفع كثيرٌ من الأدباء [20] في هذا القرن ، يشكون حظهم العاثر، ويصورون ما ألمَّ بهم من مرارة البؤس والحرمان ، وضراوة الإخفاق والفشل في حياتهم القاسية ،

---

[18] تراجع التفاصيل فيما ذهب إليه الباحث أحمد النجدي في (الشعر والشعراء في البصرة في القرن الثالث) : 138 ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة بغداد عام 1972 .

[19] يراجع ما وقع مثلا (للمعافى بن زكريا النهرواني) ، الذي كان نسيج وحده في الإلمام بعلوم زمانه ، من مظاهر البؤس والضر : معجم الأدباء : 152/19 ، ويراجع أيضا ما وقع لأبي إسحاق الصابي ، وأبي الفتح ابن العميد وغيرهما من حبس ومحن ومصادرة أو قتل : يتيمة الدهر : 2 / ترجمة الأديبين المذكورين .

[20] من تلك المكاتبات الاخوانية التي جمعت بين الشكوى والاستماحة أو الاستعطاف ؛ ما نقله صاحب اليتيمة من فصول للصابي إلى بعض أصدقائه : اليتيمة : 297/2 ، وقد توجه هذه الرسائل إلى بعض الرؤساء والوزراء ، من ذلك مثلا ما كتبه الخوارزمي إلى رئيس نيسابور يشكو حاله ، ويستميحه ؛ ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي: 203 ، ورسالة الهمذاني إلى أبي العباس الاسفراييني ، يشكو حاله ومعاناته في تحصيل الرزق ويستميحه ما يستعين به على صلاح حاله ، ينظر : رسائل بديع الزمان الهمذاني : 27–28

وراحوا يتضرعون إلى بعض الرؤساء والحكام ، أو الأتراب والأنداد ؛ استدرارا لعطفهم ، أو تنفيسا عما أصابهم من بؤس وعوز وحرمان .

ولعل ابلغ شاهد يجسد هذه الحالة المؤلمة لطبقة الأدباء والعلماء في هذا القرن مثلا ؛ ما وقع للأديب الكبير أبي حيان التوحيدي ، فهذا الأديب ، على الرغم مما بلغه في عصره ، من علم جمّ ، وأدب ثرّ ، وعلى ما عرف عنه من أدب وبلاغة وفلسفة ، وصلات حميمة ببعض وزراء عصره ، إلا انه كان كثير الشكوى ، دائب التبرم بالحياة والعيش ؛ لما لقيه من بؤس وفقر وجوع وحرمان ، حتى ليستثير الألم ، ويبعث على الحزن والإشفاق .

وكان إلى ذلك دائم التضرع والتذمر من الأخوان والأصدقاء ، لما لمسه في عصره من تبدل القيم ، وتغير الخلان ، وفساد الذمم ، وتقلب الأصدقاء [21] .

ولعل رسالة أبي حيان التوحيدي إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس ، أحد أترابه ، في شكوى البؤس ، والتضرع إليه ، ورجاء المعونة ، خير ما يجلي لنا ما آل إليه حال كثير من الأدباء والعلماء في هذا القرن [22] ، فضلا عن فئات الطبقة العامة ، وغيرهم ، ومما ورد من هذه الرسالة القيمة قوله [23] : " أيها الشيخ ، سلّمك الله بالصنع الجميل ، وحقق لك وفيك وبك غاية المأمول ... خلصني أيها الرجل من التكفف ، أنقذني من انس الفقر ، اطلقني من قيد الضر اشترني بالإحسان ، اعتبدني بالشكر ، استعمل لساني بفنون المدح ، اكفني مؤونة الغداء والعشاء .

---

[21] تراجع مقدمة رسالة الصداقة والصديق 5: وما بعدها ، وما بثه فيها من شكوى مريرة من تغير الأخوان والأصدقاء ، وينظر أيضا شكواه من زمانه في رسالة الحياة : 53 .

[22] يراجع ، على سبيل المثال ، ما ذكره السبكي من أخبار (أبي حامد الأسفراييني) ، وهو من هو في العلم والفقه والدين – وامتهانه بعض الأعمال الشاقة التي لا تتناسب ومقامه= =وعلمه ؛ كحراسة بعض ذوي اليسار ، أو احترافه مهنة الحمالين ! لكسب قوته . ينظر : طبقات الشافعية : 26/3 .

[23] الإمتاع والمؤانسة : 225/3–230 .

إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذاوية ، والقميص المرقع ، وباقلي درب الحاجب ، وسذاب درب الرواسين ؟

إلى متى التادم بالخبز والزيتون ؟ قدواللهِ بحّ الحلق ، وتغير الخلق ، الله الله في أمري ، أجبرني فإنني مكسور ، استقني فأنني صد ، أغثني فإنني ملهوف شهرني فأنني غفل ، حلني فإنني عاطل .

قد أذلني السفر من بلد إلى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ، ونكرني العارف بي ، وتباعد عني القريب مني ... " .

ثم اختتم أبو حيان شكواه وتضرعه إلى صديقه بعتاب رقيق ، أبدع الكاتب كثيرا في حشده في تضاعيف رسالته ، ليبلغ سؤله منه ، ويبدّد تقاعسه في تحقيق ما كان يأمله منه في وساطته ، إذ قال [24] : " وأخر ما أقول : افعل ما ترى واصنع ما تستحسن ، وابلغ ما تهوى ، فليس والله منك بد ، ولا عنك غنى ،

والصبر عليك أهون من الصبر عنك ، لان الصبر عنك مقرون باليأس والصبر عليك ربما يؤدي إلى رفع هذا الوسواس ، والسلام لأهل السلام " .

وعند أنعام النظر في فصول هذه الرسالة الأدبية الرائعة ، تتجلى للباحث مقدرة أبي حيان المتميزة في التعبير عن أفكاره المتدفقة ، وحسه اللغوي الدقيق ، وثراء معجمه اللغوي ، وبراعته الفائقة في توظيف ذلك كله في بناء أفكاره وصياغة معانيه .

وقد برع أبو حيان أيضا في الجمع بين عمق الفكرة وحسن صياغتها ، وبين دقة الألفاظ وروعة توظيفها في بناء أفكاره الدقيقة المتشعبة ، " فهو خبير بأنواع اللفظ ، بصير بمواقع جرسه ، بارع في التصرف بحروف عباراته " [25].

ومما رفد هذه التحفة الأدبية بالجمال والفن أيضا ؛ لجوء التوحيدي إلى الترادف ، وقصر العبارات ؛ كما أتضح في قوله مثلا : " افعل ما ترى ، واصنع ما تستحسن ، وابلغ ما تهوى ، فليس والله منك بد ، ولا عنك غنى " .

---

[24] المصدر نفسه : 230/3 .

[25] ملامح النثر العباسي :246 .

ويتضح بجلاء ما حققه هذا الترادف الجميل من جلاء المعنى في الذهن وتوكيده في النفس ، فضلا عما حققه من جمال في التعبير فيما أضفاه على أسلوبه من تلوين التعبير ، واغنائه بالإيقاع الموسيقي المتناغم .

ولا يخفى أيضا ما للتكرار في هذا النص الأدبي ، ولاسيما تكرار الاستفهام من قيمة فنية وجمالية أضفاها على ظلال المعاني المتتابعة ، على شاكلة قوله : " إلى متى الكسيرة اليابسة ... ؟ إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ ... " .

فضلا عما أضفاه تتابع الجمل الطلبية أو الجمل الخبرية في هذا النص من روعة الموسيقى ، وجمال التعبير . يقول في تضاعيف هذه الرسالة : " أجبرني فأنني مكسور ، اسقني فأنني صد ، اغشني فأنني ملهوف ، شهّرني فأنني غفل ، حَلِّني فأنني عاطل .

قد أذلني السفر ... وخذلني الوقوف ... ونكرتي العارف بي ، وتباعد عني القريب مني " .

وهكذا تجلّت في هذه الرسالة الأدبية موهبة أبي حيان الأديب ، وبراعة أبي حيان الكاتب ، وتوارت في ثنايا فقرها المنسابة معالم الفيلسوف وملامح المفكر .

ولقد استوقفت الأوضاع السياسية والاقتصادية المضطربة في هذا القرن وبخاصة تصرفات كثير من الولاة وعمال الخراج وبعض المحتسبين والقضاة وجباة الضرائب وغيرهم ، وما اتبعوه من أساليب جائرة ، وألوان التعذيب والبطش مع الرعية من اجل استحصال الأموال ، استوقفت كثيرا من الأدباء فأثارت حفيظتهم ، وألهبت أحاسيسهم ، فراحوا يعبرون عن فداحة تلك الماسي والمحن التي ألمت بمجتمعهم ، بما صدر عن اسلات أقلامهم من شكوى مريرة كانت أحيانا صرخات مدوية بوجه أولئك العمال المتجبرين .

ولعل أبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني يقفان في طليعة الأدباء الكتاب الذين رصدوا هذه الجوانب الخطيرة في مجتمعاتهم الإسلامية .

لقد صور الخوارزمي في رسائل اخوانية عديدة [26] جور عمال الخراج وما أثقلوا به كاهل الرعية من استحصال تلك الضرائب ، ومصادرتهم لضياع كثير من فئات الطبقة العامة الفقيرة ، وصور أيضا مطاردتهم للآمنين ، وإدخال الرعب في قلوبهم لحملهم قسرا على دفع تلك الضرائب الجائرة .

ومن عيون رسائل الخوارزمي الكثيرة في الشكوى والاستعطاف ما كتبه إلى صاحب ديوان الحضرة يشكوه تعسف عمال الخراج وجورهم على الرعية ، ومما ورد في تلك الرسالة [27] : " كتابي إلى الشيخ من الديوان ، وأنا فيه ملتحف بالحرمان ، مشتمل بالذل والهوان ، قاعد بين النقصان والخسران ، عن يميني مستخرجان ، وعن يساري وكيلان ، والحمد لله على تصاريف الدهر وأحواله ... وما أشكو إلا نحسي ، ولا أهجو إلا نفسي ، وما خصمي غير حرماني ، ولا قرتي إلا زماني ... " .

والرسالة طويلة ، وهي كما يبدو بوضوح ، وثيقة رائعة ، نكشف سوء الأوضاع الاقتصادية والمالية ، وتصور بأسى ، جور جباة الضرائب وعمال الخراج ، لاسيما في أقاليم المشرق الإسلامي النائية . والرسالة أيضا صرخة مدوية صدح بها الخوارزمي ليهز من خلالها عروش الطغاة المتجبرين الذين ينعمون برغيد العيش على حساب شقاء الفقراء المظلومين .

---

[26] تراجع رسائل الخوارزمي الآتية : رسالة رقم (7) :24-22 ؛ وفيها نقد لاذع للأوضاع الاقتصادية وجباية الضرائب ، وشكوى عمال الخراج ، وفيها أيضا يستنجد الخوارزمي بصاحب الديوان ويستعطفه لحمايته من تعسف الجباة وعمال الخراج ، رسالة رقم (16) :36-35 إلى صاحب ديوان الخراج ؛ والرسالة شكوى مريرة تكشف ما كان يفرض من ضرائب على الأفراد ، وقد عبر عنها بأنها (خزاية لا جباية) ، رسالة رقم (51) :102- 103 ؛ والرسالة وثيقة اقتصادية مهمة عن طبيعة الضرائب وطريقة جبايتها رسالة رقم (55) :112 ؛ وتصور هذه الرسالة أيضا فساد الحالة المالية وتعسف الجباة وينظر أيضا في هذا الجانب : رسالة رقم (92) :157-156 ، رسالة رقم (142) :230-229 ، رسالة رقم (146) : 252-251 ، رسالة رقم (158) :261-260 وكلها رسائل اخوانية في الشكوى من فداحة الضرائب وتعسف الجباة وجورهم وعدم نزاهتهم .

[27] رسائل أبي بكر الخوارزمي : رسالة رقم (79) :139-138 .

ونظير رسائل الخوارزمي – الأنفة الذكر – في الشكوى والاستعطاف ونقد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في هذا القرن ؛ ما كتبه بديع الزمان الهمذاني في كثير من رسائله الاخوانية [28] . ولعل اجمل تلك الرسائل في نقد الأوضاع العامة وشكوى العمال والقضاة رسالته [29] التي كتبها إلى القاضي أبي القاسم علي ابن احمد يشكوه فيها أبا بكر الحيري ، والرسالة طويلة ، وهي وثيقة تاريخية مهمة تكشف بوضوح ما آل إليه القضاء في هذا القرن ، وسوء تصرف بعض القضاة ، وضالة هيبتهم ، وقلة علمهم أو عدم أحاطتهم بأمور القضاء والفقه وأمور الشريعة الأخرى . وسوف نلّم بدراسة بعض فصول هذه الرسالة في المبحث الثاني من هذا الفصل .

ومن جانب أخر ، راح كثير من الأدباء في هذا القرن – ولاسيما الشعراء – يعبر عن ضجره من قسوة هذا الواقع المؤلم ، ويصرح بتبرمه بالحياة ، وما انطوت عليه من ألوان القهر والحرمان ، ولكنهم لم يكونوا جميعا صريحين في معالجة هذا الواقع المزري ، أو في تشخيص مصدر هذا الظلم والفساد ، ولم يجرؤ أكثر هؤلاء

---

[28] ينظر مجموع رسائل بديع الزمان : رسالة رقم (3) :14–12 ؛ وهي موجهة إلى أبي العباس الاسفراييني – وزير محمود الغزنوي – وفيها يصف ظلم عمال الخراج ، وعدم تدوين ما يأخذونه من أموال الخراج ، وهي إشارة مهمة إلى سرقتهم وابتزازهم ، رسالة رقم (8) :26– 27 ، وهي رسالة موجهة أيضا إلى الاسفراييني ، وهي وثيقة اقتصادية مهمة ، وهي شكوى موجهة للوزير عما نابه من عمال الخراج وجباة الضرائب ، رسالة رقم (9) :28–27 ، وهي رسالة يشكو فيها سوء حاله ومعاناته وكثرة أسفاره ، ويلوح له أن يقرضه ما يستعين به على صلاح أحواله ، رسالة رقم (31) :136–134 ، وهي موجهة إلى أبي نصر بن المرزبان ، وفيها يشير إلى أهل الكدية ، ويصرح بحاجته واستماحة رفده ، رسالة رقم (40) :161– 162 ، وهي وثيقة اقتصادية مهمة تكشف سوء حالة الأدباء وأهل الفضل في هذا القرن ، والرسالة موجهة إلى الشيخ العميد وينظر أيضا رسالته إلى الأمير قابوس يشكوه حاله ويستعطفه ؛ زهر الآداب وثمر الألباب 417/2 ، ورسالته أيضا إلى سعيد الإسماعيلي يشكوه حاله ، ويخبره بسلب مغيرة الأعراب ماله ؛ زهر الآداب : 517/2–518 .

[29] رسائل بديع الزمان الهمذاني :162–175 .

الأدباء على الكشف عن جور أولئك الحكام الطغاة وتسلطهم ؛ اتقاء لشرهم ، أو خوفا من بطشهم وتجبرهم ، لذا لجأ أكثر هؤلاء الأدباء إلى أسلوب الإيماء أو الرمز ، للتعبير عما ملا نفوسهم من إحباط وآلام ، وقد تجلى ذلك واضحا في انصراف كثير من الشعراء [30] بخاصة ، وبعض الكتاب إلى الشكوى من الزمان ، وما حواه في حناياه من رزايا وهموم ومحن ، وراح البعض الأخر من الأدباء يصّب جام غضبه على الدهر وصروفه وآلامه ، إلى غير ذلك من الصور التي كان يستتر خلفها الأدباء ؛ للتنفيس عن همومهم ، وعما تجيش به ضمائرهم ، وتكتوي به أفئدتهم .

ومن نماذج الرسائل الاخوانية التي انصبت على الشكوى من الزمان وصروفه ؛ ما كتبه أبو الفضل ابن العميد إلى بعض إخوانه يعاتبه ، ومما ورد فيها [31] : " أنا أشكو إليك – جعلني الله فداك – دهرا خؤونا غدورا ، وزمانا خدوعا غرورا ، لا

---

[30] لقد اشتهر عدد كبير من شعراء هذا القرن بالشكوى من الزمن ، لعل أشهرهم ؛ الشاعر ابن لنكك البصري (يراجع الفصل الذي عقده صاحب اليتيمة عن الشاعر 407/2 وما بعدها) ومما شهر له في ذم الزمن والدهر قوله : [من البسيط] / اليتيمة: 410/2

إن أصبحت هممي في الأفق عالية فإن حظي ببطن الأرض ملتصق
كم يفعل الدهر بي مالا أسر به وكم يسيء زمان جائز حنق
كم نفخة لي على الأيام من ضجر تكاد من حرها الأيام تحترق

وشعره في هذا الباب كثير مشهور ..

وممن شهر في هذا الباب من شعراء هذا القرن أيضا : ابن نباتة السعدي (يراجع في ترجمته وشعره : يتيمة الدهر: 450/2 وما بعدها) .

ومما قاله في ذم الزمان والدهر قوله : [من الطويل] / يتيمة الدهر :452/2 .

وأصغر عيب في زمانك أنه به العلم جهل والعفاف فسوق =
= وكيفُ يسرُّ الحرّ فيه بمطلب وما فيه شيء بالسرور حقيق

ويقول في تبرّمه بالحياة والدهر : [من الوافر] / يتيمة الدهر:451/2

برمت من الحياة وأي عيش يكون لمن مطاعمه الخيال ؟
ولو أني أعد ذنوب دهري لضاع القطر فيها والرمال

[31] زهر الآداب وثمر الألباب : 601/2-602 .

يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع ، ولا يبقي فيما يهب إلا ريث ما يرتجع ، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، ان يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسط وشك انقباض ... " .

ومن الرسائل الاخوانية التي انصبت على الشكوى من الدهر أيضا ؛ ما كتبه الأمير قابوس إلى أبي عبد الله بن وندويه الكاتب ، ومما ورد فيها قوله [32] : " شكوت – أطال الله بقاك – الدهر وأحكامه ، وذممت صروفه وأيامه ، فشكوت من لا يشكي أبدا ، وذممت من لا يرضي أحدا ، فما زال هذا الدهر يعجب فيما بين يهب وينهب ، شيمته رفع الخامل الوضيع ، ووضع الفاضل الرفيع ، إذا أساء أصر على إساءته ، وإذا أحس ندم عليه من ساعته ، سيرته ايحاش البشر ، وهذا من أسوأ السير ، يأخذ بمخنق الخلق ، ثم يُغذُّ بهم بسوء الخُلُق ، يصعد أحدهم في السمو إلى السكاك ، ويبلغه محلا تحده الكواكب في الأفلاك ... " .

والرسالة طويلة ، وهي تجري على هذا النسق في إلقاء اللائمة على الدهر، والشكوى المريرة من صروفه وغدره ، وهي أيضا تطفح بألوان البديع ، وضروب التجنيس بخاصة ، والرسالة لوحة رائعة ، ونموذج فريد للتصنع الذي بدأ يستشري في الرسائل الأدبية منذ أواخر هذا القرن .

وهكذا يتضح لنا أن الأدب العربي في هذا القرن المضطرب – ولاسيما المكاتبات الاخوانية – قد تأثر بهذه المظاهر الاجتماعية وتداعياتها ، فصورها بأمانة ودقة متناهية ، فكان نتيجة لذلك وثائق تاريخية مهمة وخطيرة كشفت عن كثير من إحداث المجتمع الإسلامي ، وألوان الصراع الدائب بين طبقاته وفئاته المتباينة في هذا القرن المضطرب .

(ثانيا) : العتاب واللوم :

العتاب واحد من أهم الأغراض أو المقاصد التي شاع دورانه أو وروده في المكاتبات الاخوانية – شعرا ونثرا – عبر عصور الأدب العربي ، وبخاصة في القرن

---

[32] كمال البلاغة :58–60 .

الرابع ؛ ولعل مرد ذلك يعود إلى طبيعة العتاب ، وكنهه ، وشدة امتزاجه بفن الاخوانيات .

فالعتاب ، بوصفه ظاهرة اجتماعية وإنسانية " لا ينفصم عن أية علاقة بين بني البشر ، فحيث تكون صداقة وأخوان يكون عتاب ؛ يزيل صدأ القلوب ، ويعيد نهر الحب إلى مجراه " [33] ، والعتاب اكثر لصوقا بفن الاخوانيات – سواء أكانت شعرا أم نثرا – من سواه من الأغراض الأخرى .

ولعمق الاصرة بين (العتاب) و (الاخوانيات) وامتزاجهما ، واقترانه بها، ذهب بعض الباحثين [34] إلى أن الاخوانيات ، التي وجدت في النثر كما وجدت في الشعر ، تسمى في النثر العتاب .

وذكر الباحث نفسه [35] أيضا ؛ أن من المؤلفين من يطلق (الاخوانيات) و(العتاب) ،بدون تمييز ، على ما يقال – شعرا أو نثرا – في مناجاة الأصدقاء .

وقديما حلل الكاتب البليغ أبو بكر الخوارزمي – وهو أحد من احترف كتابة الرسائل الاخوانية في هذا القرن – في إحدى رسائله القيمة ، عمق هذه الوشيجة بين (العتاب) وفن (الاخوانيات) ، وشدة امتزاجهما ، فقال [36] : " ... على أني ما اجهل منفعة العتاب ، ولا أنكر مرافقه بين الأحباب ، ولا اشك في انه يطري خلق الود ، ويجلو غيرة العهد ، ويداوي أدواء القلوب ، ويترجم عن خفيات الغيوب ، وانه الأنموذج بين الأولياء والأعداء ، والجسر بين المدح والهجاء ، والمصلح للعشرة الفاسدة ، والمقرب بين الديار المتباعدة ... جمع الشمل ، وجدد الوصل ، وصقل ما صدئ من العشرة ، وأزال ما وقع من الفترة... ". وما اصدق ما نقله ابن قتيبة

---

[33] أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه (رسالة ماجستير) :166 .

[34] ينظر كتاب : النثر الفني في القرن الرابع: 200/1 .

[35] النثر الفني في القرن الرابع : 200/1 .

[36] رسائل أبي بكر الخوارزمي :223 ، (والرسالة هي إحدى رسائله الجوابية التي بعثها إلى كاتب صاحب الجيش) .

الدينوري [37] (ت 276 هـ) عن أبي الدرداء في قوله : " معاتبة الأخ خير من فقده ، ومن لك بأخيك كله " . ولعل هذا ما يفسر لنا ما ورد في بعض الأمثال السائرة " ويبقى الود ما بقي العتاب " [38] .

وهكذا فان حقيقة العتاب وكنهه وأساسه المودة ، وغايته إصلاح ما فسد منها ، يرأب به الصدع ، ويداوي الجراح [39] .

ومن هنا ظل العتاب ، وعلى مدى عصور الأدب ، النجوى الهامسة بين الأصحاب والأتراب [40] . قال رجل لترب له يعاتبه ويناجيه [41] : " ما أشكوك إلا إليك ، ولا أستبطئك إلا لك ، ولا أستزيدك إلا بك ، فأنا منتظر واحدة من اثنتين : عتبى تكون منك ، أو عقبى الغنى عنك " .

لقد احسن كثير من كتاب الرسائل الاخوانية في هذا القرن استخدام غرض العتاب استخداما ذكيا ودقيقا ؛ لبلوغ غاياتهم ، والتعبير عن مراميهم المختلفة وأماطوا اللثام عن كثير من القضايا الشخصية ، والعادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في المشرق الإسلامي أبان هذا القرن .

وطبقا لهذه الحقيقة المهمة ، فقد اكتسبت تلك المكاتبات الاخوانية التي انصبت على العتاب واللوم ، قيمة أدبية وتاريخية كبيرة ؛ لما حوته من مزايا فنية، ومثل إنسانية ، وتقاليد اجتماعية ، أمدت الكثير من علماء الاجتماع والسياسة والتاريخ بوثائق مهمة ساعدتهم كثيرا على سبر أغوار المجتمعات الإسلامية في تلك الأقاليم النائية في هذا القرن .

---

[37] عيون الأخبار: 3/28-29 .

[38] ديوان المعاني : 1/161 .

[39] أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه (رسالة ماجستير) :263 .

[40] على أن هناك من الحكماء ، ومصنفي كتب الأدب ، من يبخس العتاب موقعه في الاخوانيات ، ومما قالوه في ذمه مثلا : (العتاب رسول الفرقة ، وداعي القلى ، وسبب السلوان ، وباعث الهجران) تراجع التفاصيل في : ديوان المعاني:1/169 .

[41] عيون الأخبار: 3/29 . والعتبى : الرجوع إلى الرضى .

أما مضامين رسائل العتاب ، وطبيعة المعاني والأفكار التي تضمنتها ، وأسلوب لغة العتاب ، وحدة لهجته أو رقتها ، فما من شك في أن ذلك كله يتوقف على أمرين مهمين هما :

(الأول) : دوافع العتاب وأسبابه التي حفزت الكتاب لإنشائه .

(الثاني) : شخصية المرسل إليه ، وطبيعة موقعه السياسي أو الاجتماعي .

فحين تكون دوافع العتاب مثلا : عدم المواصلة أو انقطاع المراسلات بين الأديبين التربين ، أو ضآلة حجم الرسالة المرسلة [42] ، وتكون شخصية المرسل إليه من الأقارب أو الخلان ، أو من التلاميذ المقربين ، تكون لهجة العتاب في الرسالة غالبا رقيقة هادئة ، وقد تقترب أحيانا إلى المناجاة والحنو والمداعبة الهامسة .

كتب الوزير أبو محمد المهلبي إلى أبي القاسم الصاحب بن عباد في فصل من رسالة له يعاتبه ، ويطلب إليه مواصلته ، يقول [43] : " ذهبت عن مودتي ذهابا أساء ظني فلم ؟ واستحللت محرما من الهجران فبم ؟ وزدت في شدة الشوق والقطيعة فإلأمَ ؟ وأعطيت الجفاء أوفى حظوظه ، فهل تقلع ؟ وان خرجت عليك فيما أبيت ، فما تصنع ؟ إن رأيت أن تواصلني بعدها فعلت ، إن شاء الله عز وجل " .

ولا يخفى ما في هذه المناجاة الهامسة من رقة الأحاسيس وصدق المشاعر، على الرغم من حرص الكاتب على التأنق في صياغة رسالته ، وبراعته الفائقة في توظيف التكرار وترديد الاستفهام بلباقة وانسجام .

---

[42] ينظر على سبيل المثال : رسالة الصاحب بن عباد إلى بعض خلانه يعاتبه في صغر كتابه إليه : ديوان المعاني: 164/1 ، ورسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أبي الحسين علي بن داية يعاتبه على انقطاع مراسلته : رسائل أبي بكر الخوارزمي :36-37 ، ورسالة الخوارزمي أيضا إلى تلميذ له يعاتبه لجفائه وعدم مواصلته ، رسائل الخوارزمي :191 ورسالة الأمير قابوس بن وشمكير إلى الوزير ابن العتبي في تأخر الجواب وإبطاء الرسول كمال البلاغة :34-36 .

[43] دمية القصر وعصرة أهل العصر : 223/1 .

ومن عيون الرسائل الاخوانية في هذا الجانب أيضا ؛ ما كتبه الشريف الرضي إلى بعض أصدقائه من الوجهاء والرؤساء ، بعقب وفاة صديقه أبي إسحاق الصابي ، يعاتبه فيه على تأخير مكاتبته ، والرسالة طويلة تضمنت قضايا شخصية أخرى ، وقد استهلها الرضي بقوله [44] : " كتابي – أطال الله بقاء مولاي ورئيسي ، وأدام عزه وتأييده ، وكفايته ونعمته – عن شوق إلى عوارض أوطاره، وعتب عليه في تأخير مكاتبته ، لا تنفع عوائده وبداءاته ، ولا تنجع رقاه ونفثاته؛ لأنني قد جربته معه – أدام الله عزه – على مرور الأوقات ، واختلاف الحالات، فكلما ضاعفت له ظلامة وشكوى ، أضعف علي بهما تضعضعا وبلوى ، وكلما أسلفته إكباباً ومواظبة ، أوسعني إغبابا ومقاطعة ... " .

والرسالة طويلة ، وهي آية من آيات البلاغة ، وجمال الأداء ، وحسن التأتي ، ورصانة البناء ، وجزالة الألفاظ ، فضلا عن عناية الكاتب بالسجع – دون تكلف – وألوان البديع الأخرى ولاسيما الطباق والتكافؤ والاعتراض وغيرهما .

وقد تكون دوافع العتاب ؛ ما يقع بين بعض الأدباء الكتاب وأقاربهم أو أترابهم من جفاء أو قطيعة ، بسبب الوشاية والوشاة أو غير ذلك من أسباب ، أو ما يقع بين الأديب وبعض لداته من الوزراء أو الأمراء ، من جفوة أو خلاف ، قد يجر إلى التقالي والإهمال أو التغاضي ، وفي أكثر هذه الأحوال تكون لهجة العتاب في المكاتبات الاخوانية تميل إما إلى التلطف والاستمالة ، أو الترفق في التعبير والأسلوب [45] . وإما أن تميل لغة الرسالة إلى التضرع والتذلل ، مع الإفراط في

---

[44] رسائل الصابي والشريف الرضي :103–112 .

[45] ينظر مثلا رسالة الأمير قابوس إلى خالهِ الاصبهبذ ، وكان قد سأله حاجة تعذر إسعافه بها فوقعت بينهما موجدة ، كمال البلاغة :53–57 ، وأوردها أيضا العسكري في ديوان المعاني 1/86–88 مع اختلاف غير كثير بين النصين ، وينظر أيضا ؛ رسالة الصابي في عتاب ابن عمه أبي الخطاب الصابي : أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه :168 .

المبالغة[46] ، وإما أن تميل لهجة العتاب إلى المخاشنة أو التحدي ، كما تطالعنا في ذلك طائفة من رسائل بديع الزمان الاخوانية [47] .

(ثالثا) : التعازي والتأبين والمواساة :

وهي من الأغراض أو المقاصد الجليلة التي طرقها كتاب الرسائل الاخوانية في هذا القرن ، وقد كثر هذا اللون من المكاتبات الاخوانية ، وشاع تبادله بين الأهل والأقارب ، أو الأصدقاء والخلان ؛ تعبيرا عن مشاعر الحزن والأسى ، لما ألم بهم من مصاب جلل ، بفقد عزيز من ذويهم أو أترابهم ، وتصويرا لكوامن الحرقة والألم التي خلفتها أهوال الفجيعة ، وعظم الرزية ، حيث الفراق الدائم ، والرحيل الأبدي عن عالم الوجود .

ويغلب على هذا الضرب من الرسائل الاخوانية عادة ؛ صدق الأحاسيس ، وعمق المشاعر ، وتتسم أيضا بالبلاغة وجمال الأداء ، والميل إلى الإسهاب دون إفراط ، والحرص على انتقاء الألفاظ الرقيقة الموحية ، والمعاني المؤثرة ، مع دقة المسلك ، وبراعة التخلص إلى الغرض المراد .

ولعل من روائع ما يطالعنا من رسائل التعزية المؤثرة في هذا القرن ؛ رسالة أبي إسحاق الصابي إلى عمه يعزيه عن ابنه الراحل أبي الخطاب الصابي ومما ورد في هذه الرسالة قوله [48] : " عزيز علي يا سيدي أن مد لك ولي في العمر ، حتى نتكاتب بالتعزية ، عمَّن أملنا أن يكون وارث أعمارنا ، والباقي بعدنا، أبي

---

[46] تراجع بعض رسائل أبي بكر الخوارزمي ؛ رسالته إلى رئيس دامغان :228 ، ورسالته أيضا إلى وزير الأمير قابوس بن وشمكير :28 ، ورسالته أيضا الى خوارزم شاه :222 ، ورسالته إلى محمد بن حمزة رئيس خوارزم :193 .

[47] ينظر رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى أبي نصر الميكالي يعاتبه فيها : زهر الآداب وثمر الألباب 310/1-311 ، ورسالته أيضا إلى أبي القاسم الكرخي في العتاب ؛ المصدر نفسه: 862/3-863 ، ورسالته أيضا إلى بعض الرؤساء في العتاب : المصدر نفسه: 1042/4-1043 ، ورسائل أخرى له كثيرة في مجموع رسائله .

[48] رسائل أبي إسحاق الصابي (مخطوط بدار الكتب المصرية أ – ب) بدلالة رسالة الباحث مهدي صالح البدري الموسومة : أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه :176 .

الخطاب – نضر الله وجهه ، وأحسن منقلبه ، وصفح ورضي عنه – فما أعظمها من مصيبة ، وأمضها من نائبة . والله الشاهد أنني منذ ثلاث لا أطعم غذاء ولا غمضة ، ولا أعرف قرارا ولا هداوة ... " .

ولعل القارئ لهذا الفصل القصير من هذه الرسالة يتلمس بوضوح ؛ جنوح الكاتب إلى الفطرة والطبع ، بعيدا عن التصنع والتكلف ، أو اللهث وراء السجع وطلب ألوان البديع ؛ مجاراة لسنن أهل العصر في الحرص على العناية الفائقة باللفظ ، وموسيقى التراكيب ، وجرس الكلام .

ومن عيون رسائل التعازي بين الأصدقاء والخلان في هذا القرن أيضا ؛ رسالة الشريف الرضي إلى صديقه الحميم أبي إسحاق الصابي ، يعزيه عن ابنه الأكبر أبي سنان ، وهي رسالة طويلة في العزاء والندب ، ومما جاء فيها قوله[49]: " ... إلى كم – جعلني الله فداك – هذا الهم والجزع ، وفيم هذا القلق والهلع ، وأنت المرء يوصف حلمه ، والجليد يعرف حزمه ، والصبور على تحامل النكبات ، المذلّة والقوي على قراع الرزيات ... وإنما نحن من المنون على خطر المزلة يعيد الهوة ، ومن الدنيا بمدرجة سيولها ، ومستن خطوبها ، تحدو بنا حدو الهدي إلى النحر ، وتقود ناقود العناة في الأسر ونحن مؤثرون إنضاء الليالي وإمضاء الأيام البواقي ، وهي ركائب تسري بنا إلى الآجال ، وأمراس تجذبنا إلى دار الجزاء بالأعمال ، وبينا هذه الدنيا ترضعنا درتها ، وتصرح لنا عن زبدتها ، وتلحفنا فضل جناحها ، وتغرنا بركود رياحها ، وتغذينا بما نستمرئه برهة ، ونستمره مدة ، ونستحليه أوانا ونستوبيه آونة ، حتى تعطف علينا عطف الضروس ، وتضرحنا ضرح الشموس وتريق ما حلبت من النعيم بضروب ما جلبت من الهموم ... " .

والرسالة ، كما أشرت آنفا طويلة ، وهي آية في صناعة الترسل ، وفن البلاغة ، وطرفة أدبية نادرة ، تميزت بجمال الأداء ، وجزالة الألفاظ ، ومتانة التراكيب ، وقوة المعاني وجلالها وعمقها ، واتساق الأفكار ، واتقاد العاطفة وجموحها ، ورقة المشاعر وصدقها ، وروعة الصور وسمو الخيال ... وهي أيضا أنموذج راق

---

[49] رسائل الصابي والشريف الرضي :64 ، 67 .

لرسائل العزاء والندب بين الأتراب ، تكشف بجلاء عن عمق أواصر الود والمحبة بين طبقة الأدباء في هذا القرن [50] ، من خلال هذا النشيج المتدفق الذي يضوع من ثنايا سطور هذه التحفة الأدبية النادرة ، فضلا عما حوته من مضامين فكرية عميقة ، وآراء فلسفية دقيقة تتصل بحقيقة الحياة وكنهها ، وفلسفة الفناء والخلود .

ولم يقتصر تبادل هذا اللون من المكاتبات الاخوانية في هذا القرن على الأقارب والأصدقاء ، وإنما تجاوزه إلى الرؤساء والأمراء والوزراء ومن ينوب عنهم من فئة الطبقة الخاصة [51] .

لقد فرضت العلاقة الوطيدة بين أدباء هذا القرن ، وحكام الممالك المستقلة ، وصلتهم الوثيقة بأتباعهم من الأمراء والوزراء وقادة الجيش وغيرهم ، فرضت مشاركتهم في السراء والضراء ؛ فهم يهنئونهم بتولي المناصب الرفيعة ، وعند حلول الأعياد ، أو تحقيق الانتصارات الباهرة – كما سيأتي تحليله في الصفحات التالية – وهم أيضا يعزونهم إذا ما ألم بأحدهم خطب فادح ، أو مني بعضهم بفقد عزيز راحل ، وههنا يكتب الأديب لمليكه ، أو ولي نعمته ، معزيا أو مؤبنا ومواسيا.

وغالبا ما يتشح هذا اللون من الرسائل الاخوانية بالمبالغة ، وشحوب العاطفة وبرودها ، وغلبة طابع التكلف ؛ لما يحرك أكثر أولئك الأدباء في تلك المراثي من دواعي الملق والتزلف ، والنفاق السياسي ، وجنوح أكثرهم عن الطبع، والميل الواضح إلى الزخرف اللفظي ، أو الصنعة المفرطة ، والعناية بالسجع ، وألوان البديع ، وموسيقى الكلام وجرسه .

---

[50] ونظير هذه الرسالة الاخوانية في العزاء والندب والتأبين في هذا القرن ؛ رسالة اخوانية لأبي القاسم الصاحب بن عباد يؤبن فيها أبا محمد يحيى بن محمد بن زيادة العلوي . ينظر رسائل الصاحب بن عباد :144–151 (الباب العاشر : في التعازي) .

[51] انفردت نسخة مخطوطة (أبي إسحاق الصابي) بدار الكتب المصرية ، بنشر أربعين رسالة تعزية للصابي ، بعضها ديوانية وبعضها الآخر اخوانية . (ينظر رسالة : أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه (رسالة ماجستير) :175–174 .

ويمثل الكثير من رسائل التعزية لأبي بكر الخوارزمي [52] ، وبديع الزمان الهمذاني [53] وأبي إسحاق الصابي [54] في هذا القرن ، نماذج مهمة لهذا الضرب من رسائل الصنعة ، والعناية الواضحة بالزخرف اللفظي وألوان البديع .

ومن الشواهد الواضحة التي تدلل على آثار التكلف الغث والمبالغة والإفراط في الصنعة ؛ طلبا للبديع ؛ ما كتبه أبو بكر الخوارزمي إلى الملك ، لما أصيب بابنه عن خوارزم شاه يعزيه [55] : " كتبت وأنا مقسم بين فرحة وترحة ومردد بين محنة ومنحة ، أشكو جليل الرزية ، وأشكر جزيل العصمة ، وأسأل الله تعالى للأمير الماضي الغفران والرحمة ، وللأمير السيد التأييد والعصمة ... والحمد لله الذي كسر ثم جبر ، وسلب ثم وهب ، وابتلى ثم أولى ، وأخذ ثم أعطى، كتب على المشرق خاصة ، بل على الدنيا كافة ، أن تطمس آثارها وتظلم أقطارها ، وتهب ريح

---

[52] تراجع رسائل التعزية للخوارزمي : فصل من رسالة إلى أبي عامر عدنان بن محمد الضبي يعزيه : يتيمة الدهر : 298/4 ، ورسالته أيضا إلى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له : رسائل الخوارزمي :25-26 ، ورسالته أيضا إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وبنته : رسائل الخوارزمي :29-32 ، ورسالته أيضا إلى كثير بن احمد يعزيه عن ابنة له :رسائل الخوارزمي :78-79،ورسالته إلى ملك خوارزم لما أصيب بابنه من خوارزم شاه : رسائل الخوارزمي :198-199 ، ورسالته إلى أبي طاهر وزير أبي علي بن اليأس بكرمان : رسائل الخوارزمي :205-206 .

[53] تراجع رسائل الهمذاني في التعزية : رسالة الهمذاني إلى الشيخ الأمام أبي الطيب يعزيه : رسائل الهمذاني :120 ، ورسالته إلى أبي عامر عدنان الضبي ببعض أقاربه / رسائل الهمذاني :212-214 ، وتراجع أيضا في زهر الآداب: 508/2-509 مع اختلاف في النص ، ورسالته إلى أبي الحسن الحميري يعزيه بغلام : رسائل الهمذاني :258-259 ورسالته إلى الشيخ أبي نصر يعزيه وينصحه : رسائل الهمذاني :531-533 .

[54] تراجع رسالة الصابي إلى أبي الفتح ابن العميد يعزيه بوفاة أبيه : رسائل الصابي – أ مخطوط بدار الكتب المصرية ، بدلالة رسالة أبي إسحاق الصابي حياته وأدبه :175 وينظر أيضا رسالة الصابي إلى محمد بن عباس يعزيه عن طفل : زهر الآداب وثمر الألباب : 957/4-958 .

[55] رسائل أبي بكر الخوارزمي :198-199 .

الخراب عليها ، وتنظر عين الكمال إليها ، حتى ذبلت شجرة المملكة ، ووهن ركن الملة ، وطرف ناظر الدولة ، وانثلم جانب الدعوة ... " .

وهكذا يتضح ، من خلال هذا النص ، عناية كتاب الرسائل الاخوانية في هذا القرن ، بموسيقى الكلام وجرسه ، مراعين في ذلك مجاراة تيار العصر في إخراج فصول رسائلهم أنغاماً موسيقية رائقة شبيهة بالشعر في إيقاعها ، فضلاً عما جلَّل أكثر فصول تلك الرسائل التأبينية من ملق ، ومجاملات غثة ، على الرغم مما بدأ على بعضها من حزن متصنع .

ومن رسائل التعزية والمواساة التي تجللت بالتكلف والمبالغة ، واتشحت بالصنعة واستخدام ألوان البديع أيضا ؛ ما ورد في رسالة بديع الزمان الهمذاني التي كتبها إلى أبي عامر الضبي يعزيه عن بعض أقاربه [56] :

" إذا ما الدهر جر على أناس حوداثه أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى إذا ساء ، ويختص بالنعمة إذا شاء ، فلينظر الشامت فأن كان أفلت فله أن يشمت ، ولينظر الإنسان في الدهر وصروفه ، والموت وصنوفه ، من فاتحة أمره، إلى خاتمة عمره ، هل يجد لنفسه أثرا في نفسه أم لتدبيره ، عونا على تصويره ، أم لعمله ، تقديما لأمله ، أم لحيله ، تأخيرا لأجله ، كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا ، خلق مقهورا ، ورزق مقدورا ، فهو يحيا جبرا ، ويهلك صبرا... " .

ولم يقتصر تبادل هذا اللون من الاخوانيات وشيوعها على أدباء الإمارة البويهية في هذا القرن – كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين [57] – وإنما عم انتشارها في أقاليم الإمارات والممالك الإسلامية الأخرى ، كالإمارة الزيارية في طبرستان وجرجان ، والإمارة السامانية في خراسان ، وإمارة خوارزم شاه وغيرها .

---

[56] رسائل بديع الزمان الهمذاني ص212–213 ، وتراجع الرسالة أيضا في : زهر الآداب وثمر الألباب : 2/508–509 .

[57] تراجع التفاصيل في كتاب : الأدب في ظل بني بويه – د. الزهيري :202–204 .

ولعل الذي يدعم حجتنا في بسط هذه الحقيقة وتأكيدها ؛ أن بعض رؤساء تلك الممالك الإسلامية ووزرائهم كانوا أنفسهم من كبار كتاب الرسائل الاخوانية في هذا القرن ، ولعل في مقدمتهم : الأمير قابوس بن وشمكير ، والأمير أبو الفضل الميكالي [58] وغيرهما .

ويعد ما وصل إلينا من رسائل التعزية في (كمال البلاغة) [59] للأمير قابوس ذروة ما بلغه هذا الفن الأدبي من آيات الإبداع ، على الرغم مما حشده الأمير قابوس في رسائله من ألوان البديع ، وأفانين الصنعة الأخرى ، حتى عده بعض الباحثين المعاصرين [60] إيذانا لبدء مرحلة التصنع في النثر الفني العربي أواخر هذا القرن .

ومن نماذج روائعه النفيسة في التعزية ؛ ما كتبه إلى الصاحب بن عباد[61]: " علم الصاحب بما حدثه الدهر من حالتي إرضاء وإشكاء ، وإضحاك وإبكاء العلم الذي لا يحل النقص بواديه ، ولا يطور السهوبناديه ، ومن رام تعريفه ما ليس عنده ، وأراد – مما لم يسمعه – مزيده ، رام ما يعوز ، وأراد ما يعجز فخليق به إذا فجعه مفقود ، وفاته مودود ، أن يتلقاه بقوة إيقانه ، ويتوقاه بجنة جنانه ، ويتسلى عمن

---

[58] يراجع ما أختاره الثعالبي في اليتيمة من كتاب أبي الفضل الميكالي الموسوم بالمخزون في باب الاخوانيات : يتيمة الدهر 4/412–415 ، وغيرها من الأبواب الأخرى ، وتراجع رسائل التعزية للميكالي : رسالته في تعزية الأمير ناصر الدين ؛ زهر الآداب : 3/745 وله فصل من رسالة تأبين عن أبي العباس بن الأمام أبي الطيب ؛ زهر الآداب : 4/1025 ورسالة تعزية إلى أبي عمرو البختري ؛ زهر الآداب : 4/1141 .

[59] تراجع رسائل الأمير قابوس في التعزية : رسالته إلى أبي الفضل ابن العميد في التعزية كمال البلاغة :39–41 ، ورسالته أيضا إلى الوزير ابن العتبي يعزيه ؛ كمال البلاغة :48–49 ، ورسالته في التعزية إلى الأمين علي بن الفضل ، كمال البلاغة :51–52 ورسالته إلى أبي الفتح ذي الكفايتين في التعزية ؛ كمال البلاغة :62 ، وتراجع رسالتان له أيضا في التعزية إلى الوزير الصاحب كمال البلاغة :70–71 ، 72–73.

[60] تراجع التفاصيل في كتاب : الفن ومذاهبه في النثر العربي :229 .

[61] كمال البلاغة :72–73 .

ساءه به حلول الرزية ، بسلامته التي هي زناد كل مزية جبر الله مصابه بجزيل الأجر ، وجنب جنابه غوائل الدهر ، وصرف عنه أيدي صرفه ، وطرف دونه عوادي طرفه ، بمحمد وآله وعترته " .

ويطالعنا الأمير الأديب في هذه المرثاة النثرية – كما في أكثر رسائل التعزية التي سبقت الإشارة إليها – ميالا إلى العزاء ، لا إلى التأبين والندب [62] فهو لا يبكي الفقيد ، ولا يثني على فضائله ، ولا يبكي الأهل أو الأقارب الذين عصف بهم شبح الردى ، وإنما ينفذ من هذا المصاب الجلل إلى التأمل في حقيقة الموت والحياة ، وقد ينتهي به هذا التأمل إلى معان فلسفية عميقة ، وكثيرا ما يستدرجنا معه لنجوب في التفكير بفلسفة الوجود والعدم والخلود .

ويستوقفنا في هذه الرسالة الأدبية أيضا ؛ نزعة متأثرة بمفاهيم الدين الإسلامي ، وقيمهِ وتعاليمه النبيلة ، تلك هي التسليم لله تعالى ، والإيمان المطلق بقدره ، والرضا بقضائه ، احتسابا وطلبا لثوابه ورحمته .

ومن فصول رسائل العزاء والتأبين النادرة التي وصلت إلينا لأبي القاسم الإسكافي – وهو أحد أشهر أدباء الإمارة السامانية في هذا القرن – ما كتبه إلى الأمير أبي طاهر وشمكير بن زيار يعزيه عن أحد أعوانه في تدبير شؤون إمارته، ومما ورد في هذه المرثاة النثرية قوله [63] : " ترامى إلينا خبر مصابك بفلان ؛ فخلص إلينا من الاغتمام به ما يحصل في مثله ممن أطاع ووفى ، وخدم ووالى ، وعلمنا أن لفقدك مثله لوعة ، وللمصاب به لدغة ؛ فآثرنا كتابنا هذا إليك في تعزيتك ، على يقيننا بأن عقلك يغني عن عظتك ، ويهدي إلى الأولى بشيمتك ، والأزيد في رتبتك ، فليحسن – أعزك الله – صبرك على ما أخذه منك ، وشكرك على ما بقي لك ، وليتمكن في نفسك ما وفر لك من ثواب الصابرين ، وأجزل من ذخر المحسنين ،

---

[62] يراجع في حد هذه المصطلحات الأدبية ومعانيها كتاب : الرثاء للأستاذ شوقي ضيف . (سلسلة فنون الأدب العربي – الفن الغنائي) ط دار المعارف بمصر . ط2 1955 : .

[63] زهر الآداب وثمر الألباب: 1110/4 .

وليرد كتابك بما ألهمك الله تعالى من عزاء ، وأبلاكه من جميل بلاء ، إن شاء الله تعالى ".

ويبدو بوضوح أن هذه الرسالة النادرة قد جمعت بين معاني العزاء والتأبين، إلا أنها خرجت عن بعض التقاليد الفنية المتبعة في رسائل العزاء والتأبين بخاصة ، وهي الإفاضة في بسط الفكرة التي يسوقها الكاتب ؛ لتسلية المخاطب ، وتخفيف أهوال الفاجعة عليه ، بالنفوذ إلى حقيقة الحياة ، وطبيعة الوجود ، وحتمية الفناء ، وقدر الموت والعدم .

ولعل ما يمكن أن يسجله الباحث على هذه المرثاة النثرية من مآخذ أيضا شحوب العاطفة التي جللت النص ، وبرود المشاعر التي تبددت في هذه الرسالة عبر تلك الأوامر المتتالية التي وجهها الكاتب دون إشعار المخاطب بلمحة تواضع ولحمة تراجع إزاءه ، وهو يزجي إليه – دون مسوغ – أوامره ، ثم ما أختتم به فصل رسالته ، بوجوب كتابة الجواب ، وهذا ما لا يقتضيه المقام ، والحالة النفسية التي يتقلب فيها قعيد المأتم الحزين .

وهكذا يتضح مما عرضته من فصول رسائل التعزية والمواساة ، لأدباء هذا القرن ؛ أنه كان يغلب على أكثر نصوص هذا اللون من المكاتبات الاخوانية العناية الواضحة بالصياغة والأسلوب ، والجنوح غالبا إلى الإطالة دون إفراط .

أما مضامين هذا اللون من الرسائل الاخوانية ، فلعل أدق ما يستوقفنا من ذلك ، هو تفاوت تلك الرسائل بين قوة العاطفة وصدق الأحاسيس ، وبين ما غلب على بعضها الآخر – وهو ما كتب إلى أولي الأمر من المخاطبين – من التكلف ، والميل عن الطبع والسليقة الصافية إلى الصنعة المفرطة ، والعكوف على طلب الزخرف اللفظي ، ولاسيما السجع وألوان البديع الأخرى ، بلوغا إلى تحقيق أكبر قدر من الإيقاع والموسيقى في لغة النص الأدبي .

(رابعا) التهاني :

وهي من الأغراض أو المقاصد الشائعة التي عالجتها المكاتبات الديوانية[64] فضلا عن الرسائل الأدبية في هذا القرن ، على حد سواء ؛ فلقد دعت العلاقة الوطيدة بين كثير من الأدباء وأولي الأمر من الرؤساء وأتباعهم في هذا العصر إلى أن يشاركهم الأدباء – وهم أمراء الكلام وصناعهِ – في أفراحهم ومسراتهم ، وهي كثيرة ومتنوعة ، ومن هنا فقد كثر هذا اللون من الرسائل [65] ، وتنوعت معانيها وضروبها ؛ فكانت رسائل التهنئة بالأعياد المختلفة ، كالنوروز والمهرجان والسذق وغيرها ، أو التهنئة بالانتصارات الباهرة ، وفتح القلاع الحصينة ، أو بتولي المناصب الرفيعة كالوزارة أو الولاية وقيادة الجيش وغير ذلك ، أو التهنئة بمولود جديد ، أو الشفاء من مرض وبيل ، وما إلى ذلك [66] .

وفضلا عما تقدم فقد اقتضت بعض الأواصر الاجتماعية المتينة التي ربطت بظلالها بعض الأدباء مع بعضهم [67] بوشائج الود والصفاء أيضا ، اقتضت مشاركتهم في أفراحهم ومسراتهم ، وتبادل التهاني مع بعضهم في تلك المناسبات الكثيرة المتنوعة والمتوالية .

---

[64] ينظر مثلا رسالة أبي الفضل ابن العميد إلى الأمير عضد الدولة يهنئه بولدين : زهر الآداب : 4/1120–1121 ، ورسالة أبي القاسم الإسكافي عن الأمير نوح بن نصر= =الساماني إلى أبي طاهر وشمكير بن زيار في استبطاء وتهنئة : المصدر نفسه 4/1121–1122 ، ورسالة الصابي عن عز الدولة إلى عضد الدولة يهنئه بمولود : صبح الأعشى 1/367–369 ، وغيرها كثير .

[65] ينظر على سبيل المثال ما كتبه الخوارزمي من رسائل التهاني إلى الأمراء والولاة في مجموع رسائله : 173–174 ، 200–201 ، 203–204 ، وغيرها كثير .

[66] تراجع فصول رسائل التهاني في المعاني المختلفة التي ساقها القلقشندي لأبي الفرج الببغاء وغيره من الكتاب : صبح الأعشى ج9 في مواضع كثيرة متفرقة .

[67] ينظر مثلا رسالة الصابي يهني فيها الشريف الرضي بعيد الفطر : رسائل الصابي والرضي :95–97 ، ورسالة الرضي الجوابية عليها :98–102 ، ورسائل كثيرة في التهنئة على غرارها .

ومن هنا ، فقد أشار القلقشندي إلى تشعب معاني هذا الضرب من الاخوانيات ، وذكر أنها لا تقف في ذلك عند حد معين ، ثم ذكر ، مع إدراج الشواهد النثرية الكثيرة ، أحد عشر ضربا من ضروب التهاني [68] .

لقد اتسمت رسائل التهاني – سواء أكان ذلك في المكاتبات الديوانية أم في الرسائل الأدبية (الاخوانية) – بالبلاغة ، وحسن التنسيق ، والدقة في الأداء ، فضلا عن العناية الفائقة بمقدماتها وخواتيمها ؛ ولعل ذلك يعود – كما ذكر القلقشندي أيضا [69] – إلى أن " كتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب ، ومنازلهم من الصناعة ، ومواقعهم من البلاغة " .

ثم أردف يقول ، مشيرا إلى جلال موقعها وخطورتها [70] : " وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة ؛ لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة والإبانة عن موقع الموهبة ، وتضاعف السرور بالعطية " .

وعلى الرغم من أهمية هذا اللون من الاخوانيات ، وخطورة موقعها في صناعة الترسل ، إلا أن بعض مصنفي كتب الأدب والنقد القدامى [71] ، قد أشار إلى حداثة فن التهاني ، وعدم قدم هذا اللون من الاخوانيات ، قياسا إلى ألوان الأدب الأخرى .

---

[68] تراجع التفاصيل في كتاب : صبح الأعشى في صناعة الانشا: 23/9 وما بعدها .

[69] صبح الأعشى في صناعة الانشا: 5/9 .

[70] المصدر نفسه : 5/9 .

[71] ينظر ما ذهب إليه أبو هلال العسكري في ديوان المعاني: 91/1–92 ؛ حيث ذكر أن التهاني لم تكن من الأقسام التي كانت العرب تصوغ فيها شعرا ، وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي . ثم أردف يقول : ((ولا أعرف للعرب شيئا ينسب إلى التهاني ، ومهما جاء عنهم من شكلها شيء فهو عند العلماء معدود في جملة المديح)) وأشار العسكري في موضع آخر (ديوان المعاني 95/1) إلى أن أول من افتتح المكاتبة في التهاني بالنوروز والمهرجان ؛ أحمد بن يوسف الكاتب، على عهد الخليفة المأمون .

لقد ازدهر هذا اللون من الاخوانيات في القرن الرابع ، وشاع شيوعا مطردا بين كتاب الرسائل الديوانية والأدبية – كما مر آنفا – وممن أكثر من رسائل التهاني في هذا القرن ، وبرع فيها ؛ الوزير الصاحب بن عباد [72] ، وأبو إسحاق الصابي [73] ، والأمير أبو الفضل الميكالي ، فضلا عن أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني اللذين يعدان من أكبر كتاب الرسائل الاخوانية في هذا القرن .

وقد أشار العسكري إلى براعة أبي القاسم الصاحب بن عباد في فصول التهاني فقال [74] : " وللصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد فصول في التهاني قليلة النظير ... " .

ثم ساق العسكري نماذج عديدة من فصول رسائله البليغة في التهاني ، لعل من روائعها قوله يهنئ أبا الفتح ابن العميد بالوزارة ، ومما ورد فيها قوله [75] : " أنا أهنئ – أطال الله بقاء سيدي – الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها ، وبلوغها في ظله إرادتها ، وانحيازها إلى ذراه واضحة المجد والفخر وتوشحها من كفايته بغره سائله على وجه الدهر ، واشكر له حسن أثره عليها ، وعطفه حنان الفكر إليها، حتى قرت لديه قرارها ، وأثقبت بيديه نهارها ، بعد أن هفا قلبها إشفاقا من استشراف أيادي النقص لها ، وحرج صدرها من تحدث أحلاس الجهل بها ... ".

---

[72] تراجع رسائل الصاحب بن عباد – الباب التاسع (في التهاني والأجوبة عنها وما يجري مجراها) :123–135 ، وينظر أيضا في رسائل التهاني للصاحب : يتيمة الدهر: 290/3 ، ديوان المعاني : 96/1 .

[73] يراجع ما أشار إليه العسكري في براعة الصابي بإيراد المعاني العجيبة في رسائل التهاني ؛ ينظر رسالته التي أوردها إلى رجل يهنئه بزواج أمه : ديوان المعاني: 100/1–112.

[74] ديوان المعاني : 96/1 .

[75] المصدر نفسه : 96/1 ، ويراجع النص أيضا في رسائل الصاحب بن عباد / الباب التاسع :132–133 مع اختلاف في النص .

ومن رسائل الصاحب الاخوانية في التهنئة أيضا ؛ ما كتبه إلى الأستاذ ابن العميد يهنئه بقدوم النوروز [76] وهي من حلل الاخوانيات البليغة المشهورة في هذا القرن .

ولأبي الفرج الببغاء [77] إلى بعض إخوانه يهنئه بصيام شهر رمضان ، ومما جاء فيها [78] : " عرفك الله بركة هذا الشهر المعظم قدره ، المشرف ذكره، ووفقك فيه لصالح الأعمال ، وزكي الأفعال ، وقابل بالقبول صيامك ، وبتعظيم المثوبة تهجدك وقيامك ، ولا أخلاك في سائر ما يتبعه من الشهور ، ويليه من الأزمنة والدهور ، من أمر تذخره ، وأثر تشكره " .

ويتضح جليا من تأمل هذه النصوص الأدبية ؛ عناية كتاب الاخوانيات في هذا القرن – وبخاصة رسائل التهاني – بانتقاء الألفاظ الرقيقة ، وحرصهم على جرس الكلام وموسيقاه ، واستخدام السجع ، وقصر الفواصل في رصف الجمل والعبارات ، فضلا عن استخدام ألوان البديع الأخرى التي كانت ديدنهم في هذا القرن .

ومن روائع رسائل التهاني في هذا القرن أيضا ؛ ما كتبه أبو إسحاق الصابي إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف يهنئه بقدوم النوروز ، ويلاحظ جلال المعاني ، وغلبة أسلوب الدعاء على الرسالة ، مع عنايته الواضحة بموسيقى الألفاظ والتراكيب ، ومما ورد فيها [79] : " أطال الله بقاء مولاي الأستاذ ، وأسعده بنيروزه الوارد عليه ، وأعاده ألف عام إليه ، وجعله فيه وفي أيامه كلها معافى سالما فائزا غانما مسرورا محبورا محروسا موفورا ، مختوما له ببلوغ الآمال مطروفا عليه عين

---

[76] ديوان المعاني : 97/1 .

[77] تراجع فصول رسائله الاخوانية في التهاني : صبح الأعشى في صناعة الانشا ج9 في مواضع كثيرة .

[78] صبح الأعشى في صناعة الانشا : 42/9 .

[79] ديوان المعاني:99/2 .

الكمال ، محظور الأفنية عن النوائب ، محمي الشرائع عن الشوائب ، مبلغا غاية ما تسمو إليه همته العالية المشتطة ، وأمانيه المنفسحة المنبسطة بقدرته " .

وهكذا يتضح مما استقريت من أكثر رسائل التهاني في هذا القرن ؛ أنه كان يغلب على أكثرها ، وحدة الغرض أو الموضوع ؛ ولهذا غلب هذا اللون من المكاتبات الاخوانية قصرها ، وجنوحها عن الإطالة .

كما غلب على أكثر هذه الرسائل أيضا : الدقة في اختيار الألفاظ ، وانتقاء المعاني الرائقة ، حتى كادت بعض فصول تلك الرسائل تقترب من فن الشعر في الصياغة والأداء وتكثيف المعنى .

كما غلب على كثير من رسائل التهاني – ولاسيما الموجهة إلى الرؤساء وأتباعهم من الوزراء والولاة – المبالغة والتهويل ، ولعل حرص كتاب الاخوانيات بخاصة ، وتعمدهم استخدام السجع ، وألوان البديع الأخرى ، مجاراة لسنة أهل هذا القرن ، ما عمق ظاهرة الغلو والمبالغة في كثير من معاني هذا الضرب من الرسائل الاخوانية في هذا القرن .

(خامسا) : الاعتذار :

ومن الأغراض أو المقاصد المهمة التي تناولتها الرسائل الاخوانية في هذا القرن أيضا ، الاعتذار . فقد تعاطى الأخوان والأصدقاء الاعتذار ، وتبادلوه في مكاتباتهم ؛ لسل السخيمة والأضغان من القلوب ، أو لتبرير فعلة كانت سببا للعتب أو اللوم أو القطيعة [80] .

لقد كثرت رسائل الاعتذار في المكاتبات الاخوانية في هذا القرن ، ولاسيما بين من تخصص بهذا اللون من الرسائل كأبي بكر الخوارزمي والهمذاني وأضرابهما

---

[80] ينظر على سبيل المثال ؛ رسالة أبي حيان التوحيدي الاعتذارية الجوابية التي كتبها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد ، الذي وبخه على ما أقدم عليه من إحراق كتبه ، وقبح تصرفه هذا ، فرد عليه التوحيدي برسالته المشهورة – وسيردّ ذكرها بعد قليل – يبرر بها عمله ، ويدافع عن فعلته . (تراجع الرسالة في : معجم الأدباء : 15/17–25) .

[81] ، على ما في الاعتذار من ذلة ، غير أنهم أدركوا أنه لابد منه بين الخلان والأتراب ، ولاسيما إذا أحس الأديب المرهف الحس ، بوقع الذنب منه ، وصدوره عنه ومقارفته له ؛ " لأن الإصرار على الذنب – كما يقول العسكري[82] – فيما بينك وبين خالقك هلكة ، وفيما بينك وبين صديقك فرقة وعند سائر الناس مثلبة وهجته ... " .

ومن هنا فقد ركب بعض الأدباء ، مع أترابهم ، كل صعب وذلول ؛ حفاظا للود ، ولم يستنكفوا من الاعتذار أو الخضوع والتذلل لهم ، يقينا منهم بأنه ربما استثير العز من تحت الذلة ، ورب محبوب في مكروه ، " والمجد شهد يجتنى من حنظل " [83] .

وقد شاع في الأمثال : والمعتذر من الذنب كمن لا ذنب له .

والاعتذار أيضا ، من الأغراض الشعرية القديمة [84] التي عرفها تراث العرب الأدبي ، ثم شاع استخدامه في النثر الفني ، ولاسيما في المكاتبات الاخوانية إبان هذا القرن ، وأصبح من مقاصدها المهمة المتداولة بين الأدباء والكتاب .

---

[81] ينظر مجموع رسائل الخوارزمي : رسالته الاعتذارية إلى أبي الحسن الحكمي ص34 ورسالته إلى أبن سمكة القمي :121–122 ، ورسالته إلى فقيه هراة :134–135 =ورسالته إلى ابن العميد الحاكم ص184–185 وتراجع للهمذاني في الاعتذار (مجموع رسائله في مواضع متفرقة) ، وينظر أيضا : رسالته إلى أبن مسكويه ؛ زهر الآداب 614/2–615 ، ورسالته إلى أبي علي إسماعيل : زهر الآداب : 613/2 ، ورسالته أيضا إلى أبي القاسم الكرخي ؛ زهر الآداب: 863/3 .

[82] ديوان المعاني : 216/1–217 .

[83] المصدر نفسه : 217/1 .

[84] ذكر العسكري في ديوان المعاني : 217/1 ، وهو يؤكد قدم هذا الفن ، مشيرا إلى براعة النابغة فيه ، حيث قال : " ولم يرو عن أحد قبل البالغة الذبياني في الاعتذار شعر فيه أجود منه " .

وقد تميزت الرسائل الاعتذارية في هذا القرن ؛ بجودة الأداء ، والبراعة في صياغة الألفاظ والتراكيب ، واستيفاء المعاني الدقيقة ، وتقصي الألفاظ الجامعة لمعاني العذر [85] .

كتب عبد العزيز بن يوسف في فصل من رسالة اعتذارية له إلى الصاحب ابن عباد يقول [86] : " وقفت على الأبيات التي أتحفني بها سيدي ، وتكلفت لجوابها ، على ظلع في خاطري لطول السفار ، واتصال حالي بالحل والترحال ، ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر مستأنفا على التقصير في جواب ما يأتيني من أمثاله ، ما دمنا في ملكة الهواجر ، وتعب البكر والأصائل " .

وكتب أبو هلال العسكري في فصل له في الاعتذار يقول [87] : " وسيلتي إليك ، الثقة بكرم أخلافك ، وشرف أعراقك ، وقد طلبت المسامحة منك بك ، وجعلت كرمك أقوى أسبابي إليك ، وقد خفضت لك جناح الذل في التنصل مما فرط ، فتفضل علي بالقبول لئلا يلحقني هجنتان : هجنة تذللي لك ، وأخرى ردك لي " .

وقد تميزت الاعتذاريات بين الأتراب والخلان بخاصة في هذا القرن بالاقتضاب والتركيز في بسط الدليل على صفاء الود ، والبراعة في سل السخيمة من الصدور ، وكان الكتاب يتوسلون بالشعر وتضمينه في مكاتباتهم ، لأدراك ما يتوخونه من تلك المعاني ، فضلا عن الإكثار من الجمل الاعتراضية الدعائية .

كتب بديع الزمان الهمذاني إلى أبي علي ابن مسكوبه يعتذر إليه وقد استهلها بالشعر [88] : " ويا عز إن واش وشى بي عندكم فلا تمهليه أن تقولي له : مهلا

كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا : تزحزح لا قريبا ولا أهلا

---

[85] تراجع على سبيل المثال فصول من رسائل اعتذارية لأبي القاسم علي بن القاسم القاشاني إلى الصاحب : يتيمة الدهر : 2/387-388 ، وفي بعض فصولها يعتذر للصاحب عن قصوره في الكتابة .

[86] يتيمة الدهر : 2/276 .

[87] ديوان المعاني : 1/220 .

[88] زهر الآداب وثمر الألباب : 2/614-615 .

بلغني – أطال الله بقاء الشيخ – أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ، ولا الصدق ظهوره ، وأنه – أدام الله عزه – أذن لها على مجال أذنه ، وفسح لها فناء ظنه ، ومعاذ الله أن أقولها ، وأستجيز معقولها ... ولولا أن العذر إقرار بما قيل ، وأكره أن استقيل ، لبسطت في الاعتذار شاذروانا ، ودخلت في الاستقالة ميدانا ، لكنه أمر لم أضع أوله ، فلم أتدارك آخره ... ولعل الشيخ أبا محمد – أيده الله – يقوم من الاعتذار بما قعد عنهُ القلم واللسان ؛ فنعم رائد الفضل هو ، والسلام " .

وقد يجنحُ بعض كتاب الرسائل الاخوانية إبان هذا القرن ، في اعتذارياتهم النثرية إلى الإطالة في سوق المعاني الموفية للعذر ، والاستفاضة في عرض الحجج والأدلة التي تدعم مواقفهم . ولنا في رسالة أبي حيان التوحيدي الاعتذارية – التي سلف ذكرها – خير شاهد على فيل كتاب الاخوانيات في اعتذارياتهم إلى الإطالة ، ولعل الأستاذ مصطفى الشكعة [89] كان محقا حين عد هذه الرسالة " من أنفس الرسائل حكمة وأسلوبا ومنطقا ودفاعا عن فعلة شنعاء ، وتبريرا لخطيئته النكراء " .

ومما ورد في هذه الرسالة الاعتذارية قوله [90] : " ... فليهن عليك ذلك فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله ، عز وجل ، فيه أياما وليالي، وحتى أوحى إلي في المنام بما بعث راقد العزم ، وأجد فاتر النية ، وأحيا ميت الرأي ، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع ، وتريع في الخاطر ، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت ، أو بالعذر إن استوضحت ، لتثق بي فيما كان مني ، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي ... " .

ثم شرع يصف حاله ، وما عاناه من شظف العيش ، ومرارة الحرمان وقسوة الوحدة ، وفقد الولد التجيب ، والصديق الحبيب ، والصاحب القريب والتابع الأديب ، والرئيس المنيب ، ملمحا بهذا كله إلى أن المستحقين للبقايا على الكتب لا وجود لهم . يقول أبو حيان [91] : " ... ومما شحذ العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، أني فقدت

---

[89] معالم الحضارة الإسلامية :184 .

[90] معجم الأدباء : 15/17-18 ، وتريع أي تحير وتردد .

[91] معجم الأدباء : 15/19 .

ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبا ... فأن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟ فجرا بي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد ؟ ولا ظهر ني من إنسان منهم حفاظ ... " .

وبعد أن يبرز الكاتب سبب فعلته باقتدائه بمن سبقه من أئمة العلم الذين أقدموا على إتلاف كتبهم أو حرقها ، وأن في صدره من وعاء العلم ما يغنيه عن تلك الكتب ، يخلص إلى النتيجة التي يحاول بها إقناع القاضي ، وإقناع القارئ، وهي أن خير ما يخلد الإنسان هو العمل الصالح ، والزهد بالدنيا ، وإخلاص المعتقد . يقول أبو حيان في ختام هذه الرسالة الاعتذارية القيمة [92] : " ... وماذا أقول وسامعي يصدق أن زمانا أحوج مثلي إلى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزنا وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوى وضنى وشجى ... وهل أدرك السلف الصالح في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح ، وإخلاص المعتقد ، والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج ... وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب ؟ وهل المفهوم بها إلا كالحريص الجشع عليهما ؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرهما ؟ هيهات الرحيل والله قريب ، والثواء قليل والمضجع مقض ، والمقام ممض ، والطريق مخوف ، والمعين ضعيف ، ... وهو تعالى أملك لنواصينا ، وأطلع على أدانينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر وبيده الكسر والجبر وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر والسلام " .

(سادسا) الثناء والشكر والحث على المواصلة :

ومن الأغراض أو المقاصد المهمة التي شاع تناولها في المكاتبات الديوانية[93] ، والرسائل الاخوانية في هذا القرن أيضا ؛ الثناء والشكر والحث على المواصلة .

---

[92] المصدر نفسه : 15/22-25 .

[93] ينظر مثلا : الباب الثاني عشر (في التشكر وما يشاكله) في مجموع رسائل الصاحب ابن عباد :163-173 ، وينظر أيضا رسالة الإسكافي في الشكر والثناء عن الأمير نوح ابن نصر الساماني إلى أبي طاهر وشمكير بن زيار يشكره على حميد سيرته : زهر الآداب وثمر الألباب : 4/1108-1109 .

لقد تبادل كتاب الاخوانيات وغيرهم في رسائلهم معاني الثناء والشكر تعبيرا عن مواقف الرضى والامتنان للأصدقاء والخلان أو غيرهم ؛ لما أسدوه من إفضال ، أو ما قاموا به من إنجاز مطلوب كلفوا به . فالشكر نسيم النعمة ، كما قال ابن المقفع [94] ، وقد يكون تبادلهم لتلك الرسائل حرصا على دوام الوصال والألفة ، أو دفعا للخصام والفرقة ، وقديما قال بعض الحكماء : " إذا قصرت يدك على المكافأة ، فليطل لسانك بالشكر " [95] .

لقد تناقلت المصادر كثيرا من الرسائل الاخوانية التي انصبت على موضوع الثناء والشكر والحث على المواصلة ، وقد كانت دوافع الكتاب لإنشاء تلك الرسائل عديدة ومتباينة ، ويمكن رصد أهمها كما يأتي :

(1) الثناء والدعوة إلى المواصلة إعجابا بشخصية المرسل إليه ، وتقديرا لوفائه، وتثمينا لكفاءته ، أو اعتزازا بمواقف سابقة له مع منشئ الرسالة .

ومما يطالعنا من مكاتبات اخوانية في هذا الجانب ؛ رسالة الوزير أبي محمد المهلبي إلى صديقه أبي الفضل العباس بن الحسين – وكان بينهما تواصل – وعندما استوزر المهلبي عام 340 هـ ، بعد وفاة أبي جعفر الضيمري ، فكتب إليه يدعوه إلى مواصلته [96] : " بسم الله الرحمن الرحيم إني – حفظك الله وحفظني لك ، وأمتعك بي وأمتعني بك – قد بلوتك طول أيام أبي جعفر ، قدس الله روحه ، فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل إليك ، كتوما للسر إذا استحفظته ، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه . وقد حداني هذا كله على اجتبائك وتقريبك ، وإدنائك وتقديمك ، وغالب ظني أنك تعينني على ذلك بميمون نقيبتك ، ومأمون ضريبتك ... " .

---

[94] ينظر ديوان المعاني : 104/2 .

[95] عيون الأخبار : 159/3 ، ويراجع في هذا المعنى رسالة اخوانية للأمير قابوس إلى الصاحب بن عباد : كمال البلاغة :63 .

[96] رسالة الصداقة والصديق : 70–71 .

ونظير ذلك أيضا ؛ ما كتبه الأمير قابوس إلى أبي القاسم الصاحب بن عباد يشكره ويثني عليه ويشيد بشخصيته [97] : " الشكر ذكر المحسن بإحسانه، والخروج من حقه بإذاعته وإعلانه ... وسعي الصاحب مستغنٍ عن ذلك التفتح أنواره وإشراق، نهاره ، فقد ملأ العيون عيانه ، وصار طلاع الأرض عنوانه ، وأصبح في مواسم الذكر أذانا ، وعلى معالم الشكر لسانا ... ".

(2) وقد يكون الباعث لتقديم الشكر والثناء عمق الوشائج ، وما يصاحب ذلك من صلات وهدايا متبادلة بين الأتراب والأصدقاء .

كتب أبو الفضل ابن العميد إلى محمد بن خلاد الرامهرمزي القاضي [98] : " وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعهدك ، فارتحتُ لكل ما أوليت ، وابتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذكري ووقفت عليها شكري ... " .

ويشاكه هذه الرسالة الاخوانية أيضا ؛ ما كتبه أبو إسحاق الصابي إلى الوزير الصاحب يشكره على صلته التي بعثها إليه مع أبي العباس أحمد بن الحسين وأبي محمد جعفر بن شعيب [99] . ونظيرها أيضا ما كتبه أبو الفرج الببغاء في رسالة شكر [100] : " وكأني أرى عواقب اشتمالك علي ، وتفقدك المتواصل إلي ، من مرآة العقل ، وبصيرة الذكاء والفضل ، إذ كانت إمارات الإقبال على حالي بك لائحة ، وشواهد السعادة لدي بعنايتك واضحة . [من الوافر]

فمن نظر يسارع في صلاحي ومن وصف يحث على نفاقي
فإنعام أسر من التداني على عدم أفضُّ من الفراق ".

---

[97] كمال البلاغة :63 .

[98] زهر الآداب وثمر الألباب :1/166-167 .

[99] تراجع الرسالة في يتيمة الدهر : 2/291-292 .

[100] المصدر نفسه : 1/308-309 .

(3) وقد يكون الباعث لإنشاء رسائل الشكر والثناء بين الأدباء أيضا : إسداء الإفضال ، أو أداء الخدمة بما هو مطلوب .

ومما وصل إلينا من الرسائل الاخوانية في هذا الجانب ؛ رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أبي نصر الميكالي في خراسان ، يثني عليه ويشكره على اصطناعه فقيها من تلاميذه [101] . ومن ذلك أيضا ؛ رسالة الأمير قابوس إلى الوزير ابن العتبي [102] ، ورسالة الأمير قابوس أيضا إلى أبي الفضل ابن العميد يثني عليه ويشكره على إفضاله ، ومما ورد منها قوله [103] : " لم يزل الأستاذ منذ تعارفنا ، وفي سبيل التصافي تصرفنا ، يرى السعي في مصالحي من أكرم مساعيه ، ورعاية العهد فيه من أهم ما يراعيه ، ويبذل لي نخيلة الود ومحولة خير ما يبذل ، ويجتني ثمرة الفؤاد وكل جميل يجنيه يذبل ، إلا أن ما تجشمه آنفا زاد في مواقع الاعتداد واستنفد في الشكر مبالغ الاجتهاد ؛ لأنه قضى حق الكرم بما تحمله من العناء ، ونفى من الفضل فيما أتاه سمة الاستحياء ... " .

(4) وقد يكون الباعث لهذا الضرب من الرسائل الاخوانية ؛ جود المكتوب إليه، وما يسبغه من أياد بيضاء حفزت الأصدقاء والأتراب على تحبير رسائل الثناء والشكر

ومما وصل إلينا من الاخوانيات في هذا الجانب ؛ ما كتبه أبو هلال العسكري في الشكر والثناء ، إذ يقول في رقعة له [104] : " وتأملت التوقيع في معنى المعيشة فتصور لي الغنى بصورته ، وقابلني بصدق مخيلته ، وعرفت أن الدهر قد غضت جفونه ، ونامت عيونه ، وتنحت عن ساحتي خطوبه . وهذه نعم أعيا بذكرها ، فكيف أطمع في أداء شكرها ، بل عسى أن يكون الاعتراف بقصور الشكر عنها شكرا لها ، ومقابلة بما خلص إلي منها ، وأنا معترف بذلك اعتراف الروض بحقوق الأنواء ، وقائل به كما أقول بفضل الوفاء " .

أما ما تميزت به رسائل الشكر والثناء من مزايا فنية في هذا القرن ؛ فلعل أهمها ، تحلية الرسالة بالشعر العذب الرقيق ، وإدراجه في ثناياها ، إلى جانب النثر ، وغالبا ما

---

[101] ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي : 147-149 .

[102] يراجع كمال البلاغة : 47-48 .

[103] المصدر نفسه : 38-39 .

[104] ديوان المعاني : 104/2 .

يكون هذا الشعر من نسج الكاتب ونظمه ، وجزءا متمما لموضوع الرسالة أو فحواها [105] .

كما تميز هذا الضرب من الرسائل أيضا ؛ بالإكثار من الجمل الاعتراضية الدعائية ، كما غلب على أكثرها – ولاسيما رسائل الثناء الموجهة إلى بعض أعيان الطبقة الخاصة – الغلو والمبالغة ، وهذا ما نتلمسه في كثير من رسائل أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ، وأبي الفضل الميكالي ، وأضرابهم من كتاب الرسائل الاخوانية في هذا القران [106] .

(سابعا) الاستزارة وتوجيه الدعوة وبث الأشواق:

ومن الأغراض أو المقاصد الشائعة التي طرقتها الرسائل الاخوانية في هذا القرن أيضا ؛ ما شاع بين الأخوان والأقران من كتابات شخصية في توجيه الدعوة لحضور منتديات الأدب والمناظرة ، أو مواصلة المكاتبة والمراسلة ، أو طلب الاستزارة لحضور مجالس الطرب والغناء والشراب ، وما شاكل ذلك من مجالس الأنس والقصف التي شاع إقامتها في بيئات الطبقة الخاصة إبان هذا القرن.

وكانت رسائل الاستزارة والدعوة إلى المواصلة هذه تقترن ، في الغالب وصف لواعج الشوق ، ومسارب الهوى [107] ، ومن هنا فقد غلب عليها رقة الألفاظ وجودة المعاني ، وفضلا عن ذلك ، فأن هذا اللون من المكاتبات يكشف عن أواصر

---

[105] تراجع رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى أبي نصر الميكالي في الشكر والثناء : زهر الآداب وثمر الألباب : 306/1 وما بعدها ، ورسالة أبي الفرج الببغاء إلى الوزير المهلبي في الشكر : يتيمة الدهر: 305/1–306 ، ورسالة أبي القاسم الأطروش العلوي إلى أبي الحسن الجرجاني : يتيمة الدهر: 54/4 ، وغيرها .

[106] ينظر رسالة أبي بكر الخوارزمي في الثناء إلى خوارزم شاه : رسائل أبي بكر الخوارزمي :177–178 ، رسالة بديع الزمان الهمذاني في الثناء : يتيمة الدهر: 332/4 ويراجع باب الثناء والشكر (فصول من رسائل لأبي الفضل الميكالي) يتيمة الدهر: 415/4 وما بعدها ، ورسالته أيضا في الشكر والثناء : زهر الآداب وثمر الألباب 1023/4–1024 .

[107] ينظر رسالة ابن العميد إلى بعض إخوانه : خاص الخاص – للثعالبي :10 ، وتراجع فصول بليغة في الاستزارة والعيادة لأبي الفضل الميكالي : اليتيمة : 422/4 .

اجتماعية عميقة بين الأدباء وأقرانهم ، بعيدة عن الأمور السياسية وغيرها ، وهي وثائق تاريخية مهمة كشفت عن كثير من الجوانب الاجتماعية والحضارية في هذا القرن .

وقد اشتهر أبو القاسم الصاحب بن عباد في هذا القرن ، بكثرة تدبيجه لكتب الاستزارة [108] ، وتوجيه الدعوات إلى أترابه وخلانه .

كتب الصاحب إلى أبي العلاء الأسدي ، في فصل من رسالة طويلة يتشوق لأيام صحبتهما ، ويدعوه إلى المواصلة ، يقول [109] : " أبا العلاء شيخي أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك العهود سقتها العهاد ؟ وأين لياليا بحزوى ، وتصابينا على أروى ؟ بل أين الصبا وما ملك ؟ وأين الشباب وأية سلك ؟ وإذ قد غاب جميع ذلك مغيب الخيال الطارق ، والضيف المفارق ، فأين كتبك التي هي ألذ من انتهاء النفس إلى رجائها ، وابتداء العين في إغفائها " .

لقد حرص كتاب الاخوانيات في هذا اللون من الرسائل ، على التأنق في صياغة الألفاظ والتراكيب ، وانتقائها ، والعناية الفائقة برصف الجمل وبنائها فضلا عن ارتياد المعاني الرقيعة الجميلة غير المتداولة ، ومن هنا فقد غلب على رسائل الاستزارة طابع المبالغة في وصف الأشواق ، كما حرص الأدباء الكتاب أيضا على تضمين رسائلهم النثرية بالشعر الرقيق العذب الذي يناسب ظرف الرسالة وفحواها .

ومن روائع الرسائل الاخوانية في بث الأشواق ، والدعوة إلى المواصلة أيضا ؛ ما كتبه أبو الفضل الميكالي إلى صديقه أبي منصور الثعالبي ، ومما جاء فيها قوله[110] : " كتابي ، وأنا أشكو إليك شوقا لو عالجه الأعرابي لما صبا إلى رمل عالج ، أو كابدهُ الخلي لا نشنى على كبد ذات حرق ولواعج ؛ وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا ، ويخرق فلا ينوي رقعا ، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوي الوداد، ثم

---

[108] ينظر : يتيمة الدهر: 3/286-287 ، خاص الخاص :12 .

[109] يتيمة الدهر : 3/394 .

[110] زهر الآداب وثمر الألباب 2/545-546 .

يبخل عليهم بما يشفي الصدور والأكباد ... وكم أستعدي على صرفه واستنجد ، وأتلظى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثني الزمان عنانه بعثرة حال ، والزمان عثور

فتدرك آمال وتقضى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور ... " .

وكتب الصاحب بن عباد أيضا في رسالة له إلى بعض خلانه يدعوه إلى مجلس شراب [111] : " نحن في مجلس أبت راحه أن تصفو إلا أن تتناوله يمينك، وأقسم غناؤه لا طاب حتى تعيه أذناك ، وعندنا خدود نارنجية ، قد احمرت خجلا لإبطائك ، وعيون نرجسية ، قد حدقت تأميلا للقائك ، وأحب أن تطير إلينا طيران السهم ، أو تطلع علينا طلوع النجم " .

ومن رقع الاستزارة الجميلة التي وصلت إلينا أيضا في هذا القرن ، ما رواه الحصري لأبي الفضل بديع الزمان الهمذاني من رسالة رقيقة كتبها لأخيه في الحجاز [112] ، وما رواه أبو منصور الثعالبي أيضا لأبي النصر العتبي في الاستزارة والشوق ، ومما ورد فيها قوله [113] : " هذا يوم رقت غلائل صحوه وخنثت شمائل جوه ، وضحكت ثغور رياضة ، واطرد زرد الحسن فوق حياضه وفاحت مجا مر الأزهار ، وانتشرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار ... فبحقالفتوة التي زان الله بها طبعك ، والمروة التي قصر عليها أصلك وفرعك ، إلا تفضلت بالحضور ، ونظمت لنا بك عقد السرور " .

وهكذا وثقت هذه الرسائل الاخوانية التي انصبت على الاستزارة وبث الأشواق ، جانبا مهما لحياة الطبقة الخاصة إبان هذا القرن ، كما صورت أيضا جوانب مهمة لطبيعة الحياة الاجتماعية والحضارية ، وما انطوت عليه من مفاكهات ولهو ، ومداعبة وسرور ، وما إلى ذلك .

---

[111] من غاب عنه المطرب :120-121 .

[112] ينظر : زهر الآداب وثمر الألباب 3/825-826 .

[113] يتيمة الدهر : 4/461 ، وتنظر أيضا رقعة أخرى للعتبي في الاستزارة بيوم النحر : اليتيمة 4/459 .

(ثامنا) التوصية وطلب الشفاعة :

ومن الأغراض أو المقاصد المهمة التي تناولتها الرسائل الاخوانية في هذا القرن أيضا : التوصية وطلب الشفاعة ، وقد كان هذا الضرب من الاخوانيات – كما ذكر القلقشندي [114] – يصدر ، غالبا ، عن ذوي الرتب والأخطار ، والمنازل والأقدار ، الذي يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ، ودرك الرغائب [115] .

وقد اشتهر الوزير الصاحب بن عباد ، مثلا ، بكثرة تحبيره لرسائل التوصية للأدباء الذين كانوا يمكثون في بلاطه ، ويتفيأون بظلال أدبه ، ثم يغادرونه إلى حواضر إسلامية أخرى [116] ، فضلا عن كثرة رسائل الشفاعات التي ضمها مجموع رسائله [117] .

ولقد كثر في هذا القرن ، ونتيجة لسوء الأوضاع السياسية والاجتماعية ، تعرض الأدباء وغيرهم من رعايا الدولة الإسلامية ، للمحن وألوان المصائب ، كالسجن والمصادرة وما إلى ذلك ، وكان طبيعيا أن يلجأ الكثير من أولئك المظلومين إلى من يتوسمون فيهم الجاه أو المقدرة على الشفاعة لهم – ولاسيما من كبار رجالات الطبقة الخاصة وغيرهم – لإنقاذهم مما هم فيه من مصائب ومحن .

ومما اشتهر من كتب الشفاعة في هذا القرن ؛ رسالة أبي إسحاق الصابي عن عز الدولة بختيار ، إلى الأمير مؤيد الدولة في الشفاعة لأبي الفتح ابن العميد حين سجن في محنته المشهورة عام 366 هـ ، ومما ورد فيها قوله [118] : " وهذا

---

[114] صبح الأعشى في صناعة الانشا : 124/9 .

[115] ينظر رسائل الأمير قابوس بن وشمكير في التوصية والشفاعة : رسالته إلى أبي الفضل ابن العميد في طلب إقالة نادم ؛ كمال البلاغة :43–44 ، ورسالته أيضا إلى الوزير ابن العتبي في الشفاعة ؛ كمال البلاغة :44–45 ، ورسالته أيضا إلى الوزير الصاحب بن عباد في الشفاعة والتوصية ، كمال البلاغة :68–69 .

[116] تراجع مثلا رسالة الصاحب إلى أبي علي الحسن بن أحمد في شأن أبي عبد الله محمد بن حامد ، يوصيه برعايته ؛ يتيمة الدهر: 292/3–293 .

[117] يراجع رسائل الصاحب بن عباد – الباب الخامس عشر (في الشفاعات) :204–196 .

[118] يتيمة الدهر : 293/2 .

غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال ، والصبر على الادلال ... ومن ألزم اللوازم في حكم الرعاية أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها ، وأن نعذره عند هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها ، وأن تكون نفسه محروسة ، والبقية من حاله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة ، وأن يتحدث الناس بأن سيدي الأمير أصاب غرض الحزم بالقبض عليه ، ثم طبق مفصل الكرم في التجاوز عنه " .

ويبدو واضحا براعة الكاتب الصابي ، وفطنته ، وحسن تأتيه ولباقته ودقة توسله ، إذ إنه خلط في شفاعته بين الاعتزاز والتذلل ، وبين الشكر والمدح .

على أن رسائل التوصية والشفاعة لم يقتصر صدورها في هذا القرن – كما ذهب إلى ذلك القلقشندي ، وهو ما مر بنا آنفا – على ذوي المناصب الرفيعة والأخطار ، وإنما صدرت بعض تلك التوصيات والشفاعات أيضا عن الأدباء أو الكتاب أو غيرهم من وجوه الطبقة العامة ، كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ، وإضرابهما ممن كانت له صلات طيبة أو علاقة حسنة مع بعض أولي الأمر من الرؤساء والأمراء والوزراء وغيرهم [119] .

ومن نماذج هذا اللون من رسائل الشفاعة ، ما كتبه أبو بكر الخوارزمي إلى أبي عمر المكندري ، وزير صاحب جرجان ، يتشفع فيها لبعض المتظلمين ، وقد هرع إليه يستنجده ، ومما ورد فيها قوله [120] : " وعد الشيخ يكتب على الجلمد ، إذا كتب وعد غيره على الجمد ، ولكن صاحب الحاجة شيء النظر بالأيام، مريض الثقة

---

[119] تراجع رسالة أبي بكر الخوارزمي في الشفاعة إلى أبي عمر المكندري ، وزير صاحب جرجان ؛ رسائل أبي بكر الخوارزمي :21–22 ، وتراجع أيضا رسالة الهمذاني إلى بعض الرؤساء يسأله إطلاق محبوس ؛ زهر الآداب وثمر الألباب 991/4 ، وتراجع رسالة أخرى له إلى بعض الرؤساء يسأله العناية برجل ؛ المصدر نفسه 1151/4 .

[120] رسائل أبي بكر الخوارزمي :21–22 .

بالأنام ؛ لكثرة من يلقاه من اللئام ، وقلة من يسمع من الكرام . وفلان نغض [121] عندي غرائر شكره ، واستعان بي على تحمل ما أثقله من أعباء بره ، فأعلمته أنني أثقل منه بنعمة الشيخ ظهرا ، وأضيق منه بما لزمني أداؤه صدرا .(وأنشدته شعراً)

أعنين هلا إذ كلفت بها كنت استعنت بضارع العقل

أقبلت ترجو العون من قبلي والمستعان بـه لفي شغل

ثم أني تذممت في أن أرد إخواني ، في ماعونٍ طلبوه من لساني ، فأصحبته هذه الأحرف ، والشيخ يلمظه [122] بالزيادة حلاوة الشكر ، ويعرفه فعلا لا قولا حميد عاقبته ، وما أفاض فيه من جميل النشر ، فمثله عرف الشاكرين الصنعة ، ونفق بينهم هذه السلعة ".

وقد تميزت أكثر رسائل التوصية والشفاعة في هذا القرن ، بجمال الأداء ، ودقة الصياغة ، والتلطف في الخطاب ؛ بلوغا إلى الغاية التي ينشدها الكاتب ، وهي التأثير في نفس المستشفع به ، كما تميزت أيضا بالإيجاز وعدم الإطالة .

وصفوة القول : إن الرسائل الاخوانية قد تطورت في هذا القرن تطورا كبيرا قياسا إلى ما كانت عليه في القرون السابقة ، إذ اتجه منشئو الرسائل الأدبية – وبخاصة كتاب الاخوانيات – نحو الفن والتهذيب والصنعة ، وطفق هؤلاء الكتاب يتأنقون في ترسلهم ؛ فكانوا يجيلون الفكرة ، ويفتنون في انتقاء الألفاظ والتراكيب ، ويتخيرون المعاني الجميلة النادرة ؛ تحقيقا لبلوغ الغاية من تحبيرها وهي التأثير والإبداع الفني .

---

[121] نغض غرائر شكره : أي حركها ، ونغض رأسه أي تحرك (لازم) ، ونغض فلان رأسه أي حركه (متعدي) ، وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء .

يراجع (مختار الصحاح – للرازي (مادة : ن . غ . ض) : 670 .

[122] يلمظه بالزيادة : أي يتتبعها . ولمظ يلمظ (من باب نصر) إذا تتبع المرء بلسانه بقية الطعام في فمه ، وأخرج لسانه يمسح به شفتيه .

يراجع (مختار الصحاح (مادة : ل . م . ظ) : 604 .

المبحث الثاني

الرسائل الوصفية في القرن الرابع

الوصف أحد الفنون البارزة والأساسية في الشعر العربي منذُ أقدم عصور الأدب عند العرب [1] ، إذ كان هذا الفن الشعري محور إبداع الشاعر المرهف الحس في تجربته الشعرية ، والأرضية التي يفرغ عليها كل طاقاته الإبداعية وخزينه الفني المتدفق .

وعندما بدأ النثر الفني في القرن الرابع يزاحم الشعر – كما مر بنا آنفا – في طرق موضوعاته وأغراضه ، وخوضه فيما هو من أساليبه ، ومرتكزاته الأساسية ، كثر الوصف في فصول النثر الفني ، وبخاصة في الرسائل الأدبية كثرة ظاهرة ، وطفق يتسلل إلى كل أجزائه وموضوعاته المختلفة .

ولعل هذا ما يفسر لنا غزارة الرسائل الوصفية وشيوعها وكثرتها في هذا القرن ، وبراعة كتاب الرسائل الأدبية بخاصة ، وإجادتهم في وصف ما وقعت عليه أعينهم ، أو ما تلمسوه في خواطرهم ، وأحسوه في وجدانهم وفكرهم ، حتى عد بعض الباحثين المعاصرين [2] إجادة كتاب هذا القرن في الوصف ، وبراعتهم فيه ، أظهر ميزة في القرن الرابع ؛ إذ لم يكن الوصف عندهم مما يأتي لِماماً ، أو عفو الخاطر ، في المناسبات الطارئة ، وإنما تعمدوا استقصاء الموضوعات الوصفية فيما رأت أعينهم ، أو جرى في خواطرهم ، أو ارتابت فيه عقولهم .

إن أول ما يستوقف الباحث عند دراسة هذا اللون من الرسائل الأدبية في هذا القرن ؛ هو شغف كتاب الرسائل الأدبية في وصف المحسوسات والمعنويات واندفاعهم العجيب في تصوير كل ما يلمون به في ترسلهم ، ومكاتباتهم الشخصية واستقصاء جوانبه المختلفة ، والوقوف عند جميع جزئياته ، وتحليل أطرافه سواء

---

[1] تراجع التفاصيل في كتاب : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه : 249–285 .

[2] ينظر كتاب : النثر الفني في القرن الرابع : 210/1 وما بعدها .

أكان ذلك فيما يتعلق بالأمور المادية المحسوسة أم فيما يتصل بأمور الوجدان والخواطر وسواها من الأمور المعنوية [3] .

ولعل ما حفز الأدباء الكتاب في هذا القرن إلى ذلك كله ، أنهم كانوا يجرون وراء كل ما هو جديد أو غير مألوف من المعاني الشعرية ، وربما كان هذا الأمر وراء ولع هؤلاء الكتاب في حل الشعر القديم والمحدث في مكاتباتهم ، وإدراجه في رسائلهم ، فكانوا لا يرون معنى رائقا بديعا ، ولا خيالا شيقا طريفا إلا اجتلبوه ، وحلوه في ترسلهم ، وضموه إلى فيض وعائهم الفني الثر [4] .

إن لهث كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن وراء المعاني الجديدة ، ودأبهم المتواصل على طلبها ، وشغفهم المفرط بالوصف ، وما عرفوا به من قوة في تصوير المحسوسات والمعنويات ، كل ذلك قد أيقظ فيهم حواسهم ، وألهب مشاعرهم ، وفتق خيالهم لاستخراج أدق ما في دخائل الأشياء التي يلمون بوصفها وتحليلها ، ويستكنهون ما فيها من غوامض أو أسرار ، للكشف عن باطنها أو غرائب صفاتها .

يقول الأستاذ زكي مبارك [5] : " ... إن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية ، وتلك الطباع السليمة ، التي سمحت لأولئك الناس بالتعمق في وصف ما شهدته أعينهم ، وأحسته أنفسهم ، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة ، بطريقة فنية هي وحدها تتطلب دقة في الفهم ، وقوة في العقل ، وسلامة في الذوق " .

---

[3] تراجع فصول الرسائل والفقر التي أوردها في هذا الباب الثعالبي في يتيمة الدهر ، وخاص الخاص ، وسحر البلاغة ، ومن غاب عنه المطرب ، في مواضع متفرقة ، وينظر أيضا ما أورده الحصري في زهر الآداب تحت عنوانات كثيرة متفرقة ما لأهل العصر في وصف كذا وكذا ، وسيأتي لاحقا ذكر بعض تلك المواضع في الصفحات التالية من هذا المبحث .

[4] يراجع بعض ما أورده الثعالبي عن (حل) الصاحب بن عباد ، وأبي إسحاق الصابي وغيرهما من صدور الكتاب في هذا القرن ، من شعر المتنبي ومعانيه في فصول رسائلهم : يتيمة الدهر : 1/153-159 .

[5] النثر الفني في القرن الرابع : 1/215 .

وهكذا آلت كثير من فصول رسائل أولئك الكتاب في هذا القرن إلى لوحات فنية زاخرة بالحركة ، نابضة بالحياة ، لتصور ما يجيش في نفوسهم ووجدانهم من مشاعر وانفعالات .

وقد عزا بعض الباحثين من المستشرقين [6] تنامي قدرات الأدباء من الشعراء والكتاب في هذا القرن ، في تصوير ما تجيش به نفوسهم من أحاسيس ؛ إلى إتصال العرب بشعوب وأمم أجنبية أخرى ، تختلف عنهم اختلافا كبيرا ، بينما كان دأب العرب دائما الكلام البليغ ، وفن القول [7] ، كان ما استحوذ على اهتمام تلك الشعوب الأعجمية – وكانت طبقة الكتاب البلغاء في هذا القرن تنحدر من أصلابهم – فن التصوير الذي يعتمد على الإجادة في الوصف . وقد بدا هذا الأمر واضحا عندما أصبحت هذه الشعوب الأجنبية هي القابضة على زمام الفن الأدبي في هذا القرن .

لقد ألم كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن بكل ما أحاطت به حواسهم المرهفة من مظاهر الحياة المختلفة ، ودققوا النظر في معالمها المتنوعة ؛ فوصفوا بدقة متناهية ما أبصرته عيونهم ، ووعته آذانهم ، وتلمسته أناملهم ، وأمعنوا بقوة في تحليل ما انتهى إلى حواسهم الأخرى ، من مظاهر الطبيعة على اختلافها ؛ فوصفوا الرياض والبساتين ، وما يتخللها من أزدهار [8] ورياحين ، وأصناف النبات الأخرى ، وأسهبوا في وصف المنازل والقصور [9] ، وما حوته من حياض وبرك ، وما اشتملت عليه من مجالس الغناء والشراب ، فدققوا في جزئياتها ؛ فوقفوا عند الإماء

---

[6] تراجع التفاصيل في كتاب : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: 478/1 وما بعدها .

[7] يراجع وصف عتبة بن أبي سفيان لكلام العرب ، وعنايتهم بفن القول : زهر الآداب وثمر الألباب: 684/3 . ومما ورد في تضاعيف قوله : " إن للعرب كلاما هو أرق من الهواء وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها ، بكلمات مؤتلفات ... فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة ، إذا سمعت وصعوبتها بقلمك أنها مفقودة إذا طلبت..."

[8] ينظر ما ذكره الحصري من ألفاظ أهل العصر في وصف الرياض والأزهار والرياحين : زهر الآداب : 576/2 .

[9] ينظر ما ذكره الحصري لأهل العصرفي صفات الدور والقصور : زهر الآداب: 743/3.

والغلمان ، وبرعوا في وصفهما ، ووصفوا الندامى والسقاة ووقفوا عند آلات الطرب ، وآنية الشراب .. وهنا لم يفتهم التأمل في الليل وسحره فبرعوا في وصفه حين يرخي سدوله ، أو حين يسحب الظلام ذيوله، ووصفوا نجومه المتلألئة ، وتأملوا في سرعة انقضاء أوقات الأنس ، فوصفوا انكباتهم على مطارح القصف ، والتمتع بالحياة اللاهية الناعمة [10] .

وتأمل بعضهم البحار والأنهار والجداول والغدران ، فراح يصف ببراعة فائقة ما سجلته بصيرته من مشاهدات طريفة نادرة [11] .

وراح بعض الأدباء الكتاب يصف مظاهر الطبيعة الأخرى ؛ فاستوقفه مثلا مشاهد البرق ، وزمجرة الرعد [12] ، وطيب النسيم ، وشدة الريح ، وهطول المطر ، وتراكم الثلوج ، ووصف بعضهم ما تتركه مشاهد الغيوم ، وتلبد السماء أو الصحو وتبسم النهار فجسدهُ بثغور الزهور الضاحكة تحت خيوط الشمس الذهبية ، فصور كل ذلك بوضوح ، وصور ما تتركه في نفسه من غبطة وسرور أو كدر وقنوط .. ولم يقلع كتاب هذا القرن عن وصف الحيوان والحشرات والطيور ؛ فوصفوا الأفاعي والفهود وكلاب الصيد [13] ، ووصفوا الجراد والذباب[14] ، وغير ذلك مما شاهدوه في بيئتهم أو في مراتع لهوهم أو صيدهم .

---

[10] يراجع ما ساقه الحصري لأهل العصر في صفات مجالس الأنس:503/2 ، ووصف الليل زهر الآداب: 804/3 وما بعدها .

[11] للصاحب بن عباد رسالة بليغة نادرة في وصف البحر ، جوابا له عن رسالة لأبي الفضل ابن العميد ؛ يتيمة الدهر: 295/3-296 .

[12] يراجع ما ساقه الحصري لأهل العصر في أوصاف الرعد والبرق : زهر الآداب: 237/1-238 وينظر أيضا ما ساقه لأهل العصر في وصف الثلج والبرد : زهر الآداب 940/4-941 .

[13] تراجع للصابي رسائل عديدة في وصف الصيد وحيوانه كالفهود وكلاب الصيد والخيل السريعة والطيور الجوارح كالصقر والباز وما إلى ذلك : يتيمة الدهر: 301/2 وما بعدها، نهاية الأرب : 261/9 .

كما أطال أدباء هذا القرن أيضا ، الوقوف عند وصف البلاغة والشعر والنثر والكتابة ، والكتب المرسلة إليهم ، ووصفوا أدوات الكتابة ، فوصفوا القلم والدواة [15] والقرطاس ، كما أجادوا في وصف الأيام والشهور والفصول فوصفوا الخريف ، والأيام الشتوية القارصة ، ووصفوا القيظ وشدة الحر [16] ووصفوا ما عانوه في تلك الفصول المتباينة من محن وآلام ، أو سرور وإنعام وما إلى ذلك مما وقع تحت طائلة حواسهم ، أو تلذذت به نفوسهم ، أو نفرت منه أذواقهم أو قرائحهم المتقدة ، فرسموا من ذلك كله لوحات رائعة ، ظلت على مر الأيام وتطاول العصور شاهدة على أصالة فنهم ، ودقة صنعتهم ، ورهافة حسهم .

وفضلا عن وصف كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن للأمور المادية المحسوسة التي ألموا بها في مكاتباتهم ، فقد أبدعوا أيضا في تصوير المعاني والصفات الوجدانية ، وبرعوا في تحليل المدركات العقلية الدقيقة ، والمعاني الذهنية العميقة ؛ فقد تعمق كثير من جهابذة الكتاب وصدورهم ، في هذا القرن في تحليل أهواء النفس الإنسانية ، ونزعاتها المتباينة ، وأمزجتها المتقلبة فوصفوا العشق والوجد والشوق [17] والهيام ، وحللوا تباريح الفراق وآلامه ونشوة اللقاء ودوامه ، وبرعوا أيضا في تحليل معاني البغض والحقد والحسد وأفاضوا كذلك في تصوير

---

[14] أثبت العسكري في ديوان المعاني: 149/2 رسالة طريفة لأبي القاسم الآمدي في وصف الذبان .

[15] يراجع ما ذكره الحصري في أوصاف أهل العصر لآلات الكتابة : زهر الآداب: 562/2.

[16] تراجع فصول من رسائل لأدباء العصر في هذا الجانب : زهر الآداب: 940/4 .

[17] تراجع رسائل عديدة لأبي بكر الخوارزمي في وصف الشوق ، وتحليل مساربه : رسائل أبي بكر الخوارزمي ص93-95 ، ص97-99 ، وتراجع أيضا رسالته إلى صاحب= =البريد يصف شوقه إليه وفراقه الممض ص70-71 ، وتراجع في وصف الشوق أيضا فصول لأبي الفضل الميكالي : يتيمة الدهر: 412/4-413 .

معاني الكرم والنبل والسماحة والمهابة والنجابة ، وما إلى ذلك من الأمور المعنوية غير المحسوسة [18] .

موضوعات الرسائل الوصفية وأغراضها :

أما ما ألمت به الرسائل الوصفية من موضوعات ، وما انطوت عليه من أغراض ؛ فلعل أهمها ، وأكثرها تداولا وشيوعا بين أدباء هذا القرن هي كما يأتي:

(1) وصف الرسائل أو الكتب المتبادلة :

لقد افتن الأدباء الكتاب في هذا القرن في وصف الرسائل أو الكتب المتبادلة بينهم [19] ، وربما كانوا يتبارون مع بعضهم في إضفاء الأوصاف الجديدة أو المبتكرة عليها ، ويتنافسون في خلق أبكار المعاني الرائعة في نعوتها ، ومن هنا فقد حفل هذا اللون من المكاتبات الوصفية بصور حسية ومعنوية جميلة ، على الرغم مما كان يشوب بعضها من المبالغة [20] والتكلف ، فضلا عما تميزت به من ظاهرة التكرار والترادف في الألفاظ والصيغ والتراكيب .

وكثيرا ما كان الكتاب في هذا القرن يسبغون على تلك الرسائل المرسلة من الوجهاء أو الأتراب والخلان ، أرق النعوت ، وصوروها بأجمل الأوصاف ؛ فهي

---

[18] تراجع فصول من رسائل لأبي الفضل الميكالي في تحليل الشوق ومكابدة الفراق يتيمة الدهر: 412/4-413 ، ويلاحظ ما في فصوله في الشكر من تشخيص ودقة خيال ، اليتيمة: 416/4 .

[19] ينظر الفصول التي أوردها الثعالبي من باب وصف الكتب بالحسن والبلاغة ولطف الموقع لأبي الفضل الميكالي : يتيمة الدهر: 410/4-412 ، ويراجع أيضا : رسائل الخوارزمي الوصفية في هذا الباب : رسائل أبي بكر الخوارزمي ، رسالته الجوابية إلى أبي محمد العلوي يصف كتابه إليه :44-46 ، ورسالته إلى تلميذ له يصف قصيدة أرسلها إليه : 51-52 ، ورسالته إلى أحمد بن شبيب يصف كتابا منه ورد عليه :123 ورسالته إلى تلميذ له أيضا يصف فيها كتابا وقصيدة :153-154 .

[20] تراجع فصول رسائل أبي الفضل الميكالي في هذا الباب : يتيمة :410/4 وما بعدها ، وينظر رسالة أبي هلال العسكري : ديوان المعاني: 85/2 .

رياض رقت حواشيها ، وحلل تأنق واشيها [21] ، وشبهوا سطور تلك الرسائل ؛ " بالروض الممطور ، والكلام المنثور ، والوشي المنشور " [22] ، ووصفوا الكتاب بأنه المسك في ذكاء رائحته ، والزهر في رقته ، والماء في عذوبته [23] . وهو تارة أخرى " يحاكي نسيم الروض غب المطر ، أو تنفس الأنوار في السحر "[24] وهو آونة أخرى " غمامة برقها خلق كريم ، وقطرها برٌّ عميم... "[25] إلى غيرها من الصور الكثيرة التي أضفوها على تلك الرسائل المتبادلة فيما بينهم .

ومن عيون الرسائل الوصفية التي انصبت على هذا اللون من التصوير الفني ؛ ما ورد في رسالة أبي الفضل ابن العميد إلى بعض إخوانه ، ومما ورد في تضاعيفها [26] : " وصل ما وصلتني به – جعلني الله فداك – من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومنتك العامة ، فقرت عيني بوروده ، وشفيت نفسي بوفوده ونشرته فحكى نسيم الرياض غب المطر ، وتنفس الأنوار في السحر ، وتأملت مفتتحه ، ... فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك ، وضروب الفضل منك جدا وهزلا ، ملأ عيني ، وعمر قلبي ، وغلب فكري ، وبهر لبي ، فبقيت لا ادري : أسموط در خصصتني بها ، أم عقود جوهر منحتنيها ؟ كما لا أدري أبكرا زففتها فيه ، أم روضة جهزتها منه ؛ ولا أدري أخدودا ضرجت حياء ضمنته ؛ أم نجوما طلعت عشاء أودعته ".

وقد اشترك كثير من الكتاب في إضفاء معاني الانتشاء بورود الكتاب إليه والسرور برؤيته ، يقول الصاحب بن عباد في فصل من رسالة له في هذا الباب[27]

---

[21] فصل من رسالة للصاحب بن عباد : ديوان المعاني: 86/2 .

[22] فصل من رسالة للعسكري : ديوان المعاني : 85/2 .

[23] فصل من رسالة للخوارزمي : من غاب عنه المطرب :17 .

[24] فصل من رسالة لأبي الفضل ابن العميد : زهر الآداب وثمر الألباب: 41/1–42 .

[25] فصل من رسالة لأبي الفضل الميكالي : يتيمة الدهر: 411/4 .

[26] زهر الآداب وثمر الألباب: 41/1–42 .

[27] ديوان المعاني: 81/2 .

: " وصل كتابك ، فجعلت يوم وصوله عيدا ، أؤرخ به أيام بهجتي وأفتح به مواقيت غبطتي ... " .

ومن المعاني الجديدة التي أبدع الصاحب بن عباد في تصويرها بألوان الصور الحسية والمعنوية ، ما جسمه في صورة رائعة من تنافس بين فقر الكتاب وسطوره ! ونعته أيضا بالرهبة والجلال .. يقول في رسالة له في وصف كتاب[28] : " ... حتى إذا فضضت ختامه ، أقبلت الفكرة تتكاثر ، والدررتتناثر ، والغرر تتراكم ، والنكت تتزاحم ، فإذا حكمت للفظة بالسبق ، أتت أختها تنافس ، وأقبلت لدتها تفاخر ، حتى استعفيت من الحكومة ، ونفضت يدي من غبار الخصومة ، وأخذت أقول : كلكن صوادر عن أصول بل أصل واحد ، فتسالمن، ونوافذ عن معدن نادر فتصالحن ... " .

ولا يخفى ما في هذا الفصل من رسالة الصاحب من روعة الوصف ، وجمال التصوير ، ورقة الأسلوب ، وحلاوة النغم ، ومتانة الرصف بين قرائن النص ، فضلا عما حققه التجسيم في قوله : " أتت أختها تنافس ، وأقبلت لدتها تفاخر " من تفاعل وحركة تزخر بالحيوية والحياة .

أما أبو الفضل الميكالي فقد أضفى على رسالة أبي منصور الثعالبي التي بعثها إليه أوصافا حسية طريفة ؛ فهي زهور الربيع الصفراء في النجود ، وهي البرود المرصعة المزركشة ، وهي قلائد العقود !

يقول أبو الفضل الميكالي في فصل من رسالته إلى الثعالبي يصف كتابه إليه [29] : " وصل كتاب الشيخ ، فنشر عندي من حلل إفضاله و إكرامه ومحاسن خطابه وكلامه ، ما لم أشبهه إلا بأنوار النجود ، وحبر البرود ، وقلائد العقود " .

وكان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن يضفون أحيانا في أوصافهم على بعض فصول الرسائل التي تصل إليهم ، هالة من القدسية والجلال ، فضلا عما يخلعونه عليها من أوصاف الحسن والرقة ، وغيرها من الصفات .

---

[28] المصدر نفسه : 85/2 .

[29] زهر الآداب وثمر الألباب :173/1 .

ولعل من نماذج هذا اللون من الرسائل الوصفية ؛ ما كتبه أبو العباس الضبي في مستهل رسالته إلى أبي سعيد الشبيبي ، يصف كتابه إليه [30] : "وقد أتاني كتاب شيخ الدولتين ، فكان في الحسن روضة حزن ، بل جنة عدن ، في شرح النفس ، وبسط الأنس ، برد الأكباد والقلوب ، وقميص يوسف في أجفان يعقوب ... " .

****

وهكذا نرى أن كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، قد وقفوا طويلا عند الرسائل المتبادلة بينهم ، فأفتنوا في وصفها ، وبالغوا في إضفاء النعوت عليها نوحلقوا بخيالهم في آفاق علوية بعيدة ، بما أسبغوه عليها من أوصاف ذهنية بعيدة عن الحس والواقع ، فضلا عما أضفوه عليها أيضا من صور حسية جميلة مبتكرة.

(2) وصف المنظوم والمنثور :

لقد أفاض الأدباء الكتاب فيما دار بينهم من مكاتبات أدبية إبان هذا القرن في وصف ما تضمنته تلك الرسائل من المنظوم والمنثور ، وأفرطوا في وصفهما وفي تحليل ما اشتملا عليه من براع ورقة وسلاسة وحسن موقع .

وقد وقف الثعالبي والحصري طويلا عند ذكر أوصاف أهل عصرهم من الأدباء ، للمنظوم والمنثور وغيرهما أيضا ، ومما ساقه الحصري مثلاً من أوصافهم للنظم والنثر قولهم [31] : " نثر كنثر الورد ، ونظم كنظم العقد ، ونثر كالسحر أو أدق ، ونظم كالماء أو أرق . رسالة كالروضة الأنيقة ، وقصيدة كالمخدرة الرشيقة ... نثر كما تفتح الزهر ، ونظم كما تنفس السحر . نثر ترق نواحيه وحواشيه ، ونظم تروق ألفاظه ومعانيه ... " .

وقد كان هذا الضرب من الرسائل الوصفية – وبخاصة ما وصل إلينا لمشاهير الأدباء الكتاب في هذا القرن ، وعلى الرغم مما انطوى عليه بعضها من

---

[30] يتيمة الدهر :241/3 .

[31] زهر الآداب وثمر الألباب : 164/1-166 .

تكلف وغلو [32] – وثائق أدبية مهمة ، كشفت لنا بوضوح عن ذائقتهم الأدبية والنقدية آنذاك ، وتحليلاتهم الطريفة لما ألموا به من المنظوم والمنثور في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية [33] .

ولعل من روائع هذا الضرب من الرسائل الوصفية ؛ ما كتبه الأمير قابوس ابن وشمكير إلى أبي الفضل ابن العميد ، يصف نظمه ونثره ، ويقرظهما ، ومما ورد في تضاعيفها قوله [34] : " عرض علي – أطال الله بقاء الأستاذ – من عقود سحره ، ومحسود نثره ، فصل تضيء النواظر برؤيته ، وتخطر الخواطر لروايته ... فمن مر على أرجاء بحره الهياج ، ونظر في لألاء بدره الوهاج ، خليق بأن يكبو قلمه بأنامله ، وينبو طبعه عن رسائله ؛ لأنه بيان قصر عن نيله لسان البلاغة ، ولم يأت بمثله فرسان هذه اللغة ، وكتابة غادرت أترابها كمنثور الهباء وسحبت ذيل الفخار على هامة السماء ، ومن رام أن يفري فيها كما يفري ويسري بنجومها كما يسري ، رام أن يشارك الشمس في الشعاع ، والفلك في الارتفاع ، وهذا غرض لا يصاب ، ودعاء لا يستجاب " .

ولعل هذا النص البليغ [35] يكشف لنا بجلاء سمو منزلة أبي الفضل ابن العميد بين أدباء عصره ، وأثر طريقته الفنية فيهم ، وفيمن جاء بعده أيضا .

---

[32] تنظر فصول الرسائل الوصفية في هذا الباب لأبي الفضل الميكالي : رسالته إلى أبي القاسم الداودي ؛ زهر الآداب : 168/1 ، وبعض رسائل الخوارزمي لتلاميذه : رسائل أبي بكر الخوارزمي ص51–52 ، ص153–154 وغيرها .

[33] ينظر في هذا الباب رسالة الوزير الصاحب بن عباد إلى بعض أقرانه في وصف شعر : رسائل الصاحب :227 .

[34] كمال البلاغة :42–43 .

[35] يراجع ما ذهب إليه عبد الرحمن اليزدادي في تقريظ هذه الرسالة ، إذ قال : " ولكنها نادرة في فنها ... وأحسب لو أن أفاضل الكتاب البلغاء اجتمعوا على أن يأتوا بعشير ما أتى به من فصيح الألفاظ وبديع المعاني في وصف كتابته لعجزوا عنه ولم يكملوا له على أن لهم فصولا كثيرة موجودة في ذكر البلاغات والبراعات ، ولكن أين تقع تلك من هذه " : كمال البلاغة ص41 وأحسب أن اليزدادي قد غالى كثيرا فيما ادعاه وذكره .

وربما يكون من المناسب هنا أن نشير إلى رسالة ابن العميد المشهورة في وصف نظم تربه خلاد الرامهرمزي ، وتواضع أبي الفضل الجم ، وتصاغره أمام بلاغة صديقه ، وإعجابه المفرط بها ، ومما جاء فيها قوله [36] : " ... وتأملت النظم فملكني العجب به ، وبهرني التعجب منه ، وقد رمت أن أجري على العادة في تشبيهه بمستحسن من زهر جني ، وحلل وحلي ، وشذور الفرائد ، في نحور الخرائد .

والعذارى غدونَ في الحلل البيـ ضِ ، وقد رحنَ في الخطوط السود... "

على أن تواضع الأدباء الكتاب في تقريظ هذا اللون من الرسائل الوصفية كثيرا ما يؤول إلى ضرب من المبالغة الثقيلة ، والثناء المشوب بالملق والرياء مما أضفى على كثير من تلك الفصول النثرية طابع التكلف وشحوب العاطفة .

كتب أبو الفضل الميكالي إلى صديقه أبي القاسم الداودي يصف انبهاره من نظمه الرائق ، وما تخلله من معان مبتكرة ، فيقول [37] : " وقفت على ما أتحفني به الشيخ : من نظمه الرائق البديع ، وخطه المزري بزهر الربيع ، موشحا بغرر ألفاظه التي لو أعيرت حليتها لعطلت قلائد النحور ، وأبكار معانيه التي لو قسمت حلاوتها ، لأعذبت موارد البحور ... " .

ولعل أبا الفضل الميكالي قد أغار في معانيه الآنفة الذكر على ما ورد في رسالة أبي إسحاق الصابي التي كتبها على لسان الوزير ابن بقية إلى قاضي القضاة ابن معروف في وصف نظمه ونثره ، وقد اجتلب الميكالي كثيرا من ألفاظها وصورها ، ومما ورد منها قوله [38] : " وصل كتاب قاضي القضاة ، بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعذبته ، والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته ، ولم أدر بأي مذاهبه فيها أعجب ، ولا من أيها أتعجب ، أمن قريض عقوده منظومةً ، أم من ألفاظ لآلئها منثورة ؟! ... " .

---

[36] زهر الآداب وثمر الألباب : 1/166-167 .

[37] المصدر نفسه : 1/168-169 .

[38] يتيمة الدهر : 3/125-126 .

****

على أنَّ بعض جهابذة الكتّاب وصدورهم في هذا القرن ونظراً لمِا تفرّدوا به من موهبة نادرة ، وبديهة حاضرةَ ، وسليقة صافية – قد غطى جمال الصياغة في فصول رسائلهم ، فضلاً عما ابتكروهُ من صور ذهنية نادرة ، مقرونة مع صور حسية جميلة رائقة ، غطّى على ما في فصول رسائلهم هذه من تكلف ظاهرة ، وغلو مصطنع ، قد يحيلان العمل الأدبي الى أزاهير ذابلة مشوهة .

ومن هنا فقد بدت فصول رسائلهم الوصفية هذه ، لوحات فنية جميلة واتشحت بالإبداع والفن ، وقوة التصوير .

من ذلك ما ورد في فصل من رسالة لأبي بكر الخوارزمي إلى تلميذ له يصف قصيدة أرسلها إليه [39] : " وصلت القصيدة الغراء الزهراء ، فكانت أرق من الماء ، بل من الهواء ، وألذ من الصهباء ، وأسر من اللقاء بين الأحباء ، ومن هجوم السراء ، غب الضراء ... فكانت معانيها أبدع من الوفاء ، وأعز من السخاء ، وأغرب من النصفة في الأصدقاء ، ومن الأمانة في الشركاء ، بل أغرب من المغرب العنقاء . وألفاظها أحسن من البدر في الظلماء ، وأطيب من وصال الحسناء ، ومن افتراع العذراء ، ومن الشماتة في الأعداء ... " .

****

وهكذا نرى أن طائفة من بلغاء الكتاب في هذا القرن ، قد افتنوا كثيرا في تدبيج رسائل وصفية بليغة ، انصبت على وصف قلائد النظم ، وشذور النثر تصويرا شيقا ، على الرغم مما تخلل أوصافهم من تكلف وغلو ، بما ابتكروه من صور ذهنية نادرة ، وما صاغوه أيضا من صور حسية جميلة ازدانت بها معانيهم، واتضحت من خلالها أفكارهم ورؤاهم .

(3) وصف الشخصيات :

---

[39] رسائل أبي بكر الخوارزمي :51–52 .

ومن الموضوعات المهمة التي ألم بها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن أيضا ؛ وصف الشخصيات الشهيرة ، أو الأعلام الخطيرة ن وتحليل ما انطوت عليه من صفات عظيمة ، وسجايا خلقية جليلة . وغالبا ما تكون الغاية الأساسية من هذا الوصف للشخصية هو التعريف بها ، أو الأخبار عنها ، أو الشرح والتحليل لبعض جوانبها ، وهذا ما تلمسناه كثيرا في المكاتبات الاخوانية التي انطوت على التوصية أو الشفاعة ، وما إلى ذلك .

وفي طائفة من رسائل صدور الأدباء الكتاب في هذا القرن [40] التي كتبوها إلى أقرانهم في الشفاعة أو التوصية ببعض وجوه أتباعهم أو تلاميذهم ، يطالعنا هذا الوصف المكثف ، أو التحليل الدقيق لشخصية المتشفع له ، أو الموصى به ، وهو وصف يفضي غالبا – كما أشرت آنفا – إلى الإخبار أو الكشف عن بعض جوانب الشخصية ، وبيان مساريها وطواياها .

ومن نماذج رسائل وصف الشخصيات مثلا ، ما كتبه الوزير الصاحب بن عباد إلى أبي العباس الضبي ، باصبهان ، يوصيه بأبي سعيد الرستمي ، ويخبره بأخص أوصافه وأخباره ، ومما ورد منها [41] : " كان يعد في جمع أصدقائنا باصبهان ، رجل ليس بشديد الاعتدال في خلقه ، ولا ببارع الجمال في وجهه ، بل كان يروع بمحاسن شعره ، وسلامة وده ؛ أما الشعر فقد غاض حتى غاظ ، وأما الود ففاض وفاظ [42] ، فإن تذكرة مولاي بوصفه وإلا فليسأل عن خاله وعمه ؛ أما

---

[40] ينظر ، على سبيل المثال ، رسائل الصاحب بن عباد / الباب الخامس عشر – في الشفاعات ص196–204 ، وينظر أيضا رسالته إلى الضبي يصف فيها أبا الحسن الجوهري : يتيمة الدهر 4/30–33 وغيرها ، وتراجع أيضا بعض رسائل الأمير قابوس : كمال البلاغة :43–44 (رسالته إلى ابن العميد) :45–44 ؛ (رسالة الى ابن العتبي) : 68–69 (الى الصاحب حيث تجلى فيها وصف مكثف لشخصية من يتشفع له)

[41] يتيمة الدهر: 3/356–357 .

[42] غاض : غاض الماء ؛ قل ونضب . غاظ : غاظه ، أغاظه ، غيظه ؛ حمله على الغيظ أي الغضب والغيظ : غضب كامن للعاجز.(مختار الصحاح:مادة (غ ي ض ، غ ي ظ)

العمومة ؛ ففي آل رستم ، وثم الذروة والغارب ، ولواء العجم غالب ، وأما الخؤولة ففي آل جنيد ... ".

وكثيرا ما كان وصف الشخصية ، وتحليل قسماتها في رسائل الأدباء الكتاب إبان هذا القرن ، يأتي مقترنا إما بالمديح والثناء ، أو بالذم والتقريع والهجاء ، فيتخذ الأديب الكاتب الوصف أو تصوير ملامح الشخصية ، الأرضية التي يصب عليها مادة موضوعه – سواء أكان مديحا أم هجاء – فيستوحي الأديب الفنان من أرضية موضوعه جميع الشيات أو الألوان والظلال ، وقراع الحركة والصوت والأشكال وما إلى ذلك ، لإتمام عمله الفني .

وهكذا يستمد الأديب الكاتب من طاقاته الفنية في الوصف ، وقوة مخيلته ما يستعين به على رفد موضوعه ، ورسم أبعاد الشخصية التي يريد وصفها وتجسيد ملامحها ، وتصوير خباياها وأبعادها .

ولعل من عيون رسائل وصف الشخصيات التي اقترنت بالمديح والثناء[*] ؛ ما ذكره أبو هلال العسكري للصاحب بن عباد أيضا ، في وصف شخصية أحد الوجهاء في عصره [43] ، ومما ورد في تضاعيفها : " وليس ببدعٍ أن يجود كلامه، وتعتدل أقسامه ، ويتهذب بيانه ، ويتسع جنانه ؛ وقد راض العلوم حتى أعطته زمامها ، ومارس الآداب حتى ملكته خطامها ، فإن عد الفقه ؛ كان البازل الذي ذلل الفحول مصاولة ، وإن ذكر الكلام ؛ كان الجبل الذي فرع الأطواد مطاولة ... وإن جوري في سوائر الأمثال ، وفقر الأشعار ؛ ترك المجاري لا يدري أيَّ طريق يركب ،

:486–487 فاض : فاض النهر : زاد ، وفاض الخبر شاع . فاظ : فاظت روحه : أي مات ، والفيظ : الموت (مختار الصحاح مادة (ف ي ض ، ف ي ظ) :516 .

[*] يراجع للصاحب في وصف الشخصيات أيضا : ما ورد في رسالته إلى الشريف أبي طالب السيلقي ، جوابا عن كتاب فتح ؛ رسائل الصاحب بن عباد :231–237 ، حيث عرج الصاحب على وصف شخصيتي الرسول الأعظم (ص) ، والأمام علي (عليه السلام) مقرنا بين انتساب السيلقي وهاتين الشخصيتين العظيمتين .

[43] ديوان المعاني : 102/2 .

وأيَّ مذهب يذهب ، وأما الخطابة ؛ فهو جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب [44] ، وقد سلمت إليه اختيارا من مواليه ، واضطرارا من معادية " .

وممن برع في وصف الشخصيات ، وأجاد في تصوير ملامحها ، في معرض الثناء والمدح ، في هذا القرن ؛ أبو منصور الثعالبي ، ولعل أجمل ما وصل إلينا من ترسله في هذا الباب ؛ ما كتبه في وصف شخصية الأمير أبي الفضل الميكالي [45] .

ومما أثبته الحصري للثعالبي في هذا الباب أيضا ؛ ما كتبه في وصف الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، ومما ورد فيها قوله [46] : " ... إن خير الكلام ما شغل بخدمة من جمع الله له عزة الملك إلى بسطة العلم ، ونور الحكمة إلى نفوذ الحكم ، وجعله مميزا على ملوك العصر ، ومدبري الأرض ، وولاة الأمر ، بخصائص من العدل ، وجلائل من الفضل ، ودقائق من الكرم المحض ، لا يدخل أيسرها تحت العادات ، ولا يدرك أقلها بالعبارات ، ومحاسن سير الأنام ، تحرسها أسنة الأقلام ، وتدرسها ألسنة الليالي والأيام . وهذه صفة تغني عن تشبيب الموصوف لاختصاصه بمعناها ، واستحقاقه إياها ، واستئثاره على جميع الملوك بها ... " .

ومن روائع الفصول والرقع في وصف الشخصيات ، في باب الثناء والتقريظ ، في هذا القرن أيضا ؛ ما وصل إلينا لأبي الفضل الميكالي يصف شخصا [47] : " أنت إذا مزحت أزحت كربا ، وإذا جددت جددت أنسا ، وإذا أوجزت أعجزت ، وإذ أطنبت أطربت " .

---

[44] جذيلها المحكك وعذيقها المرجب : مثل يضرب للحاذق بالشيء المتمرس به ؛ ينظر : مجمع الامثال : 31/1 وفيه " أنا جذيلها المحكك وعذيقها المجرَّب" .

[45] ينظر : زهر الآداب وثمر الألباب : 173/1-174 .

[46] زهر الآداب وثمر الألباب : 415/2-416 .

[47] خاص الخاص – للثعالبي : 16 .

وقال أيضا يصف كلامه [48] : " هو الذي ذلل صعب الكلام وراضه وأنشأ حدائقه ورياضه ، وملأ غدرانه وحياضه ، وأصاب شواكله وأغراضه وعالج أسقامه وأمراضه " .

وقد اقترنت بعض رسائل وصف الشخصيات لكتاب هذا القرن أيضا ، بالذم والتقريع والهجاء ، فبرع كثير من بلغاء الكتاب [49] في تصوير ملامح الشخصية التي أراد إبراز عيوبها ، وتجسيد سقطاتها ، وسلكوا في ذلك أساليب فنية مختلفة ؛ فأبو بكر الخوارزمي مثلا ، عمد إلى وصف شخصية طريفة ، إذ صور رجلا شريفا في أصله ، وضيعا بنفسه ! فعمد إلى (التكثيف) والتشبيه لتجسيد ملامح هذه الشخصية ، ورسم ما تنطوي عليه من ملامح طريفة تجمع بين الغرابة والتضاد ، في أسلوب لا يخلو أيضا من السخرية والتندر . يقول الخوارزمي في هذا الفصل من الرسالة [50] : " قد حكى من الأسد بخره ، ومن الدينار قصره ، ومن اللجين خبثه ، ومن الماء زبده ، ومن الطاووس رجله ، ومن الورد شوكه ، ومن النار دخانها ، ومن الخمر خمارها " .

ولا يخفى ما في هذا النص الطريف من براعة في التصوير ، ودقة الإيجاز ، فضلا عن تكثيف المعنى ، إذ عمد الكاتب إلى فن التشبيه ، فوظف ثمانية تشبيهات حسية قريبة ، قرن فيها الكاتب شخصية المهجو ، الشريف النسب، وهو المشبه ، بصفات ذميمة في ذات المشبه به ، الذي تجتمع فيه صفات ممدحة عديدة . ولا يخفى ما في هذا التصوير والتلميح والتشبيه من بلاغة نادرة ، فضلا عما انطوى عليه النص من جمال الصياغة ، وروعة الإيقاع والموسيقى ، وحلاوة الرصف والبناء .

---

[48] المصدر نفسه : 16 .

[49] تراجع ، مثلا ، رسالة أبي علي الحسن بن أبي الطيب الباخرزي ، يصف أحد خصومه ، ويسخر منه ، ويذمه : دمية القصر وعصرة أهل العصر: 369/2 .

[50] خاص الخاص : 13 .

أما بديع الزمان الهمذاني فقد سلك في تصوير شخصية القاضي أبي بكر الحيري ، في معرض هجائه ، وإبراز سقطاته ، وشكواه إلى أبي القاسم علي بن أحمد ، حال هذا القاضي ، وسوء تصرفه في القضاء ، سلك الهمذاني أسلوبا مغايرا ، إذ عمد إلى الإطناب والإفاضة في عرض الصور والملامح الساخرة التي تبرز قبح سلوك هذا القاضي ، وسوء فعاله !

ومما ورد في هذه الرسالة الطويلة ؛ قوله يصف بعض جوانب هذه الشخصية ، ويحلل ، بإسهاب ، ما انطوت عليه من صفات ذميمة ، وتصرفات مشينة ، وملامح مضحكة [51] : " ... وهذا الحيري رجل سفلة ، طلب الرياسة بغير تحصيل آلاتها ، وأعجله حصول الأمنية عن تحمل أدواتها :

والكلب أحسن حالة وهو النهاية في الخساسه

ممن تصدر للريا سة قبل إبان الرياسه

فولي المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعرف مقدارها، والأمانة عند الفاسق خفيفة الحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال وتحملها الجهال ... فقبحه الله من حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام يدلي بهما إلى الحكام ، ولا مزكي أصدق لديه من الصفر ، ترقص على الظفر ولا وثيقة أحب إليه من غمزات الخصوم على الكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيئة الذيل ، وحمال الليل ، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق في وقتي الغسق والفلق ، ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس ، ثم الويل للفقير إذا ظلم ، فما يغنيه موقف الحكم ، إلا بالقتل من الظلم ، ولا يُجيرهُ مجلس القضاء ، إلا بالنار من الرمضاء ... " [52] .

---

[51] رسائل بديع الزمان الهمذاني (رسالة رقم 41) :171-169 .

[52] السلة والجام : السلة : السرقة الخفية ، وأراد هنا ما يؤخذ من الرشوة ، والجام : القدح ، وأراد هنا ما يوضع فيه . مزكي : هو معد الشهود في مجلس القضاء . الصفر : جمع أصفر وهو الدينار . الكيس المختوم : الذي وضع عليه الختم ، وفي طية الدراهم= والدنانير .

لقد برع الهمذاني في تصوير ملامح قاتمة لشخصية القاضي أبي بكر الحيري ؛ فهو أبعد ما يكون عن صفات القاضي العادل العالم بآلات القضاء وأمور الحلال والحرام ! وهو رجل سفلة أخس الناس ، بل أخس من الكلب – وهو النهاية في الخساسة – لأن الكلب لم يفعل أفعاله !

ثم صوره جاهلا فاسقا ؛ إذ لم يرع الأمانة التي أوكلت إليه ، والأمانة خفيفة الحمل عند الفاسق ، تشفق الجبال الراسيات من حملها ، بينما يحملها الجهال!

ثم رسم الكاتب صورا متلاحقة تصب كلها في تسليط الضوء على سوء سيرة هذا القاضي الحيري ، وانتفاء عدله ! فأعدل شاهد عنده من يقدم له الرشوة يتقرب بها إليه ! وأصدق الشهود لديه ؛ هو الدينار الأصفر ، يمسكه بأظفاره ! وأوثق ما في مجلسه غمزات الخصوم ، وهي تشير إلى الكيس المختوم المليء بالدراهم والدنانير ! أو ما يوضع له في المنديل والطبق ، يدفع إليه وقت الغلس والفلق ، بعيدا عن أعين الناس .. وأبغض ما في الحكم لدى هذا القاضي ؛ حكم المجلس ؛ لأنه يتكلف فيه عدم الجور ! وهذا ليس من صفته وسمته .. وأوحش ما لديه في الحكم أيضا ، هو خصومة الفقير لا يملك ما يقدمه إليه ! فيتمنى المظلوم القتل بدلا من هذا الجور ، فهو مع هذا القاضي الجائر كالمستجير من الرمضاء بالنار .

****

(4) وصف مظاهر الطبيعة المختلفة :

ومن الأمور والمشاهدات الحسية التي أطال الأدباء والكتاب الوقوف عندها، وبرعوا في تصويرها إبان هذا القرن أيضا ؛ وصف الطبيعة على اختلاف مظاهرها ، وتنوع مفرداتها .

فقد ألم كثير من الأدباء الكتاب في رسائلهم الأدبية بوصف ما غمر نفوسهم من مظاهر الجمال والبهجة ، وما بهرهم من مفاتن الطبيعة الخلابة في بيئاتهم الفسيحة في أقاليم المشرق الإسلامي بخاصة ؛ فوصفوا تلك الربوع الفينانة والمغاني

المنديل والطبق : يعني ما يوضع فيهما ، ويسلم إليه في أول الليل وعند طلوع الفجر .
خبيئة الذيل : أراد ذيل الثوب ، بمعنى المخبوء تحت ذيل ثوب الراشي .

الجميلة الساحرة ، والمروج العطرة النظرة ، وصوروا ببراعة فائقة ، ما وقعت عليه بصيرتهم من مظاهر الكون الفسيح ؛ من كواكب وأجرام وبحار وأنهار ، وتعاقب الليل والنهار ، وبزوغ الشمس والقمر ، وما إلى ذلك .

ووصفوا ما اعتراهم من أفراح وأتراح في تلك الفصول المتقلبة ، والأيام المتوالية ، والشهور والأعوام الخوالي ، فأمعنوا في وصفها ، وتحليل مساربها .

ويمكن تقسيم تلك المشاهد الوصفية التي وقف عندها الأدباء والكتاب في هذا القرن على صنفين هما :

(أ) وصف الربوع الفينانة والمروج الخضراء والبساتين وما يتخللها من أشجار وأزهار :

لقد أفاض الأدباء والكتاب في هذا القرن في وصف ربوع أوطانهم في أقاليم المشرق الإسلامي التي شهرت بمغانيها الجميلة الساحرة ، ومروجها النضرة، وافتنوا كثيرا في تصوير ما تخللها من بساتين ظليلة ، وما في أفنائها من أشجار وأزهار ورياحين ، وألوان الثمار الشهية [53] ، كما وصفوا طيب نسيمها ، ورقة مياهها .

ولعل من روائع ما وصل إلينا من رسائل أدبية وصفية في هذا الجانب ؛ ما كتبه أبو الفضل الميكالي في أحد فصول رسائله يصف ربوع (فيروز آباد) الجميلة ، وهي إحدى قرى رستاق جوين ، ومما ورد في هذه الرسالة [54] : " وما أنس لا أنس أيامي عنده بفيروز آباد إحدى قرى رستاق جوين ، سقاها الله ما يحكي أخلاق صاحبها من سيل القطر ، فإنها كانت ... أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون ، وإذا تذكرتها في المرابع التي هي مراتع النواظر ، والمصانع التي هي مطالع العيش الناظر ، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها ، ونشرت طرائف مطارفها ، طوي لها الديباج الخسرواني ، ونفي معها الوشي الصنعاني ، فلم تشبه إلا بشيمه ، وآثار

---

[53] يراجع ما ساقه الحصري من أوصاف أدباء هذا القرن للفواكه والثمار ، حيث ذكر جملة من أوصافهم لثمار الكروم والرطب والرمان والسفرجل والتفاح والتين والمشمش وغيرها : زهر الآداب وثمر الألباب : 349/2 .

[54] زهر الآداب وثمر الألباب: 174/1 .

قلمه ، وأزهار كلمه ، وتذكرت سحرا وسيما ، وخيرا عميما ، وارتياحا مقيما ، وروحا وريحانا ونعيما ... " .

ويصف الأديب الكاتب أبو الفتح البستي إحدى قرى (الرخج) في بلاد المشرق الإسلامي النائية ، وقد خرج إليها في فصل الربيع ، فوصف ما فيها من مروج خضراء ممرعة ، وأزهار ذكية ساحرة ، ومما ورد في ترسله [55] :" ... وكنت أدلجت ذات ليلة ، وذلك في فصل الربيع ... ففتح ضياء الشروق طرفي على قرية ذات يمنة محفوفة بالخضرة ، معمورة بالنور والزهر ، وأمامها أرض كأنها قد فرشت ببساط من الزبرجد ، منضد بالدر والمرجان ، مرصع بالعقيق والعقيان ، ينساب بينها أنهار كبطون الحيات ، في صفاء ماء الحياة ، وقد فغمني من نسيم هوائها عرف المسك السحيق ، بالعنبر العتيق ، فاستطبت المكان وتصورت فيه الجنان ... " [56] .

---

[55] يتيمة الدهر : 4/346-347 .

[56] أدلجت : أدلج : سار من أول الليل . وادلج (بتشديد الدال) سار من آخره . النور : إزهار الشجرة . يقال : نورت الشجرة تنويرا (وأنارت) أخرجت نورها الزبرجد : جوهر معروف . منضد بالدر : نضد ينضد متاعه أي وضع بعضه على بعض ، والنضيد : المنضود ومنه قوله تعالى : " لها طلع نضيد ". المرجان : صغار اللؤلؤ ، وفسره الواحدي بعظام اللؤلؤ ، وذهب آخرون : أنه خرز أحمر وهو المشهور في عرف الناس وقيل أيضا : هو عروق حمر تطلع في البحر كأصبع الكف (ينظر مختار الصحاح مادة م . ر . ج وهامش :620 منه) . العقيق : ضرب من الفصوص (مادة ع . ق . ق / مختار الصحاح) . العقيان : الذهب الخالص ، وقيل هو ما ينبت نباتا وليس مما يحصل من الحجارة (مادة ع . ق . أ : مختار الصحاح) . عرف المسك : رائحته ، والعرف : الريح الطيبة أو المنتنة . والمسك : من الطيب (فارسي معرب) ، وكانت العرب تسميه المشموم (مادة م . س . ك / مختار الصحاح) .

وقد افتن الأدباء الكتاب كثيرا في وصف البساتين الظليلة [57] ، وما تخللها من أشجار وأزهار ، وما اكتنفها من جداول وبرك ، وما توزع فيها من حياض كانت ملتقى للسمر والغناء ومجالس اللهو والشراب .

وقد برع الوزير الصاحب [58] في رسائل الاستزارة المشهورة التي وصلت إلينا ، في وصف تلك المجالس التي كانت تعقد في تلك البساتين النضرة ، والرياض الغناء ، إذ كان الصاحب بن عباد كثيرا ما يعرج على وصف ما تناثر فيها من أنواع الرياحين والزهور ، وما تتلذذ به النفوس من شذى الورد وعطر الياسمين ، وأطايب الثمار ، وأريح النسائم في تلك الجنان الخضراء .

كتب الصاحب بن عباد في أحد فصول رسائله يصف بستانا ، وما تخلله من أشجار باسقة ، ومياه رقراقة ، يقول [59] : " صرنا – أيد الله مولانا – في بستان كأنه من خلقه خلق ، ومن خلقه سرق ، فرأينا أشجارا تميل فتذكر تبريح الأحباب ، وقد تداولتهم أيدي الشراب ، وأنهارا كأنها من يد مولانا تسيل ، أو من راحته تفيض ... فلما دبت الكؤوس فيهم دبيب البرء في السقم ، والنار في الفحم رأى أن نجعل أنسنا غدا عنده ، فقلت : سمعا ، ولم استنجز لأمره دفعا ... " .

وللصاحب بن عباد أيضا من رقعة له في وصف روضة فينانة ، وقد ضمت في حناياها أشجارا ومياها وأطيارا ، يقول [60] : " مضيت وشاهدت أحسن منظر ، فالأرض زمردة ، والأشجار وشي ، والماء سيوف ، والطير قيان" .

---

[57] تراجع رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أحد تلاميذه ، وقد فوض إليه العناية ببستان له ، وقد أبدع الكاتب في وصف هذا البستان : رسائل أبي بكر الخوارزمي :19–20 .

[58] ينظر رسالته في وصف تنوير خلاف قد نور : يتيمة الدهر: 289/3 ، ورسالة أخرى له في وصف شقائق النعمان وثمر النارنج : اليتيمة :288/3 ، ورسالة أخرى في وصف بستان وما تخلله من زهر وجداول : اليتيمة : 287/3 .

[59] يتيمة الدهر: 287/3 .

[60] يتيمة الدهر : 288/3 .

ومن رسائل الوصف في هذا الباب أيضا ؛ رسالة أدبية طريفة لأبي إسحاق الصابي ، يصف فيها بقعة أرض نضرة ، تخللها بستان ظليل ، يضوع بالأرج وقد تكللت أرجاؤه بالأشجار الباسقة المكسوة بالخضرة الداكنة ، يقول [61] : " قد تضوعت بالأرج أرجاؤها ، وتجملت بظل الغمام صحراؤها ، وتفاوضت بضرائب المنطق أطيارها ، بستان كأنه أنموذج الجنة ، ولا يحل للأريب أن يحل إلا به ؛ به أشجار كأن الحور العين أعارتها ثيابها ، وكستها برودها ، وحلتها عقودها ".

****

(ب) وصف مظاهر الكون والطبيعة الأخرى :

ومن مشاهد الكون الفسيح ، والطبيعة العجيبة التي استوقفت الأدباء والكتاب في هذا القرن ، وأطالوا التأمل أحيانا في كنهها ، وافتنوا في وصفها : حدوث بعض الظواهر الكونية العجيبة ؛ كظاهرة تعاقب الليل والنهار ، وبزوغ كوكبي الشمس والقمر وأفولهما ، كما ألم كتاب هذا القرن أيضا في تصوير انتصاف الليل وتناهيه ، ثم انتشار النور ، وأفول النجوم ن وغيرها من الظواهر الكونية .

ومما كتبوه في تصوير ملامح هذه الظواهر العجيبة قولهم [62] : ((...انهتك ستر الدجى ، وشمطت ذوائبه ، وتقوس ظهره ، وتهدم عمره .

- قوضت خيام الليل ، وخلع الأفق ثوب الدجى .
- أعرض الظلام وتولى ، وتدلى عنقود الثريا ، وطرز قميص الليل بغرة الصبح، وباح الصباح يسره .
- لاحت تباشير الصبح ، وافتر الفجر عن نواجذه ، وضرب النور في الدجى بعموده .
- خلعنا خلعة الظلام ، ولبسنا رداء الصباح ، وملأ الآذان برق الصباح ، وسطع الضوء ، وطلع النور ، وأشرقت الدنيا ، وأضاءت الآفاق ... " .

---

[61] من عاب عنه المطرب :240 .

[62] زهر الآداب وثمر الألباب : 806/3 .

وأبدع الأدباء الكتاب أيضا في تصوير طلوع الشمس وغروبها ، ومما كتبه أدباء هذا القرن في ذلك قولهم [63] : " بدأ حاجب الشمس ، ولمعت في أجنحة الطير ، وكشفت قناعها ، ونثرت شعاعها ، وارتفع سرادقها ، وأضاءت مشارقها وأنتشر جناح الضوء في أفق الجو .

- استوى شباب النهار ، وعلا رونق الضحى ، وبلغت الشمس كبد السماء ...
- اصفرت غلالة الشمس ، وصارت كأنها الدينار يلمع في قرارة الماء ، ونفضت تبرا على الأصيل ، وشدت رحلها للرحيل وتصوبت الشمس للمغيب وتضيفت للغروب ، فأذن جنبها للوجوب ... " .

كما افتن أدباء هذا القرن أيضا في وصف الكواكب والنجوم ، والأجرام السماوية ، ووصف حركاتها وأحوالها ، وأشاروا إلى بروجها وأفلاكها [64] .

ولم يقف بعض أدباء هذا القرن عند وصف هذه الأجرام والكواكب ، بل تخطى حدود ذلك إلى تحليل كثير من الظواهر الكونية وتفسيرها ومناقشتها كظاهرة خلق العالم وتكونه ، وظاهرة حركة النجوم والكواكب والأجرام السماوية وسيرها عبر الأفلاك ، ودخولها في البروج المختلفة ، وعلاقة ذلك بما يقع للإنسان من سعد أو نحس ، وما إلى ذلك .

ولعل أهم ما وصل إلينا في هذا الجانب ؛ ما كتبه الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير في بعض رسائله الفلسفية التي أوردها عبد الرحمن اليزدادي في كتابه (كمال البلاغة) ، فقد تناول الأمير قابوس في إحدى تلك الرسائل وهي " في

---

[63] زهر الآداب وثمر الألباب: 3/822-823 .

[64] تراجع مثلا رسالة ابن العميد في وصف القمر وأحواله : زهر الآداب 4/1065-1066، وتراجع أيضا رسالته في وصف هلال رمضان ، وما عرج فيها إلى ذكر القمر ومنازله =وما ذكر من الأفلاك والبروج : المصدر نفسه :2/580 ، يتيمة الدهر: 3/190 وما بعدها وتراجع أيضا : رسالة الهمذاني في وصف شهر رمضان ، وقد اجتلب فيها كثيرا من رسالة ابن العميد الآنفة الذكر : زهر الآداب: 2/580 .

وصف العالم وذكر تكونه" [65]، مسائل فلسفية مهمة تتصل بخلق العالم وعلة تكونه ، وأتى إلى وصف كثير من المسائل التي تتصل بخلق الكون ودحض حجج من زعم أن سبب كون هذا العالم أو علة خلقه تعود إلى (جوده) – جلت قدرته – كتب الأمير قابوس في هذه المعاني يقول [66] : " ... إن سبب كون هذا العالم ليس ما زعمه الزاعمون أنه جود من الباري – جل جلاله – أظهره ليعلم به أنه جواد ... ولكنه لما كان حيا دائم الحياة ، قادرا قويا وعالما حكيما ، ذا الجلال والعزة والملك والعظمة ، لم يكن لظهور هذه الصفات منه بد من غير أن كان له فيه قصد ، فكان ظهورها كون هذا العالم الدال على صفاته التي ذكرناها ظهور الضياء والنور من جوهر مضيء نير من غير قصد منه لأظهاره، وانتشار الحرارة من النار من غير قصد منه لنشرها ، وكذلك اللمع من اللامع ، والفوح من الفائح ... " .

ويصف الأمير قابوس أيضا في رسالة فلسفية أخرى ، وهي " في بطلان أحكام النجوم " [67] ، علة خلق النجوم ، ويصف سيرها ، وشرف أصلها ، ويفند مزاعم من يزعم أنها تجلب النحس عند دخولها إلى أبراج أخرى جديدة !

كتب الأمير قابوس في هذه الرسالة يقول [68] : "... ثم إن الكواكب هي أجرام علوية ، نيرة مضيئة ، دائمة الحركة والسير ؛ لإظهار المنافع والخير ، على الجهات التي قدرها البارئ ، سبحانه فيها ، والهيئات التي ركبها عليها...".

ويصف بعض أدباء هذا القرن أيضا حركة بعض الكواكب والأجرام السماوية ، ويفتن فيما أضفاه عليها من تجريد ، وما أبدعه من صور ذهنية طريفة، على شاكلة قولهم [69] : " مالت الجوزاء للغروب ، وولت مواكب الكواكب ، وتناثرت عقود

---

[65] كمال البلاغة :84-95 .

[66] المصدر نفسه :85-86 .

[67] كمال البلاغة :99-105 .

[68] كمال البلاغة : 99 .

[69] زهر الآداب وثمر الألباب: 86/3 .

النجوم ، وفرت أسراب النجوم من حدق الأنام ، وهى نطاق الجوزاء ، وانطفأ قنديل الثريا " .

ومن مشاهد الكون والطبيعة التي استوقفت الأدباء والكتاب في هذا القرن أيضا ؛ وأطالوا التأمل في حقائقها ، وافتنوا في وصفها أيضا ؛ تعاقب الأيام والفصول ، واختلاف أحوالها بين شدة القر ، ولفح الحر ، وارتباط ذلك بحياتهم وتأثيره في أمزجتهم ، ومن هنا فقد عبروا عن امتعاضهم من البرد القارص وقسوة أيام الشتاء الثلجية .

ومن روائع صورهم في هذا الباب ؛ ما كتبوه في فصول رسائلهم البليغة ومما وصل إلينا منها قولهم [70] : " ... ضرب الشتاء بجر انه ، واستقل بأركانه وأناخ بنوازله ، وأرسى بكلاكله ، وكلح بوجهه ، وكشر عن أنيابه .

- قد عادت هامات الجبال شيبا ، ولبست من الثلج بردا قشيبا .
- برد حال بين الكلب وهريره ، والأسد وزئيره ، والطير وصفيره والماء وخريره ... " .

وكتب الصاحب بن عباد إلى بعض ندمائه في يوم ثلج [71] : " كتبت والدنيا كافوره ، والدر ينتشر ، والكؤوس تدور ، والراح ياقوت أحمر ، ونحن من أطباق البرد فيما نستغيث منه إلى حر الراح ، وسورة الأقداح ، وهي خير من كل شعر ووبر " .

وبرع أدباء هذا القرن أيضا في تصوير شدة الحر ، ولفح الهاجرة ، فصوروه تارة بصور حسية جميلة تشير إلى فداحة وطأته عليهم ؛ فكتبوا في بعض فصول رسائلهم [72] " ... حر الصيف كحد السيف ، أوقدت الشمس نارها ، وأذكت أوارها ، كأن البسيطة من وقدة الحر بساط من الجمر ... " .

---

[70] المصدر نفسه : 940/4 .

[71] من غاب عنه المطرب : 77 .

[72] زهر الآداب وثمر الألباب: 941/4 .

وصوروه تارة أخرى بصورة ذهنية مجردة ، ومما وصفوه في فصول رسائلهم قولهم [73] "... هاجرة كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتملت فيها نار الفراق ، هاجرة تحكي نار الهجر ، وتذيب قلب الصخر ... أيام كأيام الفرقة امتدادا ، وحر كحر الوجد اشتدادا ... " .

وبين اتقاد الحر ولهيبه ، وشدة القر ودبيبه ، وقف بعض الأدباء الكتاب في هذا القرن ، يصف فصل الخريف بأنه أعدل الفصول وأصحها .

كتب أبو إسحاق الصابي في فصل من رسالة له يقول فيه [74] : " الخريف أصح فصول السنة زمانا ، وأسهلها أوانا ، وهو أحد الاعتدالين المتوسطين بين الانقلابين ، حين أبدت الأرض عن ثمرتها ، وصرحت عن زينتها، وأطلقت السماء حوافل أنوائها ، وتأذنت بانسكاب مائها ، وصارت كمتون المبارد صفاء من كدرها ، وتهذبا من عكرها ، واطرادا مع نفحات الهواء ، وحركات الريح الشجواء ، واكتست الماشية وبرها القشيب ، والطائر ريشه العجيب ".

ومما برع فيه بلغاء الكتاب إبان هذا القرن أيضا ؛ وصف الأيام السالفة والدهور الخالية ، فصوروا بمشاعر جياشة متوقدة ، حسراتهم الحرى على تلك الأيام الماضية ، وأفصحوا عن تأسفهم لانقضائها [75] ، وسرعة جوازها ووصفوا بأنفاس مضطرمة ؛ تلك الليالي الملاح التي تخجل خدود الرياض ، والساعات العذبة التي هي ألطف من مسارقة النظر ، ومخالسة القبل .

وقد افتنوا في خلق صور حسية ومعنوية (ذهنية) رائعة ، جسدت مشاعرهم الملتهبة ، وأحاسيسهم الصادقة .

---

[73] المصدر نفسه :941/4 .

[74] نهاية الأرب في فنون الأدب: 175/1 .

[75] تراجع رسالة الخوارزمي إلى أبي عبد الله النحوي الخطيب بالري ، يصف شوقه إليه ويحن إلى الأيام الخالية ، ويصف ليالي الأنس : رسائل أبي بكر الخوارزمي :97-99.

ومن روائع ما وصل إلينا من هذا اللون من الرسائل الوصفية ؛ ما كتبه أبو الفضل ابن العميد في التأسف على الأيام السالفة ، وسرعة انقضائها ، إذ يقول[76]: " أيامنا التي جازت أيام الشباب حسنا ورقة ، وفاقت أعلام المطارف لينا ودقة ولياليا التي تخجل خدود الرياض ، وتفضح حواشي الحلل ، وساعاتنا التي هي ألطف من مسارقة النظر ، ومخالسة القبل ، ونعسة الرقيب ... وحفظ العهد ، وإنجاز الوعد " .

ويفتن الصاحب بن عباد في وصف تلك الأيام الخالية أيضا ، فيمد لخياله العنان في استلهام ما تثيره من ذكريات عذبة ، فإذا به أمام سحر وسيم ، وعيش جسيم ، فكل ما في تلك الأيام الخوالي ، خير عميم ، وابتهاج مقيم ، ثم لا يلبث أن يصحو على واقع آخر ، فإذا تلك الأيام الحلوة قد ولت مدبرة ، فكأنها أنفاس لا تلبث أن تتلاشى .

كتب الوزير الصاحب في فصل من رسالة له في التأسف على الأيام السالفة يقول فيه [77] : " تذكرت أيامنا ، فتذكرت سحرا وسيما ، وعيشا جسيما ، وراحا وريحانا ونعيما ، وخيرا عميما ، وابتهاجا مقيما . أيام حسنت فكأنها أعراس ، وقصرت فكأنها أنفاس " .

****

وهكذا كانت الرسائل الوصفية في هذا القرن – بوصفها إحدى ألوان الرسائل الأدبية – وثائق تاريخية وأدبية مهمة ؛ إذ إنها سجلت بدقة متناهية ، كل ما عرض لطبقة الأدباء والكتاب في مجتمعاتهم الإسلامية ، وبيئاتهم الفسيحة ، من أحداث ومفارقات ، وصورت ما وقعت عليه عيونهم وأحاسيسهم من مشاهد مادية، وأمور معنوية مختلفة ، فكانت هذه الرسائل بحق ، سجلا حافلا بكثير من أحداث العصر ووقائعه .

---

[76] من غاب عنه المطرب :122 .

[77] من غاب عنه المطرب :122 .

ومن جانب آخر ، فإن هذا الضرب من الرسائل الأدبية كانت نماذج فنية متميزة ؛ إذ إنها جسدت بوضوح براعة بلغاء الكتاب في وصف ما وقعت عليه حواسهم ، وتشخيص ما تلمسوه بوجدانهم وعقولهم ، وكشفت أيضا ، عن مقدرتهم العالية في التصوير ، وتشخيص المعنويات ، أو تصوير المحسوسات إطار المعاني الذهنية المجردة ؛ لخلق صور جديدة ، ومعان مبتكرة .

وهكذا كان هذا الضرب من الرسائل الأدبية ميدانا فسيحا للخلق والابتكار والتجويد ؛ بما استلهمه الأدباء الكتاب في هذا القرن من صور نادرة ، ومعان جديدة مبتكرة ، أبدعتها قرائح كتاب لم يجد الزمان بأمثالهم في عصور الأدب العربي اللاحقة .

المبحث الثالث

الرسائل الهزلية والمفاكهات الأدبية

وهي الضرب الثالث من الرسائل الأدبية التي شاع تبادلها بين الأدباء والكتاب في هذا القرن ، ويشمل هذا الضرب من الرسائل : المكاتبات الهزلية التي كانت تنطوي على الفكاهة ، وروح الدعابة ، والمباسطات أو المفاكهات الأدبية في كثير من القضايا الشخصية والاجتماعية المختلفة ، وتشمل أيضا المكاتبات التي انطوت على السخرية اللاذعة المشوبة بروح التهكم أو الدعابة والتندر ، وما إلى ذلك .

وما من شك في أن ما صدر عن بلغاء الكتاب في هذا القرن من نزوع واضح إلى الفكاهة والمرح ، أو السخرية والتندر في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية إنما كان مظهرا من مظاهر نزعتهم الفنية التي خامرت طبيعتهم المرحة ، أو انبثقت عن رغبتهم في الجنوح إلى هذا اللون من النثر الفني الفكه ، وكان أكثر الأدباء الكتاب – لحسهم المرهف ، ونفسيتهم المنشرحة – يتوخون في مفاكهاتهم وكتاباتهم المرحة الساخرة تنشيط المتلقي ، وبث النشوة في روحه ؛ دفعا لصدأ الهموم عنه ، وجماما لقوته .

ويتفق أكثر الذين بحثوا في النثر الفني العربي على أن هذا اللون من الرسائل الأدبية – على الرغم من انتشارها في هذا القرن ، وظهورها ظهورا واضحا – ليس مما ابتكره كتاب هذا القرن ، وإنما كان لهم فضل انتشاره وتطويره ، حتى صار فنا واضح الرسوم ، " بحيث يمكن الحكم بأن الكتاب كانوا يقصدون إليها قصدا ، ويتنافسون في تزويرها وتحبيرها " [1] .

بينما ذهب باحث آخر إلى تأخر ظهور هذا اللون من الكتابة التي أسهمت في فن الفكاهة التي تسري عن النفوس ، وتنفض عنها غبار الهموم . وذهب هذا الباحث إلى أنه " لم يكن للعرب بهذا النمط من الفكاهة عهد لا في الشعر ولا في

---

[1] النثر الفني في القرن الرابع : 161/1 .

النثر ، اللهم إلا أخبار تروى ، وطرائف تحكى ، أما الفكاهة المنشأة شعرا أو نثرا، فهي حديثة عهد بالعرب ، ولم تظهر إلا في نطاق هذه الحضارة " [2] .

ولا جرم أن رسائل الفكاهة المرحة ، والمكاتبات النثرية التي انطوت على السخرية اللاذعة ، والتهكم الفكه ، كان من مستحدثات الحضارة الإسلامية في العصر العباسي إبان القرن الثالث تحديدا ، ولعل أبا عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) يقف في طليعة أدباء العربية الذين كان لهم فضل السبق إلى ابتكار هذا اللون من النثر الفكاهي ، والأدب الساخر المشوب بالتهكم والتندر .

لقد اشتهر أبو عثمان الجاحظ بظرفه الجم ، وروح الدعابة في طبعه وفي إسلوبه ، فكان يخلط الجد بالهزل ، ويمزج الحقيقة الجافة بالنكتة المرحة ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر نزعته الفنية التي كانت تهدف إلى الترويح عن القارئ وإزالة ما علق به من صدأ السأم والملل ، " فيوفر له ما يبهج نفسه ، ويسر خاطره من طرائف ونوادر " [3] .

وكثيراً ما كان الجاحظ يصرح في مقدمات بعض كتبه ، وثنايا رسائله ، بمنهجه في إيثار الفكاهة والضحك ، والخلط بين الجد والهزل .

يقول مثلا في مقدمة كتابه (البخلاء) [4] : " ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرض حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت في ضحك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد " .

وينوه الجاحظ في كتابه (الحيوان) أيضا بمنهجه في الفكاهة ، وخلط الجد بالهزل ، والنزوع إلى المرح ، فيقول [5] : " وإن كنا قد أمللناك بالجد ... فإنا سننشطك ببعض البطالات ... فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه من السرور والضحك والاستطراف ما لا يبلغه حشد أحر النوادر وأجمع المعاني " .

---

[2] معالم الحضارة الإسلامية :251 .

[3] النثر الفني وأثر الجاحظ فيه :260 .

[4] البخلاء (المقدمة) : 1/ 28 (ط دار الكتب المصرية) .

[5] الحيوان : 7/3 .

وكذا يقال عن ظاهرة السخرية المشوبة بالتهكم أو التندر الفكه في نثر الجاحظ ؛ إذ كانت سخريته اللاذعة صادرة عن روح شفافة مرحة ، ونفس منطلقة متوثبة طروب . ومن هنا لم تكن سخرية أبي عثمان الجاحظ ، وتهكمه الفكه إلا وسيلة فنية يستعين بها على نقده للظواهر الشاذة ، والأمور غير الطبيعية .

ولعل خير نموذج من نثر الجاحظ يظهر قوة هذه النزعة الفنية في أدبه ؛ رسالة التربيع والتدوير [6] التي دبجها في السخرية والتندر بأحد معاصريه ، وهو أحمد بن عبد الوهاب وهجائه ، إذ عمد الجاحظ في هذه الرسالة النادرة إلى فنون شيقة من التصوير الفني ، والبراعة النادرة في التلوين والتكوين ، والفكاهة المرحة الخفيفة ، والسخرية اللاذعة [7] ، حتى عدها بعض الباحثين المعاصرين[8] خير مثال لأرقى أساليب التهكم والسخرية التي عرفها النثر العربي ، إذ تجلت في هذه الرسالة النادرة مقدرة الجاحظ الفذة على التصوير الساخر الذي يتغلغل في أعماق النفس ، ويستبطن كل ما فيها ، فيصور الأشياء كما يصورها الفنان القدير بريشته الساحرة جميع حركاتها وخلجاتها .

ولعل الأستاذ عبد الحكيم بليع لم يكن مغاليا أيضا ، حين قرر أن ما استنه أبو عثمان الجاحظ من أدب الفكاهة والسخرية والتهكم ، كان " ظاهرة جديدة في النثر الفني العربي ، ولم تشع بعده إلا بنفثة من سحره ، وقوة من روحه [9] " .

لقد بدأ أدب الفكاهة السخرية – ولاسيما النثر الهزلي الفكاهي الساخر – في ظل الحضارة الإسلامية التي فاح شذاها في ربوع الأقاليم الإسلامية وحواضرها إبان هذا القرن ، يشيع شيوعا ظاهرا ، وقد تضافرت أسباب عديدة حفزت لشيوع هذا اللون من النثر الفكاهي الساخر ، لعل أهمها ما يأتي :

---

[6] رسالة التربيع والتدوير . ينظر : رسائل الجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام هارون (الناشر مكتبة الخانجي) ، القاهرة 1384هـ . 1964م : .

[7] معالم الحضارة الإسلامية : 252 .

[8] النثر الفني وأثر الجاحظ فيه – د. عبد الحكيم بليع :268 .

[9] المرجع نفسه :264 .

(1) العامل الحضاري :

إن ما شهدته حاضرة الخلافة ، وبعض حواضر الإمارات الإسلامية المستقلة في أقاليم المشرق إبان هذا القرن ، من مظاهر الترف ، ولين العيش ودعته – ولاسيما في أوساط الطبقة الخاصة – بما لم يبلغه المجتمع الإسلامي من قبل ، ساعد على انتشار مظاهر البذخ واللهو ، وعقد مجالس الغناء والشراب والأنس ، وإقامة منتديات الأدب الراقية التي كان يؤمها الأدباء وغيرهم من وجوه الطبقة الخاصة ومقربيهم ؛ لتزجية أوقاتهم ، وقضاء فراغهم بين سحر الغناء وأجواء الأنس ، ومتعة الأدب .

وقد رافق هذه الأجواء الساحرة ، والمنتديات الأدبية العامرة ، كتابة الكثير من فصول الرسائل المرحة ، والرقع الهزلية ، والمفاكهات الأدبية ، والمباسطات الهازلة بين أدباء الطبقة الخاصة ، وأترابهم ؛ للدعوة إلى حضور تلك المجالس والمنتديات ، أو وصفها ، وتصوير ألوان المتع التي يقتنصها الأدباء والندماء في أجوائها الندية الساحرة [10] .

ولعل ما أورده أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر [11] ، من فصول طريفة للصاحب بن عباد في كتابه (الروزنامجة) ، وهو يصف فيها لأستاذه أبي الفضل ابن العميد ، ما شاهده في مجالس أبي محمد الوزير المهلبي في بغداد، وما رواه من ملح ونوادر ندمائه ، خير شاهد لأجواء الفكاهة والمرح في تلك المنتديات في هذا القرن .

---

[10] تراجع فصول عديدة من رسائل المفاكهات للصاحب بن عباد وأبي النصر العتبي والميكالي وغيرهم في هذا الباب : يتيمة الدهر 284/3 (رسالة هزلية للصاحب إلى أبي العلاء الأسدي في الظرف والمداعبة ، وتراجع رسالتان أخريان للصاحب أيضا في المداعبة : اليتيمة: 291/3–292) ، وتراجع رسالتان للعتبي في يتيمة الدهر: 459/4–461 ؛ في الدعوة إلى حضور مجلس أنس وشراب .

[11] ينظر : يتيمة الدهر: 269/2 وما بعدها .

(2) تردي الأوضاع الاقتصادية :

وهو الوجه الآخر الذي يكشف عن طبيعة حياة السواد الأعظم من الرعية والطبقة العامة ، وما كانوا يعانونه من ضنك العيش ، وفداحة الضرائب التي كانت تثقل كاهلهم ، فضلا عما واجهوه أيضا من ظلم الحكام والولاة ، وتعسف عمال الخراج ، وجباة الضرائب ، وغيرهم .

ولقد تأثر بعض الأدباء الكتاب في هذا القرن بهذه الأوضاع الاقتصادية المتردية ، وبرموا بحياتهم ، وضجروا من واقعهم ؛ لما قاسوه من بطش وجور ومصادرة لأموالهم وضياعهم ، ومطاردة وما إلى ذلك .

ومن هنا ، راح بعض الكتاب ، كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وغيرهما ، يوجهون سهام نقدهم اللاذع إلى كل مالا يتفق وتطلعاتهم ، أو ما يتعارض ورغبات الكثرة الغالبة من الرعية ومصالحها .

وهكذا اتخذ الأدباء الكتاب ، نتيجة لكل ما تقدم ذكره ، النثر الساخر الذي يقوم على النقد اللاذع والتهكم الساخر على الولاة الظلمة ، وعمال الخراج ، وجباة الضرائب وغيرهم ، والتنديد بتعسفهم وبطشهم بالرعية . وقد وجدوا بالسخرية اللاذعة أسلوبا ناجعا لصد غائلة الجور ، وتعسف الولاة والعمال ، وطريقا مؤثرا للتعبير عن مشاعر الفئات المسحوقة من الرعية ، وتصوير معاناتها ، والبلوغ إلى تطلعاتهم في دفع الظلم ، وإقامة العدل ، ونشر الأمن والطمأنينة[12].

يقول بعض الباحثين مشيرا إلى براعة الخوارزمي في تصوير ضروب الجور والتعسف التي كان يمارسها جباة الضرائب ، وتهكمه الساخر برموز الظلم من الحكام الجائرين [13] : " كان الخوارزمي يلجأ إلى تضخيم الصورة وتكبيرها ، ويقرنها بطائفة من الصور المنفرة الأخرى ، وقد يعمد أحيانا إلى قلب الصور زيادة في

---

[12] وهناك لون آخر من النثر الفكاهي الساخر اتجه إليه الخوارزمي ، سنعرض له لاحقا وهو السخرية اللاذعة ببعض الشخصيات . تراجع رسالته إلى البديهي . رسائل الخوارزمي :235-250 .

[13] أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه (رسالة ماجستير) محمود الضمور :323 .

السخرية ، وهو في كل ذلك حريص على إثارة الضحك من هذه الصور الشوهاء المنفرة ، غايته من ذلك التأثير في مشاعر الآخرين ، والسيطرة على أحاسيسهم ، وتوجيه انفعالاتهم باتجاه الحدث ، أو الشخص الذي يريد أن يسخر منه " .

ولعل رسالة أبي بكر الخوارزمي الساخرة [14] التي كتبها إلى صاحب ديوان الحضرة التي صور فيها تعسف عمال الخراج ، وجباة الضرائب ، وسخريته المرة بسلوكهم المشين ، خير شاهد يجسد لنا هذا اللون من النثر الساخر الفكه في هذا القرن .

****

(3) ميل كثير من الأدباء والكتاب إلى الهزل والفكاهة :

عرض كثير من الأدباء والكتاب إبان هذا القرن ، في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية إلى أسلوب الفكاهة والدعابة ؛ لما عرف به كثير منهم من خفة الروح ، والميل الواضح إلى المرح والظرف .

وقد اقتضت طبيعة بعض الموضوعات التي تناولها الكتاب في رسائلهم الشخصية أيضا ، تلك المداعبة والظرافة ، أو الأسلوب الفكه ، ليسري الكاتب بهذا الأسلوب التعبيري الطريف عن النفوس ، وليزيل السأم والملل .

لقد شاع عن كثير من الأدباء والكتاب في هذا القرن ، فضلا عن بعض الأمراء والقضاة ووجوه الطبقة الخاصة ، ميلهم الواضح إلى الدعابة والمرح ، فضلا عما شهروا به من حضور البديهة ، واتقاد الخاطر ، وتلقف النادرة الخفيفة ، والنكتة الطريفة . فقد ذكر الثعالبي – نقلا عن الصاحب ابن عباد في كتابه الروزنامجة –

---

[14] تراجع هذه الرسالة في : رسائل أبي بكر الخوارزمي :138–139 .

أن القاضي ابن قريعة البغدادي [15] مثلا ، وهو أحد ندماء الوزير المهلبي ، كانت له نوادر غريبة ، وملح عجيبة [16] .

وقد ذكره أبو الفداء في تاريخه إذ قال [17] : " وكان إحدى عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالجواب عن جميع ما يسأل عنه ، في أفصح لفظ وأملح سجع ... وكان رؤساء العصر يلاعبونه ويكتبون إليه المسائل المضحكة ، فيكتب الجواب من غير توقف ، وكان الوزير المهلبي يغري به جماعة يضعون له الأسئلة الهزلية ليجيب عنها ... " .

ومن القضاة الأدباء الذين شهروا بالظرف ، وخفة الروح أيضا : القاضي أبو القاسم علي بن محمد التنوخي [18] ، وكان – كما وصفه الصاحب بن عباد في فصل من رسالة له يقول فيه [19] : " إن أردت فإني سبحة ناسك ، أو أحببت فأني تفاحة فاتك ، أو اقترحت فأني مدرعة راهب ، أو آثرت فأني نخبة شارب – آية في الدعابة والفكاهة والمرح وحضور البديهة ".

وقد أشار الثعالبي إلى " أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة ، والتبسط في القصف والخلاعة ... " [20].

ومن أدباء الطبقة الخاصة الذين عرفوا بمزاجهم الطروب ، وروحهم الفكهة وابتسامتهم الوضيئة في هذا القرن : أبو محمد الوزير المهلبي ، وأبو الفضل ابن العميد ، وأبو القاسم الصاحب بن عباد . فقد زهقت نفوس هؤلاء الوزراء الأدباء من

---

[15] هو القاضي محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن قريعة البغدادي ، وكان قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد ، والسندية قرية على نهر عيسى بين بغداد والأنبار . ينظر : تاريخ أبي الفداء : 462/1 ، يتيمة الدهر: 394/2 .

[16] يتيمة الدهر: 269/2 .

[17] تاريخ أبي الفداء ، المختصر في أخبار البشر: 462/1 (أحداث سنة 367 هـ) .

[18] تراجع ترجمته وأخباره في يتيمة الدهر: 393/2 .

[19] المصدر نفسه: 393/2 .

[20] المصدر نفسه : 393/2 .

أسباب الفكاهة والمرح في عصرهم ، ما كان سببا إلى رواج النثر الفكاهي الساخر ، وشيوعه في هذا القرن .

أما الوزير أبو محمد المهلبي ؛ فقد بلغ من فرط ميله للفكاهة ، ونزوعه إلى الهزل – ما مر بنا آنفا – أنه كان يغري جماعة من الكتاب الظرفاء بالقاضي ابن قريعة ، فيضعون له الأسئلة الهزلية ليجيب عنها ، وكانت بعض تلك الرقع الجوابية تصل أحيانا إلى حد المجون والخلاعة ! طلبا للفكاهة والهزل .

والوزير الأديب أبو الفضل ابن العميد ، على ما رزق من ثقافة واسعة وطبيعته مرحة ، في بيئة فنانة مترعة بالجمال الخلاب ، كانت بعض فصول نثره الفني تنزع إلى الهزل ، وكانت مشوبة بروح الدعابة والأسلوب الفكهه [21] وكانت فصول أخرى من رسائله تجمع مع الفكاهة الحلوة ، السخرية اللاذعة ، أو التهكم الممزوج بالدعابة والمرح [22] .

أما الوزير الصاحب بن عباد ، فقد شهر – على ما كان عليه من هيبة ووقار ومنزلة رفيعة سامية [23] – أنه كانت فيه رقة ودماثة ! فقد روى صاحب اليتيمة [24] : أنه كان يقول لبعض خواصه من ندمائه إذا أراد أن يبسطهم ويؤانسهم : "نحن بالنهار سلطان ، وبالليل إخوان " .

---

[21] تراجع رسالته في وصف شهر رمضان ، ومداعبته الظريفة لهلاله ، ودعاؤه عليه – تظرفا – بالضنى والهزال في لغة مرحة ندية ، وأسلوب فكه مترع بالجمال : يتيمة الدهر: 3/190–192 .

[22] تراجع رسالة ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري الساخرة : زهر الآداب وثمر الألباب: 3/877–878 .

[23] يراجع في خبر وقاره وهيبته ؛ يتيمة الدهر: 3/236–237 ، حيث ساق الثعالبي خبرا عن ممازحة الأمير فخر الدولة البويهي للصاحب ، واعتذاره إليه ، بعد أن أظهر الصاحب كراهته لانبساطه معه . يقول الثعالبي : " ولم يعد – يعني فخر الدولة – بعدها لما يجري مجرى الهزل والمرح : .

[24] يتيمة الدهر: 3/233 .

ولعل ما ساقه الثعالبي في اليتيمة أيضا في ذكر " البرذونيات " [25] وهي مجموعة قصائد أوعز الصاحب إلى ندمائه المقيمين في جملته ، أن يعزوا أبا عيسى بن المنجم ، ويرثوا برذونه (أصداء) الذي نفق بأصبهان ، فقال كل منهم قصيدة هزلية في رثائه – لخير شاهد على دماثة الصاحب ، ونزوعه إلى الظرف والفكاهة [26] .

وربما كان ما وصل إلينا من فصول رسائل الهزل والفكاهة لأبي القاسم الصاحب بن عباد ، يفوق ما بأيدينا من هذا اللون من الرسائل الأدبية لسواه من أدباء هذا القرن [27] .

ومن صدور الكتاب وبلغائهم الذين شهروا بنزوعهم إلى الهزل والفكاهة في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية في هذا القرن أيضا : أبو إسحاق الصابي ، وأبو بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني .

أما أبو إسحاق الصابي ؛ فقد شهر من خلال ما وصل إلينا من رسائله الهزلية في الفكاهة والسخرية [28] ، بخفة الروح ، ونزوعه إلى المرح والتندر – على

---

[25] ينظر : يتيمة الدهر: 253/3 وما بعدها .

[26] يبدو أن نزوع الصاحب بن عباد إلى الفكاهة والهزل كان يلازمه منذ مقتبل عمره ، يراجع ما ذكره ياقوت الحموي عن تعرض الصاحب في حداثته لابن شمعون ، أثناء دراسته في بغداد . معجم الأدباء : 368/6 .

[27] يراجع الباب الحادي عشر من مجموع رسائل الصاحب بن عباد في (الملاطفات والمداعبات) ص152–162 ، ويضم هذا الباب عشر رسائل في المفاكهات والمباسطات الأدبية ، وينظر أيضا ما أورده الثعالبي في اليتيمة من رقع وفصول رسائل في الفكاهة والهزل للصاحب : رسالة هزلية للصاحب إلى أبي العلاء الأسدي: 284/3 ، وينظر أيضا ثلاثة فصول قصيرة للصاحب في المداعبة والهزل : اليتيمة 3:/291–292 .

[28] تراجع رسالته الطويلة في التطفل : صبح الأعشى: 365/14 وما بعدها ، ورسالته إلى أبي بكر بن قريعة يعزيه في ثور أبيض نفق له : زهر الآداب وثمر الألباب: 1032/4–1034 ، ورسالته إلى رجل تزوجت أمه : نشوار المحاضرة :211/3 ، ديوان المعاني 100/1–101 ، وغيرها وسنلم بدراسة هذه الرسائل لاحقا .

الرغم مما عصف بحياته من محن ونكبات ، وما ألم به من علل ونوائب – حتى عده بعض الباحثين أنه ليس عميد الكتاب في الدواوين الرسمية فحسب وإنما عميداً لكتاب الفكاهة أيضا [29] .

بينما وقف أبو بكر الخوارزمي ، من خلال نثره التهكمي الساخر الذي وصل إلينا جانب مهم منه ، داعية تغيير اجتماعي [30] ، إذ عمد إلى تصوير معاناة طبقات الشعب الفقيرة التي كانت ترزح تحت وطأة الظلم والضرائب الفادحة التي تدفعها قسرا لعمال الخراج وغيرهم ، فضلا عن منحاه الآخر في النثر الفكاهي الساخر الذي جارى فيه أسلوب الجاحظ في تصوير شخصيات البخلاء ، أو التندر والسخرية بشخصية أحد معاصريه في رسالة التربيع والتدوير ، كما أشرنا آنفا ، وهذا ما سنراه في رسالته الساخرة إلى أبي الحسن البديهي[31].

أما بديع الزمان الهمذاني فقد كان أحد أشهر كتاب النثر الفكاهي الساخر في هذا القرن ، وهذا ما تجلى واضحا في كثير من مقاماته المشهورة ، ولاسيما ما انصب منها على الفكاهة والظرف ، وروح المداعبة كالمقامة الشامية والمضيرية وغيرهما .

يقول الثعالبي ، مشيدا بهذا اللون من النثر الفكاهي ، وما اشتمل عليه من جد رائق وهزل شائق [32] : "... وضمنها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، من لفظ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام ، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام وجد يروق فيملك القلوب ، وهزل يشوق فيسحر العقول ".

وقد تجلت روح الدعابة والمرح عند الهمذاني في رسائله الأدبية أيضا وقد وصفه الثعالبي أيضا بأنه كان خفيف الروح ، ناصع الظرف ، وقد أشاد بعلو كعبه

---

[29] تراجع التفاصيل في كتاب : معالم الحضارة الإسلامية :253 .

[30] تراجع رسالة : أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه :323 .

[31] تراجع هذه الرسالة في : رسائل أبي بكر الخوارزمي :235–250 .

[32] يتيمة الدهر: 294/4 .

في أدب الفكاهة – نثرا ونظما – إذ قال [33] : " ... ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته " .

وقد عده بعض الباحثين المعاصرين [34] أشهر كتاب القرن الرابع الهجري في الفكاهات النثرية ، ملمحا إلى بعض مقاماته الفكهة أيضا كالمقامة الشامية وغيرها .

وهكذا أسهم بديع الزمان الهمذاني من خلال رسائله [35] ومقاماته الفكاهية الساخرة ، مع بعض أدباء عصره ، في تصوير الملامح القاتمة في مجتمعه وحاول بنقده الساخر اللاذع أن يرسم لهذه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية ، صورا هازلة منفرة ؛ بغية علاجها ، وإثارة مشاعر السخط لدى الطبقات المسحوقة من فئات الطبقة العامة ، ونفض ما تراكم على كاهلها من غبار التقاعس والجور والتعسف .

رسائل الهزل والفكاهة .. عرض وتحليل :

لقد تناول الأدباء والكتاب في رسائل الهزل والفكاهة التي تبادلوها فيما بينهم إبان هذا القرن ، أمورا عديدة يمكن أن ندرجها فيما يأتي :

(أ) المداعبة والتفكه :

لعل أهم ما انطوى عليه الكثير من المفاكهات والمباسطات الأدبية التي كان يتبادلها الأدباء والكتاب مع أقرانهم ولداتهم في هذا القرن – فضلا عما كانوا يدبجونه من تلك المفاكهات بايعاز من بعض الحكام والوزراء – موضوع المداعبة والتفكه .

---

[33] يتيمة الدهر : 293/4 .

[34] ينظر : النثر الفني في القرن الرابع: 161/1 .

[35] تراجع من هذه الرسائل الهزلية الفكاهية مثلا : رقعة له إلى مستميح عاوده مرارا : يتيمة الدهر: 300/4 ، فصل من رسالة هزلية ساخرة : اليتيمة: 306/4–307 ، فصل من رسالة أخرى: 307/4 ، وله رسالة أخرى في السخرية والتهكم: 316/4–317 ورسالة هزلية أخرى في اليتيمة: 328/4،324،322 ، وينظر أيضا رسائله الفكاهية في : زهر الآداب: ج1–ج4 في مواضع عديدة متفرقة .

فقد يتلمس القارئ أن لا هم لأولئك الأدباء والكتاب من تحبير وكتابة تلك الرقع والرسائل الهزلية الفكاهية سوى المداعبة والضحك ؛ لتزية الوقت ، وقضاء الفراغ الممل لديهم ، ولعل ما يؤكد ذلك ؛ ما نوهنا بذكره من إشارة المؤرخ أبي الفداء إلى أن رؤساء العصر كانوا يلاعبون القاضي ابن قريعة ، ويلاطفونه ، ويكتبون إليه المسائل المضحكة ، فيكتب الجواب من غير توقف ، وكذا ما كان يفعله الوزير المهلبي أيضا ، بإغرائه جماعة من ندمائه بوضع الأسئلة الهزلية وإرسالها إليه ، ليجيب عنها ..

ومن صور تلك المداعبات الهزلية التي أوردها أبو الفداء مثلا ؛ ما كتبه العباس بن المعلى الكاتب إلى القاضي ابن قريعة ، بإيعاز من الوزير أبي محمد المهلبي [36] : " ما يقول القاضي – وفقه الله تعالى – في يهودي زنى بنصرانية ، فولدت ولدا ، جسمه للبشر ووجهه للبقر ، وقد قبض عليهما ، فما يرى القاضي فيهما ؟ فكتب الجواب بديها : هذا من أعدل الشهود على اليهود ، بأنهم شربوا العجل في صدورهم فخرج من ... ؟ ، وأرى أن يناط برأس اليهودي رأس العجل ، ويصلب على عنق النصرانية الساق مع الرجل ، ويسحبا على الأرض ، وينادى عليهما ، ظلمات بعضها فوق بعض ، والسلام " .

ويتضح بجلاء أن هذه الرقع والرسائل الهزلية وأشباهها من المباسطات الأدبية ، كانت أشبه بالنكت والطرائف المسلية التي تدور في مجالس الطبقة الخاصة ومنتدياتهم ؛ للمتعة والتسلية ، وإثارة الضحك ، واللهو بسردها وروايتها .

ونظير ذلك من رسائل الهزل والفكاهة التي انصبت على المداعبة والتندر ، فضلا عما حوته من سخرية لاذعة ، رسالة أبي إسحاق الصابي ، عن الوزير ابن بقية ، في أيام وزارته ، إلى أبي بكر ابن قريعة القاضي ، يعزيه عن ثور أبيض نفق له ، وقد نصب سرادقا وجلس للعزاء عنه – تراقعا وتحامقا – ومما ورد في هذه الرسالة قوله [37] : " التعزية على المفقود – أطال الله بقاء القاضي – إنما تكون

---

[36] تاريخ أبي الفداء: 462/1 (أحداث سنة 367 هـ) .

[37] زهر الآداب وثمر الألباب :1032/4-1034 .

بحسب محله من فاقده ، من غير أن تراعى قيمته ولا قدره ، ولا ذاته ولا عينه ، إذ كان الغرض فيها تبريد الغلة ، وإخماد اللوعة ، وتسكين الزفرة وتنفيس الكربة ... " .

وبعد أن يسوق الكاتب في رسالته العذر ويحتج له على جلوسه للتعزية ساخرا ومتندرا – يقول [38] : " وقد بلغني أن القاضي أصيب بثور كان له ، فجلس للعزاء عنه شاكيا ، وأجهش عليه باكيا ، والندم عليه والها ، وحكيت عنه حكايات في التأبين له ، وإقامة الندبة عليه ، وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره ، واجتمعت فيه وحده ، فصار كما قال أبو نواس في مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد ... "

ثم انتقل الصابي – على لسان الوزير ابن بقية متندرا – يعزي القاضي بهذا المصاب الجلل ! ذاكرا فضائله على بقية البهائم ، مؤبنا هذا الثور الذي فاق غيره وكان مبرزا لا يلحق ، فائتا لا ينال شأوه وغايته ، ولا يبلغ مداه ونهايته .

ثم انتقل الكاتب – متندرا – إلى الترحم عليه ، داعيا أن يخص صاحبه من الثواب بأفضل ما خص به البشر عن البقر !! يقول [39] : " ... وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر عن البقر ، وأن يفرد هذه البهيمة العجماء بأثرةٍ من الثواب ، ويضيفها إلى المكلفين من أهل الألباب ، فإنها وإن لم تكن منهم ، فقد استحقت ألا تفرد عنهم ، بأن مس القاضي سببها ، وصار إليه منتسبها " .

ثم اختتم الصابي رسالته الهزلية هذه بالدعاء للقاضي بأن يورد موارد أهل النعيم مع ثوره هذا مجنوب معه ، مسموح له به .

ومن المفاكهات الأدبية التي انصبت على الهزل والمداعبة في هذا القرن أيضا : رسالة أبي الفضل ابن العميد يداعب فيها هلال رمضان ، ويدعو عليه –

---

[38] المصدر نفسه: 4/1033 .

[39] المصدر نفسه: 4/1033-1034 .

تفكها وتظرفا – بالهزال والضنى ! ومما ورد فيها قوله [40] : " كتابي – جعلني الله فداك – وأنا في كد وتعب ، منذ فارقت شهر شعبان ، وفي جهد ونصب من شهر رمضان ... وأحمد الله على كل حال ، وأسأله أنْ، يعرفني فضل بركته ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته ، وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد علي غرة شوال فهي أسر الغرر عندي وأقرها لعيني ، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان ، ويعرض على هلاله أخفى من السر ، وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بني عامر ، وأضنى من قيس بن ذريح ، وأبلى من أسير الهجر ، ويسلط عليه الحور بعد الكور ، ويرسل على رقاقته التي يغشى العيون ضوءها ، ويحط من الأجسام نوءها ، كلفا يغمرها وكسوفا يسترها ، ويرينيه مغمور النور ، مقمور الظهور ، قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما تنقص النيرات من طرف الزند ، ويبعث عليه الأرضة ، ويهدي إليه السوس ، ويغري به الدود ويبليه بالفار ، ويخترمه بالجراد ، ويبيده بالنمل ، ويجتحفه بالذر ، ويجعله من نجوم الرجم ، ويرمي به مسترق السمع ، ويخلصنا من معاودته ، ويريحنا من دورته ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ، ويفعل به فعله بالكتان ، ويصنع به صنعه بالألوان ..." [41].

ويتضح بجلاء في هذا النص الأدبي الذي يمتزج فيه الجد والهزل ، ظرف الوزير الأديب ، ورقة مداعبته لهلال رمضان ، وهو يرغب إلى الله تعالى أن يقرب

---

[40] يتيمة الدهر : 3/190–192 .

[41] النعرة في قفا : أي يسمعه الأمر الذي يهم به بعد شهر رمضان . يسلط عليه الحور بعد الكور : أي يسلط عليه شدة الظلام بعد ما بلي بالزنابير الشديدة اللسع . والكور جمع كورة وهي موضع النحل . يغشى العيون ضوءها : يقتحمها ويدخلها . نوءها : شدتها . كلفا يغمرها : الكلف لون بين السواد والحمرة . مقمور الظهور : غير ظاهر لشدة بياضه وشمسي قمرا لبياضه يجتحفه الذر : أي يذهب به ، والذر : جمع ذرة وهي أصفر النمل=

على القمر دوره ، ويخفف حركته ، وينقص مسافة فلكه ؛ لترد عليه غرة شوال التي هي عنده أسر الغرر وأجملها .

ثم يتلمس القارئ للنص أيضا ، خفة روح الكاتب ، ومنتهى ظرفه حين يتوجه بالدعاء – تظرفا – على هلال رمضان بالهزال ، فيدعو عليه أن يبتلى بالضنى كما ابتلي به مجنون بني عامر وقيس بن ذريح وإضرابها من العشاق .

ثم دعا عليه أيضا – تظرفا وتفكها – أن يسلط عليه الظلام الدامس لتخسر الرؤية عنه ، ويدعو أن يرسل الله عليه الكلف الذي يغمر ظهوره ، أو الكسوف الذي يستره ، ويدعو عليه أن تجمعه والشمس فلك واحد ، فذلك أدعى لخفائه وحجب رؤيته !

ويدعو عليه أيضا – تفكها – أن يبعث عليه ما ينقص من أطرافه ! فيسلط الله عليه الأرضة ، ويهدي إليه السوس ، ويوجه إليه الدود ، أو يبتلى بالفار القارض أو الجراد القاضم ! ويباد بالنمل والذر .

وأخيرا يدعو عليه – تظرفا – أن يتساقط كسفا بأن يصبح من نجوم الرجم للشياطين المارقة التي تسترق السمع .

****

(ب) التندر ببعض الظواهر الاجتماعية ونقدها :

لقد عرض الأدباء الكتاب في هذا القرن لبعض الظواهر الاجتماعية ، أو العادات والتقاليد التي سادت في بعض المجتمعات الإسلامية ، والتي لم يستسغ بعضها الذوق أو العرف العام ، أو , تنفر من بعضها الطباع أو الأعراف الاجتماعية المألوفة ، فرصدوها ، وسخروا منها ، ووجهوا سهام نقدهم اللاذع لها بأسلوب ساخر فكه قوامه الهزل والتندر .

وقد أشار الحصري ، مثلا إلى بعض ما يستحسن تركه وإن كان حلالا فقال [42] : " قال بعض الكتاب : من الحق ما يستحسن تركه ، ويستهجن عمله وقد يقع من ذلك فيما يحله الشرع ، ويكرهه الأدباء ؛ وكثيرا ممن يغلب على طبعه هذا

---

[42] زهر الآداب وثمر الألباب: 2/400-401 .

المعنى يراه سمو نفس ، وعلو همة ، حتى رأينا من لا يحضر تزويج كريمته ، ويولي أمرها غير نفسه ... " .

ومن تلك المظاهر الاجتماعية التي كانت تنفر منها الطباع ولا تستسيغ وقوعها مثلا ؛ زواج الأم المسنة ! فكان الأدباء كثيرا ما يسخرون من هذه الفعلة ، فيتوجهون إلى الابن – وكثيرا ما يكون من وجوه المجتمع – بالتهنئة الساخرة المشوبة بالتهكم اللاذع ، أو قد تنطوي الرسالة أحيانا أخرى على التعزية للابن مقرونة بالدعاء على الوالدة المتزوجة بالموت ، ليسترها القبر ، فهو خير ساتر لها!

كتب أبو بكر الخوارزمي إلى الأديب المؤرخ ابن مسكويه ، وقد تزوجت أمه متندرا [43] : " ... وبلغني ما اختارته الوالدة – صانها الله تعالى – فحمدت الله تعالى الذي رزقك والدا لا يلزمك حق أبوته ، ووعدك أخا لا يحملك حمل أخوته ، وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها ، والآن أسأله أن يعجل لك بوفاتها ؛ فإن القبر أكرم صهر ، وإن الموت أستر ستر ... " .

ومن الرسائل الفكاهية الساخرة المشهورة في هذا الباب أيضا ؛ رسالة أبي إسحاق الصابي إلى رجل زوج أمه ، وقد عد أبو هلال العسكري هذه الرسالة ، وما تضمنته من معاني السخرية ، من عجائب المعاني ، ومما ورد منها قوله [44]: " قد جعلك الله ، وله الحمد ، من أهل التحصيل ، والرأي الأصيل ، وخلوص اليقين ، فكما أنك لا تتبع الشهوة في محظور تحله ، فكذلك لا تطيع الأنفة في مباح تحظره ، ويأوي إلينا من إيقاعك العقد بين الوالدة – نفس الله لها في مدتك وأحسن بالبقية منها إمتاعك – وبين فلان ، وما علمنا أنك فيه بين طاعة الديانة توخيتها ، ومشقة فيها تجشمتها ، وأنك قد جدعت أتف الغيرة لها وأضرعت خد الحمية فيها ، وأسخطت نفسك بإرضائها ، وعصيت هواك لرأيها فنحن نعزيك على فائت مرادك ،

---

[43] رسائل أبي بكر الخوارزمي :213–214 .

[44] ديوان المعاني: 1/100–101 ، وتراجع الرسالة مع بعض الاختلاف في النص : نشوار المحاضرة :3/211 .

ونسأل الله الخيرة لك ، وأن يجعلها أبدا معك فيما شئت وأتيت وتجنبت وأنبت ، والسلام " .

ومن الظواهر الاجتماعية التي استهجنها الأدباء والكتاب في هذا القرن أيضا : ظاهرة (التطفل) ، واقتحام بعض الطفيليين موائد الأغنياء والأمراء ووجوه المجتمع .

ولعل أروع ما وصل إلينا في هذا الباب من رسائل الفكاهة والتندر الساخرة ؛ رسالة أبي إسحاق الصابي التي كتبها عن الأمير عز الدولة بختيار ، وقد وسمها الصابي بـ (عهد التطفل) ؛ لأنه كتبها على غرار عهوده الرسمية إلى ولاة الدولة وعمالها ، وقد دبجها أبو إسحاق الصابي على لسان زعيم الطفيليين في عصره (علي بن أحمد) المشهور (بعليكا) ، الذي شهر بتطفله على موائد الأمير البويهي معز الدولة أحمد بن بويه ، إلى خليفته في التطفل (علي بن عرس الموصلي) .

لقد دبج الصابي (عهد التطفل) هذا – كما أشرت آنفا – على غرار عهوده الرسمية التي كان يحررها على لسان أسياده في حاضرة الخلافة ، يوصي بها ولاة الدولة والعمال والجباة وغيرهم ، يسدي لهم النصائح والتوجيهات ، ويصدر إليهم الأوامر والنواهي وفق رسوم معروفة متبعة .

وقد استهل الصابي رسالته الفكاهية هذه يقول [45] : " هذا ما عهد به علي بن أحمد المعروف (بعليكا) إلى علي بن عرس الموصلي ، حين استخلفه على إحياء سنته ، واستنابه في حفظ رسومه من التطفل على أهل مدينة السلام ، وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها ، ويجري معها في سوادها وأطرافها ؛ لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ورآه أهلا له من سد مكانه " .

وبعد أن يقدم الصابي ، على ما عهدناه منه في رسائله وعهوده الرسمية الجدية ، نصائحه وتوجيهاته ، يعرض إلى صلب الموضوع ، فيطلب الكاتب على لسان (عليكا) إلى خليفته (ابن عرس) أن يتدبر أولا معنى التطفل ، ويعرف

---

[45] صبح الأعشى: 14/404-405 .

مغزاه ، ثم راح يسرد عليه نصائحه وأوامره وتوجيهاته فيما يجب اتباعه ، فبدأ أولا فيمن يجب عليه أن يقتحمهم ، مع أتباعه من الطفيليين ، فيقول ، على شاكلة عهوده الرسمية [46] : " وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسمط الأمراء والوزراء بسراياه ، فأنه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة ؛ وإذا استقراها وجد فيها من طرائف الألوان ، الملذة للسان وبدائع الطعوم ، السائغة في الحلقوم ، مالا يجده عند غيرهم ، ولا يناله إلا لديهم لحذق صناعتهم ، وجودة أدواتهم ، وانزياح عللهم ، وكثرة ذات بينهم والله يوفر من ذلك حظنا ، ويسدد نحوه لحظنا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويسهل إليه سبيلنا ... ".

وبعد أن يسدي إليه نصائحه وتوجيهاته السديدة ، كوجوب مصادقته لموسري التجار ، ومجهزي الأمصار ، والمدبرين والطباخين والحمالين وغيرهم يرسم له الطريقة المثلى التي يجب اتباعها في الأكل ، فيقول [47] : " وأمره أن يحرز الخوان إذا وضع ، والطعام إذا نقل ، حتى يعرف بالحدس والتقريب والبحث والتنقيب ، عدد الألوان في الكثرة والقلة ، واقتنائها في الطيب واللذة فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها ، وينتهي منها عند انتهائها ، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها ، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها . ومتى أحس بقلة الطعام وعجزه عن الأقوام ، أمعن في أوله إمعان الكيس من سعته ، والرشيد في أمره المائي لبطنه ، من كل حار وبارد ، وخبيث وطيب ، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون تطرفا ، ويقلون تأدبا ... " .

ويفتن الصابي كثيرا في تدبيج هذا (العهد) الطريف ، ويصل إلى الذروة في التندر والفكاهة ، وإلى النهاية في الدعابة والظرافة ؛ حين يوصي الكاتب على لسان (عليكا) خليفته في التطفل ، ابن عرس الموصلي ، باحتمال الضيم وتحمل المشاق ، والصفع والمخاشنة ، وما إلى ذلك ، في سبيل البطن ، وما تتشوق إليه من

---

[46] صبح الأعشى: 406/14 .

[47] المصدر نفسه : 408/14 .

شهي الطعام وألوان الحلوى ! يقول [48] : " وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا ، ويطوي دونه كشحا ويستحسن الصمم عن الفحشاء ، وإن أتته اللكزة في حلقه ، صبر عليها في الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصفعة في رأسه ، صبر عليها لموقع أضراسه وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء ، إذ كان قد ولج الأبواب ، وخالط الأسباب ، وجلس مع الحضور ، وامتزج بالجمهور ، فلابد أن يلقاه المنكر لأمره ويمر به المستغرب لوجهه ، فإن كان حرا حيّياً أمسك وتذمم ، وإن كان فظا غليظا همهم وتكلم ، وتجنب عند ذلك المخاشنة ، واستعمل مع المخاطب له الملاينة ، ليبرد غيظه ، ويفل حده ، ويكف غربه ، ويأمن شغبه ... " .

ثم اختتم الكاتب ، على لسان عليكا ، هذا العهد الفكه ، مخاطبا خليفته في التطفل ابن عرس الموصلي قائلا [49] : " هذا عهد عليكا بن أحمد إليك ، وحجته لك وعليك ؛ لم يألك فيه إرشادا وتوقيفا ، وتهذيبا وتثقيفا ، وبعثا وتبصيرا ، وحثا وتذكيرا ، فكن بأوامره مؤتمرا ، وبزواجره مزدجرا ، ولرسومه متبعا ، وبحفظها مضطلعا ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته " .

****

وهكذا يعد أبو إسحاق الصابي بحق ، واحدا من بلغاء الكتاب وصدورهم في القرن الرابع ؛ لما أسداه في المكاتبات الرسمية من معايير فنية عالية ، وما أرساه في تضاعيف النثر الفكاهي الساخر من رسوم جمالية قيمة ، وما دبجه أيضا من نصوص أدبية ساخرة فكهة ، تميزت بطرافة المحتوى ، ووحدة الموضوع وجمال الصياغة والأداء .

ومن الظواهر الاجتماعية التي عالجها الأدباء الكتاب إبان هذا القرن أيضا: ظاهرة التعالي على الأقران والأصدقاء ، عند سمو المنزلة السياسية أو غيرها .

---

[48] صبح الأعشى: 409/14 .

[49] المصدر نفسه : 410/14 .

ومن نماذج هذا اللون من رسائل الهزل والفكاهة ؛ ما كتبه أبو بكر الخوارزمي إلى أبي قاسم بن أبي الفرج ، كاتب الأمير ركن الدولة البويهي ، لما عزل عن عمله ، ومما جاء فيها قوله [50] : " أنا أهنئ الدنيا يوم عزلك ، كما كنت عزيتها يوم ولايتك ، فلئن عد إقبالك في مثالبها ، لقد ذكر إدبارك في مناقبها ، ولئن كانت عوتبت يوم رفعتك ، لقد اعتبت يوم وضعتك ، وأنت والله الجليل يسر بفراقه ، والخليل هنيء بطلاقه ، ولقد كان معرض النعمة قبيحا عليك ، مستغيثا من يديك ، كأنك أبا القاسم لم تتول إلا لتصديق الأول :

وكل ولاية لابد يوما مغيرة الصديق على الصديق ... " .

ومن نصوص النثر الفكاهي الساخر ، ما عالج قضايا اجتماعية أخرى تتصل برفعة الوضيع وسمو مكانته في هذا العصر المتناقض ! وانحطاط مكانة الشريف العالم ، ودنو منزلته ، وانحسار قيمة العلق من نتاجه الأدبي الرصين .

ومن الرسائل الهزلية الساخرة التي صورت هذا الجانب ؛ ما دبجه الهمذاني في رسالة أدبية ساخرة إلى مستميح عاوده مرارا ، وقال له : " لم لا تديم الجود بالذهب كما تديمه بالأدب ؟! " .

فكتب إليه بديع الزمان الهمذاني يقول [51] – هازلا ساخرا – " عافاك الله ، مثل الإنسان في الإحسان كمثل الأشجار في الثمار ... لكن هذا الخلق النفيس ، ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحتمله الغريم ، ولا قرابة بين الذهب والأدب ، فلم جمعت بينهما ؟ والأدب لا يمكن ثرده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلة ، ولي من الأدب نادرة ، جهدت في هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ لي من جيمية الشماخ لونا فلم يفعل ، وبالقصاب أن يسمع أدب الكاتب فلم يقبل وأنشدت في

---

[50] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 116–117 .

[51] يتيمة الدهر : 300/4 ، وأوردها الثعالبي في خاص الخاص : 13–14 مع اختلاف طفيف في النص .

الحمام ديوان أبي تمام فلم ينفذ ، ودفعت إلى الحجام مقطعات اللجام [52] ، فلم يأخذ ، واحتيج في البيت إلى شيء من الزيت ، فأنشدت من شعر الكميت الفا ومائتي بيت ، فلم تغن ، ولو وقعت أرجوزة العجاج في توابل السكباج[53] ما عدتها عندي ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ فإن كنت تحسب اختلافك إلى إفضالا علي فراحتي في أن لا تطرق ساحتي ، وفرحي في أن لا تجي ، والسلام " .

وقد رصد بعض الأدباء الكتاب إبان هذا القرن ، في رسائلهم الهزلية الفكاهية أيضا ؛ جوانب اجتماعية أخرى تتصل بما شاع في بعض أوساط العامة في بعض أقاليم المشرق الإسلامي من خلاعة ومجون .

ولعل أدق شاهد يوضح لنا طبيعة هذا اللون من المكاتبات الهزلية الماجنة ؛ رسالة " الوساطة بين الزناة واللاطة " [54] للأديب الكاتب أبي الفرج علي بن الحسين بن هندو ، وهي نموذج طريف للأدب المكشوف الذي لا يتورع عن ذكر ما يأنف الذوق السليم ، والخلق القويم من التصريح به ، أو تدوينه ونشره .

****

(ج) التهكم والسخرية اللاذعة :

ومن الأمور المهمة التي انطوت عليها الرسائل الفكاهية ، والمباسطات الأدبية في هذا القرن أيضا ؛ التهكم المشوب بالسخرية اللاذعة .

والتهكم : هو أن يلقي الأديب الكاتب كلامه ويقصد ضده ، أو يقرر المعنى الظاهر ويريد نقيضه .

وقد كان بعض بلغاء الكتاب وصدورهم في هذا القرن ، وفي مقدمتهم أبو الفضل ابن العميد ، وأبو بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني وأضرابهم قد

---

[52] تراجع ترجمته في يتيمة الدهر: 116/4 وما بعدها ، وقد ذكره الثعالبي ضمن أدباء بخارى ، وقع إليها أيام الحميد وظل بها إلى أواخر أيام السديد من أمراء السامانيين وكان كثير الغرر والملح والنكت ، وكان هجاء وقد اشتهر بهجاء الصدور .

[53] السكباج : مرق يتخذ من والخل .

[54] تراجع هذه الرسالة الطريفة في : تتمة اليتيمة :164/5-165 .

شهروا ببراعتهم في هذا اللون من المفاكهات الأدبية الطريفة ، إلا أن الباحث المتأمل في هذا الضرب من الرسائل الأدبية ، يكتشف ، لأول وهلة ، أن أسلوب التهكم الذي انطوت عليه رسائلهم هذه ، لم يكن يرتبط بمواقفهم من مظاهر الحياة الاجتماعية أو السياسية ، وما كانوا ينشدونه من الكمال في تصحيح مسار خصومهم ، أو من يوجهون سهام نقدهم إليه ، وإنما كان غالبا ما يرتبط بعواطفهم الشخصية المتقدة ، ومن هنا رأينا أن تهكمهم اللاذع في ترسلهم لم يبرأ من الهجاء والشتم المقذع ، أو السباب العنيف ، كما سنرى ذلك واضحا في رسالة أبي بكر الخوارزمي الشهيرة [55] التي تهكم فيها بأبي الحسن البديهي ، وما ألصقه به من أصناف العيوب وألوان القبائح ، وما اتهمه به من الجمع بين المتناقضات .

ومن نماذج المفاكهات الأدبية التي انصبت على التهكم المشوب بالسخرية اللاذعة والجمع بين الجد والهزل ؛ رسالة الوزير الكاتب أبي الفضل أبن العميد إلى أبي عبد الله الطبري ، وقد ذكر في فصل منها دعواه في العلم ، ومما ورد منها قوله [56] : " وهبك أفلاطون نفسه ، فأين ما سننتهُ من السياسة ؟ فقد قرأناه أتجد فيه إرشادا إلى قطيعة صديق ؟ وأحسبك أرسطاطاليس بعينه ، أين ما رسمته من الأخلاق ؟ فقد رأيناه ، فلم نر فيه هداية إلى شيء من العقوق ، وأما الهندسة فأنها باحثة عن المقادير ، ولن يعرفها إلا من جهل مقدار نفسه ، وقدر الحق عليه وله ، بل لك في رؤساء الآداب العربية منا ريحُ ومضطرب ، ولسنا نشاحك ، لكن أتحب أن تتحقق بالغريب من القول ، دون الغريب من الفعل ؟ وقد أغربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه . وأما النحو فلن تدفع عن حذق فيه ، وبصر به ، وقد اختصرته أوجز اختصار ، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة ، ويرضى بك أسوة ، فقلت : الغدر والباطل وما جرى مجراها مرفوع ، والصدق والحق وما صاحبهما مخفوض ، وقد نصب الصديق عندك ، ولكن غرضا يرشق بسهام الغيبة ، وعلما يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضي ذي اللهجة فأعرف قدر

---

[55] تراجع رسالة الخوارزمي هذه في مجموع رسائله :235-250 .

[56] زهر الآداب وثمر الألباب : س3/878-879 .

حذقك فيه ، إلا أني لا أراك تتعرض لكامل فيه ، ولا وافر ، وليتك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب " .

وهكذا نرى بوضوح أن تهكم أبي الفضل ابن العميد على أبي عبد الله الطبري ، وسخريته اللاذعة بشخصه ، صادرة عن روح فكهة مرحة ، ونفس منطلقة متفتحة ، ونلحظ أيضا أن تهكمه عليه كان أسلوبا فنيا راقيا ، استعان به الكاتب للانتقاص من أبي عبد الله هذا ، غير أننا نلحظ أيضا أن تهكمه عليه كان لينا ، ليس في تضاعيفه تلك الغلظة أو القسوة ، أو السباب البذيء ، والشتم المقرف الذي سنلحظه في رسالة أبي بكر الخوارزمي التي سنقف عندها هنا .

ومن عيون الرسائل الأدبية التي جمعت بين الجد والهزل ، وانصبت على التهكم والسخرية اللاذعة في هذا القرن أيضا ؛ رسالة أبي بكر الخوارزمي الشهيرة التي كتبها إلى أبي الحسن علي بن محمد البديهي [57] يعبث به ، ويسخر منه ، ويصمه بالجهل [58] .

وقد تأثر الخوارزمي في كتابة رسالته هذه كثيراً برسالة " التربيع والتدوير " التي ألفها الجاحظ في هجاء أحد معاصريه ، والسخرية اللاذعة به والتهكم عليه .

وقد شاع مما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين [59] ؛ أن أبا عثمان الجاحظ قد احتكم في بناء رسالته المذكورة إلى نظرية الأوساط الفلسفية في الأخلاق ، المعروفة عند اليونان ، فاستمد منها الجاحظ – بعد أن حورها واستغلها أحسن استغلال ، فأخرجها من دوائرها الفلسفية إلى دوائره الفنية الرائعة – جميع مناقضاته ، وضروب المفارقات الأخرى ، مستعينا كذلك ، بما عرف عنه من قدرة في الجدل والمنطق ، ومرونة في الحوار والسفسطة .

وهكذا تشبث أبو بكر الخوارزمي في رسالته هذه التي بسط فيها آراءه بسطا واسعا مفصلا ، بطريقة الجاحظ في الحوار والجدل ، وما يتصل بهما من مغالطة أو

---

[57] تراجع ترجمته ونماذج من شعره في : يتيمة الدهر: 3/399–402 .

[58] تراجع الرسالة في : رسائل أبي بكر الخوارزمي :235–250 .

[59] تراجع التفاصيل في كتاب : الفن ومذاهبه في النثر العربي :180 وما بعدها .

سفسطة منطقية ، فاستعان بضروب من المفارقات التي بنى عليها ما تناوله في هذه الرسالة الهزلية من ذكر الأشياء ومناقضاتها ، ومن تلك المناقضات والمفارقات استمد الكاتب هجاءه أو تهكمه الساخر بأبي الحسن البديهي ، واستطاع أن ينفذ من ذلك كله إلى التنكيل به ، وتشويهه ؛ بما رسم له من صور (كاريكاتيرية) هزلية ساخرة .

بدأ الخوارزمي رسالته معنفا خصمه البديهي ، مشيرا إلى أنه أراد بهذه (الرسالة) أن يوقع عليه الحجة ، ويقيم عليه الدليل على جهله ، وعدم إحساسه إلا بالرذل من الأمور ، والنزر من الأشياء !

يقول الخوارزمي في مطلع رسالته إليه [60] : " لست أعاتبك – عافاك الله تعالى – لأن العتاب يصلح منك ، أو يعمل فيك ، أو لأن جهلك جهل يعالج بالعذل أو يداوى داؤه بالقول . كلا – عافاك الله تعالى – جهل الناس عرض وجهلك جسم لا يزول إلا بالفعل ، ولا يقع دواؤه إلا من الكف والنعل ، ولكني إنما أردت بهذه الرسالة أن تتوجه عليك الحجة ، وأن تنقطع عنك العلاقة والعلة ، وإن كانت ترد منك على عين عمياء ، وأذن صماء ، وقلب لا يعرف النقص إلا في ماله ، ولا يحس بالألم إلا في جسمه ، ولا يجد للنقص مسا ولا للعيب وقعا ، ولقد عققت الكلام بك ، وضيعته فيك ... " .

وهكذا وصم الخوارزمي خصمه بالجهل والغفلة ، وعيوبه كثيرة ، وهي لذلك ترد من طرق شتى ، وتقع مثنى مثنى ! ووصفه بأنه لم يقم للحق وزنا ! فلو كان الحق شخصا لما أحس به ، ولو كان نفسا لسعى في ذمها ، أو تمثل دارا لجهد في هدمها ! وهذه صورة مشوهة منفرة رسمها الكاتب لخصمه بدقة وإمعان.

ثم راح الخوارزمي يسخر من خصمه ، إذ جعله شبيها بسوفسط ، فهو دوما يقلب الأمور ، ويعمل على الضد منها ! وكأنه خلق لطمس النور ، والعمل على جحد ما يدرك عيانا ، ويعرف إيقانا ! يقول ساخرا بخصمه ، مجسما بعض عيوبه

---

[60] رسالة أبي بكر الخوارزمي :235 .

[61] : " ... لو علق القبيح بالثريا لصعدت إليه ، ولو دفن المحال في تخوم الأرض السابعة لغصت عليه ، الجميل عدو لك تحاربه ، والسداد ضد من أضدادك لا تقاربه ولا تناسبه ، فأنت العكس إلا أنه يمشي على رجلين ، والجور إلا أنه ينطق بلسان وشفتين ، والجهل إلا أنه يخاطب ، والعي إلا أنه مثاب معاقب... ".

وهكذا نتلمس أن الكاتب لجأ إلى تجسيم عيوب خصمه ، والتنويه بكثرة وجوهها ؛ فهو العكس مشخصا يمشي على رجليه ! وهو الظلم في هيئة شخص ينطق ، وهو الجهل في صورة رجل يخاطب ، والعي مجسدا فهو تارة يثاب وتارة يعاقب ! ثم راح الكاتب بعد ذلك يرسم له صورا مقلوبة منفرة ، إذ جعله ينكر حقائق الأشياء على الرغم من وضوحها ، يقول الخوارزمي ساخرا [62] : " ... ولو استخبرت عن إبليس ذكرت أنه سجد لآدم ، ولو نوظرت في عيسى نفيته عن مريم ، ولو أنشدت شعر امرئ القيس لنسبته إلى الإفحام ، ولو ذكرت أبو جهل حكمت له بالإسلام ، ولو استحسن كلام مزبد ، قلت : إنه ميت الخواطر ، فاتر النوادر ، ولو سمعت خطب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) استعييت بيانه ولو مررت بإيوان كسرى استقللت بنيانه ... " .

ثم يواصل الكاتب تهكمه على خصمه ، والاستهانة بشخصه ، فيسخر من علمه ، وما يدعيه من معرفته للأشياء ، فيرسم لوحة جميلة ساخرة ، إذ يقول[63]: "... وإنك لو سمعت عليا يقول : سلوني قبل أن تفقدوني ، سألته حتى يقول : دعوني فقد أفحمتموني ، وأنك لو أمدت بك الملائكة ما قالت : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، وإن أباك آدم لو أعين بك ما لعب إبليس به ، ولا أنف من السجود له ، وإن عمك قابيل لو رآك ما أقدم على أخيه هابيل ... وإن العجم عرب إذا كنت فيهم ، كما إن العرب عجم إذا بنت عنهم ، وإن الرياض إنما اكتسبت طيب ريح لأنها تستمد من نكهتك ، وان النجوم إنما أعطت ضوءها من ضوء غرتك ، وأن

---

[61] رسالة أبي بكر الخوارزمي :236 .

[62] المصدر نفسه : 236-237 .

[63] رسالة أبي بكر الخوارزمي :239-240 .

الخيل ما اختالت في مشيها إلا لأنها حملتك ، وأن الطير إنما لحنت أصواتها لأنها عشقتك ، وأن البحار إنما ماجت وزخرت هيبة لك..."

ثم ما يلبث الكاتب أن يخرج عن هدوئه ، وسخريته المنسابة ، فتتعاظم في نفسه سورة الغضب ، حين راح يمزج سخريته اللاذعة لخصمه بأقذع الهجاء والسباب ، فإذا به ينسب إليه كل القبائح والعيوب بأسلوب مقذع مباشر عنيف ، إذ يقول [64] : "... يا كنيف السجن في الصيف ، يا شرب الخمر على الحشف ... يا جشاء من أكل فجلية ، وفساء من أكل قنبيطية ... يا أقذر من ذباب على جعر رطب ، ويا أذل من قراد في أست كلب ... يا حوض دكاكين الدباغين ، ومنهج حوانيت القصابين ، يا مغيض ماء الحمام ، يا كوز حانوت الحجام ... يا ألأم من اللؤم ، وأشأم من الشؤم ... جعلت فداءك من الخير لا من الشر ، هذا كله مصانعة لك ، ورفق بك ؛ وذلك لأني شبهتك بأشياء تنقص في باب الذم عنك وتأنف والله منك ، ولقد ظلمتها بك ، إذ كان قد تفرق فيها من المعايب ما اجتمع فيك ... " .

وهكذا يتضح بجلاء ، أن أبا بكر الخوارزمي قد استطاع أن يرقى بالسخرية إلى مكانة عالية ، وأنه استوعب كثيرا من خصائصها الفنية ، وأنه قد وعى ما للمبالغة ، وقلب الصور ، والروح الشعبية ، من تأثير في عواطف الناس ومشاعرهم ، وإثارة السخرية من الخصوم [65] .

ثم انتقل الخوارزمي إلى السخرية بخصمه ، والتعذر عليه ، بما يمتلكه من مزايا نادرة ، وقدرات خارقة ، فيقول ساخرا [66] : "... رحمك الله تعالى ، دع لليونانية من الحكمة ما تنفق به سوقهم ، واترك لبني العباس من التملك ما تمشي به أمورهم ، وأبق للشمس والقمر من الحسن بمقدار ما يطلعان به ، ويلوحان فيه ... قد اتفق الناس على ضياع النسخة الأولى من كتاب العين فأمله علينا ، وأجمعوا على ذهاب قراءة أبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، فأخرجها إلينا ، وتخالف الناس

---

[64] المصدر نفسه :244 .

[65] ينظر رسالة : أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه :326 .

[66] رسائل أبي بكر الخوارزمي :247 .

في المهدي ، وشكوا في السفياني ، وفي الأصفر القحطاني ، فعرفنا متى يخرجون ؟ فأني أعلم أنهم إليك يختلفون ، وفي أمرك ونهيك مترددون وبمشورتك يغيبون ويحضرون ... " .

وهكذا برع أبو بكر الخوارزمي في صياغة هذه الألوان المتآلفة من صور السخرية اللاذعة ، التي بناها على ضرب جميل من مغالطة الأسماع والأبصار ، وبرع أيضا في توليف صوره الحسية البصرية والسمعية توليفا رائعا متناسقا ، فوظف بذلك كله مقدرته على التصوير الفني لتجسيم مشاعره وأحاسيسه ، وهذا ما تلمسناه بوضوح في كثير من فصول هذه الرسالة الهزلية الخالدة .

ثم اختتم أبو بكر الخوارزمي هذه الرسالة القيمة بما توسمه من وقع ما صبه على خصمه في تضاعيف رسالته ، وقوة تأثيرها عليه ، بما انتظمته من تهكم عنيف ، وسخرية لاذعة ، فشبهها بالعروس التي تهدى إلى خاطبها ، غير أن مهرها كان باهظا ؛ لأن مهرها لم يكن كما تعارف الناس عليه ! وإنما كان عرضه الخلق ، اللبيس الممزق ، مع خلودها على مر الزمن ، وتخليدها لمعاير خصمه ، وعلوقها بحبله وناصيته . يقول الكاتب متندرا [67] : " هذه – رحمك الله – هدية أهديتها إليك ، بل هدى من العرائس جلوتها عليك ، وما مهرها إلا فقدك ولا ثمنها إلا بعدك ، فإذا وهبتهما فقد وفيت المهر ، وأرضيت العروس والصهر فسبحان من أرانيك ولك صهر مثلي ، وأنت ختن لي ، وعهدي بالناس يخطبون الكرائم بالكرم ، ويطلبونها بحسن الأخلاق والشيم ، وأنت خطبت هذه الكريمة بلؤم بخرك ، وصغر قدرك ، وعهدي بهم يحتملون المهور في أموالهم ، وأنت جعلت مهر هذه من عرضك الخلق ، اللبيس الممزق ، وأعجب ما فيها أنك إذا طلقتها لم تطلقك ، وإذا أطلقتها من حبلك لم تطلقك ، فخذها مباركا لك فيها ، فبئست العروس وزوجها شر منها " .

****

وهكذا نتلمس من قراءة فصول هذه الرسالة الأدبية القيمة أن أبا بكر الخوارزمي استطاع بموهبته الفنية النادرة ، أن يدمج بإتقان تام ، وبراعة نادرة ، بين

---

[67] المصدر نفسه :250 .

ثقافته الموسومة الغزيرة ، وبين أسلوبه الفني الرصين ، وبرع كثيرا في خلق هذا التجانس العجيب بين ألفاظه الرشيقة ، ومعانيه الواضحة الدقيقة ، تجانسا يمتع الفكر والعقل ، كما يمتع الحس والذوق .

الفصل الخامس

المبحث الثاني

خصائص المحتوى والمضمون

*توطئة

* المحور الأول : المعاني والأفكار :

–أهمية المعنى في العمل الأدبيّ وأهم ملامحه الفنية :

1) الإبانة والوضوح :

* الطباق أو التضاد * الإيضاح بعد الإبهام

* المبالغة والغلو

2) الإفاضة والاستقصاء في المعاني :

* الترادف * التكرار * الاعتراض (أنواع الاعتراض)

3) الابتكار والتجديد في المعاني :

–دواعي الابتكار والتجديد وأسبابه.

–ضربا المعاني المبتكرة

*معان مبتكرة على مثال سابق * معان مبتكرة على غير مثال سابق

المحور الثاني : الأخيلة والصور:

*أهمية الخيال * مصطلح الخيال وتطور مدلوله

*الصورة الفنية ... وصلتها بالخيال

*أساليب بناء الصورة في الرسائل الأدبية

*تصوير المحوسات والمعنويات في الرسائل الأدبية في القرن الرابع...

*الصور البلاغية (الفنية) ..أنواعها وأساليب بنائها ...

–التشبيه ..دلالته الفنية وأنواعه..

–المجاز الإستعاري ..دلالته الفنية وأنواعه ..

–الكناية أو الإرداف ..دلالتها الفنية وتنوع أساليبها ..

–المحور الثالث : الإنفعال أو العاطفة الأدبية :

*أهمية العاطفة أو الانفعال في العمل الأدبيّ

*الانفعالات الحسيّة والمعنوية .

*مقومات عنصر العاطفة وقيمتها في الرسائل الأدبية :

– صدق الانفعالات والمشاعر

– قوة الانفعالات وثباتها في العمل الأدبيّ

– تنوع الانفعالات وسموها ...

الفصل الخامس

الفَصلُ الخامس

الخصَائصُ الفنية والأسلوبية للرسائل الأدبية في القرن الرابع

*توطئة :

من الحقائق العلمّية المسلَّم بها في الدرس النقدي ، أننا قد نخضعُ النصَّ الأدبيّ عند دراسته أو تحليل خصائصه الأسلوبية والفنية لأكثر من منهج نقديّ ، وهذا الأمرُ يتوقفُ على خصب النصّ الأدبي وثرائهِ وحيويته ، وعمق دلالاته ، وتشعب أفكاره ، بحيث لا يمكنُ أن يحتويه ، أو يُحيط بأطرافه منهجٌ واحدٌ بعينه...

ونظراً لَما تميّزتْ به جلُّ الرسائل الأدبية في هذا القرن ، من نضج التجربة ، وثراء الصياغة ، ومتانة البناء ، والحرص الدائب على التجديد في المعاني ، وما تبع ذلك من براعة فائقة في التصوير الفني ، فقد تحتمَّ على الباحث عندَ دراسته لهذه النصوص الأدبية وتحليلها ، أن يفيدَ من أكثر من منهج نقدي وأن يستثمرَ أقرب النظريات أو المناهج النقدية المناسبة ، لاستجلاء ما في تلك النصوص الفنية من قيمٍ جمالية ، ومزايا فنّية .

ومن هذا المنطلق ، فسوف نحاولُ في هذا الفصل من هذه الدراسة ، تحليل أكثر شذرات النصوص النثرية ،ودراسة خصائصها الأسلوبية والفنية في ضوء المنهج الفني؛ إذ إن هذا المنهج – كما هو معروف في الدرس النقدي – يرتبطُ بالنصوص الأدبية ارتباطاً وثيقاً ، ويعنى بدراستها وتحليلها أكثر مما يهتمُّ بأيّ شيء سواه ...وعلى هذا ، فإنّ دراسة نصوص الرسائل الأدبية ، على اختلاف موضوعاتها في هذا القرن ، وفق قواعد هذا المنهج النقدي ، سوف يُتيحُ لنا أن نتعمَّقَ تلك النصوص الأدبية من الداخل ،ونتحَّسسَ ما انطوتْ عليه من جهدٍ فنيّ وإبداع متميَّز ،ونستشفَّ الألوان والظلال التي خالطتها ، والصور وأفانين الخيال التي مازجتها ، والأساليب التي طغتْ عليها ...

إن أهمَّ دعائم هذا المنهج النقدي الذي سنعتمدهُ في دراسة نصوص الرسائل الأدبية ، وكما نادى بها أبرزُ أعلام هذا المنهج ، كالأديب والناقد الإنكليزي (ت . س . إليوت) ، والناقد الأمريكي (كينيت بيرك) ، ومواطنه الناقد (بلاكمور) تتمحورُ في عدَّ النصّ الأدبيّ كائناً حيّاً لهُ مشخّصاتهُ ،دون النظر الى أيّ عوامل خارجّية أخرى .

وهكذا يصبحُ النصّ الأدبي عند دراسته في ضوء هذا المنهج ، محورَ العلمية النقدية ؛ إذ يعمدُ الناقدُ في النصّ الفني ، ليفسَّرَ دقائقهُ ، ويجلو غوامضهُ ويبيّن خصائصه المختلفة .....

****

على أننا يمكنُ أن نجوز هذا المنهج الفني ، عنَد دراسة بعض الومضات الفنية التي تخلَّلتها كثير من نصوص الرسائل الأدبية في هذا القرن ، الى مناهج نقدية أخرى ،كالمنهج النفسي [1]مثلاً ، وما أفادهُ من حقائق أو مفاهيم تتعلّق بالنفس البشرية ، وتفسير سلوك الإنسان ، أو ما يصدرُ عنهُ من أفعال ومشاعرَ أو أحاسيس وانعكاس ذلك على العمل الأدبيّ ؛ إذ إنَّ كثيراً من الألفاظ والتراكيب ، وخفقات الرؤى والمعاني الدقيقة ،وغيرها مما تخلّتْ فصول تلك الرسائل الأدبية ، يمكنُ اتخاذها مفاتيحَ مهمّة للكشفِ عن خفايا نفسية أولئك الأدباء والكتّاب ، ويمكنُ عدَّها أيضاً رموزاً نستجلي من وجيها كثيراً مما كان يرينُ على دخائلهم من أفراح وأتراح ، أو يسر وعسرّ أو تفاؤل وقنوط ، وما الى ذلك [2].

---

[1] سبق للباحث ان اعتمد (المنهج التاريخي) في كتابة بعض فصول ومباحث هذه الدراسة إذ إنَّ جميع ملابسات الزمان والمكان (البيئة) والأحوال الاجتماعية والاقتصادية وتداعياتها ، فضلاً عن المؤثرات الحضارية الطارئة ، كلها وشائج عميقة انعكستْ على حياة الأدباء والكتّاب وغيرهم في هذا القرن ،وكان لها تأثيرها المباشر والفاعل في نتاجهم الأدبي والفكري ، ولاسيمّا الرسائل الأدبية .

[2] لعلَّ أبرزَ ما يؤخذُ على المنهج النفسي في دراسة الأدب – الى جانب المنهج التاريخي – أنهُ يُقلّلُ من اهتمام الناقد بالنصوص الأدبية ذاتها ،ويُعني بتفسير الظواهر الأدبية والفنية في ضوء

وهكذا يمكنُ للباحث دراسة الخصائص الأسلوبية والفنية للرسائل الأدبية في هذا القرن ، تلك الرسائل التي تميزّت بالعمق والثراء الفني ، في ضوء أكثر من منهج نقديّ ، وصولاً للكشف عن كلّ مزاياها الجمالية ، وأبعادها الفنية ، فضلاً عن المؤشرات التاريخية والحضارية العديدة المتنوعة ...

غير أننا آثرنا ، في هذا الفصل ، التركيز على جوانبَ مهمة من أسس المنهج الفني لأنه أقربُ من سواه من المناهج الأخرى الى طبيعة هذه الدراسة الفنية .

وهكذا أفردتُ لدراسة الخصائص الفنية والأسلوبية للرسائل الأدبية في هذا القرن ،وفق أسس هذا المنهج النقدي [3]، مبحثين متصلين ؛ تكّفل المبحث الأول بدراسة الخصائص البنائية والشكلية للرسائل الأدبية ، بينما أشتمل المبحث الثاني دراسة وتحليل المحتوى والمضمون لنصوص تلك الرسائل .

مفاهيم علمية جافة ، أو مُقحمة عليها ، ونحن لا نريدُ هنا أن نزجَّ بنصوص الرسائل القديمة في متاهات غريبة عن طبيعتها الفنية ،كما أننا لا نرمي من وراء تحليل بعض تلك الرسائل الفنية في ضوء معالم هذا المنهج ، أن نوغل – كما فعل بعضُ الباحثين المعاصرين – في خفايا هذا المنهج ، فنجعل مثلاً بعض الخواطر والانفعالات التي وردتْ في ثنايا بعض فصول الرسائل تنفسياً عن رغبات مكبوتة في(اللاشعور) ، أو نفسِّرَ بعض ومضاتها الإنسانية النادرة على أنها (خفقات جنسية مكبوتة) ؛ كُبت منذ عهد الطفولة في (اللاشعور) ، أو أنها (خواطر) قمعتْ قمعاً شديداً ، وأن هذه الرؤى والخواطر التي انبثتْ في فصول تلك الرسائل الأدبية ، إنْ هي إلاّ تعبيرٌ عن كلّ ذلك الكبت المكظوم ،وينظر : نظرية الأدب (الفصل الثامن : الأدب وعلم النفس : 101 وما بعدها .

[3] لقد شاع في الدرس النقدي أيضاً ؛ أن دراسة (الشكل والبناء والمضمون) هي أمور بدأت في دراسة النثر (الرواية والقصة القصيرة) ،وأصحاب هذه الدراسات هم الشكلانيون . اما الدراسات الغربية القديمة التي سبقت جهود الشكلانيين ، والتي دارت حول الشعر ، فقد كانت موضوعاتها تنصب على (الوزن ،الإيقاع ،الشعرية او النظم= =وسواها مما يتعلق بالأدب وتاريخه ،وعلاقة الشعر بالحياة والمجتمع .. ، وتراجع التفاصيل في هذا الجانب : نظرية الأدب / الفصل الثالث عشر : 205–221.

وسنحاول ، بدءاً قبل الخوض في دراسة جزيئات الصياغة والأسلوب وخصائص المضمون الأدبي في هذا القرن ، ان نشخص ، من خلال الاستقراء الدقيق المركز للنصوص الفنية الرصينة لمشاهير كتاب هذا القرن ، أبرز الملامح العامة للنشر الفني – وبخاصة الرسائل الأبية – هذا النثر الذي استطاع ان يواكب الحياة العامة في المجتمعات الإسلامية في أقاليم المشرق الإسلامي ، ويجسد بدقة متناهية ما استبطن أسرارها ، وتعمق أدق خصوصياتها ، واستقرى أعمق ظواهرها 000

ولنتتبع أيضاً ؛ كيف استطاع جهابذة الكتّاب وبلغاؤهم في هذا القرن ، وفي مقدمتهم : أبو حيان التوحيدي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والأمير قابوس بن وشمكير ، وابو علي بن مسكويه وإضرابهم ،ان يخضعوا كثيرا من مشكلات الفلسفة والمنطق ، وقضايا العلم ،وبعض معضلات الفكر والعقيدة فطوعوها لأساليبهم الأدبية البليغة ، وبرعوا براعة متناهية في التعبير عنها بأرق الأساليب وأوضحها ...

وهكذا أسهم صدورُ هذا الفن الأدبي أبان هذا القرن في إضفاء مظاهر جديدة واضحة على النثر الفني ، حتى عُدَّ هذا القرن بحقّ ؛ العصر الذهبيّ للنثر الفني عند العرب .

أما ابرزُ الملامح الفنية العامة التي يمكن تشخصيها في النثر العربي إبان هذا القرن ، فلعلَّ أبرزها ما يأتي :

1.الصنعةُ الفنية والالتزام بالزخارف البديعية :

لقد اندفع أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن الى العناية الفائقة بصياغة رسائلهم الشخصية ،ولم ينساقوا وراء الطبع والفطرة ،ومجاراة السليقة إلاّ لِماماً [4].

وهكذا وقف كتابُ الرسائل ينتقون ألفاظهم ،ويشذبون تراكيبهم ،وراحوا يُجيلون أفكارهم ، ويفتنون في معانيهم ،ويحككون أساليبهم ، ويتروون في صياغتها وتدبيجها ، وقد مرّ بنا آنفاً ما ذكره التوحيدي [5] عن صنيع الصابي من تنقيح ما يحرّرهُ عقب تسويد الرسالة .

ولعلّ أبز مظاهر الصنعة في رسائل كتّاب هذا القرن : التزامهم المفرط بالسجع وزخارف البديع الأخرى كالطباق والجناس والازدواج والموازنة وغيرها وولعهم الشديد بفنون البيان ، كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وغيرها لكلفهم المفرط بالوصف ، وابتكار المعاني وتشقيقها [6].

وهكذا يمكن أن نقررّ حقيقة مهمة ،تلك هي : أنَّ ما بلغهُ النثر الفني – ولاسيما الرسائل الأدبية – في هذا القرن من تطور ونضج وإبداع ، كان ثمرة ذلك الأعداد ، وعناية الأدباء الكتّاب بتجويد أساليبهم ، وتنميق كلامهم ...

---

[4] تراجعُ إشارةُ الثعالبي في اليتيمة 4/293–294 الى سرعة البديهية ،وصفاء الطبع عند الهمذاني ،وقوله فيه : (وكلامهُ كلّهُ عفوَ الساعة وفيض البديهية ...ومجاراة الخاطر للناظر ،ومبارة الطبع للسمع) . ويراجع أيضاً ما افتخر به الهمذاني في رسالته الى الشيخ أبي جعفر الميكالي حين أورد في ثنايا رسالته إليه ثلاثين بيتاً رقيقة من مجزوء الرمل وذكر بعدها يقول : " هذه ... هدية الوقت ،وعفو الساعة ،وفيض البديهة ،ومسارقة القلم = وجمرات الجدّة ،وثمرات المدة ومجاراة الخاطر للناظر ،ومباراة الطبع للسمع ومجاوبة الجنان للبنان ". ينظر : رسائل بديع الزمان الهمذاني :96.

[5] ينظر : ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي –رسالة في علم الكتابة:35.

[6] يراجع ما ذكرهُ الأستاذ زكي مبارك (النثر الفني في القرن الرابع 1/127) عن إيثار كتاب هذا القرن لفنون البديع ،واسرافهم في توشيه رسائلهم بفنونه المعروفة ..

2.حرصُ الكتّاب على التناسب بين المبنى والمعنى :

لقد عني كتّابُ الرسائل الأدبية في هذا القرن ببناء رسائلهم ، وافتنّوا كثيراً في صياغة أساليبها ، الى جانب عنايتهم بمحتوى الرسائل ومضمونها ..

وهذا الأمر دفع الكتّاب على العناية بموسيقى الألفاظ وجرسها وصياغة التراكيب ومتانتها ووضوحها ، فضلاً عن العناية بجزئيات البناء الفني في الرسائل .ولعل هذا ما حفز كتاب هذا القرن على استخدام التلاوين الصوتية العديدة لإضفاء أكبر قدر من الإيقاع والتناسب النغمي في موسيقى نثرهم .

والى جانب عناية كتّاب هذا القرن بالصياغة والأسلوب ،فقد عنوا أيضاً بالمعاني وحرصوا على التجديد فيها ،كما برعوا في صياغة الأفكار ودقتها وعمقها ،ولعل هذا ما يفسّرُ لنا لجوء الكتّاب الى تلك التلاوين الصوتية وأساليب التعبير الأخرى ، لجلاء معانيهم ،وبسط أفكارهم [7]

3. البراعة في التصوير والأغراب في الخيال :

إنَّ حرصَ الأدباء والكتّاب في هذا القرن على ابتكار المعاني الجديدة ورغبتهم في وضوحها وتشقيقها ،وإظهارها قوية الدلالة ، شديدة التأثير ،هو الذي حفزهم على تجويد صورهم ،والبراعة فيها ،والأغراب في الخيال ولعل هذا أيضاً ما يفسّرُ كثرة استخدامهم لصور البيان في رسائلهم الأدبية ،كصور التشبيه والاستعارة والمجاز ،وغيرها من حلي البديع المعنوي كالطباق والتورية ،وما إليها ، بلوغاً لخلق صور جديدة تستوعبُ معطيات الحياة الجديدة المتشعبة ،وآفاق الحضارة التي شهدها هذا القرن ،وما أفرزته من ثقافات غزيرة وافدة ، أغنتْ طاقة اللغة العربية بفيض من المعاني العقلية والفلسفية ،وقد كانت تسعف الأدباء والكتّاب في هذا الإبداع والخلق الفني ؛ بديهة حاضرة ، وحافظة نادرة ،وذكاء وقاد ، وثقافة واسعة بالعربية ومفرداتها وتراثها ...

---

[7] يراجع ماوصى به ابو حيان التوحيدي في مقدمة كتابه الإمتاع والمؤانسة 10/1 من العناية باللفظ والمعنى واتباع مذاهب أهل البلاغة والإنشاء .

4. نـزوع الكتّاب إلى الإفاضة والإطنـاب:

ومن الملامح الأسلوبية الجديدة التي طغتْ على النثر الفني في هذا القرن الإفاضة في عرض الأفكار وبسطها والإطناب في أيراد المعاني وتشقيقها .

ولعل أبرز مظاهر هذا الإطناب في الترسل ،جنوح الكتّاب الى الترادف ، لإشباع المعنى والإحاطة به وتفصيله وإيضاحه ، فضلاً عن التكرار الذي يحقّق جلاء الفكرة وإيضاح المعنى وتأكيده ،ومن مظاهره الأخرى أيضاً : الاعتراض ، وما نجم عنه في رسائلهم من طول الفواصل بين المتلازمات بالجمل الاعتراضية الطويلة ....

5. مزجُ المنظوم والمنثور في الرسائل الأدبية :

ومن الظواهر الأسلوبية الجديدة التي شاعتْ في رسائل هذا القرن أيضاً كثرة تضمين الأدباء الكتّاب لشعرهم أو شعر غيرهم من الشعراء القدامى و المحدثين ،وإدراجه في ثنايا رسائلهم ؛ لِما يحققهُ المنظوم في صلب الرسالة الأدبية من رفد المعنى ، ولِمالهُ من ميزة المثل ....

ونظراً لشيوع هذه الظاهرة الأسلوبية في رسائل الكتّاب فأنها كادتْ أن تكون تقليداً فنياً ،وجزءاً فنياً من صلب ما يكتبهُ الكاتب ،وركناً مهماً في البناء الفني للرسالة الأدبية ...

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أن التزام الأدباء الكتّاب بهذه المظاهر الأسلوبية وبروزها في مكاتباتهم ، تتفاوت من كاتب الى آخر ، وتتوقف أيضاً على طريقة الكاتب في الأداء ،وعلى ثقافته ،وهذا التفاوت بين الكتّاب في التزامهم بهذه الخصائص الأسلوبية هي التي تحّدُد شخصية الكاتب وأصالته في فنّهِ الإبداعي ،وصدق تجربته ...

المبحث الأول

الخصائص البنائية والشكلية للرسائل الأدبية في القرن الرابع

يجدرُ بالباحث ، قبل الخوض في الدراسة الفنية لجزيئات البناء والشكل والمضمون في رسائل هذا القرن ، أن يقفَ أولاً عند قضية مهمة شغلتْ كثيراً النقاد والمفكرين قديماً وحديثاً ، تلك هي قضية الفصل بين (المادة والصورة) أو الشكل والمضمون (اللفظ والمعنى) في العمل الفني أو الأدبي .

وما من ريب في أنَّ أكثر أولئك النقاد القدامى والمحدثين يكادون أن يّجمعوا على الصلة الوثيقة بين (المادة والصورة) ، أو المعنى واللفظ ، ويتفقُ أكثرهم أيضاً على صعوبة الفصل بين المضمون والأسلوب في العمل الأدبي وذهبوا الى أنهما شيء واحدٌ ، ووحدة واحدة .....

فالمفكر والفيلسوف (إفلاطون) مثلاً ، ذهب إلى أنَّ الكلمة إنما تعني الفكرة ذاتها ،وحقيقتها الخارجية المتمثلة في صورة كلمةٍ على السواء[8].

وقد تبعهُ في ذلك تلميذهُ الفيلسوف (ارسطو) ؛ إذ ذهب الى أنَّ " الكلام إذا لم يجعل المعنى واضحاً، فانهُ لا يؤدي وظيفته الخاصة ، كذلك ينبغي ألا يكون وضيعاً ، ولا فوق مكانة الموضوع ، بل مناسباً لهُ [9]" .

وهكذا أكد (أرسطو) الصلة الوثيقة بين (المادة) و (الصورة) ، أو (الكلام) و (المعنى) ، وأن عملية النطق مستلزمة ضرورة للتفكير .

ولعلَّ أشهرَ من ربط بين اللفظ والمعنى أو الفكرة برباط وثيق من نقادنا القدامى : عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) ، فقد قرّر عبد القاهر – بعد أن أبانَ عن مدى قيمة عنصر المعنى في النصّ الأدبي ، وردَّ على من يقدّمون الشعرَ

---

[8] ينظر : الأدب وفنونهُ – د. عز الدين إسماعيل : 27.

[9] الخطابة لارسطو – المقالة الثالثة : 196.

لمعناه ،ويقلّلون من الاحتفال باللفظ –أن الصياغةَ والنظم هما اللذان يجبُ النظر إليهما في الحكم على الشاعر والشعر [10].

وقد قرَّر عبد القاهر – وهذا ما يتماشى مع ما وصل إليه علم اللسانيات الحديث من آراء في رمزية اللغة – أنَّ اللغةَ ليستْ مجموعة من الألفاظ ، بل مجموعة من العلاقات [11].

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، فقد بنى عبد القاهر نظريته في اللغة ، فذهب الى أنَّ الألفاظ في ارتباطها هي التي تكون في القصيدة مثلاً مجموعة الصور التي تنقلُ إلينا الشعور أو الفكرة [12].

وهكذا ربط عبد القاهر الحرجاني بين اللفظ والمعنى حين قرَّر أيضاً أنَّ الألفاظ لم توضعْ ، ولم تستعملْ لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها ، ثم أشار الى أنك تطلبُ المعنى ،وإذا ظفرت بهِ فاللفظ معك وإزاءَ ناظرك [13].

ولدى استقرائي المتواضع لفصول الرسائل الأدبية في هذا القرن ، توصلتُ الى أنَّ صدورَ الكتّاب وبلغاءهم كانوا يحرصون على إيجاد التناسب بين عنصري المبنى والمعنى في فصول رسائلهم في تلاحم فني رائع ،كما أشرتُ آنفاً .

وقد صرَّح بعضُ أولئك الأعلام المبرّزين من الكتّاب في هذا القرن بهذا الأمر ، فأبو حيّان التوحيدي مثلاً ، أوصى في مقدمة كتابه (الإمتاع والمؤانسة) بالعناية باللفظ والمعنى ، وباتباع أصحاب البلاغة والإنشاء ، إذ قال [14]: (ولا تعشق اللفظ دون المعنى ، ولا تهوَ المعنى دون اللفظ ،وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في جانب ،فأنَّ صناعتهم يُفتقرُ فيها أشياء يؤاخذُ بها غيرُهم).

---

[10] تراجع التفاصيل في : دلائل الاعجاز : 162–164.(ط المنار 1331هـ).

[11] تراجع التفاصيل في كتاب : في الميزان الجديد – د. محمد مندور : 143.

[12] ينظر : الأدب وفنونه : 115.

[13] يراجع : دلائل الاعجاز : 341.

[14] الامتاع والمؤانسة – المقدمة : 10/1.

ولعل ما يؤكد عناية بلغاء الكتّاب في هذا القرن بموسيقى التراكيب وحرصهم على تناسبها مع الأفكار التي تحتويها نصوص رسائلهم ؛ احتفالهم باستخدام التضاد والجناس والازدواج والموزانة والترادف وغيرها من الوان البديع وطرائق التعبير ، إذ كان هؤلاء الكتّاب البلغاء يتوخون استعمال تلك الألوان البلاغية لجلاء المعنى في ذهن المتلقي ، وتوكيده في نفسه ، فضلاً عما تُحقّقهُ من جوانبَ فنية تتمثلُ في تلوين التعبير الأدبي وإثرائه بعنصر الإيقاع والموسيقى .

ولا تختلفُ نظرةُ أكثر النقاد المعاصرين في هذه القضية عما قدمنا من آراء النقاد والمفكرين القدامى آنفاً ، فنرى أنّ بعض المذاهب النقدية الحديثة تؤكد بخاصة على وحدة النصّ الشعري ،وأنّهُ " كلٌ مكوّن من ظواهرَ متماسكة [15]".

ومن هنا أيضاً ، نرى أنَّ بعضَ النقاد يذهبُ الى أنَّ شكل القصيدة ، فضلاً عن المضمون الذي ينصبُّ فيه ، تمثّلُ جميعاً نسيج النصّ الشعريّ ، وتجسَّدُ بمجموعها خلاصةَ تجارب الشاعر الفنية ، وخبراته المتوارثة ، وتُعبَّرُ عن أحاسيسهِ ومثله...

فالناقد الفرنسيّ (دي جورمون) يرى أنَّ الأسلوبَ والفكرَ شيء واحد ، وأنَّ من الخطأ محاولة فصل الشكل عن المادة (المضمون) [16].

ويوافقُ هذا الرأي قول الناقد (دونالد استوفر) ؛ أن القصيدة " يتداخلُ فيها الشكل والمحتوى على نحو لا يمكن معهُ تصوّر كلّ منهما على حده [17]" .

وهكذا يمكن أن نصل الى حقيقة مهمة ، تلك هي أن الألفاظ والتراكيب – بوصفها جزءاً مهماً من شكل العمل الأدبي – وسيلة مهمة لنقل المعنى ،وصياغته أو تصويره ، وأنه لاقيمة للشكل والصياغة (الألفاظ والتراكيب) الاّ بالمعنى الذي

---

[15] تراجع التفاصيل في كتاب (نظرية البنائية في النقد الأدبي : 176 وما بعدها) .

[16] تراجعُ التفاصيل في كتاب (النقد الأدبي) – وليم فان أو كونور : 102 وما بعدها ترجمة : صلاح أحمد إبراهيم .

[17] وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي : 151.

يجسدانه كما أنّ محتوى العمل الأدبي (الأفكار والمعاني وغيرهما) لا يحيا الاّ بحسن الصورة ، وجمال الصياغة ،ورشاقة الأسلوب .

وإذن فانَّ قوةَ التأثير ،وجمال النصّ ، ليس تابعاً إلى اللفظ فقط ، أو إلى المعنى فقط ؛ ولهذا ذهب بعض النقاد المعاصرين إلى القول : " وإذا تقررتْ هذه الصلة الوثيقة بين المادة والصورة ، أو بين اللفظ والمعنى ، فمن المجازفة أحياناً أن تسندَ قوة التأثير ، أو جمال البيان إلى أحدهما دون الآخر ، فاللفظ وسيلة لنقل المعنى ، ولا قيمة له الاّ بمعناه ، كما أن المعنى لا يحيا الاّ باللفظ [18].

وعلى الرغم مما ذهبنا إليه آنفاً من تلاحم أجزاء البناء والشكل والمضمون في العمل الأدبي – بوصفه ضرباً من الفن غايتهُ التأثير والإمتاع – ألاّ أننا سنحاول – وصولاً إلى بناء أحكام نقدية دقيقة ومعلَّلة – تجزئةَ النصَّ الأدبي ، من خلال الوقوف المتأني عند نصوص الرسائل الأدبية في هذا القرن ، الى عناصره الأساسية ، ودراسة تلك الأجزاء الفنية دراسة مستقلة ، على الرغم من إيماننا بتواؤم أجزاء نصوص تلك المكاتبات الأدبية ، وارتباطها ارتباطاً عضوياً متكاملاً ...

أولاً : الخصائصُ البنائية :

ربما كان الفيلسوف (أرسطو) أقدم من عرض لدراسة موضوع بناء النصّ الأدبي ؛ فقد تناول في المقالة الثالثة من كتاب (الخطابة) البناء العام للخطبة في عصره ، بأنواعها الثلاثة المعروفة [19].

---

[18] أصول النقد الأدبي : 247 ، وينظرُ قريب من هذا الرأي ما ذهب اليه الدكتور شوقي ضيف (في النقد الأدبي : 163) من أنهُ ليس هناك محتوى وصورة ، بل هما شيء واحد ، ووحدة واحدة ، وينظرُ أيضاً ما ذهب اليه الدكتور بدوي طبانة (التيارات المعاصرة في النقد الأدبي : 184) ، إذ أكد وجودَ صعوبة مادية في تقسيم العمل الأدبي العناصر : لفظ ومعنى أو شعور وتعبير ، ورأى أنَّ القيم الشعورية والقيم التعبيرية كلتاهما واحدة لا انفصام لها في العمل الأدبي .

[19] تراجع التفاصيل في كتابه : الخطابة – المقالة الثالثة (في أجزاء الكلام) : 256–234.

وقد أشار (أرسطو) بإيجاز دقيق الى أنَّ الكلام – يعني النصّ الفني الذي بحث فيه وهو الخطبة – يتضمَّنُ جزئين أساسيين هما :

1) العرض (أي الموضوع الذي يبحث فيه) .

2) الدليل (وهو البرهنة التي تسبقُ الموضوع وتواكبهُ ، إذ لا يُذكرُ الشيء الاّ من أجل البرهنة عليه).

ثم ألحق (أرسطو) بهذين الجزئين الأساسيين في النص : الاستهلال والخاتمة ؛ إذ لم يعدّهما من أجزاء النصّ الاّ عندَ الضرورة يقول [20]" وهكذا ليس ثمَّ من ضرورة الاّ للقضية والدليل ، فهذا هو الملائم حقاً للكلام ، وقصارانا السماح بـ : (الاستهلال ، والعرض والدليل ، والخاتمة .)

ويتواصلُ هذا الاهتمام بدراسة بنية النصّ الفنيّ في العصر الحديث إذ كرَّست العديدُ من المناهج النقدية الحديثة ، وفي مقدمتها المنهج الموضوعي (الفني) ،والمنهج البنيوي ، عنايتهما على دراسة النصّ الفني من الداخل ، دونَ أيّ اعتبار لمؤثر خارجي . وأصبحتْ دراسةُ النصّ هي مدار البث الأدبي الذي ينصبُّ على دراسة السياق البنائي الى جانب السياق الأسلوبي ، فضلاً عن أنّ بعض تلك المناهج الحديثة – كالبنيوية مثلاً – بدأتْ تنظّرُ في هذا الجانب انطلاقاً لإرساء مفاهيمها النظرية في هذه القضايا الدقيقة ، فنظرتْ الى (البنية) مثلاً على إنها " كل مكون من ظواهر متماسكة يتوقف كل منها على ما عداه ، ولا يمكن أن يكون ما هو الاّ بفضل علاقته بما عداه "[21].

لقد عني كثير من كتّاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، بالمبنى العام لرسائلهم فضلاً عن حرصهم على ارتياد الصور الفنية النادرة ، بلوغاً لفتق أكمام المعاني المبتكرة – وهذا ما تجلى بوضوح في حرص بلغاء الكتّاب وصدورهم في هذا القرن ، على التناسب بين المبنى والمعنى – كما مرَّ بنا آنفاً – في ترسلهم من خلال

---

[20] الخطابة – المقالة الثالثة : 234.

[21] نظرية البنائية في النقد الأدبي : 176 .

عنايتهم بجرس الألفاظ ،وموسيقى التراكيب ، وتآلفها مع المعاني والأفكار في تلاحم فنيّ متميز ...

وقد دفعهم هذا الحرصُ في تجويد أساليبهم في ترسلهم ، الى العناية بصياغة استهلال الرسائل وخواتمها وبخاصة حين يتكاتب صدور الأدباء مع بعضهم ، ويبالغون في تجويد خطوطهم ، وتدبيج أساليبهم ، وتنميق كلامهم ويبالغون أيضاً في الاحتراز من الوقوع في مهاوي الزلل ،وعيوب الصنعة ، احتراساً من الشماته بالعثرة ،ومن أن يرُمى فيصمى بالنقد اللاذع ، أو التجريح والتشنيع [22].

وكان كتّاب الرسائل الأدبية في هذا القرن بخاصة ، كثيراً ما يصرّحون في رسائلهم المتبادلة فيما بينهم ، بإعجابهم بهوادي الرسائل الأدبية التي تصل إليهم ، وأعجازها ، أي ابتداءاتها وخواتمها ، فضلاً عن رقةِ ألفاظها وبلاغة فصولها .

كتب أبو الفضل الميكاليّ في فصل من رسالة جوابية لهُ الى الثعالبي [23]:

" وصل كتابُ مولاي وسيدي ، أبدع الكتب هواديَ وأعجازا ، وأبرعها بلاغةً وإعجازاً.....).

وكتب الصاحب بن عباد في وصف كتاب ورد إليه [24]" وصل كتابُ القاضي ، فاعظمت قدر النعمة في مطلعه ، وأجللتُ محلَّ الموهبة بموقعه ، وفضضتهُ عن السحر الحلال ،والماء الزلال ،وسرَّحتُ الطرفَ منهُ في رياض رقَّتْ حواشيها ،وحلل تأنق واشيها ، فلم أتجاوزْ فصلاً الاّ إلى أخضرَ منهُ فضلاً ،ولم أتخط سطراً الاّ الى أحسنِ منهُ نظماً ونثراً).

---

[22] يراجع ما ساقه التوحيدي (رسالة في علم الكتابة : 47) عما دار بين أبي الوفاء المهندس والوزير ابن سعدان ،واستعانة الأخير بالصابيّ في الكتابة الى الوزير الصاحب واحترازه من الوقوع في الخطأ والزلل – مع ما وصف بأنَّ خطَّهُ كان في الغاية ، وبلاغته في النهاية – خوفاً من تتبع الصاحب لزللهِ ،وشماتته بعثرته ...

[23] زهر الآداب وثمر الألباب : 1/168–169.

[24] ديوان المعاني :: 2/86.

ولقد تباينت الرسائل الأدبية إبانَ هذا القرن في مبناها ،ورصف فصولها : وتوليف أجزائها ،واتبع الكتّاب البلغاء في ذلك أساليب عديدة متباينة ، تبعاً لموضوع الرسالة الأدبية وفحواها ، وما تبع ذلك أيضاً من طول الرسالة وسعة حجمها ، أو قصرها وانحسار موضوعها الذي انصَّبتْ عليه ..

ومن الاستقراء الدقيق لمجاميع الرسائل النثرية التي وصلت الينا ، فضلاً عمّا تناثر منها في بطون المصادر الموثوقة ، يصلُ الباحث الى حقيقة مهمة تلك هي : إنَّ هناك تفاوتاً واضحاً في هذه الرسائل من حيث طولها وقصرها ،ويمكنُ تصنيفها ، تبعاً لذلك الى ضربين متميزين :

الضربُ الأول : رسائل أدبية قصيرة : وقد وصل ألينا من هذا الضرب من الرسائل طائفة قصيرة جداً ، لم يتجاوز طول بعضها أسطراً معدودة .ولم تتضحْ في هذه الرسائل القصيرة معالم البناء الفني للنص الأدبي ؛ لأنها كانتْ منصَّبة على معالجةِ فكرةٍ واحدة ، أو موضوع واحد قصير [25].

وهنا طائفة أخرى من هذا الضرب من الرسائل الأدبية ، أكثر طولاً من رسائل الطائفة السابقة – وهي أكثر ماوصل الينا من رسائل هذا القرن – وقد

---

[25] تراجع نماذج من هذه الرسائل الأدبية القصيرة في مجموعتين من الرسائل لكابتين كبيرين هما : الخوارزمي والهمذاني . تراجع رسائل أبي بكر الخوارزمي القصيرة في الصفحات الأتيـــة: 12، 32 ، 33، 37، 82 ، 83 ، 93 ، 96 ، 97 ، 114 ، 115 ، 117 123 133 ، 134 ، 135 ، 136 ، 142 ، 146 ، 158 ، 179 ، 180 ، 191 195 ، وتراجع هذه الرسائل القصيرة أيضاً في رسائل بديع الزمان الهمذاني في الصفحات الآتية : 11 ، 26 ، 27 ، 103 ، 104 ، 105 ، 128 ، 129 ، 130 131 ، 133 ، 134 ، 139 ، 141 ، 142 ، 161 ، 162 ، 181 ، 182 ، 185 186 ، 189 ، 190 ، 219 ، 223 ، 224 ، 233 ، 235 ، 236 ، 241 ، 245 246 ، 247 ، 248 ،252 ، 255 ، 256 ، 258 ، 259 ، 261 ، 285 ، 286 288 ، 292 ، 294 ، 295 ، 375 ، 406 ، 409 ، 410 ، 413 ، 471 ، 473= 484 ، 491، 492 501 ، 510 ، 511 ، 515 ، 521 ، 527،526،523،522 529 530 ، 533 .

تميزتْ هذه الرسائل القصيرة أيضاً بوحدة الموضوع ، الاّ أنَّ كثيراً من نماذجها قد اتضح فيه بعضُ معالم البناء الفني كالاستهلال والخاتمة ...

(الضربُ الثاني) : رسائل أدبية طويلة :

وهي الرسائل التي تميزت بطول فصولها ،وتنوع بنائها ، إذ بلغ طولُ بعضها أكثر من خمس عشرة صفحة من القطع المتوسط ، أو أقلَّ من ذلك بقليل [26] ،

---

[26] لعلَّ أشهر نماذج هذا اللون من الرسائل (الطويلة) لكتاب هذا القرن المبرزين :

*رسائل ابي بكر الخوارزمي رسالته الى أبي الحسن البديهي – وهي أطول رسائله – وقد بلغت حوالي ست عشرة صفحة (رسائله 235–250) ، ورسالته أيضاً الى جماعة الشيعة بنيسابور (رسائله 160–172).

*رسائل بديع الزمان الهمذاني : رسالته إلى القاضي علي بن أحمد يشكو فيها أبا بكر الحيري : (رسائله : 162–175) ، رسالته الى الشيخ أبي الطيب سهل بن محمد (رسائله : 432–442) .

*رسالة الأمير قابوس بن وشمكير الفلسفية في وصف العالم وذكر تكونه – وهي أطول رسائله وقد بلغت حوالي اثنتي عشرة صفحة ، وبلغت مقدمتها اثنتي عشرة قرينة .(كمال البلاغة : 84–95) ،رسالته إلى خاله الاصبهبذ في العتاب .(كمال البلاغة : 53–57) .

*رسالة الشريف الرضي إلى بعض اصدقائه يعاتبه ،وقد بلغت حوالي عشر صفحات (رسائل الصابي والشريف الرضي : 103 –112) رسالته الى الصابي يعزيه : 63–70 وغيرها .

=*رسالة أبي حيان التوحيدي الى أبي الوفاء المهندس في شكوى البؤس (الامتاع والمؤانسة 3/225–230) ، ورسالته الى القاضي أبي سهل علي بن محمد الجوابية يعتذر فيها عن صنيعه في إحراق كتبه .(معجم الأدباء:15/ 16–26).

*رسالة أبي اسحاق الصابي (الشهيرة بعهد التطفل) الهزلية : صبح الأعشى في صناعة الانشا 14/404–410 .ورسائل كثيرة غيرها ....

*رسالة الصاحب بن عباد في تعزية أبي محمد العلوي : رسائل الصاحب بن عباد – الباب العاشر (" في التعازي) : 151–144 ، ورسائل كثيرة مشهورة غيرها ....

ومجموع ما وصل الينا من هذه الرسائل الطويلة ، أقلُّ بكثير من رسائل الضرب الأول [27].

وقد اتضح في هذا الضرب من الرسائل الأدبية أكثر ملامح البناء الفني للنصّ الأدبي (النثري) ، فضلاً عن خصائص الصياغة والشكل ،وخصائص المضمون الأخرى .

لقد شخصتْ بوضوح في هذه الرسائل الأدبية الطويلة بخاصة ، فضلاً عن كثير من الرسائل القصيرة ، أبرز جزئيات البناء الفني ، التي سنلمُّ بدراستها ، وتحليل قيمتها الجمالية والفنية ، بلوغاً الى رصد قيمة هذه الرسائل ، وبيان جانب مهم من خصائص الصياغة والبناء الفني لها في هذا القرن ، والتي غدت نماذج أدبية شامخة لأصالة النثر العربي في أزهى عصوره الأدبية .

أما أهمّ جزئيات هذا البناء الفني للرسائل الأدبية النثرية في هذا القرن فهي :

1.الاستهلال أو الابتداء في الرسائل الأدبية :

لقد عني كتّابُ الرسائل الأدبية في هذا القرن ، بصدور رسائلهم وابتداءاتها ؛ لأنها أول جزءٍ من الرسالة يصلُ الى المتلقي ، ولذلك حرص الأدباء الكتّاب على أن يكون هذا الاستهلال جميلاً ، ومؤثراً ، ومستساغاً و " لأنَّ حسنَ الافتتاح – كما قال ابنُ رشيق القيرواني [28] – داعية الانشراح ، ومطيّةُ النجاح ".

وتأتي أهمّية الاستهلال في الرسائل الأدبية أيضاً ، من أنهُ يدلُّ على ما بعده من فحوى الرسالة أو موضوعها ،وهو – كالمطلع في القصيدة ،والافتتاحية في

---

[27] مما يدلّلُ على إيثار أدباء هذا القرن للاطالة في كتابة الرسائل فيما بينهم عتبهم على من يوجز في كتابه رسالته ، وعدَّ ذلك تقصيراً بحقَّ من يكتبُ اليه من الاخوان ،ومن علامات الملال ودلائل التغيير ! ينظر ،مثلاً ، ما ورد في رسالة طريفة للصاحب الى بعضهم يعاتبه في صغر كتابه اليه :" ورد كتاب حسبته يطير من يدي لخفته ، ويلطف عن حسي لقلته وعهدي ... الخ . تروي إذا سيقتْ ،وتجزل إذا أعطيت ، فما الذي أحالك ، وبدَّل حالك ؟ أملال أم كلالٌ أم إقلال ؟...) .ديوان المعاني :: 164/1.

[28] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : 355/1.

الموسيقى – يمَّهدُ لِما يأتي بعده ، أو هو – كما عبَّر عنهُ ابن رشيق القيرواني أيضاً – (..... استدراج الى ما بعده) [29] ، إذ يهيئ المتلقي لمواصلة القراءة ، ويستثير انتباههُ لمتابعة ما هو فيه ...

وكان أرسطو أقدم من عرض الدراسة (الاستهلال) في الخطبة في باب (أجزاء الكلام) عندما تصدّى لدراسة الخطابة بأنواعها المعروفة في عصره ...

عرّف أرسطو الاستهلال بأنه بدءُ الكلام ،ويقابلهُ في الشعر (المقدمة أو(المطلع) ، وفي فنّ العزف على الناي (الافتتاحية) ، ورأى أن هذه (الابتداءات) كلها بدايات ، وكأنها تفتحُ السبيل الى مايتلو [30]

وقد ركز أرسطو على الجانب الجمالي في هذا الجزء من الكلام أو الخطبة إذ قرنه (بالافتتاحية) ، أو اللحن الجميل لعازف الناي ! يقول أرسطو [31]: "والافتتاحية شبيهة بالاستهلال في النوع البرهاني ، ذلك أنَّ عازفي الناي إذا عرفوا لحناً جميلاً ،وضعوه في افتتاح المعزوفة كأنه لحنهُ ،وينبغي في الأقوال البرهانية أن يجري التأليفُ هكذا : نبدأ بالتعبّير عما نقصدُ إليه ، ثم نسترسلُ ، وكلُّ الخطباء يلتزمون هذه القاعدة ".

ولعل أهمية ما سقناه لأرسطو في الاستهلال ، تكمن في أنه اصبح مصدر الهام لكثير من النقاد العرب القدامى الذين بحثوا في بناء النصّ الأدبي ،ودراسة أجزائه الفنية ، وأساساً متيناً دعموا به آراءهم في هذا الجانب .

ولم يكن لكتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، طريقة محدّدة في استهلال مكاتباتهم – كما درج عليه كتّابُ الرسائل الديوانية الرسمية [32] في العصور

---

[29] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : 364/1.

[30] تراجع التفاصيل في كتاب :الخطابة : 235.

[31] المصدر نفسه : 235.

[32] لقد أفاض هلال الصابي في شرح رسوم المكاتبات الرسمية ،ومن بين تلك الرسوم التي وقف عندها : التصدير في الرسائل (الاستهلال) ، تراجع التفاصيل في : رسوم دار

الإسلامية وإنما كانت ابتداءاتهم كثيرة ومتنوعة [33] وغالباً ما كانت ترتبط بموضوع الرسالة أو فحواها أو بمقام المكتوب إليه ،وطبيعة منزلته السياسية والاجتماعية .

أما أهمُّ أنواع الاستهلال التي صدّر بهِ كتّابُ الرسائل الأدبية مكاتباتهم في هذا القرن ، فيمكن رصد أهمّها على النحو الآتي :

(أ)<u>الاستهلال بالدعاء أو التحميد</u> :

وهو من الابتداءات التي شاعت كثيراً في صدور الرسائل الأدبية –ولاسيما المكاتبات الاخوانية – في هذا القرن .وقد جعل القلقشندي الاستهلال بالدعاء الأسلوب الأول في المكاتبات الدائرة بين أعيان الدول [34].

وقد أشار القلقشندي أيضاً في موضع آخر من كتابه ، الى تطور صور الأدعية في هذا القرن ، إذ جنحت الى الإجلال والإعظام – جرياً على عادة الفرس – ثم رتبوا تلك الأدعية على مراتب متفاوتة بحسب مقام المكتوب إليه يقول [35]: " وقد تقدّم في الكلام على مقدمات المكاتبات ...أنَّ الأدعية كانت في الزمن الأول تستعمل فيما يتعلق بأمر الدين ، مثل قولك : أكرمه الله وحفظه الله ووفقه وحاطه ،وما أشبه ذلك فعدل عنها قصداً للإجلال والإعظام الى الدعاء بإطالة البقاء ،

الخلافة : 107 –108 ، ثم فصَّل في هذا الموضوع أيضاً : القلقشندي في : صبح الاعشى في صناعة الأنشا : 327/6 وما بعدها .

[33] لعل أكثر مَن فصَّل في رسوم المكاتبات الاخوانية ،وبخاصة افتتاحياتها ، وخواتمها صاحب صبح الأعشى ، حيث وقف عند رسوم الافتتاحيات في الرسائل الاخوانية قديماً ،وأرجعها الى ضربين (تراجع التفاصيل في : 8/ 126 ثم فصل القلقشندي في رسوم اخوانيات أهل المشرق الإسلامي ، فخصَّصَ لها اربعة (مهايع) ، جعل المهيع الأول (في صدور الابتداءات) ، وقد أرجعها الى سبعة أساليب .(تراجع التفاصيل في صبح الاعشى : 8/ 127)

[34] صبح الاعشى في صناعة الانشا : 8/ 135.

[35] المصدر نفسه 8/127–128 ، وينظر : الحضارة الإسلامية – متز: ا / 164–165 .

وإدامة العزّ ، وإسباغ النعمة ، ونحو ذلك ، مما يتنافس فيه أبناء الدنيا ،جرياً على عادة الفرس ، ثم رتبوا الدعاء على مراتب فجعلوا أعلاها الدعاء باطالة البقاء ....".

وكثيراً ما كان الاستهلال بالدعاء يأتي مقترناً مع موضوع التهاني وأحياناً قليلة يأتي مقترناً مع موضوع التشكر والتشوق [36].

كتب أبو إسحاق الصابي الى عبد العزيز بن يوسف يهنئهُ بالنوروز [37] " اطال الله بقاء مولاي الأستاذ ،وأسعدهُ بنيروزه الوارد عليه وأعاده الف عام إليه وجعله فيه وفي أيامه كلها معافى سالماً فائزاً غانماً مسروراً محبوراً محروساً موفوراً مختوماً لهُ ببلوغ الآمال ، مطروفاً عليه عين الكمال ...".

وكتب أبو الفضل ابن العميد الى عضد الدولة يهنئه بولدين ولدا له [38]: " أطال اللهُ بقاء الأمير الأجلّ عضد الدولة ، دام عزّه وتأييده ، وعلوّهُ وتمهيده ، وبسطتهُ وتوطيده ،وظاهر له من كل خير مزيده ،وهناه ما اختصه به على قرب الميلاد ...".

ومن جيد الأدعية ، ما استهل به الوزير الصاحب بن عباد إحدى رسائله في التهنئة لأحد الأمراء بعيد النيروز [39]: " أسعد اللهُ سيدنا بالفضل الجديد ، والنيروز الحميد ، سعادة متصلة المادة ، حافظة لجمال العادة ، مؤذنةً بظاهر العزّ والبسطة ، وتزايد السرور والغبطة ....".

---

[36] تراجع من نماذج هذه الأدعية ، ما ورد في رسالة الصابي إلى الصاحب – يتيمة الدهر 291/2 ،ورسالة الخوارزمي إلى أبي محمد العلويّ ،وقد استهلها بالدعاء (رسائل أبي بكر الخوارزمي : 17–19.

[37] ديوان المعاني :– العسكري: 99/2.

[38] زهر الآداب وثمر الألباب : 4/ 1120–1121.

[39] ديوان المعاني :2/ 99.

وقد ساق القلقشندي [40]نماذج كثيرة جداً من رسائل التهاني التي استهلتْ بالدعاء والتحميد لأبي الفرج الببغاء ،ومن تلك الاستهلالات ما ورد في إحدى رسائله في التهنئة بالعود من الحج [41].

" جعل اللهُ سعيك مشكورا ، وحجك مبرورا ، ونسكَك مقبولا ، وأجرك مكتوبا ،وأجزل من المثوبةِ جزاءَك ، ومن عاجل الأجر وآجلهُ عطاءَك ....".

وللاستهلال بالدعاء صورةٌ أخرى ،وهي أن يتوسط الدعاء صدر الرسالة ، بعد الابتداء بكلام مناسب للحال ، وربما يردفُ بالحمد .

وقد عدَّ القلقشندي هذا اللون من الابتداءات أسلوباً ثانياً من أنواع استهلالات المكاتبات الاخوانية في هذا القرن [42].

ومن نماذج هذا اللون من الابتداءات ، ما ورد في رسالة لبديع الزمان إلى الاسفراييني [43] " كتبتُ –أطال الله بقاء الشيخ الجليل السيد ، وأدام علوَّهُ وتمكينه عن سلامة – والحمدُ لله ربّ العالمين ، وصلاتهُ على محمد وآله وسلم ...".

وقد يتوسط الحمد وحدهُ دون دعاء ، بعد ابتداء مناسب في صدر الرسالة الأدبية ، من ذلك ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي الى كاتب خوارزم شاه [44]:" كتابي ، وأنا بين محنةٍ قد أدبرتْ ،ونعمة قد أقبلتْ ، ووليّ قد ملك ، وعدوّ قد هلك ، والحمدُ لله الذي ابتلى ثم أبلى فأنعم ،وصلى اللهُ على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين ...".

وقد استُهلَّتْ بعضُ الرسائل الأدبية التي انصَّبتْ على التهاني والثناء؛ بالتحميد دونَ الأدعية ،من ذلك ما ورد في أحدى رسائل أبي هلال العسكري [45]: "

---

[40] ينظر :صبح الاعشى في صناعة الانشا 9/ في مواضع كثيرة متفرقة .

[41] المصدر نفسه : 9/ 32–33.

[42] صبح الاعشى في صناعة الانشا : 8 / 135.

[43] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 8–11.

[44] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 255–256.

[45] ديوان المعاني :98/2.

الحمدُ لله الذي وفّر على الأنام المحاسن ،واكتنفها بالميامن ،وبسط بالخير أيديها وأفاض بالإحسان واديها .....".

وقد شاع هذا اللون من الاستهلال كثيراً في الرسائل الديوانية (الرسمية) وبخاصة في رسائل أبي إسحاق الصابي [46] وندر وروده في المكاتبات الأدبية .

(ب) الاستهلال بالشعر :

لقد درج كثير من الأدباء الكتّاب في هذا القرن على استهلال رسائلهم الأدبية – ولاسيما الاخوانية – بالشعر العذب الرصين على سبيل الحكمة والمثل ، ولعلَّ اشهرَ من عُرف بهذه الظاهرة الفنية في صدور رسائله ؛ أبو بكر الخوارزمي [47] وبديع الزمان الهمذاني [48]اللذان شهرا بسعةِ ثقافتهما ، والمامها بالتراث العربي القديم والمحدث .

---

[46] ان بعض تلك الاستهلالات بالحمد للصابي لم ترقْ بعض النقاد القدامى وعابوها ، من ذلك مثلاً ، ما أخذهُ ابن الأثير (المثل السائر 3/ 109) عليه في رسالة لهُ عن الطائع بعد القضاء على ثورة الأتراك عام 364 هـ (تراجع الرسالة في المختار من رسائل الصابي : 18–19) ،فقد استهجن ابنُ الأثير التحميد الذي استهلَّ به الصابي هذه الرسالة وعدّها غير منسجمة مع المناسبة التي قيلتْ فيها ، ورأى أنها تصلحُ أن توضعَ في صدر مصنَّف في أصول الدين ، وقد ردَّ هذا الاستهجان ابنُ أبي الحديد في كتابه (الفلك الدائر : 297–299) .

[47] ينظر :رسائل أبي بكر الخوارزمي : 26–27 (رسالته الى أبي الحسن الطرحودي) 28 (رسالته الى وزير قابوس) : 44–50 (رسالته الى أبي محمد العلوي) : 60–58 (رسالته الى ابي الحسن الحكميّ) : 211–213 (رسالته الى قاضي سجستان) .

[48] ينظر :رسائل بديع الزمان الهمذاني : 96 وما بعدها (رسالته الى أبي نصر الميكالي) زهر الآداب وثمر الالباب: 309/1 –310 ، 157 (رسالته الى ابن مسكويه) : 212 وما بعدها (رسالته الى أبي عامر الضبي) ،زهر ألآداب: 2/ 508–509 ، 365 (رسالته الى محمد بن إبراهيم الشاري)، 367–368 (رسالته الى أبي القمر بن شاه) وغيرها ...

وغالباً ما كان استهلالُ الرسالة بالشعر يوّطيء لفحواها ، ويهيئ المتلقي للاصغاء والمتابعة ، فابو بكر الخوارزميّ برع كثيراً في التمهيد لعتابهِ لصديقه (الطرحودي)، وتغيّره عليه ، بهذا الاستهلال الطريف ، إذ خاطبهُ بقوله [49]:[من الطويل] :

فلا ترتفعْ عنّا لشغلٍ وليتهُ كما لم يُصغَّرْ عندنا شأنك العزْلُ

ومن الاستهلالات بالشعر الجميل ،على سبيل المثل ، والتمهيد الناجح لفحوى موضوع الرسالة أيضاً ، ما أستهلَّ به الخوارزمي رسالته الى الوزير بالحضرة – وكان قد بالغ في الإحسان إليه [50]: [من الكامل]

ماأقربَ الأشياء حينَ يسوقُها قدرٌ ، وأبعدَها إذا لم تقدرِ

ومن روائع استهلالات الخوارزمي بالشعر القديم أيضاً ، ماورد في رسالته الى قاضي سجستان حين نكبهُ أميرُها ، إذ جاء الاستهلال مناسباً ومهيئاً ذهن السامع لموضوع الرسالة ، ومجلياً عن موقف الكاتب ومشاعره الصادقة إزاء ماحلَّ بالقاضي ، وتجلّده إزاء الشامتين [51] : [من الوافر]

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناس كلاكلهُ أناخ بآخرينا

فقلْ للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

ونظيرُ هذه الاستهلالات الرصينة بالشعر الجزل ؛ مانتلمسهُ كثيراً في رسائل الهمذاني ، ومن تلك الابتداءات التي مهَّد بها لفحوى الرسالة ، ماجاء في مكاتبته الى الأمير أبي نصر الميكالي يعاتبه [52] [من الطويل]

---

[49] رسائل أبي بكر الخوازمي : 26–27.

[50] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 189 .

[51] المصدر نفسه : 211.

[52] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 96 ، وتراجع الرسالة في زهر الآداب :1/ 309–310.

لـــئن ســـاءَني أن نلتنـــي بإســـاءَةٍ لقـد سـرَّني أنـــي خطـرتُ ببالـكَ

ويتضحُ جلياً روعة استخدامه للتضاد بين (ساءَني وسرَّني) في البيت ، إذ إنهُ صوَّر بدقة تأرجحهُ بين ودّهِ ووفائه للأمير ، وبين جنوح الأمير عنه . وهكذا أبدع الهمذاني في توظيف الطباق ليزيد المعنى جلاءً ، والفكرة وضوحاً ومضاءً .

ومن رسائل الهمذاني الشهيرة التي استهُلَّت بالشعر القديم الجزل الرصين ، ما كتبهُ الى ابن مسكويه ، وقد أوقع بينهما بعضُ الوشاة ، وقد جاء الاستهلال مناسباً لفحوى الرسالة ، ومثيراً لانتباه المتلقي [53] [من الطويل]

"ويـــاعزُّ انْ واشٍ وشـــى بـــيَ عنـــدكم فلاتمهليـــه أن تقـولي لـــهُ مهـــلا

كمـــا لـــو وشـــى واشٍ بعـــزَّةَ عنـــدنا لقلنـا : تزحـزح ، لا قريبـاً ولا أهـلاً

بلغني – أطال اللهُ بقاءَ الشيخ –أنَّ قيضة كلب وافتهُ بأحاديثَ لم يعرْها الحقُّ نوره ولا الصدق ظهوره ..." .

ومن روائع الاستهلالات بالشعر لبديع الزمان أيضاً ؛ ما مهَّد بهِ لأحدى رسائله الاخوانية في بث الأشواق ، إذ كتب يقول [54] [من الكامل]

حُثـــوّا المطـــيَّ فهـــذه نجـــدُ غلـــبَ الهـــوى وتطلَّـــعَ الســـعدُ

وقد برَّحَ الشوقُ برحاً ، لا أستطيعُ لهُ شرْحا ، وعلى الوجدُ غلياً لا يردّهُ صبرٌ ، ولا يسعهُ صدر : [من الوافر]

---

[53] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 157 وما بعدها ، وقيضة كلب : أرادبها رجلاً أو جماعة وصفهم بالحقارة والخسة هم الذين وشوابه عند صديقه ،والبيتان لكثير عزّة وهو مشهور .

[54] المصدر نفسه : 458 ، والبيت الثاني قديم وقد غيرّ الهمذاني عجزه وأصله قوله

وأبـــرح مـــا يكـــون الشـــوق يومـــاً إذا دنـــت الخيـــام مـــن الخيـــام

وحثّوا المطيَّ : أي حضها على السير لتسرع ، والمطيّ كل ما يمتطى أو يركب من الدواب .

وأبــرحُ مــا يكــون الشــوقُ يومــاً إذا دنــت الــديارُ عــن الــديار ..."

(ج) الاستهلال بصيغ شائعة مثل : كتابي ، كتبت وغيرها :

لقد كان كتابُ الرسائل في عصور الإسلام الأولى يستهلون مكاتباتهم باسم المرسل فالمرسَل إليه ، ثم يشفعُ ذلك بالسلام ، فالحمد ، ثم التخلص بفصل الخطاب (أما بعدُ) الى فحوى الرسالة أو موضوعها [55].

وكان من الكتّاب من يبدأ رسالته اولاً بذكر المرسَل إليه ، تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه ، وقد عدَّ القلقشندي [56] هذه الأساليب من الاستهلالات للرسائل من الرسوم الشائعة في مكاتبات عصور الاسلام الأولى .

وفي القرن الرابع تطور هذا الضرب من الاستهلال الذي شاع فيه ذكر اسم المرسل أو المُرسل إليه في صدر الرسالة ، الى ذكر الضمير الذي ينوب عن ذلك الاسم ، مضافاً إليه لفظ (كتاب) ، وهكذا شاع بين أكثر الكتّاب في هذا القرن استهلال رسائلهم بصيغة (كتابي) أو (كتبتُ) أو (كتبنا) .وما الى ذلك من الصيغ الأخرى التي تضارعها ...

ولعل صيغة (كتابي) أكثر أساليب الاستهلال شيوعاً في رسائل هذا القرن [57] وكان بلغاء الكتّاب غالباً ما يردفون هذه الصيغة بجملة اعتراضية دعائية ، أو

---

[55] تراجع التفاصيل في كتاب : الرسائل الفنية في العصر الإسلامي : 142 وما بعدها .

[56] تراجع التفاصيل في : صبح الاعشى في صناعة الانشا : 8/126-127.

[57] لدى استقراء بعض مجاميع الرسائل لأعلام الكتّأب في هذا القرن ، أحصيت للخوارزمي مثلاً أكثر من خمس عشرة رسالةً استهلها بـ (كتابي) ، بينما استهل اكثر من خمس رسائل بـ (كتبت)، واستهلّ بعضها بصيغة (بلغني) ، وكانت أكثر تلك الاستهلالات =يردفها بالجمل الاعتراضية بينما استهلَّ بديعُ الزمان حوالي (46) رسالة بصيغة (كتابي) ، و(7) رسائل بـ (كتبتُ) وقد شاعت هذه الصيغ كثيراً في رسائل الوزير الصاحب أيضاً ، ينظر الباب الثاني عشر (في المدح والتعظيم) من مجموع رسائل الصاحب بن عباد : 163-

تعبير (عن سلامة) أو غير ذلك ، ثم ينتقل الكاتب الى فحوى الرسالة أو موضوعها الرئيس .

لقد زخرتْ مجاميعُ رسائل بلغاء الكتّاب في هذا القرن – كبديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي – بعشرات الرسائل الأدبية التي استهُلّتْ بهذه الصيغ التعبيرية ، بينما خلتْ مجموعة رسائل الأمير قابوس التي جمعها (اليزدادي) في كمال البلاغة ، من الابتداءات بهذه الصيغ المتداولة بين كتّاب هذا القرن .

(د) استهلالاتٌ أخرى :

وهناك أساليب أخرى في استهلال الرسائل الأدبية في هذا القرن ، لجأ إليها الكتّاب ، تبعاً لِما يقتضيه موضوع الرسالة أو فحواها ، فقد ولج بعضُ الكتّاب الى غرضهم في الرسالة دون استهلال ، أو تقديم [58] ، كما نلحظ ذلك ، مثلاً في بعض رسائل أبي بكر الخوارزمي [59] ، وفي عدد من رسائل الأمير قابوس بن وشمكير أيضاً [60] .

---

173 حيث استهلَّ جميع رسائل هذا الباب بصيغة (كتابي) وتراجع أيضاً الأبواب الاخرى من رسائله .

[58] سبق أن أشرنا الى أنَّ الفيلسوف (أرسطو) لم يعدَّ (الاستهلال) من أجزاء الكلام الجوهرية ، ولذلك رأى أنه يمكن الاستغناء عنهُ في الخطبة ، يقول :" إنَّ الوظيفة الخاصة والجوهرية للاستهلال هي أن يبيِّن ما هي الغاية أو الغرض من الخطبة ، ولهذا ينبغي ألاّ يُستخدم إذا كان الموضوع واضحاً تماماً ، أو غير مهمّ ...) (الخطابة : 239) .

[59] تراجع هذه الرسائل في مجموع رسائل الخوارزمي : رسالته الى المكندري : 21–22 رسالته الى صاحب ديوان الحضرة : 22–24 ، رسالته إلى صاحب الوزير ابن عّباد : 52 رسالته الى أردهل – وكان قد ورد عليه خبر علّتهِ – : 72–73 ، وغيرها .

[60] تراجع بعض رسائل الأمير قابوس التي خلتْ من الاستهلال في : كمال البلاغة : رسالته إلى ابن العتبي في تأخر الجواب : 34 ، ورسالة أخرى إليه في عود الرسول : 36 رسالته إلى ابن العميد : 38 ، ورسالته اليه أيضاً في مدح نثره : 42 ، وغيرها .

أما الرسائل الجوابية [61] فقد استهلَّها أكثر الكتّاب في هذا القرن بالصيغ والتعابير الاتية : (وصل كتابك) ، أو (وصلتْ رقعتك) ، أو (ورد عليَّ) ، أو (ورد كتابُ الحاكم) ، أو (فهمتُ ما ذكره الشيخ في كتابه [62] ، وغير ذلك .

وهناك استهلالات أخرى ندر استعمالها في صدور الرسائل الأدبية في هذا القرن ،كافتتاح الرسالة بالبسملة [63]، أو(ليت شعري) [64] أو الاستهلال بـ(فصل الخطاب) ، أما بعدُ [65] ، وما الى ذلك من استهلالات أخرى متفرقة.

(2) عرض الرسالة :

العرض في أي عمل أدبيّ هو جوهرهُ ،و الأساسُ فيه ، وهو أيضاً الجزء الذي حفز الأديب الفنان لأنشاء عمله الأدبي ، ومن هنا ، فانه كثيراً ما يُقرنُ بالادلّة لتوكيده واثباته ، وغالباً ما يمهَّدُ لهُ بتوطئة مناسبة لإيضاحه ، وكثيراً ما يُعنى أيضاً بوضع خاتمة له ، لأيجازه ،وتحديد ابعاده ..

ولعل هذا ما يُفَّسر عناية الفيلسوف (أرسطو) – عند دراسته وتحليله لأجزاء الكلام في الخطبة [66] بهذا الجزء الفني من الكلام ، إذ إنهُ عدَّ (العرض) أهمَّ أجزاء العمل الفني (الخطبة) ، وذهبَ الى أنهُ يمكنُ الاستغناء عن بقيّة أجزاء الكلام – عدا الأدلة التي تسبقُ العرضَ وترافقهُ وتعضده – كالاستهلال والخاتمة ، إذا كان هذا الجزء (العرض) واضحاً أو غير مهم [67].

---

[61] يراجع عن الاستهلال في رسوم الكتب الجوابية : صبح الأعشى: 8/ 139–140.

[62] ينظر :مثلاً رسائل الخوارزمي : ص 32 . 38 ، 51 ، 54 ، 66 ، 79 ، 86، 154 وغيرها

[63] تراجع رسالة الوزير المهلبيّ الى صديقه : الصداقة والصديق : 70–71 .

[64] تراجع رسالة الخوارزمي الى كاتب رئيس نيسابور : رسائل أبي بكر الخوارزمي :55.

[65] تراجع رسالة الصاحب التي هنَّأ بها بعض الأمراء : ديوان المعاني :1/ 97.

[66] **ينظر كتاب : الخطابة – المقالة الثالثة : 234.**

[67] المصدر نفسه : 238–239.

ويشكل عرض الرسالة أو فحواها ، الجوهر أو الجزء الأساسي في بنائها الفني ،ومن أجله أنشأ الأديبُ الكاتب رسالته .ومن هنا درج كتّابُ الرسائل الأدبية في هذا القرن ، يشفعون موضوع الرسالة بالادلة التي تؤيدُ وجهة نظرهم ، وتدعم آراءهم .

ولأهمية هذا الجزء من الرسالة الأدبية ، فقد عني الكتّاب في هذا القرن بالتمهيد لهُ بما يناسبهُ ، لإثارة انتباه القارئ أو المتلقي لِما انصبَّ عليه العرض من أفكار رصينة ،ومعان جليلة ...

وفضلاً عن التوطئة المناسبة لعرض الرسالة أو فحواها ، فقد عني بلغاء الكتّاب في هذا القرن أيضاً بحسن الانتقال [68] من التمهيد الى العرض بفصل الخطاب (أما بعدُ) [69] أو غيره من الوان التخلص الى غرض الرسالة ،وهذا ما أضفى على بناء كثير من الرسائل الأدبية وحدة الموضوع ، أو وحدة العمل الفني والانسجام بين جزئيات الرسالة الأدبية .

ولعل من نماذج الرسائل الأدبية التي تحقَّقتْ بين أجزائها الفنية تلك الوحدة والتواؤم ، ما كتبهُ أبو بكر الخوارزميّ الى قاضي سجستان ، حين نكبهُ أميرها وقد مهَّدَ لموضوع رسالته بالشعر القديم [70]

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كلاكلهُ ، أناخ بآخرينا

فقلْ للشامتين بنا افيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

---

[68] أطلق عليه ابن رشيق القيرواني : الخروج ، وذكر أنَّ الخروجَ عندهم شبيه بالاستطراد وليس به (العمدة 1/ 375) ، وذكر في موضع آخر يقول : " ومن الناس من يسميّ الخروج تخلصاً وتوسلاً " . العمدة : 1/ 378.

[69] يراجع كتاب : مراسيم دار الخلافة : 108 .

[70] رسائل ابي بكر الخوارزمي : 212-213 .

"أما بعد ، أيدَّ الله تعالى القاضي ، فانه لم يُحسنْ إلى غيره من أساء إلى نفسهِ ، ولم ينصرْ أصدقاءه من خذل حوباءه وإنما يحب المرء أخاه بما فضل عن محبته لروحه التي له خيرها وعليه ضيرها . وكانت محنة القاضي محنة شملت الأنام وخصَّت الكرام .." .

ثم ختتم الكاتب رسالته هذه بما يناسب عرض الرسالة وفحواها وهو الدعاء فجاءت الرسالة من حيث بناؤها العام ، في غاية الائتلاف بين أجزائها الفنية وترابط أفكارها ،واتساق معانيها ..

وقد يكون حسنُ الانتقال من الاستهلال الى عرض الرسالة بصيغ تعبيرية أخرى مثل : (ورد كتابك) ، أو (ورد عليّ) وغيرها من ذلك ما ورد في راسلتي الخوارزمي الى كاتب خوارزم شاه [71] ورسالته إلى صاحب جيش خوارزم ، وقد ورد عليه كتابه يتوجع فيه من علةٍ ألمَّتْ به [72].

لقد عني جلُّ بلغاء الكتّاب في هذا القرن بعرض الرسالة – بوصفه جوهر العمل الفني – وقد تجلَّتْ تلك العنايةُ بشكل أوضح في رسائلهم الطويلة ،وعلى الرغم من امتداد العرض في كثير من الرسائل الأدبية وتشعب موضوعاتها الاّ انها كانت تعالجُ غالباً موضوعاً واحداً ، ينسابُ الى أفكار عديدة ، ويتشعب الى معانٍ متساوقة ، وكان ما ساعد أولئك الكتّاب الأفذاذ على هذا العطاء المتدفق لجؤهم إلى تلاوين بلاغية وإيقاعية جميلة متناسبة ، وأساليب تعبيرية متناغمة أمدتهم بهذا الثراء والتدفق في عرض موضوع الرسالة .

ولعلَّ أكثر تلك الألوان البديعية التي حققتْ لهم هذا البسط والتدفق في عرض الموضوع ؛ الترادف والازدواج ، فضلاً عن التكرار والموازنة ،وغيرها مما سنلمُّ بدراسته ،وتحليل نماذجه في القسم الثاني من هذا المبحث .

---

[71] تراجع هذه الرسالة في : رسائل ابي بكر الخوارزمي : 255.

[72] المصدر نفسه : 232–235.

وربما كان ما طالعنا به بعض صدور الكتّاب وبلغاؤهم في عرض رسائلهم الأدبية الطويلة ، كالأمير شمس المعالي قابوس في رسالته الأدبية الى خاله الأصبهبذ [73] وبعض رسائله الفلسفية الأخرى [74] ورسالتي أبي بكر الخوارزميّ إلى جماعة الشيعة في نيسابور [75]ورسالته الأخرى الى أبي الحسن البديهي [76] ورسالة بديع الزمان الهمذاني في شكوى القاضي أبي بكر الحيريّ [77] وغيرها لعلّ ما ورد في عرض جميع هذه الرسائل الأدبية القيمة وغيرها كثير شاهد دقيق على ما بلغته الرسائل الأدبية في هذا القرن من نضج وتطور مبنى ومعنى .

(3) الخاتمة أو الانتهاء :

الخاتمة هي القاعدة التي يرسى عليها العمل الادبي وهي آخر مايبقى من النصّ في ذهن المتلقي ، أو ما يطلع عليه قارئ الرسالة .

وقد أطلق عليها بعض النقاد [78] القدامى (الانتهاء) وذكر من لوازمه : " أن يكون محكماً ، لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعدهُ أحسن منه [79] .."

وغالباً ما يدرك الأديب أو الكاتب بالخاتمة مراده أو ما يقصد إليه من رسالته أو عمله الفني إذ هي – كما ذكرت – آخر ما يبقى من العمل الأدبي في الاسماع أو الخواطر والأحاسيس .

---

[73] تراجع هذه الرسالة في : كمال البلاغة : 52–57، ديوان المعاني :1/86–88.

[74] تراجع رسائل قابوس الفلسفية الأربع في : كمال البلاغة : 84 وما بعدها .

[75] تراجع هذه الرسالة القيمة في : رسائل أبي بكر الخوارزمي : 160–172.

[76] تراجع هذه الرسالة الطويلة في : المصدر السابق : 235–250.

[77] تراجع رسالة الهمذاني هذه في :رسائل بديع الزمان : 162–175.

[78] يراجع مافصله ابن رشيق القيرواني في : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / باب المبدأ والخروج والنهاية : 1/ 355 وما بعدها .

[79] المصدر نفسه : 1/ 381 .

وقد أشار الى هذا الجانب الفيلسوف (أرسطو) إذ ذكر أنَّ من بين أجزاء الخاتمة في الكلام ما تثير الانفعال المطلوب في نفوس السامعين أو المتلقين وأن تنعش ذاكرتهم [80] .

وعلى هذا فحين لا تحقق (الخاتمة) في الرسالة أو في أي عمل فني أياً من المقاصد أو الفوائد التي يتوخاها الأديب الفنان ، كأن يكون –كما أشار أرسطو[81] العرض (موضوع النص الادبي) قصيراً او كانت تفاصيل الموضوع سهلة الإدراك ، حين لا تحقق الخاتمة ذلك كله فيفضَّل حذفها من النص الفني تجنباً للإطالة .

وقد يختتم الأديبُ النصَّ بالقطع ليثير شوق المتلقي فيقطع الكلام والسامع أو القارئ متعلق لمعرفة النهاية . يقول ابن رشيق [82]:

" ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة ، وفيها راغبة مشتهية ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة : كل ذلك رغبة في اخذ العفو وإسقاط الكلفة ".

اما أساليب الكتّاب في اختتام رسائلهم الأدبية في هذا القرن فقد كانت عديدة ومتنوعة تبعاً لتنوع موضوع الرسالة وفحواها ، او لاختلاف شخصية المرسل إليه وتفاوت رتبته وسمو منزلته ..

وقد أكد هذه الحقيقة القلقشندي إذ أشار الى تنوع الاختتامات عند كتاب الرسائل الاخوانية فقال [83]:

---

[80] الخطابة : 255–256.

[81] تراجع التفاصيل في أهمية الخاتمة ومقاصدها : الخطابة : 234–235 .

[82] العمدة في محاسن الشعر آدابه ونقده: 1/ 382.

[83] صبح الاعشى في صناعة الانشا : 8/ 141 وما بعدها

" واعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختتامات ولا ما يقتضي ملازمة اختتام معين لصدر معين بل ذلك موكول الى رأي الكاتب لا يراعي فيه غير علوّ الرتبة وهبوطها حيث تفاوتت رتب الاختتامات عندهم:.."

و نلحظ بوضوح ان القلقشندي يقصر سبب تنوع خواتم الرسائل الاخوانية على علو الرتبة للمكتوب إليه و هبوطها وان الامر في ذلك موكول الى رأي الكاتب وأنه لم يجعل لموضوع الرسالة وصدرها الذي جاء موطئاً لفحواها أو عرضها ، أي تأثير في تنوع تلك الخواتم .

والذي نذهب إليه هنا ان طبيعة الاختتام في الرسالة الأدبية بخاصة وتنوع تلك الاختتامات ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بغرض الرسالة وفحواها ، فضلاً عن المؤثرات الخارجية الأخرى ، ومن ضمنها مكانة المرسل إليه وطبيعة رتبته علوّاً أو هبوطا..

لقد تنوعت اختتامات الأدباء الكتّاب لرسائلهم الأدبية في هذا القرن ويمكن ان نقف بإيجاز عند أهم تلك الأساليب التي اتبعها الكتّاب البلغاء في ذلك وكما يأتي :

(أ) الاختتام بالدعاء أو التضرّع والحمد :

ولعل الاختتام بالدعاء للمرسل إليه أكثر الأساليب الفنية شيوعاً ،ولاسيما في الرسائل الأخوانية التي انصَّبت على التهاني [84] والمواساة [85]فضلاً عن بعض الأغراض الأخرى كالشكر وبث الأشواق وما الى ذلك .

ومن نماذج الاخوانيات الطريفة التي اختتمت بالدعاء ما كتبه الصاحب بن عباد يهنئ الأمير عضد الدولة وقد ولد له ابنان توأمان [86] .

---

[84] ينظر رسالة الهمذاني الى الاسفراييني في التهنئة بالنصر ،وقد ختمها بالحمد والدعاء : رسائل بديع الزمان الهمذاني : 19 ، وينظر ما كتبه أبو الفرج الببغاء في التهاني وقد ختمها بالدعاء أيضاً ؛ صبح الاعشى في صناعة الانشا: 9 / في مواضع كثيرة متفرقة

[85] تراجع بعض رسائل أبي بكر الخوارزمي في المواساة وقد ختمها بالدعاء : رسالته الى صاحب جيش خوارزم ، وقد ورده كتابه يتوجع فيه من علته : 235 ورسالته الى قاضي سجستان حين نكبه أميرها : 213 وغيرها .

" ..وسألت الله إتمام ما أدناه من الأميرين السيدين من سعادة لا يهتدي إليها الاختيار علواً ولا ترتقي إليها الأفكار سمواً ... وهو تعالى قريب مجيب "

ومن نماذج الرسائل الأدبية التي اختُتمت بالدعاء أيضاً ما كتبه الصابيّ في الشكر وبث الأشواق الى الوزير الصاحب ومما ورد فيها [87]:" ..... وحقيق عليه – جلَّ اسمه – ان يفعل ذلك به ويسمع هذا الدعاء فيه إذ كان مرفوعاً إليه في أوفر عباده فضلاً وأغمرهم نبلاً ، و أجزلهم أدباً و أكثرهم حسباً و أعملهم بطاعته و أولاهم بإحسانه ومعونته "

ومن الرسائل الاخوانية التي اختُتمتْ بالدعاء ، ما اقترنتْ بالعتاب فضلاً عن الأغراض التي تقدم ذكرها من ذلك ما اختتم به الخوارزمي رسالته الأدبية إلى كاتب رئيس نيسابور [88]:

" .. والله تعالى يطيل بقاه ،ويجعل من يحسده فداه ." ومن ذلك أيضاً ما اختتم به رسالته التي عاتب فيها ابا القاسم الداودي [89] "... وأطال الله تعالى للمحاسن بقاه ولا سلبه زينه وبهاه وجعل من يحسده فداه " .

(ب) الاختتام بالشعر :

ومن الأساليب المهمة التي شاعت كثيراً في اختتام الرسائل الأدبية في هذا القرن أيضاً : ختام الرسائل بالشعر العذب الرصين . ولعلّ ما رسَّخ هذه الظاهرة

---

[86] ديوان المعاني :98/1 ،وينظر في الموضع نفسه أيضاً : اختتام رسالة أخرى بالدعاء للوزير الصاحب الى بعض الوجهاء تهنئة في تجديد رتبة .

[87] صبح الاعشى في صناعة الانشاء : 8 / 135 –136 ،وتراجع في الشكر والثناء أيضاً خاتمة رسالة ابن العميد إلى أبي محمد بن خلاد الرامهرمزي القاضي : زهر الآداب 166/1–167.

[88] رسائل ابي بكر الخوارزمي 58.

[89] رسائل أبي بكر الخوارزمي : ، 65–66.

الأسلوبية في ثنايا الرسائل الأدبية وخواتمها ؛ سعة ثقافة الكتّاب ، وثراء حافظتهم من الشعر القديم والمحدث ، فضلاً عن أن ، أكثر الكتّاب – كان يجمعُ بين ملكتي النظم والنثر ،ومن هنا فقد كانت تلك الاختتامات الشعرية إما من نصوص الشعر القديم أو المحدث ، وأما من أبداع الشاعر ونظمه ....

ولعلّ ما حفز الكتّاب على كثرة اختتام رسائلهم بالشعر أيضاً ؛ عمق دلالاته وشدّة مناسبته لفحوى الرسالة ، اذ كان الأدباء الكتّاب كثيراً ما يسوقونه للحكمة والمثل ، فضلاً عما يحملهُ من حلاوة الموسيقى ،وطلاوة النغم التي تزدان بها تلك الرسائل . ومن هنا ، فقد شاع تضمين الشعر أو الاستشهاد به أو حلّه في ثنايا الرسائل ، او في مقدماتها وخواتمها ، حتى غدتْ هذه الظاهرة دعامة مهمة في البناء الفني للرسائل الأدبية في هذا القرن .

لقد شاعت ظاهرة اختتام الرسائل بالشعر لدى كثير من بلغاء الكتّاب في هذا القرن وفي مقدمتهم أبو بكر الخوارزمي [90]وبديع الزمان الهمذاني [91] والصاحب بن عباد [92] وغيرهم من كتاب الرسائل الاخوانية والأدبية ، إذ كانوا كثيراً ما يوظفون موروثهم الثقافي بالعربية وتراثها الشعري في ترسلهم ؛ لرصانة ذلك التراث الأدبي ، وجماله ، وشدة أسره ،وقوة تأثيره ، فضلاً عن مناسبته لظرف رسائلهم .

ومن الشواهد البليغة في هذا الباب مثلاً ؛ ما اختتم به أبو بكر الخوارزمي رسالته الى وزير خوارزم شاه لما نكب ، فكتب إليه يُسلّيه في محنته ويصبره

---

[90] تراجع رسائل الخوارزمي التي اختتمها بالشعر في مجموع رسائله : ص19، 37 ، 42 54، 63، 68 ، 70 ،90 ، 107 ، 157 ، وغيرها في مواضع أخرى .

[91] ويلاحظ أيضاً شيوع ظاهرة اختتام الرسائل بالشعر في مجموع رسائل الهمذاني " 19 100، 104 ، 142، 194، 291، 292، 325، 389 ، 419 ، وغيرها في مواضع أخرى.

[92] تراجع طائفة من رسائل الصاحب بن عباد التي اختتمها بالشعر في مجموع رسائله : ص151 ، 230 ، 236 ، 242 ، ورسالته الى بعضهم يعاتبه في صغر حجم كتابه إليه : ديوان المعاني :164/1 ،وقد اختتمها بثلاثة أبيات في الحكمة ،وغيرها في مواضع أخرى .

وقد اختتمها بالشعر الرقيق (من مجزوء الكامل) [93] :" أنت – أيدك الله تعالى – اغنى اهل خوارزم يوم تصير أفقرهم ،وأكثرهم ساعة تظن أصغرهم ،وهو الوزير يوم يُعزل ،والمصون ساعة يتبذل ...

ان الأميـــــــر هـــــو الـــــذي يضـــحي أميـــراً يـــومَ عزلـــهْ
انْ زال ســـــــــلطانُ الـــــــــولا يـــةِ ، كـــان فـــي ســـلطان فضـــلهْ

ويتضح جلياً عمق الوشيجة بين فحوى الرسالة وخاتمتها ، وتدرج (العرض) وانحداره الى النهاية المناسبة ، فضلاً عن قوة استثمار ما يمتلكهُ الكاتب من ثراء محفوظة من الشعر ،وفي اختتام الخوارزمي أيضاً لرسالته الطريفة إلى أبي الحسين علي بن داية ، وقد أنهى اعتذاره إليه بقوله [94]: [من البسيطِ]

" وهذا التطويل كله ارتياد لعذر أجده لسيدي ،وان رجلاً اعتذر عنه إلى قلبي ،وابرز ذنبه في معرض ذنبي ، لأعظم في عيني من كل عظيم وأكرم على قلبي من كل كريم ،وكأنهُ فيَّ وفيهِ قيل :

اذا مرضـــــنا أتينـــــاكم نعـــــودكمُ وتـــــذنبون فنـــــأتيكمْ فنعتـــــذرُ"

ونظير ذلك أيضاً ؛ ما اختتم به الهمذاني رسالته إلى أبي جعفر الميكالي ويلاحظ قوة الربط ، والتواؤم ، بين (عرض الرسالة) واستهلالها وخاتمتها بهذا الشعر الرقيق ، اذ يقول [95]: (من المتقارب)

" اذا مـــــا عتْبـــــتُ فلـــــم تُعْتِـــــبِ وهنـــتُ عليـــكَ ، فلـــم تُعْـــنَ بـــي
ســـــلوتُ فلـــــو كـــــان مـــــاءُ الحيـــــاةِ ، لعفـــتُ الـــورودَ ولـــم أشـــربِ "

---

[93] رسائل ابي بكر الخوارزمي : 42.

[94] رسائل أبي بكر الخوارزمي :37.

[95] رسائل بديع الزمان الهمذاني :100.

وقد يضفي الكاتب على الشعر الذي يختتمُ به رسالته بعض التحوير او التغيير المقصود ، بما يتلاءم وفحوى الغرض الذي يدور حوله (العرض) في الرسالة .

من ذلك مثلاً ، ما أضفاه بديع الزمان الهمذاني من تحوير على بيت النابغة الذبياني المشهور الذي اختتم به رسالته الى بعض الرؤساء ، اذ قال [96]: (من الكامل)

يا مرحباً بغدٍ ويا أهلاً بهِ ان كان إلمامُ الاحبةٍ في غدِ"

وقد يجتزئ الكاتب أحياناً جزءاً من البيت (صدره او عجزه) مثلاً ، عند تمثله به ، او اختتام رسالته بذلك الجزء من البيت .

من ذلك مثلاً ، ما تمثل به بديعُ الزمان الهمذاني أيضاً في ختام رسالته الى الاسفراييني في هزيمة السامانية ،والدعاء عليهم ، بعجز بيتٍ مشهور لقيس بن الملوّح ، اذ كتب إليه [97].

---

[96] رسائل بديع الزمان الهمذاني :141-142 ،وهذا البيت للنابغة الذبياني من قصيدة له في وصف المتجردة ،وقد غير الهمذاني بعض الالفاظ فيه عند تمثله به في رسالته ،والبيت هو :

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً بهِ ان كان تفريقُ الاحبةٍ في غدِ

[97] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 19 ، وتمام هذا البيت هو : (من البسيط)

ياربّ لا تسلبنيّ حبَّها أبداً ويرحمُ اللهُ قوماً قال آمينا

=ومناسبة هذا النصّ ان قيساً قاله عندما أخذهُ أبوهُ الى البيت الحرام ليدعو لهُ بالتخلص من حبِّ ليلى ، فتشبث قيس بأستار الكعبة ،وأنشد هذا الشعر .

" 0000 فلا رحم الله قتلاهم ، ولا جبر الله جرحاهم ، ولا فك أسراهم،ولا أراكم إلا قفاهم،وان أقبلوا فضَّ اللهُ فاهم،ويرحمُ اللهُ عبداً قال آمينا"

وقد يختتم بعض كتاب هذا القرن بعض فصول رسائلهم الاخوانية بالرجز دون القصيد ؛ من ذلك مثلاً ، ما ورد في مجموع رسائل بديع الزمان من رسالة اخوانية منسوبة إلى والد الهمذاني كتبها إلى ابنه (بديع الزمان) ، وقد ختمها باشطار مشهورة من بحر الرجز لبعض شعراء ما قبل الإسلام ، إذ يقول[98]: "000 ولعل هذه الأحرف آخرُ ما تتأذى بهِ من وعظي وتتغذّى باستماعهِ من لفظي :

يالكِ من قبرةٍ بمعمرٍ خلالكِ الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئتِ ان تنقري "[99]

ويلاحظ شدة المواءمة بين فحوى الرسالة وبين دقة الاختتام الذي صاغه الكاتب ، وقوة الصلة بينهما ، إذ إنّ ما يريده الكاتب في تمثله بهذا الرجز ، واختتام رسالته به ، يتناغم مع طبيعة مناسبة النص القديم 000

وهكذا تتجسّدُ أمام الباحث ، من خلال هذه الشواهد الشعرية الرصينة التي أبدع كتابُ الرسائل الأدبية في إيداعها في خواتيم رسائلهم ، الصلة الوثيقة بين غرض الرسالة ، وبين دقة الخاتمة ، وإحكام معانيها ، وتواؤهما مع جو الرسالة العام ، وهذا أمر نكاد نتلمَّسه عند أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن .

---

[98] رسائل بديع الزمان الهمذاني ، 446 – 447 .

[99] نسب ابن قتيبة (الشعر والشعراء : 28/ط ، عالم الكتب – بيروت (القسطنطينية ، الطبعة الاولى 1282هـ) نسب هذه المقطوعة إلى طرفة بن العبد وذكر انه اول شعر قاله عندما خرج مع عمه في سفر ، فنصب فخاً ، فلما اراد الرحيل قال هذه الاشطر، وآخرها قوله:" لا بد يوماً ان تصادي فاصبري " ، ونسب هذا الرجزُ أيضاً إلى كليب وائل لما مرَّ بحماه ، فرأى به قبرةً قد استأمنت فيه وباضتْ ، فقال هذه الاشطار يخاطبها بذلك . ينظر : هامش رسائل الهمذاني ، المحقق ، :447 ؛ ومعمر ، اسم موضع ، واصفري صوتي .

ولعل هذا ما يفسر لنا إيثار الكتّاب البلغاء اختتام رسائلهم الأدبية بالشعر الرصين ، لما يحمله من دلالات ايحائية عميقة ، ولما يجسّده من معانٍ جليلة ، وحكم سديدة نادرة ، كثيراً ما تتلاءم مع ظرف الرسالة ومناسبتها ، وجوها العام000

كتب الأمير قابوس بن وشمكير في رسالته الشهيرة إلى خاله الاصبهبذ يعاتبهُ ، وقد ختمها بهذه الحكمة السديدة السائرة[100] [من الطويل] .

ففي الناس ان رثَّتْ حبالك واصل وفي الأرض عن دار القلى متحول

ويختتم الوزير الصاحب رسالة له الى بعضهم يعاتبه على صغر كتابه إليه بهذه الحكمة السائغة اذ يقول[101]: [من الطويل] .

إذا أنت عاتبت الصديق ولم يكن		**يودك لم يعتبك حين تعاتبه**
ومن يخلط الماء الزلال بآجن		**من الماء تخبث ما تطيب مشاربه**

(ج) اختتام الرسائل بآي القرآن والتعابير الدينية :

ومن الأساليب الفنية التي اختتم بها كتاب الرسائل الأدبية رسائلهم في هذا القرن أيضاً، اختتامها بالاقتباس من آي القرآن المجيد[102] ، وقد كانت طريقة بلغاء الكتّاب إما اختتام الرسالة بالنص على الآية القرآنية ، وإما حلها والإشارة إلى مضمونها او فحواها 00

وكان كتابُ الرسائل يختتمون مكاتباتهم الشخصية أيضاً ، بتراكيب وتعابير دينية يتّضح من خلالها الأثر الإسلامي ، ولعل أكثر تلك التراكيب شيوعاً في خواتيم رسائلهم ، صيغة (ان شاء الله) ، وقد استخدم هذا التعبير كثيراً بديع الزمان، وباختلاف طفيف في صياغته ، كقوله مثلاً : " ان شاء الله عز وجل " ، او "ان

---

[100] كمال البلاغة : 57 .

[101] ديوان المعاني : 164/1 .

[102] تراجع التفاصيل والنماذج النثرية من الاقتباسات في خواتيم الرسائل ومقدماتها في المبحث الأول من الفصل الثالث من هذه الدراسة .

شاء الله تعالى " ، وما إلى ذلك[103]. كما ورد هذا التعبير الديني أيضاً في خواتيم رسائل كثير من بلغاء الكتّاب في هذا القرن كالخوارزمي والصاحب بن عباد واضرابهما[104].

ومن التراكيب والتعابير الدينية التي اختتم بها الكتّاب رسائلهم الأدبية في هذا القرن أيضاً ، الصلاة والتسليم على النبي المصطفى ، وعلى آله الاطهار (عليهم السلام) ، وقد شاعت الاختتامات بهذه التعابير الدينية كثيراً في رسائل ابي بكر الخوارزمي والصاحب بن عباد[105]، وبعض رسائل بديع الزمان والأمير قابوس وغيرهم[106].

(د)الاختتام بأساليب فنية أخرى :

وهناك أساليب فنية أخرى طرقها الأدباء الكتّاب في اختتام رسائلهم الأدبية في هذا القرن ، لعل أهمها وأكثرها شيوعاً ما يأتي :

اختتام الرسائل بالسلام :

لقد عدّ القلقشندي[107] هذا الضرب من الاختتامات من رسوم الختام المهمة التي شاعت في المكاتبات الرسمية والشخصية منذ عصور الإسلام الأولى .

---

[103] ينظر : مجموع رسائل بديع الزمان الهمذاني في الصفحات الآتية ، 96 ، 98 ، 112 125 ، 129 ، 131 ، 133 ، 135 ، 138 ، 144 ، 162 ، 181 ، 185 ومواضع اخرى غيرها .

[104] يراجع مجموع رسائل ابي بكر الخوارزمي ، ورسائل الصاحب بن عباد في مواضع كثيرة متفرقة 000

[105] ينظر : مجموع رسائل الخوارزمي والصاحب في مواضع عديدة متفرقة أيضاً .

[106] ينظر : رسائل بديع الزمان الهمذاني : 212 ، 444 ، وغيرها ، ويراجع أيضاً كمال البلاغة ، ص73 ، رسائل جوابية للصاحب في كمال البلاغة ، :77 ، 80 ، ومواضع اخرى غيرها 000

[107] تراجع التفاصيل في صبح الاعشى في صناعة الانشا : 126/8 – 127 .

وقد شاع هذا اللون من الاختتام في الرسائل الأدبية في القرن الرابع ، اذ درج الكتّاب على ان يأتوا بالسلام مقروناً بالدعاء للمخاطب او الحمد وغير ذلك[108].

ومن صور الدعاء النادرة التي اقترنت بالسلام في خواتيم الرسائل الأدبية ما ورد في رسالة الوزير المهلبي إلى ابي الفضل العباس بن الحسين يحثه على المواصلة اذ كتب إليه يقول[109] : " والله يهديني للحسنى ويقيني فيك غوائل العيون المرضى والسلام " .

الاختتام بالحكم السديدة او الأقوال المأثورة والأمثال السائرة :

وقد لجأ كتاب الرسائل في هذا القرن إلى هذا اللون من الاختتام ، لقوة تأثيره في المتلقي ، وشدة أسره ، وقوة وقعه ، فضلاً عن مناسبة تلك التعبيرات البليغة لفحوى الرسالة ، ومناسبتها لظرفها العام .

وممن اشتهر من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن بهذا اللون من الاختتامات ، ابو بكر الخوارزمي وبديع الزمان[110] ، واضرابهما من بلغاء الكتّاب

وهناك أساليب فنية أخرى اختتم بهاء بلغاء الكتّاب رسائلهم الأدبية في هذا القرن وقد ضربت صفحاً عن ذكرها تجنباً للإطالة والإملال .

(ثانياً) : الخصائص الشكلية للرسائل الأدبية :

(1) الألفاظ ولغة الرسائل الأدبية :

---

[108] تراجع مجموعة رسائل الهمذاني التي اختتمها بالسلام مقرونة بتلك التعبيرات ، رسائل بديع الزمان الهمذاني :27 ، 116 ، 141 ، 161 ، 117 ، وغيرها من مواضع اخرى . ينظر : مجموع رسائل الخوارزمي : 17 ، 34 ، 72 ، 273 ، وغيرها في مواضع اخرى .

[109] رسالة الصداقة والصديق : 71 .

[110] تراجع رسالة الهمذاني إلى السيد العالم بن احمد : 321 ، ورسالته في شأن أبي البختري 16 ، وتراجع رسالة الخوارزمي إلى كاتب خوارزم شاه : 226 ، ورسالة الأمير قابوس إلى الصاحب ح كمال البلاغة ، 79 ؛ ورسالته أيضاً إلى أبي الفضل بن العميد : 44 .

المفردة اللغوية لبنة مهمة في أي عمل أدبي ، وهي كثيراً ما تسهم في تحديد قيمتهِ الفنية والجمالية ، وعلى قدر براعة الأديب المبدع ودقته في اختيار اللفظة المناسبة ، للتعبير عن المعنى المراد ، يتحّققُ لعملهِ الإبداعي قيمته الجمالية ويتحقق أيضاً نجاح الأديب في عمله الإبداعي ؛ ذلك ان المفردة اللغوية غالباً ما توحي إلى معنى محدّد لا تنسجم إلا معه ، والأديب الفنان هو الذي يستجيب – لما يمتلكه من موهبة والهام – لهذه الايحاءات ، فيؤلف بين الألفاظ والمعاني ؛ إدراكاً منه لهذه الصلة الوثيقة بينهما[111]00

وهكذا يعبرَ الأديب عن المعاني والأفكار بما يناسبها من ألفاظ موحية تجليها وتفصح عن مساربها وجماليتها 000

ولأهمية الموسيقى والإيقاع في النص النثري – ولا سيما الرسالة الأدبية – واثر هما وارتباطهما بالمستوى الفني للعمل الأدبي ، فقد شغف العرب ، بموسيقى الألفاظ وجمال جرسها ، واثر وقعها ، ولعل هذا ما يفسر لنا اهتمام العرب بظواهر الإعلال والإبدال والإدغام ، وعدم الابتداء بالساكن وغيرها من الظواهر اللغوية ، وحرصوا أيضاً على جعل الكلمة وحدة منسجمة تخف على اللسان ، ويعذب وقعها في السمع[112].

ومن الحقائق العلمية التي غدت معروفة في الدرس النقدي ، ان الألفاظ في النص الأدبي – شعراً أو نثراً – لا تحمل ذات دلالاتها الوضعية (المعجمية) فقط ، وإنما تحمل فضلاً عن ذلك دلالات إيحائية (مجازية) أخرى وعلى هذا تكون الألفاظ في النص الأدبي (الفني) بوصفها مادة بنائه مشعة موحية ، ذات طاقة تعبيرية متجددة .

---

[111] يراجع ما فصله د. يوسف حسين بكار عن قضية اللفظ والمعنى ، وآراء النقاد القدامى والمحدثين في هذا الموضوع ؛ بناء القصيدة في النقد العربي القديم : 113 – 140 .

[112] تراجع التفاصيل في هذا الجانب في كتاب النقد اللغوي عند العرب :293 .

وهكذا تكتسب (المفردة اللغوية) في التعبير الأدبي طابعاً خاصاً ، يميزها عما كانت تمتلكه من دلالات وضعية لكونها شأناً عاماً ، حين يستخدمها الناس وسيلة مشتركة للتفاهم فيما بينهم ، بينما ترتفع في التعبير الأدبي إلى شكل اعلى تأثيراً ، مستشعرة دلالاتها وعلاقاتها في بناء ايقاعي على نحو معين[113].

ومن هنا نصل إلى نتيجة مهمة ، تلك هي : ان النص الأدبي – بوصفه عملاً ابداعياً – ان هو إلا تشكيل فني خاص ، مؤلف من لبنات لغوية متوائمة ، في جمل وعبارات مركبة تركيباً خاصاً في مساحات نغمية متناسقة ، غالباً ما تنتهي في النص النثري بائتلاف نهاية الفواصل ، فضلاً عن انسجام كلمات القرائن الأخرى ، في إيقاع نغمي متناسب ، في حين تنتهي في القصيدة ، بإيقاع القافية في مؤخرة كل بيت من أبياتها 000

وفي القرن الرابع ، عني الكتّاب المترسلون بخاصة عناية كبيرة بانتقاء ألفاظهم ، وبرعوا في اختيار ما يناسب منها أفكارهم الدقيقة ، ومعانيهم التي حرصوا على تشقيقها ، والتجديد فيها ، كما حرصوا كثيراً على وضع ألفاظهم في مواضعها المناسبة من النص الأدبي ، بحيث تعَبر عن معانيهم أدقَ تعبير وتدل على أفكارهم خير دلالة .

وقد أدرك الكتّاب البغاء في هذا القرن – لاسيما من عرف منهم بسعة الثقافة وثراء اللغة والمقدرة البيانية العالية كابي حيان التوحيدي وابن العميد والصاحب وابي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني واضرابهم – ما للفظ من قيمة كبيرة ، واثر خطير في العمل الأدبي، ولهذا فقد حرصوا على اختيار أنقى الألفاظ ، وأفصحها في ترسلهم ومكاتباتهم الخاصة ، لأنهم أدركوا أيضاً كما– أكد ذلك واحد من مشاهير الكتّاب وعلماء البلاغة في هذا القرن ، وهو أبو هلال العسكري[114]. ان جودة

---

[113] ينظر : لغة الشعر الحديث في العراق : 9 وما بعدها .

[114] كتاب الصناعتين : 73 ، (تحقيق ، علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم بيروت 1406 : 1986 .

الكلام ما كان فيه اللفظ : " جزلاً[115] سهلاً لا ينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه ، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً ، ومتوعراً متقعَراً ، ويكون بريئاً من الغثاثة ، عارياً من الرثاثة " . ثم يقول ابو هلال العسكري أيضاً[116]: " والكلام اذا كان لفظة غثاً ، ومعرضه رثاً ، كان مردوداً ، ولو احتوى على اجل معنى وأنبله وارفعه وأفضله ".

ولعل براعة أولئك الأدباء الكتّاب في اختيار مفرداتهم اللغوية ودقتهم في المناسبة بينها وبين معانيها ، مردّه إلى تبحرهم في اللغة ، وحذقهم فيها وأحاطتهم الواسعة بأسرارها ، والمامهم بدقائقها 00 .

فأبو حيان التوحيدي مثلاً – الذي شهر بسعة ثقافته – كان إلى ذلك ملماً باللغة ، ولعل هذا ما ساعده على عرض الآراء الفلسفية والمذاهب العلمية في إطار أدبي ممتع ، وان يضفي عليها من سحر بيانه ، وقوة بلاغته ما يزيل عنها جفافها وثقلها .

والصاحب بن عباد الذي عرف أيضاً بعظم باعه في اللغة ، حتى انه ألف معجباً نادراً ، هو معجم المحيط[117] قد بلغ من إتقانه للغة انه – كما أشار الثعالبي[118]، كان يحفظ مناكاة بني ساسان حفظاً عجيباً ، وكان يتجاذب بها

---

[115] حدد احمد بن يحيى ثعلب (ت 291هـ) ، جزالة اللفظ : "ما لم يكن بالمغرب البدوي ولا السفساف العامي ، ولكن ما اشتد أسرُه ، وسهل لفظهً ، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه ، وتوهم إمكانه" .يراجع قواعد الشعر : 59 ، وينظر ما ذكره العسكري في الصناعتين : 70–73 .

[116] كتاب الصناعتين : 73 .

[117] الف الوزير الصاحب معجمه الشهير (المحيط) على خطى مدرسة الخليل ، اذ بناه على نظام مخارج الأصوات ، وطريقة التقليبات ، وربما كان قد افاد في طريقته من معاصرة (الازهري) (ت 370هـ) ، في معجمه (تهذيب اللغة) الذي اقتفى خطى معجم العين في بنائه وترتيبه أيضاً وقد تتلمذ الصاحب في اللغة على استاذه احمد بن فارس ت 395هـ) صاحب المجمل ومقاييس اللغة . ينظر : حركة التأليف عند العرب : 30 –32 .

[118] تراجع التفاصيل في ، يتيمة الدهر : 175/3 .

ويتحاور بأطرافها مع شاعر المكدين المشهور ابو دلف الخزرجي في مجلسه وكان ذلك يثير إعجاب الحاضرين .

اما بديع الزمان الهمذاني – الذي عرف بحضور البديهة ، والمقدرة اللغوية العجيبة – فكان كما ذكر الثعالبي[119] " يقترح عليه عمل القصيدة او إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها ".

وهذا دليل واضح على مقدرته اللغوية النادرة ، وان لغته كانت مرنة مطاوعة له في التعبير عما يريد الإفصاح عنه من المعاني والأفكار بيسر وحضور بديهية ، وكان الهمذاني إلى ذلك أيضاً كما أشار الثعالبي[120] " يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع ".

وهكذا يقال أيضاً عن مشاهير الأدباء الكتّاب البلغاء في هذا القرن ، كابي الفضل ابن العميد ، وأبي بكر الخوارزمي ، والأمير قابوس بن وشمكير ، والأمير ابي الفضل الميكالي ، وأبي منصور الثعالبي – الذي شهر بباعه في اللغة ومعجمه (فقه اللغة وسر العربية)[121] ، وإضرابهم من جهابذة الكتّاب الذين عرفوا بثراء لغتهم ، وإلمامهم الواسع بدقائق العربية وتراثها .

لقد كان أكثر الأدباء الكتّاب في هذا القرن . على الرغم من غلبة الصنعة على أساليبهم . يستخدمون في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية لغة سهلة واضحة ميسورة يحسّ المتلقي عند قراءتها لأول وهلة بجمال الأداء ودقة العبارة ، وعذوبة الجرس ، وحلاوة النغم والإيقاع .

---

[119] تراجع التفاصيل في ، يتيمة الدهر : 4/293 .

[120] المصدر نفسه : 4/ 294 .

[121] هو من معجمات المعاني الشهيرة ، نشره المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، بتحقيق احمد يوسف علي ، ويقع في قسمين – القسم الأول ويضم ثلاثين باباً والقسم الثاني هو سر العربية ، ويشتمل على موضوعات في فقه اللغة واسرار جواهرها

وقد غلب على أسلوب أكثر المترسلين في هذا القرن أيضاً ، عدم ميلهم إلى الغريب من الألفاظ ، او انصرافهم إلى التماسها ، إلا لماماً ، كالذي نجده مثلاً عند بعض كتاب الطبقة الخاصة ، كأبي القاسم الصاحب بن عباد[122]، وأبي إسحاق الصابي ، وبعض كتاب الاخوانيات ، كابي بكر الخوارزمي[123]، فكان هؤلاء الكتّاب يغربون أحياناً في ألفاظهم فيختارون من الألفاظ غير المألوفة أو الشائعة ؛ رغبة منهم في الارتفاع ، او لإظهار مقدرتهم ومهارتهم في اللغة .

ومن هنا فقد جاءت لغة أكثر الرسائل الأدبية ولاسيما الاخوانية – في هذا القرن ، صافية معبرة عما يروم الأديب الإفصاح عنه من الأفكار والمعاني وقلما نجد في رسائلهم أيضاً ، ألفاظاً ثقيلة كزّة أو جاسية ، او خروجاً عن المألوف اللغوي إلا نادراً[124] .

أشار ابو حيان في الليلة الخامسة من كتابه " الإمتاع والمؤانسة " مثلاً ، إلى ضعف أبي إسحاق الصابي بعلم النحو ، وقلة نصيبه منه ، وكذا بالنسبة للصاحب وأبي الفضل بن العميد يقول ابو حيان[125] : " فأما أبو إسحاق فانه أحب الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المحجة الوسطى ، وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو ، وليس ابن عباد في النحو بذلك ، ولا كان أيضاً ابن العميد إلا ضعيفاً00".

ولا يكاد الباحث يستقري ألفاظ الكتّاب البلغاء في رسائلهم الأدبية ابان هذا القرن ، إلا ويتملكه الاعجاب الشديد بقدراتهم الفنية في انتفاء مفردات لغتهم الطيعة

---

[122] ينظر : رسائل الصاحب بن عباد ، مقدمة المحققين ، ص. ق .

[123] يراجع في ورود الألفاظ الغريبة في بعض رسائل الخوارزمي ، رسالة ابي بكر الخوارزمي ، حياته وأدبه ، محمود الضمور : 333 ،وما بعدها .

[124] أشار الباحث مهدي البدري في دراسته (ابو إسحاق الصابي حياته وأدبه :197) إلى طائفة من الكلمات النافرة الجاسية التي وردت في بعض رسائل الصابي ، فضلاً عن استخدامه بعض الألفاظ الاعجمية .

[125] الامتناع والمؤانسة : 1/67– 68 .

، وقــوة الصــلة بينهــا وبــين معانيهــا ، أو مــا تفصــح عنــه مــن أفكــار مختلفة 0000

لقد أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن من استخدام طوائف من الألفاظ التـي كانـت ذات دلالات تعبيريـة دقيقـة علـى ظـروف حيـاتهم السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية ، وقد اكتسبتْ كثير من تلك المفردات اللغويـة التـي استخدمها الكتّاب دلالات عرفيـة (خاصـة او عامـة) ، او دلالات شـرعية ؛ للصـوقها بحيـاتهم العامـة ، فضـلاً عما شاع فـي لغة الأدب من ألفاظ الحرف والصناعات ، لكثرة اتصال أولئك الأدبـاء الكتّـاب بالرؤسـاء والأمـراء وغيـرهم ، وكثـرة تجـوالهم فـي الآفـاق ، وصـلتهم الوطيدة بالحكام والساسة ، فقد تداولوا ألفاظاً لها صلة بطبيعة هذه الظروف الخاصة فالخوارزمي وبديع الزمان واضرابهما[126] من الأدباء الكتّاب الذين دأبوا على التجوال في أقاليم المشرق الإسلامي وغيرها ، والاتصال بأمراء تلك الممالك ووزرائهم ، شاع فـي معجـم لغـتهم ألفـاظ : " الإقبـال والإدبـار والنعمـة والنقمـة والرغبـة والرهبـة والتبـذل والامتهـان والعقوبـة والمثوبـة " ومـا إلـى ذلـك مـن المفـردات التـي كانـت صـدى لمـا واجهوه من تقلبات السياسة ، واوضاعها المضطربة في هذا القرن .

وكـان لتـأثر حيـاة الأدبـاء الكتّـاب فـي هـذا القـرن بالأوضـاع الاجتماعيـة والاقتصادية المتردية وما صادفوه من (بؤس وحرمان) وصلتهم بعمال الخراج وغيرهم ، اثـر واضـح فـي شـيوع ألفـاظ خاصـة ، عكسـت معانـاتهم ، وهكـذا شـاعت فـي لغـة رسائلهم الأدبيـة ألفـاظ المصـادرة والغبن والكيـل والموازين والخـراج المسـتخرج والكفيـل والضمين) ، وما إليها من ألفاظ أخرى .

وإذا عنَّ لهم ان يـذكروا فـي ثنايـا رسـائلهم الأدبيـة شـيئاً يتصـل بقضـايا العقيـدة أو الـدين أو الفكـر ، طفـح علـى أسـلات أقلامهـم ألفـاظ (الفريضـة والنافلـة والبدعـة والسـنة أو ألفـاظ الشـيعة والوصـي والنواصـب أو صـيغ وتراكيـب أمـير المؤمنين وسـيد

---

[126] تراجع مجاميع رسائل الخوارزمي والهمذاني وغيرهما في مواضع كثيرة متفرقة .

الأولياء أو أهل العدل والتوحيد) وما الى ذلك من الألفاظ التي اكتسبت معانيها دلالات عرفية جديدة متطورة 0000

فإذا ما تعاطوا أبواب العلم والفلسفة والمنطق ، جالوا في ألفاظ ومصطلحات تلك العلوم فقد طالعتنا في رسائل بلغاء الكتّاب كأبي الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد والأمير قابوس بن وشمكير وأبي بكر الخوارزمي ، وفي ترسل ابن مسكويه والبيروني ، وابن سينا ، واضرابهم ألفاظ :("العرض والجوهر والكون والفساد والعلة والسبب والنتيجة والكم والكيف والكمون والجزء الذي لا يتجزأ ، وما إلى ذلك من مصطلحات الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة المشهورة 000"

وقبل ان نختتم الكلام على الألفاظ ولغة الكتّاب في رسائلهم الأدبية أبان هذا القرن لا بد من الإشارة إلى ظاهرة أسلوبية مهمة في هذا الجانب تلك هي ان مفردات لغة الكاتب وأسلوبه في ترسله ، لهما صلة وثيقة بنوع الرسالة ، وطبيعة الموضوعات التي يتناولها الأدباء الكتّاب .فلغة المكاتبات السلطانية (الرسمية) مثلاً نظراً لما يلتزم فيها الكاتب من رسوم وطقوس متبعة ، تتباين عن لغة وأسلوب المكاتبات الاخوانية .

ولدى استقرائي طائفة كبيرة من رسائل أبي إسحاق الصابي الرسمية منها والشخصية (الاخوانيات) ، ومقارنة مفردات لغته وأسلوبه فيهما ، توصلت إلى حقيقة مهمة ؛ تلك هي ان لغته في السلطانيات كانت تتسم غالباً بجزالة الألفاظ ، ومتانة التراكيب ، وقوة السبك ، ورصانة الأسلوب ، بينما غلب على رسائله الاخوانية (الشخصية) طابع البساطة والسهولة ، ورقة الألفاظ وفصاحتها 000

وقد نبه من قبلُ بعض نقادنا القدامى إلى هذه الظاهرة الأسلوبية ، اذ أشار الناقد ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) إلى ان للكتب السلطانية من الطريقة ما لا يستعمل في الاخوانيات ، وذكر ان ذلك قابل للتغيير او التجديد يقول[127]:" فأما النثر فيجري على هذا المنهاج ، ويحتاج فيه إلى معرفة المواضعات في الخطاب

---

[127] سر الفصاحة : 248 .

والاصطلاحات ، فأن للكتب السلطانية من الطريقة ما لا يستعمل في الاخوانيات وللتوقيعات من الأساليب ما لا يحسن في التقاليد – يعني كتب التقليد الرسمية – وهذا الباب – اعني المواضعة والاصطلاح في الخطاب – يتغير بحسب تغير الأزمنة والدول 0000" .

وهكذا راح كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن – انطلاقاً من نزوعهم إلى ابتكار المعاني الجديدة ، وتوليدها وتفريعها ، وإضفاء الأوصاف البديعة والتصوير الأنيق ، بلوغاً إلى الجدة والابتكار – ينزعون في ألفاظهم ولغتهم الأدبية إلى التجديد ، فعمدوا إلى لغة المجاز التي كانت كثيراً ما تضفي على رسائلهم الأدبية معاني جديدة ، فضلاً عما تشعه من إيحاءات عديدة متنوعة تروق المتلقي ، وهذا ما كان يروم إليه الكتّاب البلغاء في هذا القرن .

2-التراكيب :

التراكيب في العمل الأدبي تأتي من خلال ترابط الألفاظ مع بعضها في هيئة خاصة يسعى الأديب الفنان إلى توليفها لتكون سياقاً لغوياً ، يحقق عبر نسيج النص الأدبي فاعلية جمالية .

فالشعر القوي مثلاً كما يرى بعض النقاد المعاصرين[128] يحتاج إلى ملكة التركيب اللغوي ، والتركيز ، والبلورة الكلامية والعاطفة .

وقد أدرك النقاد العرب القدامى أهمية ذلك الاتساق في التركيب اللغوي في أي عمل أدبي – شعراً أو نثراً – وفي ضوء هذا الفهم الدقيق ، ذهب أبو عثمان الجاحظ إلى ان الشعر إذا كان مستكرهاً ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض ، وان الكلمة اذا كان موقعها ليس إلى جنب أختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة " [129]، ثم أضاف الجاحظ قائلاً[130]: "

---

[128] ينظر : الادب وفنونه ، د. محمد مندور : 38 ،(نشر معهد الدراسات العربية العالية).

[129] يراجع ، البيان والتبيين : 66/1 – 67 .

وأجود الشعر ما رايته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك انه قد افرغ إفراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان " .

وذهب أبو هلال العسكري أيضاً ، إلى ان العبرة بتأليف الألفاظ ، ورصفها رصفاً خاصاً ، وان انتقاء الأديب لألفاظه دون ان يعنى بتأليفها ، فقد يعجز عن إدراك غرضه ، ولا يمتاز جامعها الا بفضل تراكيبها ، لأن " حسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً ومع سوء التأليف ، ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية ، فإذا كان المعنى سبياً ، ورصف الكلام ردياً ، لم يوجد له قبول ، ولم تظهر عليه طلاوة ، وإذا كان المعنى وسطاً ، ورصف الكلام جيداً ، كان أحسن موقعاً وأطيب مستمعاً[131]" .

وهكذا يتضح بجلاء ان النقاد العرب القدامى ، كما شغفوا بموسيقى المفردة اللغوية وجرسها ، واجتهدوا في تخليصها مما يفقدها التلاؤم بين حروفها وحركاتها[132]، فقد حرصوا كذلك على موسيقى التراكيب ، ذلك لأن الألفاظ مهما كان مستوى فنيتها ، ودرجة فصاحتها وجمال صياغتها ، فأنها لا تفي وحدها في صنع لغة الأدب بمعناها الفني الخاص ، وهكذا يسعى الأديب إلى ائتلافها مع غيرها في تراكيب متوائمة ، وبهذا تغدو طرائق تعبير مناسبة لإنهاء المعنى المراد أو الفكرة المتوخاة التي هي جوهر العمل الأدبي وفحواه .

ومن هنا نصل إلى حقيقة مهمة ، تلك هي ان تراكيب الألفاظ واستعمالها في سياق التعبير له خاصية فنية ، فقيمة اللفظ وأهميته تظهر من خلال اتساقه وتلاؤمه مع ما ينتظم معه من ألفاظ فيكسب الكلام نغماً تهش له النفوس ، كما ان وضع

---

[130] البيان والتبيين : 67/1 .

[131] كتاب الصناعتين : 167 .

[132] ينظر : النقد اللغوي عند العرب : 293 .

اللفظة في موضعها المناسب ، يكسبها مزية الحسن كما ان فقدان هذا الجانب، وتنافرها مع ما يجاورها من الألفاظ يكسبها سمة القبح والثقل[133].

ويعد عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) أوسع من تناول قضية الترابط التام بين اللفظ والمعنى من بين النقاد القدامى ، وهو ما عرف عنده بنظرية النظم التي قامت على توخي معاني النحو في معاني الكلم[134].

لقد اكد الجرجاني أهمية تأليف الألفاظ في سياق العمل الأدبي ، وذهب إلى ان الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب [135].

وهكذا نصل إلى نتيجة مهمة ، هي ان نظرية النظم تقوم على التلازم بين اللفظ والمعنى ، وهذا لا يتأتى إلا بتبعية الألفاظ للمعاني ، وهذا لا يعني الترجيح لأن احد الأمرين لا يقوم إلا بالآخر ، فهما صنوان وشريكاًن في الأهمية[136].

وقد تأثر بعض النقاد الغربيين المعاصرين وغيرهم ، بما ذهب إليه الجرجاني حين أشار إلى ان " العبرة ليست في الألفاظ مفردة بل مركبة وان الحكم على الأثر الأدبي يقوم على أداء العبارة للمعنى[137] المراد " .

---

[133] تراجع التفاصيل في كتاب : جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي : 177 .

[134] تراجع تفاصيل هذه النظرية في كتاب (دلائل الاعجاز) ، حيث ذهب الجرجاني إلى ان العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ هي موطن البلاغة ، وهي ما عبر عنه بالنظم ، وما يعبر النقاد المعاصرون عنه بالشكل او الصورة ، ومن مجموع العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة وفيها تظهر البلاغة او (الجمالية) .

[135] ينظر : اسرار البلاغة : 3، حيث قرر الجرجاني – وهذا ما يماشي ما وصل اليه علم اللسانيات الحديث من آراء – ان اللغة ليست مجموعة من الألفاظ ، بل مجموعة من العلاقات والألفاظ في ارتباطها هي التي تكون في النص الأدبي مجموعة الصور التي تنقل الينا الشعور أو الفكرة . ينظر : الادب وفنونه : 115 .

[136] ينظر : كتاب ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم : 119 – 120 .

[137] ينظر : رأي الناقد الامريكي (سينجارن) في المرجع نفسه : 133 .

فالأديب لحظة عكوفه على عمله الإبداعي ، يتعامل مع لغته الفنية بخصوصية واضحة ، متجاوزاً حدودها الوضعية (المعجمية) وكأن ما املته عليه تجربته الفنية الغامرة ، تفرض على هذا الإحساس الجديد في استخدام تلك الأداة الفاعلة (اللغة) استخداماً فنياً منتجاً 00

وفي القرن الرابع – الذي أصبحت فيه الكتّابة فناً وصناعة – عني الأدباء الكتّاب بأساليب التعبير وعنوا أيضاً بصياغة جملهم ، وحبك عباراتهم وتراكيبهم كما عنوا – وهذا ما مر بنا آنفاً – بمفردات تعابيرهم او ألفاظهم ، فدققوا بمواقع جرس الألفاظ ، ووقف بعضهم عند التصرف بحروف المفردة اللغوية ! ولعل مرد ذلك كله ، ان (التركيب اللغوي) – بوصفه جزءاً حيوياً مهماً من العمل الأدبي – يسهم بشكل كبير في تقويم النص الفني وجماله وتأثيره .

وإلى جانب ما ذكرنا فهناك أمر مهم آخر أسهم في نضج صناعة الترسل في هذا القرن ، ذلك هو ان جهابذة الكتّاب وصدورهم لم يعدموا الموهبة والطبع، فضلاً عن التصنيع الذي هو أمر مهم في الإبداع ، ومن هنا فقد صدر هؤلاء الكتّاب في رصف جملهم وبناء تراكيبهم عن طبع موات وموهبة نادرة ، فضلاً عما كان يمتلكه كثير منهم من إطلاع واسع ، وثقافة عميقة متشعبة ، وعشق لهذه الصناعة صناعة الترسل ، وكلفهم بها 0000

لقد أدرك كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، ان جمال التركيب اللغوي في النص الأدبي ، يتحقق عندما يكون بينه وبين سابقه ولاحقه من التراكيب والجمل ائتلاف وانسجام وتعادل نغمي ، بحيث يتحقق من ائتلاف تلك التراكيب مجتمعة ،الإيقاع الموسيقي العذب الرقيق الذي يضفي على أسلوب النص الأدبي ظلالاً وارفه من الفن والجمال .

وهكذا راح هؤلاء الكتّاب البلغاء يجدّون في تنسيق جملهم وتراكيبهم اللغوية ويتأنقون في التأليف بينها اهتماماً كبيراً ، لأنهم أيقنوا أيضاً ان مهمتهم في ترسلهم هي الإمتاع وإثارة اللذة لدى المتلقي ، وقوة التأثير فيه ، ولذلك حرصوا كثيراً على

ذلك التوليف الفني بين فصول كلامهم ، وخلق التعادل النغمي المناسب بين تلك الفصول او التراكيب ، وصولاً إلى تحقيق عنصر الإمتاع والتأثير ، وكان ما مكنهم من تحقيق ذلك كله ما امتلكوه من قدرات كبيرة على التعامل مع مفردات اللغة الثرة ، فضلاً عما امتلكوه من قدرة بيانية هائلة في تصوير الأفكار ، وتجسيد المعاني بالأسلوب الذي يثير إعجاب المتلقي ، ويؤثر فيه 000

ولم يقصر الأدباء الكتّاب اهتمامهم على العناية بموسيقى الألفاظ والتراكيب ولم يصرفوا غاية جهدهم إلى الاهتمام ببناء النص الأدبي ، والمواءمة بين جزئياته فحسب ، وإنما عنوا أيضاً بالمعاني ومضمون العمل الأدبي – وهذا ما سنقف عنده في المبحث الثاني من هذا الفصل – لأنهم أدركوا أيضاً ، ان الصياغة او البناء والشكل ، ليس إلا وسيلة لإبراز المعاني التي هي جوهر العمل الأدبي . وان الألفاظ وائتلافها في تراكيب خاصة ليسا إلا إطاراً لتجسيد محتوى العمل الأدبي ، وأدركوا بقوة أيضاً ، ان المتعة الفنية – وهي من الغايات السامية والنبيلة للفن – لا تتحقق إلا بائتلاف اللفظ مع المعنى وتلاحم نسيج البناء والشكل مع المحتوى والمضمون .

3.الموسيقى والإيقاع :

ان الإيقاع والتناغم الموسيقي المنتظم في النثر الفني كالوزن في الشعر ، وكلاهما – أي الإيقاع والوزن – له أثره الواضح وارتباطه العميق بالمستوى الفني للكلام المنثور او المنظوم .

ومن هنا فقد ربط كثير من الباحثين المعاصرين بين موسيقى الشعر مثلاً ومعناه ، وذهب بعضهم إلى ان هناك ارتباطاً حيوياً بين معنى الشعر وموسيقاه ، لأن المعنى قد يضيع تماماً اذا فقدت القصيدة موسيقاها[138].

وهكذا قرر كثير من الدارسين ان موسيقى الشعر مثلاً ، ترتبط ارتباطاً وظيفياً بالمعاني ، فهي تساهم في إضفاء الأجواء العامة في نفس المتلقي للمعاني التي تطرق مسامعه ، ولذلك ذهب بعض النقاد إلى القول : " إنَّ لكل عاطفة أو معنى ،

---

[138] تراجع التفاصيل في كتاب : لغة الشعر الحديث في العراق : 27 .

نغمة خاصة في الموسيقى والغناء ، وهي اليق به ، واقدر على تمييزه ، لأنها صوته الطبيعي ، وصورته الحسية الدقيقة"[139].

وقديماً ، ميز الفيلسوف (أرسطو) في المقالة الثالثة من كتابه الخطابة ، في باب الإيقاع الخطابي[140]، ميز بين الإيقاع والوزن ، وعدَّ الوزن نوعاً من الإيقاع ، وقصره – أي الوزن – على الشعر ، بينما جعل (الإيقاع) خاصاً بالكلام المنثور . يقول الفيلسوف ارسطو[141]: " 000 وكل الأشياء محدودة بالعدد ، والعدد الخاص بشكل القول هو الإيقاع ، و الأوزان (البحور) أقسام من الإيقاع ، ولهذا ينبغي ان يكون النثر ذا إيقاع ، لا ذا وزن ، وإلا لكان شعراً ، كذلك ينبغي ألا يلتزم هذا الإيقاع التزاماً دقيقاً ، بل إلى حدّ ما فقط " .

وهكذا قرر أرسطو ان (الأسلوب) يجب ان يكون ذا إيقاع ، وان شكل القول ينبغي ألا يكون ذا وزن ، ولا بدون إيقاع ؛ وعلل أرسطو ذلك بقوله : "فأنه ان كان ذا وزن ، فانه يفتقر إلى الإقناع ، لأنه يبدو متكلفاً وفي نفس الوقت يصرف انتباه السامع ، إذ يوجهه إلى ترقب عودة سياق الوزن 0000 واذا كان بدون إيقاع ، فأنه يكون غير محدود ، بينما ينبغي ان يكون محدوداً (لكن لا بالزمن) ، لأن ما هو غير محدود لا يسر ، ولا يمكن ان يعرف "[142].

ولعل ما قرره الفيلسوف أرسطو من وجوب الإيقاع في الكلام المنثور ، وعدم التزامه فيه التزاماً دقيقاً ، بل إلى حد ما ، ثم ما ذهب إليه أيضاً من ان الوزن ، في النثر ، يصرف انتباه السامع ، ويوجهه إلى ترقب عودة سياق الوزن لعل هذين الأمرين هما اللذان دفعا كثيراً من النقاد والباحثين المعاصرين إلى تسليط الضوء على ما للشعر من موسيقى وقيمتها الفنية في استجابة المتلقي للكلام المنظوم .

---

[139] اصول النقد الأدبي : 322 .

[140] تراجع التفاصيل في كتاب الخطابة ، المقالة الثالثة : 211 وما بعدها .

[141] المصدر نفسه : 212 .

[142] الخطابة : 211 ، 212 .

يقول الأستاذ إبراهيم أنيس[143]: " والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباهاً عجيباً ، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع من مقاطع لتتكون منها جميعاً تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبو إحدى حلقاتها عن مقاييس الأخرى 0000" .

ويصرح الأستاذ إبراهيم أنيس في موضع آخر – متأثراً بما قرره أرسطو أيضاً – بضآلة عنصر الموسيقى في النثر قياساً إلى الشعر ، وان الموسيقى في الشعر هي أسمى الصور الموسيقية للكلام وأدقها . يقول[144]: "ونثر الكلام قد يشتمل على نوع من الموسيقى نراها في صعود الصوت وهبوطه أثناء الخطاب كما قد نراها في صور قواف تنتهي بها فقرات ما يسمى بالسجع ذلك الذي يلتزم فيه غالباً طول معين ، وعدد من المقاطع يكاد يكون محدداً ، ففي كل هذا موسيقى ، ولكنها في الشعر من نوع أرقى ، بل هي في الشعر أسمى الصور الموسيقية للكلام وأدقها ، لأن نظامها لا يمكن الخروج عنه " .

وقد تنبه النقاد القدامى في هذا القرن أيضاً إلى ان (الوزن) يمثل جزء الشعر الذي بدونه يفقد قوامه ، فابن طباطبا العلوي (ت 321هـ) مثلاً يعد الشعر مكوناً من أجزاء خمسة كان الوزن احد أهم تلك الأجزاء[145].

وإلى هذا أيضاً ذهب الناقد قدامة بن جعفر (ت 337هـ) حين أراد حدَّ الشعر ، اذ قال[146]: " وليس يوجد في العبارة عن ذلك ابلغ ولا أوجز من تمام الدلالة من ان يقال فيه : إنه قول موزون مقفى يدل على معنى000" .

وهكذا نصل إلى حقيقة مهمة تلك هي ان الإيقاع يؤلف خصيصة عريقة ومهمة من خصائص التعبير الانفعالي ، فهو – كما عبر عنه احد الباحثين[147]"

---

[143] موسيقى الشعر : 13 .

[144] المرجع نفسه : 16.

[145] تراجع التفاصيل في ، عيار الشعر : 25 – 26 .

[146] نقد الشعر : 64 .

"حركة تموج وتدفق وانسياب ، وهو صوت المعنى في الشعر ، اذ يصدر عن اندفاع التأثيرات الصوتية للألفاظ ، وتتابع النبرات والتقطيعات والزخارف بتيار الوزن والقافية " .

والإيقاع أيضاً كما ذهب ناقدٌ آخر[148] " تكرار مجموعة من المقاطع المحددة والوزن يقوم على تكرار حفنة من الإيقاعات والقافية كذلك " .

وفي القرن الرابع اذ أصبح الترسل فناً وصناعة – لم تكن كتابه الرسائل الأدبية حشد ألفاظ او رصف جمل ، وفيض معان يسوقها الأديب الكاتب كيفما أراد ، وأنى شاء ، وإنما غدت صناعة تتطلب جهداً متميزاً ، ودربة وممارسة وإذا كانت الكتّابة أيضاً وعاء الفكر ، وترجمان العقل ، فقد تبوأ كتاب الرسائل الأدبية وغيرهم – كما الممنا بذلك مفصلاً في المبحث الأول من الفصل الثاني – مكانة سامية بين أدباء عصرهم لحسهم الفني الرفيع ، و ثراء لغتهم ، اذ كان صدور الكتّاب خبيرين بأنواع اللفظ ومواقعه ، بصيرين بمواضع جرسه والتصرف بكلمه وحروف عباراته0000

ومما رفد أسلوب الكتّاب البلغاء في هذا القرن ، بالحسن وجمال الأداء أيضاً ، احتواؤه على الموسيقى ، وما اتشحت به تراكيب رسائلهم الأدبية من تناغم الإيقاع الجميل .

أما أهم الأساليب او الأدوات الفنية التي استعان بها الأدباء الكتّاب في هذا القرن على تحقيق ذلك التعادل الموسيقي ، والتوافق النغمي بين الجمل والعبارات (تراكيبهم اللغوية) ، فهي عديدة ، أهمها وأكثرها شيوعاً ، السجع ، ثم الازدواج ، فالتوازن والجناس ، وغيرها ، فضلاً عن ان بعض الكتّاب البلغاء كان يلجأ إلى ضروب اخرى من التقطيعات الصوتية الجميلة التي تجعل من الجمل القصيرة في تراكيبهم اللغوية معادلات موسيقية منظمة ومؤتلفة 000

---

[147] لغة الشعر الحديث في العراق : 27 .

[148] نظرية البنائية في النقد الأدبي : 311 .

(أ) السجـــع [*] :

السجع : هو تواطؤ (أي توافق) الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد[149]، وهو عند اهل البديع من المحسنات اللفظية ، ومما يختص بالنثر ،ولهذا قال السكاكي[150]: " الاسجاع ؛ وهي في النثر كما القوافي في الشعر" ، وقيل بل قد يجري في النظم أيضاً ويسمى بالترصيع ، ذكر العسكري[151] : " وقد أعجب العرب السجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوماً في منظوم ، وسجعاً في سجع " ، ومثل له بشواهد من شعر امرئ القيس من ذلك قوله : [من الطويل] " سليم الشظى ، عبل الشوى ، شنج النسا " ، وكقول أبي تمام الطائي[152]: [من الطويل]

---

[*] لعل ممن توسع في دراسة السجع ، ووقف عنده، ودافع عنه ، واتى إلى ذكر شروطه وانواعه ، وساق نماذجه من القدماء ، ضياء الدين ابن الاثير (ت 637هـ) ، يراجع المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر: 193/1 وما بعدها (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – القاهرة 1358هـ/1939م) ، وتراجع أيضاً دراسة د. زكي مبارك لأطوار السجع وتطوره ، النثر الفني في القرن الرابع: 75/1– 122، وينظر أيضاً ، (السجع والازدواج 137/1 –153) ؛ ويراجع ، السجع وأطوار استعماله في أدب العرب للباحث عبد الستار فوزي ، (بغداد ، 1966) وينظر عن السجع أيضاً أستاذنا د. احمد مطلوب ، فنون بلاغية : 244 – 250 .

[149] المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر: 193/1 ؛ وينظر الايضاح – للقزويني : 393 .

[150] مفتاح العلوم ، 203 .

[151] كتاب الصناعتين ، 270 – 271 ، ثم ذكر العسكري ان أهل الصنعة سمَّتْ هذا النوع من الشعر المرصع ، وعد قدامة (ت337هـ) الترصيع من نعوت الوزن ، قال : " وهو ان يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع او شبيه به ، او من جنس واحد في التصريف . ينظر : نقد الشعر : 80 وما بعدها) ، والشظى ، عظم لاصق في ذراع الدابة والشوى ، اليدان والرجلان ، والشنج ، التقبض ، والنسا ، عرق في الفخذ واراد عدم بروزه .

[152] تراجع التفاصيل في كشاف اصطلاحات الفنون : 4/7 وما بعدها .

تجلى به رشدي ، واثرت به يدي وفاض به ثمدي ، وأورى به زندي

والسجع حلية لفظية قديمة ، شغف بها الأدباء من الخطباء والكتّاب منذ عصور الأدب الأولى عند العرب ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان السجع من مميزات البلاغة الفطرية ، فهو في أكثر اللغات يجري باطراد في الحكم والأمثال[153].

والسجع أيضاً من أوصاف البلاغة في موضعه ، وعند سماحة القول فيه وان يكون في بعض الكلام لا جميعه[154]، فهو حلية تقصد ، ولكنها لا تلتزم – على عكس القافية في الشعر القديم – لما في التزامها من قهر المعاني على متابعة الألفاظ [155] .

ومن هنا فقد ذهب (ابن وهب) إلى القول : " فأما ان يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته ، فذلك جهل من فاعله ، وعي من قائله[156].

وعلى الرغم مما احاط بعض السجع من كراهية[157] ، لما فيه من تكلف ، او لدنوه من سجع الكهان ، منذ عصور الإسلام الأولى ، ما شاع بسبب ذلك من تحريمه ! ثم انتفاء علة التحريم فيما بعد – كما أشار الجاحظ[158]– وبسبب إسراف بعض الخطباء والكتّاب في استخدامه – لكونه يزيد الكلام رونقاً ويكسب النص الأدبي بهاء – ووقوعهم أحياناً في الغثاثة والتكلف ؛ فقد وقف منه بعضهم – وهم

---

[153] ينظر كتاب : النثر الفني في القرن الرابع : 75/1 وما بعدها .

[154] تراجع التفاصيل في ، فنون بلاغية : 244 .

[155] ينظر : النثر الفني في القرن الرابع : 79/1 .

[156] البرهان في وجوه البيان : 209 .

[157] يراجع ما اشار اليه الجاحظ ، (البيان والتبيين : 287/1) .

[158] ذكر الجاحظ يقول ، (البيان والتبيين 90/1) ، قالوا : "فوقع النهى في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية 000 فلما زالت العلة زال التحريم 000" يراجع بقية النص لأهميته 000

الاشعرية – موقف المنكر ، ولذلك راحوا ينزهون القرآن الكريم من هذا الفن البلاغي[159].

ولعل هذا ما حفز بعض النقاد وعلماء البلاغة على الدفاع من السجع[160] والتصدي لآرائهم . يقول ابن الاثير معللاً ذم بعض المنكرين للسجع[161] :" وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم عن ان يأتو به 000" .

ثم راح ابن الأثير يحتجُّ عليهم بكثرة وروده في التنزيل المجيد ، ومضى إلى ابعد من هذا ، اذ عد السجع بعض أسرار الإعجاز فيه ، يقول[162]: "وههنا وجه آخر ، هو أقوى من الأول ، ولذلك ثبت ان المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً ابلغ في باب الإعجاز " .

والناقد قدامة بن جعفر عد السجع من أوصاف البلاغة ، على شرط ان يكون في موضعه ، وعند سماح القريحة به ، وان يكون في بعض الكلام لا في جميعه ، يقول[163] : " 0000 فأنه ليس في كل موضع يحسن ، ولا على كل حال يصلح ولا هو أيضاً اذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بمحمود ، فأن ذلك اذا كان دلَّ على تعمد ، وأبان عن تكلف " .

---

[159] تراجع التفاصيل (كشاف اصطلاحات الفنون (السجع) : 7/7 وما بعدها .

[160] من الاراء السديدة في هذا الجانب ما سجله ابن ابي الحديد (شرح نهج البلاغة : 42/1) . إذ قال : " المذموم هو التكلف الذي تظهر سماجته وثقله للسامعين ، فأما التكلف المستحسن ، فأي عيب فيه ؟ ألا ترى ان الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن وليس لطاعن ان يطعن فيه بذلك " .

[161] المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر: 193/1 .

[162] المصدر نفسه : 198/1 .

[163] نقد الشعر ، 83 – 84 .

وجعل عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) مما يلزم التجنيس المقبول والسجع الحسن ان يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى . يقول[164]: " لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً " .

ثم أتى ابن الأثير (ت 637هـ) إلى دراسة أقسام السجع ، فقسَّمه إلى ثلاثة أقسام ، ثم قسمه تقسيماً آخر على اختلاف أنواعه إلى (السجع القصير) و(السجع الطويل) ، وهو ضد الأول لأنه أسهل تناولاً[165].

وقد تابع ابن الأثير في هذا التقسيم للسجع صاحب الطراز ، فذهب إلى ان السجع القصير أحسن وأوجز مسلكاً من الطويل ، وأصعب مدركاً ، واخف على القلب ، وأطيب على السمع ، لأن الألفاظ اذا كانت قليلة فهي أحسن وارق[166] .

ومنذ أواخر القرن الثالث ، ومطلع القرن الرابع للهجرة ، بدأت حلية السجع تشيع في المكاتبات الرسمية بخاصة ، حتى غدت هذه الظاهرة – كما أشار بعض المستشرقين[167]، الطريقة الجديدة المستحدثة عند كبار رجال الطبقة الخاصة في حاضرة الخلافة وقد كان ذلك حافزاً على اظهار صور البلاغة وأساليبها وبخاصة عند طائفة من الكتّاب الذين لم يأبهوا للاعتبار الديني في كراهية السجع00

وهكذا بدأ الأسلوب الموشى بالبديع والسجع بخاصة يشيع في رسائل كبار كتاب الديوان الرسمي – كالصابي وابن العميد واضرابهم – ثم بدأ ينتقل إلى

---

[164] اسرار البلاغة : 10 .

[165] تراجع التفاصيل في ، المثل السائر: 238/1وما بعدها ؛ وينظر أيضاً : الجامع الكبير ، 253 .

[166] الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: 23/3 (ط القاهرة 1332هـ/1914م) .

[167] ينظر : ما ذكره ادم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع :444/1 – 445 .

المكاتبات الشخصية ، ويشيع في الرسائل الأدبية ، لا ستطرافه ونزوع الذوق العام إليه[168].

لقد صار السجع في القرن الرابع أسلوباً من أساليب الكتّابة ، وفناً من فنونها ، واصبح في اقلام الكتّاب آله من آلات البلاغة ، ومقياساً للبراعة في صناعة الترسل ، وربما كانت أكثر رسائل ابي اسحاق الصابي واضرابه من بلغاء الكتّاب في هذا القرن – كأبي الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد وابي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، وشمس المعالي قابوس وغيرهم – تمثل " بدعة جديدة من " بدع الكتّابات المسجعة التي لم تكن موجودة من قبل في نتاج قرائح الفنانين من الخطباء والكتّاب والمترسلين "[169].

فأبو اسحاق الصابي مثلاً ، خطا بالسجع في رسائله الرسمية والاخوانية خطوات واسعة نحو الفن والإبداع ، ما دفع ببعض الباحثين إلى القول : " ان سجعه يغاير سجع غيره من كتاب عصره كالخوارزمي والهمذاني والصاحب وغيرهم ، فهو يهتم كثيراً بقصر سجعاته ، وصقلها ، وضغطها ضغطاً يجعلها لا تتجاوز الكلمتين أحياناً[170].

يقول أبو اسحاق الصابي في فصل من رسالة له[171] : " 00 من اصل راسخ ، وفرع شامخ وحلم راجح ، وقدر طامح ، وادب جزل ، ومنطق وفصل وقريحة ثاقبة ، ودراية صائبة ونفس سامية ، وكف هامية 000" .

وقد مرَّ بنا آنفاً ، ان النقاد القدامى قد استحسنوا السجع القصير ، ورأوا انه كلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من السامع ، وذهبوا إلى ان

---

[168] لقد أفاض الباحثون في تعليل شيوع ظاهرة السجع في الرسائل الأدبية ابان هذا القرن . ينظر : ظهر الإسلام : 133/1 ، النثر الفني في القرن الرابع: 121/1 ، تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : 107/2 – 108 ، الادب في ظل بني بويه : 196 – 197 .

[169] السجع وأطوار استعماله في أدب العرب : 25 .

[170] ينظر : أبو إسحاق الصابي حياته وادبه : 230 .

[171] المختار من رسائل الصابي : 407 .

هـذا الضـرب أوعـر السـجع مـذهباً ، وأبعـده متنـاولاً ، ويكـاد اسـتعماله لا يقـع إلا نادراً[172] .

وتميـز أبـو إسـحاق الصـابي أيضـاً فـي صـياغة اسـجاعه ، انـه كـان يختـار المفردات العذبة ، والتأليف الفصيح ، وان لفظهُ كان تابعاً لمعناه ، وكانت كل سجعة في قرائن تركيبه اللغوي تدل على معنى مغاير لمعنى سابقتها ، وهذا ، كما نوه به ابن الأثير (ينظر المثل السائر 194/1) – من اهم شرائط الصياغة الفنية للسجع . يقول الصابي في فصل آخر من رسالة له [173]: " الحمد لله الذي لا تدركه الأعين بلحاظها ، ولا تحده الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها ، والصلاة على من لم ير للكفر أثراً إلا طمسه ومحاه ولا رسماً إلا أزاله وعفاه" .

اما أبو الفضل ابن العميد – وقد اقتفى أثره فيما سنذكره كثير من بلغاء الكتّاب في عصره – فكان أسلوبه يقوم على أيثار الأسجاع القصيرة الفواصل التي تترادف بين قرينتين قصيرتين أو أكثر فضلاً عن مزجها بحلي بديعية أخرى متناثرة ، كالجناس والطباق والازدواج والموازنة والتورية ، مع عذوبة الألفاظ المسجوعة وفصاحتها ، وحلاوة التراكيب ورصانتها 000

وكان أبو الفضل ، إلى ذلك كله لا يلتزم السجع بين فواصل تراكيبه ، وكان كثيراً ما ينزع عنه إلى الازدواج ، مع الاعتدال والبعد عن التكلف والغلو . كتب ابن العميد من رسالة له إلى بعض اخوانه[174]: " أنا أشكو إليك – جعلني الله فداك – دهراً خؤونا غدوراً ، وزماناً خدوعاً غروراً ، لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع ، ولا يبقي فيما يهب ، إلا ريث ما يرتجع ، يبدو خيره لمعا ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جرعاً

---

[172] ينظر : المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر: 238/1 ، الجامع الكبير : 253 .

[173] يراجع كشاف اصطلاحات الفنون : 7/7 .

[174] زهر الآداب وثمر الألباب : 601/2 .

ثم يمتنع ، وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ان يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض " .

وبديع الزمان الهمذاني مثل كثير من الكتّاب البلغاء في عصره الذين التزموا السجع في رسائله ومقاماته ، حتى غدت خصيصة مهمة من خصائص أسلوبه الفنية ، إلا ان هذا الأديب المبدع تفرد عن كثير من أقرانه الكتّاب في عصره ، كابي بكر الخوارزمي مثلاً ، بأنه كان يتعمّل في سجعه ، ويذهب فيه إلى مرام بعيدة من الصنعة والصياغة 0000

فالسجع عند هذا الأديب الكاتب لم يعد في مقاييسه ذلك التوافق الصوتي بين حروف الفواصل الأخيرة في نهاية الجمل أو قرائن الكلام ، وإنما أصبح أسلوباً فنياً آخر ، يقوم على الإفراط في الالتزام به ، وتفريعه والتفنن في ابتكار قوالب جديدة واطر مبتكرة [175].

كتب بديع الزمان في فصل من رسالة إلى الشيخ أبي نصر الميكالي يشكوه احد عماله[176]: " 000 أف لقولك ولفعلك ، ولدهر أحوج إلى مثلك ، وأنا اسأل الشيخ الجليل ان يبيض وجهي بكتاب يسود وجهه ، ويعرفه قدره ، ويملأ رعباً صدره ، إلى ان تبين على صفحات جنبه ، أثار ذنبه " .

اما أبو بكر الخوارزمي – الذي لم يكن يخفي عشقه لحلية السجع ، والتنويه أعجاباً به فيما كان يطلع عليه من فصول نثرية مسجعة[177]، فأنه كان أيضاً من بلغاء الكتّاب الذين أكثروا من اتخاذ السجع أسلوباً فنياً لتزيين رسائله الاخوانية وقد افتن كثيراً في صياغته ، فتارة يأتي السجع في نهاية فواصل طويلة وتارة أخرى يسوقه في فواصل أو قرائن قصيرة – وهذا الضرب هو الذي يفضله النقاد – من ذلك

---

[175] ينظر : رسالة ابي بكر الخوارزمي حياته وادبه : 298 .

[176] زهر الآداب وثمر الألباب : 607/2 .

[177] رسائل ابي بكر الخوارزمي ، رسالته الجوابية إلى علي بن داية ، 36 ، ورسالة إلى ابي محمد العلوي ، 44 ، وغيرها في مواضع متفرقة.

ما ورد في فصل من رسالة إلى أبي محمد العلوي ، وقد جمع هذين اللونين من السجع[178]: " ورأيت نفسي وقد اكتنفها أربعة أشياء ، ما منها شيء إلا وهو يقرب عليها مسافة الممات ، ويقطع عنها علائق الحياة ، خصم فاجر ، وسلطان جائر وبخت عاثر وزمان غادر" .

وكثيراً ما كان أبو بكر الخوارزمي يقرن حلية السجع في رسائله الاخوانية بحلي وزخارف بديعة أخرى ، لعل أكثرها الطباق والمقابلة والجناس وغيرها ، فكان يضفي على أسلوبه رقة وإيقاعاً ، وعلى معانيه جلاء ووضوحاً .

كتب إلى تلميذ له في فصل من رسالة اخوانية وقد فوض إليه إشغاله[179]: "كتابي ، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ، وقدمت من رأيي ما أخرت ، لما أمضى الفراق فينا حكمه ، ولا أنفذ فينا سهمه ، ولا قمنا جميعا ، ولا رحلنا معا ، واني لا اظلم الفراق اذ شكوته ، واتعنف الدهر اذ هجوته0000" .

على ان أبا بكر الخوارزمي لم يسلم من التكلف أحياناً غير قليلة ، في صياغة بعض حلي أسجاعه ، فتظهر عليها غثاثة اللفظ وسماجته ، وتبعية المعنى للفظ ، وهذا ما استقبحه بعض النقاد القدامى في صياغة السجع وألوان البديع الأخرى 000

كتب إلى ابي حامد الاديب بقومس فصلاً من رسالة إليه[180] " انا بكتاب شيخي اذا ورد علي اشد سروراً من المشتاق إلى التلاق ، بعد طوال الفراق ، ومن العاشق بالعناق ، ومن الاسير بالاطلاق ، ومن الفارك بالطلاق 000" .

(ب) الازدواج :

الازدواج : هو ان يراعي الأديب او منشيء الرسالة الوزن ، او التقابل الإيقاعي في جميع كلمات القرينتين ، او في أكثرها ، وهو أحسنها ، وأعلاها .

---

[178] المصدر نفسه : 18 .

[179] رسائل ابي بكر الخوارزمي : 19 .

[180] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 181 .

وقد أعطى بعض علماء البلاغة القدامى للازدواج منزلة كبيرة في منثور الكلام ، فأبو هلال العسكري (ت 395هـ) يؤكد أهمية الازدواج فيقول[181]: " لا يحسن منثور الكلام و لا يحلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج000" ، ثم أشار العسكري إلى كثرة وروده في القرآن الكريم حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عما تزاوج في الفواصل منه .

والازدواج من الحلي البديعة اللفظية التي تكسب الكلام او النص الأدبي رواءً وإيقاعاً ، وتضفي على تراكيب النص بهاءً وإشراقاً .

وتتحقق حلية الازدواج – كما اتفق علماء البلاغة 0– في الكلام المنثور ، ولا تكون في الوشي المنظوم ، فتخلق عذوبة الإيقاع في الأسماع من خلال التوافق النغمي ، والتقابل في الوزن بين كلمات القرائن في النص الأدبي .

وفي عصور الأدب العربي التي سبقت هذا القرن كان منشئو الرسائل الأدبية يتنقلون بين الوان عديدة من صور الموسيقى والإيقاع النغمي في ترسلهم و التي تتحقق من خلال براعتهم في الصياغة الفنية العالية ولعل اكثر تلك الأنغام الإيقاعية تداولاً بينهم هي السجع والازدواج والموازنة وغيرها من صور الإيقاع والوان التقطيعات الموسيقية الجميلة 000

وفي القرن الرابع أصبحت حلية السجع – كما مرَّ بنا انفاً – من أكثر ألوان الإيقاع وصور الموسيقى التزاماً من لدن الأدباء ومنشيء الرسائل الأدبية ، حتى غدت خصيصة واضحة من خصائص أسلوب الكثير من أولئك المترسلين[182] وفضلاً عن ذلك فأن كثيراً من هؤلاء الكتّاب كانوا يميلون أيضاً إلى استخدام ألوان أخرى من الإيقاعات النغمية لعل أكثرها شيوعاً الازدواج والموازنة والتجنيس وغيرها .

---

[181] كتاب الصناعتين : 266 ، ما بعدها .

[182] ينظر : النثر الفني في القرن الرابع : 138/1 .

ولقد رأى النقاد القدامى ان كتاب الرسائل الأدبية او الرسمية يستطيعون تحقيق اكبر قدرٍ من الموسيقى والإيقاع لتراكيبهم اللغوية ، اذا لجأوا إلى هذه الحلية (الازدواج) .

ومن هنا ، فقد جدتْ طائفة من المترسلين وكتاب الدواوين في هذا القرن تؤثر حلية الازدواج ، فضلاً عن السجع من حين إلى آخر ، لعل في مقدمة هؤلاء المترسلين ، ابا الفضل ابن العميد وأبا حيان التوحيدي والشريف الرضي وأبا هلال العسكري وغيرهم .

كتب أبو الفضل ابن العميد في فصل من رسالة له إلى أبي عبد الله الطبري[183]: " وقد حرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع انس متشتت بلا نظام ، وقد قرأت كتابك – جعلني الله تعالى فداءك – فامتلأت سروراً بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك في لفظك ، وما اقرّضها فكلُّ خصالك مقرظ عندي ، وما امدحها فكلّ أمرك ممدوح في ضميري وعقدي ".

وهكذا يتضح هذا التقابل النغمي بين كثير من ألفاظ القرائن في تراكيب هذا النص الأدبي ، ونظيره أيضاً ما ورد في رسالة ادبية للصاحب بن عباد في ذم قلم وقد أبدع غاية الإبداع[184]: " 000 تستغيث الحروف من التوائه ، وتستأنس السطور من استوائه ، ان قلت : سر وقف، وان حثثته بالأنامل قطف ، فالفاظي في سنيه مأسورة ، ومعاني في شقيه محصورة 0000 " .

ومما يزيد تراكيب النص الأدبي إيقاعاً ، فضلاً عن تقابل كلمات القرائن في الوزن ، تماثل الفواصل او المقاطع في الوزن والتقفية أيضاً ، وقد شاعت هذه الظاهرة الفنية كثيراً في رسائل بلغاء الكتّاب في هذا القرن .

---

[183] زهر الآداب وثمر الألباب : 4/ 1120 .

[184] ديوان المعاني: 84/2 .

يقول العسكري[185]: " ان أمكن أيضاً ان تكون الأجزاء متوازنة كان أجمل وينبغي أيضاً ان تكون الفواصل على زنة واحدة ، وان لم يمكن ان تكون على حرف واحد ، فيقع التعادل والتوازن " .

ومن بدائع ما ورد من نماذج الازدواج الذي تقابلت فيه الفواصل او المقاطع في الوزن والتقفية ؛ ما ورد في رسالة للعسكري في وصف كتاب[186]: "0000 فتأمله ، فلم ادر ما تأملت ؛ أخطاً مسطوراً أم روضاً ممطوراً ، ام كلاماً منثوراً ؟ ام وشياً منشوراً ؟ ولم ادر ما أبصرت في أثنائه : ابيات شعر ؟ ام عقود در ؟ ولم ادر ما حملته : أغيث حل بوادٍ ظمآن ؟ ام غوث سيق إلى لهفان؟".

ويلاحظ هذا التقابل الجميل أيضاً في رسالة للوزير الصاحب ، وفيها يقول[187]: " وليس ببدع ان يجود كلامه ، وتعتدل أقسامه ، ويتهذب بيانه ، ويتسع جنانه ، وقد راض العلوم حتى أعطته زمامها ، ومارس الآداب حتى ملكته خطامها 0000" .

ويلحظ القارئ بوضوح هذا التقابل الوزني بين (يجود) ، و(تعتدل) و(يتهذب) و (يتسع) ، ويلحظ هذا التقابل أيضاً بين كلمات القرينتين الأخيرتين : (راض) و (مارس) ، و(الآداب) ، و (العلوم) و (أعطته) ، و (ملكته) ، فضلاً عن اتحاد الفواصل في الوزن والتقفية بين (كلامه) و (أقسامه) ، وبين (بيانه) و(جنانه) ، وبين (زمامها) ، و (خطامها) ، وفي هذا كله قدر كبير لا يخفى من التناسب والموسيقى والايقاع الجميل .

ومن بلغاء الكتّاب المترسلين الذين شاع في نثرهم الفني ظاهرة الازدواج في هذا القرن أيضاً : أبو حيان التوحيدي الذي نحا في هذا الجانب منحى الجاحظ ، وتأثر بأسلوبه . ولعل اشهر رسالة أدبية للتوحيدي تجلت فيها حلية الازدواج ؛ ما

---

[185] كتاب الصناعتين : 269 .

[186] ديوان المعاني : 85/2 .

[187] المصدر نفسه : 102/2 .

ورد في رسالته القيمة إلى صديقه أبي الوفاء المهندس يشكو حاله ويعاتبه ، ويرجوه المعونة ، ومما ورد فيها[188]: " 000 حتى املك بها ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذي قد اشبع كل جائع ، وكسا كل عارٍ ، وتألف كل شارد ، وأحسن إلى كل مسئ ، ونوه بكل خامل ، ونفق كل هزيل ، واعز كل ذليل 000" .

وقد جمع التوحيدي أيضاً مثل كثير من بلغاء هذا القرن ، بين تقابل ألفاظ القرائن في الوزن ، وبين تماثل أواخر الفواصل في الحرف الأخير ، مما أضفى على موسيقى تراكيبه قدراً أوفى من الإيقاع ، وروعة النغم . يقول[189]: " والله ان الوزير مع أشغاله المتصلة ، وأثقاله الباهظة 0000 يرعى القليل من الحرمة ، ويعطي الجزيل من النعمة 000 ويزرع الخير ، ويحصد الأجر ، ويواظب على كسب المجد ، ويثابر على اجتلاب الحمد ، وينخدع للسائل ، ويتهلل في وجه الآمل 0000" .

ويلحظ القارئ بوضوح ان الكاتب قد زاوج بين ألفاظه (اشغاله) و (اثقاله) ، و (القليل) ، و (الجزيل) ، و (يزرع) ، و (يحصد) و (يواظب) ، و (يثابر) ، كما ماثل بين فواصل القرائن (الحرمة) ، و (النعمة) و(الخير) ، و (الاجر) ، و (المجد) ، و (الحمد) ، و (السائل) ، و (الآمل) . وفي هذا التناسب والتقابل والتماثل ما لا يخفى من الاعتدال في الكلام ، وجمال الايقاع ورقة النغم0000

وتطرد حلية الازدواج كثيراً في رسائل الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، حتى غدت أسلوباً فنياً كثيراً ما يلجأ إليه ، ويأتي مقترناً مع سجعه وتجنيسه اللذين كانا لازمةً من لوازم الموسيقى والإيقاع الفني في جمله وتراكيبه في جميع رسائله الأدبية التي وصلت الينا .

---

[188] الامتاع والمؤانسة : 226/3 .

[189] المصدر نفسه : 229/3 .

ومن نماذج الازدواج التي جاءت متناغمة مع حلية السجع ، ما كتبه في رسالته الى ابي الفضل ابن العميد[190]: "000 فمن مر على أرجاء بحره الهياج ، ونظر في لألاء بدره الوهاج ، خليق بأن يكبو قلمه بأناملـه ، وينبو طبعه عن رسائله000" .

ولا يخفى ما أضفاه تقابل القرينتين (مر ، نظر) و (إرجاء ولألأ) و (بحره وبدره) في الوزن من إيقاع وتناغم ، فضلاً عن تماثل لفظتي (الهياج) و(الوهاج): في الوزن و التقفية من موسيقى عذبة يقترب ... معها النص النثري إلى سحر الشعر وجمال إيقاعه ، ورقة وزنه000

ونظير ذلك أيضاً ما ورد في فصل من رسالة له إلى الوزير ابن العتبي[191]: "الشيخ يعتقُ هذا الأمر اعتناق مجتلب مواجب الشكر ، مجتنب مذاهب العذر0000 فأني لا اعرضه للملامة ، ولا اقرعه سن الندامة ، بل اجنيه جني الوفاء ، واقيه لواحق الاستحياء " .

وقد اخذ كتاب الرسائل الأدبية في أواخر هذا القرن ، والقرن الذي أعقبه يغالون كثيراً في تصنعهم في استخدام حلي البديع في ترسلهم ، ولا سيما السجع ، وكان للأزواج أيضاً نصيب في ايغال بعض الكتّاب باستخدامه في فصول رسائله وترصيع جمله بأنغام وقعه ، وسحر موسيقاه 0000

من ذلك ما يطالعنا في رسالة ادبية (اخوانية) لأبي على الحسين بن ابي الطيب الباخرزي ، وقد أكثر من تقابل كلمات القرائن في رسالته ، وتماثلها في الوزن والتقفية ، مما ورد فيها[192]: " فلان ما سال بالنوال عفواً على الاخوان وقت الشراب والقيان ، إلا نضب النيل المائح خفراً من إسراف صلته ونواله ، ولا اختال في النزال

---

[190] كمال البلاغة : 42 .

[191] المصدر نفسه : 48 .

[192] دمية القصر وعصرة أهل العصر : 369/2 – 370 .

خطواً إلى الأقران تحت الضراب والطعان ، إلا هرب الفيل الهائج حذراً من إجحاف صولته ونكاله " .

وهكذا تتضح قدرة هذا الأديب الكاتب ، وسحر بلاغته – على الرغم مما في تضاعيف رسالته من تكلف وصنعة واضحة – وتمكنه من تقابل كلمات القرائن في جميع جزئيات هذا الفصل من الرسالة ، وتزاوجها في الوزن ، وتماثلها في الإيقاع ، مع تباعد الفواصل .

(ج) الموازنـــة*:

الموازنة : هي من الحلي البديعية اللفظية أيضاً ، وتقوم على تحقيق الأديب او منشئ الرسالة الأدبية ، التوافق الصوتي (او الوزني) بين فواصل العبارات في تراكيب النص الأدبي المنثور .

ويفهم من حد الموازنة عند ابن الاثير ، إنها تأتي في المنثور والمنظوم ، يقول[193]: " وهي ان تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن ، وان يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً 000" .

والى ذلك أيضاً ذهب صاحب الطراز فقال[194]: " وورودها عام في المنظوم والمنثور " . وتحقق الموازنة في الكلام المنثور بخاصة ، طلاوة ورونقاً ، لما تضفيه على النص (او التركيب) من الاعتدال . يقول ابن الأثير[195]: " وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلةً وقعت من النفس موقع الاستحسان " . وقرن ابن الاثير أيضاً الموازنة

---

* الموازنة : ان تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية ، وهي قريبة من بعض انواع السجع ، غير انه مع اتفاق الأواخر ، في حين لا يشترط فيها ذلك . (ينظر : فنون بلاغية : 256/1)

[193] المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر : 278/1 .

[194] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز :38/3 ، ويراجع فنون بلاغية : 257 – 258 ، حيث أورد المؤلف شواهد عديدة للموازنة في المنظوم .

[195] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : 279/1 .

بالسجع في المعادلة دون المماثلة ، يقول[196]: " وهذا النوع من الكلام هو اخو السجع في المعادلة دون المماثلة ؛ لأن في السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال ، وهو تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد ، وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ، ولا تماثل في فواصلها ، فيقال إذاً كل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعاً وعلى هذا فالسجع اخص من الموازنة".

وذهب أبو هلال العسكري[197] إلى ان أحسن صور الموازنة وأكملها هي التي " تتحد فيها الفواصل في الوزن و في الحرف الأخير " و استدل العسكري على قيمتها في الكلام 000، وما تحققه من جمالية في النص ، وشغف أهل البيان بالموازنة ، إنهم ربما غيروا الكلمة عن وجهها ، طلباً للموازنة بين الألفاظ ، وإتباع الكلمة أخواتها[198].

وفي القرن الرابع أدرك كتاب الرسائل الأدبية وبلغاؤهم ، ما لحلية الموازنة من طلاوة وحسن موقع في موسيقى تراكيبهم فاتخذها كثير منهم أسلوباً ؛ لإضفاء التعادل النغمي ، او التماثل الإيقاعي بين فواصل جملهم ، وتهيئة أعظم قدر من الموسيقى في تضاعيف تراكيبهم .

وحسبنا شاهد على ما ذهبنا إليه ؛ ان ابا القاسم الصاحب بن عباد – الذي اشتهر بميله إلى السجع في ترسله وكلفه به – ترك اسجاعه في بعض رسائل الاخوانية الجوابية ، من ذلك مثلاً ما كتبه إلى الأمير شمس المعالي قابوس جواباً عن رسالته ، مقتصراً فيها على حلية الموازنة بين فواصلها ، ومما ورد فيها

---

[196] المصدر نفسه : 279/1 .

[197] كتاب الصناعتين : 267 .

[198] ساق ابو هلال العسكري ، بعض الشواهد على ذلك منها قول الرسول (ص) وهو يعوذ الحسين (عليه السلام) : " اعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة " وإنما أراد (ملمة) فعدل عن وجهها قصداً للموازنة وصحة التسجيع . وتنظر شواهد أخرى في كتاب الصناعتين : 267 – 268 .

قوله[199]: " أيادي الأمير مولاي – ادام الله تأييده – وان طالت باع الشكر ، وبهرت ضياء الصبح ، وقيل فيها : هذه أبكار المجد ، واعيان المكارم الزهر، فأن كتابه الوارد آنفاً – يعزيني فيه عن فاجعة الرزء ، ويهديني به لواضحة الصبر ويزيدني معه علماً بأخلاق الدهر – نعمة غراء تترك النعم ضئيلة الشخص ، وتفوتها فوت السماء والأرض . فها انا مرتهن بها بقية العمر ، مسلم لها مقر بالعجز ، مستخف – لجلالها – ما أثقلني من أعباء الحزن 0000" .

وتتواصل هذه الرسالة الغراء إلى نهايتها في توظيف حلية الموازنة بين نهايات فواصلها .

واشتهر ابو الفضل ابن العميد ، بكثرة استخدامه لحلية الموازنة بين فواصل رسائله الاخوانية بخاصة ، ونزوعه عن حلية السجع إليها كتب في احدى فصول رسائله الاخوانية يقول[200]: " 000 ولو توضحت بأنوار الربيع الزاهر وشدخت جبينك غرة البدر الباهر ، واستعرت من الصباح ثوبا ، وخضت اوضاح النهار خوضاً ، ما كنت إلا غفلاً " .

ولأبي الفضل ابن العميد أيضاً في احدى فصول رسائله في الحكمة والعظة والاعتبار يقول[201]: "خير العقول ما اغناك جدّه والهاك هزله " ويتضح بجلاء في هذين المقطعين من رسالتي الوزير الأديب ، تقابل المقاطع أو الفواصل : (ثوبا خوضا ، غفلا) في الوزن واختلافها في التقفية ، وكذا يقال في الفاصلتين (جده هزله) ، وما في هذا التقابل والتوافق النغمي من إيقاع عذب مستساغ .

وشكلت حلية (الموازنة) إحدى التلاوين الإيقاعية الشائعة في فصول رسائل أبي إسحاق الصابي – ولا سيما في رسائله الاخوانية – الذي اشتهر بعنايته الفائقة بموسيقى ألفاظه وتراكيبه .

---

[199] كمال البلاغة : 74/73 .

[200] ديوان المعاني :: 1/ 189 .

[201] خاص الخاص ، الثعالبي : 11 .

كتب الصابي في إحدى فصول رسائله إلى بعض الرؤساء يستميحه ويطلب رفده[202]: " 000 فهو لا يلتمس فضله إلا جزاءً ، ولا يستدعي طوله إلا قضاءً ؛ والأمير بكرمه الغريب ، ومذهبه البديع ، يؤثر ان يكون السلف له ، والابتداء منه 0000" .

فوزان الكاتب – إلى جانب التزامه حلية السجع في فواصل تراكيبه السابقة – بين مقاطع جمله وفواصله ، وهي : (الغريب ، البديع ، له ، منه) وزناً دون الالتزام فيها بالتقفية ، فحققت مجتمعة مع المقاطع المسجعة السابقة ظلالاً ورافةً من البهجة ، ورقة النغم 00

وممن اكثر من المواءمة بين السجع والموازنة بين فواصل تراكيبه من بلغاء الكتّاب في هذا القرن أيضاً ، الأديب الكاتب ابو الفرج الببغاء .

كتب في احد فصول رسائله في التهنئة بالعود من الحج[203]: " جعل الله سعيك مشكوراً ، وحجك مبرورا ، ونسكك مقبولاً ، واجرك مكتوباً 0000" .

ويظهر جلياً انسياب فواصل الجمل من خلال هذا الإيقاع المتناسب الذي حققه السجع بين المقطعين (مشكورا ، مبرورا) ، ويتواصل هذا التوافق الإيقاعي بظلال الفاصلتين : (مقبولا ، مكتوبا) اللتين اتحدتا نغماً رقيقاً منساباً مع الفواصل السابقة ، لتكون نسيجاً ايقاعياً متناغماً اضفى على هذا التركيب اللغوي قدرا ملموساً من الرقة والسلاسة 00

(د) التجنيس* :

---

[202] زهر الاداب وثمر الالباب : 959/4 .

[203] صبح الاعشى في صناعة الانشا: 32/9 – 33 .

* اطلق عليه الناقد قدامة بن جعفر (ت 337هـ) اسم المجانس ، وجعل المطابق والمجانس من صفات الشعر ، وهما داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى ، ومعناها ان تكون في

التجنيس من حلي البديع اللفظي المهمة التي استعان بها الكتّاب البلغاء في هذا القرن أيضاً على تحقيق التوافق النغمي والتعادل الموسيقي بين الجمل والعبارات في فصول الرسائل الأدبية .

وحقيقة الجناس وحدّه – كما أوجزه أبو هلال العسكري[204]: " ان يورد المتكلم – في الكلام القصير نحو البيت من الشعر ، والجزء من الرسالة او الخطبة – كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها 0000" .

وأرى ابن الأثير : ان يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً ، وذهب إلى القول[205] : " وانما سمي هذا النوع من الكلام مجانساً لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد " . وعلى هذا فأنه : اللفظ المشترك ، وما عداه فليس من التجنيس في شيء ، ووصفه ابن الأثير أيضاً بأنه : " غرة شادخة في وجه الكلام " وأشار إلى تصرف البلغاء من أرباب هذه الصناعة فيه ، واختلافهم في تبويبه وتقسيمه ، وإدخالهم بعض تلك الأبواب في بعض[206].

الشعر معان متغايرة ، قد اشتركت في لفظة واحدة والفاظ متجانسة مشتقة . (ينظر : نقد الشعر : 163 – 164) ، وسماه ابن رشيق القيرواني (ت 456هـ) ، (التجنيس) ، وجعله ضروباً كثيرة . (ينظر : العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده : 503/1 – 518) ، وممن فصل القول فيه ابو هلال العسكري (ت 395هـ) في كتابه الصناعتين : 330 – 345 ؛ حيث فصل القول في حده ، ثم اتى إلى التجنيس في القرآن وفي كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ثم في اشعار المتقدمين والمحدثين ، ثم اتى إلى ضروبه ، ثم ذكر بعضاً مما عيب منه ، ممن فصل القول فيه أيضاً : ابن الاثير (ت 637هـ) في كتابه : (المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر 246/1 – 263) حيث قسمه إلى سبعة اقسام ، وتراجع أيضاً دراسة استاذنا الدكتور احمد مطلوب في هذا الموضوع في : (فنون بلاغية : 223 – 237) .

[204] كتاب الصناعتين : 330 وما بعدها .

[205] المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر : 246/1 .

[206] المصدر نفسه : 246/1 وما بعدها .

ولقد أولى عبد القاهر الجرجاني(ت 471هـ) التجنيس عناية كبيرة[207] وأوضح ميزته وتأثيره ، ونوّه إلى انه – كغيره من فنون البلاغة – لايحسن إيراده في الكلام إلا إذا اقتضاه المعنى ، وتطلب وروده ، قال[208]: " فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً . ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلاب وتأهب لطلبه ، أوما هو لحسن ملاءمته – وان كان مطلوباً – بهذه المنزلة 000" .

وقد تأثر الخطيب القزويني[209] (ت 739هـ) بعبد القاهر ، ونحا نحوه في تعليل جمال هذا الفن البلاغي ، ومدى تأثيره في نفس المتلقي حين يتطلبه المعنى ويستدعيه . ثم ما لبث التجنيس عند البلاغيين المتأخرين ، ان أصبح حلية لفظية مثقلة بالزينة اذ عكف عليه الأدباء لتحسين ألفاظهم ، واندفع بعض المصنفين المتأخرين ، تبعاً لذلك ، إلى التأليف فيه ، فبالغوا في تقسيمه وتفريعه حتى أوصله بعضهم إلى ما يقارب الستين صنفاً[210]

وفي القرن الرابع – الذي شهد انتقال النثر الفني من الأسلوب المرسل إلى اسلوب التضيع الفني الذي قام على التوسع في فنون البديع ، والالتزام ببعضها كالسجع مثلاً – حيث اتيح للنثر الفني تبوّؤ فحول من الكتّاب ، ملكوا أزمّة البلاغة، وناصية البيان ، وعرفوا بسعة الثقافة ، وثراء اللغة ؛ فازدادت – تبعاً لذلك – معارفهم بفنون القول ، وأسرار جماله ، وبرعوا في ابتداع أساليب مبتكرة وتفتيق معان جديدة ، واستلهام صور ذهنية بعيدة ، أثرت البيان العربي ، وامدته بنسغ جديد من أفانين الصور والاخيلة وطرائق التعبير 0000

---

[207] اسرار البلاغة : 19/6 ، وينظر أيضاً : دلائل الاعجاز : 401 – 403 .

[208] اسرار البلاغة : 1 .

[209] ينظر : الايضاح : 384 .

[210] ينظر : كتاب جنان الجناس للصفدي ، بدلالة كتاب فنون بلاغية : 236 .

وكان من بين ما حظي بعناية أولئك البلغاء والفحول من الكتّاب في هذا القرن ، فن التجنيس ، اذ أصبح أدراجه ، مع فنون بلاغية أخرى كالسجع مثلا في ثنايا ترسلهم ، من أحصّ صناعة النثر الفني ، كما تجلى بوضوح مثلاً ، في رسائل الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، حتى ذهب اليزدادي إلى استخراج ما ابتدعه الأمير قابوس من أفانين البديع في رسائله – ولا سيما الجناس – فأوصلها إلى أربعة عشر لوناً[211]، وهذا ما حفزه إلى المبالغة في ان يدعي " ان هذه اللغة العربية قد عادت في نشأة أخرى بهذه الطريقة البديعة"[212]

وممن عني بحلية التجنيس من أدباء القرن الرابع أيضاً : ابو الفتح البستي الذي افتنَّ فيه كثيراً ، يقول الثعالبي منّوهاً بعناية البستي بهذه الحلية[213]: " صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس الانيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه (المتشابه) ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة " .

لقد اولع كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيراً بأنواع الجناس غير التام – او ما اصطلح عليه بعض علماء[214]البلاغة المعاصرين بالجناس الناقص – واتوا

---

[211] ذكر عبد الرحمن اليزدادي (في كمال البلاغة : 19 وما بعدها) هذه الالوان ، مع شرح نماذجها وهي : المجنح ، المتزاوج ، الممثل ، المبالغة ، ابداع القرائن ، المجانس المتضاد ، المتوأم ، المخلخل ، المردد ، المتشابه ، مشابه الصورة ، المعكوس ، ذو نوعين

[212] المصدر نفسه : 30 .

[213] يتيمة الدهر: 345/4 – 350 ، ويراجع أيضاً ما أخرجه الثعالبي من فصوله القصار ، ومن ألفاظه وأمثاله وما اشتملت عليه من غرر التجنيس في ادبه (اليتيمة : 348/4 وما بعدها) .

[214] ينظر : مثلاً ما ذهب إليه الأستاذ د. احمد مطلوب في (فنون بلاغية : 224) حيث قسم الجناس بصورة عامة ، إلى جناس تام (وهو الكامل او المستوفي) وهو ما اتفقت فيه – الكلمتان في اللفظ والوزن والحركة ، ولم يختلفا إلا من جهة المعنى – وهو عند ابن الأثير (المثل السائر 246/1) ما دل على حقيقة التجنيس لأن لفظه واحد لا يختلف – وجناس

منه بأنواع عديدة في ثنايا رسائلهم ، ولعل في مقدمة اولئك الكتّاب البلغاء الامير قابوس بن وشمكير ، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهما .

ومن انواع الجناس الناقص التي شاعت في رسائلهم مثلاً ، ما كانت الألفاظ المتجانسة فيها من جنس بعضها ، وقد سماه (اليزدادي) بالجناس المجانس[215]، ومما ورد منه في رسائل الامير قابوس ، قوله من رسالة له إلى خاله الاصبهبذ يعاتبه : "وكيف يعرض عمن تعرض رفاهة العيش باعراضه ، وتنقبض الارزاق بانقباضه ، واضاء نجم الاقبال اذا اقبل واهلَّ هلال الجدّ إذا تهلل[216]" .

وكقوله أيضاً في الرسالة نفسها : " 000 اين الطبع الذي هو للصدود صدود ، وللتآلف ألوف ودود[217] " ، فالصدود وصدود من جنس واحد ، وكذا التآلف وألوف . ومن علماء البلاغة من جعل لهذا اللون من الجناس اسماً غير الذي ذكرناه آنفاً ، فأطلق عليه (جناس الاشتقاق) ، ومنه ما جاء في رسالة لبديع الزمان إلى سعيد الإسماعيلي [218]: " 0000 فما ترك لي من فضة إلا فضها ، ولا ذهب إلا ذهب به ، ولا علق إلا علقه ، ولا عقار إلا عقره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ولامال إلا مال إليه ، ولا سيد إلا استبدَّ به ، ولا لبد إلا لبد فيه ، ولا بزة إلا بزها 00000" .

فقد جانس الهمذاني بين الفاظ مختلفة المعنى غير انها من اشتقاق واحد ، وجنس واحد ، ولا يخفى ما لهذا اللون من التجنيس من سحر الايقاع ، وجمال النغم وما أحدثه في موسيقى التراكيب من تقابل وتماثل تستفز المتلقي ، وتثير انتباهه 00

ناقص : ويأتي على انحاء مختلفة – وعدا ابن الأثير من هذا القسم ستة انواع : وصفها بأنها مشبهة بالقسم الأول ، وهو التام – (ينظر المثل السائد: 253/1وما بعدها)

[215] يقول في (كمال البلاغة :24) : " واما الجناس قسيمته به لأن اسمه مشتق من لفظ الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض " .

[216] كمال البلاغة : 54 .

[217] كمال البلاغة : 53 – 54 .

[218] زهر الاداب وثمر الاداب : 517/2– 518 .

ومن الوان الجناس الناقص التي تناثرت في رسائل هذا القرن أيضاً ، وبخاصة في رسائل الأمير قابوس ؛ ما أسماه 0(اليزدادي) ؛ بالجناس المتشابه[219].

ومما ورد منه في رسائل قابوس بن وشمكير ، قوله في رسالته إلى الاصبهبذ[220]: " 000 وهاجر بهجره واصرَّ على صرمه ، ومال إلى الملال ولم يصل نار الوصال " .

فجانس بين ألألفاظ (هاجر وهجره ، ومال والملال ، ولم يصل والوصال) ويلاحظ ان أحدى اللفظتين وقعت (فعلاً) ، بينما جاءت الثانية (اسما) .

ونظير ذلك أيضاً ، ما ورد في رسالة ابي اسحاق الصابي إلى الوزير المهلبي[221] : " وقد خدمت سيدنا بداوة تداوي مرض عفاته ، وتدوي قلوب عداته على مرفع يؤذن بدوام رفعته ، وبارتفاع النوائب عن ساحته" . فجانس الكاتب بين (مرفع ورفعته وارتفاع) وبين (دواة وتداوي وتدوي) ، وهي ألفاظ متجانسة في اللفظ ، وهي ليست من جنس اشتقاقها .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رسالة لأبي علي بن ابي الطيب الباخرزي[222]: " لا زالت معادن المعادين بصولته مروعة ، ومساكن المساكين بصلته مريعة 000" . فجانس بين (معادن والمعادين ، (ومساكن والمساكين) ، وهي أيضاً ليست من جنس اشتقاقها ، وقد أحدثت تقابلاً متناغماً ، وتعادلاً لا يخفى حسنه في الكلام .

---

[219] ذكر اليزدادي في سبب تسميته يقول : " فسميته به لوقوع الكلمات المتشابهة الالفاظ والحروف في القرينتين " : كمال البلاغة : 25 .

[220] كمال البلاغة : 57 .

[221] تحفة الوزراء : 112 .

[222] دمية القصر وعصرة اهل العصر : 369/2 – 370 .

ومن ألوان التجنيس الناقص التي وظفها كتاب الرسائل الأدبية في مكاتبهم أيضاً : ما كانت فيه الألفاظ المتجانسة متساوية في الوزن والصورة ، مختلفة في التركيب او التأليف بحرف واحد لا غير[223].

ومن نماذج هذا اللون من الجناس الناقص ، ما ورد في رسالة للأمير قابوس إلى ابي عبد الله ابن وندويه الكاتب[224]: " 000 اذا حالف ، فأحسبه قد خالف ، واذا اعار ، فأحسبه قد اغار " . فجانس الكاتب بين (حالف وخالف) ، وبين (أعار وأغار) ، وبين (احسبه واحسبه) وجميعها جاءت في صور واحدة ، وقد اختلفت في تأليفها بحرف واحد .

وكقوله أيضاً في رسالة له[225]: " التردد بين الرخاء والبأس ، والرجاء واليأس" فجانس بين لفظتي (الرخاء والرجاء) و (البأس واليأس) .

ومن هذا اللون من الجناس الناقص ما ورد في رسالة للصابي[226]: " وهو راتع رتعة النعم السائمة في اكلاء النعم السابغة " .فجانس أبو اسحاق الصابي هنا بين لفظتي (النعم ، والنعم) . ومنه أيضاً ما ورد في رسالة لأبي الفضل الميكالي إلى أبيه يهنئه[227]: " اعاد عهد السرور جديداً ، ورد طرف الحسود كليلا وقد كان حديداً " .فجانس بين لفظتي (جديداً وحديداً) .

---

[223] ينظر : المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر 254/1 ، وقد جعله ابن الاثير القسم الثاني من المشبه بالتجنيس ، بينما سماه اليزدادي – الذي لاحظ كثرة وروده في رسائل الامير قابوس – جناس (مشابهة الصورة) ، يقول : " فسميته به لتشابه صور الكلمات في الخط " كمال البلاغة : 25 .

[224] كمال البلاغة : 58 .

[225] المصدر نفسه : 21 – 22 .

[226] المختار من رسائل الصابي : 121 .

[227] زهر الآداب وثمر الألباب : 171/1 – 172 .

ومن هذا اللون من الجناس الناقص أيضاً ، ما ورد في رسالة لأبي علي الحسن بن ابي الطيب الباخرزي إلى بعض السادة يعاتبه[228]: " 000 واني لا افارق حضرته ، حتى يفارق الاس خضرته " فجانس بين (حضرته) و (خضرته) 00 ومثله كثير في رسائلهم 00

ومن ألوان التجنيس الناقص ، ما يساوي وزنه تركيبه ، إلا ان حروفه تتقدم وتتأخر ، وقد جعله ابن الأثير القسم السادس من المشبه بالتجنيس[229].

ومن نماذج هذا اللون من التجنيس ، ما ورد في فصل من رسالة للصابي[230]: " لم يدع في الأرض نظيراً يدانيه ، ولا قريناً يناديه 000" .

فجانس بين لفظتي (يدانيه و (يناديه) ، اذا جاءتا على وزن واحد وتركيب حروف متشابهة ، غير أنهما اختلفتا في ترتيب الحروف .

ونظيره أيضاً ما ورد في رسالة لأبي الفضل الميكالي إلى ابيه يهنئه[231]: "000 بما لم تزل الآمال تتنسم روائحه وتترقب غادي صنع الله فيه ورائحه ، واثقة بأن عادة الله الكريمة عنده تسايره ، وترافقه ، وتلزم جنابه فلا تفارقه 000"

فقد جانس ابو الفضل الميكالي في هذا الفصل من رسالته بين لفظتي 0(روائحه) و (ورائحه) ، وبين لفظتي (ترافقه) و (تفارقه) ، فأضفى هذا التقابل الجميل على جمله ايقاعاً متناغماً ، يتلمسه المتلقي بيسر عند قراءة النص او سماعه 00000

ومن الوان التجنيس الناقص التي لجأ إليها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن أيضاً ما عرف (بالجناس المعكوس) ، وقد عالجه الامير قابوس كثيراً في

---

[228] دمية القصر وعصرة أهل العصر 369/2 .

[229] ينظر : المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر : 263/1 .

[230] المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي : 104 .

[231] زهر الآداب وثمر الألباب : 171/1 –172 .

فصول رسائله الأدبية . يقول اليزدادي مشيراً إلى سبب تسميته[232]: " فسميته به لأنعكاس الألفاظ في القرينتين باختلاف المعنى " .

ومن نماذج ما ورد من الجناس المعكوس في فصول رسائل الامير قابوس ابن وشمكير ، ما ورد في رسالته إلى ابن وندويه الكاتب[233]: " شيمته رفع الخامل الوضيع ، ووضع الفاضل الرفيع 0000" .

وكقوله أيضاً في فصل من رسالة أخرى[234]: " فاعلم انه لا يسوء في ما يسرك ، ولا يسرني ما يسوءك ، واني لا اكره ما تحبه ، ولا أحب ما تكرهه " .

ومن صور التجنيس المعكوس أيضاً ما ورد في رسالة أبي الفتح المحسن ابن إبراهيم ، اذ كتب في وصف يوم بارد[235]: " هذا يوم يحمد جمره ويجمد خمره ، ويخف فيه الثقيل إذا هجر ، ويثقل الخفيف اذا هجم000 " .

فقد جانس الكاتب بعكس الألفاظ (يخف الثقيل) ، و (يثقل الخفيف) .

ومن نماذجه أيضاً ما ورد في فصول الأديب ابي الفتح البستي القصار التي جرت مجرى الحكم والعبر السديدة ، من ذلك قوله[236]: " عادات السادات ، سادات العادات " .

وقد ذكر هذا اللون من التجنيس ضياء الدين ابن الأثير ، وجعله على ضربين : احدهما – عكس الألفاظ : وهو ما مثلنا لنماذجه في الشواهد النثرية الآنفة والآخر – عكس الحروف : وهو من ضروب التجنيس النادرة[237].

---

[232] كمال البلاغة : 26 .

[233] المصدر نفسه : 58 .

[234] المصدر نفسه : 22 .

[235] خاص الخاص : 13.

[236] يتيمة الدهر : 348/4 .

[237] تراجع التفاصيل في : المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر: 260/1 وما بعدها .

ومن ألوان التجنيس الناقص التي شاعت في رسائل بلغاء الكتّاب في هذا القرن أيضاً : ما كانت الألفاظ فيه مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد ، وقد جعله ابن الأثير القسم الثالث من أقسام المشبه بالتجنيس [238].

من ذلك مثلاً ما ورد في رسالة للصابي يعرّض فيها بالمتنبي[239]: " فلما صار بدير العاقول ، عقلته فيها جرائره ، وحجرت المنية بينه وبين الأمنية " . فجانس بين لفظتي (المنية والأمنية) وقد اختلفتا وزناً وتركيباً بزيادة الهمزة .

ونظيره ما ورد في رسالة لقابوس الى ابن العميد يعزيه :[240]: " اذا كان كذلك فالتهالك فضل على كل هالك " . فجانس بين (التهالك) ، و (هالك) .

ومن بدائع ما ورد من هذا التجنيس قول ابي الفتح البستي في بعض حكمه[241]: " عسى تحظى في غدك برغدك " : فجانس بين (غدك) و (رغدك) .

وكقول ابي الفضل الميكالي في بعض فصوله القصيرة[242]: " فلو استطاع قلبي سعى إليه أعناقاً ، والتفت عليه عناقاً " . فجانس بين (اعناقاً) ، و (عناقاً) .

وهذا اللون من التجنيس الناقص كثير جداً في رسائل بديع الزمان ؛ من ذلك ما ورد منه في رسالته إلى الشيخ الاسفراييني [243]: " اني لا اعدم في كنفه المال ، وابلغ في دولته الآمال " . فجانس بين لفظتي (المال) و (الآمال) .

وفي كل هذه الشواهد التي قدمناها لهذا اللون من الجناس الناقص ، يتلمس القارئ ما فيها من تقابل في الإيقاع ، وتناسب في النغم ، مما يضفي على النص او الكلام جمالاً ورونقاً 00

---

[238] المصدر نفسه : 255/1 .

[239] المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي : 35 .

[240] كمال البلاغة : 40 .

[241] يتيمة الدهر : 349/4 .

[242] يتيمة الدهر : 410/4 .

[243] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 15 .

اما الجناس التام[244]فقد اختلف بعض علماء البلاغة القدامى في تسميته او نعته ، فابن رشيق القيرواني (ت 456هـ) جعل التجنيس ضروباً كثيرة ؛ منها (المماثلة) ، وعني بها الجناس التام ، والمماثلة عنده : " ان تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى[245]. بينما مسماه (ابن الأثير) ت637هـ بالتجنيس(الحقيقي) ، وذكر انه ما كان اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً ، ثم ذكر يقول : " وعلى هذا فأنه هو اللفظ المشترك ، وما عداه فليس من التجنيس في شيء "[246] .

لقد كان الجناس التام اقل شيوعاً في رسائل بلغاء الكتّاب من قسيمه الناقص في هذا القرن ، ولعل مرد ذلك إلى ما يحققه (الناقص) من إيقاع يفوق نظيره (التام) ، فضلاً عما يبعثه من استفزاز المتلقي ، واثارة نشاطه وانتباهه .

ولا يحسن هذا اللون من الجناس أيضاً ، إلا ما جاء منه عفو الخاطر ، او ما يستدعيه المعنى وظرف المقام ، من هنا فقد جاءت بعض استخداماته في رسائل الكتّاب ابان هذا القرن ، سمجة او متكلفة ، يبين عليها سمة الرثاثة والغثاثة 00 من ذلك مثلاً ما ورد في فصل من رسالة لأبي بكر محمد بن احمد اليوسفي[247]: "الشوق الذي اقاسي يصدع الحجر القاسي ، والذي مر برأسي يهد الجبل الراسي ، من نواكب أوهت المناكب ، وعوارض شيبت العوارض ، ومحن عظام أثرت في العظام ، وللأنام دول متعاقبة ، وللصبر الجميل عاقبة " .

---

[244] اطلق طائفة من علماء البلاغة المعاصرين هذا المصطلح على الجناس الذي تتفق فيه اللفظتان لفظاً وتختلفان معنىً ، . ينظر : فنون بلاغية : 224 ، حيث قال المؤلف : " الجناس التام او الكامل او المستوفي هو ان تتفق الكلمتان في لفظهما ووزنهما وحركاتهما ولا يختلفان إلا من جهة المعنى " .

[245] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : 503/1 .

[246] المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر : 246/1 .

[247] تتمة يتيمة الدهر : 210/5 .

ومما اخذ على أبي إسحاق الصابي ، قوله في بعض فصول رسائله[248]: " فشهرت بمدينة السلام ، واعز بذلك الإسلام"[249].

ومن صور الجناس التام ، ما ورد في فصل من رسالة ابي علي الباخرزي[250]: " فالكريم مرتجى ، وان يلف بابه مرتجا ، والنفس موقنة بأن ستسر بهلال طلعته ، وان استسر " . ومما يستساغ من حلي هذا اللون من الجناس ما ورد في بعض فصول ابي الفتح البستي[251]: " من لزم السلم سلم " . ونظيره في جمال الإيقاع ؛ قول اليوسفي[252]: " أراني الله بها أهلاً ، كانوا للفضل أهلاً " .

وفضلاً عما تقدم ، فإن كثيراً من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، لم يكن يقتصر على استخدام حلي السجع او الازدواج أو التوازن او التجنيس لإضفاء التناغم الجميل أو الإيقاع المناسب على موسيقى جمله وتراكيبه ، وإنما لجأ كثيرً منهم أيضاً إلى استخدام الجمل القصيرة الموقعة ، والتقطيعات الموسيقية المتقابلة والمتناسبة الطول ، بحيث ظهر فيها بوضوح عنصر التناغم الذي قد يقترب معه النثر إلى سمات الشعر وعذوبته وموسيقاه .

ومن نماذج تلك التقطيعات الموسيقية الرقيقة المتقابلة ، ما يطالعنا في هذا الفصل من رسالة ابي حيان إلى صديقه ابي الوفاء المهندس ، ويلاحظ قصر الجمل ، وتقابل الفواصل [253] : " أيها الكريم ، أرحم ، والله ما يكفيني ما يصل إلى في كل شهر من هذا الرزق المقتر الذي يرجع بعد التقتير والتيسير إلى اربعين درهماً ، مع هذه المئونة الغليظة ، والسفر الشاق ، والأبواب المحجبة والوجوه المعطبة ، والأيدي المسمرة ، والنفوس الضعيفة ، والأخلاق الدنيئة 0000" .

---

[248] ينظر : أبو إسحاق الصابي ، حياته وادبه : 232 .

[249] المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي :82 .

[250] دمية القصر وعصرة أهل العصر : 369/2 .

[251] يتيمة الدهر :249/4 .

[252] تتمة يتيمة الدهر : 210/5 .

[253] الإمتاع والمؤانسة:227/3 .

وهكذا يتضح عمق الكاتب وبلاغته وسحر أدائه ، من خلال ترادف هذه الجمل القصيرة ، التي ظللتها توقيعات موسيقية عذبة ، أضفت على فصل هذه الرسالة إيقاعاً جميلاً متناغماً ، فضلاً عما تحقق في النص من جلاء الفكرة ، وتشقيق المعنى وتوضيحه 000

ونظير ذلك أيضاً ، ما يطالعنا في فصل جميل لأبي الفرج الببغاء اذ يقول[254]: " لم أر أحسن من وجه المحسن ، واقبح من وجه البخيل ، وأقضى للحاجات من الدرهم ، وأثقل من أجرة المنزل ، وأجفى من الدهر ، واطيب من الانس ، وآنس من الكتب ، وأشد من حرب البحر " .

وهكذا يصل الباحث إلى حقيقة مهمة ، تلك هي : ان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن – بما امتلكوه من سعة الثقافة ، وثراء اللغة ، وبما تأثروا به من روافد الحضارة وسيولها الزاخرة – قد افتنوا كثيراً في إضفاء ارق التلاوين الإيقاعية ، وأعذب الحلي الموسيقية على جملهم وعباراتهم ، ليجلّوا عن أفكارهم ويفصحوا عن معانيهم بأجمل الصور النغمية ، وارق الأساليب التعبيرية .

---

[254] خاص الخاص – الثعالبي :41 .

المبحث الثاني

خصائص المحتوى والمضمون

سبقت الإشارة ، في المبحث الأول من هذا الفصل ، إلى أن (المضمون) هو جوهر العمل الأدبيّ ، أو الأساس فيه ، وطبقاً لذلك ، فان هذا الجزء الحيوي هو الذي يحفز الأديب الفنان لخلق عمله الإبداعي أو إنشائه ...

وقديماً ، عدَّ الفيلسوف أرسطو الموضوع ، إلى جانب الدليل ، أحد جزئي الكلام الأساسية ، ذكر يقول [1] : " الكلام يتضمن جزئيين ، إذ لابدَّ من ذكر الموضوع الذي نبحث فيه ، ثم بعد ذلك نقوم بالبرهنة ... ذلك أنّهُ حين نبرهن إنما نبرهن على شيء ، ولا نذكر الشيء إلا من اجلّ البرهنة عليه " .

وهكذا وضع أرسطو – وهو ينظِّر لأجزاء الكلام في الخطبة – الموضوع (المضمون) ضمن أولوية أجزاء الكلام ، ولذا فأنّهُ رأى أن هذا الجزء الجوهري يجب أن يقرن بالأدلة لتوكيده وإثباته ، ورأى أيضاً أنّهُ غالباً ما يمهّد له لإيضاحه ، وغالباً ما يعنى أيضاً بوضع خاتمة له لإيجازه وتحديد أبعاده .

وعلى الرغم من أهمية المضمون في العمل الأدبيّ ، إلا أن كثيراً من الفلاسفة والنقاد القدامى والمعاصرين – كما حلَّلنا ذلك في مستهل المبحث الأول من هذا الفصل – ذهبوا إلى اتحاده وتمازجه مع سائر عناصر العمل الأدبيّ وعدم إمكانية الفصل بين المضمون – المعنى وما يُحيطُهُ من عواطف وصور تجسّد ذلك المعنى – وبين الصياغة الفنية – الأسلوب أو الشكلّ – أي ديباجة النصّ الفنيّ وألفاظه وتراكيبه ، وما يتخللّها من موسيقى وإيقاع .

---

[1] الخطابة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي :234.

فالشكلّ والمضمون هما مظهران اصطلاحيان لجوهر التجربة الأدبية ولا يمكن الفصل أو المفاضلة بينهما وفق مقياس حسابي تجريديّ ، كما يبدو ذلك للوهلة الأولى [2].

ولعلّ ما يؤكد هذه الحقيقة التي أجمع عليها الكثير من أولئك الذين وقفوا عند هذا الموضوع ، أننا نرى أن (المفردة اللغوية) التي هي أصغر لبنة في لغة العمل الأدبيّ ، تبتعد عن كونها مجرد وسيلة للتعبير ، وأداة للتخاطب ، وإنما تكاد تصبح – إلى جانب هذا كلّه – غاية في ذاتها ، إذ يحرص الأديب على أن تكون لغته مأنوسة موحية رائعة ، وتنطوي على قدر كبير من الطرافة والجمال [3] .

ومن جانب آخر ، فان جدية ما يتناوله الأديب الفنان في عمله الإبداعي من قضايا مهمة وجسيمة ، يجعل للمعاني والأفكار والآراء أهمية بالغة من حيث الطرافة والعمق والابتكار ، جديرة بان تعرض في صور مناسبة وألفاظ مأنوسة ؛ ليحقق العمل الأدبيّ الإمتاع والتأثير .

ولما كانت التجربة الأدبية (الإبداعية) التي تمثلت بالرسائل الأدبية في هذا القرن – بوصفها مظهراً أدبياً وحضارياً ترتبط بالبيئة ، وتتأثر بأحوال المجتمعات الإسلامية الخاصة ، فضلاً عن أنّهُا تُعبّرُ عن جمهور المتلقين ،وذات الأديب الكاتب نفسه –فقد اقتضى منهج هذا البحث أن احلّل محتوى الرسائل الأدبية ، وأردَّ مضامينها إلى ثلاثة محاور مهمة متصلة هي :

(المحور الأول) :

المعاني والأفكار : وسيتكَّفلُ الباحث في هذا المحور الكشف عن أهمية المعنى وقيمته في رسائل الكتاب أبان هذا القرن ، وسيجلّي البحث هنا عن حقيقة مهمة ، تلك هي أن عناية الكتاب بألفاظهم وموسيقى تراكيبهم وانكبابهم

---

[2] ينظر : الشكلّ والمضمون في الشعر العربي المعاصر – أ.د. عناد غزوان : 8 (بحث علمي منشور ضمن كتاب الشعر والفكر المعاصر .(سلسلة كتاب الجماهير) منشورات وزارة الإعلام – بغداد 1974.

[3] ينظر كتاب : ملامح النثر العباسي : 280–281.

على تزويق أساليبهم كان بدافع عنايتهم بمعانيهم ،وجلاء أفكارهم ، فضلاً عما كانوا يسعون إليه في هذا الجانب من ابتكار المعاني والتجديد فيها وتوليدها .

(المحور الثاني) الأخيلة والصور :

وسيجلّى البحث في هذا المحور أيضاً عن حقيقة مهمة – فضلاً عن قيمة الخيال ، وأثره المهم في العمل الأدبيّ لكونه جزءاً من المضمون الذي يشكلّ جوهر النصّ الأدبيّ – تلك هي أن كتاب هذا القرن قد برعوا كثيراً في الوصف ، وافتنوا في خلق صور حسيّة وذهنية بعيدة ،سعياً وراء ابتكار المعاني وتوليدها ، فضلاً عن جلّاء الأفكار وعرضها ...

(المحور الثالث) الانفعال أو العاطفة الأدبية :

وسيكشف البحث في هذا المحور عن أثر العاطفة الأدبية – بوصفها إحساساً ذاتياً – في رسائل هذا القرن ، وتوجيه لغتها الأدبية ،وما أضفته على أجوائها من جمال فني لاسيما حين تظّلُ أجواء تلك النصّوص عواطف صادقة قوية تتسمُ بالعمق والشمول الإنساني ، وحين تكون أيضاً متدفقة منسابة ، غير متكلَّفة أو مصطنعة ...

***

المحور الأول : المعاني والأفكار :

المعنى : ركن مهمّ من أركان العمل الأدبيّ ، وعليه يتوقف نجاح الأديب أو إخفاقه في عمله الإبداعي ، فعلى قدر ما يوفّرهُ الأديب لمعانيه من عمق ووضوح وابتكار – فضلاً عن الإحاطة بالموضوع الذي يجول فيه وتوفير ما يوائمه من جزئيات المعاني – فأنّهُ يحقق لنتاجه الأدبيّ الكمال والخلود والشمول الإنساني – وكثيراً ما تخبو جذوة بعض الأعمال الأدبية ، أو تفقد رونقها أو طلاوتها فلا تكتسب الشهرة والخلود لضحالة معانيها أو لافتقارها إلى الأصالة والوضوح .

وفي القرن الرابع أصبحت (المعاني) جانباً مهماً آخر مما عني به بلغاء الكتاب ، إلى جانب عنايتهم بالبناء الفني ، والصياغة الشكلّية لنصوص رسائلهم الأدبية ، كما مرَّ بنا آنفاً في المبحث الأول من هذا الفصل ، إذ لم تقتصرْ عناية أولئك الكتاب البلغاء على الألفاظ والتراكيب ، وتهذيبها ، والحرص على جرسها وموسيقاها ، أو رصانة بنائها ، وإنما عنوا أيضاً بالمعاني والأفكار، وافتنوا كثيراً في جدتها وأصالتها ودقتها ووضوحها ...

ولعلّ عناية كتاب هذا القرن بحلي السجع وألوان البديع الأخرى ،وحرصهم على تزويق ألفاظهم وتراكيبهم ، ومبالغتهم في تدقيق حواشيها ، وصقل أطرافها ، يعكس بوضوح عناية الأدباء الكتاب بالأسلوب ،وصياغة الشكلّ ؛ خدمة للمعاني ؛ لأنّهُم أدركوا أنّ المعاني الشريفة الجلّيلة قد يشوهها عرضها في معرض غير حسن ، أو قد يشوبها الكدر إذا لم تُعرض في صورة جميلة .

ولعلّ أبا هلال العسكري (ت 395 هـ) لم يجانب الصواب حين حدَّ البلاغة – وهي فنُّ القول – بأنّهُا : " كلّ ما تبلغ به المعنى قلب السامع ...مع صورة مقبولةٍ ومعرض حسن ".[4]

وهكذا جعل هذا الناقد (حسن الصورة ، وجمال المعرض) شرطاً في بلاغة القول لان الكلام إذا كانت عبارته رثة ، ومعرضه خلقاً لم ينعتْ بالبلاغة ...

وقد أدرك بلغاء الكتاب في هذا القرن أيضاً ، أن المعاني أشرف قدراً، وأكرم موقعاً ،واقرب إلى نفوس المتلقين من سواها من عناصر العمل الأدبيّ وأركانّهُ ، ولعلّ هذا ما يُفِسرُ كلَّف الشعراء والكتاب في هذا القرن باقتناص أَبكار المعاني ، وتباريهم في توليدها وابتكارها ، لسحر تأثيرها في المتلقي ، ومن جانب آخر ، فقد عني بلغاء الكتاب بالألفاظ ، وموسيقى التراكيب ، لأنّهُما واجهة المعاني وعنوانهما وأنهُما الوسيلة المهمة لإظهار مقاصدها .

---

[4] كتاب الصناعتين :10 (تحقيق الأستاذين البجاوي وأبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية)

وقد أكد هذه الحقيقة الناقد ابن الأثير (ت 637 هـ) فقد ذكر في معرض تحليله للصناعة المعنوية يقول [5] " ....فالعرب إنما تحسّنُ ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها ، فالألفاظ إذا خدم المعاني ، والمخدوم لا شكَّ أشرف من الخادم ،فاعرف ذلك وقس عليه " .

وإذا كانت المعاني – كما صرّح أبو عثمان الجاحظ(ت 255 هـ) – " مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية ..."[6] فان بلغاء الكتاب في هذا القرن ، قد ملكوا أزمّتها وأدركوا غايتها ، وانفسح أَمامهم – لما امتلكوه من ناصية البيان واللغة وقوة المخيلة – عوالمها الفسيحة فراحوا يحلّقون بعيداً في مدارجها ويغترفون كلَّ ما يرومونه منها دون مشقة أو عناء ...

وهكذا نصلُ إلى حقيقة مهمة ، تلك هي أن عنصر (المعنى) في رسائل الكتاب البلغاء . إبان هذا القرن كان من الأمور المهمة التي منحت هذا الفن الأدبيّ الأصالة والإبداع ، وأضفت عليها ظلالاً وارفةً من الجمال والفن ، وجعلت الرسائل الأدبية فناً راقياً يستثير المتلقي ويوقظ مشاعرهُ وأحاسيسه ويستفزّهُ للانفعال مع فصوص فصولها الأنيقة .

وكان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن – إلى ذلك كلَّه – ونتيجة لعنايتهم بمعانيهم ، يحشدون للموضوع الواحد في رسائلهم الأدبية بخاصة ألواناً عديدة من المعاني الحسيّة والذهنية المتنوعة ، وتكمن براعتهم وعبقريتهم أيضاً في إدراكهم المتميز للصلة بين الموضوع الذي يعالجونه ، والمعنى الذي يشكلَّ جوهره ، فضلاً

---

[5] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 1/ 355 (المقالة الثانية – في الصناعة المعنوية)

[6] البيان والتبين :76/1 (الناشر مكتبة الخانجي – الطبعة الخامسة – مصر 1405 هـ / 1985) ومن المناسب أن نشير هنا إلى ما ذكره الناقد ابن الأثير من أن حكماء اليونان أو ل من قام بحصر أصول المعاني الخطابية ، غير أن ذلك الحصر كان كلّياً لا جزئياً ثم أشار إلى استحالة حصر جزئيات المعاني ، وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها . (تراجع التفاصيل في : المثل السائر :1/ 310 وما بعدها) .

عن عمق الصلة بين المعنى واللفظ ، كما المحنا إلى ذلك في دراستنا لموسيقى الألفاظ والتراكيب في المبحث السابق من هذا الفصل .

وعندما يحاول الباحث ان يستجلّي معاني الأدباء الكتاب أبان هذا القرن في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية ، فأنّهُ يستوقفه فيها الملامح الفنية أو الخصائص الأسلوبية الآتية :

1)الإبانة والوضوح :

ما من ريب في أنّ الدقة والوضوح في التعبير الأدبيّ من أدق أو صاف الكلام البليغ ،وقد أكد بعض النقاد ، أنّهُ ليس من باب البلاغة الإغراب في اللفظ، والتعمق أو التعقيد والمعاظلة في المعاني ، وعنده أَنَّ أفصح الكلام ، ما أفصح عن معانيه ولم يحوج السامع إلى تفسير له [7]

وقديماً ، عدَّ الفيلسوف أرسطو [8] الوضوح من أهم مزايا الأسلوب ، ورأى أنّ الكلام إذا لم يجعل المعنى واضحاً ، لا يؤدي وظيفته الخاصة ، ورأى كذلك أنّهُ ينبغي ألاّ يكون وضيعاً ولا فوق مكانة الموضوع بل مناسباً له

وقد سبقت الإشارة إلى أَنَّ أغلب معاني كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كانت ترتبط بالموضوعات التي عالجوها في رسائلهم ارتباطاً وثيقاً ، وكانت العلاقة بينهما كعلاقة الكلَّ بأجزائه المختلفة ، ومن هنا فقد التقى جلّ كتاب الرسائل الأدبية إبان هذا القرن ، فيما طرقوه من المعاني الواضحة ، ليوفروا على القارئ أو المتلقي إدراك فحوى ما تناثر في رسائلهم الأدبية من معان وأفكار بيسر ، ودونما عناء ، " لأنَّ الكلام إنما وضع ليعرف به السامع مراد القائل " [9].

لقد لجأ كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن – بوصف أنّ الرسائل تعبيراً قولياً بالألفاظ والجمل – إلى تخيّر ما يرونه في تلك الألفاظ من وضوح وقوة تأثير

---

[7] ينظر : نقد النثر : 105 ، وذهب المؤلف إلى أن الفصيح من الكلَّام ما أفصح عن المعنى، والبليغ ما بلغ المراد .

[8] الخطابة : 196 (المقالة الثالثة).

[9] نقد النثر : 105.

ليحملوها الأفكار والمعاني التي يرغبون بإيصالها إلى المتلقين ؛ تحقيقاً لما يسعى إليه الكتاب البلغاء في رسائلهم الأدبية – بوصفها ضرباً من الفن – من التأثير والإمتاع ،وإدراكاً منهم أيضاً أنّهُ بغير هذا الوضوح لا يستطيع المتلقي إدراك المعاني التي يبسطونها في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية .ولعلّ هذا الأمر هو الذي دفع جلّ الأدباء الكتاب في هذا القرن إلى أن يلجأوا في رسائلهم الأدبية إلى وسائل أسلوبية أو طرائق تعبيرية عديدة مختلفة ، لتحقيق هذا الوضوح في معانيهم ، وجلّاء أفكارهم ،لعل أهمها ما يأتي :

أ) الطباق أو التضاد :

الطباق :من المحسنات البديعية المعنوية ، وهو من الفنون التي تؤدي إلى إيضاح المعنى وتقريب الصورة [10]. وقد جعله الأديب الناقد ابن المعتز (ت 296 هـ) اللون الثالث من محاسن الكلام [11]، بينما عدَّهُ الناقد قدامه أبن جعفر (ت 337 هـ) من نعوت المعاني وأطلق عليه تسمية (التكافؤ) [12] وأراد به أن يصف الشاعر أي معنى كان فيأتي بمعنيين متكافئين (أي متقابلين) إما من جهة التضاد أو السلب والإيجاب ، أو غيرهما من أقسام التقابل [13].

أما ابن الأثير (ت 637 هـ) فقد سماه (البديع) ، ورأى أن الأليق ، من حيث المعنى ، أن يسمى (المقابلة) وعدَّهُ أيضاً من فنون المعنى ،وهو ضدّ التجنيس في اللفظ [14]

***

---

[10] ينظر : فنون بلاغية : 275 ،وتراجع التفاصيل فيما ساقة المؤلف من اختلاف النقاد وعلماء البلاغة في حدّه ،وتسميته وأقسامه : 269 وما بعدها .

[11] ينظر كتاب البديع : 26 (ط كراتشكوفسكي – لندن 1935م).

[12] ينظر : نقد الشعر : 147 وما بعدها (طبعة دار الكتب العلمية – بيروت . تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي) .

[13] المصدر نفسه : 147–148.

[14] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 279/2.

لقد عني كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيراً بالطباق إلى جانب حلي البديع والزخارف البلاغية الأخرى ، ولم يكن اهتمامهم بهذا اللون البديعي لتجميل المعنى أو تحسينه فحسب ، وإنما أدركوا أيضاً ما لوقعه في ترسلهم من وضوح للمعنى وتبريزه ، فضلاً عن قوة الدلالة وشدة التأثير في السامع أو المتلقي لائتلاف المعاني المتضادة ، وتواؤمها واجتماعها في الكلام ، ولذلك قال الشاعر [15].[من الكامل]

ضدّانِ لّما استُجمعا حُسنا والضدُّ يظهرُ حسنهُ الضِّدُّ

لقد شاع استخدام الطباق في رسائل جلّ كتاب هذا القرن حتى لا تكاد تخلو منه رسالة من رسائلهم الأدبية على كثرتها وتنوع موضوعاتها ، ولعلّ أكثرهم اهتماماً به واستخداماً له في رسائلهم بخاصة ،؛ أبو بكر الخوارزميّ وأبو حيان التوحيدي . يقول أحد الباحثين مؤكداً اهتمام الخوارزميّ بالطباق وشيوعه في رسائله[16] : " انصب اهتمام الخوارزميّ على الطباق أكثر من غيره من المحسنات الأخرى ...ولعلّ مردّ ذلك يعود إلى رغبته في تبريز معانيه وإظهارها قوية الدلالة ، شديدة التأثير ، ففضيلة الكرم تستمدّ عناصر قوتها من خساسة البخل والشح ، وفضيلة الشجاعة والمروءة تستمدّ عظمتها من صفة الجبن والذلة والخضوع ".

وقديماً ألمح أبو منصور الثعالبي (ت429هـ) إلى شيوع حليه الطباق في فصول رسائل أبي بكر الخوارزميّ واهتمامه به حين أو رد فصلاً من رسالة له تزخر بالطباق ، وموشى أيضاً بفنون بديعية أخرى ، فوقف متعجباً ومشيداً بأسلوبه إذ قال [17]:

---

[15] ينظر : فنون بلاغية : 275.

[16] أبو بكر الخوارزميّ حياته وأدبه : 302.

[17] كتاب خاص الخاص : 13.

"لم أقرأ في كتاب فصلاً أحسن وأظرف من قوله : (قد أراحني الشيخ ببرّهِ ، بل أتعبني بشكره وخفّف ظهري من ثقل المحن ، لا بل أثقله بأعباء المنن، وأحياني بتحقيق الرجاء ، بل أماتتي بفرط الحياء ، فاني له رقيق ، بل عتيق، وأسيرٌ بل طليق ".

وهكذا يلاحظ في هذا النصّ الطريف كثرة تقابل الألفاظ المتضادة فضلاً عن ترشيح الطباق بحلية السجع مما زاده حسناً وجمالاً ، فضلاً عما حقّقهُ من ترسيخ المعنى وشدة وضوحه [18].

وللخوارزمي أيضاً في فصل بليغ من رسالة جوابية إلى بعض الوجهاء [19]"....واني لأكره الودَّ يعمره التلاقي ويخربه التنائي ، وابغض الصديق يضيع مقاليد البغض والحب في يدي البعد والقرب " .

واشتهر أبو حيان التوحيدي أيضاً بأنهُ كان يزاوج في أسلوبه بين التلاوين العقلية ، وبين الحرص على عنصر الإيقاع وحلاوة الموسيقى في كثير من فصول ترسله وفقرات نثره الفني ، وكان كثيراً ما يلجأ إلى التضاد والتقابل في نثره ليس بحثاً عن الزخرف اللفظي أو سعياً وراء تزويق كلَّامه وإنما كان يجنح إلى التضاد وتكثيفه في فصوص فصوله سعياً إلى جلّاء الفكرة وإيضاح المعنى.

كتب في رسالته الجوابية الشهيرة إلى صديقه القاضي أبي سهل علي بن محمد يبرّر فعلته بإحراق كتبه [20].

---

[18] لقد ذهب بعض علماء البلاغة المتأخرين إلى وجوب ترشيح الطباق بنوع آخر من حلي البديع ليكتسب جمالاً وبهاء . يقول ابن حجة الحموي : " والذي أقوله : إن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد وهو شيء سهل ، اللّهم إلا أن تترشَّح بنوع من أنواع البديع تشاركه في البهجة والرونق (ينظر :خزانة الأدب وغاية الإرب : 71 " ط القاهرة 1304هـ).

[19] رسائل أبي بكر الخوارزميّ : 260.

[20] معجم الأدباء :15/ 16.

" وأجاراً جميعاً مما يسوّدُ وجهَ عهدٍ إنْ رعيناهُ كنّا مستأنسينَ به ، وإن أهملناهُ كنّا مستوحشين من أجلّه .."

فطابق التوحيدي بين لفظتي (رعيناهُ وأهملناهُ) وبين لفظتي (مستأنسين ومستوحشين) وكلَّ لفظتين متضادتين من جنس وأحد .

وكتب أبو حيان أيضاً في رسالته إلى صديقه أبي الوفاء المهندس [21]:

"....حتى أملك بهما ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذي قد أشبع كلَّ جائعٌ وكسا كلَّ عار ، وتألّف كلَّ شارد ،وأحسن إلى كلَّ مسيء ، ونوَّه بكلَّ خامل، ونفَّق كلَّ هزيل ، واعزَّ كلَّ ذليل " ، ثم يقول أيضاً [22]: " واللهِ إن الوزير مع أشغاله المتصلة ، وإثقاله الباهظة ... رحيمٌ بكلَّ غادٍ ورائح ، ولكلَّ صالح وطالح ....ولكَّنك مقبلٌ كالمعرِض ، ومقدم كالمؤخر ، وموقدٌ كالمخِمد ."

وقد علّ بعض الدارسين والنقاد المعاصرين شيوع ظاهرة الطباق والمقابلة في ترسل أبي حيان وبعض فصول رسائله الأدبية ، فأرجعه إلى اضطراب حياته وتقلّبها بين النشاط والتكاسل ، وبين القوة والضعف ، وبين القدرة والعجز . ثم يقول [23]: " وهو حين يكثر في أسلوبه من ألفاظ الازدواج والمقابلة إنما يكشف عن شخصية تحيا على التناقض والمفارقة ، وتحاول دائما أن تجمع بين الأقطاب المتعارضة " .

****

وفي فصل من رسالة لأبي الفصل ابن العميد إلى بعض لداتهِ ، يتضحُ بجلّاء كيف استطاع أن يوظّف التضاد والمقابلة ، مع ترشيحه بحلي البديع الأخرى ، فضلاً عن توازن الجمل وقصر الفقرات ، لجلّاء معانيه ، وبناء أفكاره ، حتى

---

[21] الإمتاع والمؤانسة :3/ 226.

[22] الإمتاع والمؤانسة : 229/3.

[23] أبو حيان التوحيدي ، د. زكريا إبراهيم : 137.

لتستقيم مع انتهاء الألفاظ المتقابلة بين كلَّ قرينتين دقة الفكرة وعمقها ، وسدادها ، ومما ورد فيها [24] :

"قد قُربَ – أيدك الله – محُّلك على تراخيه ، وتصاقبَ مُستقرّك على تنائيه ، لأنَّ الشوق يمثِّلكَ ،والذكر يُخَّيلكَ ، فنحن في الظاهر على افتراق ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون ، وانْ تفارقتِ الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح ".

وتكاد حلية الطباق تشكلَّ – إلى جانب السجع – اللون البديعي الغالب على ترسل أبي إسحاق الصابي ، حتى ليروعَ المتلقي أحياناً كثيرة ، قوة جرسه ، وشدّة وقعه ، وقد يتهيّأ للقارئ أيضاً ، انّهُ ليس في وسع هذا الكاتب البليغ أن يتخلّى عن ممارسة إدراجه في ترسله ، فهو يمتزج بالنفس الموسيقي الذي كثيرا ما كان يحرصُ عليه الصابي ، فضلا عن انّهُ يشكلَّ أساس المعنى في نصّ الرسالة .

كتب في فصل من رسالة له [25] " .....ورافعُ الحقِّ ومُعليه ، وقامعُ الباطل ومُرديه ، ومعزّ الدين ومُديله ، ومُذلّ الكفرو مزيله ، المنزل رحمته على من جاهد في طاعته ، المحلّ سطوته بمن جاهر بمعصيته " .

ويشيعُ التضاد كثيرا في فصول رسائل أبي الفضل الميكالي أيضاً ، وكثيرا ما كان يتخذهُ أداةً لإيضاح معانية وبسطها ، وجلّاء أفكاره وتسلسلها ، ومن نماذج التضاد التي اعتمدها أبو الفضل الميكالي لإيضاح جانب من معانيه ما ورد في فصل من رسالة له في الشكوى [26]:

" إنما أشكو إليك زمانا سلب ضعف ما وهب ، وفجع بأكثر مما أمتع، وأوحش فوق ما آنس ، وعنف في نزع ما ألبس ، فانّهُ لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرَّعنا مرارة الفراق ..." .

---

[24] خاص الخاص : 14.

[25] المختار من رسائل الصابي : 64-65.

[26] زهر الآداب وثمر الألباب : 1204/4.

وهكذا يمكن – من خلال استقراء ما بأيدينا من رسائل الكتاب في هذا القرن – أنْ نذهب إلى أن معاني أكثر الأدباء الكتاب ، قد اتسمتْ بطابع الوضوح ، واستخدام الألفاظ الرقيقة للتعبير عن تلك المعاني الواضحة ، فضلا عن عنايتهم بالمحسنات البديعية التي كانت تضفي على المعاني جمالا وألقاً واضحين ، في حين نتلمَّسُ في نتاج طائفة أخرى من كتاب الرسائل الأدبية ، ميلا واضحاً إلى جزالة الألفاظ وقوة المعاني ، ومحاولة نحت لغتهم بقوة ، بحيث إنّهُا تدلُّ على معانٍ قوية فخمة ، وهذا بلا شكّ نابع عن ميلْ أولئك الأدباء الكتاب إلى الصنعة في صياغة رسائلهم الأدبية ، وهكذا كانوا يمنحون ألفاظهم وتراكيبهم انتظاما صوتيا مميزا ، بشكلَّ يكون فيه جرسُ اللفظ أقوى من صدى المعنى في تأثيره على المتلقي ...

****

ب – الإيضاح بعد الإبهام [(*)]:

وهو من أساليب التعبير الفني ، وقوامُهُ أن يسوقَ الأديبُ أو الكاتب في خطبته أو رسالته كلَّاما مقتضباً ، غالبا ما يكتنفهُ الغموض ، فيحتاج تبعا لذلك إلى البسط والإيضاَح ،فيستوفيه الأديبُ بكلام واضح يزيل عن الكلام الأول اللبس والغموض ، مما يؤدي إلى تمكين المعنى في نفس السامع أو المتلقي ...

وقد لجا كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيراً إلى هذا الأسلوب الفني من التعبير ؛لتحقيق الإبانةَ والوضوح في معانيهم ، وتمكينها من النفس ببثّ الشوق فيها ، وإزالة ما علق في الكلام من إبهام أو غموض .

(*) جعله البلاغيون المتأخرون أحد أنواع الإطناب ، ووضع الناقد ابن الأثير الإطناب ضمن موضوعات (علم المعاني) ، وحدَّهُ بأنّهُ :" زيادة اللفظ على المعنى " المثل السائر 351/1، وتراجع التفاصيل في أنواع الإطناب ، ومقاصد الإيضاَح بعد الإبهام في كتاب : علم المعاني – للدكتور قصي سالم علوان : 175 وما بعدها ، وتراجع التفاصيل أيضاً في كتابي : علم المعاني للدكتور عبد العزيز عتيق (ط دار النهضة العربية – بيروت 1974) ، علم المعاني للدكتور درويش الجندي (طبعة دار نهضة مصر – القاهرة – د. ت)

وقد شاع هذا اللون من التعبير الفني كثيراً في رسائل أبي بكر الخوارميّ [27]، من ذلك مثلا ، ما ورد في فصل من رسالة له إلى أبي محمد العلوي [28]:

"فلما رأيت بيني وبين الموت حجاباً رقيقاً ، وحجزاً دقيقا ،ورأيت نفسي وقد اكتنفها أربعة أشياء ما منها شيء إلا وهو يقرّب عليها مسافة الممات ، ويقطع عنها علائق الحياة : خصم فاجر ، وسلطان جائر ، وبخت عاثر ، وزمان غادر ". وقد يسوق الكاتب الإيضاح في كلامه بعد (أمّا) التفصيلية ،فيكسو كلامه وضوحا ويزيد الفكرة جلاء ، من ذلك ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزميّ إلى كاتب رئيس نيسابو ر [29]:

" ثم إني بعد هذا كلَّه طويل الليل منذُ فارقته بل قصيرة ،وقليل الأنس بعده بل كثيرهُ ؛ أمّا طول ليلي : فلتذكري طول غيبته ، وأمّا قصره : فلقطعي له بتمني أوبته ، وأما قلة أنسي : فلبعده عني الآن ، وأمّا كثرته : فلتمثيلي قربه الدان، ولتصويري طلعته في قلبي وعيني ، ونظري إليه عن مرآة من هاجسي وظني ..."

ويشيع هذا اللون من التعبير الفني في نثر أبي حيان التوحيدي ، من ذلك ما ورد في رسالته الشهيرة إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد جوابا عن رسالته إليه في توبيخه بإحراق كتبه [30]

"ثم اعلم – علَّمك الله الخير – أَنَّ هذه الكتب حوت من أصناف العلم سرّه وعلانيته ، فأمّا ما كان سراً فلم أجد له مَنْ يتحلى بحقيقته راغبا ، وأمّا ما كان علانية ، فلم اصبْ من يحرص عليه طالبا....."

****

---

[27] تراجع رسائل أبي بكر الخوارزميّ ، رسالته إلى أبي محمد العلوي : 18، ورسالته إلى حاجب الوزير ابن عبّاد :53 ، ورسالته إلى كاتب رئيس نيسابور :56 ، ورسالته إلى تلميذ له :66 ، ورسالته إلى رئيس سرخس :68 ،وغيرها .

[28] رسائل أبي بكر الخوارزميّ :18.

[29] رسائل أبي بكر الخوارزميّ :56.

[30] معجم الأدباء : 18/15.

ج)المبالغة والغلو [*]:

وهي أيضاً من أساليب التعبير الفني التي لجأ إليها الكتاب البلغاء في هذا القرن لإيضاح معانيهم في خطبهم ورسائلهم .

وقد عدّها ابن المعتز (ت 296 هـ) أحد محاسن الكلام والشعر ، وقد أطلق عليها تسمية (الإفراط في الصفة) [31]

في حين جعل الناقد قدامة بن جعفر (ت337هـ) هذا اللون من أساليب التعبير من أنواع نعوت المعاني [32]، أما صاحب نقد النثر فقد عدَّ المبالغة شأناً خاصا بالعرب ، فهي تبالغ في الوصف والذم كما مِن شانّهُا أن تحتضر وتوجز ، وعزا ذلك إلى توسعها في الكلام واقتدارها عليه. [33]

وأشار ابن سنان الخفاجي[34] إلى اختلاف الناس في المبالغة والغلوّ ، وذهب إلى حمدها لأنَّ الشعر مبنيّ على الجواز والتسمّح لكنه رأى وجوب استعمال – كاد – وما جرى في معناها ليكون الكلام اقرب إلى حيِّز الصحة ، ثم أشار إلى أمر مهم جدا ذلك هو أن استعمال الغلو الخارج إلى الإحالة في النثر قليل ، وان أكثر ما يستعمل فيه (أي النثر) ؛ المبالغة التي تقارب الحقيقة ..

---

[*] تراجع آراء النقاد القدامى ومذاهبهم في المبالغة في كتاب فنون بلاغية : 282–287 حيث أشار المؤلف إلى تباين آرائهم ؛ فمنهم من عدّها من محاسن الكلَّام ، ومنهم من ذمَّ المبالغة والغلو الذي يخرج إلى الإحالة ، وأشار إلى محاولة البلاغيين المتأخرين تفريع هذا المصطلح ورأى الأستاذ المؤلف ضرورة تقسيم المبالغة ودراستها حسب رفعتها وبعدها ووقوعها لحصر المصطلحات البلاغية ، وتوحيد الفنون المتشابهة .

[31] ينظر كتاب البديع :44.

[32] ينظر :نقد الشعر :146،وقد ذكر في تحديد هذا المصطلح البلاغي ؛ أن الأديب أو الشاعر يذكر حالاً من الأحوال في شعر أو غيره ، لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد .

[33] ينظر كتاب :نقد النثر :70–71 ،وقد جعلها المؤلف قسمين : أحدهما في اللفظ وتجري مجرى التأكيد والأخرى في المعنى :وهي إخراج القول على أبلغ غايات معانيه .

[34] تراجع التفاصيل في :سر الفصاحة :263

***

وقد استشرى هذا اللون من أساليب التعبير كثيراً في رسائل الكتاب أبان هذا القرن ، وقد حداهم إلى ذلك نزوعهم إلى تعميق معانيهم ، وأيضاحها والتجديد في أجناسها .

ولعلّ من بدائع صور المبالغة ، ما ورد في رسالة أبي حيان التوحيدي الجوابية إلى القاضي أبي سهل يحتجُّ على ما أقدم عليه من إحراق كتبه [35]

" وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برّح بي إليه ...فعجبتُ من انزواء وجه العذر عنك في ذلك .....".

ثم زاد أبو حيان على هذا المعنى ما كان أوضح وأبلغ فيما قصد إليه فقال [36] " وكأنك لم تعلم أنّهُ لا ثباتَ لشيء من الدنيا ، وإنْ كان شريف الجوهر ، كريم العنصر ، مادام مقلّبا بيد الليل والنهار ، معروضا على أحداث الدهر وتعاود الأيام".

وقد شاعت صور المبالغة كثيرا جدا في رسائل أبي بكر الخوارزميّ وبديع الزمان الهمذاني ، وأضرابهما من بلغاء الكتاب كأبي الفضل الميكالي وقبله الصاحب بن عبّاد وغيرهم ، حتى أنّهُم كثيراً ما كانوا يجاوزن حدود ما هو مألوف في هذا اللون من أساليب التعبير الفني .

ولعلّ من أدق صور المبالغة ، وبدائع التهويل في رسائل هذا القرن ، ما ورد في رسالة أدبية للوزير الصاحب يمدح بعض الأصدقاء ، إذ كتب يقول [37]

"وتمثّلت لي أخلاقك التي لولاها لم يسلس الماء ، ولم يرقّ الهواء ، ولم ترْعَ الحقوق والذمم ، ولم يعرف المجد والكرم ، أخلاق جُددٌ غير أخلاق ، لا تأخذ الأيام جدّتها ، ولا تثهج الليالي بردتها "

---

[35] معجم الأدباء : 17/15.

[36] معجم الأدباء : 17/15-18.

[37] ديوان المعاني: 196/2-197.

ويبدو واضحا أنَّ غرض الكاتب في لجوئه إلى تلك المبالغات غير المألوفة ، فضلا عما أشرنا إليه آنفاً من إيضاح القصد ، تشقيق المعاني وتفريعها ، سعياً للاختراع والتوليد ، كما سيأتي بيانهُ وتفصيله في الصفحات الآتية ...

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى الوزير الصاحب في فصل من كتاب يتشوّق إليه [38] : "كتبت كتابي وبودّي أنَّ بياض عيني طرسه ، وسوادها نفسه، شوقا للألاء غرّته ، وظمئاً إلى الارتشاف من مسرته ...."

ويتضح بجلّاء أنَّ أبا إسحاق الصابي زاد على ما ذكره من معنى في صدر رسالته ما كان ابلغ فيما قصد إليه ، وهذا يؤدي إلى وضوح المعنى ، والبراعة في تحقيق الغرض ، وجلاء الفكرة ....

وهذا كثير شائع في رسائل كتاب هذا القرن .

وهناك طرائق تعبيرية ، أو أساليب فنية أخرى لجأ إليها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ؛ لتحقيق الإبانة والوضوح في معانيهم ، وجلاء الغموض عن أفكارهم ، لاسيما بعد ما نهلوا من معين الثقافات الوافدة التي أثرت لغتهم ومعانيهم بفيض هائل من المضامين الفلسفية والعلمية ومن تلك الطرائق أو الأساليب التعبيرية والفنية الأخرى : التشبيه والاستعارة والكناية والترادف والتكرار ،غير أننا آثرنا أنْ نقف عند هذه الطرائق أو الأساليب الفنية في مواضع أخرى من هذا المبحث ، لما يقتضيه منهج البحث العلمي ، وتستلزمه الدراسة الفنية المتخصصة .

****

2) الإفاضة والاستقصاء في المعاني :

من الخصائص الفنية التي طغتْ على النثر الفني ، ولاسيما الرسائل الأدبية في هذا القرن ، شيوع ظاهرة الأطناب [39] والإفاضة في المعاني وتشقيقها ،وما رافق ذلك من التدفق في الألفاظ والإسهاب في عرض الفكرة واستقصائها .

---

[38] خاص الخاص :12.

لقد غلب على مضامين الرسائل الأدبية لكتاب هذا القرن ،الإسهاب والإفاضة في المعاني ، فكانوا يطنبون في تصوير أفكارهم ، ويتوسعون في عرضها ، وكانوا يحشدون للفكرة الواحدة ألوانا عديدة من صور الترادف أو التكرار أو الاعتراض ، أو غيرها من الأساليب الفنية لتحدد أبعادها وتوضح دقائقها ، أو لتأكيدها أو ترسيخها في ذهن المتلقي أو التأثير فيه ،أو إمتاعه [40]

وقد شاعت هذه الخصيصة الأسلوبية الفنية في كتابات أكثر بلغاء الترسل في هذا القرن ، وفي مقدمتهم : أبو حيان التوحيدي ، وأبو بكر الخوارزميّ ، وبديع الزمان الهمذاني ، والصاحب بن عبّاد ، وأضرابهم من مشاهير الكتاب البلغاء .

وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره محققّا كتاب (الإمتاع والمؤانسة) للتوحيدي ، عن ظاهرة (الإطناب) في أسلوبه في أكثر ما وصل إلينا من نتاجه الأدبيّ والفكري ، وأكدا أنّهُ كان " يحبُّ الازدواج ويطيل في البيان ، ويحتذي حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة ، وتوليد المعاني ، حتى لا يدع لقائلٍ بعده قولاً [41]

وانطلاقًا من نزوع الأدباء الكتاب في هذا القرن إلى الإبانة والوضوح في ترسلهم ، وبخاصة في مكاتباتهم الأدبية (الشخصية) ، تحقيقا للإمتاع والتأثير في المتلقين ، فقد عمدوا إلى بسط معانيهم واستقصائها ، وتوسعوا في عرض أفكارهم ،

---

[39] وضع النقاد وعلماء البلاغة المتأخرون الإطناب ضمن موضوعات (علم المعاني)، وحدّودهُ بأنّهُ :"زيادة اللفظ على المعنى لفائدة " ينظر :المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 351/2 (ط دار نهضة مصر _ القاهرة 1962).

[40] كان الفيلسوف أرسطو يرى أن العبارة " كلَّما كانت أو جز كانت أشدَّ تقابلاً وألذّ وقعاً والسبب في هذا أن التقابل يزيد من فهم الفكرة ، والإيجاز يجعلنا أسرع إلى فهمهما " ثم أشار أرسطو إلى شروط الإيجاز فقال : " ولابدَّ من توافر عدة شروط منها : النظر فيمن يتوجه إليه الكلَّام ، ومراعاة حسن الانطباق إذا شاء المرء أن يبدو كلَّامه صادقاً دون أن يكون مبتذلاً " .(ينظر : كتاب الخطابة ، ترجمة : د. عبد الرحمن بدوي : 228)

[41] الإمتاع والمؤانسة ، المقدمة : ص ، ق (تحقيق الأستاذين : أحمد أمين وأحمد الزين).

وعنوا بدقتها ، وتنظيم أطرافها ، وقد سلكوا لتحقيق ذلك أساليب عديدة ،واتخذوا طرائق تعبيرية يمكن رصد أهمّها بما يأتي :

(أ): الترادف :

الترادف من الوسائل المهمة التي أسهمتْ في نماء اللغة العربية ،وإثراء معجمها اللغويّ ، وقد غدتْ هذه الظاهرة اللغوية خصيصة أسلوبية طغت على كتابات كثير من بلغاء الكتاب في هذا القرن ، لنزوعهم إلى التدفق والإسهاب في معانيهم ، واستقصاء أفكارهم ، فضلا عما يحققه الترادف –كما أشرت آنفاً – من الإبانة والوضوح ، والإفصاح عن المعاني والأفكار التي يروم الأدباء الكتاب إيصالها إلى المتلقين .

ولقد كانت المترادفات اللغوية في رسائل كتاب هذا القرن ، تنصبُّ في تتبع المعنى واستقصائه ، وقد أسعفهم في ذلك ، بديهة حاضرة وحافظة نادرة ،وذكاء حاد ، وإحساس وقاد باللغة ومفرداتها وأبنيتها ، ووجوه استعمالاتها المختلفة ، وهذا كلَّه مظهر واضح على قدرة هؤلاء الكتاب وبلاغتهم ، ومن جانب آخر ، فقد ساعدهم ذلك الثراء اللغوي الذي امتلكوه على اجتلاب المفردات والتعابير التي تقترب دلالاتها من المعاني الواسعة التي عنوا بافتراعها وتوليدها .

ولعلّ الأديب المفكر أبا حيان التوحيديّ – الذي استنَّ خطى أبي عثمان الجاحظ في التعبير ، وحذا حذوه في الإكثار من ظاهرة الترادف – من أشهر كتاب هذا القرن الذين التزموا أسلوب الازدواج والترادف في ترسله ، ومكاتباته الأدبية ...

كتب في رسالته الشهيرة إلى القاضي أبي سهل ، يدافع عن صنيعه في إحراق كتبه [42] : " .....وحتى أُوحى إليَّ في المنام بما بعث راقد العزم ،وأجدَّ فاتر النية ، وأحيا ميّت الرأي ، وحثَّ على تنفيذ ما وقع في الروع ، وتريَّع في الخاطر ، وأنا أجود عليك الآن بالحجّة في ذلك إنْ طالبتَ ، أو بالعذر إنْ استوضحتَ ، لتثقَ بي فيما كان منّي ، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي ...".

---

[42] معجم الأدباء : 15/17–18.

وتستمرُّ الرسالة في هذا التدفق ، والثراء اللغوي الذي يغترف الكاتب من لججهِ الغامرة ما أعانهُ على استقصاء كلَّ ما كان يجول في خاطره ، ويحتبس في أعماقه ، ويثير مشاعره ، يقول [43]:

"..وممّا شحذ العزمَ على ذلك ورفع الحجاب عنهُ ، أني فقدتُ ولداً نجيبا ، وصديقاً جيبا ،وصاحباً قريبا ،وتابعاً أديبا ،ورئيساً منيبا ، فشقَّ عليَّ أنْ أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها ،ويشمتون بسهري وغلطي إذا تصفحوها ، ويتراءون نقصي وعيبي من أَجلّها ....".

***

ومن الأدباء الكتاب الذين شاع في ترسلهم أسلوب الترادف الموشح بالازدواج أو الموازنة حينا ، أو السجع حيناً آخر في هذا القرن: الشريف الرضيّ.ولعلّ من روائع رسائله الأدبية التي طفحتْ بهذه الظاهرة الأسلوبية، رسالته إلى صديقه الحميم أبي إسحاق الصابي يعزّيه عن نجلّه الأكبر أبي سعيد سنان ، ومما ورد فيها [44] : "...وانضاف إلى وجدي بمن اهتصر عوده الزمان ،واختصر غصنه الحدثان ، قلقي بما وجدته عليه ، أيدهُ الله ، من الأصحاب في عنان القلق ، والانقياد بزمام الحرق ، فاقتصرت على الرسم المعهود في التعزية اختصارا وحذقا وإجماماً وتخفيفاً، وانقلبت والكلام يزدحم في فمي استقصاء لها ، واستكثارا منها ".

ويستمر هذا التدفق في المترادفات اللغوية ، والثراء اللغوي الذي استثمره الكاتب بدقة متناهية ، للإفاضة في معانيه ، واستقصاء أفكاره ،فيقول [45]:"..إلى كم – جعلني الله فداك –هذا الهمّ والجزع ، وفيَم هذا القلق والهلع ؟ وأنت المرء يوصف حلمه ، والجلّيد يُعرفُ حزمُه، والصبور على تحامل النكبات ، والقوي على قراع الرزيّات ، .....فكيف تستشعر الحزن والأسف ، وتستبطن الكمد والغصص ،وانت العارفُ بان الإنسان وديعةٌ مسلمَّة ، وعاريةُ مسترجعة ، وانّهُ مُجْرٍ إلى غايةٍ

---

[43] المصدر نفسه : 19/15.

[44] رسائل الصابي والشريف الرضي :63.

[45] المصدر نفسه :64-65.

لهُ دونها عثار بالنوائب ، ومصادمة للنوازل ، تزلزلُ مواطيء الأقدام ، وتحطم المناكب في الزحام ، فانْ سلم من غوائلها ، ونشط عن حبائلها ، وبلغ النهاية المرجوّة ، وطالع الغاية المقفوّة ، ونجا من موت العَبَطة ، ترقّبَ موت الهرم والكبْرة ....." .

وهكذا تستمرَّ هذه الرسالة القيمّة ، إلى نهايتها ، في هذا التدفق الثرّ في سوق الألفاظ الفصيحة ، والجمل المترادفة ، ليفضي الكاتبُ إلى كلَّ ما يريدُ عرضه من الأفكار التي تتصلُ بصلب موضوع الرسالة ، وإدراج المعاني العميقة المؤثرة التي يحققّ الكاتب من خلال استقصائها ما يريدُ بثه في النفوس الحزينة من التخفيف من هول الفاجعة ، وألم الرزيّة ، بالتسليم لنوازل القدر ، والإيمان بقضاء الله تعالى وتدبيره ومشيئته .....

وتشيع هذه الظاهرة الفنية في رسائل أبي بكر الخوارزميّ أيضاً ، حتى لا تكاد تخلو من فيضها أيةُ رسالة أدبية من رسائله الغزيرة ، وكانت تتواصلُ ، غالبا جملهُ المترادفة حتى يطول الفصل أحياناً بين المتلازمات اللغوية ، فيفصل مثلا بين المبتدأ والخبر ، أو بين الفعل وفاعله ، أو بين فعل الشرط وجوابه بعبارات طويلة مترادفة ، قد تصل إلى عشرات الفواصل والفقر [46]

ومن نماذج ترادفه الغزير الذي وشحه بألوان البديع ،ولاسيما الازدواج والسجع ، ما ورد في رسالته إلى أبي محمد العلوي يعاتبه [47]

"...ورد كتاب الشريف –أيدهُ الله تعالى – وهو الكتاب الشريف كاتبا، السعيد حاملا ، المغبوط ناسخا ، المحسود راوياً ، وفيه الكلام الذي لا يبليه الزمان

---

[46] تراجع رسالة أبي بكر الخوارزميّ إلى كاتب صاحب الجيش :(رسائل أبي بكر الخوارزميّ : 225–226 ، حيث فصل الكاتب بين أداة الشرط وفعله (ولو كانت) وبين جواب الشرط (لقصَّر عن ذلك عنائي) ، بأكثر من خمسين جملة مترادفةً ، وتنظر أيضاً رسالته إلى أبي الحسن البديهي : 235–250 وهي أطول رسائله – وقد أكثر فيها أيضاً من إدراج الجمل المترادفة لبسط أفكاره ، وتفريع معانيه .

[47] رسائل أبي بكر الخوارزميّ :128.

ولا تمجُّهُ الأذان ، وقد أفرد السِّيد فيه كلَّ وأحد من أوليائه وشيعته بلطف ، وتناوله من البَّر والتحفي بطرف ، غيري ، وما كنت أعلم أني سكّيت الحلبة ، ولا أني ساقة الكتيبة ، ولا أنَّ اسمي آخر الجريدة .....".

ويستمرُّ الكاتب في الإسهاب ، وإدراج هذه المترادفات اللغوية ، فيقول – ويلاحظ الوصل بين الجمل الفعلية ، والتدفق والثراء اللغوي [48]

"خرج السيد ، فخبا نجم العلم ، وافلتَ شمسُ الأدب ، وانّهُدم ركنُ السحاب ، وفلَّ سيف العطاء ، وغارتْ عين الأريحية ، وانثلم جانب الإنسانية ، وانّهُزمتْ عساكر الكرم ، واغبرَّ وجهُ السيف والقلم ،ونَضَبَ ماءُ الحياء ، وركدتْ ريحُ البهاء ، وخرب بنيانُ العقل ، وتضعضعَ جبلُ التوحيد والعدل ، واخلقتْ ثيابُ الأفاضل والفضل ، وتهافتَ نظم القول والفعل ، وذُكَّ جبلُ السخاءِ والبذل ....".

وهكذا يتضحُ بجلاء أنَّ الترادفَ كان أحد الوسائل المهمة التي استعان بها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، لجلّاء أفكارهم واستقصائها ، وعرض معانيهم وإيضاحها ....

وتستشري ظاهرة الترادف كثيرا في رسائل بديع الزمان أيضاً، وكان كإضرابه من كتاب عصره ، يتخذهُ وسيلةً لتشقيق معانيه ، وتفصيلها ، وجلاء أفكاره واستقصائها ، وكان أيضاً كثيرا ما يوشّح عباراته المترادفة بافانين البديع وصور البيان الجميلة التي أضفتْ على أسلوبه بهاءً ورونقا ، وتزاحما في تلك الصور الفنية المتراكمة .

ولعلّ خيرَ ما نستشهدُ بهِ في هذا الجانب ، هذا الفصل البليغ من رسالته إلى أبي القاسم الكرخي ، إذ كتب إليه يقول [49] :" ... فاني وأنْ كنت في مقتبل السنّ والعمر ، قد حلبتُ شطري الدهر ، وركبتُ ظهري البرّ والبحر ، ولقيتُ وفدي الخير والشرّ ، وصافحتُ يدي النفعَ والضرّ ، وضربتُ إبطيْ العُسْر واليسر ، وبلوتُ

---

[48] المصدر نفسه :129.

[49] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 101–102 ، ويراجع النصّ أيضاً في : زهر الآداب وثمر الألباب 3/862–863.

طعميْ الحلو والمرّ ،ورضعتُ ضرعي العُرْف والنكر ، فما تكادُ الأيام تريني من أفعالها غريبا ، وتسمعني من أحوالها عجيبا ....".

ويتضحُ جلّياً تقاربُ فقر هذا الفصل البليغ من رسالة الهمذاني في المعنى، فقد أراد أن يؤكد سعة خبرته ، وعظيم تجربته في الحياة ، فأتى بكلَّ هذه المترادفات اللغوية البليغة ، موشحةً بصور الاستعارة ،وبديع الكناية ، فضلاً عن فنون البديع الأخرى التي كستْ هذا النصّ الجميل إيقاعاً ورونقاً وحسن موقع ..

(ب) التكرار :

التكرار أسلوب أدبي مألوفٌ وشائع في شتى الفنون ، أو الأنواع الأدبية، وهو أحد أساليب التعبير المهمة ، والذي يمكن أن يثري المعنى ويغنيه ، ويرفعهُ إلى أعلى درجات التأثير والإمتاع والأصالة .

ولكي يحققَ التكرار وظيفته الفنية في النصّ الأدبيّ ، ويسمو به إلى مرتبة الإبداع والحذق الفني ، لابدَّ من أن يستخدمهُ الأديب الفنان في موضعه المناسب من النصّ . ومن هذا المنطلق ، فقد ذهب بعض النقاد المعاصرين إلى أنَّ " القاعدة الأولية في التكرار ، أنّ اللفظ المكرّر ينبغي أن يكون وثيقَ الارتباط بالمعنى العام ..... كما انّهُ لابدَّ أن يخضع لكلَّ ما يخضع لهُ (الشعر) عموما من قواعد ذوقية جمالية وبيانية "[50]

***

وقد شاع هذا اللون من أساليب التعبير كثيرا في الرسائل الأدبية لكتاب هذا القرن ؛ نظرا لما شُهر به أكثرهم من ثراء لغويّ ، فضلا عن عنايتهم بألفاظهم ،

---

[50] قضايا الشعر المعاصر _ نازك الملائكة : 231 (دار العلم للملايين ط5 بيروت 1978) وكان بعض النقاد القدامى ، كابن سنان الخفاجي ، قد قلّل من قيمة (الترديد) فيما يضفيه من جمالية على الأثر الأدبيّ ، يقول ابن سنان : " وهو أن يعلّق الشاعر لفظة في البيت بمعنى ثم يرددها فيه بعينها ،و يعلقها بمعنى آخر " ثم يقول : " وهذا عندي لا تعلّقَ لهُ بالنقد ؛ لأن التأليف في هذا الترديد كسائر التأليف في الألفاظ التي لا تستحقُّ بهِ حمداً ولا ذماً ، ولا يكسبها حسناً ولا قبحاً ....."(ينظر كتاب : سر الفصاحة : 277).

وتدقيقهم بمواقعها واختيارها ، ولأدراكهم بأثره ،وشدّة وقعهِ في نفوس المتلقين . ولهذا فقد كانوا كثيراً ما يعمدون في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية إلى ضروب من التكرار ، فيرّددون إمّا كلَّمة بعينها ، أو قد يكرّرون جملة ، أو أسلوبا معينا ، وقد ينصبُّ التكرار حينا ثالثا على حرفٍ معين ....

ولم يكن هذا التكرار في رسائل كتاب هذا القرن – على اختلاف أنواعه – يأتي عفو الخاطر ، وإنما كان مظهرا واضحاً من مظاهر نزعتهم الفنية ؛ لانَّ التكرار – فضلا عما يحقّقه من إيضاح المعنى ، وجلّاء الفكرة ، كما أشرنا آنفاً –غالبا ما يضفي على أسلوب النصّ الأدبيّ ظلالا من الجمال والبهجة والتأثير .

ومن نماذج تكرار (الكلَّمة) في رسائل هذا القرن ؛ ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزميّ إلى الحاجب أبي إسحاق لمّا نُكبَ ، فقد كرَّر (كم الخبرية) في فصل لهُ من رسالته إليه أكثر من ثماني مرات ،يقول [51]

"كم تهتكون حجب العوارف بيد الكفران ، وكم تصافحون النعمَ بالبغي والعدوان ، وكم تفضون ختام العافية بالغدر ، وكم تسترون الخيرات بقلّة الشكر ، وكم لا تبرزون الصنائع في معرضٍ من حسن الذكر ، ولا تقلونها حلية من طيب النشر ، وكم تتبعون الوفاء بالملق ، وتنادون على الأمانة كما ينادى على الثوب الخلق ، وكم تقبحون في النعم ، وتحسنون في النقم ، وكم تجهلون ما عرفهُ الحطيئة مع خبث مذهبهِ ، ولؤم مركبه ، حيث يقول :

من يفعل الخير لا يعدم جوزايه لا يذهب العرف بين الله والناس "

فأبو بكر الخوارزميّ يكرر في هذا النصّ (كم الخبرية) متلوّةً بجملة فعلية (من الأفعال الخمسة) ، وهو قوله : (كم تهتكون ، وكم تصافحون ، وكم تفضون .. الخ) وهو تكرار جميل يزيد المعنى وضوحا ، والفكرة تثبيتا وتأكيدا ،والأسلوب طلاوة.

ومن هذا الضرب من أسلوب التكرار أيضاً ؛ ما ورد في رسالة أدبية طريفة لبديع الزمان الهمذاني إلى أبي نصر بن المرزبان ، يصف في فصل منها بعض

---

[51] رسائل أبي بكر الخوارزميّ : 12–13.

السلاطين في زمانهُ ، وما كان عليه من بغي وتجبُّر ،وقد كرَّر الهمذاني ظرف المكان (بين) أربع مرات ، إذ يقول [52] : " فمزحهُ بين القدّ والقطع، وجدّهُ بين السيف والقطع ، ومراده بين الظهور والكمون ، وأمره بين الكاف والنون ...." .

وهكذا لا يفتأ الكاتب يلحُّ على الفكرة التي يسوقها ، وهي تجبّر هذا السلطان ، بهذا التكرار الطريف ، حتى بدتْ جلّيةً واضحة ، وربما يكتشف الباحث أيضاً، من خلال هذا التكرار ، الذي هو في حقيقته الحاحٌ على جانب مهمّ في العبارة يعنى بها الأديب أكثر من عنايته بسواها ، مفتاح الفكرة المتسلطة على الأديب الكاتب ،ومن هنا يستطيع الباحث أيضاً أن يصل إلى نتيجة مهمة ، تلك هي أن للتكرار دلالة نفسية قيمة ، تفيدُ الباحث أو الناقد الذي يدرس الأثر الأدبيّ ويحلّلهُ ، أو حين يتعمقُ في تحليل نفسية منشئ العمل الأدبيّ .

***

أما الضرب الثاني من أساليب التكرار ، والذي لجأ إليه كثيرا كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، فهو تكرار (الجملة) أو تكرار الأساليب ، فقد دأب كثير من الكتاب البلغاء في هذا القرن – إدراكاً منهم بأهمية تكرار الجملة، أو الصيغ المركبة ، في خلق التوازن الذي يتحكم في العبارة ويكسبها التناسب النغمي . على تكرار جمل أو تراكيب لغوية أو أساليب تعبيرية خاصة في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية ، وكثيراً ما كان هذا اللون من التكرار يشِّكل جزءاً حيويا من الهندسة العاطفية للتركيب اللغوي في النصّ الأدبيّ ..

ومن النماذج البليغة التي تستوقفنا مثلا في تكرار الأساليب ، ما ورد في فصل من رسالة أدبية لبديع الزمان إلى أبي نصر الميكالي يشكوه خليفته بهراة ، إذ يقول [53] : " ... والماء إذا طال مكثه ظهر خبثه ، وإذا سكن متنه ، تحرَّك نتنُه ، كذلك الضيف ، يسمج لقاؤه ، إذا طال ثواؤه، ويثقل ظله ، إذا انتهى محله ...."

---

[52] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 153.

[53] زهر الآداب وثمر الألباب : 2 / 907 .

فكرر الكاتب في هذا الفصل من الرسالة اسم الشرط غير الجازم (إذا) مع جملة الشرط وجزائه ، أربع مرات ، وهو تكرار جميل ، زاد المعنى ألقاً ووضوحا ، كما أسهم في خلق التوازن النغمي والعاطفي في ثنايا تراكيب النصّ الأدبيّ ..

ومن هذا التكرار أيضاً – تكرار أسلوب الشرط – ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزميّ الشهيرة إلى أبي الحسن البديهيّ ، إذ كرّر الكاتب في بعض فصول هذه الرسالة الطويلة ، حرف الشرط غير الجازم (لو) مع فعل الشرط وجوابه ، أكثر من ثلاثين مرةً في سياق تعبيريّ متصل ، على شاكلَّة قوله [54]:

"ولو سُئلْتَ عن يحيى بن زكريا لذكرت انّهُ زنى ، ولو ذكرت في القائم ادّعيتَ انّهُ مضى ،ولو استخبرتَ عن إبليس ذكرت انّهُ سَجَدَ لآدم ، ولو نوظرتَ في عيسى نفيتهُ عن مريم ، ولو انشدتَ شعر امرئ القيس لنسبته إلى الإفحام ، ولو ذكرت أبو جهل حكمت له بالإسلام ...".

وهكذا يتضح بجلاء ، كيف استطاع أبو بكر الخوارزميّ أن يوظّف أسلوب التكرار للإفاضة في معانيه ، والإسهاب المفرط في ذمّ خصمه ، من خلال تكرارهِ لأسلوب الشرط .....

ومن تكرار الجمل أو الأساليب التي شاعت أيضاً في رسائل هذا القرن ، تكرار أسلوب (النفي والاستثناء) ، وهو أحد أساليب القصر في علم المعاني [55]، ومن روائع النصّوص الأدبية التي نقف عندها هنا ؛ فصل من رسالة مشهورة لبديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان ، يصفُ فيها الحالة التي آلت إليها أخلاق الكتاب في عصره ، إذ يقول [56] :"... ولاعلتْ قدورهم ، إلاّ خلتْ بدورهم ، ولا اتسعتْ دورهم ، إلاّ ضاقت صدورهم ، ولا أوقدتْ نارُهم ، إلاّ انطفأ نورهم ، ولازاد مالهم ، إلاّ نقص معروفهم ، ولا ورمتْ أكياسهم ، إلاّ ورمت انوفهم ، ولا تبجلّتْ عتاقهم ، إلاّ فظعتْ أخلاقهم ،ولا صلحتْ أحوالهم ، إلاّ فسدتْ أفعالهم ، ولا حسنتْ

---

[54] رسائل أبي بكر الخوارزميّ : 236–238.

[55] يراجع كتاب : علم المعاني للدكتور قصي سالم علوان : 140 وما بعدها .

[56] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 145–146.

حالهم ، إلاّ قبحتْ خلالهم ، ولاّ فاض جاههم ، إلاّ غاضتْ مياههم ، ولا لانتْ برودُ هم ، إلاّ صلبتْ خدودهم ، ولاعلتْ جدودهم ، إلاّسفل جودهم ، ولا طالتْ ايديهم ، إلاّ قصرتْ أياديهم ...".

وهكذا يتضح أنَّ الكاتب في هذا الفصل من رسالته ، كرّر الفعل الماضي منفيا بلا النافية أكثر من عشر مرات متصلة في سياق تعبيريّ متصل ، ثم اتبع هذه التراكيب بالاّ التي أفادتْ معنىً جديدا ، هو الحصر أو القصر ، وقد كرّرها أيضاً بعدد تكرار الجمل المنفية ، ويتضحُ جلّيا أنَّ الكاتب كان يرمي إلى معنى جديد هو تخصيص أمر بآخر بطريقة مخصوصة ، فخصَّ ضيق صدورهم باتساع دورهم ، وخصَّ ورم أنوفهم بورم أكياسهم ، وهكذا في بقية الجمل المكررة ...

أما اللون الثالث من التكرار الذي شاع في رسائل الكتاب إبّان هذا القرن ، فهو تكرار الحرف ،وكان الكتاب ، غالبا ،يرمون من هذا التكرار إلى تقرير المعنى وتثبيته في النفس ....

كتب أبو بكر الخوارزميّ في فصل من رسالة أدبية إلى أبي سمكة بقم ، ويلاحظ تكرار حرف الجر (من) وتوالي حروف الجر الأخرى [57]:

"وليس يردُّ كتاب شيخي على من هو أضمن مني به ، ولا أرغبُ مني فيه ، ولا أروى مني لهُ ، ولا أشكر منيّ عليه ، ولا أتوق مني إليه ....."

وهكذا يستمرُّ الكاتب يلحُّ على المعنى بتكرار حرف الجر (من) ، وما يتبعه من توالي حروف الجر وغيرها التي اقتضاها سياق التعبير في النصّ حتى يبدو المعنى واضحا جلّيا.....

وقريب من هذا اللون من التكرار أيضاً ، ما ورد في رسالة أبي حيان التوحيدي في رسالته الشهيرة إلى صديقه أبي الوفاء المهندس ، يشكو إليه حاله ، فقد أضفى تكراره لحرفي الجر (من) و (الباء) ، ظلالا كثيفة من الوضوح ، وتقرير المعنى وتأكيده في نفس المخاطب،كتب يقول [58]: " خلَّصني أيّها الرجلّ من

---

[57] رسائل أبي بكر الخوارزميّ : 186.

[58] الإمتاع والمؤانسة : 226/3.

التكفّف ، انقذني من أنس الفقر ، أطلقني من قيد الضرّ ، اشترني بالإحسان ، اعتبدني بالشكر ، استعمل لساني بفنون المدح .....".

وهذا اللون من التكرار باب واسع في رسائل الأدباء الكتاب في هذا القرن، وهو يكشف بجلاء عن إحساس هؤلاء الكتاب البلغاء بفنهم ، إحساساً يجعلهم يتوخّون مواطن الجمال التي تضفي على أساليبهم الجمال والرونق الذي كانوا يتوخونه في ترسلهم أو في مكاتباتهم الأدبية والشخصية ....

(ج)الاعتراض:

وهو من أنواع الإطناب ، وأحدُ أساليبه المهمة ، ويلجأ إليه الأديبُ أو المتكلِّم لبسط فكرته ، والإسهاب في عرض معانيه وتفريعها ، لغرض أو فائدة يتوخاها في كلَّامه أو أدبه .

وقد شاع أسلوب الاعتراض كثيرا في رسائل كتاب هذا القرن ، لعنايتهم بمعانيهم ، ونزوعهم إلى الإفاضة في عرضها ، أو استقصاء الموضوع الذي يلمّون بهِ ،وتحديد جوانبه .

ومن جانب آخر ، فقد اقتضى مقام انشاء كثير من المكاتبات الأدبية (الاخوانية) بين كتاب هذا القرن – إمّا بدواعي المجاملة والتزلف ، وإمّا بدواعي الودّ وأواصر الصداقة الحميمة بينهم – إلى الإكثار من الجمل الاعتراضية في فصول رسائلهم ، لأغراض ومقاصد عديدة متباينة ، سنلمُّ بإيضاحها في الصفحات التالية ...

ولقد شُهر عددُ من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن – وفي مقدمتهم الصاحب بن عبّاد ،وأبو بكر الخوارزميّ ، وبديع الزمان الهمذاني وأضرابهم – بإمعانهُم في استخدام الاعتراض بين فقرات ترسلهم ، حتى طغتْ على أساليب بعضهم ظاهرة طول الفواصل بين المتلازمات في الكلام ، كالفصل ،مثلا بين

المبتدأ والخبر ، أو الفعل ومفعوله ، أو بين الشرط وجوابه ، وما إلى ذلك مما قد يُسببِّ الغموض أو التعاظل في معاني النصّ الأدبيّ [59].

من ذلك مثلا ما ورد في فصل من رسالة للوزير الصاحب بن عبّاد في الأخبار بفتح ، وقد فصل بين الفعل (أعلمناك) ،وبين مفعوليه الثاني والثالث (المصدر المؤول) ، بجملة اعتراضية طويلة بلغت حوالي خمسة أسطر ، كتب يقول [60]: "وقد كنّا أعلمناك – عند ذكرنا حال إبراهيم بن المرزبان ..... أنَّ وهسوذان بن محمد قد طالتْ للدولة العالية مداجاته ..."

وقديما ذكر أبو حيّان التوحيدي – في معرض ما ذكره في الليلة الرابعة من كتابه الإمتاع والمؤانسة عن عيوب الوزير الصاحب وغيره ، في أسلوب ترسله ومكاتباته _ أنّ الصاحب بن عبّاد كان يعاظل بالاعتراض [61]

وقد تتراكم الجمل الاعتراضية أحياناً في فصل قصير من بعض رسائله، وهذا دليل واضح على كثرة استخدام الاعتراض في ترسله ، من ذلك مثلا ، ما ورد في أحدى رسائله إذ كتب يقول [62]:

" وصل كتابك فأنستُ لوقوع الطرف عليه ... على انّهُ خارج بعد أيام ،وواصل – إن شاء الله – قبل مفارقتك أصبهان ...و استدعيت مهماتي ، فخذ – إنْ لم يكن وفاؤك ظهرْيّا وعَرْضكَ سابريّا – للشيخ المرشد – أدام الله عزّه – شرح كذا

---

[59] تراجع على سبيل المثال في رسائل الوزير الصاحب : رسالته في الإخبار بفتح : 15–16 ، إذ فصل بين انّ واسمها المؤخر بجملة طويلة بلغت ثلاثة أسطر، وتراجع أيضاً : رسالته في الباب الثالث عشر في تحذير العامة : 175 ، حيث فصل بين جملة الشرط وجوابه بجملة اعتراضية بلغتْ سبعة أسطر ،وهذه الظاهرة شائعة أيضاً في رسائل= =الخوارزميّ والهمذاني في مواضع كثيرة في مجموع رسائلهما وقد أشرنا إلى بعضها في دراستنا وتحليلنا لظاهرة التكرار .

[60] رسائل الصاحب بن عبّاد :15.

[61] تراجع التفاصيل في : الإمتاع والمؤانسة (الليلة الرابعة) : 64/1 وما بعدها .

[62] رسائل الصاحب بن عبّاد (الباب العشرون – في الكتب الشوارد) : 240 ، والعرض السابريّ : أراد به العرض الرخيص الثمن الذي يشترى بثمن بخس .

من الفقه ،وقد رأيتُ جلّهُ عندي ، إذ ذكرتُ موقعه من كتبي ، ولكنه بين هجنتين : من اختلاف الخط والتقطيع ، وسُبتين : من فقدِ التصحيح والتتميم ، فارتدْ – إذا عدت لي – نسخة تجمعُ التمام والحسن والصحة ."

***

أما أنواع الاعتراض ، ومقاصدهُ الفنية لرسائل الكتاب في هذا القرن فهي عديدة ، لعل أكثرها شيوعا في رسائلهم الأدبية ما يأتي :

1: **الدعاء :** وقد شاع الاعتراض في الدعاء في كثير من أغراض الرسائل الاخوانية ، من ذلك ما ورد في رسالة الشريف الرضيّ إلى بعض أصدقائه يعاتبه [63]: " كتابي – أطال اللهُ بقاء مولاي ورئيسي ،وأدام عزّة وتأييده وكفايته ونعمته – عن شوق إليه يقيم ويقعد ...."

وقد شاع هذا اللون من الاعتراض كثيراً ، في رسائل الأمير قابوس بن وشمكير [64] وأبي بكر الخوارزميّ ، من ذلك ما ورد في رسالته الشهيرة إلى شيعة نيسابو ر [65] :

"سمعتُ –أرشد الله سعيكم ، وجمع على التقوى أمركم – ما تكلَّم به السلطان الذي لا يتحامل إلاّ على العدل ...." .

ومن ذلك أيضاً ، ما ورد في رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى الأمير قابوس[66] : "لم تزل الآمال – أطال الله بقاء الأمير السيد شمس المعالي ،وأدام

---

[63] رسائل الصابي والشريف الرضي :103 وتراجع أيضاً مواضع أخرى لهذا اللون من الاعتراض في الرسائل المتبادلة بين الرضي والصابي في مواضع عديدة متفرقة ص 63 ، 71 ،77، 80 ، 85،وغيرها .

[64] تراجع فصول رسائل قابوس التي زخرت بالدعاء في كمال البلاغة ص39،36-42-44-45-46-58-66-74 ،ومواضع أخرى غيرها .

[65] رسائل أبي بكر الخوارزميّ : 160 ،وتراجع مواضع أخرى في ديوان رسائله .

[66] زهر الآداب : 417/2 ، وتراجع رسائل بديع الزمان في مواضع كثيرة متفرقة .

سلطانّهُ – تعد هذا اليوم ... وقد صرت – أطال الله بقاء الأمير مولانا – بين انياب النوائب ....".

(2) **التنـزيه** : ومن مقاصد الاعتراض أيضاً ، التنزيه ،وغالبا ما كان يدرجه الكتاب في رسائلهم بعد ذكر لفظ الجلّالة ، وذكر الرسول وآل بيته (عليهم السلام) ، من ذلك مثلا ، ما ورد في رسالة الأمير قابوس الفلسفية في خلق العالم أو تكونه [67] ، "...وإذا قلنا إنّهُ ظهر من الباري فقد انتفى عنه – جلّ جلاله – معنى الجسمية والطبيعية " .

وقد شاع هذا اللون من الاعتراض في رسائل أبي بكر الخوارزميّ وبخاصة بعد ذكره لأئمة آل البيت (ع) من ذلك مثلا ما ورد في فصل من رسالته المذكورة إلى جماعة الشيعة بنيسابور [68]

".... غُصِبتْ سيّدتنا فاطمة – صلوات الله عليها وعلى آلها – ميراث أبيها – صلوات الله عليه وعلى آله – يوم السقيفة ".

(3)الاحتراس:

وهو من أنواع الاعتراض ومقاصده المهمة ،وسماه ابن سنان الخفاجي (التحرّز) [69] وأطلق عليه بعض الباحثين في البلاغة (التكميل) [70] ، اما صاحبُ كتاب الأيضاح فقد ذكر حدَّهُ اصطلاحا " وهو ان يؤتى في كلَّام يوهم خلاف المقصود مما يدفعهُ "[71]

---

[67] كمـال البلاغـة :86 ، كمـا ورد اعتـراض التنزيـه فـي رسـائل أخـرى متبادلـة بـين قـابوس والصاحب في مواضع متفرقة من هذا المصدر .

[68] رسائل أبي بكر الخوارزميّ :161.

[69] ذكر ابن سنان حدَّه فقال :" وأما التحرُّز مما يوجبُ الطعن ، فان يأتي بكلَّام لو استمرَّ عليه لكان فيه طعنٌ ، فيأتي بما يُتحرَّز من ذلك الطعن " ينظر :سر الفصاحة : 265.

[70] يراجع كتاب : علم المعاني – د. قصي سالم علوان : 181–182.

[71] الأيضـاح فـي علـوم البلاغـة : 203/1 (تحقيـق لجنـة مـن أسـاتذة الأزهـر مطبعـة السـنة المحمدية – القاهرة د.ت) ،وجعله القزويني على ضربين ، ضرب يتوسط الكلَّام وضرب يقع في آخرِهِ .

ومن نماذج الاحتراس التي وردتْ في مكاتبات هذا القرن ؛ ما جاء في رسالة الأمير قابوس إلى أبي الفتح ابن العميد يعزّيه [72]

"حشو هذا الدهر الخؤون أحزان وهموم ،وصفوهُ – من غير كدر – معدوم " ونظيره أيضاً ، ما ورد في رسالته الأدبية إلى الوزير الصاحب يعزّبه [73] "... ومن رام تعريفه ما ليس عنده ،وأراد – مما لم يسمعه – مزيده "

ومن الاحتراس البديع أيضاً ، ما ورد في رسالة الصاحب بن عبّاد الجوابية إلى الأمير قابوس يثني على بليغ ترسله واعجابه بنثره [74]

".... أنا مرتهنْ بها (يعني رسالة قابوس إليه) بقية العمر، مسلّم لها ، مُقرّ بالعجز ، مستخفّ – لجلالها – ما أثقلني من أعباءِ الحزن ...."

فقد احترس الوزير الصاحب بقوله (لجلالها) مما قد يوهم خلاف المقصود مما يدفعه في الكلام .

(4)الإيضاح وتأكيد المعنى :

ومن مقاصد الاعتراض أيضاً : الإيضاح وتأكيد المعنى ، وفي هذا اللون من الاعتراض يظهر بجلاء حشو الألفاظ ،وزيادتها على المعنى لإيضاحه وتأكيده لشعور المتكلّم بأهمية كلامه وخطورته ...

ومن نماذج هذا اللون من الاعتراض ؛ ما ورد في رسالة الأمير قابوس في ذكر النفس الناطقة ، كتب يقول [75] : "فانَّ ما سواه – على كثرة أصنافه من الحيوان – في حدِّ النقصان ، وبتّوا الحكم به ..... ثم ما كانت معرفته – من ابتداء كونه إلى انتهاء سنّه – معرفة غريزية ".

---

[72] كمال البلاغة : 62.

[73] المصدر نفسه : 74.

[74] كمال البلاغة :74.

[75] المصدر نفسه : 96-97.

ونظير هذا الضرب من الاعتراض أيضاً ؛ ما ورد في رسالة الوزير الصاحب بن عبّاد الجوابية إلى الأمير قابوس بن شمكير [76] : "قرأتْ للأمير مولاي خطابا تحَّمل قرعا وغمزا ،وإنْ كان الغرض منه إذكاراً وهزّا ،ولم أكنْ – يعلمُ اللهُ – مستوجبا لمثله ،ولا متصديا – بقصور فعل – لسبيله "

وهناك أغراض ومقاصد أخرى خرج إليها الاعتراض ، أضرب صفحا عن ذكرها ،والتمثيل لها ،توخيا للإيجاز ....

(3)الابتكار والتجديد في المعاني :

لم يصرفْ بلغاءُ الكتاب وجهابذتهم في القرن الرابع غاية جهدهم أو عنايتهم على الصياغة والأسلوب ، أو الاهتمام ببناء رسائلهم الأدبية ،أو العناية بجرس ألفاظهم ، وموسيقى تراكيبهم فحسب ، وإنما وفَّروا عنايتهم أيضاً إلى مضامين نتاجهم الأدبيّ ،وبخاصة تجويدهم للمعاني ،وافتنانّهُم في تفريعها ، والوقوع على أبكارها ، لانّهُم أدركوا أن الصياغة والشكلَّ ليسا إلاّ وسيلة لإبراز المعاني وخدمتها . وان الألفاظ والتراكيب في العمل الأدبيّ ليسا إلا إطاراً خارجياً لتجسيد محتوى التجربة الأدبية.

ومن هنا يتضحُ أنَّ المعاني كانت عندهم أشرفُ قدرا ، وأكرم عليها، وأقرب إلى نفوسها من اللفظ أو الشكلَّ والصياغة ،لانّهُم رأوا أنَّ الألفاظ والتراكيب هي واجهة المعاني وعنوانّهُا ، ووسيلتها إلى إظهار مقاصدها ،وتبيَّن لهم أيضاً ،أَنَّ المعاني الجليلة ، والصور الجميلة ، قد تشوّه حين تعرضُ في معرض غير مناسب ، كأنْ تركّب في عبارة رثة ،أو تصاغ بألفاظ غثّة ، ولذلك فقد عني الكتاب البلغاء بزخرفة ألفاظهم ،وحرصوا على زينتها ، وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أو قع في نفس المتلقي ،وأدق في الدلالة على ما يرومُ التعبير عما يجولُ في خاطره من أفكار ،ويعتمل في وجدانّهُ من مشاعر وأحاسيس مختلفة .....

وقد أكد بعضُ النقاد القدامى هذه الحقيقة المهمة ، فالناقد قدامة بن جعفر البغدادي (ت337هـ)مثلا ، أشار إلى أنَّ المكاتبات التي كانت في هذا القرن ، تأتي

---

[76] المصدر نفسه : 67.

على قرائن أو حروف مسَّجعة ، تتقاربُ فيها الأوزان والمباني ، وتتناسبُ فيها الوجوه والمعاني ، كانت أيضاً وسيلةً لاتساع طرائق التعبير والخطاب ، وتنفسحُ معها بلاغةُ الكتاب [77]

وأكدّ ابنُ الأثير أيضاً في الفصل الذي عقدهُ للصناعة المعنوية ، أنّ عناية العرب بالألفاظ وتحسينها ، إنما كانت خدمةً لمعانيها ، ذكر يقول [78]

"فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسّنوها ،ورقَّقوا حواشيها ، وصقلوا إطرافها ، فلا تظنُّ أنَّ العناية إذ ذاك إنما هي بألفاظ فقط ،بل هي خدمة منهم للمعاني ....."

دواعي الابتكار في المعاني وأسبابهُ في هذا القرن :

لقد كان ما أعان الأدباء الكتاب في هذا القرن على الابتكار في معانيهم، وبراعتهم في اقتناص أبكارها ، وافتراع كلَّ ما هو جديد منها ؛ أمور عديدة لعلَّ أهمها :

1- اتساع الملك ،وتعدّد البيئات وتنوعها في المشرق الإسلامي ، وما رافق ذلك من تدفق الأدباء على تلك الممالك الجديدة ،وأثاره الايجابية على خصب ثقافة الأدباء ،وشحذ طاقاتهم ،واتساع تجاربهم ،واطلاعهم على مشاهد وأمور جديدة ،وسّعتْ آفاقهم ، وشحذت خيالهم .

يقول ابنُ الأثير مشيرا إلى سبب براعة المحدثين في اختراع المعاني ، في معرض ردّه على مَنْ زعم من معاصريه أنَّ المتأخرين هم السابقون إلى المعاني المبتكرة [79] "ولو قال إنَّ المحدثين أكثر ابتداعا للمعاني ،والطف ماخذا ، وأدق نظرا ، لكان قوله صوابا ، لأنَّ المحدثين عظم الملكُ الإسلامي في زمانّهُم ،

---

[77] ينظر كتاب :جواهر الألفاظ – المقدمة.

[78] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :352/1-353.

[79] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : 351/1.

ورأوا ما لم يرهُ المتقدمون ، وقد قيل : إنّ اللُّها تفتحُ اللَّها ،وهو كذلك فإنَّ نفاق السوق جلاب ."

(2)خصب خيال الأدباء الكتاب واغرابهم فيه :

لقد شهر الأدباء الكتاب في هذا القرن ببراعتهم في الوصف لخصب مخيلتهم وافتنانّهُم في خلق صور حسّية وذهنية غريبة ونادرة سعيا وراء ابتكار المعاني الجديدة وتوليدها .

والابتكار أو الإبداع – كما يرى ابن الأثير – " إنما يقع في معنى غريب لم يطرقْ ولا يكون ذلك إلا في أمر غريب لم يأت مثله ، وحينئذ إذا كتب فيه كتابا ، أو نظم فيه شعرٌ ، فانَّ الكاتب والشاعر يعثران على مظنّة الإبداع فيه [80]

وكان ابن سنان الخفاجي قبله (ت 466هـ) قد أكدّ هذه الحقيقة أيضاً في ردِّهِ على منْ ينتقصُ الكلام لما فيه من فحش في المعنى ،فقال [81]:

"وليس الأمر عندي على ذلك ، لأنَّ صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل الصناعة في المعنى الجميل ، ويُطلبُ في كلّ وأحد منهما صحّةُ الغرض ،وسلامة الألفاظ على حدّ وأحد ، وليس لكون المعنى في نفسه فاحشا أو جميلا تأثير في الصناعة ، ولهذا ذهب قومٌ إلى استحسان المعنى الغريب [82] وليس للاختراع في المعنى نفسه تأثير إلا كما للمتداول ".

---

[80] المصدر نفسه :1/333-334.

[81] سرّ الفصاحة : 276.

[82] ذهب قديماً الفيلسوف أرسطو – في كلامه على صفات الأسلوب –إلى تحبيذ طابع الغرابة على لغة الأسلوب لما يضفيه ذلك من إعجاب السامع وإمتاعه يقول :"في هذا المجال ، يشعر الناس نحو الأسلوب بما يشعرون به نحو الغرباء والمواطنين ، ولهذا ينبغي أن نضفي على لغتنا طابع الغرابة ، لأن الناس تعجب بما هو بعيد ، وما يثير الإعجاب يسرُّ ويمتع " ينظر كتاب الخطابة – ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي : 196).

(3) العامل الحضاري:

إنّ ما شهده هذا القرن من تطور حضاريّ وفكريّ ، وما نجم عن ذلك من سعة ثقافة الأدباء ولاسيمّا الكتاب ، وما طرا على الحياة الاجتماعية من تنوع وتجديد ، تمثل في بعض جوانبه بشيوع وسائل الترف والبذخ واللهو –ولاسيمّا بين أوساط الطبقة الخاصة والأثرياء – كان له أثاره على النثر الفني ،وبخاصة الرسائل الأدبية ، إذ كانت الرسائل وثائق أدبية وتاريخية مهمة تأثرت بكلَّ تلك الظروف وصوّرتْ تداعياتها المختلفة .

ولعلّ هذه الملابسات الجديدة التي بدأتْ إفرازاتها واضحة على الثقافة والأدب هي التي دفعتْ بالعديد من الأدباء والكتاب إلى التصرّف في لغة الكتابة ،وتطويعها للتعبير عما استجدَّ في حياتهم ، فراحوا يدققّون في أوصافهم ، وينوعون في موسيقى تراكيبهم ، كي تتجانس مع طبيعة الموضوعات الجديدة التي بدأوا يطرقونها وكانتْ تلتصق بحياتهم الاجتماعية والفكرية المتنوعة ،وتعبرِّ ُ عن مستجداتها .

وهكذا كان لتلك البيئات الجديدة في أقاليم المشرق الإسلامي ،وما شهدته من نهضة حضارية وفكرية وفنية متنوعة ،وما أسبغه الأدباء على نتاجهم الفني من صدق وواقعية لمجاراة حياتهم الجديدة ، كان لكلَّ ذلك أثارة الواضحة فيما طرأ على النثر الفني ،ولاسيّما الرسائل الأدبية من نضج وتطور ، وما طغى عليه من طابع الجدةّ والابتكار في الأسلوب والمضامين ، وبخاصة نزوعهم إلى الابتكار في المعاني وتفريعها للتعبير عن مناحي الحياة المتطورة في مفاصلها العديدة المختلفة

إنّ ابتكار المعاني الجديدة أمر بالغ الصعوبة ،وهو لم يتأتَ إلا للافذإذ الموهوبين من الأدباء الذين لم يجدْ بهم الزمن دائما ، ولا يتواجدون إلا في حقبٍ متطاولة .وقد علّ ابن الأثير وجهاً مهما لتلك الصعوبة في خلق المعاني وابتكارها إذ قال [83]

---

[83] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 345/1.

" إنّ المعاني المخترعة لا يمكن أن تقيّد بقيد ،أو يُفتح إليها طريق يسلك إليها ، فهي تأتي من فيض الهيّ بغير تعلم ،ولهذا اختصَّ بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض ...."

ومن هنا نصل إلى قيمة ما ابتكره الأدباء الكتاب في هذا القرن من معانٍ جديدة نادرة في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية ، كما نستدل بصنيعهم هذا على براعتهم في صناعة الترسل ، وما تمتعوا به من موهبة نادرة ،ومخيلة وقادة ،وثقافة غزيرة واسعة .

***

أما المعاني المبتكرة التي افتن الأدباء الكتاب في هذا القرن في اختراعها فيمكن أن تردَّ إلى ضربين متباينين هما :

(الضرب الأول) : معانٍ ابتكرها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن ، احتذوا فيها على مثال سابق ،ومنهج مطروق ،وهذا الضرب من المعاني المبتكرة هو الأكثر شيوعا فيما استعمله الأدباء من الشعراء وكتاب الرسائل في هذا القرن . ذكر أبو هلال العسكري مشيرا إلى استعانة الأدباء بمعاني من تقدّمهم :" ليس لأحدٍ من أصناف القائلين غنىً عن تناول المعاني ممّن تقدمهم ، والصبّ على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم – إذا أخذوها – أنْ يكسوها ألفاظاً من عندهم ،ويبرزوها في معارض من تأليفهم ،ويوردوها في غير حليتها الأولى ويزيدوها في حسن تأليفها، وجودة تركيبها ،وكمال حيلتها ومعرضها ،فإذا فعلوا ذلك فهم أحقُّ بها ممن سبق إليها [84]

وقد تقدمتِ الإشارة في المبحث الأول من الفصل الثالث من هذه الدراسة، إلى ظاهرة حلّ المنظوم من الشعر القديم والمحدث في رسائل صدور الكتاب وبلغائهم في هذا القرن ،وعرضنا شواهد لصنيع أولئك الكتاب ، كالصاحب بن عبّاد ,أبي إسحاق الصابي وأبي بكر الخوارزميّ وإضرابهم وأشرنا إلى اندفاعهم في هذه

---

[84] كتاب الصناعتين : 202 .

الطريق بلوغا إلى اختراع المعاني الجديدة مقتفين خطى من تقدّمهم من أدباء العربية في العصور الغابرة .

وقد عقد أبو منصور الثعالبي في التيمية [85] فصلا موجزا تتبعَّ فيه حلَّ بعض بلغاء الكتاب ومشاهيرهم في هذا القرن لمعاني أبي الطيب المتنبي وغيره من أدباء العربية ، إعجابا بمعانيهم ،وبلوغا لافتراع بعض إبكار المعاني التي اهتدوا إليها بهدي من تقدمهم من أولئك الأدباء الافذإذ .

والذي لاشكَّ فيه أنَّ كثيرا من تلك المعاني المبتكرة التي اهتدى إليها بلغاء الكتاب في هذا القرن ، مستعينين بهدي منْ سبقهم من أدباء العربية جاءت جميلة وقد سلمت معانيهم غالبا من سماجة التقليد والتكرار [86]، وحقا ما ذكره بعض النقاد القدامى في هذا الباب إذ قال : " وعلى الحقيقة فإنَّ في زوايا الأفكار خبايا وفي أبكار الخواطر سبايا" [87].

***

(الضرب لثاني) : معانٍ ابتكرها الأدباء الكتاب على غير مثال سابق :

وهذا الضرب من المعاني المبتكرة التي لم يقتف فيها الأدباء الكتاب من سبقهم من الأدباء أو من عاصرهم من المحدثين ، تستنبط عادة من شاهد الحال الحاضرة ،وتقع أيضاً عند الحوادث المتجدّدة ،ويتنّبهُ إليها الأدباء الافذإذ الموهوبون عند الأمور الطارئة .....

---

[85] يراجع كتاب : يتيمة الدهر 153/1-159.

[86] قد نستثني من ذلك كثيراً مما ورد للثعالبي في رسائلهِ المصنوعة التي ضمّها كتابه الشهير (نثر النظم وحل العقد) الذي ألفه لأبي العباس خوارزم شاه ، وحلّ فيه العقد من مختار الشعر الذي اشتمل عليه كتاب "مؤنس الأدباء " ، فقد ضمت تلك الرسائل المنثورة كثيراً من المعاني التي استقاها من منظوم الشعراء القدماء والمحدثين وجاءتْ متكلَّفة مصنوعة . وكذا يقال عما ورد للعسكري من معان متكلَّفة قد استقاها من شعر الشعراء في "رسائل مصنوعة له في كتابهِ الشهير "ديوان المعاني "

[87] ينظر كتاب : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 347/1.

ذكر الأديب الناقد ضياء الدين ابن الأثير يصف هذا الضرب من المعاني المبتكرة [88]:".....والخاطر في مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلَّفة ....." .

ومن نماذج هذا الضرب من المعاني المبتكرة ما ورد في فصل من رسالة للصاحب بن عبّاد يهنئ فيها الأمير البويهيّ عضد الدولة ،وقد ولد له ابنان توأمان [89]: " وصل كتاب الأمير بالبشرى التي أبتْ النعمة بها أنْ تقع مفردة ،وامتنعت العارفة بها أن تسنح موحدة ، حتى تيسَّرت منحتان في موطن، وانتظمتْ موهبتان في قرن ،وطلع من النجيبين أبي القاسم وأبي كاليجار –أدام الله عزهما – طالعا ملك ، ونجما سعد ، وشها باعزّ ،وكوكبا مجدٍ ، فتاهَّلتْ بهما رباع المحاسن ، ووطئت لهما اكناف المكارم ، واستشرف إليهما صدور الأسّرةِ والمنابر ...."

وهذه معانٍ مخترعة لم يسبق إليها الوزير الأديب ، وبعضها معان دقيقة اقتضاها مقام الحادثة الطارئة ،وشاهد الحال الحاضرة ، وهي ولادة الأميرين التوأمين ...

ومن تلك المعاني المخترعة التي لم تقع على مثال سابق ، وجاءتْ موافقة لشاهد الحال الحاضرة ، ما ورد في فصل من رسالة لأبي إسحاق الصابي إلى بعض وزراء عصره في إهداء الدواةٍ والمرفع ، وقد ذكر الثعالبيّ انّهُ لم يسمع في إهداء الدواة والمرفع أحسن وأظرف مما كتبه الصابي [90]: " قد خدمتْ مجلّس سيدنا الوزير بدواةٍ تداوي مرض عفاته ، وتدوي قلوب عداته ، على مرفعٍ يؤذنُ برفعته ، وارتفاع النوائب عن ساحته ".

ويبدو بجلاء أنَّ أبا إسحاق الصابي قد زاد في المعنى بابلغ ممّا قصد إليه في مستهلّ فصل رسالته إلى المرسل إليه ....

---

[88] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 312/1

[89] ديوان المعاني : 98/1

[90] خاص الخاص :12.

ومن المعاني المخترعة التي لم يقتفِ فيها الكتاب خطى من سبقهم أيضاً : ما وقع في أمر غريب الوقوع ، وهذا الضرب من المعاني المبتكرة عكس ما يبتكرُ من المعاني التي تستخرج بشاهد الحال الحاضرة .

وهذا الضرب من المعاني المبتكرة أصعب منالا من سواها من المعاني المبتكرة ،وقد أكدَّ هذه الحقيقة الناقد ابن الأثير إذ قال [91] : "....ولأمرٍ ما كان لأبكارها سرٌ لا يهجم على مكامنة إلاّ جنان الشهم ولا يفوز بمحاسنهِ إلا منْ دقَّ فهمهُ حتى جلّ عن دقة الفهم ،وللهجوم على عذارى المغاني المحميّة بحجب البواتر أيسرُ من الهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب الخواطر ".

ومن نماذج هذا اللون من المعاني المبتكرة ،والتي يتوصل إليها الكاتب غالبا باستخدام صور المجاز وغيره من أساليب الخيال ، ما ورد في فصل من رسالة الأمير شمس المعالي قابوس إلى خاله الأصبهبذ يعاتبه ويفخر بفتوته :[92]

"....فاني لو علمت أَنَّ الأرض لا تسفّ تراب قدمي ، لما وضعت عليها جانبا، وأنَّ السماء لا تتوق إلى تقبيل هامتي لما رفعتُ إليها طرفا ، ولكني أكره أن يعرى نحره من قلادة الحمد ، ويجنب جنبيه إكلَّيل المجد ، ويظلّ وجه الوفاء بقبضه على يده مسودا ، وركن الإخاء بفتّهِ في عضده منهدا ،ولا يعجبني أنْ يكسو ضوء مكارمه كلَّفُ الخمول ، ويأذن لطوالع معاليه بالافول .....".

ومن المعاني المبتكرة ما تقع في أمر غير غريب الوقوع ،ولم تأت على مثال سابق ،ولم يتفطن إليها الكاتب بالمشاهدة ، من ذلك ما ورد في فصل من رسالة بليغة للوزير الصاحب بن عبّاد يهنيء بعض الوجهاء بالوزارة ،وقد أشار العسكري إلى إنّهُا من المعاني القليلة النظير [93] ، ".انا أهنيء – أطال الله بقاءَ سيدنا – الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها ، وبلوغها في ظلّه إرادتها ،وانحيازها إلى ذراه

---

[91] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 321/1.

[92] ديوان المعاني : 87/1.

[93] ديوان المعاني : 96/1.

واضحة المجد والفخر ، وتوشحها من كفايته بغرّةٍ سائلة على وجه الدهر ... ولاغروَ فهي وليدة ذراه ، قد آلتْ لا تخطتْ خطته ، وعاهدتْ لا برحتْ ساحته ..."

فالتهنئة بتسنّم منصب الوزارة أمرٌ شائع ومألوف ولكن الوزير الأديب أتى بمعنى مبتكر لم يُسبق إليه إذ جعل الوزارة هي التي تشرف بانقيادها إلى الممدوح ،وهي التي تنقاد إليه طائعة متشوقة بعد أن لم يوفها حقهّا منْ تسنّمها قبله ... ويتضح بجلّاء روعة التشخيص الذي ألقى بظلالهِ الجميلة على المعنى ، ولا يخفى ما حقّقهُ هذا التشخيص من تشويق وإثارة انتباه المتلقي .

وتندرج بعض المعاني المبتكرة التي تقع في أمرٍ غير غريب فيما يتصل بالإلغاز أو الأحاجي التي يلجأ إليها الكاتب أحياناً لإثارة شوق المتلقي ؛ من ذلك مثلا ما ورد في رسالة لأبي الفضل ابن العميد إذ يقول [94] : "...وصلهُ ينذر بصدّهِ ، وقربه يؤذن ببعده ، يدني عندما ينزح ،ويأسو مثل ما يجرْح ، محالته أحوال ،وحلته خلال وحكمه سجال ، الحسن في عوارفهِ والجمال من منائحه، والبهاء من أصوله وصفاته ، والسناء من نعوته وسماته ، اسمه مطابق لمعناه ، وفحواهُ موافق لنجواه ، يتشابه حالاه ، ويتضارع قطراه ، من حيث تلقاه يستنير ، ومن حيث تنساه يستدير ".

وهكذا يتضح بجلاء ما تحققه المعاني المبتكرة في هذا النصّ الطريف الذي انصبَّ على وصف القمر ،وهو أمر مألوف وغير غريب ، إلاّ أنَّ ما قصد إليه الأديب الكاتب من رمز وتعمية ، قد أثار فضول القارئ واستفزّهُ لمتابعة هذه الأمور النادرة ،وخلق في نفسه عنصر الشوق لمعرفة هذا المجهول غير الغريب،

وكثيرا ما يقود اختراع المعاني الجديدة ، ونزوع الأدباء الكتاب إلى طلب أبكارها، إلى المبالغة أو الغلو في المعنى ،وقد حبّذها –كما مرّ بنا آنفاً – بعض النقاد [95] ولاسيما ما يرد منها في الشعر لكونه مبنيا على الجواز والتسمّح ، أما في النثر فحَّبذ استعمال (كاد) ونحوها ليكون الكلام أقرب إلى الصحة [96]

---

[94] زهر الآداب وثمر الألباب: 4/1065-1066

[95] يراجع ما ذهب إليه ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة : 263.

[96] المصدر نفسه : 263 وما بعدها .

ومن نماذج المعاني المبتكرة التي اتشحتْ بالمبالغة والغلو ؛ ما ورد في رسالة للوزير الصاحب بن عبّاد في التهنئة بالنيروز [97]

" قد أقبل النوروز إلى الأستاذ ناشراً حللهُ التي استعارها من شيمته ، ومبديا حليّهُ التي أخذها من سجيته ومستصحباً من أنواره ما اكتساه من محاسن أيامه ، ومن أمطاره ما اقتبسه من جودهِ وانعامه ....."

ونظير ذلك أيضاً ما ورد في فصل من رسالة إخوانية للأمير الأديب أبي الفضل الميكالي في باب المديح والثناء إذ يقول [98] :" لازالت الأيام تزيد رتبته ارتفاعا ،وباعه اتساعا ، وعزّته غلبة وامتناعا ، فلا يبقى مجدُ إلاّ شيدته معاليه ومكارمه ،ولا ملك إلا افترعتهُ صرائمة وصوارمه"

وهذه معانٍ حسنة مخترعة إلا أنّهُا ترشحت بحلةٍ من المبالغة والغلو مما أضفى عليها ظلالا من شحوب العاطفة التي غالباً ما تنأى بالنصّ الأدبيّ –لكونه ضرباً من الفنّ الذي يسعى للإمتاع والتأثير – عن مصاف الأعمال الأدبية الخالدة ...

المحور الثاني : الأخيلة والصور :

يشكلَّ الخيال المحور الثاني من محاور المضمون الذي يعدُّ جوهر العمل الأدبيّ وأساسه ، إذ إنَّ للخيال قيمة كبيرة ، وأثراً فاعلاً في إثراء محتوى العمل الأدبيّ ،وإغناء التجربة الأدبية ....

ومن هنا فقد ذهب كثير من النقاد المعاصرين [99] إلى أَنَّ نوعية الخيال، وإمكانياته، وفاعليته هي ما تميّز الفنان المبدع عن غيره ، لما تغرسهُ فيه من إمكانية التوفيق بين العناصر المتباعدة ، والأجزاء المتنافرة ، مما يتيحُ لهُ القدرة على الخلق والإبداع ، وهكذا تصبحُ قوةُ المخيلة عند الأديب ، وملكة الخيال ، في نظر الكثير منهم ، هي مصدر الإلهام والأصالة .

---

[97] ديوان المعاني : 97/1.

[98] زهر الآداب وثمر الألباب : 1023/4.

[99] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي :17–18.

وتأكيداً لهذا كلِّهِ ، فقد عدَّتِ النظرية النقدية المعاصرة المخيلة جزءا من الطبقة الأسلوبية ، وعدَّتِ الخيال جزءا لا يتجزأ من مجموع العمل الأدبيّ ، يقول مؤلفا كتاب (نظرية الأدب) [100]:

" إنَّ المخيلة كالوزن هي أحدى مكونات بنية القصيدة ، وهي ..... جزءٌ من الطبقة الأسلوبية أو المختصة بتركيب الكلام ، فيجب أخيراً ألا تدرس في عزلة عن الطبقات الأخرى ، بل كعنصر وجزء لا يتجزأ من مجموع العمل الأدبيّ ".

وتعميقاً لهذا الوعي النقديّ المعاصر – فضلا عّما قدَّمهُ النقد العربي القديم من خلال التحليل البلاغي لنصوص القرآن والشعر من مفاهيم قيمة ودقيقة أوضحتْ تصوّر النقاد القدامى للصورة الفنية ،وملكة الخيال بوصفهِ المصدر الأسمى لتلك الصور – فسيحاولُ البحث أن يقف أولا عند دراسة الخيال وقفةً سريعة بوصفه الملكة التي تنتج الصور الفنية ، فضلا عن أنّهُ هو القوة النفسية التي تصور لنا الحقائق وتجسدها وتعرضها على المتلقي بأسلوب فنّي يثيرُ فيه مكامن الشوق أو الإشفاق ، أو غير ذلك من العواطف [101] ، ويعيد تشكيل تلك الصور أو يصل مع بعضها في عمل فنّي تتجلّى في تضاعفيه عناصرُ الابتكار والأصالة والإبداع ...

وسيقف البحث بعد ذلك ، وقفةً مركزة عند طبيعة الصورة الفنية ، بوصفها نتاجاً لملكة الخيال ، ونسيجاً متميزاً من العلاقات اللغوية يقدّم المعنى تقديماً فنياً متميزاً. ثم سيقف البحث عند تصوير المحسوسات والمعنويات في رسائل هذا القرن ، ثم يردف ذلك دراسة أهم الوسائل التي يعتمدها الأدباء للتعبير عن آفاق خيالهم ، تلك الوسائل التي تفرزها اللغة وتضعها في متناول الأديب ،وتشمل التشبيه والمجاز الاستعاري والكناية ، وغيرها من الأساليب التي تتيح للخيال متسعا من التحليق والإبداع .....

---

[100] نظرية الأدب – رينيه ويليك وأوستن وارين :273.

[101] ينظر :أصول النقد الأدبيّ : 211.

مصطلح الخيال وتطور مدلوله :

لم يتسع مفهوم مصطلح (الخيال) ولم تتعمَّقْ دلالاتهُ في النقد العربي القديم كما هو شأنّهُ في النظرية النقدية المعاصرة [102] أو كما ستنظِّر له بعضُ المذاهب الأدبية كالرومانتيكية مثلا ، فدلالة الخيال في تلك الدراسات النقدية القديمة كانت " تشير إلى الشكلَّ والهيئة والظل ، كما تشير إلى الطيف أو الصورة التي تتمثل لنا في النوم أو أحلام اليقظة ، أو في لحظات التأمل عندما نفكر في شيء أو شخص [103] ".

ومن هنا نلمسُ أّنَّ دلالة هذا المصطلح قديما ، لم تكنْ تؤميء – كما تطور إليها في الدراسات النقدية المعاصرة – إلى القدرة على تكوين صور ذهنية ، أو تلّقي صور المحسوسات وإعادة تشكيلها بعد غيابها عن متناول الحسّ .

لقد بدا استعمال مصطلح (التخيل) وبعض ما يرادفه (كالتوهم) ، (والتمثل) في دائرة البحث الفلسفي [104] ، ثم طفق استعمال هذا المصطلح ينتقل إلى مجال الدرس النقدي والبلاغي ، فقد حاول أبو نصر الفارابي (ت 339 هـ) أَنْ يوحِّدَ ما بين الفكر الفلسفي والتفكير الأدبيّ ، وجعل نظرية الشعر قسما من أقسام تفكيره الفلسفي العام ، وقد تجلّى ذلك واضحا من خلال فهمه الدقيق لملكة (التخيل) عند الشاعر ، وطبيعة الإثارة التخيلية التي يحدثها الشعر في المتلقي [105].

---

[102] ذهب النقاد المعاصرون إلى صعوبة حدّ هذا المصطلح النقدي ، حتى قال (رسكن) " إنَّ حقيقة الخيال غامضة صعبة التفسير ، وينبغي أن يفهم في آثارهِ فحسب " .
(ينظر كتاب : أصول النقد الأدبيّ للأستاذ أحمد الشايب : 212).

[103] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي :19 وما بعدها .

[104] تراجع التفاصيل فيما تناوله الفيلسوف الكندي في رسالته الشهيرة " في حدود الأشياء ورسومها " لمصطلح التخيّل والتوهم بوصفهما قوة نفسانية مدركة للصور الحسية مع غيبة طينتها ....(رسائل الكندي 167/1).

[105] تراجع التفاصيل في كتاب الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي :27–28.

وما من شك في أنَّ أبا نصر الفارابي قد أفاد من نظرية (المحاكاة) [106] الأرسطية ، إلاّ أنّهُ وجهَّها على أساس نفسيّ واضح حين كشف – وهذا ما لم يفعله أرسطو في كتابه فنّ الشعر – عن الدور الذي تلعبهُ ملكة (التخيل) في إبداع الشعر ، وما تحدثهُ الإثارة التخيلية للشعر في المتلقي

وفي الدراسات النقدية المعاصرة تعاظمت العناية بعنصر الخيال ، بوصفه الملكة التي تتمُّ بها عملية التأليف بين الصور وإعادة تشكيلها وأصبح مصطلح الخيال (Imagination) يعني " القدرة على إيجاد التناغم والتوافق بين العناصر المتباعدة والمتنافرة داخل التجربة " [107].

وطفقتْ بعضُ المذاهب الأدبية – وبخاصة المذهب الرومانتيكيّ – تعنى بالتنظير النقدي للخيال – بوصفه المصدر الرئيس من مصادر الصورة الفنية – فأطالوا الوقوف عند حدّه ، وماهيته ، وفصَّلوا في أنواعه ومكانته ، وهكذا " ميَّزوه وأفردوه ، وبقي أثر فلسفتهم فيهِ حيّا لدى المذاهب والاتجاهات الأدبية التي تلتهم [108]".

ولعلّ الناقد (كولردج) من أشهر أعلام الرومانسية الذين عنوا بعنصر الخيال وفصّلوا في أقسامه وأهميته في العمل الفني ، فقد حدَّد الخيال بانّهُ:

---

[106] تقوم نظرية المحاكاة عند أرسطو على ثلاثة أركان : ما يحاكى به (أي وسيلة المحاكاة) ، ما يُحاكى (أي موضوع المحاكاة) ،وطريقة المحاكاة (أي تحديد الأنواع الأدبية) ، وتقوم النظرية عند أرسطو – خلاف أستاذه أفلاطون الذي رأى أن المحاكاة تشويه للطبيعة ، أي أن الشاعر عندما يحاكي فأنّهُ يشوّه صورة المثال الذي يحاكيه في شعره – على أنَّ المحاكاة هي نقل الطبيعة بلاحرفية ، أي نقلاً ينطوي على الإبداع والخلق لا النقل الحرفي . (ينظر كتاب : في الشعر – أرسطو ترجمة وشرح د. محمد شكري عيّاد / دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة 1967م)

[107] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي :17 وما بعدها

[108] الصورة الشعرية في النقد الأدبيّ الحديث : 45.

" الملكة التي تُحيلُ الكثرة إلى الوحدة ، وميَّزه من التوهم ، وهو القدرة التي تمكنّنا من الجمع والتكديس [109] ".

وكما عني الناقد (كولردج) بأثر الخيال وأهميته في وحدة العمل الفني ، فقد فصّل في أنواعه وأقسامه [110] . وهكذا يتضحُ بجلاء أنَّ المصطلح الغربي (Imagination) يبرز العلاقة بين (الخيال) و (الصورة الفنية) ، إذ إنّ الصورة هي أداة الخيال ووسيلته ومادته المهمة التي يمارسُ فيها ومن خلالها فاعليته ونشاطه [111].

الصورة الفنية وصلتها بالخيال :

مرَّ بنا آنفاً ، أَنَّ الخيال هو الملكة التي تشكلَّ صور العمل الأدبيّ ، وتصل ما بينها ، ومن هنا فإنَّ النظرية النقدية المعاصرة – التي تنظرُ إلى الصورة بوصفها معياراً نقدياً ، فضلا عن أنّهُا شكلَّ فني محض – تنظرُ إلى (الصورة) بوصفها نتاج ملكة الخيال ، ونسيجا متميزا من العلاقات اللغوية ، يقدم المعنى تقديما ماديا محسوسا [112].

---

[109] كولردج – د. محمد مصطفى بدوي : 59 (ط القاهرة 1958).

[110] قسّم كولردج الخيال إلى (الخيال الأولي) وأبان عن أهميته في عمليات الإدراك كلَّها ، كما فصَّل في (الخيال الثانوي) وهو الخيال الفني أو الشعري ، وعدَّهُ صدى للأول ، إلاّ أنّهُ أسمى منه لأنّهُ يحلّل وينشر ويجزِّئ لكي يخلق من جديد . تراجع التفاصيل في (النظرية الرومانتيكية في الشعر – د. عبد الحكيم حسان : 241 وما بعدها) .

[111] تراجع التفاصيل في كتاب : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : 19.

[112] لقد تباينتْ آراء النقاد المعاصرين في هذا الجانب ،والذي لاشكَّ فيه أنّ أساس أية صورة فنية أو مصدرها في أيّ نصّ أدبيّ ، هو خيال الأديب ، أو قوة مخيلته ،وهذا الخيال يتفاعل مع أحاسيسه ليعطي الصورة إيحاءها ،ومن هنا يرى بعض النقاد المعاصرين أن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان ، أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع (ينظر : الشعر العربي المعاصر – عز الدين إسماعيل : 127) ، في حين يرى نقاد آخرون أن الصورة تشكيل لغوي يكوِّنه خيال الفنان مع معطيات متعددة يقفُ العالم

وعلى الرغم من بروز مصطلح الصورة (Image) في العقود الأخيرة من القرن الماضي ، إلا أنَّ النقاد والباحثين المعاصرين قد اختلفوا في فهمه وتباينوا في تحديد دلالاته النقدية ،وقد تمثَّل هذا التباين بينهم واضحا " في استعمال الصورة معيارا نقديا حينا ، أو مظهراً بلاغياً حينا ثانيا ، أو شكلاً فنيا محضا حينا ثالثا ، أو دالة شعائرية حيناً رابعا [113].

ومع حداثة هذا المصطلح (Image) في النقد الغربي ، إلا انّهُ وردتْ ومضات نقدية قديمة للفيلسوف أرسطو ، تؤميء إلى تأكيده أهمية الصور في العمل الفني ، وصلتها الوثيقة بالمجاز . يقول أرسطو [114]:

"أما الصور فأنّهُا – كما قلنا من قبل – مجازات مرموقة جدا وتتألف دائما من حدّين مثل الاستعارة التمثيلية .....".

ثم يقول أرسطو ، بعد أن ساق شواهد عديدة من تلك الصور [115]:

" والصور تجمل إذا تضمنّتْ مجازاً ....وكل هذه التعبيرات صورٌ ، والصور – كما قلنا – مجازات " .

وقدّم الموروث النقدي العربي القديم تصوراً واضحاً للصورة الفنية من خلال التحليل البلاغي للصورة في القرآن والشعر ، بوصفها من القضايا الثابتة في الشعر ،وإحدى أهمّ خصائصه النوعية .

وعلى الرغم من تقييم بعض الباحثين والنقاد المعاصرين للتجربة الشعرية القديمة ، وما تختزنهُ من صور فنية بذائقة نقدية معاصرة [116] حتى راح بعضهم

المحسوس في مقدمتها (تراجع التفاصيل في : الصورة في الشعر العربي – د. علي البطل : 32 ، وينظر أيضاً : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه : 125 (اليزابيث دور – ترجمة : محمد إبراهيم الشوش ، وينظر الأدب وفنونه – مندور 138 وما بعدها ، حيث ذهبوا إلى أن التجربة الشعرية – في أساسها – هي تجربة لغوية).

[113] الصورة في القصيدة العراقية الحديثة – أ.د. عناد غزوان – مجلّة الأقلام : 83 (ينظر العددان 11، 12 لعام 1987 م) .

[114] الخطابة : 228.

[115] المصدر نفسه : 229.

يصمُ تلك الصور بأنّهُا جزئية لم تتعدَّ حدود البيت أو البيتين من القصيدة ،ووصم بعضهم الآخر محاولة النقد القديم لدراستها بأنّهُا فلسفية تنظيرية [117] إلاّ أنَّ النقد العربي القديم قدَّم مفاهيم قيمة ودقيقة للصورة الفنية تتناسبُ مع طبيعة تلك المرحلة التاريخية والحضارية ، وما أتيحَ لها من وسائل مناسبة ....

ولعلّ في طليعة تلك الجذور القديمة لدراسة الصورة الفنية في التراث النقدي القديم ، ما نظَّره الجاحظ [118] من أسس راسخة لمصطلح الصورة ، حتى عدَّها بعض النقاد المعاصرين تمهيداً لاستقرار هذا المصطلح في النقد القديم [119]

ويقف الناقد قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) بين النقاد الذين كشفوا عن تصورهم الخاص لطبيعة الصورة الفنية ،وأهميتها ووظيفتها ،وقد أفاد في تكوين هذه المفاهيم النقدية من ثقافته الإسلامية فضلا عن الموروث اليوناني القديم .

إنَّ مفهوم الصورة عند قدامة هو الشكلَّ الفني الجديد الذي يصاغ من مادة الشعر ، أي من المعاني ، فالشعر هو الصورة وبذلك قرَّر أنَّ مقياس جودة الشعر ورداءته تكون وفق جودة الصورة عند الشاعر ورداءتها [120]

---

[116] ينظر ما ذهب إليه الدكتور عز الدين إسماعيل من أنّ النمط الذي غلب على الصورة الشعرية القديمة مرتبط بدلالتها الحسّية والجزئية : الأدب وفنونه : 116 وما بعدها ، وينظر : الشعر العربي المعاصر : 146 ، وإلى هذا أيضاً ذهب الدكتور نعيم اليافي في كتابه : مقدمة لدراسة الصورة الفنية : 52 .

[117] يراجع كتاب : الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث : 109 وما بعدها .

[118] يراجع رأي الجاحظ في المعاني : كتاب الحيوان 3/ 131-132 ،ويراجع أيضاً ما قرّرهُ في البيان والتبين 1/66-67 عن أهمية السبك والوحدة التلاحمية في القصيدة ، إذ لمّح الجاحظ إلى عناصر الصورة ، فأشار إلى قدرة الشاعر على التصوير ،وبراعته الخيالية في رسم صورهِ ، وتفرّده في ذلك الخيال ،فضلاً عن عناصر الشعر الأخرى كالوزن وصحة إقامته ،والطبع والصناعة اللفظية البارعة وغيرها .

[119] يراجع ما ذهب إليه الدكتور عناد غزوان في بحثه المنشور في مجلّة الأقلام العددان 11، 12 بعنوان (الصورة في القصيدة العراقية الحديثة : 83-84).

وممن وقف عند موضوع الصورة ،ودورها في التعبير الشعري ، من النقاد القدامى أيضاً ، عبد القاهر الجرجاني (471 هـ) لقد كان الجرجاني يرى أنَّ الصياغة والتصوير هما سبيلا الكلام الفني ،وأنَّ المعنى مادة الصورة والصياغة من الناحية الفنية . يقول [121] " ومعلومٌ أنَّ سبيل الكلام سبيلُ التصوير والصياغة وأنَّ سبيل المعنى الذي يُعبرَّ عنه سبيل الشيء الذي يقعُ التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار ".

وطبقاً لما قرَّره عبد القاهر في نظريته المشهورة في النظم وتأليف الكلَّم ، فإنَّ الصورة عنده تعني جوهر تلك العلاقة التركيبية الدلالية في قدرة الشاعر على تصوير المعنى وصوغه ، أي أنَّ هذا الشكلَّ الجديد هو (صورة) جديدة لمادة معروفة تؤلف الجانب العام من المهارة الفنية .

وفي (أسرار البلاغة) أبان الجرجاني عن مفهوم آخر للصورة ،وجلّى عن قيمتها في التعبير الشعري بخاصة ،وكشف عن دلالة الصورة على التجسيم وتقديم المعنى تقديما حسيّا ملموسا ، يقول [122] : " إنك ترى بها الجماد ناطقا ،والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبِّينة ،والمعاني الخفيّة بادية جليّة ، إنْ شئتَ أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقول كأنّهُا جُسِّمتْ حتى رأتها العيون "

وهكذا يستشفُّ الباحث من حصيلة ما طرحه الموروث النقدي القديم في موضوع الصورة ، أنّهُا العنصر الفني للتعبير اللغوي الذي تمثلهُ اللغة الشعرية ، فالصورة الشعرية إذاً تعكس " قدرة الشاعر في استعمال اللغة استعمالا فنيا يدلُّ على مهارته الإبداعية ، ومن ثمّ يجسّدُ شاعريته في خلق الاستجابة والتأثير في المتلقي ، فالصورة هي الوعاء الفني للغة الشعرية شكلاً ومضمونا [123]

---

[120] ينظر : نقد الشعر : 65 (ط دار الكتب العلمية –بيروت بتحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجي).

[121] دلائل الإعجاز : 175.

[122] أسرار البلاغة : 41.

[123] الصورة في القصيدة العراقية الحديثة : 83.

***

أساليب بناء الصورة في الرسائل الأدبية :

سيحاول البحُثْ في هذا الجانب أنْ يتجه إلى دراسة الصورة الفنية في رسائل بلغاء الكتاب في هذا القرن ، وتحليلها من خلال تفاعل الشكلّ والمضمون، وعلاقتهما الكلّيّة في التعبير عن التجربة الفنية لهؤلاء الأدباء الكتاب المبدعين، أي التعبير عن ذواتهم وأحاسيسهم ، فضلا عن التعبير عن جميع معطيات واقعهم الموضوعي ، بجانبيه الحسّي والذهني ، مع الحرص على علاقة الصورة الجدلية بالسياق وتواؤمها فيه وتلاحمها مع جزئياته المتعددة ....

ولعلّ من القضايا المهمة المُسَلَّم بها في الدرس النقديّ ، أَنَّ الأثر الأدبيّ غالبا ما يكتسب الأصالة وصفة الشمول الإنساني ، حين يصور بدقة وصدق المرحلة التاريخية التي عاصرها ، وطبقاً لذلك فانَّ المضمون الاجتماعي والفكري للرسائل الأدبية في هذا القرن واقترابها من حركة الواقع ودقة تصويره أحد أهم أسباب أصالتها وعمقها وصدق محتواها ....

لقد جسّدَ كثير من نماذج الرسائل الأدبية في هذا القرن مشكلات إنسانية عامة ، وبدا واضحا أنَّ الهمَّ الاجتماعي الذي عالجه الأدباء الكتاب لم يعدْ ذلك الهمَّ الذي يخصّهُ وحده ، وإنما أصبح هّما إنسانياً عاما. وكان وعي الأدباء الكتاب في هذا القرن لحركة الواقع الاجتماعي ،وإدراكهم أبعاد هذا الواقع ، وتحولاته وتفاعلاته المختلفة ، دفع الكثير من أولئك الكتاب إلى القبض على المحاور الأساسية التي تحكم تلك العلاقات . وكان هذا الوعي هو ما دفع بلغاء الكتاب إلى محاولة تسجيل تلك الجوانب الخطيرة في المجتمع الإسلامي ورصده ، ممّا طبع صور كثير منهم بطابع التقريريه إذ كانت كثيراً ما تحمل طابعا تسجيليا غلب عليها صفة الإخبار ،وإيصال الموقف إلى المتلقي مباشرة ، ومن هنا فقد اعتمدت أسلوب السرّد حينا أو الوصف والتسجيل حينا آخر .

وفضلا عن ذلك فقد لجأ كثير من أولئك الأدباء الكتاب في أحيان أخرى إلى تخطّي تلك التقريرية أو المباشرة في التصوير، ومن هنا فقد غلب على بعض

صورهم عنصر الخيال فمالثْ تلك الصور إلى التجسيد والتشخيص اللذين يقومان على مبدأ إعادة تشكيل الواقع وتقديمه في هيئة جديدة تختلف كثيرا عن أساسها المادي المألوف .

لقد كانت الأشكال البلاغية أهمَّ أشكال التصوير الفنيّ الأساسية في مختلف الآداب العالمية ، وعبرَ أكثر عصورها الأدبية ، وقد تنبّه قديماً الفيلسوف أرسطو إلى قيمة هذه الأشكال الفنية في العمل الأدبي .

ولقد كانت هذه الأشكال البلاغية أهمَّ الأسس التي اعتمد عليها كثير من الكتاب البلغاء في بناء صورهم الفنية ، ومنها التشبيه والمجاز الاستعاري والكناية والرمز وغيرها من الأساليب الفنية الأخرى ....

وقبل أن اشرع في دراسة هذه الأشكال الفنية البلاغية التي اتكأتْ عليها الصورة قديما في رسائل كتاب هذا القرن ، لابدَّ من الإشارة إلى أنَّ أولئك الكتاب لجأوا إلى أساليب أخرى اعتمدوها في بناء صورهم الفنية ومنها :

(ا) اعتماد كثير من كتاب هذا القرن في بناء صورهم الفنية على المقابلة بين شيئين متضادين كالقوة والضعف والشباب والشيخوخة والنشاط والفتور أو الحلاوة والمرارة وما إلى ذلك .

وقد عرضنا لدراسة التضاد (الطباق) آنفاً ،وأوضحنا قيمته الفنية في إجلاء المعنى وإيضاحه وتأكيد الفكرة وتعميقها فضلا عما يحقّقه استخدام هذا التضاد من تلوين الصورة ،وخلق عنصر التشويق وإثارة انتباه المتلقي وتحفيزه لمتابعة العمل الأدبيّ ،وتلقي جزئياته ومتابعتها .

(ب) ومن الأساليب الفنية التي اعتمدها بعض الكتاب البلغاء في بناء صورهم الفنية أيضاً : اعتمادهم على رسم المشهد واستقصاء الجزئيات والإلحاح على الصورة .

ولعلّ وقوفنا عند ظاهرة الإطناب واستقصاء المعاني ،ولجوء الكتاب في هذا القرن إلى استقصائها وتشقيقها ، ما جلّى بعض جوانب هذه الظاهرة الفنية في رسائل هذا القرن .

(ج) ومن أساليب بناء الصورة في رسائل كتاب هذا القرن أيضاً : لجوؤهم إلى ظاهرتي (التكثيف) و(التفصيل) وفق ما يتطلّبه الموقف الذي عبرَّ عنهُ الكاتب أو مراعاة مقام إنشاء الرسالة الأدبية وظرفها الخاص..

وفي هذا الجانب ،يستوقفُ الباحث المتأمل في رسائل بلغاء الكتاب في هذا القرن ، تميّز الكثير من ألفاظهم بالإيحاء ،وتنوّع الظلال أو الشيات المتعددة فضلا عما تميّزتْ بهِ تراكيبهم من تماسك وتلاحم تفاوتتْ بين السلاسة والجزالة والوضوح والغرابة ،وصولاً إلى الإحاطة بجوهر الموقف أو التعبير عن التجربة الإبداعية بصدقٍ وفاعلية .

(د) ومن أساليب بناء الصورة الفنية عند بعض كتاب هذا القرن أيضاً : إتباع أسلوب التصوير القصصي ،والاتكاء على الحدث أو تصوير الشخصية وقد برع في هذا اللون من أنماط التصوير الفني ،بديع الزمان الهمذاني بخاصة كما تجلّى في بعض نماذج رسائله التي مرَّ عرضها في المباحث المتقدمة ....

تصوير المحسوسات والمعنويات في الرسائل النثرية :

لقد حظي فنّ التصوير في الأدب – شعراً ونثراً – بين الأدباء والنقاد منذُ القدم ،وعلى تباين ثقافتهم ،واختلاف لغاتهم ، حظي بمنزلةٍ رفيعة ربما لم يتطلّعْ إلى مراقيهِ الشامخة أيٌّ من أدوات التعبير الأخرى ، فقد شاع في الدرس النقدي مثلا ، أنَّ الفيلسوف (أرسطو) كان يمّيز التعبير بالاستعارة –لما فيها من جمال التصوير – على بقية الأساليب ،أو أنماط التعبير الأخرى ، وكان يعدّه آية الموهبة [124]

وقد ذهب بعضُ النقاد إلى أَنَّ " أول خطوة في خلق الصور هو أن يقرنَ الشاعرُ نفسه إلى الأشياء التي تستهوي حواسَّه [125]"

ولفرطِ عناية الأدباء الكتاب في هذا القرن ، بالمعاني ، فضلا عن كلَّفهم بالصياغة اللفظية ، وزخارف البديع والسجع ، ودأبهم المتواصل على الإتيان منها

---

[124] تراجع التفاصيل في كتاب : في الشعر – ترجمة الدكتور محمد شكري عياد : 128 (ط دار الكاتب العربي – القاهرة 1967م).

[125] الصورة الشعرية – سيسل دي لويس: 76.

بكلّ ما هو جديد ،أو مستطرف ،وغير متداول ، فقد حرصوا على تصوير ما يقعُ تحت حواسّهم ، أو يجولُ في خواطرهم ، ،و يعتملُ في وجدانّهُم ، ولذلك فقد برعوا في توليف صور حسيّة نادرة ،و صياغة تشكيلات وصور معنوية عمادها التشخيص أو التجريد ، بلوغاً إلى تمثّل المعاني الجديدة التي يجرون وراءها تمثلا دقيقاً ومبتكراً .

وهكذا لجأ الأدباء الكتاب في هذا القرن إلى استخدام صيغ إيحائية تأخذُ مدياتها التعبيرية مما تشعّهُ من دلالات على التجسيم أو التجريد ، أو عدم تقديم المعنى تقديما سطحيا أو مباشرا ،وتقديم نمطها الحسيّ (المادي) على اختلاف أنواعه ، على نحو خاص ،وبهذا يرينا الكاتب ، عبر استخدامه لأساليب التصوير الفني في النصّ الأدبيّ ، كما عبَّر عن ذلك من قبلُ الناقد عبد القاهر الجرجاني [126] ، يرينا الجماد ناطقا ،والأعجمَ فصيحا ،والمعنى الخفيّ باديا وجلّيا.

وقد تتسعُ مديات استخدام التصوير الفني في الأدب ، شعرا ونثرا ،لتشمل مثلا ، تحويل غير المرئي (العقلي المجرَّد) إلى المحسوس ،أو تقديم الغائب (غير المنظور) في صورة الحاضر (المشاهد) ، الأمر الذي يغذيّ المعنى الأدبيّ بفرادته المخصوصة لدى المتلقي ، إذ تنحرفُ الألفاظ في التشكيل الصوري عن دلالتها المعجمية إلى دلالة خطابية جديدة .

ولعلّ من روائع التصوير الفني في هذا الباب ،ما شاع من استخدام أدباء هذا القرن في باب المديح ، من ذلك مثلا ، قولهم [127] : " فلانٌ مسترضعٌ ندى المجد مفترشٌ حجر الفضل .

-ينابيعُ الجود تتفجَّرُ من أنامله ،وربيع السماء يضحكُ من فواضله". وكقولهم أيضاً في ذكر النعاس ووصفه [128] :"-شرب كأس النعاس ، وانتشى من خمر الكرى .

-غرق في لجةِ الكرى ، وتمايل في سكرةِ النوم ."

---

[126] ينظر : أسرار البلاغة : 40 (تحقيق : هـ . ريتر – مطبعة وزارة المعارف -1954).

[127] زهر الآداب وثمر الألباب : 635/3 وما بعدها .

[128] المصدر نفسه : 805/3.

ونظيرُ هذا أيضاً قولهم في وصف الثلج والبرد [129] "القى الشتاء كلكلَّه ، وأَحلَّ بنا أثقاله .

–ضربَ الشتاءُ يجرانّهِ ،واستقلَّ باركانهُ ، وأناخَ بنوازله ،وأرسى بكلاكلَّه ،وكلَّح بوجهه ،وكشَّر عن أنيابه .

–قد عادتْ هاماتُ الجبال شيباً ،ولبستْ من الثلج بُرْدا قشيبا"

***

وهكذا يتجلّى بوضوح كيف برع أدباء هذا القرن في توظيف الخيال – بوصفه الملكة التي تخلق الصور الفنية وتبثّها – لخدمة الأفكار التي المّوا بها في ترسلهم ،والسموّ بمعانيهم إلى آفاق رحبةٍ من الابتكار والتجديد ،ولا ريب في أَنّ الصور – كما ذهب إلى ذلك بعضُ النقاد المعاصرين – [130] تخدم الأفكار على خير وجهٍ إنْ كانتْ مرتبةً بصورة تختفي فيها جميع الأصداء عدا الضرورية منها ،وقد تستعمل الصور لتوكيد الأفكار العامة وتوضيحها ....

وقد تتسعُ عمليةُ استخدام التصوير الفني في الأدب أيضاً ، من خلال اشتراك أكثر من حاسة في تكوين الصورة الفنية الجديدة في النصّ الأدبيّ،وهذا ما يُعرف عند النقاد المعاصرين بالصورة المتكاملة (Unified Image) [131]

ولعلّ من روائع ما يستوقف الباحث في هذا الاتجاه من الرسائل الوصفية لأدباء هذا القرن ، ما ورد في فصل من رسالة أدبية لأبي بكر الخوارزميّ، يصفُ كتاباً بليغاً وصل إليه من بعض لداته [132] "كتاب هو المسكُ ذكيّا ،والزهرُ جنيّا ،والماءُ مريّا ،والعيشُ هنيّا ،والسحرُ بابليّا ...".

---

[129] زهر الآداب وثمر الألباب : 4/ 940.

[130] ينظر كتاب : الصورة الشعرية – لويس : 93.

[131] تراجع التفاصيل في كتاب : الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث : 106.

[132] من غاب عنه المطرب : 17.

ويتضحُ جلّيا أنّهُ قد اشتركتْ في هذا الوصف أكثر من حاسة في إبداع هذه الصورة الفنية وخلقها ، وهي على التوالي حاسةُ الشمّ ،وحاسة البصر ، فحاسةُ الذوق ، فضلا عما مازجها من تلاوين ذهنية مجرّدة أخرى ....

ونظيرُ هذا أيضاً ، ما ذكرهُ الحُصْريّ فيما ينُسبُ لأدباء هذا القرن أيضاً ،مما يجري في باب المدح مجرى الأمثال ، لحسن استعاراتها وبراعة تشبيهاتها [133] " – لهُ صورةٌ تستنطقُ الأفواهَ بالتسبيح ، ويترقرقُ فيها ماءُ الكرم ،وتقرأ فيها صحيفة حسن البشر ، تحيا القلوبُ بلقائه ، قبل أنْ يميتَ الفقرَ بعطائه"

فقد جمع الكاتب في هذا الفصل من الرسالة بين الصورة المرئية (صورة تستنطق الافواه بالتسبيح) ، وبين الصورة السمعيّة (يترقرقُ فيها ماءُ الكرم) في توليفٍ معنوي متناغم جميل ، مع ما في الصورة الثانية من تجريد ، ضاعف من حسنه وبهائه ، وتناسب جزئياته ، ائتلاف التضاد بين (احياء الممدوح للقلوب بلقائه) قبل أنْ (يمُيتَ الفقرَ بسخاءِ عطائه) .

وفضلا عما تقدم ، فقد كان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيرا ما يصورون المحسوسات (الأمور المادية) بإطار ذهنّي مجرّد ، وكثيرا ما كانوا يشبّهون الذوات المحسوسة بالصفات والمعاني الذهنية المجرّدة ، إمعاناً في طلب معانٍ جديدة مبتكرة ، من خلال تلك الصور المعنوية النادرة ...فا ورادُ البستان توحي بأخلاق الممدوح ،وجدولهُ السابح يقرنُ بطبعه ،وزهرهُ الجنيّ يوميء إلى قربه ! يقول أبو القاسم الصاحبُ بنُ عبّاد في أحد فصول رسائله في الاستزارة [134]: "انا على طرف بستانٍ ، اذكرني وردُهُ بخلقك ، وجدولهُ السابحُ بطبعك ، وزهرُهُ الجنيّ بقربك ".

والماءُ في زرقتهِ يُشبّهُ بصفاءِ الودّ ، ورقة القول في العتاب !! يقول الوزير الصاحبُ أيضاً في فصلٍ من رسالة لهُ [135]: "علقتُ هذهِ الأحرفَ ،وأنا على حافةِ حوض ذي ماءٍ أزرق كصفاء ودّي لك ،ورقة قولي في عتابك ...".

---

[133] زهر الآداب وثمر الألباب : 635/3.

[134] يتيمة الدهر : 287/3.

[135] المصدر نفسه : 287/3.

ونظيرُ ذلك أيضاً ما جاء في أوصاف أهل هذا القرن في صفات الثقلاء [136]: "كأنّ وجههُ أيام المصائب ،وليالي النوائب ..."

وكقولهم أيضاً في وصف السكاكين [137] " سكينٌ كانَّ القدرَ سائقها أو الأجلّ سابقها .... كأَنَّ المنيّة تبرقُ من حدِّها ،والأجلّ يلمعُ من متنها ...."

لقد أفاض كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيرا في عرض تلك الصور الفنية ،وشغفوا بالإكثار منها في ترسلهم ، ومن هنا فقد لجأ أكثرهم إلى الترادف حيناً ، أو التكرار حيناً آخر ، لملء الصورة ، وإكمال جزئياتها ،والدقة في رسمها ،والبراعة في عرض الجزئيات ،ولم يقتصرْ هذا الأمرُ على المعنويات ،أو تصوير المعاني المجرَّدة ، وإنما نتلمَّسهُ أيضاً في صورهم الحسيّة الجميلة ...

يقول الوزير الصاحب بن عبّاد في فصل لهُ من رسالة [138]:"وقد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحتْ فسالتْ دماؤها ، وضعُفتْ فبقي ذماؤها ، وسامتني اشجارٌ كأَنّ الحور أعارتها أثوابها ،وكستها أبرادها ،وحضرتني نارنجاتٌ ككراتٍ من سفنٍ ذُهِّبتْ ، أو ثدي أبكارٍ خلقت ..."

ولا يخفى ما في هذه الصور الحسيّة البصرية التي دبّجها الكاتب ، وأبدعها خيالهُ الخصب من طرافة ،وما تنبضُ بهِ من حركة وحياة ،وما تشعّهُ في نفس المتلقي من نشوة حين يسري بخياله إلى آفاق الحور التي أعارتْ أثوابها ،أو ما تبثه في خلدهِ تلك النار نجات المذهبّة التي تذكرِّ بثدي كاعب بكر خجول ...

ومن تلك الصور الحسيّة الجميلة أيضاً ، ما ورد في ألفاظ كتاب هذا القرن في صفات الفواكه والثمار [139]: " سفرجلّ يجمع طيبا ،ومنظراً حسناً عجبيا، كأنه زئير الخزّ الأغبر ، على الديباج الأصفر .

---

[136] زهر الآداب وثمر الألباب : 2/ 489-490.

[137]زهر الآداب وثمر الألباب : 2/ 494.

[138] يتيمة الدهر :3 / 288.

[139] زهر الآداب وثمر الألباب: 2/349.

–تفاحٌ نفّاح ، يجمعُ وصف العاشق الوجلّ ،والمعشوق الخجلّ ، لهُ نسيم العبير وطعم السكر ، رسول المحبّ ،وشبيه الحبيب .

–تين كأنه سُفُرٌ مضمومة على عسل .

–مشمش كأنه الشهدُ في بيادق الذهب "

***

وهكذا نتلمسُ من خلال هذه الشواهد اليسيرة قوة الأديب في هذا القرن في تصوير المحسوسات والمعنويات وتجسيد المعاني الذهنية المجرّدة ، والأمور المادية المحسوسة على حدّ سواء ،ونتلمَّسُ أيضاً ذلك التفصيل في الوصف واستقصاء الجزئيات بأسلوب لم يُسبقْ إليه كتاب العربية في العصور السالفة ...

الصور البلاغية (الفنية) أنواعها وأساليب بنائها :

سبقتِ الإشارة إلى أَنَّ قوّة المخيلة وحدّتها عند الأديب تتيحُ لهُ ، عن طريق استخدام الوسائل التي تهيئها لهُ أداة التعبير وهي اللغة وتضعها في متناوله ، أَنْ يعبِّر عن أحاسيسه وتطلعاته بحرية واسعة ، تتخطى حدود واقعه ، فأمام الأديب الفنان ثراء لغوي متدفق يتيحُ لهُ بيسر أنْ يرسمَ ما توحيه إليه مخيلتهُ من أبعادِ خياليةٍ متنوعة ، تتمثَّلُ في التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ، وما إليها من الأساليب البيانية التي تتيحُ للخيال متسعا وانطلاقا ...

فأسلوب التشبيه مثلاً ، يمكِّنُ الأديب الكاتب أن يظهرَ أَنَّ أشياءَ معينة ، عن طريق اشتراكها في صفة أو أكثر ، أشدّ وضوحا ،وأبهى موقعا ، وأعظم صفة ،وأجمل أو أقبح منظراً ،وما إلى ذلك مما سنبينهُ لاحقا ....

وأسلوب المجاز والاستعارة هما أيضاً لا يعبرّان عن العلاقات الموضوعية للأشياء ،وإنما يعبرّان عنها وفق ما تتخيلها ذاتُ الأديب ، أو كما ترتسمُ في مخيلته ، فهي طبقاً لذلك ،لغة تخيلية تعتمدُ التعبير بالصورة أساسا ، وهي بهذا لا تعتمدُ التسجيل أو الإخبار أو الوصف ، وإنما تعتمدُ الإيحاء أو الإشارة ....

ومن هنا كانت غايةُ المجاز والاستعارة بخاصة تكثير الدلالة ،وتفخيمها ، بإخراج اللفظ الحقيقي من مواصفاته الأصلية إلى حالةٍ جديدة ، قوامُها التخييل ،وجواز الحقائق الشائعة عرفاً واتفاقا.

أما أهمّ تلك الأساليب أو الأشكال البلاغية (الفنية) التي استعان بها الأدباء الكتاب في رسم صورهم ، وتجسيد أفكارهم في هذا القرن ، فهي كما يأتي:

(أ) :التشبيه(*) :

التشبيه : أحد أساليب التعبير المهمة ، ومن فنون الكلام الذي شاع تداوله في مختلف الآداب الإنسانية منذ القدم ....

وقد عدَّهُ الفيلسوف (أرسطو) قديما ، ضربا من المجاز ، وأشار إلى أهميته في الكلام المنثور ، إلاّ أنه أوصى بوجوب التقليل من استعماله في النثر لغلبة الطابع الشعري فيه يقول [140]

"والتشبيه نافعٌ أيضاً في النثر ، لكن ينبغي التقليل من استعماله في النثر ، لانّ فيه طابعا شعريا ، ويجبُ استعمال التشبيهات مثل المجازات وهما لا يفترقان إلا في طريقة الصياغة ".

والتشبيه أيضاً من فنون الكلام الذي شاع في لغة العرب وأدبها منذ عصر ما قبل الإسلام ،وقد عدَّهُ صاحبُ (نقد النثر) ، أشرفَ كلام العرب ودليلا على فطنتهم في فنّ القول ،وبراعتهم وحذقهم في الشعر ، يقول [141]

(*) ذكر أبوهلال العسكري حدَّهُ فقال : " الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه " وذكر أنه يصحُّ تشبيه الشيء بالشيء جملة ، وان شابهه من وجهٍ وأحد (ينظر كتاب الصناعتين 245) بينما ذكر ابن سنان الخفاجي في ذلك يقول :" ..وإنما الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه ، وبالضدّ ، حتى يكون رديء التشبيه ما قلَّ شبهه بالمشبه به " ينظر (سر الفصاحة : 237) ،وينظر أيضاً في حدّه ،وآراء البلاغيين في ذلك : علم البيان – د. بدوي طبانه : 36 وما بعدها .

(140) كتاب الخطابة –ترجمة د. عبد الرحمن بدوي : 204 (المقالة الثالثة / في صفات الأسلوب)

(141) نقد النثر : 58.

"واما التشبيه فهو من اشرف كلام العرب ،وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ،وكلَّما كان المشبِّه منهم في تشبيههِ ألطف ، كان بالشعر أعرف ، وكلَّما كان المعنى أسبق ، كان بالحذق أليق ...."

وذكر أبو العباس المبرّد (ت285 هـ) أنّ التشبيه جارٍ كثير في كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يبعد [142]

وقد أشار العسكريّ إلى أهميته ، وشيوع استعماله عند سائر المتكلَّمين فقال [143] : "والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ، ويكسبهُ تأكيدا ، ولهذا أطبق جميع المتكلَّمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغنِ أحدُ منهم عنه " وقد أكد جلّ الأدباء والنقاد القدامى أهميته وحسنه في الكلام ،فقد جعل الأديب الناقد ابن المعتز(ت296 هـ) في كتابه (البديع) [144] ، حسن التشبيه الفنّ الحادي عشر من محاسن الكلام ، بينما جعل ضياءُ الدين ابن الأثير (فن التشبيه) النوع الثاني من الصناعة المعنوية ، وعدَّهُ فنا مستوعر المذهب ، ومن مقاتل البلاغة .يقول ابن الأثير [145]:

"فالتشبيه إذا يجمع صفات ثلاثة ،هي : المبالغة والبيان والإيجاز .... إلاّ أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب ،وهو مقتل من مقاتل البلاغة ،وسببُ ذلك انّ حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إما صورة وإما معنىً يعزّ صوابهُ ،وتعسرُ الإجادةُ فيه ....".

---

[142] الكامل في اللغة والأدب: 69/2 (مطبعة الاستقامة – القاهرة 1961م)، وذكر في حدّه يقول : " واعلم أن للتشبيه حدّاً ، فالأشياء تتشابه من وجوه ، وتتباين من وجوه ، وإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع" . وقسمه إلى أربعة أضرب هي : المفرط ، المصيب ، المقارب والبعيد ، يراجع كتاب الكامل ، ج60/3 (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) .

[143] كتاب الصناعتين : 249.

[144] يراجع كتاب البديع :68.

[145] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 1 /388-394.

وفنُّ التشبيه وسيلة مهمة من وسائل الخيال ،ودعامة أساسية من دعائم تثبيت الصورة في نفس المتلقي ،وامتاعه واستثارة مكامن أشواقه ،ولعلَّ هذا ما يفسِّرُ إطباق جميع المتكلِّمين والأدباء البلغاء على استعماله في شعرهم وخطبهم وترسلهم ....

وقد أكدّ هذه الحقيقة المهمة الناقد ابن الأثير ، فذكر يقول مشيرا إلى فائدة التشبيه وعلاقته بالخيال [146]: "وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثَّلتَ الشيء بالشيء ، فإنما تقصدُ بهِ إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ،وذلك أوكدُ في طرفي الترغيب فيه ،أو التنفير عنه ، ألا ترى أنك إذا شبَّهتَ صورةً بصورة هي أحسن منها ، كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبَّهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها ، وهذا لا نزاعَ فيه " .

***

وقد فطن الأدباءُ والكتاب البلغاء في هذا القرن للتشبيه بوصفه أحد طرائق التعبير والبيان ،ووسيلة مهمة من وسائل الخيال ، وتنبهّوا إلى ما يحققهُ أيضاً من استثارة المتلقي وامتاعه ، وإثارة تشويقه للعمل الأدبي ،ولِما لهُ من تأثير كبير في ابتكار المعاني ،والتحليق في آفاقها ، أو الإغراب فيها ولمِا لهُ أيضاً من تأثير فاعل في أيضاحها ،وجلاء الأفكار وتعميقها ، فضلاً عما ينطوي عليه من مزايا فنية أخرى يمكن أن تساعد الأديب الفنان في تحقيق ما يقصدهُ من أغراضٍ ومرامٍ تقتضيها العملية الإبداعية ...

ولعلَّ أكثر ألوان التشبيه التي شاعتْ في أشعار الشعراء ورسائل الكتاب البلغاء في هذا القرن ، تشبيه الأمور المحسوسة بالأمور المعنوية أو العقلية ، أو ما تدركُ بالذهن ،وربما كان إمعان الأدباء في هذا اللون من التشبيه ،ولهثهم وراءه ،وطلبهم لهُ ، سعياً وراء الاغراب في الخيال ،والتحليق في آفاقه السحيقة ، لخلق صور ذهنية بعيدة ،أو غير مألوفة ،وقد كان نزوعهم إلى التجديد في المعاني ، والابتكار فيها ،ما حفزهم لهذه المرامي الفنية التي شاعتْ في أدبهم ...

---

[146] المصدر نفسه : 1/ 394.

فالماءُ في زرقته مثلا يشبه بصفاء الودّ ، ورقة القول في العتاب ، كما مرَّ بنا في فصل [147] من رسالة للصاحب بن عباد ،ومن صور تشبيه المحسوس بالمعقول أيضاً ، ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أبي حامد الأديب بقومس جوابا عن كتابه إليه ،ومما ورد فيه [148]: "ورد عليّ كتاب الشيخ ، وهو اعزّ كتاب عليَّ إلاّ أنّه كان صغيراً كأيام لقائي لهُ ،قصيرا كمدةٍ أنسي به ..."

ونظير هذا اللون من التشبيه أيضاً ، ما جاء في أوصاف أهل هذا القرن في صفات الثقلاء [149]:"فلان...يحكي ثقلَ الحديث المعاد ،ويمشي في القلوب والأكباد ، ولا ادري كيف لم تحمل الأمانة أرض حملته ؟! وكيف احتاجتْ إلى الجبال بعدما أقَّلتهُ.

–كانَّ وجههُ أيام المصائب ،وليالي النوائب ...."

وقد تباينتْ آراء النقاد القدامى في هذا الضرب من التشبيه ،فقد استهجنهُ بعضهم كأبي هلال العسكري ، ذكر يقول [150] : "وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يرى بالعيان بما ينال بالفكر ،وهو رديء وان كان بعض الناس يستحسنهُ لما فيه من اللطافة والدقة ..."

أما ابنُ الأثير فقد جعل تشبيه المحسوس بالمعنوي القسم الرابع من أقسام التشبيه وقد استحسنه كثيراً ،ذكر يقول [151] : "..... تشبيه المحسوس بالمعنوي : وهذا القسم ألطف الأقسام الأربعة لأنهُ نقل صورة إلى غير صورة "

أما تشبيه المعنى بالصورة – كما نعته ابن الأثير [152] –أو تشبيه المعنوي بالحسيّ ، كما مثّل لهُ بقوله تعالى : " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ..." فقد

---

[147] ينظر : يتيمة الدهر : 3 / 287–288.

[148] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 180.

[149] زهر الآداب وثمر الألباب 2: /489 –490.

[150] كتاب الصناعتين : 248.

[151] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 1/ 398.

[152] المصدر نفسه : 1/ 397.

جعله ابن الأثير القسم الثالث من أقسام التشبيه الأربعة ،وقد عدَّهُ ابلغ الأقسام الأربعة يقول [153]: " ... وهذا القسمُ ابلغ الأقسام الأربعة ، لتمثيلهِ المعاني الموهومة بالصورة المشاهدة " .

ومن نماذج ما ورد من هذا اللون من التشبيه في رسائل هذا القرن ، ما كتبهُ أبو إسحاق الصابي في فصل من رسالة له [154]:"إذا كان لابدَّ للأسلاف أنْ تمضي ،والأخلاف أن تنمو ، كالشجر الذي يُغرسُ لدِنا ، فيصير عظيماً ،والنبات الذي ينجم رطبا ، فيعود هشيما...."

ونظيرُ ذلك أيضاً ،ما ورد في رسالته إلى محمد بن عباس يعزّيه عن طفل وقد شبّه الدنيا وصروفها ونوازلها بالسهام التي تثبتُ في الأغراض يقول [155] :" الدنيا – أطال الله بقاءَ الرئيس – اقدارٌ تردُ في أوقاتها .....فهي كالسهام التي تثبتُ في الأغراض ،ولا ترجع بالاعتراض ..."

ومن صور تشبيه المعقول (المعنوي) بالمحسوس أيضاً ، ما جاء في فصل من رسالة لأبي بكر الخوارزمي إذ يقول [156] : " واقلّ ما عنده أنّ عطاياهُ قد صيَّرتِ المفحمَ شاعرا ، وجعلتِ العفيف سائلا ، كالمنهل يقصرُ رشاؤه ، ويعذبُ ماؤه ، فيشرب منه العطشان نهلا ،والرّيان عللا ،وكالطعام يحسنُ في العين ، ويطيبُ في البطن ،ويخفُّ على القلب ، فيأكلَّه الجائعُ تغذيا ،والشبعان تفكهّا ...."

ونظيرٌ ذلك أيضاً ما ورد في فصل من رسالة لأبي الفضل الميكالي إلى أبي عمرو البحتري [157] " .... وظهرتْ محاسنه كالنجوم الثواقب ،واختطفتهُ يدُ المقدار ،ومُحيَ أثرهُ بينَ الآثار ..."

---

[153] المصدر نفسه : 1/ 397.

[154] يتيمة الدهر : 2/ 254.

[155] زهر الآداب وثمر الألباب : 4/ 957-958.

[156] رسائل أبي بكر الخوارزمي :217.

[157] زهر الآداب وثمر الألباب : 1141/4.

وقد عدَّ أبو هلال العسكريّ هذا اللون من التشبيه أحد أربعة أنواع تميزّتْ بالجودة ،وسمّاهُ " إخراج ما لا تقعُ عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة " ، وجعلهُ القسم الأول من تلك الأقسام الأربعة [158]

أما ابن سنان الخفاجي [159] فقد جعل حسنَ هذا اللون من الشبيه مقرونا بأيضاح المعنى وبيان المراد . يقول :"والأصلُ من حسن التشبيه أنْ يمثَّلَ الغائبَ الخفيّ الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد فيكون حسن هذا لأجلّ أيضاح المعنى وبيان المراد ".

***

ومن ألوان التشبيه التي شاعتْ شيوعا مطردا في رسائل بلغاء الكتاب في هذا القرن أيضاً ، ما سماهُ ابنُ الأثير " التشبيه بالمصدر يقول [160] : "واعلم انَّ محاسن التشبيه ان يجيء مصدريا ، كقولنا : قدم إقدام الأسد ، وفاضَ فيضَ البحر وهو أحسنُ ما استعمل في باب التشبيه ".

ومن نماذج ما ورد من هذا اللون من التشبيه بالمصدر ، ما كتبهُ أبو إسحاق الصابي في فصل بليغ من رسالة له[161] : " ... وحمل عليها حملة الحوت الملتقم والثعبان الملتهم ، والليث الهاصر ، والعقاب الكاسر ..."

ومن صور التشبيه البليغ بالمصدر ، ما ورد في رسالة أدبية للوزير الصاحب بن عباد في الاستزارة والدعوة إلى مجلّس شراب [162] " ...وأحبُّ أن تطير إلينا طيرانَ السهم ، أو تطلع علينا طلوعَ النجم "

---

[158] كتاب الصناعتين : 246.

[159] سرّ الفصاحة : 237.

[160] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 395/1.

[161] رسائل الصابي (مخطوط ص 121 أ) بدلالة رسالة : أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه : 227.

[162] من غاب عنه المطرب : 120-121.

ونظيره أيضاً ،ما ورد في فصل من رسالة أدبية لأبي هلال العسكريّ في الشكر [163] " وأنا معترفٌ بذلك اعترافَ الروض بحقوق الأنواء، وقائل به كما أقول بفضل الوفاء " .

وهكذا نلحظ من خلال صور التشبيه الآنفة الذكر ، اتساع مديات التصوير الفني في مكاتبات هذا القرن ، حتى شملتْ تحويل غير المرئي (العقلي المجرّد) إلى المحسوس المألوف ، الأمر الذي يغذّي المعنى الأدبي بفرادتهِ المخصوصة لدى المتلقي ، إذ تتحولُ الألفاظ في هذه الصور التشبيهية عن دلالاتها الوضعية (المعجمية) إلى دلالات خطابية جديدة رائقة ....

***

(ب)المجاز الاستعاري [*]

لقد ميّز الفيلسوف (أرسطو) قديما الاستعارة – بوصفها ضربا من المجاز– على بقيّة الأساليب ، وأنماط التعبير الأخرى ، لِما فيها من جمال التصوير وكان يعدُّها آية الموهبة [164].

والاستعارة ضربٌ من المجاز اللغوي ،وقد شاع تداولها في كلام العرب منذُ القدم على سبيل التوسع في التعبير ،وقد علّل صاحب كتاب " نقد النثر " [165]

---

[163] ديوان المعاني : 104/2.

[*] ذكر ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) نقلاً عن أبي الحسن الرماني ، حدَّ الإستعارة بأنها " هي تعليق العبارة على غير ما وضعتْ له في أصل اللغة على جهة النقل للابانة " (ينظر : سر الفصاحة :108) ،وعند ابن الأثير (ت 637 هـ) هي " نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما ، مع طيّ ذكر المنقول إليه ...." أي المشبه (ينظر : المثل السائر 1/ 365).

[164] في الشعر –أرسطو – ترجمة وشرح د. محمد شكري عياد : 128 (ط دار الكاتب العربي – القاهرة 1967)

[165] نقد النثر (المنسوب إلى قدامة) : 65–64 (تحقيق د. طه حسين ، د. عبد الحميد العبادي) .

شيوع استعمالها في أدب العرب ، وحاجتهم إليها في لغتهم لكثرة ألفاظهم على معانيهم –وليس هذا في لغة غير لغة العرب – ومن هنا فقد كان العربُ يعبرِّون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ، ربما كانت بعضها مخصصة لهُ ،وبعضها الآخر مشتركة بينه وبين غيره . ثم يقول [166] : "وربما استعاروا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز "والاستعارة عند أبي هلال العسكري – طبقا لذلك – " نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض [167]"

ثم أتى على ذكر ما تحقّقهُ الاستعارة (المصيبة) من مقاصد بلاغية فذكر أربعةً منها هي : شرح المعنى والابانة عنه ، وتأكيده والمبالغة فيه ،والإيجاز ، واخيرا تحسين المعرض الذي تبرز فيه المعاني [168]

وفي القرن الرابع تنبّه الأدباء والكتاب البلغاء إلى التعبير بالاستعارة،بوصفهِ وسيلةً مهمة من وسائل التصوير الفني ،وأداة فاعله لملكة الخيال . ومن هنا فقد عكفوا على الإكثار من استخدامه في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية ، وقد برعوا في استخدام هذا اللون من أفانين التعبير ايّما براعة ، حتى أنَّ المتتبع لأثار أولئك الكتاب البلغاء لتأخذه الدهشة لقرائحهم الوقادة وطباعهم النفاذة ، التي هيّات لهم القدرة على التحليق في وصف العوالم المحسوسة ،واستكناه ما يستتر في خبايا الوجدان ،وخفايا الأذهان ،بأسلوب بلغ الغاية في الفنّ وجمال الأداء ...

ولعل بديع الزمان الهمذاني ، وأبا بكر الخوارزميّ قد بلغا الذروة في استخدام المجاز الاستعاري ،وتوظيفه في ادبهما ومكاتباتهما الأدبية ، حتى أنهمابزّا فيه سواهما من كتاب هذا القرن كثرةً وأداءً ، فبرعا ايمّا براعة في تجسيد كثير من المعاني الذهنية أو الأفكار المجرّدة ، فصاغاها في صور حسيّة بارعة كما افتنّا في تصوير كثير من الأمور الحسيّة المألوفة ، بمقارنتها بأمور معنوية مجرّدة ،أو مواءمتها بقضايا ذهنية بعيدة عن متناول الحسّ ، رغبةً في الإبداع والإغراب ،وصولا

---

[166] المصدر نفسه :65.

[167] كتاب الصناعتين : 274.

[168] كتاب الصناعتين : 274-275.

إلى ابتكار معان جديدة وطريفة ، تستثير المتلقي ، وتبعث فيه النشوة والمتعة الفنية التي هي قوام الفن وغايته ...

ومن صور التعبير الاستعاري النادرة التي تطالعنا في رسائل بديع الزمان ما صاغه في بعض فصول رسائله الأدبية إلى أبي العباس الاسفراييني يعاتبه ، وقد برع في توظيف الاستعارة التمثيلية (المركبة) لخلق هذه الصورة الرائعة [169]:

" كتابي ، والثمرةُ – أدام اللهُ عزّ الشيخ الجلّيل – تخرجُ من أكمامها ، فتكون مرَّةً قبل تمامها ، ثم تصير مزّةً كثيراً من أيامها ، ثم تكون فجَّةً عصفةً ثم لا يزال الليلُ والنهارُ ينضجانها حتى تصبح رطبا جنيا ، وتؤكلَّ حلوا هنيّا ، وقد تصوّرني الشيخ الجلّيل حجرا لا يؤثر فيَّ الماء والنار ، ولا ينضجني الليلُ والنهار ،وللشباب نزْقةُ طْيشٍ ثم يربعون ، إذا جاء الأربعون ، وينزعون ، وانْ كانوا لا يوزعون " .

وهكذا استعار الكاتبُ الثمرة وأحوالها المتتابعة ،في عتابهِ على الشيخ الاسفراييني ،وانكاره عليه تصّوره حجرا لا يؤثر فيه الماء والنار ،فالإنسان – يعني نفسه _ لا يبلغ الحلم ،ولا يدرك الرشد إلاّ بعد أنْ تمرَّ عليه أطوارُ وأطوار ، فهو كالثمرة ، لا يُدرك جناها ، ولا يبدو صلاحها إلاّ بعد أن تختلف عليها تلك الأحوال والصروف ...

ويتواصل تأكيد بديع الزمان – في معرض عتابه على الشيخ الاسفراييني – جلّدَهُ وطول مراسه في تحملّ صروف الدهر ، بما قطعهُ من مسيرة الحياة المضنية وتأهّبه لتوديع الشباب فيقول [170]:

"ولقد نظرتُ في المرآة فوجدت الشيب يتلّهبُ وينهب ، والشباب يتأهب ويذهب ،وما أسرجُ هذا الأشهبَ إلاّ لسيرٍ ، وأسألُ الله خاتمة خير ...."

وهكذا يوظف الأديب الكاتب المجاز اللغوي الاستعاري مرة أخرى ليظللِّ به لوحته الفنية الجميلة فيستعير صورة الفرس الأشهب ،وهو الأبيض المشرب بحمرة للشيب الذي بدا يلوح في تلافيف مفرقة ،وقد رشّح الكاتب هذه الاستعارة الجميلة

---

[169] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 12.

[170] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 12.

بالسير والإسراج التي هي من صفات المستعار (الفرس الأشهب) فهي بهذا استعارة تصريحية مرشحة .

ويفتنُّ الهمذاني كثيراً في بناء صورهِ الفنية بتوظيفه " الاستعارة المكنية " لتجسيد المعاني الذهنية المجردة في صور مادية محسوسة، نزوعا إلى أيضاح المعنى وجلاء الفكرة واضفاء طابع المبالغة فيما يريد إسباغه على الممدوح من صفة الكرم ،والتفرّد في العطاء والنوال ....

يقول في فصل من رسالته إلى أبي الطيب سهل بن محمد [171] : " فليس إلاّ أن يلبسَ مكارمهُ ضافيةً بالغة ، ويردَ مشارعه صافية سائغة " فقد شبّه الكاتب مكارم الممدوح بالحلل القشيبة التي ترتدى ثم حذف المشبّه به ،وأبقى بعض لوازمه أو صفاته ثم استعار أيضاً المشارع الصافية الماء السائغة الشراب للدلالة على كرم الممدوح وعظيم نواله .

وفي رسالة بديع الزمان أيضاً إلى أبي جعفر الميكالي كتب يقول [172] " .. وبقي أن أقرصه بأنامل العتب ، وأجمشه بألحاظ العذل .." فقد شبه الهمذاني (العتب) بإنسان لهُ أنامل ، واستعارهُ لهُ على سبيل الاستعارة المكنية ... وهذا الضربُ من التصوير بالاستعارة المكنية كثير في رسائل الهمذاني .

***

ومن صور التعبير الاستعاري الجميلة التي تطالعنا في رسائل الخوارزمي – ولاسيما الاستعارة بالكناية – ما كتبه في رسالته إلى قاضي القضاة يصفُ فيها ما عاناهُ من علّةٍ المَّتْ به ،وشفائه منها [173] " ثم أراد الله تعالى أن يري عبدَهُ رحمته

---

[171] رسائل بديع الزمان الهمذاني: 131 ، الضافية : الساترة ، البالغة : الكافية ، المشارع جمع مشرع وهي موارد الماء السائغة : العذبة السهلة في الحلق من ساغ الشراب إذا سهل شربهُ .يراجع لسان العرب (مادة ضفي ، بلغ ، شرع ، سوغ).

[172] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 99.

[173] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 210.

، بعدما أراه قدرته فأقامه من صرعته واستلّهُ من مخلب علّته ،وأزال عنه يدَ المنية بعدما اشتبكتْ به ...."

ففي هذا الفصل من الرسالة صورتان معنويتان ، جسَّدهما الكاتب بأسلوب الاستعارة المكنية ففي الصورة الأولى شبّه (العلة) التي أصابته بالحيوان المفترس ثم حذف المستعار منه وأستعار لازمه من لوازمهِ وهي المخلب وقرنها بالمستعار له (العلّة) على طريقة التخييل ...

وهكذا يقال في الصورة الثانية ، إذ شبّه المنيّة التي اقترب منها بإنسان أراد انتزاع الحياة منه بقبضة يده ! ثم حذف المستعار منه واستعار لازمة من لوازمه فنسبها على سبيل التخييل إلى المستعار له ...

ومن صور التعبير الاستعاري في رسائل الخوارزمي أيضاً ما ورد في فصل من رسالته إلى صديق له على ديوان الخراج ويلاحظ براعة الصور وتكثيف الاستعارات يقول [174] : " ..... وجديرٌ بمنْ هطلتْ عليه سحائب عنايتك ورفرفتْ حوله أجنحة رعايتك ، أن ينبوَ عنه سيفُ الزمان مفلولاً ويرجع عن ساحته عسكر الزمان مهزوما ..."

ومن روائع الصور الفنية في أدب الخوارزمي أيضاً ، ما يطالعنا في هذا الفصل من رسالته إلى كاتب خوارزم شاه وقد نكب ، فقد تلطف الكاتب كثيرا في التصوير إذ شبّه صديقه الذي نُكب بالطائر الكبير واستعار القفص الصغير (للمنصب الذي كان يشغله) ثم جعله أيضاً –زيادة في التلطف والمواساة لصديقه – درّة يتيمة ومثّل منصبه الذي عُزل عنه بالصدفة فكتب إليه يقول [175] :" .. وما للطائر والقفص الصغير ، وما بال الدرة اليتيمه ترضى بالصدفة اللئيمة ،وإنما الأدب جناح فهلا طرتَ به من الوكر الصغير إلى الوكر الكبير "

---

[174] رسائل أبي بكر الخوارزمي: 214–215.

[175] المصدر نفسه : 255.

ويتضح بجلاء ما حققته الاستعارة التصريحية (التمثيلية) من جمال تصوير كما لا يخفى أيضاً ما تضمنته الصورة من رمز جميل أضفى على جزئيات الصورة قدراً كبيراً من البهاء والإشراق ...

ونظير هذه الصورة الفنية التي اعتمد الكاتب في بنائها على المجاز الاستعاري كثير جدا في رسائل أبي بكر الخوارزمي بخاصة ، وغيره من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كأبي إسحاق الصابي والصاحب بن عباد واضرابهما من الكتاب البلغاء الذين شُهروا بالبراعة وخصب الخيال .

(ج) الكناية أو الإرداف (*)

وهي إحدى فنون (علم البيان) الذي يختصُّ بالتعبير عن المعنى الواحد بطرائق مختلفة في وضوح الدلالة عليه [176] ، والكناية إحدى فنون التعبير الفني التي تضفي على الكلام جمالا وتشويقا ،وتزيده جلاء ووضوحا .

أمّا حدُّها فهو أن يريد الأديب الدلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدلّ على معنى هو ردفه وتابع له [177]

وقد لجأ الكتاب البلغاء في هذا القرن كثيرا إلى استخدام الكناية ، بوصفها وسيلة مهمة من وسائل الأيضاح والمبالغة وتأكيد المعنى ، فعبد القاهر الجرجاني يرى أنَّ الأديب حين يكنّي عن المعنى فإنّه يزيد في إثباته فيجعله أبلغ وآكد وأثبت[178].

وقد تتحقق الإبانة وزيادة الوضوح فضلاً عن جمال التصوير في التعبير الأدبي عن طريق الكناية بتأكيد وجود الصفة وذلك بإثبات ما يدلُّ عليها (أي لازمها

(*) سمّى الناقد قدامه بن جعفر البغدادي (ت 337 هـ) الكناية (بالإرداف) وجعله من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى ينظر : نقد الشعر : 157 .

[176] تراجع التفاصيل في علم البيان وحدّه ومقاصده وفي الكناية وأقسامها :علم البيان للدكتور بدوي طبانة : 173-208.

[177] ينظر : نقد الشعر : 157 ، العمدة1/ 477 -492.

[178] دلائل الاعجاز : 58.

) وايجابها بما هو شاهد في وجودها أكثر توكيداً وأعظم بلاغة في الدعوى من أنْ يجيء بها الأديب فيثبتها هكذا ساذجا غفلا [179]

وقد أكَّد الناقد قدامه بن جعفر أيضاً ما تفيده الكناية من جمال تصوير ووضوح حين قال [180]: " فإذا دلّ على التابع أبان عن المتبوع "

لقد شاع أسلوب التعبير بالكناية شيوعا واسعا في رسائل الهمذاني أكثر من سواه من كتاب عصره حتى لتطالعنا أحياناً في الرسالة الواحدة عدة كنايات متناثرة [181]

ومن ريق تعابيره بالكناية التي أضفت على معانيه الإشراق والوضوح ما ورد في فصل من رسالته إلى أبي العباس الاسفراييني يشكوه عمال الخراج [182]

" .. والشيخ الجلّيل بحمد الله مليء القلب ، ثابت القدم ، وافر الأعوان والخدم، مخيّل بالظفر ، والسلاح يعض ويكلم ، ويهذُّ ويهدم ...."

فكنّى في هذا الفصل من الرسالة بثبات القدم عن رسوخ الممدوح وثباته وعدم تزحزحه عند مقارعة المحن أو الخطوب وكنّى عن التحام الحرب واشتدادها بقيام (الحرب على ساق) فزاد المعنى جلاءً وتشويقاً ، وشحذ انتباه المتلقي ترقباً وزاد في جمال المشهد ظلالا جديدة بما حقّقه التعبير بالكناية من روعة التصوير.

وفي فصل آخر من رسالة لبديع الزمان إلى أبي جعفر الميكالي كتب يقول : [183]

---

[179] ينظر : علم البيان : 206.

[180] نقد الشعر : 157.

[181] تراجع رسالة الهمذاني إلى الاسفراييني : ص11 ، ورسالة أخرى إليه : ص27-28 ورسالته إلى أبي جعفر الميكالي : ص98 ، ورسالته إلى أبي القاسم الكرخي : زهر الآداب 3/ 862-863،ورسالته إلى أبي علي إسماعيل في الاعتذار : زهر الاداب: 2/ 612 ورسائل أخرى غيرها كثيرة .

[182] رسائل بديع الزمان الهمذاني : 11.

[183] المصدر نفسه : 98 .

" ... لا جرم إني اليومَ أبيض وجه العهد ، واضح حجة الودّ ، طويل لسان القول، رفيع حكم العذر ، وقد حمَّلتُ فلاناً من الرسالة ما تجافى القلم عنه "

فكنّى ببياض وجه العهد عن الوفاء به ،والمحافظة عليه ،ورمز بالبياض إلى النقاء والطهر من دنس الخيانة كما كنّى بـ (تجافي القلم) – وهي كناية بعيدة لا يفطن إليها إلاّ اللبيب الفطن – عن أنّه لا يستطيع التباعد ووضع ما يكتبه في بطون الأوراق .

وكتب أيضاً في فصل من رسالة بليغه إلى أبي القاسم الكرخي [184]

" فاني –أطال الله بقاء الشيخ مولاي – وان كنت في مقتبل السنّ والعمر ، فقد حلبت شطري الدهر " وهذه كناية جميلة عن صفة ، إذ كنّى عن سعة تجربته وعظيم اختباره بمن يمازجهم ويعاشرهم على الرغم من حداثة سنّهِ بقوله : (حلبت شطري الدهر) وفي هذا التعبير الفني قدرٌ لا يخفى من الإيجاز وجمال التصوير ، فضلا عن التلطف في مخاطبة المرسل إليه .

وفي فصل من رسالة للعسكري في الاعتذار، ويظهر فيها عظيم عنايته بمعانيه [185] " وقد خفضت لك جناح الذلّ في التنصّل مما فرط ، فتفضَّلْ عليَّ بالقبول لئلاّ يلحقني هجنتان : هجنة تذللي لك ، وأخرى ردّك لي " فكنىّ عن خضوعه له واعتذاره إليه بقوله : (خفضت لك جناح الذلّ) وهو اقتباس للآية الكريمة " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " مع تغيير طفيف في النصّ [186]، ثم كلَّل معانيه جلالاً ووضوحاً باستخدام أسلوب الأيضاح بعد الإبهام، وهو من أساليب الإطناب التي اقتضاها ظرف إنشاء الرسالة وهو الاعتذار ...

---

[184] زهر الآداب وثمر الألباب : 3/ 862-863.

[185] ديوان المعاني : 1/ 220.

[186] الآية (24) من سورة الإسراء قوله تعالى : " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ..."

ومن كنايات الصابي التي حازتْ إعجاب بعض النقاد القدامى ولفتتْ انتباههم ما كتبه عن عزّ الدولة بختيار إلى أبي تغلب الحمداني عند إرسال ابنته التي زوّجها إليه [187] " وقد توجه .. نحوك يا سيدي بالوديعة ،وإنما نُقِلتْ من وطن إلى سكن "

فكنّى الصابي عن ابنة بختيار (بالوديعة) وهي كناية عن موصوف ، وقد عدَّ ابن سنان الخفاجي كتاب الصابي هذا من جيد الكلام ،وكنايته من أحاسن الكنايات [188].

وقد تحقق الكناية في التعبير الأدبي – فضلا عن جمال التصوير والوضوح – التلطف في إيراد المعنى بما لا يؤذي السامع أو المتلقي ، أو يخدش مشاعره أو يثير إحساسه .

ذكر الثعالبي ، مشيراً إلى هذا المعنى الخفيّ في مقاصد الكناية [189]

" وقد يكنّى عن العزل بالصرف ، وعن المصادرة بالموافقة ، وعن الهزيمة بالتراجع ، كما كتب أبو إسحاق ، عن بختيار ، إلى صاحب طرْفٍ بإزاء عدوّ : " وإنْ حزبك أمر يجب الاحتراس منه ، عملت إلى التحيّز إلى الحضرة ، فإنهّا ممهّدة لك ، غير نائية عنك ...." فكنّى عما يخزي ويشين كالفرار أو الهزيمة ، بالتحيّز إلى الحضرة ، تلطفاً بالسامع وعدم المساس بأحاسيسه أو تجريحه.

***

المحور الثالث : الانفعال أو العاطفة الأدبية :

أهمية العاطفة أو الانفعال في العمل الأدبي :

العاطفة أو الانفعال – كما هو شائع في الدراسات المتخصصة في علم النفس [*] – هي ظاهرة وجدانية تتصل بالنفس الإنسانية وهي إحدى أهم المحاور

---

[187] النهاية في الكناية : 189 ،الكناية والتعريض : 6

[188] ينظر : سرّ الفصاحة :155–156 .

[189] الكناية والتعريض : 52.

الأساسية التي تؤلف محتوى العمل الأدبي أو مضمونهِ فهي الميزة المهمة التي تكسب النصّ صفته الأدبية ...

ومن هنا فقد غدت العاطفة الأدبية أهمَّ العناصر الأساسية التي طبعت (الأدب) عموما بطابعه الفني إذ كثيراً ما تكون العاطفة هي الغاية الأساسية في بعث الأدب ، والحافز المباشر لنشأته أو خلقهِ كما قد تكون أيضاً وسيلة لنشر الحقائق [190] .

ولعلّ ما يؤكِّد ميزة هذا العنصر الفني – فضلا عما تقّدم– على بقية عناصر الأدب الأخرى انه الباعث الأسمى الذي يكسب العمل الأدبي الخلود والشمول الإنساني ؛ وذلك لسحر ما يمتلكه الأدب الخالص – لقيامه على العاطفة أو الانفعال – من قدرة على إيقاظ المشاعر الإنسانية المختلفة وتأجيجها ،مهما ران عليها من ضعف أو فتور وهكذا يثير فينا الأدب الخالد اللذة وقوة التأثير فيكتسب البقاء والشهرة على مرّ الحقب والدهور ....

وانطلاقا من هذه الحقيقة ونظرا لأهمية العاطفة الأدبية وقيمتها –فضلا عن عناصر الأدب الأخرى كالخيال الذي يساعد على إيقاظ العواطف والفكرة التي تعدُّ أيضاً عنصراً مهماً في النص الأدبي وغاية من غاياته – في تشكيل مادة الأدب الخالد فإنَّ النظرية النقدية القديمة عموماً أولت العاطفة الأدبية – بوصفها إحدى أهم محاور العمل الأدبي والباعث الرئيس لإبداعه – اهتماماً كبيراً وكان موقف النقاد القدامى في ذلك على مذهبين :

(المذهب الأول) : ربط العواطف الأدبية أو الانفعالات بالأديب المنشيء وهذا المذهب النقدي يجعل العواطف الأدبية هي التي تنتج الفنون الأدبية وتوجهها ولعل ما شاع في أوساط هذه الفئة من النقاد فيما ذهبوا إليه من أنَّ " قواعد

(*) تراجع التفاصيل في كتاب : دراسات في علم النفس – د. حامد عبد القادر ، (المطبعة النموذجية 1954) ، المدخل إلى علم النفس الحديث – ركس نايت – ومرجريت نايت ترجمة : د. عبد علي الجسماني – مطبعة الخلود 1984 ط3.

[190] أصول النقد الأدبي : 31.

الشعر أربعة : الرغبة وتنتج المدح والشكر ، والرهبة وتنتج الاعتذار والاستعطاف ، والطرب ، وينتج الشوق ورقة النسيب ، والغضب ، وينتج الهجاء والتوعد والعتاب " .[191] خير ما يجلّي هذا المنزع أو الاتجاه في النقد القديم ، وموقفه من محور العواطف الأدبية .

(المذهب الثاني) : ربط الانفعالات والعواطف الأدبية بالفن الأدبي ، وأثر تلك الفنون الأدبية فيما يصدر عنها من انفعالات مختلفة : فعاطفة الحزن مثلا، قد تصدر عن موضوع الرثاء ،وهكذا تكون عاطفة الحزن في كلِّ فصل من فصول رسالة الرثاء مثلا، متأثرة بهذا الفنّ الأدبي ، مسوقة في تيّارهِ ، وكذا يقال عن عاطفة الشوق التي تصدر عن قطعة النسيب ، وعاطفة الإعجاب التي تنبعث عن الوصف ، وما يشتمل عليه من دقة التصوير، وروعة الخيال اللذين يعضدان العاطفة الأدبية ويشدان آزرها ويعملان على قوتها أو ثباتها [192] :

وهكذا نصل إلى حقيقة مهمة تلك هي : أنَّ العاطفة الأدبية –بوصفها المحفز الأول في خلق العمل الأدبي وإبداعه – كثيراً ما تؤثر في المستوى الفني للغة النصّ ، فضلا عن أنها تسهمُ كثيراً في وحدة العمل الأدبي ، إذ إنَّ النصّ الذي تشمله عاطفة موحّدة غالباً ما يتسمُ بتساوق فصوله وأجزائه في وحدةٍ منتظمة متكاملة .

ومن هنا ، فإنّنا نتلَّمس في كثير من المكاتبات الأدبية –ولاسيما الرسائل الاخوانية والوصفية – انها كثيرا ما تتأثر بمستوى العاطفة التي تنبعث عنها ،وحفزت على خلقها وإبداعها معاً ، فالرسائل الاخوانية مثلا التي تصدر عن أحاسيس قوية صادقة ومشاعر عميقة ثابتة ، نجدها خالية من التكلَّف والصنعة على الرغم من تحلية كثير من فصولها ببعض الوان البديع كالسجع والجناس والطباق والتورية ، وما إلى ذلك من ضروب الصياغة اللفظية والمعنوية المتنوعة ....

---

[191] ينظر كتاب : الأسلوب : 60 وما بعدها .

[192] ينظر : أصول النقد الأدبي : 198 .

وعلى النقيض من ذلك فاننا نجد في بعض الرسائل الاخوانية كرسائل التأبين والعزاء مثلا ، التي كُتبتْ إلى بعض رموز الطبقة الخاصة من الرؤساء والوزراء وأضرابهم ، والتي لم تصدر عن أحاسيس صادقة وانفعالات وجدانية عميقة ، فإنّها غالباً ما تأتي مصنوعة تطبع بالتكلّف والسطحية وشحوب العاطفة ..

الانفعالات أو العواطف الأدبية الحسية والمعنوية :

ما من ريب في أنَّ ما يحققه النص الأدبي من إمتاع وإثارة في المتلقي يعتمد على ما يزخر به من قوة العاطفة وسموها أو صدقها وعمق تأثيرها ...

ولكي تتحقق تلك المقاييس أو المقومات الفنية للعاطفة في ايّ نصّ أدبي لابدَّ من توافر أمرين متلازمين لا انفصام بينهما :

(الأول) : اعتماد العاطفة – لكونها الحافز الأول للخلق والإبداع الأدبي – على ما يقوّمها من الأفكار السديدة ، والمعاني الدقيقة التي تسعى العاطفة لتحقيق الاستجابة في المتلقي لتلك الأفكار والمعاني والانفعال بها أو التأثر بمستوياتها .

(الثاني) اعتماد العاطفة في قوتها وإيقاظها ودوام تأثيرها على عنصر الخيال وما يقدّمه – عن طريق وسائل التخييل المتنوعة – من عرض للأمور المحسوسة أو الذهنية المجرّدة عرضا مجسّماً ، فيجلّي للمتلقي الشيات والألوان ويكشف له عن الصفات أو المعاني المجرّدة أو الملامح البعيدة فتبدو مجسّدة مألوفة فتوقظ مشاعره وتؤثر في أحاسيسه

وقد مرّ بنا آنفاً أنَّ اللغة– بوصفها أداة التعبير في الأدب – التي وضعت للتعبير عن الأمور الحسية والحقائق المعنوية أو الذهنية المجرّدة لا تفي وحدها في تمكين الأديب الفنان للتعبير عن الأحاسيس الوجدانية أو الانفعالات النفسية المتدفقة وكثيراً ما تكون تلك اللغة المعجميّة قاصرة في التعبير عما يجول في نفسه من زخم العاطفة وحرارة الشعور ....

ومن هنا دأب الأدباء – مستعينين بقوة مخيلتهم ورهافة حسهم – على اصطناع لغة فنية أخرى تسمو إلى مستوى مشاعرهم المتّقدة وأحاسيسهم المتدفقة،

وهكذا يلجأ الأديب إلى التصوير الفنيّ ليتمكّن في تجسيد معانيه وأفكاره والتعبير عن أحاسيسه وتطلعاته فينتقل بها عبر الصور الفنية المتنوعة إلى درجة أسمى لتزداد جمالا وقوة وألقاً وتأثيرا .

وقديما ، أشار الفيلسوف (أرسطو) إلى ما تحقّقهُ الأقوال الأنيقة التي تؤخذ من (المجاز) المتناسب من الحضور الفعال (أي شدة التأثير) وأنها أكثر إحداثا للانفعالات واستثارة العواطف المختلفة من سواها ، ثم ساق أمثلة عديدة على ما يحدثه المجاز من قوة التأثير فقال [193]

" كذلك حين يستخدم هوميروس المجاز يجعل الجماد يتكلَّم وكأنه حيوان وجاذبيته هي في خلق هذا الحضور الفعّال في مثل هذه الأحوال ، كما في الأمثلة التالية : (وعادت الصخرة التي لا ترحم تنحدر إلى السهل) ، (طارالسهم) ، (والسهم متعطش للطيران نحو الحشد) (وأسرع سنّ الرمح بشغف في حنايا صدره) ذلك لأنَّ في كلَّ هذه الشواهد مظهراً على الحضور الفّعال لأن الأشياء تصور على أنها حيّة (الصخرة التي لا ترحم)، (سنّ الرمح الشغوف) وسائرها ....."

وهكذا يؤكد أرسطو على ما يحدثه التصوير الفني من خلال استخدام المجاز المناسب من قوة التأثير في المتلقي ، وما يبعثه فيه من تأمل لإدراك جمال الأشياء والصلة بينها ، يقول [194] : "وكما قلنا من قبل : ينبغي استمداد المجازات من الموضوعات الملائمة للموضوع ولكن دون الافراط في الوضوح مثلما في الفسلفة لابدّ من حصافة لادراك التشابه بين الأشياء المنفصل بعضها عن بعض ..."

ويتفق الكثير من النقاد وبعض علماء الجمال على أنَّ هناك انفعالاً ينشأ عن طريق الحواس الظاهرة – كحاسة البصر أو السمع أو غيرهما – فيثير في مخيلة الأديب الفنان وذاكرته لذةً حسية لا يتعدى حدودها ، وأنَّ هناك انفعالاً آخر يتجاوز هذه الحواس إلى الإيحاء أو إثارة معانٍ تتصل بهذه المشاهد ، وهذا اللون من الانفعالات أسمى ، لأنها تفيض غالبا على نفوسنا ظلالا من الجمال والبهاء فضلا عما تحققه

---

[193] الخطابة – ترجمة د. عبد الرحمن بدوي :224.

[194] المصدر نفسه : 224.

من حمل المتلقي على التفكير العميق وما تفيضه عليه من الإعجاب القوي والتأمل العميق [195]

ومن هذا المنطلق ، فقد نزع كثير من النقاد إلى أنَّ العواطف أو الانفعالات التي تثيرها المعاني ، هي أسمى من العواطف الحسية أو التي تثيرها الصياغة اللفظية المزوّقة أو التي تبعثها المحسنات البديعية [196] ، لان العواطف التي تصدر عن المعاني تتناول الحق والفضيلة والأعمال المجيدة وهي أنبل من الأدب الذي يُعنى بالجمال الحسيّ...

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً من أَنَّ العاطفة الأدبية تعتمد على المعاني والأفكار السديدة في ثباتها وقوتها وشدة تأثيرها في المتلقي ، لأنَّ المعاني والأفكار هي جوهر العمل الأدبي ، وهي ما ينتظره المتلقي من الأديب ، وما يؤثر فيه على الرغم من قيمة الصياغة اللفظية أو ما يقترن بها من خواص موسيقية لها أهميتها في العمل الأدبي .

على أنَّ من النقاد القدامى – كقدامة بن جعفر (ت 337 هـ) وابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) وأضرابهما – من لم يربط صدور العاطفة عن المعاني النبيلة فحسب وإنما ذهبوا إلى جواز انبعاث الانفعالات والعواطف الأدبية –التي هي قوام الأدب الخالص – عن المعاني الفاحشة أيضاً .يقول الناقد قدامة بن جعفر : [197]

---

[195] تراجع التفاصيل في : أصول النقد الأدبي : 204 وما بعدها

[196] جعل أرسطو– في موضع آخر من كتابه الخطابة ص194–195 – تأثير الأسلوب أكثر من المعاني في الالقاء عند الخطب المكتوبة يقول :" وحينما يصبح الالقاء شائعاً محبوباً فسيكون له نفس التأثير مثل التمثيل .... ولهذا فان الذين يبرزون فيه يظفرون بجوائز مثلما يظفر الخطباء الذين يبرزون في الالقاء ، ذلك لأن الخطب المكتوبة تدين بتأثيرها للأسلوب أكثر من أن تدين به للمعاني "

[197] نقد الشعر : 65–66.

" وعلى الشاعر إذا شرع في أيّ معنى – كان – من الرفعة والضعة ، والرفث والنزاهة ، والبذخ والقناعة ، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة ، ان يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة "

ثم يقرّر الناقد قدامة – بعد أنْ ساق بيتين مشهورين للشاعر امرئ القيس من معلقته عابها عليه بعض النقاد لفحشها – خلاصة مذهبه في القضية فيقول [198] : "وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا ،رداءته في ذاته "

وقد ذهب الناقد ابن سنان الخفاجي هذا المذهب أيضاً ، ذكر يقول ردّا على من عاب شعر ابن الحجّاج بما تضمنه من فحش المعاني [199]

"وليس الأمر عندي على ذلك ، لأنَّ صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل الصناعة في المعنى الجميل ، ويطلب في كلّ وأحد منهما صحة الغرض ،وسلامة الألفاظ ، على حدّ وأحد، وليس لكون المعنى في نفسه فاحشاً أو جميلا تأثير في الصناعة .."

***

وفي القرن الرابع للهجرة ألَّم كتاب الرسائل الأدبية بخاصة – كما مرّ بنا في دراسة موضوعات الرسائل آنفاً – بكلّ ما تعمّق حواسهم المرهفة من مظاهر الحياة المختلفة في بيئاتهم الفسيحة الفينانة ،من خير وشر ، وأفراح وأتراح ، وكانوا كثيراً ما ينزعون في تصويرهم لتلك المظاهر المتنوعة عن مشاعر عميقة صادقة تثيرها مشاعر الإعجاب واللهفة بما وقعتْ عليه أبصارهم أو وعته نفوسهم أو ملأ أسماعهم ، أو ما بهرهم من مشاهد خلاّبة من تلك الربوع الجميلة والمغاني الساحرة ،وكان بعضها ينبعث أيضاً عن مشاعر الحسرة والألم ، لانقضاء الأيام الجميلة الحافلة بالإنس والنعيم ،والليالي الساحرة المفعمة بالمرح واللذة والسرور

---

[198] نقد الشعر : 66.

[199] سرّ الفصاحة :276.

وهكذا راحوا يدققون في كثير من المشاهد الحسية ، مما ألفوهُ في حياتهم الناعمة المترفة مما فرزته انفعالاتهم المتدفقة وأحاسيسهم الرقيقة المتقدة فأنتجوا – كما مرَّ بنا آنفاً – لوحات فنية رائعة تنبض بالحياة والإحساس والحركة وتعبّرُ عن مظاهر البهجة والسرور حينا ، أو مشاهد القنوط والنفور أو الحسرة حيناً آخر ...

ومن هنا ، كانت تلك المشاعر والانفعالات المتباينة حافزاً مهما لإبداع أولئك الكتاب البلغاء ، وبراعتهم في نتاجهم الأدبي ، وما خطّته أناملهم المبدعة من تلك الصحائف الأنيقة التي تحاكي ثغور الرياض عبقاً وألقاً وبهجةٍ ، والتي جسدت بعمق أحاسيسهم وصَّورت مشاعرهم بأمانة وصدق .

ومن غرر تلك الرسائل الأدبية المفعمة بالأحاسيس الرقيقة ، والتي صدرت عن مشاعر الحسرة والأسى ، ما جسَّده أبو الفضل ابن العميد في وصفه لسرعة انقضاء الأيام الخالية وانحسار الليالي الملاح ، والساعات الحافلة بدفء النعيم، ووصال الأحبة الذي يحفّهُ مسارقة النظر، ويحيطه مخالسة القبل يقول [200]

" أيامنا التي جازتْ أيام الشباب حسناً ورقةً ، وفاقتْ أعلام المطارف ليناً ودقةً ، ولياليا التي تخجلّ خدود الرياض ، وتفضح حواشي الحلل ، وساعاتنا التي هي ألطف من مسارقة النظر ، ومخالسة القبل ، ونعسة الرقيب ...."

وكتب الصاحب بن عبّاد أيضاً في فصل من رسالة طريفة له في التأسي على الأيام السالفة: [201] " تذكرتُ ايامنا ، فتذكرت سحراً و سيما ، وعيشا جسمياً، وراحاو ريحانا ونعميا ، وخيرا عميماً و ابتهاجا مقيماً ، أيام حسنت فكانها أعراس ، وقصرت فكأنها أنفاس "

ومن عيون الرسائل الأدبية الأنيقة التي صدرت عن انفعالات رقيقة من خزين حواسهم المرهفة أيضاً ، ما جسّده أبو إسحاق الصابي لمشهد بزاة الصيد الجارحة ،

---

[200] من غاب عنه المطرب –الثعالبيّ : 122.

[201] المصدر نفسه : 122 ،وتراجع نظير هذه المعاني الزاخرة بالعواطف الرقيقة أيضاً ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أبي عبد الله النحوي بالري :رسائل أبي بكر الخوارزمي : 97 وما بعدها .

وهي تطارد قُبّرا بمشاعرَ تفيض إعجاباً ودهشة لجزئيات هذا الحدث المليء بالحركة والحياة يقول [202] : " وكم من قُبَّرٍ أطلقنا عليه بازياً فعرج إلى السماء عروجاً ، ولجَّج في أثره تلجيجاً ، فكان ذلك يعتصم منه بالخالق ، وكان هذا يستطعمه من خالق ، حتى غابا عن النظار ، واحتجبا عن الأبصار ، وصارا كالغيب المرجم ، والظن المتوهم ، ثمَّ خطفهُ ووقع به وهما كهيئة الطائر الواحد فأعجبنا أمرهما ، وأطربنا منظرهما ".

وتفيض رسائل الكتاب الوصفية في هذا القرن بمشاعر الإعجاب والغبطة التي تنبعث عن مشاهداتهم لمظاهر الجمال والبهجة ، أو ما بهرهم من مفاتن الطبيعة في تلك المغاني الساحرة ، والربوع الفسيحة العامرة ، وهذا ما تلَّمسناهُ واضحاً فيما صدر عن أبي الفضل الميكالي في تجسيد إعجابه بربوع (فيروز آباد) الجميلة الساحرة ،[203] وما صوّرة الأديب أبو الفتح البستيْ أيضاً ، وهو يعبِّر عن إعجابه الشارد بما في قرية (الرُّخج) وقد خرج إليها في فصل الربيع، من مروج خضراء مترامية ،وما حفَّها من أزهار ذكيّة متناسقة إذ قال [204]

"وكنتُ أدلجتُ ذاتَ ليلةٍ وذلك في فصل الربيع ،.....ففتح ضياءُ الشروق طرفي على قريةٍ ذات يمنة محفوفة بالخضرةٍ ، معمورة بالنور والزهر ، وأمامها أرض، كأنها قد فُرشتْ ببساطٍ من الزبرجد منضَّد بالدرّ والمرجان مرصَّع بالعقيق والعُقيان ، ينسابُ بينها أنهار كبطون الحيّات في صفاء ماء الحياة ...."

وهكذا نتلمَّس مشاعرَ الإعجاب والسرور والدهشة التي انبعثت عن أحاسيسهِ المرهفة ، ومشاهداته الدقيقة ، وما تلقَّفهُ من أريج الزهر ، وعبق رائحته، ما بعث فيه نشوة الانشراح وحفزهُ لإبداع هذه التحفة الأدبية النادرة ...

ومن غرر الرسائل الأدبية المشربة بعاطفة الإعجاب والغبطة التي تبعثها الحواس الظاهرة أيضاً ، ما كتبهُ أبو إسحاق الصابي في فصل من رسالة أدبية يصف فيها

---

[202] يتيمة الدهر : 2/ 302.

[203] يراجع هذا النص في :زهر الآداب وثمر الألباب : 174/1.

[204] يتيمة الدهر: 4/ 346-347.

بقعةَ أرضٍ نضرة تخلَّلها بستان ظليل ، تكلَّلتْ أرجاؤه بالأشجار الفارغة التي تضوع بالأرج وعبق رائحته ،يقول [205] : " قد تضوَّعتْ بالأرج أرجاؤها، وتجمَّلتْ بظلِّ الغمام صحراؤها، وتفاوضتْ بضرائب المنطق أطيارها، بستانٌ كأنه أنموذج الجنة ...به أشجارٌ كأَنَّ الحورَ العين أعارتها ثيابَها ، وكستها برودَها، وحلّتها عقودها "

وهكذا نتلَّمس بوضوح ، تراسل الحواس في إبداع الصور الحسية في هذه التحفة الأدبية ، وانبعاث عاطفة الإعجاب والدهشة التي كان صدرورها إحساس الأديب بسرِّ الجمال الكامن وراء هذه الصور التي تكافلتْ مجتمعةً لهذا الخلق الفنّي ، فحاسة الشم التي أرقت بما يضوعهُ عطر الأرج ، وحاسةُ البصر ، وما اعتراها من سحر طلِّ الغمام الذي كسا صحراء هذه الأرض ، بثوب الخضرة الداكنة ، وحاسة السمع وما جلَّلها من ريِّقِ منطقِ الأطيار العذب الشجيّ ، تضافرتْ كلَّ تلك الصور الحسيّة لانبعاث تلك الانفعالات الرقيقة ، التي حفزت الأديب لإبداع هذا العمل الأدبي النادر ....

وقد يكون انبعاث العاطفة الأدبية التي تشكلَّ عنصرا أساسّياً في خلق العمل الأدبي وإبداعه ، صادراً عن المعاني الذهنية أو المدركات العقلية المجرَّدة ، وقد مرّ بنا في المبحث الثاني من الفصل الرابع من هذه الدراسة ، افتنان الكثير من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن بالوقوف عند المعاني الذهنية المجرّدة ، وتحليل أدقّ المدركات العقلية في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية .

لقد تعمَّق كتاب هذا القرن – كما مرَّ بنا آنفاً – في تحليل أهواء النفس البشرية ، وما أنطوتْ عليه من نزعاتٍ متباينةٍ ، وأمزجةَ متقلّبة ، وراحوا يصفون الشوقَ والهيام والوجد ، وطفقوا يحلّلون تباريحَ الفراق ، وآلامه ، وأشجانه ، ونشوة اللقاء ، وأنغامه ، كما وقفوا عند تحليل معاني الحبّ والبغض والحسد وأجادوا في تصوير كثير من المعاني العقلية المجرّدة كالسماحة والكرم والمهابة، وغيرها من المدركات الذهنية غير المحسوسة ....

---

[205] من غاب عنه المطرب :240

ومن نماذج صدور العاطفة الأدبية وانبعاثها عن المعاني العقلية في ترسل أدباء هذا القرن ، ما ورد في رسالة أدبية لأبي بكرٍ الخوازميّ إلى حاكم نيسابور ويلاحظ قوة العاطفة في سخطه على الدهر وحنقه عليه ، ويتضح أيضاً التشخيص والتجريد الذي تجلّى في استخدام (المجاز العقلي) يقول الكاتب [206]

"وردتُ – أيَّد اللهُ تعالى الحاكم – من الوزير على رجل يستطيل اليوم إذا بعدتُ عنه ،ويستقصر الدهر إذا قربت منه ....وأنَّ الدهر أوفانا كيل المسرّةِ ، كما أو فانا كيلَ المضرّةِ ، وتحمَّل إلينا من الخير ، مقدار ما تحامل علينا في المكر ، ومهَّد لنا أيام اليسر ، عدد ما مدَّ لنا من أيام العسر ، وقد أنصف وهو ظلوم ، وتكرَّم وهو لئيم ".

وقد لاحظتُ – من خلال استقرائي لرسائل هذا الأديب الكاتب –صدور الانفعالات أو العواطف الأدبية في بعض رسائله من معانٍ عقلية وحسيّة متشابكة ، ولعلّ هذه الظاهرة الفنية تشكلّ ذروة ما يبلغهُ الأديب من المهارة الفنية والإبداع المهاريّ .

ولعلّ ما يعضد رأينا هذا ، ما ذهب إليه بعض النقاد المعاصرين من أن الصورة الفنية هي " ذلك الشيء الذي يقدّم تشابكاً عقلياً وشعورياً في لحظة من الزمن" [207]

ومما ورد من نماذج انبعاث العاطفة الأدبية من المعاني والحواس في تشابك فنيّ متميّز ، قولهُ من رسالة لهُ إلى الوزير بالحضرة[208]

" ولقد اشترى من الشكر سلعة قليلة الطلاب ، فيا ليت اللئيمَ يشمُّ رائحة أفعاله ، أو يلاحظ شخص خصاله ....."

---

[206] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 191-192

[207] ينظر : مقالة في طبيعة الشعر (ت . س . إليوت الشاعر الناقد) – ف . أ ماثيسن ترجمة : د. إحسان عباس : 129 ، الأرض اليباب – ت . س . إليوت (الشاعر والقصيدة) دراسة وترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة : 28.

[208] رسائل أبي بكر الخوارزمي : 190.

فالأفعال – وهي من الأمور المعنوية غير المحسوسة – لاتشمُّ رائحتها ،والخصال –وهي أيضاً من الأمور الذهنية المجرّدة – لا تبصرُ شخوصها ...وهي صورة فنية قلَّ نظيرها في رسائل هذا القرن .

ومن نصوص الرسائل الأدبية النادرة التي تجلّتْ فيها سوْرة العاطفة وانبعاثها عن المعاني الذهنية المجرّدة أيضاً ، ما ورد في فصل من رسالة لبديع الزمان الهمذاني إلى الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، إذ يقول " ..... والأيام تمطلني بألسنة صروفها .... وقد صرتُ بين أنياب النوائب ، وتجشمتُ هولَ الموارد ، وركبتُ أكناف المكاره ، ورضعتُ أخلافَ العوائق ، ومسحتُ أطراف المراحل" [209].

ولا يخفى ما في هذا الفصل من الرسالة من قوة العاطفة ، وتدفقها وعمقها ، مع روعة التصوير ، وجمال التشخيص ، فضلاً عن قوة الإيحاء الذي تثيرهُ تلك الانفعالات المعنوية المشبوبة .

***

وهكذا يتضحُ – من خلال عرض هذه الشواهد النثرية البليغة – سموَّ الانفعالات أو العواطف الأدبية التي تثيرها المعاني العقلية ، وما تشتمل عليه من قوة الإيحاء ، وما تبثهُ في خلد المتلقي من ترقّب ، وما تثيرهُ فيه من نشوة فنية ، تحفزه لمتابعة الحدث الأدبي وتأمل فصوله المتتالية ....

-مقومات عنصر العاطفة وقيمتها في الرسائل الأدبية :

سبقتِ الإشارة إلى أنّ العاطفة الأدبية أهمّ الدعائم الأساسية في تكوين العمل الأدبي ، وأنها المقياس الفني الرئيس الذي غالباً ما يتخذهُ النقاد للحكم عليه قوةً أو ضعفا ، فضلاً عن أنها تشكلَّ في بعض الأنواع الأدبية – ولاسيما الشعر والرسائل الأدبية – غايتها المثلى ، وأنها كثيراً ما تتحكم بالمستوى الفني لتلك الأعمال الإبداعية ....

---

[209] زهر الآداب وثمر الألباب : 417/2.

أما أهمُّ تلك المقومات الفنية للانفعالات أو العواطف الأدبية التي شكَّلتْ جوهر المضامين في تلك الرسائل الأدبية ، وتأثيرها الواضح فيها ، فيمكن ذكر أهمها كما يأتي :

(1)صدق الانفعالات أو المشاعر :

ما من ريب في أنَّ أو ل دعامة لنجاح العمل الأدبي ، هي ما يبثهُ في خلد المتلقين من الانفعالات السامية المؤثرة ، أو المشاعر النبيلة الصادقة التي تسهمُ في تمكينهم من إدراك أسرار مواطن الجمال في العمل الأدبي ، فتخلق في أسارير المتلقين النشوة والامتاع ،فضلاً عما تحقّقهُ من خلوده ، ودوام تأثيره كلَّما داعب أحاسيسهم أو لامس وجدانهم ...

وليس غريباً أو مصادفة ما حظيتْ بهِ كثير من الرسائل الأدبية في هذا القرن ، من شهرة وخلود على مرّ الحقب والدهور ، وما ذلك إلاّ لصدورها عن أحاسيس مفعمة بالصدق ، ومترعة بمشاعر حقيقية غير زائفةٍ ولا مصطنعة ...

لقد أُلهم كثيرٌ من أولئك الأدباء الكتاب في هذا القرن ،بموهبةٍ نادرة ، مكّنتهم من إدراك ما في المشاهد أو الحوادث التي تعرضُ لهم ، من أسباب الجمال أو الطرافة والغرابة ، أو غير ذلك ، فعمدوا إلى تصويرها – مستعينين بمخيلتهم المتقدة – مجسَّدةً واضحة ، وهكذا ننفعلُ بسحرها وطرافتها أو غرابتها على حدّ موازٍ لانفعال الأديب نفسه بتلك المواقف أو المشاهد النادرة أو المؤثرة .

فعاطفةُ الحزن الحقيقية ومشاعر الأسى الممضّة التي ألمَّتْ بالأديب أبي بكر الخوارزميّ على ما آل إليه مصير أكثر أئمة آل البيت الأطهار – عليهم السلام – وما جسَّده بعمق في تصوير مصارعهم ، وإحساسه العميق بتلك المآسي التي بثّها في فصول رسالته الطويلة إلى جماعة الشيعة بنيسابور [210]،هي ما أسهم في خلود هذا العمل الإبداعي الذي يُعدُّ آية في البلاغة والإبداع .

وهكذا يُقال عن كثير من فصول الرسائل الأدبية لصدور الكتاب البلغاء وجهابذتهم في هذا القرن ، كأبي الفضل ابن العميد ، والصاحب بن عبّاد ، وأبي

---

[210] تراجع فصول هذه الرسالة المهّمة في : رسائل الخوارزمي : 160-172.

إسحاق الصابي ، وأبي حيان التوحيدي ،وبديع الزمان الهمذاني وسواهم من فحول الكتاب البلغاء .

وعلى النقيض من ذلك ، فمتى كان الباعث لإنشاء العمل الإبداعي تافهاً ، أو غير حقيقيّ ، أو زائفاً ، كان ذلك النتاج الأدبي سطحيّاً ، ولا يكتسبُ الخلود ، لأنه لا يهيجُ انفعالات المتلقين ، ولا يبعثُ في نفوسهم ما يحفزهم لمتابعة قراءته ، أو الاستمتاع بجوهر مضمونه...

وهكذا تطالعنا كثير من رسائل هذا القرن ، مما أثمرتها حاجاتُ العيش اليومية ، أو أغراض السياسة ، أو غير ذلك ، وهي تطفحُ ، غالباً بالمجاملات الزائفة والمبالغات الفجّة الثقيلة ، مما طبع تلك المكاتبات بالتكلّف ، وسماجة المعاني ، وبرود العواطف وشحوبها ، وهذا ما نراه شاخصاً بوضوح في كثير من رسائل المدح والثناء لأصحاب السلطة والجاه من أمراء الممالك الإسلامية ووزرائهم ، وفي المراثي أيضاً لذويهم من رموز الطبقة الخاصة أو غيرهم ...

(2)قوة الانفعالات واستمرارها أو ثباتها في العمل الإبداعي:

إنّ قوة الانفعالات ، فضلاً عن حرارة المشاعر وصدقها ، تكسبُ العمل الأدبي القوة والجلال ، وقد ترقى بهِ إلى درجة الكمال .

ويرى بعضُ الباحثين والنقاد صعوبة وضع مقياس فنيّ دقيق لضبط قوّة الانفعالات في العمل الأدبي ، ويعزو ذلك إلى الاختلاف الظاهربين طبائع العواطف الأدبية في درجة قوتها. يقول الأستاذ أحمد الشايب موضّحاً هذا الجانب (211)

" .. فعاطفة حنان ، وإشفاق ،وعاطفة إجلال وحبّ ، وعاطفة إعجاب ، وعاطفة حزن وأسف ، وهذه منها الحاد الايجابي ، ومنها العميق، فكيف نجدُ مقياساً وأحداً دقيقاً مشتركا ؟؟...."

والذي أميل إليه في هذا الأمر ، أنَّ منشأ القوة في الانفعالات أو العواطف الأدبية يكمنُ في الأديب أو منشيء العمل الإبداعي نفسه ، إذْ إنَّ الأديب الذي

---

(211) أصول النقد الأدبي : 194.

ينفعل بصدق في تجربته الأدبية ،ويوظّف ذلك الانفعال في أسلوبه بصدق وعمق فإنّه سيبعثُ في عمله الإبداعي القوة والحياة والخلود ، ومن ثمَّ تسري هالةُ تلك المشاعر العميقة الجارفة إلى نفوس المتلقين بلا استئذان ، لأنّ ما خرج من القلب والوجدان ينفذ إليهما أيضاً بانسياب وتدفق ...

وتقترنُ حرارة العاطفة الأدبية وقوتها ، باستمرار تدفقها وثباتها في العمل الأدبي فقد طالعتنا بعضُ رسائل هذا القرن ، قويّةَ العاطفة ، متدفقة المشاعر ، إلاّ أنها سرعان ما تخمدُ جذوتها ، وتنعدمُ فورتها ، أو قد تخفتُ حدّتُها ، وهنا نلمسُ بوضوح التفاوت الصارخ في أسلوب الأديب الكاتب ، والتباين الواضح بين فصول الرسالة الواحدة ،وهذا ما تلمسّناه بوضوح في بعض فصول رسالة أبي بكر الخوارزميّ مثلاً في التهكم بأبي الحسن البديهيّ [212] ، إذْ جنح الكاتب في بعض فصولها إلى السباب البذيء ،والطعن الفاحش ، بأسلوب مباشر نأى فيه عن السخرية الفنية اللاذعة ، أو التهكم الهادف ...

ومن هنا ، فقد ذهب كثير من النقاد المعاصرين إلى أنَّ ثباتَ العاطفة الأدبية ، واستمرار تدفقها في نفس الأديب ، أو منشيء العمل الإبداعي ، من شأنهِ أن يشيع قوة العاطفة وثباتها في العمل الأدبي نفسه ، وبهذا يشعرُ المتلقي ببقاء المستوى العاطفي ، وتدفقه في النصّ الأدبي ، ويعمل ذلك أيضاً على وحدته وتواؤم أجزائه ...

(3)تنوع الانفعالات أو العواطف الأدبية وسموّها :

لعلَّ أعظم ما يمكن أن نسجلّه لبلغاء الكتاب والمترسلين في هذا القرن ، قدرتهم الفائقة على إثارة الانفعالات المختلفة ، أو العواطف الأدبية المتباينة في نفوس معاصريهم ، أو متلقي ترسلهم أو نتاجهم الأدبي الرفيع الذي اتسم كثير منه بالعمق والأصالة والبراعة الفنية ولعل ذلك يعودُ – كما مرَّ بنا آنفاً – إلى سعة تجاربهم ،وعمق خبراتهم ، على الرغم من تقادم الحقب ،وتطاول القرون .

---

[212] تراجع فصول هذه الرسالة في : رسائل الخوارزمي : 235–250.

فلقد استطاع كثيرٌ من أولئك الكتاب البلغاء – لما امتلكوهُ من موهبة نادرة، وثقافة أدبية ولغوية غزيرة ، فضلاً عن الالمام الواسع بكثير من العلوم ومعارف العصر – استثارة مشاعر الإعجاب أو الشوق والجلال في نفوس متلقيهم ، لِما شُهروا بهِ من براعة متميزة في الوصف وتصوير المشاهد الحسّية ، والقدرة على تحليل الانفعالات الوجدانية والعقلية ...

وهذا ما تجلّى بوضوح في كثير من فصول رسائل ابن العميد ، والصاحب ابن عبّاد ، وأبي بكر الخوارزميّ ، وبديع الزمان الهمذاني ،وأضرابهم من بلغاء الكتاب ،ولاسيما في رسائلهم الوصفية .

ولقد هيأت العلاقات الاجتماعية الوطيدة ،وأواصر الصداقة المتينة بين كثير من أدباء هذا القرن – كما مرَّ بنا في دراسة الرسائل الاخوانية – تبادل عواطف الودّ وبثّ الأشواق أو الحزن والأسى لِما قد يحلُّ بينهم من مصاب أو حادث جلل .. وقد تتقد بينهم أيضاً مشاعر الحنق والكراهية ، أو الحسد لتقلّب الأحوال ،وتغيّر صروف الزمن ، كالذي شُهر وقوعُهُ من بغضاء وتقال بين كثير من مشاهير الأدباء في هذا القرن ....

إنَّ مقدرة بلغاء الكتاب في هذا القرن على إثارة انفعالات عديدة متباينة في نفوس المتلقين ، أمرٌ كبير الأهمية ،وهو دليلٌ على ما بلغهُ أولئك الكتاب من نضج الملكة الأدبية ،واتساع الأفق الثقافي اللذين ساعدا هؤلاء الكتاب العظام على الخوض في تحليل مسارب النفس الإنسانية ، وما تنطوي عليه من طبائع وأمزجة متباينة ،وهذه الظاهرة الفنية لا تتأتى إلاّ للأدباء العظام الذين تفرَّدوا بامتلاك ناصية اللغة والبيان ،والموهبة النادرة ،والملكة الأدبية التي أسعفتهم كثيراً في إدراك دخائل النفوس ،وأهوائها ،واستكناه أسرارها ومساربها المختلفة ....

لقد بثَّ بعضُ جهابذة الكتاب المبدعين في هذا القرن ،من خلال فصول رسائلهم الأدبية البليغة أقباساً من تلك الانفعلات والعواطف الإنسانية المتأججة ....ففي رسالة أبي حيان التوحيدي الجوابية الشهيرة التي بعثها إلى القاضي أبي سهل عليّ بن محمد ، في تبرير فعلته بإحراق كتبه وصحائف علمه ، مشاعرُ

متأججة ومتباينة ، كالشفقة بما صوَّرهُ من ملامح بؤسه وعوزه ،والقناعة ، بما عرضهُ من الرضا بالقليل الميسور المقدَّر ، فضلاً عن عاطفة الحنق والغضب ، بما أبرزهُ من جنوح الناس عنه وإعراضهم عن صحبته ومواصلته ...

وفي رسالة أبي بكر الخوارزمي الشهيرة إلى جماعة الشيعة في نيسابور أيضاً ، تلتقي مشاعر السخط والغضب على السلطان الجائر ، بعاطفة الحزن والأسى لمصارع آل البيت – عليهم السلام – وغيرها من مشاعر الحماسة ،واستثارة الهمم لمقارعة ظلم الوالي الجديد عليهم ..

وفي رسائل الصاحب بن عبّاد تزدحم أيضاً مشاعر عديدة متباينة ، منها ما صدر عن الحواس الظاهرة ،وأخرُ انبعثتْ من المعاني الذهنية الدقيقة ...فمشاعر المدح والإعجاب والسرور – كما تلوح في رسائل الوصف والاستزارة مثلاً – تقابلها مشاعر الرهبة والجلال والخشوع في رسائله التأبينية الشهيرة ، كرسالته في رثاء أبي محمد العلويّ ، وما عرض فيها لتأبين بعض الشخصيات العظيمة ، كشخصية الرسول الأعظم (ص) وشخصية الإمام عليّ (ع) وغيرهما .

وما جسَّدهُ بديع الزمان الهمذاني أيضاً في فصول رسائله الأدبية المختلفة المقاصد والنوازع ، من عواطف إنسانية ، ومشاعر متباينة ، كالسخط والغضب على بعض الولاة والقضاة وعمال الخراج لظلمهم وتجبرهم ، أو استباحتهم للحرم ، وكعاطفة الجلال والرهبة لما عرض له في وصف حروب الغزنويين وتصوير انتصاراتهم وهزائم أعدائهم ، فضلاً عما ضمَّنهُ من مشاعر أخرى مختلفة لم يخلُ كثيرُ منها من ملامح الملق والتكلَّف .

ولعلَّ كلَّ هذه الملامح الظاهرة لمشاعر الأدباء الكتاب وانفعالاتهم في هذا القرن ،وازدحامها في رسائلهم الأدبية – بوصفها الحافز الرئيس في الإبداع والخلق الفنّي – خيرُ شاهد على ما بلغوه في صناعة الترسل من اقتدار وعبقرية ،وما تميّز به تراثهم الأدبي من شهرة وصدق أضفى عليه سمةَ الخلود والشمول الإنساني ...

الخاتمة

خاتمة :

خلاصة البحث وأهمّ نتائجه:

حاولنا في الصفحات السابقة أن نرصد – بروح علميّة تتصف بالحيدة والموضوعية – الدور الرائد الذي بلغهُ النثر الفنيّ وبخاصة الرسائل الأدبية ، في التعبير عن نوازع الأدباء وتطلعاتهم وأحاسيسهم وتصوير آفاق الحياة العامة بجوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية ،وقد وضح لنا من مطافنا الطويل في ثنايا تلك المكاتبات الأدبية ، كيف تضافرتْ جهودُ أولئك الأدباء الكتّاب في هذا القرن ، لبناء صرح النثر الفني العربي ، حتى غدا ، إلى جانب الشعر ،وثائق تاريخّية وأدبيّة مهمة في الكشفِ عن أدقّ خفايا هذا القرن ،ومساربهِ الدقيقة المختلفة ...

وتتبعنا في فصول هذه الدراسة ومباحثها المتصلة عيون الرسائل الأدبية لكتّاب هذا القرن لنكشف عن النزعة الفنية في تلك الرسائل وكيف استطاع كتّاب هذا القرن أن يخضعوا الموضوعات العلمية والمنطقية ،وبعض مشكلات الفلسفة للأسلوب الأدبي ، ثم نكشف بعد ذلك عن مظاهر التجديد التي أضفاها الأدباء الكتّاب في هذا القرن على فصول هذا الفنّ الأدبيّ.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ البحث حاول أن يقف عند دراستهِ لنصوص الرسائل الأدبية على نظرات النقد القديم ، وبعض جوانب النظرية النقدية المعاصرة ،والمزج بينهما في تحليل بعض فصول تلك الرسائل ونقدها مع الأخذ بنظر الاعتبار طبيعة ذلك النتاج الأدبي القديم ، وظروفه الخاصة المتشابكة ...

لقد كشف البحثُ من خلال التوطئة المسهبة كيف تأثر هذا اللون الأدبيّ بمقوّمات عديدة (ذاتية) تتصلُ بالأديب نفسه ، ونوازعه المتباينة ، وخارجية (موضوعية) تتمثل بمؤثرات المكان (البيئة) ،والزمان (الأطوار الفنية المختلفة التي تكوّن تاريخ الأدب العام) فضلاً عن المؤثرات الروحية وغيرها ، مما كان لكلّ ذلك تأثيره العميق في تنوع موضوعاته ، وتشكيل بنائهِ وتلوين أساليبه ومضامينه....

و من هنا ، كان لزاما على الباحث ، وهو يدرس هذه النصوص الأدبية ، أنْ يردَّها إلى عناصرها (الذاتية) و (الموضوعية) تلك ؛ وصولا إلى إدراك جمالها الفني

الخاتمة:

، و رصد قيمتها الأدبية و التاريخية ، وفضلا عن ذلك ، فإنَّ الإلمام بدراسة الأحوال العامة ، السياسية و الاجتماعية و الثقافية ، في هذا القرن ، يمكن أنْ يعين الباحث على تحليل و تفسير كثير من الظواهر الأدبية ، و الملامح الفنية التي استجدَّت إبّان هذا القرن في بيئة العراق و أقاليم المشرق الإسلامي ...

ثم عمد البحث – قبل اعتماده تلك النصوص الأدبية ، و ما يتصل بها من روايات أدبية و تاريخية مختلفة – إلى التوثق من صحتّها ؛ ليتجنَّب ما قد يقع فيه من مزالق ، وليطمئن على ما يصدره من أحكام نقدية على تلك النصوص ، أو ما يحيط بها من روايات متباينة ، فكان الفصل الأول الذي أَلِم بدراسة ثلاث قضايا مهمة ، وقف عندها في ثلاثة مباحث مرَّكزة ، هي : ضياع الرسائل ، و أهمّ مظاهر ذلك الضياع و أسبابه ثم ظاهرة الانتحال في رسائل هذا القرن ، ثم ظاهرة تدوين الرسائل ، و أهمَّ المجاميع النثرية التي وصلت إلينا ، و ما لم يُحقَّق أو يُنشر منها ...

و تعقبّنا في الفصل الثاني ظاهرة ازدهار الرسائل الأدبية و شيوعها في هذا القرن ، بمبحثين متصلين ، شمل المبحث الأول : دراسة شيوع هذا اللون من الأدب ، ثم عرضنا لأسباب هذا التطور أو الازدهار ، بينما شمل المبحث الثاني : دراسة طبقات كتّاب الرسائل الأدبية و أثرهم في تطور الحركة الأدبية ولاسيما ازدهار هذا اللون الأدبي و نضجه ، وقد وقفنا عند عشر قمم شامخة من قمم أولئك الكتّاب البلغاء ، توزَّعوا على ثلاث طبقات مهمة هي : طبقة الوزراء و الأمراء ، فوقفنا عند أشهر مبرّزيهم وهم : أبو الفضل ابن العميد ، و الصاحب بن عبّاد ، و الأمير قابوس بن و شمكير ، و الأمير أبو الفضل الميكالي . ثم طبقة كتّاب الدواوين ، و أشهرهم : أبو إسحاق الصابي ، وعبد العزيز بن يوسف ، و أبو القاسم الاسكافي ، و أخيراً طبقة الكتّاب الجوّالين المتكسّبين ، و أشهرهم : أبو بكر الخوارزميّ ، و بديع الزمان ، و أبو الفرج الببّغاء .

ثم الممنا في الفصل الثالث من هذا البحث ، بدراسة مصادر ثقافة الكتّاب ، و أصول الرسائل الأدبية في هذا القرن في مبحثين متصلين أيضاً ، شمل المبحث

الخاتمة:

الأول دراسة أصول الثقافة العربية الإسلامية ، و استلهامها في الرسائل الأدبية ، بينما ضمَّ المبحث الثاني دراسة أصول الثقافة الأجنبية ، (اليونانية و الفارسية) ، وأثرهما في رسائل هذا القرن .

وقد توصّل البحث إلى أنَّ كثيراً من كتّاب هذا القرن كانوا ينهلون في ترسلهم أقباسا مضيئة من معارف و ثقافات الأجناس و الشعوب الأجنبية ، و أنَّ الإطلال الواسع على معارف الأمم الأجنبية ، و ثقافاتها المختلفة كان أبرز ما ميَّز الحياة الثقافية في هذا القرن ، مما كان لذلك كلّه آثاره الواضحة على الأدب العربي و بخاصة النثر الفني ، و ما تميّز به من عمق و نضج و ازدهار .

ثم تتبَّع البحث في الفصل الرابع ، دراسة موضوعات الرسائل الأدبية في هذا القرن ، وقد توزّعت تلك الدراسة على ثلاثة مباحث مفصلة ، شمل الأول دراسة الرسائل الاخوانية ، بينما ضمَّ المبحث الثاني دراسة الرسائل الوصفية ، بينما شمل المبحث الثالث دراسة الرسائل الهزْلية ، و المفاكهات الأدبية .

وقد توصّل البحث إلى أنَّ المكاتبات الاخوانية كانت وثائق مهمة صوّرت علاقات الأدباء مع بعضهم ، و علاقة الأديب بمجتمعه ، و من هنا ، فقد انصَّبتْ تلك الرسائل على تصوير معاني الاعتذار و الثناء و العتاب و الشكوى و التهاني و التعازي ، و ما إلى ذلك من المعاني الأخرى التي جسّدت في أكثر نماذجها الصادقة ، الوشائج الإنسانية بكلّ ألوانها ، كما كشف البحث أيضاً عن براعة الكتّاب في فنّ الوصف ، و قدرتهم على تجسيد المعاني ، و تصوير المحسوسات و المعنويات ، كما أبان البحث في هذا الجانب أيضاً ، عن نزوع الكتّاب إلى المرح و الفكاهة ، و السخرية و التندر في مكاتباتهم الأدبية ، و أنَّ ذلك كان مظهراً واضحاً من مظاهر نزعتهم الفنية التي خامرت طبيعتهم المرحة ..

وقد عرض البحث أخيراً ، في أوعب فصوله ، إلى دراسة الخصائص الفنية والأسلوبية للمكاتبات الأدبية في هذا القرن ، وقد ضمّتْ هذه الدراسة المفصّلة مبحثين كبيرين ، انصبّ الأول منهما على دراسة الخصائص البنائية والشكلّية ، بينما شمل المبحث الثاني دراسة خصائص المحتوى أوالمضمون لرسائل هذا القرن .

الخاتمة:

* * *

لقد تناول هذا البحث دراسة جانب مهمّ من جوانب أدبنا العربيّ الأصيل ، في مرحلة زمنية تُعدُّ من أخطر المراحل في تاريخ الأمة الإسلامية ، و أزهاها حضارةً و ثقافةً ، فبحثنا موضوع الرسائل الأدبية بروح علميّة وموضوعية ، و عرضنا كثيراً من نصوص فصولها عرضاً جديداً ، وقد جلّى هذا البحث من خلال هذا الأسلوب في الطرح و الدراسة ، حقائق علميّة خطيرة ، و توصل إلى نتائج مهمة ، كشفت عن كثير من أسرار الواقع الثقافي و الأدبي في هذا القرن المزدهر..

ولعل أبرز تلك النتائج التي توصّل إليها هذا البحث ما يأتي :

1) إنَّ نصوص الرسائل الأدبية – بوصفها نماذج فنية راقية – تأثرّتْ بمقومات ذاتية و موضوعية ، استلهم منها الأدباء الكتّاب صورهم، و مرتكزات وجودهم ، ودعائم أحاسيسهم .. وقد كان لهذه المؤثرات جميعاً آثارها المهمة في توجيه الأدب عموما ، ولاسيما الرسائل الأدبية ، إذ إنَّ تلك المؤثرات كلها وشائج عميقة انعكست على حياة الأدباء ، فكان لها تأثيرها المباشر في تنوع موضوعاته و تشكيل أساليبه ، و إثراء مضامينه .

وهكذا جلّى البحث عن حقيقة مهمة ، تلك هي : إنَّ نصوص الرسائل الأدبية في هذا القرن ، لم تكن منبّتة الجذور عمّا يحيطها من مؤثرات المكان و الزمان و المؤثرات الروحية و الحضارية و غيرها ، وصولاً لربط تلك النصوص بجذورها الاجتماعية ، و وضعها في أجوائها التاريخية المناسبة .

2) توصل البحث من خلال الاستقراء الواسع ، و الاستنتاج الدقيق ، إلى أنَّ كثيراً من مجاميع الرسائل لأدباء هذا القرن ، قد ضاعت ، و سقطت من يد الزمن ، كما تفرّق ما سلم من الضياع منها في مدارج دور الكتب و المكتبات العالمية ، و تشتّت بعضها الآخر في مظان الأدب و التاريخ و كتب التراجم ، كما أحاط بعض الأخبار و الروايات التاريخية التي تتصل بنصوص الرسائل الأدبية أو أعلام المترسلين ، اضطراب واضح ، فضلا عما شاب بعض مجاميع الرسائل

المنشورة من الاضطراب ، لما يعوزها من دقة في الضبط ، أو التنظيم في العرض أو التبويب ، أو الشرح و التعليق و التحليل ..

و تبعا لهذا فقد جاء الفصل الأول من هذه الدراسة ، بمباحثه الثلاثة ، لدراسة ظاهرة ضياع الرسائل ، و ظاهرة الانتحال ، و توثيق صحة ما وصل إلينا منها ، بعد دراسة و تحليل مجاميع الرسائل التي سلمت من الضياع ، لتكون هذه الدراسة دقيقة ، و غير مبنية على أساس واهٍ أو ضعيف ..

وهكذا جاء هذا الفصل ، بمباحثه الثلاثة ، جديدا في عرضه وطرح أفكاره ، ونتائجه التي وصل إليها ..

3) وخلص الفصل الثاني من هذه الدراسة إلى نتائج مهمة لعل أبرزها :

أ- لقد بلغ كتّاب الرسائل الأدبية بخاصة ، شأواً بعيداً بنثرهم و تنميقه ، إلى حدّ أنه اخذ يداني الشعر في رقته و موسيقاه ، و أصبح ترسل أكثرهم – كما عبّر عنه بعض الباحثين : ((نثراً منظوما)) – فكان ترسلهم يعتمد كثيراً على الإيقاع و الموسيقى ؛ موسيقى السجع و الازدواج و التوازن ، فضلا عن زخارف البديع الأخرى . وقد بالغ بعض الكتّاب في ذلك حتى تحولت رسائلهم إلى ما يشبه الوشي الخالص ، إلاّ أنَّ مواهبهم المتقدة ، و ملكتهم اللغوية الحادة ، حالت دون أنْ يقعوا في الاسفاف أو التكلف المقيت – إلاّ نادرا – كالذي وقع فيه كتّاب العصور اللاحقة بعدهم .

ب- على الرغم مما شاع عن كتّاب هذا القرن من عناية واضحة بالوشي وزخارف الألفاظ ، وحلي البديع ، ولاسيما السجع – كما مَّر آنفاً – وعنايتهم أيضاً بجرس الألفاظ ، و صياغة الأسلوب ، حتى غدا ذلك يُعدُّ نموذجا لذوق أهل هذا القرن ، إلاّ أنَّ أولئك الأدباء الكتّاب البلغاء ، استطاعوا – لسعة ثقافتهم ، وقوة ملكتهم ، و ندرة مواهبهم – أن يبثوّا في النثر الفني – و بخاصة الرسائل الأدبية – قيماً فنية جديدة ؛ تمثّلت بطرافة التفكير ، و عمق المعاني و جدّتها ، و رقة التعبير ، فضلاً عن عنايتهم الفائقة بالتصوير ، و

الخاتمة:

براعتهم في الوصف ،و قدرتهم على تحليل أدقّ المعاني ، و تصوير المشاعر الإنسانية ، و تجسيدها بكلّ براعة و عمق وإبداع .

ج- نظراً لظهور الإمارات و الدول المستقلة الجديدة في هذا القرن ، و تشجيع أكثر رؤسائها و أمرائها لتراثهم ، و آدابهم القومية –و بخاصة الأمراء الفرس في أقاليم المشرق الإسلامي – فقد غدت (الفارسية) ، بعد أنْ عادت إلى الظهور منذ منتصف القرن الرابع ، شريكة للعربية في تجسيد معالم النهضة الحضارية التي شهدها هذا القرن الذي يُعدُّ بحق أزهى عصور الإسلام في الحضارة و الثقافة و حركة التدوين .

4) و جلّى الفصل الثالث من هذا البحث عن حقائق علميّة و نتائج أبرزها :

أ- استلهام كثير من مظاهر التراث العربي و الإسلامي في الرسائل الأدبية ؛ كتضمين الشعر و حلّه في المكاتبات النثرية ، فضلا عن الاقتباس من القرآن ، و تضمين الأمثال السائرة ، و الحكم البليغة السديدة ، و توظيف الحكاية الشعبية ،و اعتماد ذلك في صناعة الترسل ، حتى غدت دعامة مهمة و أساسية في البناء الفني للرسائل الأدبية في هذا القرن .

ب- الإطلال الواسع و الاستشراف العميق على معارف بعض الأمم و الأجناس الأجنبية ، و ثقافاتها المختلفة – كاليونان و الفرس – فانبثَّتْ في ترسل الكتّاب ، و شكّلت رافداً مهماً للثقافة الإسلامية في هذا القرن ، وعملت على نضج النتاج الأدبي و العلمي ، و عمقه وإثرائه ، وهذا ما تجلّى واضحاً في رسائل أعلام الكتّاب المشهورين كابن العميد و الصاحب ، و أبي حيان ، و أبي بكر الخوارزمي ، و ابن مسكويه و الأمير قابوس و اضرابهم من بلغاء الكتاب .

وهكذا توصل البحث إلى أنَّ آثار هذه الثقافات الأجنبية مجتمعةً كانت واضحة على نتاج الكتّاب في هذا القرن ، مما كان لها تأثيرها الواضح على أساليبهم ، و طرائق تعبيرهم ، فضلاً عما تميّزت به مضامين رسائلهم من

الخاتمة:

العمق و الثراء ، و دقة الأفكار، على الرغم من اتشاح رسائلهم بافانين البديع ، و ألوان الزخارف اللفظية الأخرى ..

5) أما الفصل الرابع – الذي انصبَّ على دراسة موضوعات الرسائل الأدبية في هذا القرن – فقد جاء كثير من مسالكه جديداً في العرض و طرح الأفكار ، فضلا عن الوقوف على طائفة كبيرة من نصوص الرسائل الأدبية التي لم تقع عليها أقلام الباحثين بالدراسة و النقد و التحليل ..

وقد جلّى هذا الفصل عن النتائج المهمة الآتية :

أ- رصد المبحث الأول من هذا الفصل تطور (الرسائل الاخوانية) في هذا القرن ، على الرغم من ظهورها و شيوعها في العصور السابقة ، وقد وقف البحث عند ثمانية أغراض من الاخوانيات ، حلّل في كلّ منها فلسفة كلّ غرض ، و ما طرأ عليها من تطور ، ثم شرع يحلّل نماذج فنية نادرة لتلك الأغراض تحليلا نقديا مركزا ..

ب- كشف المبحث الثاني من هذا الفصل عن شغف كتّاب الرسائل الأدبية بخاصة ، في (فن الوصف) ؛ وصف المحسوسات و المعنويات ، و اندفاعهم في تصوير كلّ ما يلمّون به في ترسلهم ، و استقصاء جوانبه المختلفة ، و تحليل أطرافه و جزئياته ، سواء أكان منه ما يتصل بالأمور المحسوسة أم فيما يتصل بأمور الوجدان و الخواطر ، و غيرها من الأمور المعنوية المجرّدة ..

ج- وقد جلّى المبحث الثالث من هذا الفصل عن حقيقة مهمة تلك هي : إنّ نزوع كتّاب الرسائل في هذا القرن إلى الفكاهة و المرح , أو السخرية و التندر ، إنما كان مظهراً من مظاهر نزعتهم الفنية التي خامرت طبيعتهم المرحة ، وانبثقت عن رغبتهم الجامحة في الجنوح إلى هذا اللون من النثر الفني الفكه .

(6) وقد جلّى البحث في الفصل الخامس عن حقائق علمية و نتائج مهمة أبرزها :

الخاتمة:

أ- لقد شخصت بوضوح _ لاسيما في الرسائل الأدبية الطويلة _ ابرز جزئيات البناء الفني للنص الأدبي ، و بخاصة (الاستهلال) و (الخاتمة) و (حسن الانتقال) أو فصل الخطاب إلى الغرض الرئيس (عرض الرسالة) .

وقد غدت تلك الرسائل الأدبية الشهيرة نماذج شامخة ، و شواهد مهمة لأصالة النثر العربي في أزهى عصوره الأدبية ...

ب- توصل البحث إلى أنَّ جل الكتّاب في هذا القرن – على الرغم من غلبة الصنعة على أساليب أكثرهم – كانوا يستخدمون في ترسلهم و مكاتباتهم الأدبية لغة سهلة مأنوسة ، تميّزت بجمال الأداء ، و رقة العبارة ، و عذوبة الجرس ، و حلاوة الإيقاع ، مع عدم ميلهم إلى الغريب من الألفاظ و التراكيب ، وعدم التماسه في ترسلهم إلاّ لماما ، كما عمدوا كثيراً إلى لغة المجاز، نزوعاً إلى التجديد و الابتكار في المعاني ، فضلا عما كانت تشعه من إيحاءات متنوعة لها وقعها الفني و الجمالي في النص الأدبي ..

ج- توصل البحث إلى عناية الكتاب في هذا القرن ، بالشكل و المضمون في كثير من نصوص رسائلهم الأدبية ، فالألفاظ و التراكيب – بوصفهما جزءاً من شكل العمل الأدبي – وسيلة مهمة لنقل المعنى و صياغته ، و انه لا قيمة للشكل و الصياغة إلاّ بالمعنى ، كما أنَّ محتوى العمل الأدبي لا يحيا إلاّ بحسن الصورة ، و جمال الصياغة ، و رشاقة الأسلوب ..

د- كشف المحور الأول من هذا الفصل عن أهميّة المعنى ، و قيمته في رسائل هذا القرن ، و جلّى عن حقيقة مهمة تلك هي : إنَّ عناية الكتّاب بألفاظهم ، و موسيقى تراكيبهم ، و انكبابهم على تزويق أساليبهم ، إنمّا كان بدافع عنايتهم بمعانيهم ، و جلاء أفكارهم ، فضلاً عما كانوا يسعون إليه في هذا الجانب من ابتكار المعاني و التجديد فيها و توليدها ..

الخاتمة:

هـ- أبان المحور الثاني من المبحث الثاني من هذا الفصل – فضلاً عن قيمة الخيال و أثره المهم في العمل الأدبي ؛ لكونه جزءاً من المضمون الذي يشكّل جوهر النص الأدبي – عن حقيقة مهمة تلك هي : إنَّ كتّاب هذا القرن قد برعوا كثيراً في الوصف ، و افتّنوا كثيراً في خلق صور حسيّة نادرة ، و ذهنية مجرّدة ، سعياً وراء ابتكار المعاني الجديدة و توليدها ، فضلاً عن جلاء الأفكار و إيضاحها ..

و- وكشف المحور الثالث من المبحث الثاني من هذا الفصل عن أثر العاطفة الأدبية أو الانفعال – بوصفها إحساساً ذاتيا – في رسائل هذا القرن ، و قيمتها في توجيه لغتها الأدبية ، و ما أضفته على أجوائها من جمال فني ، لاسيما حين تظلل أجواء تلك النصوص الأدبية عواطف صادقة ، قوية ، تتسم بالعمق و الشمول الإنساني ، وحين تكون أيضا ، متدفقة ، منسابة ، غير متكلّفة أو مصطنعة ..

* * *

وختاما أزجي إلى أستاذي المشرف الدكتور يونس أحمد السامرائي أخلص تقدير ، و أجلّ ثناء ، على ما أولاني به من حسن التوجيه ، و كرم الرعاية ، إذ لم يألُ جهداً في المتابعة المخلصة لكلّ جزئيات هذا البحث .

جزاه الله تعالى عن العلم و طلبته ،و أثابه كلَّ الخير و الرضوان .

((رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ ...))

و آخرُ دعوانا أن الحمُد لله ربّ العالمين

المصادر والمراجع

المصادر والمرجع :

- القرآن الكريم .
- ابن العميد - خليل مردم (سلسلة أئمة الأدب -3-) نشر مكتبة عرفة . مطبعة الاعتدال - دمشق 1931 م .
- أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء - د. زكريا إبراهيم - (سلسلة الأعلام -2-) الطبعة الثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974 م .
- أبو حيان التوحيدي – د. إحسان عباس ، ط.دار بيروت للطباعة والنشر –بيروت 1956م.
- أبو حيان التوحيدي – د. أحمد محمد الحوفي . (الطبعة الثانية) – القاهرة 1964م.
- أبو حيان التوحيدي ....سيرته وآثاره –د. د. عبد الرزاق محيي الدين ، ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر –(الطبعة الثانية) 1979م.
- أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم - إبراهيم محمود . ط. الدائرة المتحدة للنشر - بيروت 1974 م .
- الآثار الباقية عن القرون الخالية - البيروني -أبو الريحان محمد بن أحمد (ت 440 هـ) ط. مؤسسة الخانجي بمصر -القاهرة (د. ت) (طبعة أخرى) : نشره : سخاو –ليبزج 1878م.
- أخبار الراضي والمتقي (من كتاب الأوراق) - أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت 335 هـ) . تحقيق ج . هيورث دن - القاهرة 1935م
- أخلاق الوزيرين - أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد ت بعد عام 400هـ) تحقيق محمد بن تاويت الطنجي - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - المطبعة الهاشمية 1965م
- إخوان الصفاء - د. جبور عبد النور (سلسلة نوابغ الفكر العربي -7-) ط. دار المعارف بمصر - القاهرة 1961 م

- الأدب في ظل بني بوبه - د. محمود غناوي الزهيري - مطبعة الأمانة - مصر - القاهرة 1368 هـ / 1949 م
- أدب الكاتب - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ت 276هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - الطبعة الرابعة - مطبعة السعادة - القاهرة 1963 م
- أدب الكتّاب - أبو بكر الصولي (ت 335 هـ) تحقيق محمد بهجة الأثرى - المطبعة السلفية بمصر - القاهرة 1342 هـ
- الأدب وفنونه - د. عز الدين إسماعيل - ط. مطبعة السعادة بمصر القاهرة 1976 م
- الأدب وفنونه - د. محمد مندور - الناشر : معهد الدراسات العربية العالية - دار نهضة مصر للطباعة والنشر- القاهرة (د.ت)
- الأرض اليباب - ت. س .إليوت : الشاعر والقصيدة - دراسة وترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) الطبعة الأولى -بيروت 1980 م
- أساليب بلاغية - د. أحمد مطلوب - ط . وكالة المطبوعات الكويت 1980 م
- أسرار البلاغة - عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت 471هـ) تحقيق: هـ ريتر - مطبعة وزارة المعارف - اسطنبول 1954 م
- الأسلوب – أحمد الشايب – ط . مكتبة النهضة المصرية. الطبعة السابعة – القاهرة 1976 م
- الاشتقاق – ابن دريد (محمد بن الحسن الأزدي ت 321 هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون – القاهرة 1958 م
- الإصابة في تمييز الصحابة – شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني المشهور ابن حجر (ت 852 هـ) – الطبعة الأولى. مطبعة السعادة – مصر 1323 هـ . (طبعة بالاوفسيت)
- أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيان التوحيدي ، نور الدين بن بلقاسم ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان –طرابلس (الجماهيرية العربية الليبية) الطبعة الأولى 1393هـ/1984م.

- إصلاح المنطق – ابن السكيت (يعقوب بن إسحاق ت 244 هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر – عبد السلام محمد هارون . الطبعة الثانية – ط . دار المعارف بمصر 1956 م .
- أصول النقد الادبي – أحمد الشايب – الناشر : مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثالثة – مطبعة الاعتماد – مصر – القاهرة 1365 هـ / 1946 م
- الأعلام – خير الدين الزركلي – ط كوستا تسوماس وشركاه. القاهرة 1956 م
- أعيان الشيعة – محسن الأمين العاملي – الطبعة الرابعة مطبعة الإنصاف – بيروت 1960 م.
- ألأغاني – أبو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني (ت 356هـ) . ط. دار الكتب المصرية (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر) – مطابع كوستا تسوماس – القاهرة (د. ت)
- الألفاظ الكتابية – عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت 320 هـ) . عني بضبطه وطبعة: لويس شيخو اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية – بيروت 1885 م
- أمالي الزجاجي – أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت 340 هـ) . تحقيق : عبد السلام محمد هارون – ملتزم الطبع والنشر : المؤسسة العربية الحديثة – الطبعة الأولى – القاهرة 1382 هـ
- الامتاع والمؤانسة – أبو حيّان التوحيدي – تحقيق الأستاذين: أحمد أمين – أحمد الزين – الناشر: المكتبة العصرية – بيروت ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر 1373 هـ / 1953 م .
- أمراء البيان – محمد كرد علي – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1355هـ/1937م.
- الأنساب – أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت 562 هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي – الطبعة الأولى. مطبعة دار المعارف الإسلامية 1385 هـ / 1966 م

- أهل المدينة الفاضلة – أبو نصر الفارابي (محمد بن محمد بن طرخان) (ت 339 هـ) ط. دار العراق – بيروت 1955 م
- الإيضاح في علوم البلاغة – جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المشهور بالخطيب القزويني (ت 739 هـ) (وهو شرح تلخيصه لكتاب المفتاح للسكاكي)مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده – القاهرة 1971 م
- البخلاء – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ). تحقيق: د. طه الحاجري – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة 1948 م.
- البخلاء – الجاحظ – تحقيق د. طه الحاجري (طبعة أخرى). (سلسلة ذخائر العرب – 23–) ط. دار المعارف بمصر 1958 م
- البديع – عبد الله بن المعتز بن المتوكل (ت 296 هـ) ط. أغناطيوس كرا تشكو فسكي – لندن 1935 م
- بديع الزمان الهمذاني – رائد القصة العربية والمقالة الصحفية.د. مصطفى الشكعة – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة 1975 م
- بديعات الزمان (بحث تاريخي تحليلي في مقامات الهمذاني) – فيكتور الكك. تقديم: فؤاد أفرام البستاني – المطبعة الكاثوليكية – بيروت 1961 م
- البرهان في وجوه البيان – ابن وهب – أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب. تحقيق: د. أحمد مطلوب– د. خديجة الحديثي – بغداد 1387 هـ / 1967 م.
- البصائر والذخائر – أبو حيان التوحيدي – تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني. مطبعة الإنشاء – دمشق 1964 م. الناشر: مكتبة أطلس.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس – أحمد بن يحيى الضبي (ت 599 هـ) . تحقيق: مطيع ر وخس – مطبعة مدريد 1885 م
- بلدان الخلافة الشرقية – كي. لستر نج. ترجمة: بشير فرنسيس – وكوركيس عواد – مطبعة الرابطة – بغداد 1954 م.

- بناء القصيدة في النقد العربي القديم – د. يوسف حسين بكار. الطبعة الثانية – ط. دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع لبنان – بيروت 1403 هـ / 1983 م
- البيان والتبيين – أبو عثمان الجاحظ – تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مطبعة المدني – القاهرة 1405 هـ -1985 م – الطبعة الخامسة. الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- تاريخ أبي الفداء – المسمى (المختصر في إخبار البشر) – عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي (ت 732 هـ). علق عليه ووضع حواشيه: محمود ديوب . الطبعة الأولى – منشورات: محمد علي بيضون.دار الكتب العلمية – بيروت 1417 هـ / 1997 م .
- تاريخ الأدب العربي – المستشرق الألماني كارل بروكلمان – نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار. الطبعة الثالثة ط. دار المعارف بمصر (د. ت) – ج 4، ج 5، نقلها إلى العربية: د. السيد يعقوب بكر – ود. رمضان عبد التواب. ط. دار المعارف بمصر 1975م.
- تاريخ الأدب العربي (4) – العصر العباسي الثاني – د. شوقي ضيف.ط. دار المعارف بمصر – القاهرة 1973 م.
- تاريخ الأدب في إيران (من الفردوسي إلى السعدي) – المستشرق ادوارد جرانفيل براون – تقله إلى العربية:د. إبراهيم أمين الشواربي .الطبعة الأولى – الناشر: مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 1424 هـ / 2004 م (طبعة أخرى) :مطبعة السعادة بمصر – القاهرة 1373هـ/1954م.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – حسن إبراهيم حسن – مطبعة الاعتماد – مصر – (د. ت). الناشر: مكتبة النهضة المصرية.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – حسن إبراهيم حسن (طبعة أخرى) مطبعة السنة المحمدية – القاهرة 1964 م الطبعة السابعة.

- تاريخ إيران – د. فاروق عمر – د. مرتضى حسن النقيب مطبعة التعليم العالي والبحث العلمي – بغداد 1989 م. (منشورات بيت الحكمة)
- تاريخ بغداد – الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي) ط 1 مطبعة السعادة – القاهرة 1349 هـ /1931 م
- تاريخ الرسل والملوك – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. دار المعارف بمصر – القاهرة 1963 – 1969 م. (سلسلة ذخائر العرب) 10 مجلدات.
- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء – حمزة الأصفهاني ط3. دار الحياة –بيروت (د. ت)
- تاريخ الشعوب الإسلامية – المستشرق كارل بروكلمان . ترجمة : نبيه أمين فارس – ومنير بعلبكي – بيروت 1965 م.
- تاريخ العتبي –أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي (ت 432 هـ) . طبع على هامش شرح الشيخ المنيني المسمى (الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي) مطبعة جمعية المعارف – مصر – القاهرة (د.ت).
- التاريخ اليميني (طبعة أخرى) –أبو النصر العتبي (ت 432 هـ) . شرح الشيخ أحمد المنيني . مصر. القاهرة 1286 هـ (طبع في جزئين) .
- تاريخ الفلسفة في الإسلام – ت ج – دي بور. نقله إلى العربية وقدم له: د.محمد عبد الهادي أبو ريده. (الطبعة الرابعة). ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1957 م.
- تاريخ مختصر الدول – ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس) .نشر وتقديم: أنطوان صالحاتي اليسوعي . بيروت 1958 م
- تاريخ اليعقوبي – أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت 292 هـ)ط . دار صادر – دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت 1379 هـ /1960 م.

- تاريخ اليعقوبي (طبعة أخرى) – أحمد بن أبي يعقوب (ت 292 هـ) نشر المكتبة الحيدرية ومطبعتها – النجف الاشرف 1964 م .
- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن – ابن الزملكاني (عبد الواحد بن عبد الكريم). تحقيق: د. أحمد مطلوب – د. خديجة الحديثي . مطبعة العاني – بغداد 1964 م.
- تتمة صوان الحكمة – البيهقي (ظهر الدين أبو الحسن علي بن أبي القاسم زيد البيهقي (ت 565 هـ)– لاهور – حيدر اباد –الدكن 1351 هـ .
- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء – هلال بن المحسن الصابي. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج – مصر – القاهرة 1951 م
- تحفة الوزراء – المنسوب إلى أبي منصور الثعالبي (ت 429 هـ) – تحقيق: حبيب علي الراوي – د. ابتسام مرهون الصفار. مطبعة العاني – بغداد 1977 م. (سلسلة إحياء التراث الإسلامي – وزارة الأوقاف – جمهورية العراق – 24)
- التحليل النقدي والجمالي للأدب – د. عنان غزوان إسماعيل. دار آفاق عربية للطباعة والنشر – بغداد 1985م.
- تذكرة الحفاظ – شمس الدين الذهبي – ط. حيدر آباد – الدكن 1957 م.
- تذكرة الحفاظ – (طبعة أخرى) – الذهبي– الطبعة الرابعة. ط. دار إحياء التراث العربي. (د. ت).
- تذكرة الشعراء – دولتشاه السمر قندي (بالفارسية) مطبعة لندن 1813 هجري قمري. (الكتاب في مجلدين)
- التربيع والتدوير – أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) عني بنشره: شارل بلات – المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية 1955م.
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي –أنيس المقدسي. الطبعة الثالثة – ط. دار العلم للملايين – بيروت 1965 م.

- التمثيل والمحاضرة – أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ). تحقيق: عبد الفتاح الحلو.ط. دار إحياء. الكتب العربية مصر – القاهرة 1961 م.
- التنبيه والأشراف – أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت 345 هـ). ط. ليدن 1893م.
- تهذيب التهذيب – ابن حجر العسقلاني (ت852 هـ) ط. حيدر آباد – الدكن 1325 هـ
- الثعالبي ناقداً وأديباً – د.محمود عبد الله الجادر منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع (الطبعة الأولى) بيروت (1411هـ/1991م).
- ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي – عني بتحقيقها ونشرها: د. إبراهيم الكيلاني – المطبعة الكاثوليكية – بيروت 1951 م (الناشر المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية)
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب – أبو منصور الثعالبي.تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ط. دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة 1384 هـ / 1965 م.
- ثمرات الأوراق – ابن حجة الحموي (أبو بكر علي بن حجة) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم .ط مصر –القاهرة 1971م.
- ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد – أحمد علي – ط . دار مكتبة الحياة – بيروت 1961 م.
- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (الملقب بدستور العلماء) للقاضي عبد النبي ابن عبد الرسول الأحمد نكري. ط2 (منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 1395 هـ /1975 م
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور – ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير (ت 637 هـ) تحقيق: د. مصطفى جواد – د. جميل سعيد.مطبوعات المجمع العلمي العراقي – بغداد 1956 م.

- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب – د. ماهر مهدي هلال – ط دار الحرية للطباعة والنشر – بغداد 1980 م.
- جمهورية أفلاطون – ترجمة: حنّا خبّاز – ط. دار القلم. بيروت 1980 ط2.
- جهار مقالة (المقالات الأربع في الكتابة والشعر والنجوم والطب) – النظامي العروضي أحمد بن عمر بن علي السمرقندي (500هـ–552هـ) وفيه حواشي وخلاصة العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني . نقله إلى العربية: عبد الوهاب عزام – ويحيى الخشاب. الطبعة الأولى. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1368 هـ / 1949 م.
- الحضارة الإسلامية في القرن ألرابع الهجري (أو عصر النهضة في الإسلام) . الأستاذ آدم متز – نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريده . الناشر: دار الكتاب العربي / بيروت – الطبعة الرابعة. ط. مكتبة الخانجي – القاهرة – 1378 هـ /1967 م.
- حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي – د. محمد رجب النجار. ط. الكويت 1981 م.
- الحيوان – أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون – الطبعة الأولى ط. مصطفى البابي الحلبي – القاهرة 1356 هـ /1931 م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب – أبو بكر علي بن حجة الحموي. طبع ونشر القاهرة 1304 هـ.
- خزانة الأدب وغاية الأرب –ابن حجة الحموري (طبعة أخرى) ط. دار القاموس الحديث – بيروت (د. ت)
- الخطابة – ارسطاطاليس – ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي . طبع على مطابع الرسالة 1980 م. الناشر:دار الرشيد للنشر (سلسلة الكتب المترجمة –14– وزارة الثقافة والأعلام – جمهورية العراق – بغداد .

- الخيال الرومانسي – موريس بورا – ترجمة: إبراهيم الصيرفي. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1977 م.
- دائرة المعارف الإسلامية – نقلها إلى العربية لفيف من المستشرقين المشتغلين بالعلوم والآداب (د.ت).
- دراسات في العصور العباسية المتأخرة –د. عبد العزيز الدوري أُرِّختْ المقدمة في تموز 1945(دار المعلمين العالمية –بغداد).
- دراسات في علم النفس – د. حامد عبد القادر . ط. المطبعة النموذجية 1954 م.
- دلائل الإعجاز – عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت 471 هـ) . تحقيق: محمد رشيد رضا – الطبعة الخامسة. ط. دار المنار – القاهرة 1372 هـ. (طبعة أخرى : تحقيق : محمود محمد شاكر –مكتبة الخانجي – القاهرة 1984م).
- دمية القصر وعصره أهل العصر – أبو الحسن علي بن الحسن ابن أبى الطيب الباخرزي (ت 467 هـ) . تحقيق : د. سامي مكي العاني (الطبعة الثانية) . الناشر : مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع – الكويت 1405 هـ / 1985 م .
- ديوان أبي الطيب المتنبي – شرح أبى البقاء العكبري المسى بالتبيان في شرح الديوان – ضبطه وصححه ووضع فهارسه : مصطفى السقا – إبراهيم الابياري – عبد الحفيظ شلبي . ط. مصطفى البابي الحلبي – مصر 1355 هـ / 1936 م .
- ديوان الحطيئة – (جرول بن أوس العبسي) . ط . المؤسسة العربية للطباعة والنشر –بيروت (د.ت) .
- ديوان طرفة بن العبد – تقديم : كرم البستاني . ط.دار صادر –دار بيروت للطباعة والنشر .بيروت 1380هـ/1961م.
- ديوان المعاني – أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت 395 هـ) .عني بنشره : مكتبة القدسي – القاهرة 1352 هـ .
- ديوان النابغة الذبياني –(أبو أمامة زياد بن معاوية) .تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .(الطبعة الثانية) ط . دار المعارف بمصر – القاهرة 1985 م .

- ذيل تجارب الأمم – أبو شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين الروذراوري (ت 488 هـ) . تحقيق : هـ . ف . امدروز 1334مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر –القاهرة هـ / 1916 م .
- الرثاء – د. شوقي ضيف (سلسلة فنون الأدب العربي – الفن الغنائي 2 –) .ط. دار المعارف بمصر – القاهرة 1955 م . (الطبعة الثانية) .
- رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء – تحقيق : بطرس البستاني ط. دار بيروت – دار صادر للطباعة والنشر – بيروت 1956 .
- رسائل البلغاء – الأستاذ محمد كرد علي (الطبعة الثالثة) . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1365 هـ . / 1946 م .
- رسائل أبي بكر الخوارزمي – تقديم وتحقيق : نسيب وهيبة الخازن . طبع بمطابع دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر – بيروت 1970 م . (منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت) .
- رسائل الصابي والشريف الرضي – تحقيق : د. محمد يوسف نجم . مطبعة حكومة الكويت – الكويت 1961م . (التراث العربي – سلسلة تصدرها دائرة المطبوعات والنشر في الكويت) .
- رسائل الصاحب بن عبّاد (أبو القاسم : إسماعيل بن عبّاد ت 385 هـ). صححها وقدم لها : د . عبد الوهاب عزام – د. شوقي ضيف . (الطبعة الأولى) . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1366 هـ / 1947 م .
  (الناشر : دار الفكر العربي) .
- رسالة الصداقة و الصديق – أبو حيان التوحيدي . تحقيق : د. إبراهيم الكيلاني – دار الفكر – دمشق 1964 م .
- الرسالة العذراء – إبراهيم بن المدبّر (ت 279 هـ) تحقيق : د. زكي مبارك – (الطبعة الثانية) . مطبعة دار الكتب المصرية / القاهرة 1974 م .

- رسائل فلسفية – د. ناجي التكريتي – د. صالح الشماع . ط. دار الشؤون الثقافية العامة – وزارة الثقافة والأعلام . بغداد 1989 م .
- الرسائل الفنية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي – غانم جواد رضا – ط . مطبعة اسعد – بغداد 1978م . الناشر : مكتبة دار التربية – بغداد .
- رسائل الكندي الفلسفية – أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت 252 هـ) تحقيق : محمد عبد الهادي أبو ريده . مطبعة الاعتماد بمصر – القاهرة 1950 م . (الناشر دار الفكر العربي).
- رسالة في ثمرات العلوم –التوحيدي –نشر أحمد فارس الشدياق (ملحقة برسالة الصداقة والصديق في كتاب (رسالتان للعلاقة الشهير أبي حيان التوحيدي) ط مطبعة الجوانب – القاهرة 1310 هـ–1884 م.
- رسوم دار الخلافة – ابو الحسين هلال بن المحسن الصابي (ت 359 هـ)– 448 هـ) تحقيق : ميخائيل عواد – مطبعة العاني بغداد 1383 هـ / 1964 م
- زهر الآداب وثمر الألباب – أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (ت 453 هـ) . تحقيق : د. زكي مبارك . ط. دار الجبل للنشر والتوزيع والطباعة – بيروت 1972 . (الطبعة الرابعة) الناشر : مكتبة المحتسب – عمان
- السجع وأطوار استعماله في أدب العرب – عبد الستار فوزي . ط. الشركة المركزية للطباعة والإعلان – بغداد 1966 م .
- سحر البلاغة وسر البراعة – أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ) وقف على طبعة : أحمد عبيد (الطبعة الأولى) . مطبعة الترقي – دمشق 1250 هـ .
- سر الفصاحة – أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) تحقيق :عبد المتعال الصعيدي – مطبعة محمد علي صبيح القاهرة 1389 هـ / 1969 م .

- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون – جمال الدين محمد بن نباتة المصري (ت 768 هـ) . (الطبعة الأولى) . مطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة 1377 هـ / 1957 م (سلسلة تراث العرب) .
- سهل بن هارون – د. منجي الكعبي .(الطبعة الأولى).مطبعة الشركة التونسية – تونس 1980 م .
- السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية – المستشرق فان فلوتن – ترجمة : د. حسن ابراهيم – ومحمد زكي إبراهيم – ط. مطبعة السعادة – القاهرة 1934 م.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات – ابو بكر محمد بن القاسم الانباري (271 هـ – 328 هـ) تحقيق : عبد السلام محمد هارون (الطبعة الرابعة) .ط. دار المعارف بمصر – القاهرة 1400 هـ / 1980 م .
- شرح نهج البلاغة – ابن ابي الحديد (عز الدين عبد الحميد بن أبى الحديد المدائني (ت 656 هـ) . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . دار أحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي 1965 م . (الطبعة الثانية)
- شرح هاشميات الكميت بن زيد الاسدي (بتفسير أبى رياش أحمد بن إبراهيم القيسي). تحقيق : د. داود سلوم –د. نوري حمودي القيسي – (الطبعة الأولى) . الناشر : عالم الكتب – مكتبة النهضة العربية . بيروت 1404 هـ – 1984 م .
- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه – د. يحيى الجبوري – طبع لبنان 1972 م . الناشر : مكتبة دار التربية – بغداد .
- الشعر العربي المعاصر .. قضاياه وظواهره الفنية – د. عز الدين إسماعيل . ط. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة 1967 م.
- الشعر كيف نغهمه ونتذوقه – اليزابيث درو . ترجمة : محمد إبراهيم الشوش – منشورات فرانكلين / نيويورك 1961 م.

- الشعر والشعراء – أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (276 هـ) ط. عالم الكتب – بيروت (قسطنطينية) 1282 هـ. (الطبعة الأولى) .
- الشعر والفكر المعاصر – (سلسلة كتاب الجماهير) .منشورات وزارة الأعلام – بغداد 1974 م .
- صبح الأعشى في صناعة الانشا – ابو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت 821 هـ – 1418 م.). نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية – وزارة الثقافة والإرشاد القومي / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – مطابع كوستا تسوماس – القاهرة 1383 هـ / 1963 م .
- صحيح البخاري –للامام ابي عبد اله محمد بن اسماعيل البخاري (ت256هـ) طبعة محققة على عدة نسخ ،وعن نسخة (فتح الباري) التي حقق اصولها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز،الناشر : المكتبة التوفيقية – مصر – القاهرة (د.ت).
- الصورة الشعرية – سيسيل دي لويس . ترجمة : د. أحمد نصيف الجنابي وزميليه – راجعه : د. عنان غزوان إسماعيل . دار الرشيد للنشر – بغداد 1982 م .
  (سلسلة الكتب المترجمة – 121–)
- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي – الولي محمد . الناشر : المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء 1990 م . (الطبعة الأولى).
- الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث – د. بشرى موسى صالح . الناشر : المركز الثقافي العربي – بيروت – الدار البيضاء 1994 (الطبعة الأولى) .
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي – د. جابر أحمد عصفور. الطبعة الأولى – نشر وطبع : دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة 1974 م .
- الصورة الفنية في قصيدة الرؤيا – د. عبد الله عساف . الطبعة الأولى – الناشر: دار دجلة – سوريا – القامشلي 1966 م.
- الصورة في الشعر العربي حتى أخر القرن الثاني الهجري – د. علي البطل. (الطبعة الثانية) – دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع 1401 هـ / 1981 م.

- طبقات الشافعية الكبرى – تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي (727 هـ – 771 هـ). تحقيق: محمود محمد الطناحي – عبد الفتاح محمد الحلو. (الطبقة الأولى). ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي 1384 هـ / 1965 م.
- طبقات الشعراء – عبد الله بن المعتز بن المتوكل (ت296 هـ) . تحقيق: عبد الستار أحمد فراج – ط. دار المعارف بمصر 1956 م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي (ت 745 هـ) مطبعة المقتطف – القاهرة 1332 هـ / 1914 م.
- ظهر الإسلام – الأستاذ أحمد أمين. الناشر: مكتبة النهضة المصرية (د. ت).
- العجّاج ودوره في تطوير الأرجوزه في العصر الأموي – غانم جواد رضا – مطبعة جامعة الموصل 1986 (الطبعة الأولى) . الناشر: مركز دراسات الخليج العربي – جامعة البصرة .
- العربية (دراسات في اللغة و اللهجات والأساليب) – للمستشرق الألماني يوهان فك . ترجمة: د. عبد الحليم النجار ط. مصر – القاهرة 1951 م.
- علم البيان – د. بدوي طبانة. (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية) ملتزم الطبع والنشر: مكتبة الانجلو المصرية 1381 هـ / 1962 م .
- علم المعاني – د. درويش الجندي. ط. دار نهضة مصر – القاهرة . (د. ت).
- علم المعاني – د. عبد العزيز عتيق . ط. دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت 1974 م.
- علم المعاني – د. قصي سالم علوان – مطبعة جامعة البصرة 1985 م (الطبعة الأولى) .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) تقديم وشرح: د. صلاح الدين الهواري – أ . هدى عودة. (الطبعة الأولى) . الناشر: مكتبة الهلال للطباعة والنشر – بيروت 1416 هـ / 1996 م .

- عيار الشعر – محمد بن أحمد بن طباطا العلوي (ت 322هـ) . تحقيق: د. طه الحاجري – د. محمد زغلول سلام. المكتبة التجارية – القاهرة 1956 م.
- عيون الأخبار – ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ) . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. (د. ت).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء – ابن أبي اصيبعة . ط. دار الفكر – بيروت 1957م.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم – صلاح الدين الصفدي . ط. المطبعة الأزهرية – مصر – القاهرة 1305 هـ.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية – محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت709 هـ) .دار بيروت للطباعة والنشر 1385 هـ / 1966م.
- الفرج بعد الشده – القاضي ابو علي المحسن بن علي التنوخي (ت 384 هـ) . تحقيق : عبود الشالجي المحامي – ط . دار صادر للطباعة والنشر بيروت 1978 م
- فقه اللغة وسر العربية – ابو منصور الثعالبي (ت429 هـ) . الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – تحقيق: أحمد يوسف علي. مطبعة الاستقامة – القاهرة. (د. ت) .
- الفلك الدائر على المثل السائر – عز الدين عبد الحميد بن ابي الحديد المدائني (ت 656 هـ). تحقيق: بدوي طبانة – أحمد محمد الحوفي . (الطبعة الخامسة). ط. دار المعارف بمصر – القاهرة (د. ت).
- الفن ومذاهبه في النثر العربي –د. شوقي طيف (الطبعة الخامسة)ط. دار المعارف بمصر –القاهرة (د.ت).
- فنون بلاغية – د. أحمد مطلوب – (الطبعة الاولى). الناشر: دار البحوث العلمية – الكويت 1395 هـ / 1975 م .
- الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم – أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المشهور بابن النديم

(ت385 هـ). تحقيق: رضا تجدد. مطبعة دانشكاه – طهران 1309 هـ / 1971 م.

- الفهرست – ابن النديم (طبعة أخرى) . المطبعة الرحمانية –مصر – القاهرة 1348 هـ .
- فوات الوفيات – محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – مكتبة النهضة المصرية. (د. ت) .
- فوات الوفيات – الكتبي (طبعة أخرى) . تحقيق: د. إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت (د. ت)
- في ادب الفرس وحضارتهم – د. محمد عبد السلام كفاني . الناشر : دار النهضة للطباعة والنشر 1971 م .
- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة – ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت 440 هـ / 1048م). ط. مطبعة مجلس دائرة المعارف العمثانية – حيدر آباد – الدكن 1377 هـ / 1958 م .

(صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس)

مجموعة شيفر رقم (6080)، بإعانة وزارة المعارف للحكومة الهندية.

- في الشعر – ارسطاطاليس – نقله إلى العربية متى بن يونس القنائي . ترجمة وشرح: د. محمد شكري عياد. ط. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة 1967 م.
- في الميزان الجديد – د. محمد مندور.(الطبعة الثالثة) – ط. القاهرة د. ت .
- في النقد الأدبي – د. شوقي ضيف. ط. دار المعارف بمصر. القاهرة 1966 م.
- القرامطة، أصلهم، تاريخهم، حروبهم – عارف ثامر . ط. دار الكتاب العربي – بيروت (د. ت)
- قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة. (الطبعة الثانية). مطبعة دار التضامن – بغداد 1965 م. منشورات مكتبة النهضة.

- قواعد الشعر – أحمد بن يحيى (ثعلب) ت 291 هـ. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي. (الطبعة الأولى). مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر – القاهرة 1948 م.
- الكامل في التاريخ – عز الدين أبو الحسن علي أبي الكرم (ابن الأثير ت 630). ط. دار صادر – دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت 1386 هـ . / 1966 م
- الكامل في اللغة والادب – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد
- (ت 285 هـ). تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم – والسيد شحاتة. ط. دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة 1376 هـ / 1956 م.
- كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي – (الطبعة الثانية)..طبع في مدينة ليدن – مطبعة بريل سنة 1909 م. الناشر:دار الفكر – بيروت.
- كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء – الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي (ت 646 هـ). الناشر: دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت (د. ت).
- كتاب خاص- أبو منصور الثعالبي (ت429 هـ). قدم له: حسن الأمين – منشورات دار مكتبة الحياة- لبنان – بيروت 1966 م.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) – أبو هلال الحسن بن عبد الله ابن سهل العسكري (395 هـ) : تحقيق علي محمد البجاوي – ومحمد أبو الفضل إبراهيم – (الطبعة الثانية) . مطبعة عيسى البابي الحلبي 1971 م.
- كتاب غرر البلاغة في النظم والنثر –أبو منصور الثعالبي (ت429هـ) تحقيق د. قحطان رشيد صالح (سلسلة خزانة التراث) .ط .دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد 1998م.
- كتاب الكتاب – لابن درستوية – (عبد الله بن جعفر بن درستويه الفسوي الفارسي (258 – 347 هـ) . تحقيق: د. إبراهيم السامرائي – د. عبد الحسين الفتلي . (

الطبعة الأولى) . الناشر : مؤسسة دار الكتب الثقافية- الكويت 1397 هـ / 1977 م.

- كتاب الموسيقى الكبير – أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (ت 339 هـ). تحقيق: غطاس عبد الملك .ط. دار الكتاب العربي – القاهرة 1967 م.
- كتاب النمر والثعلب – سهل بن هارون الدستميساني الكاتب (ت 215 هـ) . تقديم وتحقيق : د. منجي الكعبي – تونس (الطبعة الأولى) . مطبعة الشركة التونسية – تونس 1980 م.
- كشاف اصطلاحات الفنون – محمد علي الفاروقي التهانوي . تحقيق : لطفي عبد البديع – (ترجم النصوص الفارسية : د. عبد المنعم حسنين) . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972 م .
- الكشف عن مساوئ شعر المتنبي – أبو القاسم الصاحب بن عباد (ت385 هـ) تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين – ط . مكتبة النهضة – بغداد 1965 م .
- الكشف عن مساوي شعر المتنبي (ضمن كتاب الابانة عن سرقات المتنبي) للصاحب بن عباد (ت 385 هـ) . ط. دار المعارف بمصر . (د. ت)
- كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان - شرح وتحقيق الشيخ إبراهيم أفندي الأحدب الطرابلسي . (جمع الرسائل : الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست) - ط . دار التراث - بيروت (د. ت) .
- كمال البلاغة (رسائل الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير الزياري ت 403 هـ) - جمع وتصنيف عبد الرحمن بن علي اليزدادي . طبع على نفقة المكتبة العربية ببغداد (لصاحبها نعمان الاعظمي) . ط . المطبعة السلفية - بمصر - القاهرة 1341 هـ .
- الكنابة والتعريض (ويسمى الكفاية في الكنابة) للثعالبي (ت 429 هـ) مطبعة دار صعب - بيروت (د. ت) . و أشار الأستاذ الباحث محمود عبد الله الجادر في كتابه (الثعالبي ناقداً وأديباً ص86 - والكتاب رسالة ماجستير نوقشت عام 1974 م - أشار

إلى أن كتاب (النهاية في الكنابة) - الذي طبع في مطبعة الجوانب عام 1301 هـ - هو نفسه كتاب الكنابة والتعريض الذي نحن بصدد ذكره .

- كنور الأجداد - الأستاذ محمد كرد علي . مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - مطبعة الترقي دمشق 1370 هـ / 1950 م .
- كولردج - د. محمد مصطفى بدوي . ط. القاهرة 1958 .
- اللباب في تهذيب الأنساب - عز الدين ابن الأثير الجزري (ت 630 هـ). الناشر : مكتبة المثنى - بغداد - (د. ت) .
- لحن العامة - علي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ) . تحقيق : عبدا لعزيز الميمني الراجكوتي - طبع في مصر 1344 هـ .
- لسان العرب : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت 711هـ) . ط. دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر .بيروت 1388 هـ / 1968 م
- لطائف المعاني - أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ) تحقيق : إبراهيم الابياري - حسن كامل الصيرفي- دار إحياء الكتب العربية . مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة 1379 هـ / 1960 م .
- لغة الشعر الحديث في العراق -د. عدنان حسين العوادي ط. دار الحرية للطباعة والنشر - بغداد 1985 م . (دار الشؤون الثقافية العامة) وزارة الثقافة والأعلام .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة 1358 هـ / 1939 م .
- مجالس العلماء - أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت340 هـ) . تحقيق : عبد السلام محمد هارون - الكويت 1962 م .
- مجمع الأمثال - أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت 518هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السنة المحمدية . القاهرة 1374 هـ / 1955 م.

- مجمع الأمثال - الميداني (طبعة أخرى) . (الطبعة الثانية) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط. دار الجيل 1987 م .
- المحاسن والمساوئ - إبراهيم بن محمد البيهقي (ت 320 هـ) ط. دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت 1380 هـ / 1960 م .
- مختار الصماح - محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازي (ت 666هـ) (الطبعة الأولى) الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت 1979 م .
- المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي - جمع وتحقيق : الأمير شكيب أرسلان - لبنان - باعبده 1898 م .
- المدخل إلى علم النفس الحديث - ركس نايت - ومرجريت نايت - تعريب : د. عبد علي الجسماني - مطبعة الخلود بغداد 1984 ط3 .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر - أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت345 هـ) . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . (الطبعة الخامسة) مطبعة السعادة - مصر 1387 هـ/ 1967 م .
- مصطلحات بلاغية - د. أحمد مطلوب . مطبعة العاني - بغداد 1972 م .
- المعارف - ابن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ) - طبعة غوتنجن 1850 م .
- معالم الحضارة الإسلامية – د.مصطفى الشكعة،(الطبعة الثالثة)–دار العلم للملايين – بيروت،1978م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب) –شهاب الدين أبو عبد الله الرومي الحموي(ت626 هـ) ، تقديم وتحقيق :أحمد فريد رفاعي (سلسلة الموسوعات العربية)،مطبوعات دار المأمون – مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر 1936م.
- معجم الأدباء –ياقوت الحموي (طبعة أخرى) عني بتصحيحه وضبطه : المستشرق مرجليوت–مطبعة هندية بالموسكي القاهرة 1923م.

- المعجم الأدبي –د. جبور عبد النور – ط . دار العلم للملايين –بيروت 1979م(الطبعة الأولى).
- معجم البلدان –ياقوت الحموي (ت 626 هـ)،ط.دار صادر – دار بيروت للطباعة والنشر –بيروت 1374هـ/1955م.
- معجم البلدان –ياقوت الحموي (626هـ) (طبعة أخرى)تحقيق : فرديناند وستنفيلد – ط – ليبزك 1866م(منشورات مكتبة الأسدي 1965م(ط بالأفست)..
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب –مجدي وهبة – وكامل المهندس – منشورات مكتبة لبنان –بيروت 1979م.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي –رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين – نشره : أ.ي .ونسنك–ليدن 1943م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم –وضعه محمد فؤاد عبد الباقي –ط–دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع–بيروت 1407هـ/1987م(الناشر:دار الفكر –بيروت).
- مفتاح العلوم –السكاكي(أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت 626هـ)–مطبعة مصطفى البابي الحلبي –القاهرة 1937م.ط1.
- المقابسات –أبو حيان التوحيدي (ت بعد سنة 400هـ) تحقيق : حسن السندوبي (الطبعة الأولى) مصر –القاهرة 1929م.
- مقاتل الطالبيين –أبو الفرج الأصفهاني (ت 356هـ)،تحقيق :السيد احمد صقر –مصر –القاهرة 1949م.
- مقالة في طبيعة الشعر (ت . س. إليوت : الشاعر الناقد) – ف . أ .ماثيسن– ترجمة د. إحسان عباس . مطبوعات المكتبة العصرية – بغداد 1965م.
- المكتبة –د.سامي مكي العاني –د.عبد الوهاب العدواني ط.دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل 1399هـ/1979م.
- ملامح النثر العباسي –د.عمر الدقاق دار الشرق العربي –بيروت (د.ت).

- الملل والنحل –أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت) تحقيق : محمد بن فتح الله بدران –مطبعة الأزهر –مصر 1366هـ/1947م. (الطبعة الأولى).
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم – أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت 597هـ)مطبعة دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد – الدكن 1358هـ.
- من حيث الشعر والنثر –د.طه حسين .(الطبعة العاشرة) ط.دار المعارف بمصر – القاهرة 1936م.
- من غاب عنه المطرب –أبو منصور الثعالبي (ت 429هـ) تحقيق : النبوي عبد الواحد شعلان (الطبعة الأولى) مطبعة المدني –المؤسسة السعودية بمصر –القاهرة 1405هـ/1984م.الناشر :مكتبة الخانجي –مصر .
- منهج البحث الأدبي –د.علي جواد الطاهر (الطبعة السابعة) مطبعة الديواني –بغداد 1986م.نشر وتوزيع :المكتبة العالمية .
- منهج البحث في تاريخ الآداب –لانسون –ترجمة :د.محمد مندور (نشر ضمن كتاب النقد المنهجي عند العرب)ط–دار نهضة مصر للطباعة والنشر –القاهرة (د.ت).
- موسيقى الشعر –د.إبراهيم أنيس (الطبعة الثالثة) مطبعة لجنة البيان العربي –القاهرة 1965م(ملتزم الطبع والنشر :مكتبة الأنجلو المصرية)
- النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي – د. فائز طه عمر دار الشؤون الثقافية العامة –وزارة الأعلام (الطبعة الأولى)بغداد 2000م.
- النثر الفني في القرن الرابع –د. زكي مبارك .ط.دار الجيل –بيروت 1975م.
- نثر النظم وحلّ العقد –أبو منصور الثعالبي (ت 429هـ) ط.دار الرائد العربي –لبنان – بيروت 1403هـ/1983م((سلسلة اللغة والأدب –4–))
- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه –د.عبد الحكيم بلبع مطبعة الرسالة – القاهرة 1375هـ/1955م.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة –أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي (ت هـ) الطبعة الأولى ،مطبعة دار الكتب المصرية –القاهرة 1348هـ/1929م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء –أبو البركات عبد الرحمن بن محمد ابن الأنباري (ت577 هـ)تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم –ط .دار نهضة مصر القاهرة ت– مطبعة المدني (د.ت).
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة –القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي (ت384هـ).تحقيق :عبود الشالجي المحامي ،ط.دار صادر للطباعة والنشر –بيروت 1391هـ/1971م.
- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب –د.أمجد الطرابلسي (الطبعة الثالثة) .نشر وتوزيع المكتبة العربية بحلب ،1386هـ/1966م.
- نظرية الأدب –أوستن وارين –رينيه ويليك،ترجمة :محيي الدين صبحي –مراجعة د.حسام الخطيب ، مطبعة خالد الطرابيشي 1392هـ/1972م(الطبعة الثالثة).
- نظرية البنائية في النقد الأدبي –د.صلاح فضل دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد 1987م.(الطبعة الثالثة).
- النقد الأدبي –وليم فان أوكونور –ترجمة :صلاح أحمد إبراهيم دار صادر –دار بيروت للطباعة والنشر –بغداد 1960م.
- النقد التاريخي – المدخل إلى الدراسات التاريخية –لآنجلوا –وسينوبوس –ترجمة : د.عبد الرحمن بدوي .الطبعة الرابعة ،الناشر : وكالة المطبوعات –الكويت 1981م.
- نقد الشعر –أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي (ت337هـ) تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي –دار الكتب العلمية –بيروت (د.ت)
- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري – د. نعمة رحيم العزاوي – دار الحرية للطباعة والنشر – بغداد 1978م.
- نقد النثر – المنسوب إلى قدامة بن جعفر – تحقيق د. طه حسين – و د. عبد الحميد العبادي – مطبعة مصر – القاهرة 1938م(الكتاب جزء من كتاب البرهان)

- النكت في إعجاز القرآن –للرماني (أبو الحسن علي بن عيسى (ت386هـ)) وهو ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله – ومحمد زغلول سلاّم ،ط.دار المعارف بمصر – القاهرة (د.ت).
- نهاية الأرب في فنون الأدب – أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ) الأجزاء الثمانية عشر الأولى مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية – القاهرة 1342هـ/1924م.
- –الجزء التاسع عشر حققه محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة 1976م.
- –الجزء العشرون بتحقيق رفعت فتح الله –القاهرة 1975م.
- الهوامل والشوامل –أبو حيان التوحيدي –وأبو علي مسكويه تحقيق الأستاذين : أحمد أمين –والسيد أحمد صقر ،ط.لجنة التأليف والترجمة والنشر –القاهرة 1951م.
- وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي – د.حياة جاسم – مطبعة الجمهورية – بغداد 1972م.
- وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان –أبو العباس محمد بن محمد ابن أبي بكر ابن خلكان (ت 681هـ) تحقيق : د. إحسان عباس .ط .دار الثقافة –بيروت – مطابع دار صادر 1972.
- وفيات الأعيان – ابن خلكان (طبعة أخرى) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد –مصر –القاهرة 1948م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر –أبو منصور الثعالبي تحقيق وشرح :د. مفيد محمد قميحة ،ط.دار الكتب العلمية –لبنان –بيروت 1403هـ/1983م (الطبعة الأولى).

- **الرسائل الجامعية والبحوث المنشورة في الدوريات :**

- أبو إسحاق الصابي ..حياته وأدبه – مهدي صالح البدري ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة بغداد– كانون الثاني 1976م.
- أبو بكر الخوارزمي ... حياته وأدبه – محمود صالح الضمور ،رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة بغداد ، كانون الأول 1976م.
- أبو بكر الصولي ناقداً – صبحي ناصر حسين رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة بغداد كانون الأول 1974م.
- الثعالبي ناقداً وأدبياً – محمود عبد الله الجادر رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة بغداد أيلول 1974م.
- الشعر والشعراء في البصرة في القرن الثالث – أحمد جاسم النجدي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة بغداد تشرين الثاني 1972م.
- عبد الحميد الكاتب ...حياته وأدبه – مريم عبد الحسين مجبل التميمي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية للبنات – جامعة الكوفة أيلول 1998م.
- سهل بن هارون بين الترجمة والتأليف (بحث) غانم جواد رضا مجلة اللسانيات العدد 2 السنة الثانية 1422هـ/2001م.
- شعر الببغاء – جمع وتحقيق : هلال ناجي – مجلة المجمع العلمي العراقي الجزء الثاني / المجلد الرابع والثلاثون .جمادي الآخرة 1403هـ/نيسان 1983م.
- الصورة الفنية في القصيدة العراقية الحديثة – (بحث) د. عناد غزوان .مجلة الأقلام –العددان 12،11،بغداد1987م.